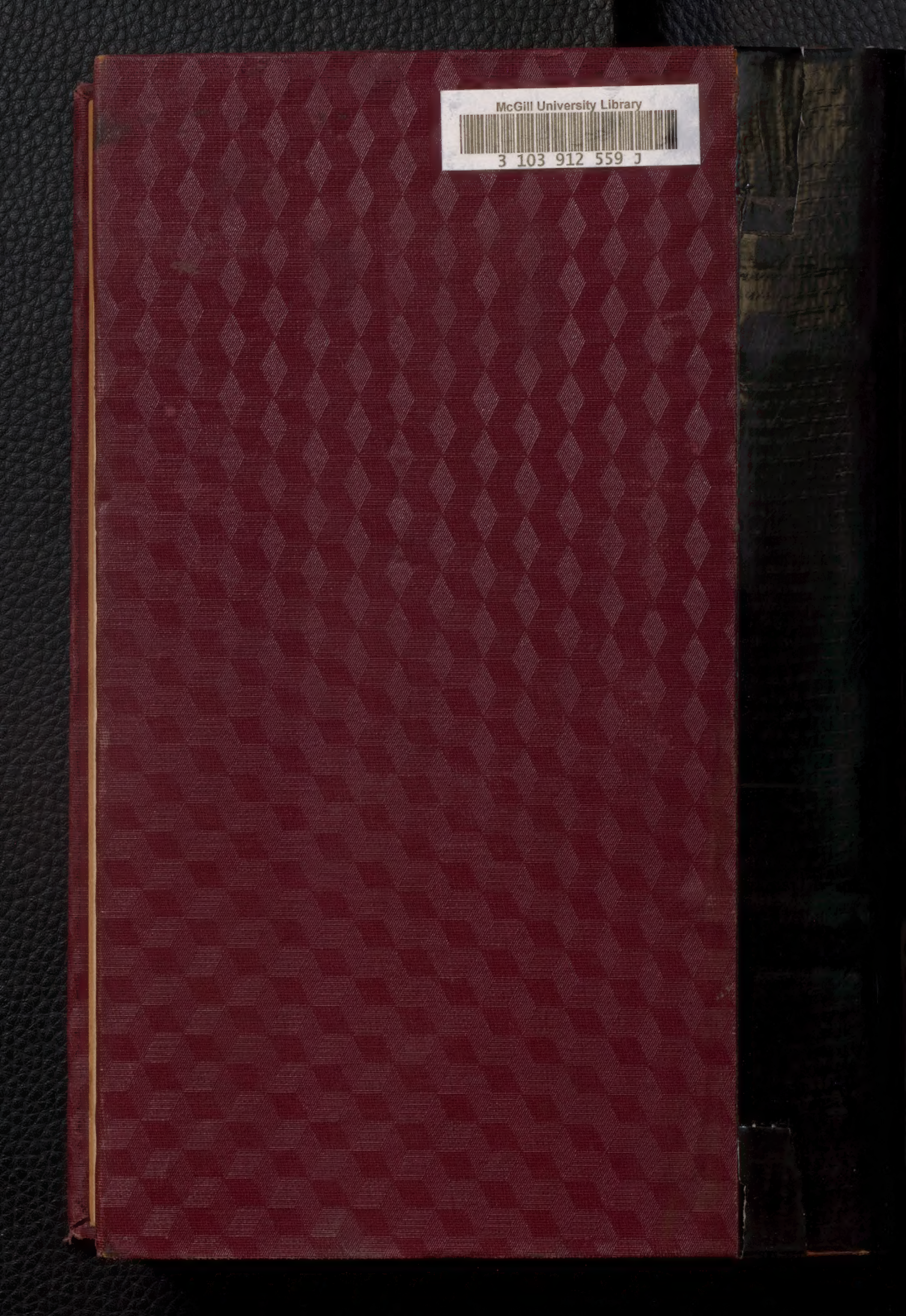
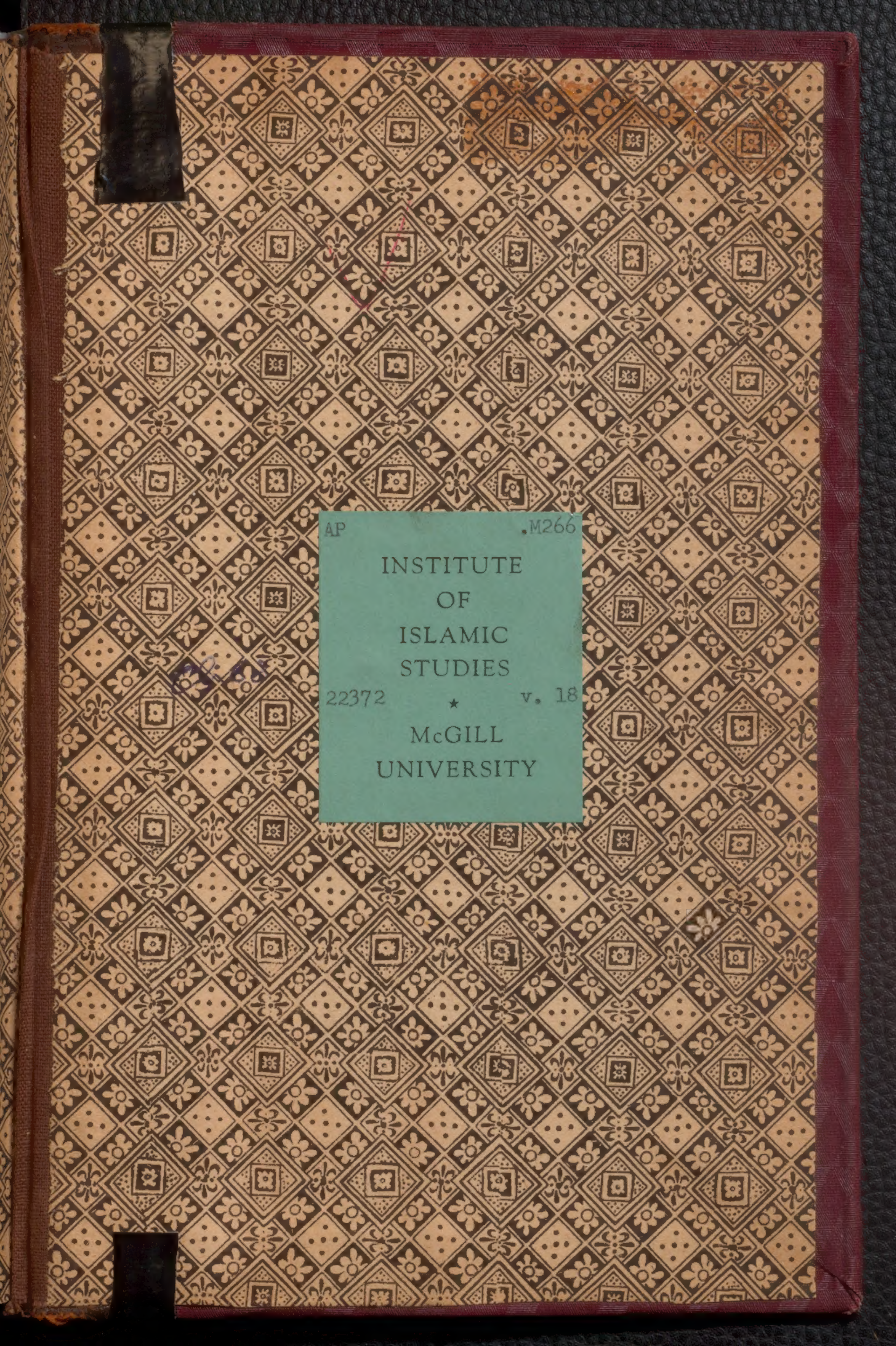
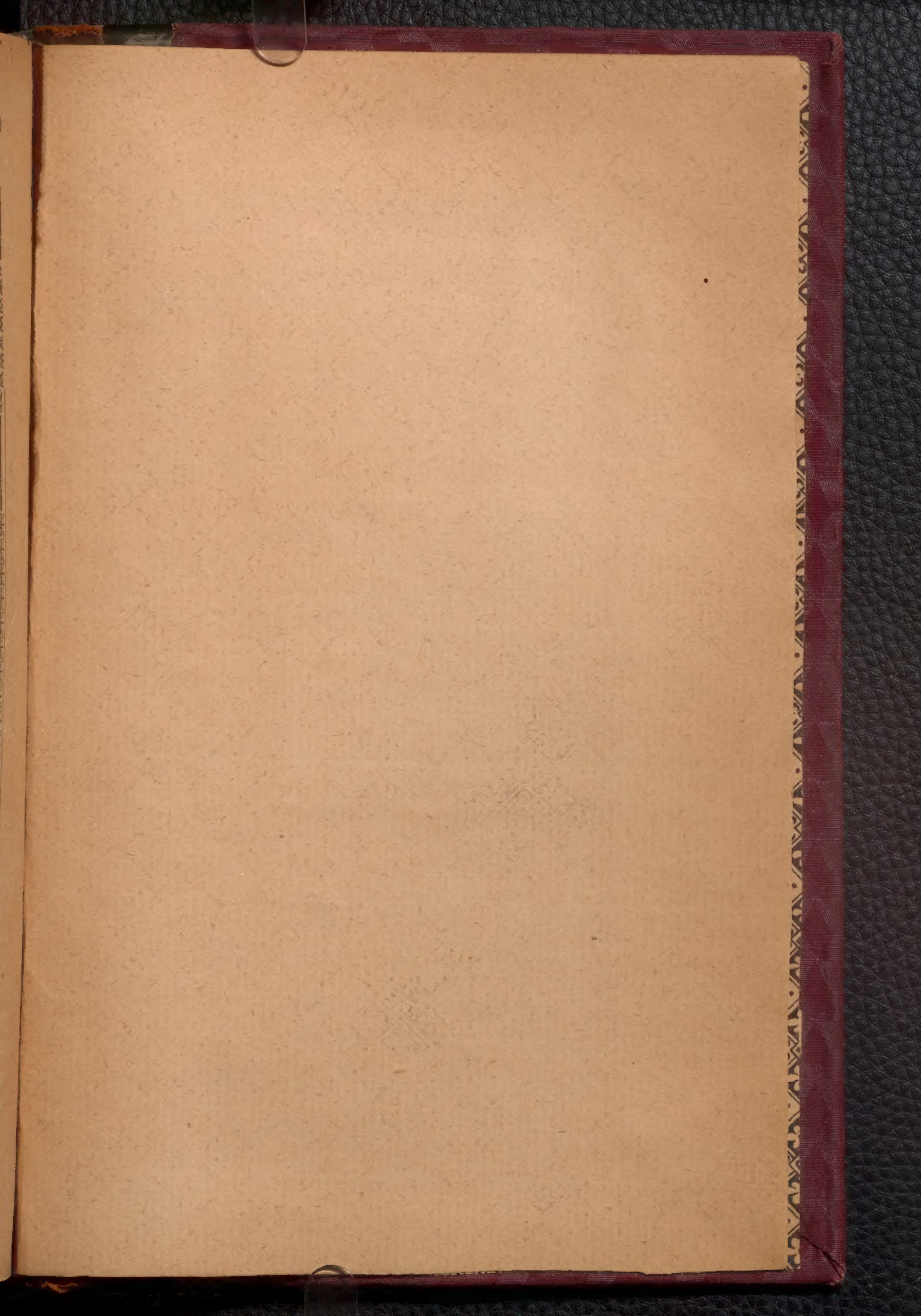

McGill University Library
3 103 912 559 J


AP .M266
INSTITUTE
OF
ISLAMIC
STUDIES
22372 ★ v. 18
McGILL
UNIVERSITY





المنار

١٣١٥

مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران

لمنشئها

السيد محمد رشيد رضا

ناظر مدرسة دار الدعوة والارشاد

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

المجلد الثامن عشر

سنة ١٣٣٣ هـ ق ١٢٩٣ — ١٢٩٤ هـ ش

قيمة الاشتراك عن سنة ثمانون قرشاً صحيحاً في مصر والسودان
وفي المملكة العثمانية أربعة ريالات وفي الخارج ٢٣ فرنكا و٥٩ سانتيما
و١٤ روبية في الهند و٩ روايل في روسية والدفع سلفاً

الطبعة الاولى

(حقوق إعادة الطبع والترجمة للكل أو البعض محفوظة لمنشىء المجلة)

مطبعة المنار بمصر

﴿ فهرس عام لجميع المواد التي وردت في المجلد الثامن عشر ﴾

هذا الفهرس يشمل أكثر المسائل المهمة في هـذا المجلد . والاصفار التي عن يسار الارقام فيـه تشير الى أن المسألة مكررة في ذلك السياق . ويليه فهرس لابواب المجلة وفهرس للمطبوعات وآخر لاسماء الكتاب، وقدراعينا الترتيب الهجائي في الكلمة الثانية اذا كانت الكلمة التي قبلها تماثلها وأهملنا الترتيب في حروف العطف والجر وقدمنا المعرف

ا

خ

ض - ط - ظ

ع

الفهرس الثاني لابواب المجلة

الاخبار والآراء

الفهرس الثالث للمطبوعات

الفهرس الرابع

لاسماء من لهم كتابات في هذا المجلد



جدول للخطإ والصواب

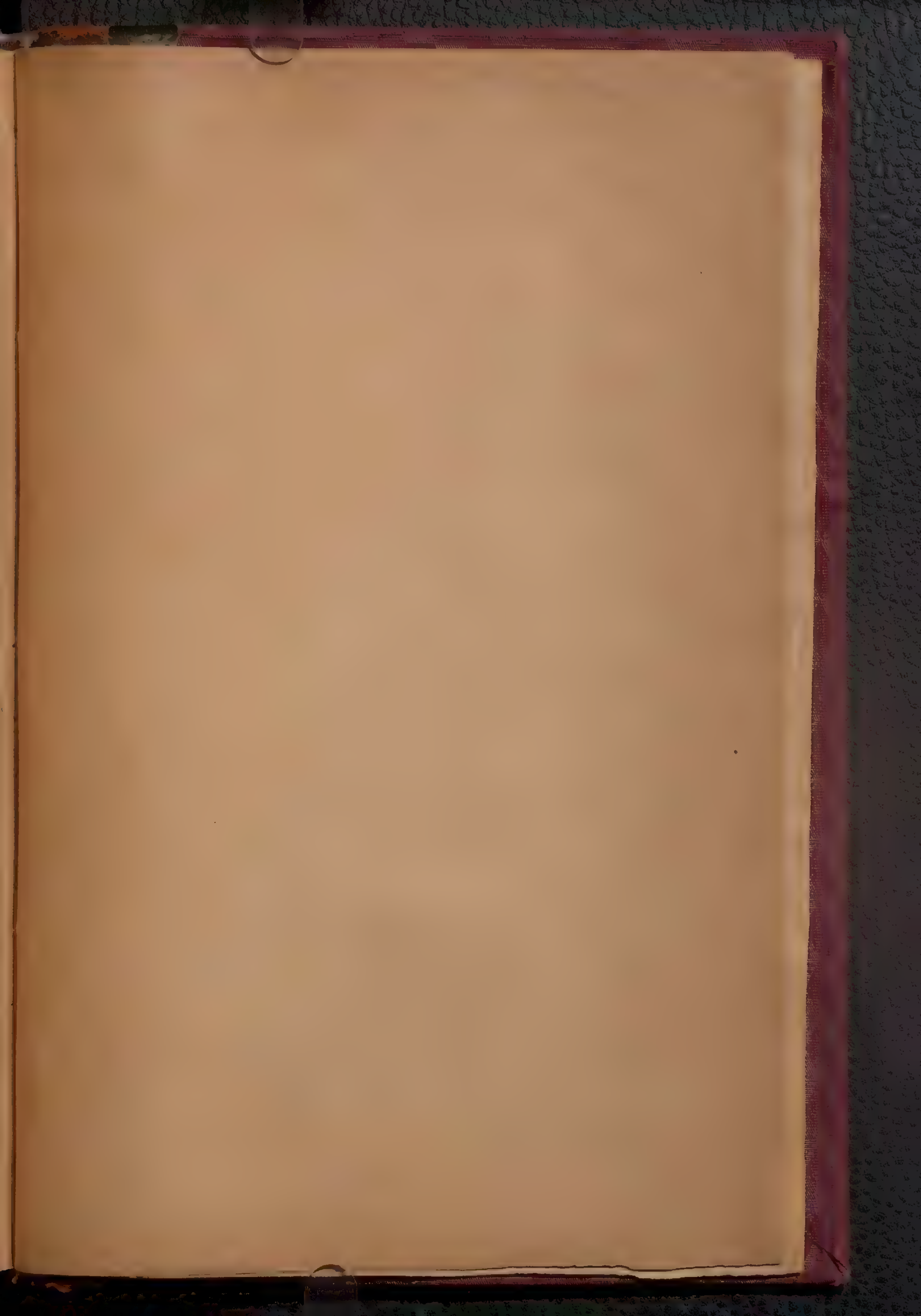
عثرنا أثناء مراجعة الفهرس على خطإ مطبعي معظمه في رسم وضبط الكلمات القرآنية

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٤١	٤	والقلائد	والقلٰئِدَ
٢٤٣	٤	الثمرات	من الثمرات
٢٤٥	٢٣	أعجبكَ	أعجبكَ
٢٤٦	١	ياءُولي	يٰأُولي
٢٥٠	٥	ياءَيها	يٰأَيها
٣٢١	٣	كون كثرة الزيادة	أن الزيادة
»	٤	مخل	مما يخل
٤٦٩		طبعت خطأ ٥٦٩	
٤٨٠	١٦	٢٣٢	٢٤٣
٤٩٠	١٩	سائبةِ	سائبةٍ
٤٩٧	١٩	فيُنَبِّئُكم	فيُنَبِّئُكُمْ
٦١٦	١	الحراة	الحرارة
٧٢١	٣	ءَانتَ	ءَأنتَ
»	٦	عَلمُ	عَلّمُ
٧٩٩	٢١	صوريون	صوريين

﴿ تنبيه ﴾

في السطر الاول من الجدول الثالث من الصفحة الاولى من الفهرس خطأ صوابه «من أهل الكلام والتصوف»

راجع التصحيح الموجود في آخر الجزء السادس ص ٤٨٠ مع ملاحظة أن العدد ٢٣٢ الموجود في السطر الـ ١٦ خطأ صوابه ٢٤٣





قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر ٢٩ ربيع الانور ١٣٣٣ ٢٥ الدلو (ش ٢) ١٢٩٣ هـ ش ١٤ فبراير ١٩١٥

فاتحة السنة الثامنة عشرة للمنار

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدّك، وجل ثناؤك، ولا إله غيرك، (٣: ٢٦ قُلِ اللهمَّ مالكَ الملكِ تُؤْتي الملكَ مَنْ تشاء، وتَنْزِعُ الملكَ مِمَّنْ تشاء، وتُعِزُّ مَنْ تشاء، وتُذِلُّ مَنْ تشاء، بِيَدِكَ الخيرُ إنكَ على كُلِّ شيْءٍ قدير

سبحانك اللهمَّ وبحمدك، ما أعدل حكمك! وما أجلّ حكمتك! وما أوسع علمك! وما أنفذ مشيئتك! (قُلِ اللهمَّ فاطرَ السموات

22372

والأرض عالمَ الغيب والشهادة أنتَ تحكمُ بينَ عبادك فيما كانوا فيه يختلفون)

سبحانك اللهمَّ وبحمدك، لانحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، أسبغت النعم ظاهرة وباطنة، وأفضت أنوار الكرم بارزة وكامنة، ووهبت العقول والمشاعر، وبينت السنن والشعائر. وأكملت هداية الدين: ببعثة محمد خاتم النبيين، فصل وسلم اللهم عليه وعلى آله الأئمة الطاهرين، وأصحابه الهادين المهديين

اللهم ان نعمك لا تحصى وقد كفرها الكافرون، وان صراطك المستقيم لايخفى وقد تنكّبه الضالون، وان حكمك لهو الحق وان عمي عنهُ المبطلون، وان عدلك لهو القسطاس وان جهله الظالمون، (٧ : ٣٣ وَلكلِّ أمة أجَلٌ فاذا جاء أجلُهم لا يَستأخِرونَ ساعةً ولا يَستقدمون * ١٨ : ٦٥ حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هُم يجأرُون ٦٦ لاتجأروا اليومَ إنكم مِنا لاتُنصَرُون)

ربنا إنك آتيت أقواما الغنى فطغوا وفسقوا عن أمرك، وآتيتهم القوة فبغوا في أرضك، ربّنا ليُضلوا عن سبيلك، بما أعرضوا عن دليلك، (١٠ : ٨٨ ربنا اطمسْ على أموالهم واشدُدْ على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروُا العذابَ الأليم * ١٧ : ٤٤ بل متّعْنا هؤلاء وآباءَهم حتى طال عليهم العُمُرُ، أفلا يرون أنّا نأتي الارض ننقصُها من أطرافها؟ أفهمُ الغالبون؟)

ياأيها الناس لاخير في الحضارة المدنيـة، اذا اقيمت على قواعد

الأَثرة والقوة المادية ، ولا خير في العلم ولا في العمران ، اذا كانا وسيلة لاستعباد الانسان لأخيه الانسان ، أفلا يعلم الذين جعلوا الحق كله للقوة ، ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ، وانه بعباده رؤف رحيم وإنما يرحم الراحمين ؟ وانه يأمر بالعدل والاحسان وخص بمحبته المحسنين ؟ (٤٠ : ٨٢ أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أشدَّ منهم قوة وآثاراً في الارض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * ٢٩ : ٩ أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمَروها أكثرَ مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)(*) (٣٨: ٩ أمْ عندهم خزائنُ رحمة ربك العزيز الوهّاب ١٠ امْ لهمْ ملك السموات والارضِ وما بينهما فليرتقوا في الاسباب ١١ جُندٌ ما هنالك مهزومٌ من الأحزاب)

(٤ : ١ ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة *٤٩: ١٣ يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائلَ لتعارفوا) لا لتتناكروا وتتخالفوا ، (٤٥ : ١٢ وسخر لكم ما في السموات وما في الارض) لتشكروا لا لتكفروا ، ولتصلحوا لا لتفسدوا ، وليس الإصلاح في الاستعانة بقوى الموادّ وخواص الاشياء ، على إفساد أمر الناس الذين خلق الله لهم جميع الاشياء ، وانما الإصلاح كل

(*) لايحول دون الاعتبار بهاتين الآيتين هنا نزولهما في قوم كانوا أقل ممن قبلهم قوة وكسبا وعمرانا وآثارا في الارض وكونهما لا تنطبقان من بعض الوجوه على بعض الامم المغرورة بقوتها وعمرانها في هذا العصر ـ فالعبرة واحدة

الإصلاح ، أن تستعينوا بما آتاكم الله من العلم والعرفان ، وما هدا كم اليه من تسخير القوى الكامنة في الاجسام ، على جعل منافعها شرعاً بين جميع الناس ، وجعل الغاية منها ايصال الشعوب كلها الى ما يمكن من الكمال . وان الإفساد كل الإفساد ، ان تحتكر الشعوب العالمة منافع العلم ، وتجعله ذريعة لبغي بعضها على بعض ، واستذلال الشعوب الضعيفة في الارض، وتسخيرها لخدمتها كما تسخر الحيوان الاعجم ، بل هم اشد اهانة لمن كرم الله واكثر تذليلا (١٧: ٧٠ ولقد كرَّمنا بني آدمَ وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا * ـ ١٦ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القولُ فدمَّرناها تدميرا)

يا أيها الانسان، اتق الله في أمر أخيك الانسان، ولا تستعل على من فضلك عليه بالعلم والمال، فقد خلت من قبلكم القرون والاجيال، (١٤: ٤٤ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيَّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال ـ ٢٨: ٦٧ إنَّ قارُونَ كانَ مِن قَومِ موسى فبغى عليهم وآتيناهُ مِن الكنوزِ ما إنَّ مفاتحهُ لتنوءُ بالعُصبةِ أولي القُوَّةِ، إذ قالَ لهُ قومُهُ لا تفرح إنَّ اللهَ لا يُحبُّ الفرحينَ (٧٧) وابتغِ فيما آتيكَ اللهُ الدَّارَ الآخرةَ ولا تنسَ نَصيبكَ مِنَ الدُّنيا وأحسن كما أحسنَ اللهُ إليكَ ولا تبغِ الفسادَ في الأرضِ إنَّ اللهَ لا يُحبُّ المفسدينَ (٧٨) قالَ إنما أُوتيتهُ على عِلمٍ عندي، أوَ لم يَعلم أنَّ اللهَ قد أهلكَ من قبلِه من القُرونِ من هوَ أشدُّ منهُ قُوَّةً وأكثرُ جمعاً؟ ولا يُسئلُ عن ذنوبِهم المجرمونَ

(٧٩) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٨٠) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨١) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨٢) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ، لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا، وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٣) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

يا أيها المغرورون بالعلم والقوة ، قد عرفتم القوى المادية، فلا تنسوا القوة المعنوية ، يا أيها المغرورون بعرفان السنن الكونية والاجتماعية ، لا تنكروا سنن العدالة الإلهية ، (٣ : ١٣٦ قد خلتْ من قبلكم سُنَن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبةُ المكذّبين * ١١ : ١١٨ وما كان ربُّك ليُهلك القُرَى [1] بظلم وأهلها مُصلحون * ـ ٢٨ : ٥٩ وما كُنَّا مُهلكي القُرى الا وأهلها ظالمون ٧ : ٩٩ أوَلم يَهد للَّذين يَرِثُون الأَرضَ من بَعْدِ أَهلها أَنْ لَوْ نشاء أصبناهم بِذُنوبهم ، ونَطْبعُ على قلوبهمْ فهُمْ لا يَسمَعُونَ

واما أنتم يا معاشر المستضعفين والمظلومين، فما زلتم شرًّا على أنفسكم

(١) القرى والمدن العواصم والمراد هنا الامم

من الاقوياء العادين ؛ لا نعم الله شكرتم ، ولا دين الفطرة أقمتم ؛ لا سنن الله في الكون عرفتم ، ولا على سننه في ارتقاء البشر سرتم ؛ لا بالقوى المادية انتفعتم ، ولا بالقوى المعنوية اعتصمتم ، فما ظلمكم الله ولا الناس ولكن أنفسكم ظلمتم . تطالبون ربكم بما وعد به المؤمنين ، ولا تطالبون أنفسكم بما فرضه وما شرطه على المؤمنين ، (٣ : ١٥٢ ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر) حرمكم بمخالفة كتابه وسننه في عباده ذلك النصر ، (٨ : ٤٧ واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) (٣ : ١٣٨ وتلك الايام نداولها بين الناس * ٢٧ : ٥ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)

ياقوم ! طالما أنذركم المنار على رؤوس السنين والاحوال ، سوء عاقبة ما أنتم عليه من التفريط والغرور والاهمال ، وطالما فصل لكم في أعقاب الشهور ، ما تخرجون به من الظلمات الى النور ، مبينا لكم بآيات القرآن ، وأقيسة الميزان ، وسنن الله في سيرة الانسان ، أن الامر ليس بالأماني والاحلام ، ولا بمجرد الانتساب الى الاسلام ، وانما هو بالاخلاق والاعمال ، والعدل والاعتدال ، التي بالايمان تبلغ درجات الكمال ، وانما الخلافة في الارض بالصلاح والاصلاح ، والمؤمن المصلح يرجح المصلح الكافر بالايمان ، (٢١ : ١٠٥ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون * ١٤ : ١٣ فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ١٤ ولنسكننكم الارض من بعدهم * ٧ : ١٢٧ وعد الله الذين

آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ٧: ١٢٧ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين)

نعم طالما حذركم المنار وأنذركم ، بل طالما ذكركم بنذر ربكم ، وبسننه في الذين معكم والذين خلوا من قبلكم ، فتماريتم بالنذر ، وتعللتم بالقضاء والقدر ، وانما يعتذر بالقدر من يبرئ نفسه ، ويتهم ربه ، على أنكم تدعون ربكم ان يبدل فيكم سنته ، ويبطل لأجلكم حكمته ، وينصركم بالاستبداد الأنف ، وقطع أسباب القدر ، وقد تلوتم ما نزل في حنين وأحد ، إذ نزل بخير سلفكم ما نزل ، جزاء العجب والخلاف والفشل ، وفيهم خاتم الانبياء والرسل ، أإسلامكم خير من اسلامهم ، أم لكم براءة في الزبر ، (كلا والقمر ، والليل إذ أدبر ، والصبح إذا أسفر ، إنها لإحدى الكبر ، نذيراً للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر)

نعم ان لله في خلقه آيات ، وان لربكم في أيام دهركم نفحات ، وان له تعالى رحمة خاصة لدنية ، تتخلل سننه الاجتماعية ، « وان الله تعالى ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر »[١] « وان الله تعالى ليؤيد الاسلام برجال ماهم من أهله »[٢] ولكن الله تعالى لا يؤيد بخوارق الآيات ، من أعرض عن السنن وآيات القرآن ، ولا يمد بالنفحات والرحمة الخاصة ، من استحق الحرمان من معظم الرحمة العامة ، ألا وان تأييد الله الاسلام

(١) حديث رواه الطبراني عن عمرو بن النعمان بن مقرن وعلم عليه السيوطي في جامعه بالصحة (٢) حديث رواه الطبراني عن عبدالله بن عمرو بسند ضعيف

بغير اهله، اكبر حجة على جميع من يُعدون من اهله، ولا سيما اذا أصروا على خذل انفسهم بخذله، افلا يعلم من لاخير له في نفسه من نفسه، أن لاخير يرجى له من غيره؟ (٣٦:٥٣ ام لم يُنبَّأ بما في صُحُفِ موسى ٣٧ وابراهيمَ الذي وفّى ٣٨ ألاَّ تزرُ وازرةٌ وزرَ أُخرى ٣٩ وأنْ ليس للإنسان إلاَّ ما سعى)

يجب علينا معاشر المسلمين أن ننصف من أنفسنا، قبل أن ننتصف أو نستنصف من الأَجانب عنا ـ وأن نستجيب لله وللرسول اذا دعانا لما يحيينا، قبل أن ندعوه أن يستجيب لنا ويؤتينا ما وعدنا ـ وأن نشكر نعم ربنا التي أعطى من غير استحقاق لها، قبل أن نسأله حفظها أو المزيد منها بدون قيام بحقها ـ وأن نعلم أن الله تعالى لايستجب الدعاء بلسان المقال، الا اذا كان دعاء بلسان الاستعداد والحال، (١٣ ١٢ إنَّ اللهَ لا يُغيّرُ ما بِقوم حتى يُغيِّرُوا ما بأَنفُسهم، وَإذا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فلَا مَرَدَّ لهُ وَما لهم مِن دُونهِ من والٍ)

إنني أذكر في فاتحة السنة الثامنة عشرة للمنار، بما طالما فصلت فيه القول في السنين الخوال، إننا نحن مسلمي هذا العصر، لا نستحق على الله تعالى نصيبا من الملك، ولا خلافة في شيء من الارض، لابحسب سننه في خلقه، ولا بمقتضى وعده في كتابه، فاذا أعطى شيئا أو أبقى، فتلك عنايته تعالى وفضله لا مما جعله وعدا عليه حقا، وإن الله تعالى ليبلو عباده بالحسنات، كما يبلوهم بالسيئات، ليبلوهم أيهم أحسن عملا، فيكون أحسن جزاء وخيرا أملا (١٨: ٥٥ ولَقَدْ صرَّفنا في هذا القرآنِ للناسِ من كلِّ مثَلٍ وكانَ الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جدَلا ـ ٥٩ وربُّكَ

الغفورُ ذُو الرحمة، لو يؤاخذُهم بما كسبوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ، بل لهم مَوْعِدٌ لن يَجدُوا من دُونه مَوْئِلا)

هذا وإن آية المؤمن أن يحمد الله في السراء والضراء، ولا ييأس من روح الله مهما اشتدت الأهوال والأرزاء، ويعلم أن ما أصابه من حسنة فمن فضل ربه، وما أصابه من سيئة فمن نفسه وسوء كسبه، فيحدث عند الحسنة شكرا، ويحدث عند السيئة توبة وذكرى (٢٢ : ١١ ومن الناس من يعبُدُ الله على حَرْفٍ، فإنْ أصابه خَيْرٌ اطْمأنَّ به، وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسرانُ المبين)

٧ : ٢٢ رَبَّنا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنا وإنْ لم تَغفرْ لنَا وَتَرحَمْنَا لنَكونَنَّ مِنَ الخاسرينَ - ١٠ : ٨٥ رَبَّنا لا تجعلنا فِتْنَةً للقومِ الظالمين ٨٦ ونَجّنا برحْمَتكَ منَ القَوْمِ الكافرينَ - ٢ : ٢٨٧ رَبَّنا لا تُؤاخذْنا إنْ نسينا أَوْ أَخطأنا. رَبَّنَا ولا تَحملْ علينا إصراً كما حملته على الَّذينَ مِنْ قبلنا . . .

٢ : ٢٠٠ رَبَّنا آتنا في الدُّنيا حَسَنَةً وفي الآخرةِ حَسَنَةً وقنا عذابَ النار

٣ : ١٩٤ رَبَّنا وآتنا ما وَعَدْتَنا على رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنا يومَ القيامة إنكَ لاَ تُخْلفُ الميعادَ

٧ : ٨٩ رَبَّنا افتحْ بيْنَنا وبين قَوْمِنَا بالحقِّ وأنتَ خيْرُ الفَاتحينَ

٣٩ : ٧٥ وقُضيَ بَيْنَهُمْ بالحقِّ وقيلَ الحمدُ لله ربِّ العالمين

منشئ المنار ومحرره
محمد رشيد رضا

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٩٣) يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلم رجس من عمل الشيطن فاجتنبوه لعلكم تفلحون (٩٤) إنما يريد الشيطن أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلوة . فهل أنتم منتهون (٩٥) وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين (٩٦) ليس على الذين آمنوا وعملوا الصلحت جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصلحت ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، والله يحب المحسنين

تقدم في تفسير آية البقرة (٢: ٢١٩ يسألونك عن الخمر والميسر) أن الله تعالى حرم الخمر بالتدريج وصدرنا الكلام هنالك بحديث أبي هريرة عند الامام احمد في ذلك كما رواه السيوطي في أسباب النزول مختصرا. وروي في سبب نزول آيات المائدة ان سعد بن أبي وقاص (رض) قال : فيّ نزل تحريم الخمر — صنع رجل من الأنصار طعاما فدعانا فأتاه ناس فأكلوا وشربوا حتى انتشوا من الخمر وذلك قبل تحريم الخمر، فتفاخروا فقالت الانصار : الانصار خير. وقالت قريش : قريش خير. فأهوى رجل بلحي جزور [1] فضرب على انفي ففزره — فكان سعد مفزور الانف — قال فأتيت النبي (ص) فذكرت له ذلك فنزلت هذه الآية : « يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر » الآية رواه ابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم

(١) اللحي بفتح فسكون منبت الاسنان والجزور ما يجزر من النعم أي يذبح ويجزأ . أي ضربه بفك رأس الشاة مثلا

وابن مردويه وابن النحاس في ناسخه، وروى الطبراني عنه انه نادم رجلا فعارضه فعربد عليه فشجه فنزلت الآيات في ذلك

وعن ابن عباس قال: انما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الانصار: شربوا فلما ان ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه وبرأسه ولحيته فيقول: صنع بي هذا أخي فلان — وكانوا أخوة ليس في قلوبهم ضغائن — والله لو كان رءوفا رحيما ماصنع بي هذا. حتى وقعت الضغائن في قلوبهم فأنزل الله هذه الآية « ياأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر - الى قوله - فهل أنتم منتهون) فقال ناس من المتكلفين: هي رجس وهي في بطن فلان قتل يوم بدر، وفي بطن فلان قتل يوم أحد؟ فأنزل الله « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي

وفي مسند احمد وسنن ابي داود والنسائي والترمذي ان عمر كان يدعو الله تعالى: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا. فلما نزلت آية البقرة قرأها عليه النبي (ص) فظل على دعائه، وكذلك لما نزلت آية النساء. فلما نزلت آية المائدة دعي فقرئت عليه. فلما بلغ قول الله تعالى (فهل أنتم منتهون) قال انتهينا انتهينا

والحكمة في تحريم الخمر بالتدريج ان الناس كانوا مفتونين بها حتى انها لو حرمت في أول الاسلام لكان تحريمها صارفا لكثير من المدمنين لها عن الاسلام بل عن النظر الصحيح المؤدي الى الاهتداء به لانهم حينئذ ينظرون اليه بعين السخط فيرونه بغير صورته الجميلة، فكان من لطف الله تعالى وبالغ حكمته أن ذكرها في سورة البقرة بما يدل على تحريمها دلالة ظنية فيها مجال للاجتهاد ليتركها من لم تتمكن فتنتها من نفسه (راجع ٣٣ ج ٢) وذكرها في سورة النساء بما يقتضي تحريمها في الاوقات القريبة من وقت الصلاة، اذ نهى عن قرب الصلاة في حال السكر. فلم يبق للمصر على شربها الا الاغتباق بعد صلاة العشاء وضرره قليل. وكذا الصبوح من بعد صلاة الفجر لمن لا عمل له ولا يخشى ان يمتد سكره الى وقت الظهر، وقليل ماهم. وكان شيخنا يرى ان آية النساء نزلت قبل آية البقرة. ثم تركهم الله تعالى على

هذه الحال زمنا قوي فيه الدين، ورسخ اليقين، وكثرت الوقائع التي ظهرت لهم بها إثم الخمر وضررها، ومنه كل ماذكر في سبب نزول هذه الآيات

أخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت في البقرة « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس) شربها قوم لقوله « منافع للناس» وتركها قوم لقوله « إثم كبير » منهم عثمان بن مظعون . حتى نزلت الآية التي في النساء (٤ :٤٣ لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فتركها قوم وشربها قوم يتركونها بالنهار حين الصلاة ويشربونها بالليل، حتى نزلت الآية التي في المائدة « انما الخمر والميسر » الآية قال عمر : أقرنت بالميسر والانصاب والازلام ؟ بعدًا لك وسحقا. فتركها الناس، ووقع في صدور اناس من الناس منها، فجعل قوم يمر (؟) بالراوية من الخمر فتخرق فيمر بها أصحابها فيقولون : قد كنا نكرمك عن هذا المصرع . وقالوا ماحرم علينا شيء أشد من الخمر، حتى جعل الرجل يلقى صاحبه فيقول : ان في نفسي شيئا. فيقول صاحبه : لعلك تذكر الخمر ! فيقول نعم، فيقول ان في نفسي مثل مافي نفسك ، حتى ذكر ذلك قوم واجتمعوا فيه فقالوا : كيف نتكلم ورسول الله (ص) شاهد (أي حاضر) وخافوا ان ينزل فيهم (أي قرآن) فأتوا رسول الله (ص) وقد أعدوا له حجة فقالوا : أرأيت حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعبدالله بن جحش. أليسوا في الجنة ؟ قال « بلى » قالوا : أليسوا قد مضوا وهم يشربون الخمر ؟ فحرم علينا شيء دخلوا الجنة وهم يشربونه ؛ فقال قد سمع الله ماقلتم فان شاء أجابكم » فأنزل الله « انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟ » فقالوا انتهينا . ونزل في الذين ذكروا حمزة وأصحابه « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » الآية. ولاصحاب التفسير المأثور روايات أخرى في سبب النزول وما كان من اجتهاد بعض الصحابة في آيتي البقرة والنساء. وقد بينا وجهه في تفسير آية البقرة. ومنه حديث لابي هريرة وآثار سيأتي بعضها في سياق تفسير الآيات :

﴿ ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ﴾ (الخمر) كل شراب مسكر ، وهذه التسمية لغوية وشرعية . وقيل شرعية

فقط . وهو قول ضعيف ، وقيل ان الخمر ما اعتصر من ماء العنب اذا اشتد .
وهذا أضعف مما قبله ولا دليل على هذا الحصر من اللغة ولا من الشرع ، وقد بيّنا ذلك في تفسير آية البقرة (ص ٣٣١ ج ٢)

ومن أحسن مارد به على أصحاب هذا القول وأخصره قول القرطبي : الاحاديث الواردة عن أنس وغيره على صحتها وكثرتها تبطل مذهب الكوفيين القائلين بأن الخمر لا يكون الا من العنب ، وما كان من غيره لا يسمى خمرا ولا يتناوله اسم الخمر ، وهو قول مخالف للغة العرب وللسنة الصحيحة وللصحابة ، لانهم لما نزل تحريم الخمر فهموا من الامر بالاجتناب تحريم كل مايسكر ولم يفرقوا بين مايتخذ من العنب وبين مايتخذ من غيره ، بل سووا بينهما وحرموا كل مايسكر نوعه ولم يتوقفوا ولم يستفصلوا ولم يشكل عليهم شيء من ذلك . بل بادروا الى إتلاف ما كان من غير عصير العنب ، وهم أهل اللسان ، و بلغتهم نزل القرآن ، فلو كان عندهم تردد لتوقفوا عن الاراقة حتى يستفصلوا و يتحققوا التحريم . وقد أخرج احمد في مسنده عن ابن عمر عن النبي (ص) قال : « من الحنطة خمر ومن الشعير خمر ومن التمر خمر ومن الزبيب خمر ومن العسل خمر » وروى أيضا انه خطب عمر على المنبر وقال : الا ان الخمر قد حرمت وهي من خمسة من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير ، والخمر ماخامر العقل . — وهو في الصحيحين وغيرهما — وهو (أي عمر) من أهل اللغة اه

وقد تعقب هذا بعضهم بأنه يحتمل ان يكون بيانا للاسم الشرعي لا اللغوي ، وهذا التعقيب ضعيف ولا يغني عن الحنفية شيئا ، لأنهم لا يقولون ان المسكر من غير عصير العنب خمر داخل في عموم الآية شرعا . ووجه ضعفه ان لفظ الخمر ليس اسما لعمل شرعي لم يكن معروفا قبل الشرع فلما جاء به الشرع اطلق عليه كلمة من اللغة تتناوله بطريق المجاز ، بل هو اسم لنوع من الشراب يمتاز عن سائر الاشربة بالاسكار . وهذه التسمية معروفة عنهم قبل نزول مانزل من الآيات في الخمر . وقد نزلت آية البقرة جوابا عن سؤال سألوه عن الخمر ، ولم يقل أحد من مفسري السلف ولا الخلف ولا خطر على بال أحد انهم سألوه (ص) عن خمر عصير العنب خاصة ، وانها هي المقصودة بالجواب بأن فيها اثما كبيرا ومنافع للناس ، وان غيرها ألحق بها في التحريم

بطريق القياس ، أو بتفسير النبي والصحابة للخمر الشرعية

وقد بينا في أوردناه آنفا من أسباب النزول انه لم يشق عليهم تحريم شيء كما شق عليهم تحريم الخمر، وان بعضهم كان يود لو يجد مخرجا من تحريمها كما وجد المخرج من آية البقرة الدالة على تحريم الخمر بتسميتها أثما مع تصريح القرآن قبل ذلك بتحريم الإثم ، ولأجله تركها بعضهم،وتفصى منه آخرون بتخصيص الإثم بما كان ضررا محضا لامنفعة فيه، والنص قد أثبت ان في الخمر منافع وقد اهرقوا ما كان عندهم من الخمر عند الجزم بالنهي عنها كما رأيت وكما ترى بعد وقلما كان يوجد عندهم من خمر العنب شيء . فلو كان مسمى الخمر في لغتهم ما كان مسكرا من عصير العنب فقط لما بادروا الى اهراق ما كان عندهم

روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر انه قال : نزل تحريم الخمر وان بالمدينة يومئذ لخمسة اشربة مافيها من شراب العنب شيء. وروى احمد والبخاري ومسلم في صحيحهما عن أنس قال: كنت أسقي أباعبيدة بن الجراح وأبيَّ بن كعب وسهيل بن بيضاء ونفراً من أصحابه عند أبي طلحة (هو زوج أم أنس) حتى كاد الشراب يأخذ منهم فأتى آت من المسلمين فقال : أما شعرتم ان الخمر قد حرمت ؟ فقالوا حتى ننظر ونسأل. فقالوا يا أنس اسكب مابقي في إنائك ، فوالله ماعادوا فيها، وما هي الا التمر والبسر، وهي خمرهم يومئذ.هذا لفظ احمد.وزاد أنس في رواية أخرى أبا دجانة ومعاذ ابن جبل في رهط من الانصار. وفي روايات الصحيحين انه كان يسقيهم الفضيخ، وهو شراب البسر والتمر يفضخان أي يشدخان[1] وينبذان في الماء،فاذا اشتدواختمر كان خمرا، وكان هذا اكثر خمر المدينة كما صرح به انس.وفي رواية لمسلم عنه: كنت ساقي القوم يوم حرمت الخمر في بيت ابي طلحة ـ وما شرابهم الا الفضيخ البسر والتمر ـ فاذا مناد ينادي، فقال اخرج فانظر ، فخرجت فاذا مناد ينادي: ألا ان الخمر قد حرمت. قال فجرت في سكك المدينة . فقال ابو طلحة اخرج فأهرقها ، فهرقتها . الحديث

نعم قد روى النسائي بسند رجاله ثقات عن ابن عباس مرفوعا « حرمت الخمر قليلها وكثيرها والسكر من كل شراب» وقد اختلف في وصله وانقطاعه وفي رفعه ووقفه.

(١) الفضخ كسر الشيء الاجوف والشدخ كسر الشيء الرطب والاجوف وبابهما منع

و بين النسائي علله ومن خالف فيه . ومعناه على تقدير صحته والاحتجاج به أن الاشربة التي شأنها أن يسكر قليلها وكثيرها محرمة لذاتها بالنص سواء كانت من العنب أو الزبيب أو التمر أو البسر أو غير ذلك ، وأما سائر الاشربة التي ليس من شأنها الاسكار كالنبيذ [1] الذي لم يشتد ولم يختمر وهو ماينبذ من تمر أو زبيب أو غيرهما في الماء حتى ينضج ويحلو ماؤه فشربه حلال مالم يصل الى حد الاسكار ، ومن المعلوم ان الانبذة يسرع اليها الاختمار في بعض البلاد كالحارة و بعض الاواني كالقرع والمزفت ، وأن من الناس من يسكر بها عند أدنى تغير يعرض لها أو اذا أكثر منها وان لم تختمر ، ولاجل هذا اختلف العلماء في النبيذ فذهب الجمهور الى انه اذا صار يسكر الكثير منه فشرب القليل منه يكون حراما لسد ذريعة السكر ، وهو انما يسكر كثيره اذا تغير ولو بحموضة قليلة . وذهب بعضهم الى انه لا يحرم منه حينئذ الا المقدار المسكر ، لانه لا يسمى خمرا فيتناوله النص ، فاذا كان مايشرب منه لم يسكر فلا وجه لقياسه على الخمر ، فان صار بحيث يسكر فهو خمر لغة وشرعا كما هو المتبادر من فهم الصحابة للآية ومن تعليل عمر في خطبته لتسمية الخمر بأنه ماخامر العقل ، أو شرعا فقط ، ودلالة الحقيقة الشرعية أقوى من دلالة الحقيقة اللغوية في الاحكام .

وقد قال النبي (ص) « كل مسكر خمر وكل مسكر حرام » رواه مسلم وأبو داود والترمذي من حديث ابن عمر . وفي رواية لمسلم والدار قطني « كل مسكر خمر وكل خمر حرام »

وقد غلط ابن سيده في اقتصاره على قول صاحب العين : الخمر عصير العنب اذا أسكر ، ولعل سبب ذلك ان خمرة العنب كانت كثيرة في زمن تدوين اللغة فصار الاطلاق ينصرف اليها لكثرتها وجودتها . ونقل الصحيحين والمسانيد والسنن بيان معنى الخمر عن الصحابة أصح من نقل جميع اللغويين للغة

ولما لم يجد من اطلع من الحنفية على الاحاديث السابقة ونحوها تفصيا منها للاتفاق على صحة الكثير منها حملوا إطلاق لفظ الخمر فيها على المسكر من غير العنب على مجاز التشبيه كما في فتح القدير ، واستدلوا على ذلك بما رواه البخاري عن ابن

---

(١) هو مايسمى في مصر بالخشاف وفي سورية بالجلاب - والصواب النقيع - واما مايسمى بالنبيذ الآن فهو الخمر المجمع على تحريمها

عمر قال لقد « حرمت الخمر وما بالمدينة منها شيء » وهذه العبارة مبهمة لا يعرف لمن قالها وبأي مناسبة قالها ، فيحتمل ان يكون بعض الناس قد ذكر خمرة العنب فقال ابن عمر ما معناه ان الخمر لما حرمت لم يكن يوجد في المدينة شيء من خمرة العنب وانما كانت خمور أهلها من التمر والبسر في الغالب . وبهذا يجمع بين سائر الاحاديث والآثار التي تقدم بعضها حتى عنه وعن أبيه، والا كانت متعارضة، ويحتمل ان يكون معنى كلامه ان الله حرم الخمر ولاجل هذا لا يوجد في المدينة منها شيء . ولما كانت العبارة محتملة لعدة وجوه سقط الاستدلال بها على ماقالوه. ولا يمكن الجمع بينها وبين ماعارضها بحمل ماخالفها على المجاز، لان تلك العبارات تأبى أن تكون تشبيها كقول عمر في خطبته: ونزل تحريم الخمر وهي من خمسة ـ العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير ، والخمر ماخامر العقل . فهل يمكن ان يقال نزل تحريم خمرة العنب وهي من خمسة أشياء الخ ، أم يمكن أن يقال : نزل تحريم مايشبه الخمر في الاسكار وهو من خمسة أشياء العنب والتمر ، ألا إن هذا لا يقوله أحد يفهم العربية ، وان كان يجيز الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو مالا يجيزه الحنفية

اطلنا هذه الاطالة في بيان حقيقة الخمر ، لانه قد ظهر في الناس من عهد بعيد مصداق ماورد في الحديث من استحلال أناس لشرب الخمر بتسميتها بغير اسمها . وقد اخترع الناس بعد زمن التنزيل أنواعا كثيرة من الخمور أشد من خمرة العنب ضررا في الجسم والعقل باتفاق الاطباء ، وأشد ايقاعا في العداوة والبغضاء وصدا عن ذكر الله وعن الصلاة . والقول بأنه لا يحرم منها قطعا الا ما كان من عصير العنب، وأنه انما يحرم القدر المسكر منه فقط. يجرئ الناس على شرب القليل من تلك السموم المهلكة ، والقليل يدعو الى الكثير فالادمان فالاهلاك ، ففي هذا القول مفسدة عظيمة ، وليس في تضعيفه وترجيح قول جمهور السلف والخلف عليه الا المصلحة الراجحة ، وسد ذرائع شرور كثيرة .

وأما الميسر فهو في أصل اللغة القمار بالقداح في كل شيء كما نقله لسان العرب عن عطاء . وقد بينا الاقوال في اشتقاقه في تفسير آية البقرة (ص ج ٣٣٢ ج ٢) وبينا هنالك معنى القداح التي كانوا يتقامرون بها وهي الازلام والاقلام والسهام

ولذلك عدنا الى بيانها والفرق بين القداح العشر التي يتقامرون بها وبين ما كانوا يستقسمون به للتفاؤل والتشاؤم في تفسير الآية الثالثة من سورة المائدة (ص ٤٧ - ٥١ ج ٦)

كل قمار ميسر محرم بالنص الا ما أباحه الشرع من المراهنة في السباق والرماية. وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (رض) انه قال الشطرنج من الميسر. رواه ابن ابي حاتم . وروى أيضا عن عطاء ومجاهد وطاوس أو اثنين منهم - قالوا كل شيء من القمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز . وروى عن رشدين[1] بن سعد وضمرة بن حبيب قالا : حتى الكعاب والجوز والبيض التي تلعب بها الصبيان، وعن ابن عمر : الميسر هو القمار ، وعن ابن عباس : الميسر هو القمار كانوا يتقامرون في الجاهلية الى مجيء الاسلام فنهاهم الله عن هذه الاخلاق القبيحة . وعن سعيد بن المسيب : كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين (أي من ميسرهم) ذكر ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره

ثم ذكر حديث أبي موسى الاشعري عند ابن ابي حاتم « اجتنبوا هذه الكعاب الموسومة التي يزجر بها زجرا فانها من الميسر » وقال حديث غريب وفسر الكعاب بالنرد. وأقول: الحديث ضعيف، وهو من طريق عثمان بن ابي العاتكة عن علي بن يزيد ، وعلي هذا ضعيف وضعفوا عثمان في روايته عنه

ثم ذكر حديث بريدة بن الحصيب الاسلمي « من لعب بالنرد شير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه » رواه مسلم : ولعل الحكمة في تشبيه اللعب بما ذكر ان المقامرة به كالمقامرة على لحم الخنزير لا على لحم الانعام الذي كانت العرب تقامر عليه في الجاهلية . وأيد هذا بحديث ابي موسى عند مالك واحمد وأبي داود وابن ماجه « من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله » وقد روي مرفوعا وموقوفا على ابي موسى من قوله

ثم ذكر ان ابن عمر قال في الشطرنج انه من النرد، وان عليا قال انه من الميسر،

(١) رشدين بكسر الراء وسكون الشين المعجمة كان رجلا صالحا فأدركته غفلة الصالحين فخلط في الحديث فحكموا بضعفه لذلك

قال: ونص على تحريمه مالك وابو حنيفة واحمد وكرهه الشافعي رحمهم الله تعالى

أقول: ان ماروي عن علي كرم الله وجهه هو الذي بين لنا وجه ماورد في النرد (وهو المسمى الآن بالطاولة) من الحديث، وهو انه كان من لعب القمار. ويؤيده التشبيه الذي بينا حكمته في حديث مسلم. والظاهر ان من حرم الشطرنج حرمه من حيث كونه قمارا، ومن كرهه كرهه لكونه مدعاة الغفلة عن ذكر الله لان أكثر لاعبيه يفرطون في الاكثار منه، وسنزيد المسألة بيانا في تفسير الآية التالية

وأما الانصاب فقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وغير واحد: هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها. ذكره ابن كثير أيضا. وروي انهم كانوا يعبدونها ويتقربون اليها. وتحقيق ذلك تقدم في تفسير (وما ذبح على النصب) في أول السورة (ص ١٤٦ ج ٦)

وأما الازلام فهي قداح أي قطع رقيقة من الخشب بهيئة السهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية لاجل التفاؤل أو التشاؤم وقد شرحنا معناها وطريقة الاستقسام بها في أوائل السورة (ص ١٤٧ - ١٥٣ ج ٦) وبينا الفرق بين خرافة الاستقسام وسنة الاستخارة فيراجع هنالك

وأما الرجس فهو المستقذر حسا أو معنى. وقال الزجاج الرجس في اللغة اسم لكل ما استقذر من عمل، فبالغ الله في ذم الاشياء المذكورة في الآية فسماها رجسا. أقول وقد ذكر في تسع آيات من القرآن ليس فيها موضع يظهر فيه معنى القذارة الحسية الا قوله تعالى (٦: ١٤٥ قل لا أجد فيما أوحيَ اليّ محرّما على طاعم يَطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس) بناء على أن قوله «فانه رجس» عائد الى جميع ماذكر، أي فان ذلك أو ما ذكر رجس. ومثله «وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره» أي من ثمر ذلك أو ما ذكر؛ واستشهد الزمخشري لهذا الاخير بقول رؤبة:

فيها خطوط من سواد وبلق　　كأنه في الجلد توليع البهق

وذكر ان رؤبة سئل عن ذلك فقال: أردت كأن ذاك. ويحتمل ان يراد به كونه قذرا معنويا من حيث كونه ضارا. وقد فسر بعضهم الرجس في الآية التي نفسرها

بالمأثم وهو ما كان ضارا

وقال الراغب . الرجس الشيء القذر . يقال رجل رجس ، ورجال ارجاس .
قال تعالى « رجس من عمل الشيطان » والرجس يكون على أربعة أوجه : اما من
حيث الطبع وإما من جهة العقل وأما من جهة الشرع ، وإما من كل ذلك ، كالميتة
فان الميتة تعاف طبعا وعقلا وشرعا . والرجس من جهة الشرع الخمر والميسر ، وقيل
ان ذلك رجس من جهة العقل . وعلى ذلك نبه بقوله « وإثمهما أكبر من نفعهما »
لان كل مايوفي إثمه على نفعه فالعقل يقتضي تجنبه . وجعل الكافرين رجسا من
حيث ان الشرك بالعقل أقبح الاشياء ، قال تعالى « وأما الذين في قلوبهم مرض
فزادتهم رجسا الى رجسهم » اهـ

وقوله تعالى « رجس من عمل الشيطان » نص في كون الرجس معنويا ، وهو
محمول على جميع ما ذكر من الخمر والميسر والانصاب والازلام ، كما قال في آية
أخرى (فاجتنبوا الرجس من الاوثان) وكان من لوازمها الانصاب والازلام ، وأما
رجس الخمر والميسر فبيانه في الآية التالية .

وقد استدل بعض الفقهاء بالآية على كون الخمر نجسة العين فتكلفوا كل
التكلف اذ زعموا ان « رجس » خبر عن الخمر وخبر ماعطف عليها محذوف . ولو
سلم لهم هذا لما كان مفيدا لنجاسة الخمر نجاسة حسية . فان نجس العين ما كان شديد
القذارة كالبول والغائط ، والخمر ليست قذرة العين ، والصواب ان « رجس » خبر
عن الخمر والميسر والانصاب والازلام كما قلنا تبعا للجمهور ، لان هذا هو المتبادر الى
الفهم من العبارة ، ولانه الاصل في الاخبار عن المبتدإ وما عطف عليه ، ولأنه في
الانصاب والازلام يوافق قوله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الاوثان) وأما إفراده
مع كونه خبرا عن متعدد فلأنه مصدر يستوي فيه القليل والكثير ، كقوله تعالى
(انما المشركون نجس) أو لان في الكلام مضافا تقديره ان تعاطي ماذكر رجس
من عمل الشيطان . فقوله تعالى « من عمل الشيطان » تفسير وايضاح لكون
ماذكر رجسا . ومعنى كونها من عمل الشيطان انها من الاعمال التي زين لاعدائه
بني آدم ابتداعها وايجادها ، ثم هو يوسوس لهم بأن يعكفوا عليها ، ويزينها لهم ، لما

فيها من شدة الضرر بهم

﴿ فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ أي فاذا كان الامر كذلك فاجتنبوا هذا الرجس كله ـ أو فاجتنبوا ما ذكر كله، أي ابعدوا عنه وكونوا في جانب غير الجانب الذي هو فيه ، رجاء ان تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تزكية أنفسكم ، وتحليتها بذكر ربكم، ومراعاة سلامة أبدانكم ، والتواد والتآخي فيما بينكم . وتعاطي ما ذكر يصد عن ذلك ويحول دونه . كما بينه تعالى بقوله :

﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ﴾ بين حظ الشيطان من الناس في الخمر والميسر دون ما قرن بهما في الآية الاولى من الانصاب والازلام، لان بيان تحريمهما هو المقصود بالذات ، وقد تقدم في أول السورة (أي في الآية الثالثة منها) تحريم ما ذبح على النصب والاستقسام بالازلام وكون ذلك فسقا ، وكان المؤمنون قد تركوهما لانهما من أعمال الجاهلية ، وخرافات الوثنية ، والخطاب هنا للمؤمنين الذين طهرهم التوحيد من خرافات الشرك كلها، ولذلك قال عمر عند نزول الآية : اقرنت بالميسر والانصاب والازلام؟ بعدا لك وسحقا . فعلم من ذلك ان ذكر الانصاب والازلام — وهما من الخرافات الاعتقادية — ولزهما مع الخمر والميسر — وهما من الرذائل المالية والاجتماعية ـ قد أريد به ان كل ذلك من رجس الجاهلية ، وانه لا يليق شيء منه بأهل الحنيفة

والعداوة ضرب من التجاوز الذي هو أصل معنى مادة (عدا يعدو) وهو تجاوز الحق الى الايذاء . قال في لسان العرب : والعادي الظالم، يقال : لا أشمت الله بك عاديك ـ أي عدوك الظالم لك، قال أبو بكر: قول العرب : فلان عدوُّ فلان. ـ معناه فلان يعدو على فلان بالمكروه ويظلمه . اه وقالوا أيضا : العدو ضد الصديق وضد الولي، أي الموالي. فعلم من ذلك ان العداوة سيئة عملية. والبغضاء انفعال في القلب وأثر في النفس فهو ضد المحبة. فالعداوة والبغضاء يجتمعان ويوجد احدهما دون الآخر

أما كون الخمر سببا لوقوع العداوة والبغضاء بين الناس حتى الاصدقاء منهم فمعروف وشواهده كثيرة ، وعلته أن شارب الخمر يسكر فيفقد العقل الذي يعقل

الانسانَ ، و يمنعه من الاقوال والاعمال القبيحة التي تسوء الناس ؛ ويستولي عليه حب الفخر الـكاذب ، و يسرع اليه الغضب بالباطل ، وقد جرت عادة محبي الخمر على الاجتماع للشرب ، فقلما تكون رذائلهم قاصرة عليهم ، غير متعدية الى غيرهم ؛ وكثيرا ماتقوى الى غير من يشرب معهم ، كالأهل والجيران ، والخلطاء والعشراء . وقدتقدم في أسباب نزول الآيات بعض الشواهد على ذلك . ومن أغرب أخبار شذوذ السكارى الذي يفضي مثله عادة الى العداوة والبغضاء والهرج والقتال حديث علي كرم الله وجهه في الصحيحين ، وملخصه انه كان له شارفان (ناقتان مسنتان) . أراد أن يجمع عليهما الإذخر (نبات معروف في الحجاز) مع صائغ يهودي و يبيعه للصواغين ليستعين بثمنه على وليمة فاطمة عليها السلام عند ارادة البناء بها ، وكان عمه حمزة يشرب الخمر مع بعض الانصار ومعه قينة تغنيه ـ فأنشدت شعرا حثته به على نحر الناقتين وأخذ أطايبهما ليأكل منها الشَّرب ، فثار حمزة وجبّ اسنمتهما و بقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما . فلما رأى علي ذلك تألم ولم يملك عينيه ، وشكا حمزةَ الى النبي (ص) فدخل النبي على حمزة ـ ومعه علي وزيد بن حارثة ـ فتغيظ عليه وطفق يلومه ، وكان حمزة ثملا قد احمرت عيناه ، فنظر الى رسول الله (ص) وقال له ولمن معه : وهل أنتم الا عبيد لأبي ؟ فلما علم النبي (ص) انه ثمل نكص على عقبيه القهقرى وخرج هو ومن معه . والحديث في الصحيحين . ولولا حلم الرسول وعصمته وعقله ، وأدب علي وفضله ، و بلاء حمزة في إقامة الاسلام وقر به ، لما وقفت هذه الحادثة عند الحد الذي وقفت عنده .

وان حوادث العداوة والبغضاء التي يثيرها السكر ، وما ينشأ عنها من القتل والضرب ، والعدوان والسلب ، والفسق والفحش ، ومن افشاء الاسرار ، وهتك الاستار ، وخيانة الحـكومات والاوطان ، قد سارت بأخبارها الركبان ، ومازالت حديث الناس في كل زمان ومكان .

وأما الميسر فهو مثار للعداوة والبغضاء أيضا ولـكن بين المتقامرين ، فان تعداهم فالى الشامتين والعائبين ، ومن تضيع عليهم حقوقهم من الدائنين وغير الدائنين . وان المقامر ليفرط في حقوق الوالدين والزوج والولد . حتى يوشك ان يمقته كل أحد .

قال الفخر الرازي : وأما الميسر ففيه بإزاء التوسعة على المحتاجين الاجحاف بأرباب الاموال ، لان من صار مغلوبا في القمار مرة دعاه ذلك الى اللجاج فيه عن رجاء انه ربما صار غالبا فيه ، وقد يتفق ان لا يحصل له ذلك الى ان لا يبقى له شيء من المال ، والى ان يقامر على لحيته وأهله وولده !! ولا شك انه بعد ذلك يصير فقيرا مسكينا ، ويصير من أعدى الاعداء لاولئك الذين كانوا غالبين له . اه

وأما كون كل من الخمر والميسر يصد عن ذكر الله وعن الصلاة_وهو مفسدتهما الدينية_فهو أظهر من كونهما مثار العداوة والبغضاء_وهو مفسدتهما الاجتماعية_لأن كل سكرة من سكرات الخمر، وكل مرة من لعب القمار، تصد السكران واللاعب وتصرفه عن ذكر الله الذي هو روح الدين ، وعن الصلاة التي هي عماد الدين ، اذ السكران لا عقل له يذكر به آلاء الله وآياته ، ويثني عليه بأسمائه وصفاته ، فضلا عن الصلاة التي هي ذكر لله، وزيادة أعمال تؤدى بنظام لغرض وقصد، ولو ذكر السكران ربه ، وحاول الصلاة لم تصح له ، والمقامر تتوجه جميع قواه العقلية الى اللعب الذي يرجو منه الربح ويخشى الخسارة فلا يبقى له من نفسه بقية يذكر الله تعالى بها ، أو يتذكر أوقات الصلاة وما يجب عليه من المحافظة عليها ، ولعله لا يوجد عمل من الاعمال يشغل القلب ويصرفه عن كل ما سواه ويحصر همه فيه مثل هذا القمار ، حتى ان المقامر ليقع الحريق في داره ، وتنزل المصائب بأهله وولده، ويُستصرخ ويستغاث فلا يُصرخ ولا يغيث ، بل يمضي في لعبه ، ويكل أمر الحريق الى جند الإطفاء، وأمر المصابين من الاهل الى المواسين أو الاطباء ، وما زال الناس يتناقلون النوادر في ذلك عن المقامرين، من الاولين والمعاصرين . على ان المقامر اذا تذكر الصلاة أو ذكره غيره بها ، وترك اللعب لاجل أدائها، فانها لا يكاد يؤدي منها الا الحركات البدنية بدون أدنى تدبر أو خشوع ، ولا سيما اذا كان يريد ان يعود الى اللعب .

نعم ان المقامر يأتي بأفعال الصلاة تامة فيفضل السكران بهذا اذ لا يكاد يأتي منه ضبط أفعالها ، ولكن السكران قد يفضله بأعمال القلب والخشوع ولو بغير عقل. فكم من سكران يذكر الله تعالى ويذكر ذنوبه حتى سكره ويبكي ويدعو الله تعالى أن يتوب عليه ؟ لقيت مرة سكرانا في أحد شوارع القاهرة فأقبل علي يقبل يدي ويبكي

ويقول ادع الله لي بأن يتوب علي من السكر ويغفر لي، أنت ابن الرسول، ودعاؤك مقبول . وأمثال هذا الكلام ، واذا كان الله تعالى لا يقبل صلاة السكران لأنه لا يعقل ما يقول وما يفعل، فهو بالاولى لا يقبل صلاة المقامر الذي لا يتدبر ولا يخشع، وهو عاقل مكلف قادر على مجاهدة نفسه ، وتوجيهها الى مراقبة ربه ولا يفيد مثل هذا المصلي الساهي عن صلاته افتاء الفقهاء بصحتها ، اذا كملت شروطها وفروضها ، فما كل صحيح عند علماء الرسوم بمقبول ، (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون)

قد يقال ان الله تعالى قد بين بهذه الآية علتين لتحريم الخمر والميسر احداهما اجتماعية والاخرى دينية ، والدينية تصدق على الالعاب التي اشتد ولوع كثير من الناس بها كالشطرنج ، فالظاهر ان تعد بذلك محرمة كالميسر لانها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وان كان اللعب بها على غير مال ؟ فقد قال السيد الآلوسي في هذا المقام من تفسيره (روح المعاني) : وقد شاهدنا كثيرا ممن يلعب بالشطرنج يجري بينهم من اللجاج والحلف الكاذب والغفلة عن الله تعالى ما ينفر منه الفيل ، وتكبو له الفرس ، ويصوح من همومه الرخ بل يتساقط ريشه ، ويحار لشناعته بيذق الفهم ، ويضطرب فرزين العقل، ويموت شاه القلب، وتسود رقعة الاعمال . اه

وأقول ان اللعب بالشطرنج اذا كان على مال دخل في عموم الميسر وكان محرما بالنص كما تقدم، واذا لم يكن كذلك فلا وجه للقول بتحريمه قياسا على الخمر والميسر الا اذا تحقق فيه كونه رجسا من عمل الشيطان ، موقعا في العداوة والبغضاء ، صادًّا عن ذكر الله وعن الصلاة، بأن كان هذا شأن من يلعب به في الغالب . ولا سبيل إلى اثبات هذا، واننا نعرف من لاعبي الشطرنج من يحافظون على صلواتهم وينزهون أنفسهم عن اللجاج والحلف الباطل ، وأما الغفلة عن الله تعالى فليست من لوازم الشطرنج وحده، بل كل لعب وكل عمل يشغل صاحبه في أثنائه عن الذكر والفكر فيما عداه الا قليلا ، ومن ذلك ماهو مباح وما هو مستحب أو واجب . كلعب الخيل والسلاح والاعمال الصناعية الدقيقة التي تعد من فروض الكفايات ، ومما ورد

النص فيه من اللعب لعب الحبشة في مسجد النبي (ص) بحضرته . وانما عيب الشطرنج من أنه أشد الالعاب إغراء باضاعة الوقت الطويل ، ولعل الشافعي كرهه لاجل هذا ، ونحمد الله الذي عافانا من اللعب به و بغيره ، كما نحمده حمدا كثيرا أن عافانا من الجرأة على التحريم والتحليل ، بغير حجة ولا دليل .

ولما بين جل جلاله علة تحريم الخمر والميسر وحكمته أكده بقوله ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ فهذا استفهام يتضمن الامر بالانتهاء . قال الكشاف : من أبلغ ماينهى به ، كأنه قيل قد تلي عليكم مافيهما من أنواع الصوارف والموانع فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون، أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا ؟ ـ

قال هذا بعد بيان ما أكد الله تحريم الخمر والميسر في هاتين الآيتين وتبعه في ذلك الرازي وغيره، ونحن نبين المؤكدات بأوضح مما بينوها به وأوسع فنقول

(أحدها) ان الله تعالى جعل الخمر والميسر رجسا وكلمة الرجس تدل على منتهى القبح والخبث ولذلك اطلقت على الاوثان كما تقدم فهي أسوأ مفهوما من كلمة الخبيث ، وقد علم من عدة آيات أن الله أحل الطيبات وحرم الخبائث . وقد قال النبي (ص) « الخمر أم الخبائث » رواه الطبراني في الاوسط من حديث عبدالله ابن عمرو . وقال « الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر ، ومن شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أمه وخالته وعمته » رواه الطبراني في الكبير من حديث عبدالله ابن عمر ، وكذا من حديث ابن عباس بلفظ « من شربها وقع على أمه » الخ وليس فيه ترك الصلاة . وقد علم السيوطي على هذه الاحاديث في جامعه بالصحة

(ثانيها) أنه صدر الجملة بإنما الدالة على الحصر للمبالغة في ذمهما، كأنه قال ليست الخمر وليس الميسر الا رجسا فلاخير فيهما ألبتة

(ثالثها) انه قرنهما بالانصاب والازلام التي هي أعمال الوثنية وخرافات الشرك وقد أورد المفسرون هنا حديث « شارب الخمر كعابد وثن وشارب الخمر كعابد اللات والعزى » عزاه السيوطي في الجامع الصغير الى الحارث ابن عمرو وأشار الى تحسين سنده.

(رابعها) انه جعلهما من عمل الشيطان ، لما ينشأ عنهما من الشرور والطغيان،

وهل يكون عمل الشيطان ، الا موجبا لسخط الرحمن ؟

(خامسها) انه جعل الامر بتركهما من مادة الاجتناب وهو ابلغ من الترك لانه يفيد الامر بالترك مع البعد عن المتروك بأن يكون التارك في جانب بعيد عن جانب المتروك كما تقدم . ولذلك نرى القرآن لم يعبر بالاجتناب الا عن ترك الشرك والطاغوت الذي يشمل الشرك والاوثان وسائر مصادر الطغيان ، وترك الكبائر عامة وقول الزور الذي هو من أكبرها ، قال تعالى (فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور) وقال (واجتنبوا الطاغوت) كما قال (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها) وقال (الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم)

(سادسها) انه جعل اجتنابهما معدّا للفلاح ومرجاة له ، فدل ذلك على ان ارتكابهما من الخسران والخيبة في الدنيا والآخرة

(سابعها وثامنها) انه جعلهما مثارا للعداوة والبغضاء وهما شر المفاسد الدنيوية المتعدية الى أنواع من المعاصي في الاموال والاعراض والانفس ، ولذلك سميت الخمرة بأم الخبائث وأم الفواحش . وقد قيل ان امرأة فاسقة راودت رجلا صالحا عن نفسه فاستعصم فسقته الخمر فزنا بها وأغرته بالقتل فقتل . حكوا هذا عن بعض الامم الغابرة ، ومثله كثير في هذا الزمان . وقد قال بعض الفساق في مصر : انه لولا السكر لقل ان يوجد في الناس من يقرب من هؤلاء البغايا العموميات . وقد علم مما تقدم ان هاتين مفسدتان منفصلتان ، لان العداوة غير البغضاء فيجتمعان و يفترقان

(تاسعها وعاشرها) انه جعلهما صادين عن ذكر الله وعن الصلاة وهما روح الدين وعماده ، وزاد المؤمن وعتاده ، وقد علم مما تقدم أيضا ان الصد عن ذكر الله غير الصد عن الصلاة

(حادي عشرها) الامر بالانتهاء عنهما بصيغة الاستفهام المقرون بفاء السببية ، وهل يصح الفصل بين السبب والمسبب ؟ وفي الآية التالية ثلاثة مؤكدات أخرى نوردها معدودة مع ماقبلها :

(ثاني عشرها) قوله عز وجل ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ أي أطيعوا

الله تعالى فيما أمركم به من اجتناب الخمر والميسر ، كما تجتنبون الانصاب والازلام أو أشد اجتنابا وفي كل شيء ، وأطيعوا الرسول فيما يبينه لكم مما نزله الله عليكم ، ومنه قوله « كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام » وقد تقدم قريبا

(ثالث عشرها) قوله عز وجل ﴿ واحذروا ﴾ أي احذروا عصيانهما ، او ما يصيبكم اذا خالفتم أمرهما من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة ، فانه ما حرم عليكم الا ما يضركم في دنياكم وآخرتكم ، قال تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم)

(رابع عشرها) الانذار والتهديد في قوله ﴿ فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ أي فان توليتم وأعرضتم عن الطاعة ، فاعلموا أنما على رسولنا ان يبين لكم ديننا وشرعنا ، وقد بلغه وأبانه ، وقرن حكمه بأحكامه ، وعلينا نحن الحساب والعقاب وسترونه في إبانه ، كما قال (فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وانما الحساب لاجل الجزاء

لم يؤكد تحريم شيء في القرآن مثل هذا التأكيد ولا قريبا منه ، وحكمته شدة افتتان الناس بشرب الخمر وكذا الميسر . وتأولهم كل ما يمكن تطرق الاحتمال اليه من أحكام الاديان التي تخالف أهواءهم ، كما أولت اليهود أحكام التوراة في تحريم أكل أموال الناس بالباطل كالربا وغيره . وكما استحل بعض فساق المسلمين شرب بعض الخمور بتسميتها بغير اسمها ، اذ قالوا : هذا نبيذ أو شراب لا يسكر الا الكثير منه وقد أحل ما دون القدر المسكر منه فلان وفلان ـ يقولون ذلك فيما هو خمر ، لا حظ لهم من شربه الا السكر

بل تجرأ بعض غلاة الفساق على القول بأن هذه الآيات لا تدل على تحريم الخمر لان الله قال « فاجتنبوه » ولم يقل حرمته فاتركوه ، وقال « فهل أنتم منتهون » ولم يقل فانتهوا عنه ، وقال بعضهم : سألنا هل أنتم منتهون فقلنا : لا ، ثم سكت وسكتنا ، ويصدق على هؤلاء قوله تعالى (اتخذوا دينهم هزؤا ولعبا) ويمكن ان يقال ان هذا الغلو قلما يصدر عمن كان صحيح الايمان — والعياذ بالله تعالى

أما المؤمنون فقد قالوا : انتهينا ربنا . وقال بعضهم : انتهينا انتهينا . أكدوا الاستجابة

والطاعة كما أكد عليهم التحريم وكان فيهم المدمنون للخمر من عهد الجاهلية، حتى شق عليهم تحريمها فكان أشد من جميع التكاليف الشرعية. وكانوا قد اجتهدوا في آية البقرة لان الدلالة على التحريم فيها ظنية غير قطعية كما بيناه غير مرة، فلما جاء الحق اليقين والتحريم الجازم، انتهوا وأهرقوا جميع ما كان عندهم من الخمور في الشوارع والازقة، حتى ظل أثرها وريحها زمنا طويلا، وقد قدح بعض أذكيائهم زناد الفكر عسى أن يهتدوا الى شيء يجدون فيه بعض الرخصة من النبي (ص) فلم يجدوا الا أن من قدمات من أهل بدر وأحد كسيد الشهداء حمزة عم الرسول (ص) وغيره ماتوا وهم دائبون على شربها، فلم تغن عنهم هذه الشبهة شيئا. لأن الله لا يكلف الناس العمل بأحكام الشريعة قبل نزولها. وهاك بعض ماورد في ذلك زائدا على ما أوردنا من قبل

روى البيهقي في شعب الايمان عن أبي هريرة قال: قام رسول الله فقال «ياأهل المدينة ان الله يعرض عن الخمر تعريضا، لا أدري لعله سينزل فيها أمر» — أي قاطع — ثم قام فقال «يا أهل المدينة ان الله قد أنزل الي تحريم الخمر، فمن كتب منكم هذه الآية وعنده منها شيء فلا يشربها»

وأخرج مسلم وأبو يعلى وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: خطبنا رسول الله (ص) فقال «يا أيها الناس ان الله قد عرض بالخمر فمن كان عنده منها شيء فليبعه ولينتفع به» فلم نلبث الا يسيرا حتى قال «ان الله قد حرم الخمر، فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيء فلا يشرب ولا يبع» قال فاستقبل الناس بما كان عندهم منها فسفكوها في طرق المدينة

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الربيع قال: لما نزلت آية البقرة قال رسول الله (ص) «ان ربكم يقدم في تحريم الخمر» ثم نزلت آية النساء فقال النبي (ص) «ان ربكم يقرب في تحريم الخمر» ثم نزلت آية المائدة فحرمت الخمر عند ذلك.

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء قال: أول مانزل من تحريم الخمر (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير) الآية. فقال بعض الناس نشربها لمنافعها وقال آخرون: لاخير في شيء فيه إثم، ثم نزلت (يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة

وأنتم سكارى) الآية فقال بعض الناس نشربها ونجلس في بيوتنا، وقال آخرون: لاخير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة مع المسلمين، فنزلت (يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر) الآية فنهاهم فانتهوا . واخرج أيضا عن قتادة في تفسير آية النساء انه قال: ذكر لنا ان نبي الله (ص) قال حين نزلت هذه الآية « ان الله قد تقرب في تحريم الخمر » ثم حرمها بعد ذلك في سورة المائدة بعد غزوة الاحزاب،[1] وعلم انها تسفه الاحلام وتجهد الاموال وتشغل عن ذكر الله وعن الصلاة

وروى احمد عن أبي هريرة قال: حرمت الخمر ثلاث مرات. ثم ذكر نزول الآيات الثلاث وما كان من شأن الناس عند كل واحدة منهن، وقال في آية النساء: ثم أنزل الله آية اغلظ منها. اي من آية البقرة، وقال مثل ذلك في آية المائدة

فهذه الاخبار والآثار وغيرها مما تقدم في التصريح بالقطع بتحريم الخمر تدل دلالة قاطعة على ان النبي (ص) والصحابة كافة فهموا من آية المائدة ان الله تعالى حرم الخمر تحريما باتا لا هوادة فيه، وأن الخمر عندهم كل شراب من شأنه ان يسكر شاربه، وقد صرحوا فيها بلفظ التحريم، وانه كان تعريضا، فجعلته آية المائدة تصريحا، أوأن آيتي البقرة والنساء كانتا مقدمة لتحريمها او مفيدتين له افادة ظنية كما قلنا من قبل. وان جميع المؤمنين أهرقوا ما كان عندهم من الخمور عند نزول الآية، وكان كلها أو اكثرها من التمر والبسر الذي يكثر في المدينة، وانهم لم يجدوا لهم مخرجا من ذلك بتأويل ولا رخصة.

نعم انهم كانوا يسمون بعض الانبذة بأسماء خاصة وقد سألوا عنها النبي (ص) ماحكمها اذا صار يسكر كثيرها أوقليلها. قال أبو موسى الاشعري: قلت يارسول

---

(١) كانت غزوة الاحزاب سنة أربع كما قال موسى بن عقبة ومال اليه البخاري. وقال ابن اسحق في شوال من سنة خمس وعليه أهل المغازي أي بعد غزوة أحد بسنة كاملة. وذكر ابن اسحق ان تحريم الخمر كان في غزوة بني النضير. وكانت سنة أربع على الراجح. وقال الدمياطي في سيرته كان تحريمها عام الحديبية أي سنة ست

الله أفتنا في شرابين كنا نصنعهما باليمن - البتع وهو من العسل ينبذ حتى يشتد - والمزر - وهو من الذرة والشعير ، ينبذ حتى يشتد . قال وكان رسول الله (ص) قد أوتي جوامع الكلم بخواتمه فقال « كل مسكر حرام » رواه احمد والشيخان . وفي حديث علي كرم الله وجهه : ان رسول الله (ص) نهاهم عن الجعة . رواه أبو داود والنسائي وغيرهما . والجعة بكسر ففتح نبيذ الشعير . وتسمى بالافرنجية « بيرا »

والاصل في النبيذ ان ينقع الشيء في الماء حتى ينضج فيشرب بعد يوم أو يومين ولم يقصد به ان يترك ليختمر و يصير مسكرا كما تقدم ، ونزيد عليه ان النبي (ص) نهى عن النبذ في الاواني التي يسرع اليها الاختمار لعدم تأثير الهواء فيها كالحنتم أي جرار الفخار المطلية ، والنقير أي جذوع النخل المنقورة ، والمزفت وهو المقير أي المطلي بالقار وهو الزفت ، والدباء وهو القرع الكبير . ثم بين ان الظروف لا تحل ولا تحرم وأذن بالنبذ في كل وعاء مع تحريم كل مسكر . رواه مسلم واصحاب السنن

وعن ابن عباس ان النبي (ص) كان ينبذ له الزبيب فيشربه اليوم والغد وبعد الغد الى مساء الثالثة ، ثم يؤمر به فيسقى الخادم أو يهراق . رواه احمد ومسلم . أي يصير بعد ثلاثة أيام مظنة الاسكار ، فهذه نهاية المدة التي يحل فيها النبيذ . وفي آخرها كان يحتاط النبي (ص) فلا يشربه بل يسقيه الخادم أو يريقه لئلا يختمر ويشتد فيصير خمرا

وقد علم من الروايات التي أوردناها آنفا ان بعض الصحابة فهم من آيتي البقرة والنساء تحريم الخمر فتركها ، ولكن عشاقها وجدوا منهما مخرجا بالاجتهاد . وكان من سنة النبي (ص) ان يعذر المجتهدين في اجتهادهم وان كان بعضهم مخطئا فيه ، وقد يجيزه له اذا كان قاصرا عليه أجنب رجل فأخر الصلاة اذ لم يجد الماء فذكر ذلك للنبي (ص) فقال «أصبت» وأجنب آخر فتيمم وصلى اذ لم يجد الماء فذكره له كالاول ، فقال له ما قال للاول « أصبت » رواه النسائي . واجاز عمل عمرو بن العاص إذ وجود الماء خوفا من البرد وصلى اماما فسأله عن ذلك فاحتج بقوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) رواه احمد والبخاري تعليقا وأبو داود والدار قطني ، ولكنه

قال لمن ترك الصلاة مع الجماعة وسأله عن ذلك فاعتذر بالجنابة وفقد الماء « عليك بالصعيد فانه يكفيك » رواه البخاري

ويؤخذ من هذه الاحاديث ومن تلك أن التحريم الذي يكلفه جميع الناس هو ما كان نصا صريحا ، فان النبي (ص) لم يكلف الناس إراقة ما كان عندهم من الخمر الا عند ما نزلت آية المائدة الصريحة بذلك ، مع كونه فهم من آيتي البقرة والنساء تحريم الخمر بالتعريض ، والمراد من التعريض عين المراد من التصريح ، الا ان التعريض حجة على من فهمه خاصة ، والتصريح حجة على المكلفين كافة . ومن هنا تعرف سبب ما كان من تساهل السلف في المسائل الخلافية وعدم تضليل أحد منهم لمخالفه ، وتعلم ايضا ان ما قال العلماء بتحريمه اجتهادا منهم لا يعد شرعا يعامل الناس به ، وانما يلتزمه من ظهر له صحة دليلهم من قياس او استنباط من آية او حديث دلالتها عليه غير صريحة . وان في تعريض كلام الله و رسوله حكما ، وسيأتي لهذا المبحث تتمة في تفسير (لا تسألوا عن اشياء ان تبد لكم تسؤكم)

(لتفسير الآيات بقية)

﴿ الجهاد الديني في الاسلام ﴾

ان أحكام القتال في الاسلام أعدل وأرحم من احكام القوانين الاوربية فهي الإصلاح الاعظم لهذه المصيبة الاجتماعية . ويظن كثير من نصارى الشرق - تبعا لأئمتهم في الغرب - ان الجهاد الديني في الاسلام عبارة عن تصدي المسلمين لقتل كل من يخالفهم في الدين . وقد بينا خطأ هؤلاء ووهمهم بالأدلة والآيات البينات . و يدهشنا ان نرى أجدر الناس بالفهم والحفظ والذكر لما كتبناه - كاصحاب الجرائد - قد نسوه وظلوا على رأيهم الموروث بدليل ما كان من توقعهم قيام المسلمين في البلاد العثمانية بذبح إخوانهم في الجنس والوطن ، واستغرابهم اتحاد الدولة العثمانية مع دولتين من غير دينها

أعلنت الدولة العثمانية الجهاد الديني فكان المسلمون في بلادها السورية وغيرها أشد اتفاقا مع غير المسلمين منهم قبل هذا الجهاد . وما ينقل من تعدي الترك والاكراد على الأرمن فسببه - على فرض صحته - المنازعات الجنسية والسياسة ، والانتقام منهم لميلهم الى الدولة الروسية

وأما الجهاد العام في الاسلام فلا يكون الادفاعا ولا يجوز فيه قتال غير المقاتلين المعتدين (٢ : ١٩٠ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين)

الدعوة الى انتقاد المنار

جرت عادتنا بأن نذكر قراء المنار في كل عام بما يجب من الانتقاد الذي هو ضرب من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والمساعدة على الدعوة الى الخير، وبث النصيحة ونشر العلم، فنحن نطالب كل من قرأ في المنار شيئا يرى أنه خطأ أن يبين لنا ذلك قولا أو كتابة مؤيدا لنقده بما عنده من الدليل، وأما من سمع الانكار على المنار من بعض الناس سماعا فينبغي له ان يتثبت ولا يعجل بموافقة المنكر ومجاراته، حتى يرى ذلك بعينه، أو يقرأه الثقة عليه، فان من الناس من يفتري الكذب عمدا، ومنهم من يحرف ما يقرأ حسدا وضغنا، ومنهم من يستنبط من الكلام لوازم لاتلزمه، على ان لازم المذهب ليس بمذهب

واننا وايم الله لانرغب الى أهل العلم والفهم ان ينتقدوا مانكتب غرورا منا بنفسنا، وثقة بأن النقد ينكشف عن خطإ الناقد وصوابنا، بل نعلم اننا كغيرنا من البشر عرضة للخطإ والنسيان، وجهل الحقائق وضعف البيان، ولا نبرئ نفسنا الا من سوء القصد، واتباع الهوى عن عمد، وان لنا في هذه الدعوة أربعة أغراض :

الاول التوسل بها لإصلاح خطإنا، وتقويم عوجنا

الثاني التعاون على البر والتقوى والاصلاح بضم رأي غيرنا الى رأينا والاستفادة من علم أهل العلم

الثالث اقامة الحجة على المغتابين والكذابين الذين يقولون علينا مالم نقل، وينسبون الينا مانحن برآء منه، ويعيبون المنار بما ليس فيه

الرابع التوسل لى تصحيح خطإ المنتقد اذا كان هو المخطئ

هذا . ومن شاء ان ينشر ما يكتبه الينا من غير تصريح باسمه فله أن يأمرنا بكتمان اسمه . ووضع ماشاء أو شئنا من الاسماء والالقاب في مكانه

واننا نشترط على المنتقدين مانشترطه لهم على أنفسنا من الادب في العبارة . ونزيد التزام الموضوع وعدم الخروج عنه الى ماليس منه، ومراعاة الاختصار بقدر الحاجة

التاريخ الهجرى الشمسي

يعلم القراء أننا شرعنا من بضع سنين باحياء التاريخ الهجري الشمسي بذكر سنينه فى المنار بعد التاريخ الهجري القمري وقبل التاريخ الميلادي وقد كنا نكتفي أولا بذكر السنة تابعة للشهور الافرنجية الشمسية ، بدأنا بهذا في المجلد الثاني عشر (سنة ١٣٢٧) ثم ارتأينا في أول السنة الخامسة عشرة – سنة ١٣٣٠ – ان نذكر الشهور الشمسية الهجرية ونعتمد في تسميتها ما اختاره احمد مختار باشا الغازي في تقويمه بين فيه ذلك . وذلك أن تسمى الشهور بأسماء الفصول مع الوصف بالعدد، بأن يقال : الخريف الأول ـ الخريف الثاني الخ لان حفظ هذه الشهور يسهل على العوام كالخواص ، ومن أسمائها يعرفون موقعها من السنة من أول العهد باستعمالها. وقد جرينا على هذا الحساب في جماعة الدعوة والارشاد ومدرستها. وكنا عازمين على طبع تقويم خاص للسنة الهجرية الشمسية

ثم اننا رأينا ان بعض اخواننا من الفارسيين والافغانيين يستعملون التاريخ الهجري الشمسي ولكنهم يسمون شهور السنة باسماء بروج الشمس، فالشهر الاول من السنة هو شهر الميزان وهو اول فصل الخريف الذي وصل النبي (ص) في أول يوم منه الى المدينة المنورة. ولما نبهنا الناس الى احياء هذا التاريخ في مصر صار بعض اصحاب التقاويم المصرية يذكرونه في تقاويمهم ، وتبعوا الفرس والافغان في تسمية الشهور

لاجل هذا رأينا الآن ان نجاري هؤلاء وأولئك في هذه التسمية، وأن نكتفي بالاشارة الى تسمية الشهور بأسماء الفصول بالحروف المقطعة من أولها، وذلك بجعل حرف خ رمزا للخريف وحرف ش للشتاء وحرف ر للربيع وحرف ص للصيف ، ونضيف الى هذه الحروف الارقام الدالة على الاول والثاني والثالث. فالقارئ يرى هذا الجزء مؤرخا في ٢٥ من شهر الدلو (ش ٢) اي الشتاء الثاني

﴿ سنة المنار الجديدة عشرة أشهر ﴾

بينا فى جزء آخر السنة الماضية أن ما أحدثته حرب المدنية الاوربية من الضيق وقلة الورق اضطرنا الى جعل سنة المنار الجديدة عشرة أشهر كاكثر المجلات المصرية ، مع ابقاء جزء كل شهر ثمانين صفحة . واذا طالت الحرب وزاد هذا الضيق فربما نضطر الى تقليل عدد الاوراق أيضا

مدرسة دار الدعوة والارشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

٣

(الهواء)

يفهم مما تقدم في الكلام على المطر ان الهواء يشتمل دائما على بخار الماء (الرطوبة) وهذا البخار يقل أو يكثر بحسب درجة حرارة الهواء، فاذا كان الهواء ساخنا كان أكثر رطوبة من الهواء البارد

وأهم مايوجد فيه من الاجسام الاخرى فهو : —

النيتروجين	٠٢ و ٧٩	في المائة تقريبا وذلك بالحجم لا بالوزن
الاكسجين	٩٤ و ٢٠	
غاز ثاني أكسيد الفحم	٤٠ و ٠	

وهي مختلط بعضها ببعض وليست متحدة اتحادا كيماويا كما سبق . وفي الهواء غير ذلك آثار من عناصر أخرى ومركبات لاحاجة هنا لتفصيلها

أما أنواع الهواء بحسب الامكنة فهي ما يأتي :

١ — هواء البحار — وهو يشتمل على كثير من بخار الماء النقي ومن اكسجين كثيف يسمى (الاوزون)(١) وهو عبارة عن أكسجين خاثر (مركز) تشمل كل ذرة منه ثلاث جواهر فردة من الاكسجين . وهواء البحار البعيد عن البر خال من الميكروبات تقريبا ومن العفونات والروائح الكريهة ويكون في الشتاء دافئا وفي الصيف باردا وذلك لأن الماء يبرد ببطء ولا يسخن بسرعة فيبقى أشد سخونة أو برودة من الاشياء المحيطة به فيعدل درجة حرارة الجو

(١) كلمة يونانية معناها « الفوّاح » لوجود رائحة له خاصة وهو يتولد من أكسجين الهواء بسبب الكهرباء وهو مما يطهر الهواء من العفونات

فهواء البحار من أنفع الاهوية للصحة ومفيد لكثير من الامراض ولو انه يشتمل على رطوبة كثيرة فان ذلك لا يضر فيها

٢ — هواء الصحاري — ورطوبته أقل كثيرا وهو أيضا خال من الميكروبات تقريبا ومن العفونات وغيرها، وأكسجينه يوجد فيه أيضا النوع المسمى (أوزون) كهواء البحار وأما درجة حرارته فهي عالية في الصيف منخفضة في الشتاء وهو أيضا نافع للصحة ومفيد لبعض الامراض الاخرى

٣ — هواء المدن — وهو يشتمل على كثير من الميكروبات [1] والغازات الضارة والعفونات وغيرها مما يخرج مع نفس الحيوان ومما يتصاعد من النيران وغيرها ، ويشتمل أيضا على رطوبة كثيرة ولكنها ليست نقية بل مختلطة بكثير مما يتبخر من سطح الارض من القاذورات والروائح الكريهة المنبعثة من المراحيض ونحوها أو من المياه الراكدة الآسنة، ولذلك كان هواء المدن من أفسد الاهوية وأضرها بصحة الانسان

٤ — هواء الحدائق والغيطان [الحقول] — ونحوها وهو من جهة الرطوبة بين هواء الصحاري وهواء البحار ، وميكروباته قليلة جدا ، وفي النهار يقل منه غاز ثاني أوكسيد الفحم بسبب تنفس الاشجار فهي تستنشق منه غاز الفحم الضار وتترك الاكسجين للانسان والحيوان . وفي الليل يكون هذا الهواء فاسدا لأن الاشجار والنباتات تتنفس فيه تنفس الحيوان فان لم يكن المكان طلقا أضر هذا الهواء الانسان ضررا كبيرا واذا لم يتجدد الهواء ربما يقتله

الانتشار والتخلل أو (الاختراق)

علم مما تقدم أن ذرات المادة تحت مؤثرين عظيمين الاول قوة الانضمام والثاني قوة الاندفاع وهي المعبر عنها فيما سبق بالحرارة الكامنة

فاذا زادت قوة الانضمام عن قوة الاندفاع كان الجسم صلبا واذا تساوت القوتان

---

(١) تعيش في الهواء مددا مختلفة بحسب ماتجده فيه من الغذاء فانها تعلق بذرات مخاطية أو خلايا بشرية أو نحو ذلك، وبحسب قوة مقاومتها للعوامل الطبيعية كنور الشمس وغير ذلك. وبعد المطر الشديد تقل كثيرا من الهواء لانه يغسله منها

كان سائلا واذا زادت قوة الاندفاع عن قوة الانضمام كان غازا

ففي الغازات تميل ذراتها الى الانتشار في جميع الجهات بقوة الحرارة الكامنة فيها وهذا هو المسمى في علم الطبيعة بالانتشار، وتلك القوة تحدث ضغطا على الاجسام المحيطة بالغاز فهي أيضا من أسباب الضغط الجوي الذي تقدم ذكره (راجع صفحة ٧ من هذا الكتاب)[1]

وكلما كان الغاز خفيفا كانت قوة الانتشار فيه أشد فالهيدروجين — وهو أخف من الاكسجين — ينتشر بسرعة أكثر من الاكسجين

واذا وجد في طريق الغاز المنتشر غشاء مَّا مما له مسام نفذ الغاز من خلاله وقوة النفوذ هذه تسمى قوة التخلل أو الاختراق وتسميها الافرنج Osmosis

وكما أن الغازات تخترق بعض الاغشية كذلك من الاجسام الصلبة مايخترقها أيضا اذا كان ذائبا، والاجسام بالنسبة الى قوة الاختراق نوعان:

(الاول) أجسام تتشكل بشكل البلورات كالاملاح وهي سهلة النفاذ (الثاني) أجسام لا تتشكل كالمواد الزلالية والغروية والصمغية وهي يتعسر نفاذها أو يتعذر

فالاجسام الاولى اذا كانت ذائبة في سائل مع الاجسام الاخرى نفذت خلال الاغشية وحدها دون الاجسام الاخرى وبذلك يمكن فصل هذه من تلك

وأظهر فوائد سنة الانتشار والتخلل الخمس الآتية :

(١) انه بسبب قوة الانتشار يدرك الانسان جميع المشمومات

(٢) التنفس لجميع الحيوانات البرية، والبحرية فالاكسجين المنتشر في الهواء والذائب في الماء يندفع بهذه القوة الى مجاري التنفس [الرئة] في الحيوانات البرية والى خياشيم الحيوانات البحرية فيثقب أغشيتها حتى يصل الى الدم فيتحد به وكذلك الغاز الذي في الدم المسمى (ثاني أكسيد الفحم) يتركه ويندفع الى الخارج خلال أغشية الاعضاء التنفسية

والسبب في اتجاه الاكسجين الى الداخل هو كون ما يوجد منه في الهواء اكثر مما يوجد منه في الدم. — والغازات تميل في انتشارها الى الموازنة والمساواة كما

---

(١) المراد ما يطبع منه على حدة

تميل السوائل الموجودة في مستويات مختلفة الى الموازنة أيضا كما سبق

وكذلك اتجاه ثاني أكسيد الفحم الى الخارج يكون لهذا السبب بعينه. ويسمى الاندفاع الى الخارج Exosmose ويسمى الاندفاع الى الداخل Endosmose

(٣) امتصاص الاغذية من القناة الهضمية في الحيوان وامتصاصها من جدر الرحم بالاجنة الحيوانية يحصل أيضا بقوة التخلل مع مساعدة الخلايا البشرية المبطنة للاغشية ولذلك تمتص الاملاح مع المواد الزلالية في مثل الجنين بسبب فعل هذه الخلايا ولولا ذلك لتعسر نفاذ غير الاملاح أو تعذر

(٤) تجدد الهواء وذلك أنه اذا قل الاكسجين في حجرة اندفع أكسجين الهواء الخارجي الى هذه الحجرة من جميع المنافذ الممكنة حتى لا يخلو الهواء الداخلي من الاكسجين والا لماتت الحيوانات فيه ولانطفأت المصابيح

(٥) فصل بعض المواد الكيماوية عن بعضها في المعامل يكون أحيانا بطريقة التخلل

(مأخذ أسماء أشهر العناصر المذكورة آنفا ومعانيها)

(١) النيتروجين : لفظ يوناني مركب من كلمتين معناهما (مولد النيتر) لأنه يدخل في تركيبه والنيتر (Nitre) اسم لنترات البوتاسيوم وهي ملح البارود المسمى أيضا (الملح الصخري) (Saltpetre) وكان النيتروجين يسمى قديما (أزوت) وهي يونانية أيضا معناها « عديم الحياة » لان الحيوانات لاتعيش فيه

(٢) الاكسجين : لفظ يوناني مركب من كلمتين معناهما «مولد الحامض» لانهم كانوا يظنون أنه هو السبب الوحيد في الحموضة أو أنه داخل في تركيب جميع الحوامض ولكنهم علموا بعد ذلك خطأهم وبقي الاسم بدون تغيير الى الآن

(٣) الهيدروجين : لفظ يوناني أيضا مركب من كلمتين معناهما « مولد الماء » لأن كل ذرة من الماء مركبة من جوهرين فردين من الهيدروجين متحدين مع جوهر واحد من الاكسجين. وبعبارة أخرى حجمان من الاول مع حجم واحد من الثاني

الكهرباء

الكهرباء احدى قوى المادة العظيمة وهي عبارة عن حركة مخصوصة في ذراتها وكان أول الاهتداء اليها في حجر الكهرمان (ويسمى أيضا الكهرباء) فبدلكه تتولد هذه القوة فيه فيجتذب اليه بعض الاجسام ولذلك سميت باسمه . وأول من شاهد ذلك فيلسوف يوناني يسمى ثيلس (Thales) سنة ٦٠٠ ق . م

وهي تتولد بطرائق عديدة أهمها أربع : —

(١) الاحتكاك فاذا دلك الزجاج بالحرير تولد فيه كهرباء من النوع المسمى «بالكهربائية الزجاجية» واذا دلك الراتينج (وهو يتولد من الزيوت الطيارة بالتأكسد ويشبه الصمغ) بقماش الصوف المسمى (فلانلا) تولدت فيه قوة كهربائية من نوع آخر تسمى بالكهربائية الراتينجية

(٢) التفاعل الكيماوي فاذا وضع عمود من الزنك (الخارصين) وعمود آخر من النحاس في حامض الكبريتيك المخفف ووصل بينهما بسلك حصل التفاعل الكيماوي بين الحامض وبين الزنك وتولدت قوة كهربائية تسري من النحاس الى السلك ومنه الى الزنك ومنه الى الحامض حتى تعود الى النحاس ثانية فكأنها تجري في دائرة كاملة، ويسمى مجموع ذلك بالخلية الكهربائية

واجتماع عدة خلايا كهذه بحيث يتصل بعضها ببعض وتتكون منها دائرة تجري فيها الكهرباء تسمى بالبطارية الكهربائية

وكلمة بطارية مشتقة من كلمة (Battre) الفرنساوية ومعناها الضرب أو القرع ، وعليه فيمكننا تسمية البطارية بالعربية (القارعة) ويشترط في كل الخلايا أن يوجد فيها عمود لا ينفعل بالحامض وعامود آخر ينفعل به . فمن الأشياء التي لا تنفعل بالحامض النحاس — كما قلنا — والفحم والبلاتين (الذهب الابيض) والجسم المتفاعل المعتاد هو الزنك

وجميع الاجسام تشتمل على نوعين من الكهرباء ممتزجين معا وهما الزجاجية والراتينجية ويسميان أيضا الموجبة والسالبة. فاذا اختلف النوعان اتحدا واذا اتحدا

اختلفا وتنافرا ، ففي كل خلية يتولد كهرباء سالب في أعلى الزنك وموجب في أسفله وفي النحاس يتولد موجب في اعلاه وسالب في أسفله فيتحد موجب النحاس مع سالب الزنك في السلك خارج الخلية ، ويتحد موجب الزنك مع سالب النحاس داخل الحامض . ولكن للتسهيل اصطلح العلماء على أن يقولوا إن التيار الكهربائي يسري من العمود غير المنفعل الى العمود المنفعل ، ويسمى الاول عندهم بالقطب الموجب والثاني بالقطب السالب

(٣) التأثير ، ومن ذلك انه إذا وضع قطب موجب بجوار جسم متعادل (أي فيه النوعان ممتزجان كجميع الاجسام) انفصل السالب واتحد مع القطب الموجب وتولدت شرارة كهربائية من اتحاد النوعين ، وبقي في الجسم الذي كان متعادلا نوع واحد فقط وهو الموجب

ومثل هذا الاتحاد المولد للشرارة اتحاد كهربائية السحاب المختلفة النوع بعضها مع بعض أو مع كهربائية الارض السالبة فيتولد من اتحادهما نار عظيمة (الصاعقة) وصوت مزعج (الرعد) بسبب تماوج الهواء ، وضوء شديد (البرق)

وتتولد الكهرباء على سطح الارض بما يحصل عليه من الاحتكاك والتبخر والتكاثف والاحتراق ونمو النبات

المغناطيس الارضي

دوران هذه التيارات الكهربائية حول الارض يكسبها قوة المغناطيس [١] فيجذب قطباها قطبي قطع المغناطيس الاخرى المغايرين لها (كناموس الكهرباء السابق) فالقطب الشمالي يجذب الجنوبي والجنوبي يجذب الشمالي ؛ وذلك هو سبب اتجاه (ابرة الملاحين المغناطيسية) المسماة باللغة العربية « بيت الابرة » وباللغة الفرنسية « بوصله » (Boussle)

وكما ان الكهربائية تتولد بالتفاعل الكيماوي كذلك تتولد في الاجسام الحية

(١) المغناطيس كلمة يونانية مأخوذة من اسم مغنيسيا Magnesia في ليديا بآسية الصغرى حيث وجدت بكثرة أول قطع من الحديد لها هذه القوة ولكنها وجدت فيما بعد كثيرا في النروج والسويد وبعض بلاد امريكة وغيرها

من نبات وحيوان، فالعضلة العاملة المتحركة في جسم الانسان تكون سلبية بالنسبة للعضلة الساكنة

ويوجد من السمك ما فيه كهربائية عظيمة يحس بها الانسان بمجرد لمسه له كالسمك المسمى (بالرّعاد)

(٤) تسخين قطب مصنوع من معدنين مختلفين كالبزموت والانتيمون يولدفيه كهرباء . فهذه هي الطرائق التي يهمنا معرفتها

النور

النور عرض معروف من أعراض المادة يتولد من حركة أجزائها الاثيرية حركة مخصوصة وهذه الحركة الاثيرية تنبعث من جميع جهات الجسم المضيء في خطوط مستقيمة، ولا يلزم لانتشار النور في الجو سوى هذه المادة الاثيرية بخلاف بعض الاعراض الاخرى كالصوت مثلا فانه يلزم له مادة محسوسة كالهواء لنقله ولذلك يصل النور الينا من الشمس والقمر والنجوم مع العلم بان هذه الاجرام مفصول بعضها عن بعض بمسافات شاسعة خالية من الهواء أو أي جسم آخر سوى الاثير

وسرعة النور في سيره تساوي نحو ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية (١٨٦ الف ميل)

مصادر النور قسمان :

(١) صناعي : –

(ا) الاحتراق كاحتراق الزيت والشمع وغيرها

(ب) الكهرباء

(٢) طبيعي كالشمس ، ومن هذا المصدر يتولد النور أيضا بالاحتراق وغيره فالاجرام السماوية المضيئة بذاتها هي أجرام مشتعلة بالنيران، وأما المضيئة بغيرها كالقمر فتنعكس عليها الأشعة من نور الشمس كما تنعكس في المرآة ولذلك قال تعالى (فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) وقد يتولد النور بتحرك ذرات

بعض الاجسام فيتماوج بها الاثير فيضيء

والنور الابيض مركب من سبعة ألوان وهي (١) البنفسجي (٢) والنيلي (٣) والازرق (٤) والاخضر (٥) والاصفر (٦) والبرتقالي (٧) والاحمر

أما السواد فهو عدم النور مطلقا. وكل لون من هذا الالوان السبعة يتولد من حركة مخصوصة في الاثير أسرعها التي تولد البنفسجي وأبطؤها التي تولد الاحمر فاذا توالى سقوط هذه الحركات المختلفة على شبكية العين أدرك الانسان نورا أبيض ، ومن ذلك يفهم أنه اذا أتي بقرص مستدير وقسم الى سبعة أقسام ولون كل قسم منها بلون من هذه الالوان السبعة وأدير هذا القرص بسرعة شديدة رأينا لونه أبيض ويسمى هذا القرص في علم الطبيعة (قرص نيوتن)

سنة الله في رؤية الاجسام

رؤية جميع الاجسام تحصل بسقوط أشعة النور عليها ثم انعكاسها عنها الى العين فيبصرها الانسان وان كان هو في مكان مظلم اذ شرط الرؤية أن يكون المرئي في مكان مضيء لا الرائي، فهو يراه وان كانت في مكان مظلم فلا يراه، ولو كان الابصار ناشئا عن نور يسقط من العين نفسها لرأى الانسان الأشياء التي في الأماكن المضيئة والمظلمة على حد سواء . هذا إذا لم يكن الجسم مما يولد النور بنفسه كالفسفور وكبريتيد الكلسيوم فانه يجمع أشعة الشمس في أثناء النهار ويحفظها الى الليل، وكذلك عنصر الراديوم فأنه يولد نورا في الظلام وفي بعض حيوانات البر والبحر نور ينبعث منها في الظلام ومنها ذباب معروف يسمى « الحباحب »

واذا انعكست جميع التماوجات التي في النور الابيض من الجسم الى العين رأيت لونه أبيض ، ومن ذلك تفهم حكمة لبس الملابس البيضاء في الصيف فانها تعكس جميع أشعة النور والحرارة الى الخارج وأما الاجسام السوداء فهي تمتص جميع الأشعة ولا تعكس منها شيئا

وأما الاجسام الاخرى كالزرقاء مثلا فهي تمتص جميع امواج النور ماعدا التي تحدث اللون الازرق، وهكذا يقال في باقي الالوان الاخرى

واذا سقط النور على أي سطح فان زاوية السقوط (وهي الحاصلة من الشعاع

الساقط مع عمود وهمي على سطح العاكس) تساوي زاوية الانعكاس (وهي الحاصلة من الشعاع المنعكس مع العمود الوهمي المذكور)

واذا كان الجسم الذي سقط عليه النور في الماء مثلا انبعث منه الشعاع فخرج من الماء وانكسر ومال بعيداً عن الخط الوهمي المفروض

واذا كان الجسم المضيء في الهواء انبعثت منه الاشعة ونفذت الى الماء فينكسر الشعاع أيضا ويميل الى الخط الوهمي المفروض

فهذه سنن إلهية مطردة في انعكاس النور وانكساره . وبمقتضى سنة الانكسار ترى الاجسام الموضوعة في الماء في مكان أعلى من مكانها الحقيقي ومثل ذلك أيضا رؤية القضبان كالعصي مثلا معوجة اذا وضعت في الماء

وكذلك ترى أشياء على الارض كانها معلقة في السماء ، فيشاهد في بعض الجهات أناس وخيل وحمير وغير ذلك ماشية في السماء بين الغيوم ، وأصلها أشياء موجودة على الارض ولانكسار أشعة النور في طبقات الهواء المختلفة الكثافة تشاهد هذه المناظر وهي كلها من خطإ الحس

ورؤية الاجسام في المرآة تحصل بانعكاس أشعة النور المنبعثة من الجسم عن المرآة فتصل منها الى العين

ومن السنن الإلهية في هذه المسئلة أن تكون المسافة بين الجسم الحقيقي والمرآة تساوي تماما المسافة بين المرآة والجسم الموهوم خلفها

انكسار النور في المنشور والعدسات

بسبب انكسار الاشعة في الاجسام المختلفة الكثافة تنكسر الاشعة في المنشور (الزجاج المثلث المسطوح) وتميل الى قاعدته فاذا وضع منشوران قاعدة كل منهما على الاخرى انكسرت الاشعة أيضا نحو القاعدة ، واجتمعت في نقطة معينة . ومثل المنشورات في جمع الاشعة العدسات فانها تجمع الاشعة أيضا نحو مركزها ولذلك تستعمل هذه العدسات في جمع أشعة الشمس للاحراق وتستعمل أيضا في جمع أشعة

النور في التصوير كما في الآلات الفتوغرافية [١]

علمنا مما سبق ان النور مركب من سبعة ألوان فاذا انكسر النور الابيض في المنشور تحلل الى ألوانه الاصلية ويكون اللون البنفسجي أقربها الى القاعدة ويليه النيلي فالازرق فالاخضر فالاصفر فالبرتقالي فالاحمر . وأشد الالوان انكسارا البنفسجي وأقلها في ذلك الاحمر

فالمنشورات وان كانت تجمع أشعة النور كلها الا أنها مع ذلك تفرقها الى ألوانها الاصلية . وبمقتضى هذه السنة تنكسر أشعة نور الشمس في نقط الماء الساقط من السحاب فينشأ من ذلك ما يسمى (قوس قزح) وهو مركب من ألوان النور السبعة

أما اذا مر النور خلال جسم ما وكان هذا الجسم مما يمتص بعض الاشعة فان لون هذا الجسم المدرك لنا هو ما يحصل من الاشعة الباقية. مثال ذلك الزجاج الازرق اذا نفذ فيه النور امتصت (محيت) جميع الالوان ما عدا اللون الازرق وهكذا يقال في الألوان الاخرى

وأشهر العدسات اثنتان (١) المحدبة من الجانبين (٢) والمقعرة من الجانبين أما العدسة الاولى فيمكن اعتبارها كأنها منشوران اجتمعا وكانت قاعدتهما نحو المركز وأما العدسة الثانية فيمكن اعتبارها كأنها منشوران اجتمعا ورأسهما نحو المركز

ومن ذلك يفهم ان العدسات المحدبة تجمع الاشعة نحو المركز (أي نحو قاعدتي المنشورين)

وأما العدسات المقعرة فانها تفرق الاشعة بعيدا عن المركز (أي تميل فيهما الاشعة نحو القاعدتين)

واذا مر نور أبيض من مصباح عادي خلال منشور رأينا هذه الالوان السبعة ـ كما تقدم ـ واذا كان هذا النور المار في المنشور صادرا من احتراق عنصر واحد رأينا

---

(١) فتو كلمة يونانية معناها النور وغراف يونانية أيضا معناها الرسم فمعناها « رسم النور » أو التصوير الشمسي

لونا واحدا فقط كنور الصوديوم مثلا فاذا أمعنا وجدناه نفذ في المنشور لم يتغير

واذا مرت هـذه الالوان السبعة خلال الصوديوم مثلا في حالته الغازية امتص منها اللون الاصفر وبقيت الالوان الاخرى ومن ذلك يفهم أن العناصر في حالتها الغازية تمتص من الالوان السبعة اللون الذي تولده هي. وعلى هذه القاعدة وضع المنظار الفرجي ([illegible])

فاذا نظرنا بهذا المنظار الى نور الشمس رأينا الالوان السبعة ذ فسحة ونرى ما ينقصها من الاجزاء كأنها خطوط سود . وهي ناشئة من وجود عدة عناصر في الحالة الغازية محيطة بجرم الشمس وبسبب نفوذ الاشعة خلال هذه العناصر الغازية فقد بعضها والسبب في كون هذه العناصر غازية هو شدة حرارة نار الشمس

وبهذا المنظار أمكن العلماء معرفة تركيب الاجرام السماوية وعناصرها، ولهم طريقة أخرى لمعرفة هذه العناصر وهي تحليل ما يسقط منها الى الارض (كالشهب والنيازك) ولهذا المنظار فائدة أخرى عظيمة في المباحث الطبية الشرعية وغيرها

ومن الاشعة الشمسية نوعان آخران سوى أشعة النور وهما (١) أشعة الحرارة و(٢) أشعة الفعل الكيماوي وهما غير مدركين بالعين

أما أشعة الحرارة فيوجد أشدها بعد اللون الاحمر وأما الاشعة الكيماوية فيوجد أشدها بعد اللون البنفسجي

وهذه الاشعة الكيماوية هي التي تحل املاح الفضة في ألواح الآلة الفوتوغرافية وتحدث عليها الصور

أما الآلة الفوتغرافية فهي عبارة عن غرفة مظلمة تدخل الاشعة فيها من فتحة صغيرة في جدارها الامامي وفي هذه الفتحة عدسة محدبة من الجانبين لجمع الاشعة حتى تكون الصور المرسومة داخلها على الجدار الخلفي جلية واضحة، فاذا وضع لوح من الزجاج مغطى بمواد فيها ملح من أملاح الفضة أمام هذا الجدار الخلفي رسمت الصور عليه وأحدثت الاشعة تغيرا كيماويا في المادة الموضوعة على هذا اللوح وبذلك أمكنهم أخذ صور المرئيات ورسمها بهذه الطريقة

وهذه الآلة الفوتغرافية تشبه العين الباصرة في تركيبها

العين الباصرة

العين كرة مظلمة في داخلها . ويصل اليها النور من فتحة صغيرة تسمى انسان العين وهذه الكرة (المقلة) موضوعة في تجويف من الوجه يسمى (الحجاج) ويغطيها في هذا التجويف الجفنان . وحكمة الاهداب أن تمنع التراب وغيره بقدر الامكان وتقلل من ضرر أشعة الشمس الشديدة

وتغسل العين بماء يسمى الدمع تفرزه غدة موضوعة في الجهة العليا الخارجية من الحجاج داخل الجفن الاعلى ويتصرف الدمع بعد غسل العين بقناتين موضوعتين في الجفنين بقرب الانف متصلتين بكيس صغير في أعلى قصبة الانف يسمى الكيس الدمعي ومنه يجري الدمع بقناة تصب في أسفل الانف

أما طبقات العين فهي من الامام الى الخلف كما يأتي : —

( ) الملتحمة وهي التي تبطن الجفون وتغطي المقلة من الامام وهي شفافة في جزئها المتوسط لدخول النور

(٢) القرنية وهي الجزء الشفاف المستدير الذي يرى كالسواد أو غيره

(٣) الصلبة وهي في مستوى واحد مع القرنية فكأنهما غشاء واحد كروي الشكل تقريبا

(٤) القزحية وهي التي تحيط بانسان العين من جميع الجهات

(٥) المشيمية وهي أيضا في مستوى واحد مع القزحية ولونهما ومادتهما واحدة فيها أوعية كثيرة ومادة ملونة . وهذه الطبقة هي أعظم ما يجعل العين مظلمة من الداخل

(٦) الشبكية وهي تبطن نحو ثلثي العين من الداخل . وهي الطبقة العصبية الحساسة المتصلة بالعصب البصري الواصل الى المخ وعليها ترسم صور المرئيات التي يدركها الانسان

ولجمع أشعة النور ورسم الصور عليها يوجد عدة أجسام كثيفة شفافة في العين لكسر أشعة النور وهي بعد القرنية ١ً المائية وأكثرها بين القرنية والقزحية ٢ً ويليها البلورية، وهي بعد القزحية وشكلها كعدسة مستديرة ومحدبة من الجانبين ٣ً

ويليها الزجاجية، وهي مادة هلامية (كالمزوذج الشفافة تملأ باطن العين بعد البلورية

ثم ان القزحية قد تتسع وتضيق بأليف عضلية فيها بحسب حاجة العين الى النور

ومما تقدم يفهم أن أشعة النور تجتمع على الشبكية في العين الطبيعية ولكن من من الناس من أعينهم صغيرة أو كبيرة عن الحجم المعتدل فتحتاج الاعين الصغيرة الى عدسات (نظارات) محدبة، وتحتاج الكبيرة الى عدسات مقعرة . ولولا ذلك لما اجتمعت الاشعة في العين الصغيرة الا خلف الشبكية (هذا على فرض انه لا يحجبها شيء) وفي العين الكبيرة أمام الشبكية. وما دامت جميع أوساط العين التي يمر فيها النور شفافة فان كان في إبصار العين السليمة ضعف فالغالب ان يكون سببه صغر حجم العين أو كبرها فتصلح بالنظارات

الرمد الصديدي والحبيبي

ومن أعظم أسباب عتامة بعض هذه الاوساط (كالقرنية) هو اصابة العين بالرمد الصديدي أو الرمد الحبيبي المنتشر في مصر

والاحتراس من هذين الرمدين يجب تنظيف العين نظافة تامة وعدم مسها بأي شيء فيه أقل وسخ

أما ميكروب الرمد الصديدي فهو ميكروب (السيلان) أيضا ويصل الى العين بالاصابع أو المناديل أو الملابس أو غير ذلك وهو مرض فتاك بالعين لانه كثيرا ما يسبب قرحة في القرنية تؤول الى الحفر حتى لا ينفذ النور منها فتصبح عمياء وتسمى هذه البقع بالنقط أو البياضات

وأما الرمد الحبيبي فميكروبه ينتقل من شخص لآخر كما ينتقل ميكروب الرمد الصديدي فلذا يجب الاحتراس منه بالنظافة والبعد عن الارمد

وأبسط دواء بعد الماء لتنظيف عين كل شخص محلول حامض البوريك المشبع

ويجب طرد كل حشرة تقترب من العين كالذباب وغيره فانه من أعظم الاسباب لنقل أنواع الرمد، ويجب اتقاء التراب اذا ثارت الريح بوضع نظارات لوقاية العين منه . ومما يقي الطفل شر الرمد الصديدي أن يغسل عيناه عقب الولادة مباشرة بمحلول السليماني (١ في ٥٠٠٠) ويوضع فيها نقط من محلول نترات الفضة (٢ في ١٠٠)

النبذة الثانية في التشريح ووصف الاعضاء

وما يلزمها من قواعد الصحية

التشريح نوعان نوع تدرك فيه جميع أعضاء الجسم بالعين المجردة ويسمى بالتشريح العادي ونوع تستعمل فيه الميكروسكوب (المنظار المدقيق) لادراك جميع دقائق الجسم ويسمى هذا النوع بهستولوجيا (التشريح المدقيق)

فلنبدأ الآن بالكلام على النوع الاول

يتركب الجسم الانساني أولا من العظام فهي كالاساس الذي تبنى عليه جميع الاجزاء الرخوة والاحشاء ولذلك يسمى مجموع هذه العظام بالهيكل الانساني

العظام

العظام نوعان : (النوع الاول) العظام الصلبة كعظام الاطراف ، وصلابتها كصلابة العاج ، وهي جوفاء تمر في وسطها قناة ممتلئة بمادة كالدهن تسمى (نقو العظام) أو (نقيه) وأما النوع الثاني فيسمى بالاسفنجي ، كفقرات الظهر والضلوع ، وهو أيضا مغطى بطبقة رقيقة من العظم الصلب وبداخله تجاويف عديدة صغيرة غير منتظمة تشبه الاسفنج وهذه التجاويف ممتلئة أيضا بنقي يميل الى الحمرة ، وهو أعظم مكان تتولد فيه كريات الدم الحمراء خصوصا التي تخرج من نقي الضلوع

أما عظام الهيكل الانساني فهي كثيرة واليك عددها : —

(١) الجمجمة (مجموعة عظام الرأس والوجه) وهي مركبة من ٢٢ عظما منها ١٤ للوجه و٨ للرأس

(٢) — الفقرات — وهي المسماة بالصلب وعند العامة سلسلة الظهر وهي مركبة من ٣٣ قطعة كل منها تسمى فقرة وفقارة : منها سبع ٧ فقرات للعنق و١٢ للظهر و٥ للقطن و ٥ للعجز و ٤ للعصعص المسمى بعجب الذنب

(٣) الضلوع وهي عادة في الذكر [1] والانثى ١٢ في كل جانب وهي متصلة

(١) أما خلق حواء من أحد أضلاع آدم فالظاهر أنها خرافة يهودية وان كان لها مغزى عظيم

من الخلف بالفقرات ، ومن الامام بالقص (عظم الصدر)

(٤) القص مركب من ثلاث قطع . وكيفية اتصال الضلوع به كما يأتي : —
سبع ضلوع متصل كل منها به بغضروف على حدة وتسمى بالضلوع الصادقة ، أما الثلاث التي بعدها فمتصلة معا بغضاريف تتصل بغضروف الضلع السابعة وأما الاثنتان الباقيتان فهما غير متصلتين من الامام بشيء مطلقا ويسميان بالضلعين العائمتين ، وهذه الضلوع الخمس الاخيرة تسمى بالضلوع الكاذبة

(٥) عظام الاطراف العليا ويتركب كل طرف من عظم العضد ثم الساعد (وهو مركب من عظمين : الكعبرة وهي العظم الخارجي ، والزند وهو العظم الداخلي) ثم رسغ اليد وهو مركب من ثمانية عظام صغيرة ، ثم عظام المشط وهي خمسة لكل أصبع عظم يحملها ، ثم عظام الاصابع الخمس وهي ثلاث لكل أصبع ، ماعدا الابهام فله عظمان

(٦) عظام الاطراف السفلى وكل منها مركب من عظم الفخذ ، ثم الساق وهو مركب أيضا من عظمين : الشظية من الخارج والقصبة من الداخل ، ثم عظام رسغ القدم وهي مركبة من سبعة عظام صغيرة أيضا ، ثم عظام المشط وهي خمس لكل أصبع واحدة تحملها ثم عظام الاصابع ، وهي ثلاث لكل منها ما عدا إبهام القدم فله عظمان فقط

ومن العظام أيضا غير ما تقدم (١) الترقي وهما عظمان كل منهما يسمى ترقوة موضوعان في أعلى الصدر من الامام

(٢) اللوحان وهما عظمان عريضان موضوعان بأعلى الصدر من الخلف

(٣) الداغصتان وهما الموضوعتان أمام الركبتين ويسميهما بعض الاطباء المحدثين بالرضفتين ولكن ما اخترناه هنا هو الاصح لغة

(٤) عظما الحوض وهما اثنان يكونان مع العجز والعصعص تجويفا كالطست يوجد فيه المستقيم والمثانة في الذكر والرحم والمبيضان وغيرها في الانثى . ويوجد غير ذلك عظام أخرى صغيرة جدا كما بين بعض عظام الرأس وفي الاذن وعظام صغيرة توجد بقرب بعض المفاصل تسمى « السمسية » والعظم اللامي للعنق والاسنان

أما الاسنان فهي في الطفل عشرون في كل فك عشر . ويبتدئ ظهورها من الشهر السادس الى الرابع والعشرين ، ولذلك كانت مدة الرضاع الكاملة حولين كاملين ، وفي الكبير ثنتان وثلاثون سنا يبتدئ ظهورها من السنة السادسة ويتم في الخامسة والعشرين على الاغلب بظهور أربعة أضراس في آخرها تسمى أضراس العقل لان بظهورها يتم بلوغ الانسان رشده وهي النواجذ أو أضراس الحلم

والفرق بين منسوج العظام وغيره من الاجزاء الاخرى للجسم من الوجهة الكيماوية إنما هو في وجود أملاح عديدة في مادة أي بين خلاياه مثل فوسفات الكلسيوم وكربونات الكلسيوم وفوسفات المغنيسيوم وهذه الاملاح جميعا يوجد منها كمية كبيرة في العظام ، وهي السبب في يبسها فاذا أذيبت من العظم ببعض الحوامض صار العظم رخوا طريا

المفاصل

وجميع هذه العظام متصل بعضها ببعض بمفاصل . والمفاصل ثلاثة انواع :
(١) مفاصل متحركة حركة تامة كالكتف و (٢) مفاصل غير متحركة كما بين عظام الجمجمة و (٣) مفاصل بين بين أي ان حركاتها متوسطة فلا هي معدومة بالمرة ولا هي متحركة حركة كبيرة وذلك كالمفاصل التي بين الفقرات

والفرق بين المفاصل المتحركة حركة كاملة (وهي الاولى) وبين غيرها أنها عبارة عن تجويف محاط بمنسوج ليفي وبعض أربطة أخرى وهي مبطنة بغشاء أملس يفرز مادة مصفرة قليلا تشبه زلال البيض والغرض منها تسهيل الحركات فهي كالزيت للآلات الحديدية (فسبحان الخالق الحكيم)

وجميع العظام مغطاة[1] بغشاء ملتصق بها التصاقا شديدا وفيه أوعية الدم ومنه تتغذى بحيث اذا أتلف هذا الغشاء أو أزيل بمرض أو غير مرض يموت العظم الذي تحته ، وهذا الغشاء يسمى بالسمحاق . وموت العظم يسمى النخر أو التآكل وهو المسمى عند العامة بالتسويس . والفرق بينهما أن الاول (النخر) تموت فيه قطع

(١) ما عدا أطرافها الغضروفية

كبيرة من العظم بجملتها ، والثاني — التآكل — تموت فيه أجزاء صغيرة تنفصل عن باقي الجسم شيئا فشيئا

العضلات

جميع حركات الجسم تكون بالعضلات، وهي المسماة باللحم

وبعض هذه العضلات أبيض اللون، كما في بعض الحيوانات مثل السمك والارانب، وبعضها لونه أحمر، كما في الانسان وغيره من الحيوانات. والسبب في حمرتها اشتمالها على جزء في منسوجها من حمرة الدم المسماة بالهيموجلوبين ومن غيرها ولذلك كان اللحم الاحمر أكثر تغذية من اللحم الابيض ولكنه أعسر هضما

والعضلات تأتي عملها في تحريك الجسم بالانقباض، وهي ثلاثة أنواع :

(١) العضلات الاختيارية، وهي الموجودة حول عظام الهيكل كله، وأكثرها يوصل بين عظمين فأكثر، وينتهي غالبا بما يسمى بالاوتار، وهي منسوج ليفي أبيض اللون متين جدا يشبه الحبال ويندغم في العظام المتحركة، فاذا قصرت العضلة أو انقبضت انثنت العظام بعضها على بعض، وحركة هذه العضلات هي باختيار الحيوان، وهي التي قسمناها الى بيضاء وحمراء ، والبيضاء أرق شكلا وأسرع عملا

(٢) العضلات غير الاختيارية، وهي التي توجد في جدر الامعاء وأوعية الدم وغيرها كالحالب [1] ويختلف شكلها عن القسم الاول اذا نظرت بالمجهر « الميكروسكوب » اختلافا كبيرا، وحركتها ليست بارادة الحيوان ولكن للاعصاب تأثيرا فيها مادامت مرتبطة بها فاذا انفصلت عنها استقلت بعملها كالامعاء بعد قطع جميع أعصابها فان الطعام كاف لتنبيهها

وكل انقباض للعضلات اختيارية كانت أو غير اختيارية لايحصل الا بمنبه. وأنواع المنبهات خمسة (١) المواد الكيماوية (٢) الحرارة (٣) الافعال الآلية (الميكانيكية) كالضرب على العضلات أو القرص (٤) الكهرباء (٥) التيار العصبي، فالاربعة الاولى ممكن حصولها خارج الجسم بعد ذبح الحيوان . أما المنبه العصبي فان كان

(١) مجري البول الواصل من الكلية الى المثانة

منشؤه من المخ كان فعلا اختياريا و الا كان غير اختياري

ومصدر التنبيه العصبي سواء كان من المخ أم من النخاع هو من الخارج أيضا - كما يرى الآن جمهور الفسيولوجيين - ويرى بعض الناس أن المخ يمكنه أن يبدأ التنبيه من ذاته

واذا وصل التنبيه الخارجي الى المراكز العصبية ومنها ارتد الى الاعضاء أو العضلات فحركها سمي ذلك « بالفعل المنعكس »

(٣) عضلة القلب . وهذه العضلة تختلف أيضا في شكلها الميكروسكوبي عن النوعين السابقين ، وهي غير خاضعة للتنبيه العصبي الا من حيث الكثرة أو القلة أو الضعف أو القوة أو نحو ذلك . وأما انقباضها فيحصل بقوة فيها خاصة بها ليست ناشئة عن منبه خارجي

وعليه فالفرق بين هذه الانواع الثلاثة يلخص في الكلمات الآتية :—

تنقبض العضلات الاختيارية بعلم المخ وتأثيره ، وغير الاختيارية بدون علمه ، ولكنها خاضعة للاعصاب مادامت في الجسم ولا بد من تنبيهها بشيء ولو غير عصبي والا لما انقبضت ، وأما القلب فينقبض بنفسه بدون سبب خارجي ، وسواء اتصلت به أعصاب أم لم تتصل ، وانما يمكن للاعصاب أن تزيد في ضرباته أو تنقص منها أو نحو ذلك ، أما منشأ الحركة فلا علاقة لها به ولا يعلمه الا الله تعالى

الاعصاب

مراكز الاحساس والحركة في الجسم الانساني محصورة في المخ والنخاع وحوله . فالمخ عبارة عن جسم كبير موضوع في الجمجمة ، وهو مركب من فصين عظيمين متصل أحدهما بالآخر من أسفلهما ، وفي كل فص من الفصين تجويف ممتلئ بجزء من سائل ، ويسمى هذا التجويف بالبطين ، والمخ مغطى بثلاثة أغشية تسمى جميعها السحايا وكل منها يسمى الام

وجوهر المخ نوعان (النوع الاول السنجابي) وهو المغطي سطحه ، وهو مركب من خلايا عصبية لها وظائف مختلفة . ويقسم سطح المخ الى عدة أقسام . فمنه جزء للابصار ، وهو في الخلف ، وجزء للحركات الاختيارية ، وهو في جانبيه ، وجزء للكلام وهو في الجهة اليسرى الجانبية ، وجزء للسمع وغير ذلك . وكل جانب من المخ متصل

بالجانب المخالف له من الجسم فحركات العضلات التي في الاطراف اليسرى متصلة بالجانب الايمن من المخ وبالعكس، ما عدا قوة الكلام فانها في الجانب الايسر في غالب الاشخاص. أما العُسر وهم الذين يعملون بشمائلهم فيوجد مركز الكلام عندهم في الجهة اليمنى من المخ

(النوع الثاني الابيض) ومكانه تحت القشرة السنجابية، وهو عبارة عن ألياف عصبية توصل أجزاء المخ بعضها مع بعض وتوصله بالنخاع

المخيخ : موضعه مؤخر الجمجمة في أسفل المخ،وهو أيضا مركب من فصين صغيرين ليس بهما تجويف بخلاف فصي المخ،وبينهما جسم كالدودة يربطهما وهو أهم منهما. ووظيفته حفظ التوازن في الجسم

النخاع : يبتدئ من الجمجمة الى الحافة السفلى للفقرة الاولى القطنية وذلك في الكهول، أما في الاجنة فانه يملأ القناة الفقرية كلها الى الشهر الثالث. وهو جسم اسطواني مغطى أيضا بثلاثة أغشية كأغشية المخ من كل وجه. ويتركب من جوهرين أيضا أبيض وسنجابي ، ولكن الجوهر الابيض منه في الخارج والجوهر السنجابي في الداخل ، والابيض عبارة عن ألياف عصبية كما في المخ ، والسنجابي عبارة عن خلايا عصبية كما في المخ أيضا

والجزء السنجابي مركب من هلالين تحديبهما انسي وقرنا كل منهما الى الامام والخلف ويجمع بين الهلالين عند جزئهما المحدب ، وفي مجمعهما قناة صغيرة دقيقة تمتد في طول النخاع كله وتتصل في أعلاها بتجاويف المخ (البطينات)

يتصل بالمخ اثناعشر زوجا من الاعصاب لها وظائف عديدة: فمنها مايحرك بعض العضلات في الوجه وغيره، ومنها مايحصل به الاحساس،ومنها ماهو خاص بنوع من الاحساس كالعصب البصري الذي يحصل به ادراك المرئيات، وكعصب السمع وغيرهما

ويتصل بالنخاع ٣١ زوجا من الاعصاب :٨منها تخرج من بين فقرات العنق،و١٢ من بين فقرات الظهر و٥ من بين فقرات القطن ، و٥ من بين فقرات والعجز ، و١ من العصعص. وهذه الاعصاب يتركب كل فرد منها من قسمين: أمامي وخلفي ، فالامامي لحركة العضلات والخلفي للاحساس . أما الخلايا التي يصدر

منها الجزء الامامي فتوجد في القرون الامامية للمادة السنجابية في النخاع. وأما خلايا الجزء الخلفي فتوجد خارج النخاع ويتكون منها عقد صغيرة موضع أكثرها في الثقوب التي بين الفقرات ولكنها خارج سحايا النخاع. و بعد هذه العقد مباشرة يتحد الجزء الامامي المحرك مع الجزء الخلفي الحساس فيتكون منهما عصب واحد فيه الوظيفتان، ثم ينقسم هذا العصب الى قسمين أيضا: قسم امامي للحس والحركة، وقسم خلفي لهما أيضا، فالالياف الخاصة بالحركة في القسمين (التي أصلها من القرون الامامية للنخاع) تنتهي بالعضلات وهي التي تحدث فيها الحركة (أي تسبب انقباضها) والالياف الخاصة بالحس (وهي الآتية من العقد التي خارج النخاع) تنتهي بالجلد وغيره وهي التي يحصل بها الاحساس في الحيوان عند مس أي شيء

وجميع هذه الاعصاب ترى في الجسم الانساني عند تشريحه كحبال بيضاء منها الدقيق ومنها الغليظ ، وأغلظها عصب عظيم يوجد داخل الورك ويوزع على الساق كلها ، وهذا العصب اذا أصابه مرض ما حدث عنه ألم شديد في الفخذ يسمى بعرق النَّسا

و يوجد مجموعة أخرى من الاعصاب تسمى الاعصاب السمباتوية وهي مركبة من عقد وألياف أيضا وموزعة على جميع الاحشاء وعلى جميع أوعية الدم ، ومتصلة أيضا بالمجموعة الاولى المركبة من المخ والنخاع ، وللاعصاب السمباتوية وظيفة هامة جدا في عمل جميع الاحشاء وحركة عضلات جدر الشرايين في انقباضها وانبساطها الا أنها ليست مستقلة في وظيفتها عن المجموعة الأولى . ومعنى «سمباتيا» المشاركة في الشعور أو الاحساس، وهي لفظ يوناني، وسميت بذلك لان بها ترتبط الاحشاء بعضها مع بعض، ومع الأوعية الدموية فكأن كلا منها يشعر بالآخر، وعليه فيمكننا تسميتها بلغتنا العربية « مجموعة الارتباط العصبي »

التاريخ

جعل مصر سلطنة تحت حماية انكلترة

كان أول عواقب دخول الدولة العثمانية في الحرب الأوربية أن أعلنت انكلترة ازالة سيادتها الرسمية عن مصر وجعلها تحت الحماية البريطانية وتسميتها سلطنة وتسمية الامير حسين كامل باشا أرشد أسرة محمد علي باشا سلطانا عليها

في ١٩ دسمبر الماضي ذهب المستر ملن شيتهام متولي أعمال الوكالة البريطانية والمستر ستورس سكرتيرها الشرقي الى القصر الذي يقيم فيه الأمير حسين كامل باشا وقدما اليه بلاغ الحكومة البريطانية المؤذن بجعل القطر المصري تحت حمايتها وبجعله سلطانا من قبلها لمصر وهذه ترجمته بالعربية كما نشر في الجرائد :

البلاغ البريطاني

ياصاحب السمو ! كلفني جناب ناظر الخارجية لدى جلالة ملك بريطانية العظمى ان أخبر سموكم بالظروف التي سببت نشوب الحرب بين جلالته وبين سلطان تركية وبما نتج عن هذه الحرب من التغيير في مركز مصر

كان في الوزارة العثمانية حزبان أحدهما معتدل لم يبرح عن باله ما كانت بريطانية العظمى تبذله من العطف والمساعدة لكل مجهود نحو الاصلاح في تركية ومقتنع بان الحرب التي دخل فيها جلالته لاتمس مصالح تركيا في شيء ومرتاح لما صرح به جلالته وحلفاؤه من ان هذه الحرب لن تكون وسيلة للاضرار بتلك المصالح لافي مصر ولا في سواها . وأما الحزب الآخر فشرذمة جنديين افاقين لاضمير لهم أرادوا اثارة حرب عدوانية بالاتفاق مع أعداء جلالته معللين أنفسهم أنهم بذلك يتلافون ماجروه على بلادهم من المصائب المالية والاقتصادية . أما جلالته وحلفاؤه فمع انتهاك حرمة حقوقهم قد ظلوا الى آخر لحظة وهم يأملون أن

تتغلب النصائح الرشيدة على هذا الحزب فلذلك امتنعوا عن مقابلة العدوان بمثله حتى أرغموا على ذلك بسبب اجتياز عصابات مسلحة الحدود المصرية ومهاجمة الاسطول التركي بقيادة ضباط ألمانيين ثغورا روسية غير محصنة

ولدى حكومة جلالة الملك أدلة وافرة على أن سمو عباس حلمي باشا خديوي مصر السابق قد انضم انضماما قطعيا الى أعداء جلالته منذ أول نشوب الحرب مع المانية

وبذلك تكون الحقوق التي كانت للسلطان التركية وللخديوي السابق على بلاد مصر قد سقطت عنهم وآلت الى جلالته

ولما كان قد سبق لحكومة جلالته انها أعلنت بلسان قائد جيوش جلالته في بلاد مصر انها أخذت على عاتقها وحدها مسؤولية الدفاع عن القطر المصري في الحرب الحاضرة فقد أصبح من الضروري الآن وضع شكل للحكومة التي ستحكم البلاد بعد تحريرها، كما ذكر من حقوق السيادة وجميع الحقوق الاخرى التي كانت تدعيها الحكومة العثمانية

فحكومة جلالة الملك تعتبر وديعة تحت يدها لسكان القطر المصري جميع الحقوق التي آلت اليها بالصفة المذكورة وكذلك جميع الحقوق التي استعملتها في البلاد مدة سني الاصلاح الثلاثين الماضية . ولذا رأت حكومة جلالته ان أفضل وسيلة لقيام بريطانية العظمى بالمسؤولية التي عليها نحو مصر أن تعلن الحماية البريطانية اعلانا صريحا وان تكون حكومة البلاد تحت هذه الحماية بيد أمير من أمراء العائلة الخديوية طبقا لنظام وراثي يقرر فيما بعد

بناء عليه قد كلفتني حكومة جلالة الملك ان أبلغ سموك انه بالنظر لسن سموك وخبرتكم قد رئي في سموك أكثر الامراء من سلالة محمد علي أهلية لتقلد منصب الخديوية مع لقب « سلطان مصر » وانني مكلف بان أؤكد لسموك صراحة عند عرضي على سموك قبول عبء هذا المنصب ان بريطانية العظمى أخذت على عاتقها وحدها كل المسؤولية في دفع أي تعد على الاراضي التي تحت حكم سموك مهما كان مصدره . وقد فوضت إليّ حكومة جلالته ان أصرح بانه بعد اعلان الحماية

البريطانية يكون لجميع الرعايا المصريين الذين كانوا الحق في أن يكونوا مشمولين بحماية حكومة جلالة الملك

وبزوال السيادة العثمانية تزول أيضا القيود التي كانت موضوعة بمقتضى الفرمانات العثمانية لعدد جيش سموكم والحق الذي لسموكم في الانعام بالرتب والنياشين

اما فيما يختص بالعلاقات الخارجية فترى حكومة جلالته ان المسؤولية الحديثة التي أخذتها بريطانية العظمى على نفسها تستدعي أن تكون المخابرات منذ الآن بين حكومة سموكم وبين وكلاء الدول الاجنبية بواسطة وكيل جلالته في مصر

وقد سبق لحكومة جلالته انها صرحت مرارا بان المعاهدات الدولية المعروفة بالامتيازات الاجنبية المقيدة بها حكومة سموكم لم تعد ملائمة لتقدم البلاد ولكن من رأي حكومة جلالته أن يؤجل النظر في تعديل هذه المعاهدات الى ما بعد انتهاء الحرب

وفيما يختص بادارة البلاد الداخلية عليّ أن أذكر سموكم ان حكومة جلالته طبقا لتقاليد السياسة البريطانية قد دأبت على الجد بالاتحاد مع حكومة البلاد وبواسطتها في ضمان الحرية الشخصية وترقية التعليم ونشره وانماء مصادر ثروة البلاد الطبيعية والتدرج في اشراك المحكومين في الحكم بمقدار ما تسمح به حالة الامة من الرقي السياسي . وفي عزم حكومة جلالته المحافظة على هذه التقاليد بل انها موقنة بان تحديد مركز بريطانيا العظمى في هذه البلاد تحديدا صريحا يؤدي الى سرعة التقدم في سبيل الحكم الذاتي

وستحترم عقائد المصريين الدينية احتراما تاما كما تحترم الآن عقائد نفس رعايا جلالته على اختلاف مذاهبهم . ولا أرى لزوما لأن أؤكد لسموكم ان تحرير حكومة جلالته لمصر من ربقة أولئك الذين اغتصبوا السلطة السياسية في الاستانة لم يكن ناتجا عن أي عداء للخلافة، فان تاريخ مصر السابق يدل في الواقع على ان اخلاص المسلمين المصريين للخلافة لا علاقة له البتة بالروابط السياسية التي بين مصر والاستانة، وان تأييد الهيئات النظامية الاسلامية في مصر والسير بها في سبيل

التقدم هو بالطبع من الامور التي تهتم بها حكومة جلالة الملك مزيد الاهتمام، وستلقى من جانب سموكم عناية خاصة، وسموكم أن تعتمدوا في اجراء مايلزم لذلك من الاصلاحات على كل انعطاف وتأييد من جانب الحكومة البريطانية . وعلي أن أزيد على ماتقدم ان حكومة جلالة الملك تعول بكل اطمئنان على اخلاص المصريين ورويتهم واعتدالهم في تسهيل المهمة الموكولة الى قائد جيوش جلالته المكلف بحفظ الامن في داخل البلاد و بمنع كل عون للعدو. واني انتهز هذه الفرصة فاقدم لسموكم أجل تعظيماتي

تحريرا في ١٩ دسمبر سنة ١٩١٤ ملن شيتهام

(الاحتفال بنصب الامير حسين كامل سلطانا لمصر)

جرى هذا الاحتفال في يوم الاحد ثالث شهر صفر الماضي الموافق ٢٠ دسمبر وكانت معداته مهيئة قبل ذلك بأيام أو أسابيع، ورقاع الدعوة اليه قدوزعت في جميع أرجاء القطر . وهذا مقدمة نص البلاغ الرسمي الصادر من قصر عابدين في ذلك:

«برح صاحب العظمة مولانا السلطان في منتصف الساعة العاشرة في يوم الاحد ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٤ سراي دولة الامير كمال الدين باشا في موكب فخيم محفوفا بحراسه ومن ورائه أصحاب السعادة الوزراء تقلهم مركبتان من مركبات المعية السنية فأطلقت مدافع القلعة واحدا وعشرين مدفعا ايذانا وأدت طلبة المدرسة الحربية والجند التحية. وكان الشعب يهتف لعظمته طول الطريق هتافا متواصلا. ولما أقبل عظمته على ميدان عابدين ضج له جماهير المدعوين الموجودين بالصيوان المنصوب أمام السراي وهم مندوبو المديريات وكبار موظفي الحكومة وحضرات العلماء والرؤساء الروحانيين وكبار ضباط الجيش الانكليزي والمصري. ولما وصلت المركبة السلطانية الى باب السراي استقبله كل من أصحاب الدولة امراء العائلة السلطانية وصاحبي

الفضيلة شيخ الاسلام ومفتي الديار المصرية وحضرات رئيس ووكيل الجمعية التشريعية والمستشارين ووكلاء الوزارات ورئيسي محكمة الاستئناف الاهلية والمختلطة والنائبين العموميين لدى المحاكم الاهلية والمختلطة ومحافظ وكبار رجال المعية » وتلى ذلك بيان كيفية المقابلات ، وما تخللها من الخطب والمخاطبات

ترجمة برقيات التهاني بين لندرة ومصر

البرقية الاولى من ملك الانكليز — تهنئة

الى صاحب العظمة السلطانية سلطان مصر بالقاهرة

في الوقت الذي ترتقي فيه عظمتكم السلطانية منصبها السامي أرغب أن أقدم الى عظمتكم السلطانية عواطف الوداد المنبعثة عن أكمل اخلاص مع تأكيدي لكم بأنني لا أنفك عن تأييدكم في سبيل المحافظة على كيان مصر وضمان رفاهيتها في المستقبل وسعادتها. ولقد دعيتم عظمتكم السلطانية الى تحمل مسؤولية منصبكم السامي إبان أزمة خطيرة في الحياة الاهلية بمصر. واني على يقين انه بمعاونة وزرائكم وبحماية بريطانية العظمى يتسنى لكم التغلب على كل المؤثرات التي يراد بها العبث باستقلال مصر و برفاهة أهاليها وحريتهم وسعادتهم

جورج
ملك وامبراطور

البرقية الثانية من سلطان مصر — شكر

أقدم لجلالتكم فائق الامتنان على ماتفضلتم به من شعائر الوداد التي شرفتموني بها وعلى ما أكدتموه لي من نفيس التعضيد للمحافظة على كيان مصر واستقلالها. ولما كنت على علم تام بالمسؤولية التي أخذتها على عاتقي وقد عقدت النية على تخصيص كل مافي وسعي لتقدم أمتي وسعادتها سالكا مع الحماية في ذلك سبيل

الوثيق فانني أعتبر من حسن حظي أن يتاح لي الاعتماد في القيام بهذا العبء على جميل عواطف جلالتكم وعلى معاونة حكومتكم حسين كامل

البرقية الثالثة من لورد كتشنر - تهنئة

الى صاحب العظمة السلطانية سلطان مصر بالقاهرة

أتشرف بتقديم أجل مراسم التهاني والاحترام الى مقام عظمتكم السلطانية بمناسبة ارتقائكم عرش سلطنة مصر وأسأله تعالى أن يوفق مصر في ظل عظمتكم السلطانية وبمعاونة ونصح أصدقائها الى جعل مستقبلها مقرونا بالطمأنينة والسعادة

كتشنر

البرقية الرابعة من سلطان مصر - شكر

الى لورد كتشنر لندن

كان لتهانئكم الودية بمناسبة ارتقائي عرش السلطنة أجمل وقع في فؤادي فأشكركم شكرا جزيلا على ما أبديتموه من العواطف والاماني نحو بلادي . وان ما أعلمه من عظيم اهتمامكم بمصر يجعلني على يقين بأنه يتسنى لها الاعتماد عليكم كما تعتمد على خير أصدقائها حسين كامل

البرقية الخامسة . امنية

من اللورد كتشنر الى رئيس الوزراة حسين رشدي باشا

أبادر بابلاغ عطوفتكم أماني المنبعثة من أكمل عواطف الاخلاص والوداد نحو مستقبل النظام الذي انفتح عصره في هذا الصباح وان ثقتي بحكمة عطوفتكم وبوطنيتكم تجعل لي الامل الوطيد باستمرار مصر في طريق السعادة والتقدم

البرقية السادسة من رئيس الوزارة - شكر واغتباط

أشكر جنابكم على جميل تلغرافكم . وأنا على يقين مثلكم بأن مصر في عهد نظامها الجديد ستتابع خطاها في طريق النظام والارتقاء

واني لمرتاح الى ماعندي من الامل بامكان الاعتماد على مودتكم الثمينة أثناء قيامي باعباء وظيفتي ا ه

تهاني الشعراء

نظم أشهر شعراء مصر قصائد في التهاني السلطانية . وفي مقدمتهم اسمعيل باشا صبري واحمد شوقي بك ومحمد حافظ بك ابراهيم . وامتازت قصيدة شوقي بأنها لم تكن مدحا وثناء مجردا كغيرها بل تمثيلا لشعوره ووجدانه الخاص من حيث هو ربيب بيت الخديو اسمعيل باشا وغرس نعمته ، ووجدانه العام من حيث هو مسلم مصري ، ويشاركه في هذا جمهور المصريين . فلذا أثبتناها بنصها أثرا تاريخيا لا نخرج عن سنة المنار في عدم نشر المدائح الشخصية . وها هي ذه :

الملك فيكم آل إسماعيلا ... لازال بيتكمو يظل النيلا
لطف القضاء فلم يمل لوليكم ... ركن ولم يشف الحسود غليلا
هذى أصولكمو وتلك فروعكم ... جاء الصميم من الصميم بديلا
الملك بين قصوركم في داره ... من ذا يريد عن الديار رحيلا[1]
(عابدين) شرف يا ابن رافع ركنه ... عزا على النجم الرفيع وطولا
مادام مغنا لكم[2] فليس بسائل ... أحوى فروعا أم أقل أصولا
أنتم بنو المجد المؤثل والندى ... لكمو السيادة صبية وكهولا
النيل إن أحصى لكم حسناتكم ... ملأ الزمان محاسنا والجيلا
أحيا أبوكم شاطئيه وابتنى ... مجدا لمصر على الزمان أثيلا
نشر الحضارة فوق مصر وسوريا ... وأمتد ظلا للحجاز ظليلا
وأعاد للعرب الكرام بيانهم ... وحمى الى البيت الحرام سبيلا

***

حفظ الآله على (الكنانة) عرشها ... وأدام منكم للهلال كفيلا
بنيان (عمرو) أمنته عناية ... من أن يزعزع ركنه ويميلا
وتدارك الباري لواء محمد ... فرعى له عزا وصان حجولا

---

(١) قيل انه أشار الى نفي ما اشيع من خبر نقيه من مصر

(٢) أي مادام قصر عابدين مقاما لكم يا آل اسماعيل

في برهة يذر الاسرة نحسها مثل النجوم طوالعا وأفولا
الله أدركه بكم وبأمة كالمسلمين الاولين عقولا
حلفاؤنا الاحرار الا أنهم أرقى الشعوب عواطفا وميولا
أعلى من الرومان ذكرا في الورى وأعز سلطانا وأمنع غيلا
لما خلا وجه البلاد لسيفهم ساروا سماحا في البلاد عدولا
وأتوا بكابرها وشيخ ملوكها ملكا عليها صالحا مأمولا
تاجان زانهما المشيب بثالث وجد الهدى والحق فيه مقيلا

***

سبحان من لاعز الا عزه يبقى ولم يك ملكه ليزولا
لاتستطيع النفس في ملكوته إلا رضى بقضائه وقبولا
الخير فيما اختاره لعباده لا يظلم الله العباد فتيلا
ياليت شعري هل يحطم سيفه للبغي سيفا في الورى مسلولا
سلب البرية سلمها وهناءها ورمى النفوس بألف عزرائيلا
زال الشبابُ عن الديار وخلفوا للباكيات الثكل والترميلا
طاحوا فطاح العلم تحت لوائهم وغدا التفوق والنبوغ قتيلا
الله يشهد ما كفرت صنيعة في ذا المقام ولا جحدت جميلا
وهو العليم بأن قلبي موجع وجعا كداء الثاكلات دخيلا
مما أصاب الخلق في أبنائهم ودهى الهلال ممالكا وقبيلا
أأخون اسماعيل في أبنائه ولقد ولدت بباب اسماعيلا
ولبست نعمته ونعمة بيته فلبست جزلا وارتديت جميلا
ووجدت آبائي على صدق الهوى وكفى بآباء الرجال دليلا
رؤيا (عليّ) يا (حسين) تأولت ماأصدق الاحلام والتأويلا
واذا بُناة المجد راموا خطة جعلوا الزمان محققا ومنيلا
القوم حين دها القضاء عقولهم كسروا بأيديهم لمصر غلولا
هدموا بوادي النيل ركن سيادة لهمو كركن العنكبوت ضئيلا

ارقه(١) سرير أبيك والبس تاجه ... واكرم على القصر المشيد نزيلا
مرت أويقات عليه موحشا ... كالرمس لا خلوا ولا مأهولا
ليست معالي الامر شيئا غائبا ... عنكم وليس مكانكم مجهولا
كم سستموه في الشبيبة مضلعا ... وحملتموه في المشيب ثقيلا
وحميتمو زرع البلاد وضرعها ... وهززتمو للمكرمات نخيلا
ياأكرم الاعمام حسبك أن ترى ... للعبرتين بوجنتيك مسيلا
من عثرة ابن أخيك تبكي رحمة ... ومن الخشوع لمن حباك جزيلا
ولو استطعت اقالة لعثاره ... من صدمة الأقدار كنت مقيلا

***

ياأهل مصر كلوا الامور لربكم ... فالله خير موئلا ووكيلا
جرت الامور مع القضاء لغاية ... وأقرها من يملك التحويلا
أخذت عنانا منه غير عنانها ... سبحانه متصرفا ومديلا
هل كان ذاك العهد الا موقفا ... للسلاطين وللبلاد وبيلا
يعتز كل ذليل أقوام به ... وعزيز كم يلقي القياد ذليلا
دفعت بنافيه الحوادث وانقضت ... الا نتائج بعدها وذيولا
وانفض ملعبها وشاهده على ... أن الرواية لم تتم فصولا
فأدمتمو الشحناء فيما بينكم ... ولبثتمو في المضحكات طويلا
كل يؤيد حزبه وفريقه ... ويرى وجود الآخرين فضولا
حتى انطوت تلك السنون كملعب ... وفرغتمو من أهلها تمثيلا
واذا أراد الله أمرا لم تجد ... لقضائه ردًّا ولا تبديلا

---

(١) كتبت الكلمة في بعض الجرائد « ارقأ » وهو غلط لانه امر رقي الناقص لارقأ المهموز ، ولعل سببه كتابتها في الاصل بالالف فجعلوها همزة . والمقام هنا مقام وصل الفعل بهاء السكت كما فعلنا

آثارة تاريخيه

من مقدمات الحرب المدنية الاوربية

وهي البرقيات التي تبودلت بين العاهلين العظيمين
قيصر الألمان وقيصر الروس (١)

١

من الامبراطور ولهلم الى الامبراطور نقولا
٢٨ يوليو ١٩١٤ (الساعة ١٠ والدقيقة ٤٥ مساء)

لقد علمت بمزيد القلق خبر الوقوع الذي وقعه زحف الجنود النمسوية على سربية في امبراطوريتكم . ان التحريض العظيم الذي توالى في سربية منذ سنوات أفضى الى جناية فظيعة اغتيل فيها الارشدوق فرنس فرديننذ ، فالروح الذي حمل السربيين على اغتيال ملكهم وقرينته لا يزال سائدا تلك البلاد ، ولا ريب في انكم توافقونني انا - أي أنت وأنا كسائر الملوك لنا مصلحة مشتركة في الاصرار على معاقبة مرتكبي جناية القتل هذه العقاب الذي يستحقونه

على انني أعلم أيضا انه يصعب جدا عليكم وعلى حكومتكم مقاومة مظاهرات الرأي العام ، فانا تذكارا للصداقة القلبية التي بيني وبينكم منذ زمان طويل أبذل كل نفوذي في اقناع النمسة بالاتفاق مع سربية ، واني أعتمد على تأييدكم في مساعيَّ لازالة جميع الصعوبات التي يحتمل ان تنشأ صديقكم المخلص وابن عمكم
ولهلم

٢

من الامبراطور نقولا الى الامبراطور ولهلم
قصر بترهوف في ٢٩ يوليو ١٩١٤ (الساعة واحدة بعد الظهر)

سرني خبر عودتكم الى ألمانية واني أطلب مساعدتكم في هذه الآونة الحرجة

(١) نقلت من ملحقات الكتاب الاصفر الفرنسي الرسمي

فقد أعلنت حرب معيبة على أمة ضعيفة وانا أشاطر روسية سخطها العظيم
واني أرى انني سأعجز قريبا عن دفع الضغط الواقع علي واضطر الى اتخاذ
تدابير تؤدي الى الحرب

فاجتنابا لنكبة حرب أوربية أرجو منكم باسم صداقتنا القديمة ان تفرغوا كل
جهدكم في منع حليفتكم من الافراط في الخطة التي سارت عليها نقولا

٣

من الامبراطور ولهلم الى الامبراطور نقولا

٢٩ يوليو ١٩١٤ (الساعة ٦ والدقيقة ٣٠ مساء)

تلقيت برقيتكم وأنا أشاطركم الرغبة في حفظ السلام
ولكن لا أرى ان زحف النمسة على سربية حرب معيبة كما قلت في تلغرافي
الاول، فقد علمت النمسة بالاختبار انه يستحيل تصديق مواعيد سربية مادامت
محصورة في الكتابة على الورق

وعندي انه ينبغي النظر الى مازفعه النمسة كأنه سعي للحصول على الضمان
الكافي بان سربية تقوم بمواعيدها ، وقد تأيد اعتقادي بما صرحت به النمسة من
أنها لا تبغي الاستيلاء على شيء من أملاك سربية

ولذلك أرى ان روسية تستطيع أن تقف موقف المتفرج فلا تجر أوربة الى
أعظم حرب رآها العالم

وأعتقد أن الاتفاق بين حكومتكم وفينة مستطاع ومرغوب فيه لاسيما وأن
حكومتي باذلة الجهد للتوصل الى هذا الاتفاق كما أخبرتكم في تلغرافي السابق

ولا يخفى ان اتخاذ روسية لتدابير حربية تعدها النمسة تهديدا لها يعجل وقوع
النكبة التي نحاول كلانا اجتنابها ويحول دون قيامي بمهمة الوسيط التي قبلتها بلا
تردد لما استجرت بصداقتي ومعونتي ولهلم

٤

من الامبراطور ولهلم الى الامبراطور نقولا

٣٠ يوليو ١٩١٤ (الساعة ١ صباحا)

صدرت التعليمات الى سفيري أن يوجه نظر حكومتكم الى الاخطار والعواقب الوخيمة التي تنشأ عن تعبئة الجيش وهذا الذي قلته لكم في تلغرافي الاخير

ان النمسة عبأت جيشها ضد سربية فقط ولم تعبئ سوى جانب من جيشها فاذا عبأت روسية جيشها ضد النمسة كما يتضح من برقيتكم و بلاغ حكومتكم تعذر عليّ القيام بمهمة الوسيط بل استحال وهي المهمة التي نطتموها بي بروح المودة وقبلتها بناء على طلبكم المعجل

فعبء البت في الامر واقع على عاتقكم وأنتم تتحملون عبء تبعة الحرب أو السلم ولهلم

٥

من الامبراطور نقولا الى الامبراطور ولهلم

قصر بترهوف في ٣٠ يوليو ١٩١٤ (الساعة ١ والدقيقة ٢٠ بعد الظهر)

أشكركم من صميم الفؤاد على جوابكم السريع واني مرسل تاتيشف اليوم مساء مزودا بالتعليمات. أما التدابير الحربية التي تتخذ الآن فقد قر القرار عليها منذ خمسة أيام لمقابلة استعداد النمسة

واني أتمنى من صميم الفؤاد ان لاتؤثر هذه التدابير في قيامكم بمهمة الوسيط وهي المهمة التي اقدرها حق قدرها فاننا نحتاج الى توسطكم بالحزم مع النمسة لحملها على الاتفاق معنا نقولا

٦

من الامبراطور نقولا الى الامبراطور ولهلم

٣٠ يوليو ١٩١٤

أشكركم من صميم الفؤاد على ما تبدونه من النية التي تدل على وجود بارقة أمل بان الامور تنتهي على مايرام . اما توقيف استعدادنا الحربي فغير مستطاع فنيا وقد اضطرتنا تعبئة النمسة الى هذا الاستعداد

اننا أبعد الناس عن الرغبة في الحرب وما دامت المفاوضات في موضوع

سربية دائرة مع النمسة فجنودي لاتقدم على عمل ما من أعمال التحرش وأؤكد لكم ذلك بشرفي

أني موقن تمام الايقان بنعمة الله واثق بأن توسطكم في فينا يكلل بالنجاح لخير بلادينا وسلم أوربة   نقولا

٧

من الامبراطور ولهلم الى الامبراطور نقولا

٣١ يوليو ١٩١٤ (الساعة ٢ بعد الظهر)

لما استجرتم بصداقتي وطلبتم معونتي قبلت أن أتوسط بين حكومتكم وحكومة النمسة وبينما كنت قائما بهذا العمل عبأتم جيوشكم ضد حليفتي النمسة فأحبطتم الرجاء بنجاح توسطي ومع ذلك فانني ظللت متابعا له

وقد تلقيت الساعة علما من مصدر جدير بالثقة بأنكم شرعتم تتخذون تدابير حربية عظيمة على حدودي الشرقية، ولما كنت مسؤلا عن سلامة امبراطوريتي فاني مضطر ان أتخذ تدابير مماثلة دفاعاً عنها

ولقد بذلت أقصى ما يستطاع سعياً لحفظ السلم فاذا وقعت النكبة الهائلة التي تهدد عالم المدنية بأسره فان تبعتها لاتقع علي

ولا يزال منع وقوع النكبة في يدكم اذ لاأحد يهدد شرف روسية وقوتها وكان في طاقة روسية ان تنتظر نتيجة توسطي . ان صداقتي لكم ولامبراطوريتكم التي أورثنيها جدي على فراش الموت ظلت مقدسة عندي، وقد كنت أمينا لروسية في محنها ولا سيما في الحرب الاخيرة . فسلم أوربة محفوظ حتى الآن اذا قرقرار روسية على الكف عن التدابير الحربية التي تهدد بها ألمانية والنمسة.   ولهلم

٨

من الامبراطور نقولا الى الامبراطور ولهلم

١ اغسطس ١٩١٤ (الساعة ٢ بعد الظهر)

جاءتني برقيتكم وإني أعلم انكم مضطرون الى التعبئة، ولكنني أطلب منكم

الضمان الذي أعطيتكم إياه وهو ان هذه التدابير لاتنذر بوقوع الحرب وأننا نظل يعين مفاوضاتنا لخير البلادين ومصلحة السلم العام العزيز على قلوبنا

ان صداقتنا القديمة العهد والوطيدة الاركان يجب بمساعدة الله أن تفوز بمنع إراقة الدم فانا انتظر جوابكم بملء الثقة . نقولا

٩

من الامبراطور ولهلم الى الامبراطور نقولا

برلين في ١ اغسطس ١٩١٤

أشكركم على برقيتكم وقد دللت حكومتكم أمس على الطريق الوحيد لاجتناب الحرب

ومع أني طلبت أن يأتيني الجواب الظهر فلم يأتني حتى الساعة برقية من سفيري تتضمن جواب حكومتكم لذلك اضطررت الى تعبئة جيشي .

فالطريق الوحيد لمنع وقوع نكبة لاتوصف هي ورود جواب صريح جلي من حكومتكم. ولا يسعني أن أهتم بموضوع تلغرافكم قبل أن يأتيني هذا الجواب، واني مضطر أن أطلب بالاختصار أن تصدروا أوامركم الى جنودكم بلا ابطاء بان لاتهجم أقل هجوم على حدودنا ولهلم

فصل الاحصاء من باب التاريخ

(مساحة المملكة العثمانية وعدد سكانها)

أصدرت الحكومة العثمانية في العام الماضي احصاء لاملاكها وعدد سكانها نشرته جريدة « الاهرام » قائلة انها أخذته عن خريطة أركان الحرب العثمانية وهو كما ترى في الجدول الآتي :

اسم الولاية	كيلو متر	نفس
استامبول	٧٫٠٠٠	١٫١٣٦٫٠٠٠
خداوندكار	٧٣٫٨٠٠	١٫٦٢٦٫٩٠٠

اسم الولاية	كيلو متر	نفس
آيدين	٥٤ر٠٠٠	[illegible]٩٦ر٥٠٠
قونيه	١٠٢ر٨٠٠	[illegible]٨ر٠٠٠
اطنة	٣٧ر٢٠٠	٤٠٣ر٤٠٠
انقره	٦٧ر٥٠٠	[illegible]
قسطموني	٤٩ر٧٠٠	[illegible]
سيواس	٦٢ر٨٠٠	[illegible]٠٠
طرابزون	٣٠ر٧٠٠	[illegible]٧ر٧٠٠
ارضروم	٥١ر٠٠٠	[illegible]٩٧ر٠٠٠
معمورة العزيز	٣٤ر٣٠٠	[illegible]٧٥ر٣٠٠
بتليس	٢٦ر٨٠٠	٣٩٨ر٦٠٠
ديار بكر	٣٥ر٥٠٠	٤٧١ر٥٠٠
وان	٤٠ر٢٠٠	٤٣٠ر٠٠٠
حلب	٧٨ر٦٠٠	٩٩٥ر٨٠٠
بيروت	٣٠ر٥٠٠	٥٣٣ر٨٠٠
سوريا	٦١ر٧٠٠	٩٥٥ر٧٠٠
بغداد	١٤١ر٢٠٠	٨٥٠ر٠٠٠
الموصل	٧٥ر٧٠٠	٧٠٠ر٣٠٠
البصرة	٤٢ر٧٠٠	٣٠٠ر٠٠٠
الحجاز	٢٥٠ر٠٠٠	٣٠٠ر٠٠٠
اليمن	٢٠٠ر٠٠٠	٧٥٠ر٠٠٠
جزائر البحر الابيض	٧ر١٠٨	٣٢٥ر٩٠٠
ازميد	١١ر٢٠٠	٢٢٢ر٨٠٠
بيغا	٦ر٨٠٠	١٢٩ر٤٠٠
الزور	٨٥ر١٠٠	١٠٠ر٠٠٠

لبنان	٦ر٥ ..	٣٩٩ر٥٠٠
...س	٢١ر٣ ..	٣٣٣ر٠٠٠
...	٤٦٨	٥٢ر٨٠٠
قبرص	٩ر٦ ..	٢٢١ر٨٠٠
...	١٧٠١٧٧٧	١٩ر٣٤٠ر٠٠٠

...ب الاهرام) فعدد الاهالي العثمانيين اذن هو ١٨ مليون و ٨٣٩ الف و٨٠٠ ...ج منهم أهالي قبرص وهم حسب الاحصاء ٢٢١٨٠٠ وسيسام وهم ٥٢٨٠٠ ...ن وهم ٣٩٩٥٠٠ والحجاز وهم ٣٠٠.. الف واليمن وهم ٧٥٠ الفا وجزر البحر الابيض ٣٢٥٩. لان هذه البلاد اما انها لاتتكلف بالتجنيد واما انها غير خاضعة لحكم ...ولة كالجزر وعدد أهاليها مليونان ٧٤١ الف فيكون الباقي ١٦٧٦٥٧٠٠ فاذا اخرجنا منهم الكرد واليزيدية والطوائف التي تدفع البدل والتي تعفى يكون الاهالي الذين يجندون نحو ١٤ مليونا على الاكثر فاذا حسبنا ان الذين يجندون هم ٦ بالمئة يكون عدد الجيش الممكن جمعه من الامة العثمانية ٨٤٠ الف مقاتل في وقت الحرب اه

احصاء جزيرة العرب والولايات العربية

[المنار] كنا رأينا هذا الاحصاء في الاهرام ثم نقلناه عن جريدة أخرى نقلته عنها ولكن رأينا الجمع غير صحيح فأرسلنا الجدول الى رئيس تحرير الاهرام فصححه فلم يكن الجمع بعد تصحيحه صحيحا أيضا بل بلغ عدد النفوس ١٩ مليونا و ٣٤٠ الف نفس

ان الدولة لم تحص سكان بلادها إحصاء دقيقا الى اليوم ، وهي تعني بهذا الاحصاء أهالي البلاد الحضرية الخاضعين لقوانينها كلها أو بعضها الا مايستثنى كقبرص. أي ماتيسر لها معرفة عدده منهم، ولذلك لم تذكر بلاد نجد مع انها تعدها تحت سيادتها . وجعلت أهل اليمن ثلاثة ارباع المليون على أن بعض وزرائها الذين تولوا اليمن كحسين حلمي باشا كانوا يقولون ان أهلها ستة ملايين أو يزيدون .

ورأيت بعض أهل اليمن يعتقدون ان سكان بلادهم و بلاد حضرموت أكثر من سكان القطر المصري

هذا وان سكان الولايات والمتصرفيات العربية وهي ١٢ ولاية ومتص... بلغوا بحسب هذا الاحصاء ...ر ٦٩٢ ر ٦ فاذا كان في ديار بـ... زهاء مثتي الف من غير العرب كالترك والكرد والارمن يكون مجموع ... للدولة فعلا نحوا من ستة ملايين ونصف أو أقل . وهذا العدد أقر... العرب في جزيرتهم وحدها دع ملحقاتها من العراق وما بين النهرين وسورية وهـ... ويمكن أن يعيش في هذه البلاد أكثر من مئة ألف الف بالسعة ، فان ... أوسع من مساحة الهند الانكليزية التي يعيش فيها أكثر من ثلاث مئة ألف ألف ؟ بل مساحة جزيرة العرب وحدها تقرب من مساحة الهند إذ كل منهما تزيد على ثلاثة ملايين كيلو متر

وقد قدر صاحب (النخبة الازهرية في تخطيط الكرة الارضية) سكان جزيرة العرب وحدها باثنى عشر مليون نفس ، وهو انما يعتمد على كتب التقويم الاوربية القديمة التي تعتمد على قاعدة البناء على الاقل ، وحسبك نموذجا من ذلك انه يقول ان سكان دمشق الشام ستون ألفا، والمشهور انهم أكثر من مثتي الف ، وان سكان طرابلس الشام ١٣ ألفا وهم أكثر من تسعة وعشرين

ويمكننا ان نقول ان عرب الولايات والمتصرفيات العربية ماعدا اليمن والحجاز لاتقل عن خمسة ملايين ونصف بحسب احصاء الدولة. واذا قيل ان عدد الاعاجم فيها أكثر مما قدرنا بنصف مليون قلنا ان البدو فيها لايقلون عما نفرضه من زيادة هؤلاء.

فاذا أضفنا الى البدو المكتومين من الحضر زاد عدد العرب في تلك الولايات على ستة ملايين. وقد نشر في عدد الاهرام الذي صدر في ٣ نوفمبر احصاء آخر لاحد المحررين فيها (ا.س.ن) عد فيه أهل ولاية بيروت ٥٠٠ر٧٠٠ و بغداد ٠٠٠ر٩٥٠ والبصرة ٠٠٠ر٢٥٠ والقدس ٠٠٠ر٥٥٠ ولبنان ٠٠٠ر٥٠٠ وهذه زيادة تبلغ زهاء نصف مليون. فاذا فرضنا بعد ذلك ان سكان الجزيرة ١٢ مليونا فقط كما يقول صاحب النخبة الازهرية

على سبيل التقريب كان عدد العرب وحدهم في هذه البلاد كلها كعدد سكان المملكة العثمانية من جميع الاجناس كما رأيت في الجدول

... كثير من العارفين عدد العرب في تلك البلاد بعشرين مليونا ولكنهم ... أهل حضرموت ونجد وعمان

إحصاء شعوب الهند الانكليزية

...شرت الحكومة الانكليزية خلاصة احصاء شعوب الهند في عام ١٩١٤ ويؤخذ من هذا الاحصاء ان عدد أهالي الهند الانكليزية ٣١٥ر١٥٦ر٣٩٦ ...هم ٧٨ر ٥ بالمئة من الهنود و ٢٢ر ٥ من رعايا الامارات الهندية

ومساحة بلاد الهند تعادل مساحة أوربة كلها ماعدا روسية ولكن عدد أهالي الهند يزيد على أهالي أوربة ماعدا روسية وهو يعادل ثلاثة أضعاف أهالي الولايات المتحدة ومنذ ٣٩ سنة الى اليوم زاد عدد أهالي الهند ٥٠ مليونا . أما الذين يدينون بدين الهند الاصليين (؟) فعددهم ٢١٧ر٥٨٦ر٨٩٢ وعدد المسيحيين ٢ر٧٨٨ر٢٠٤ والباقون من المسلمين

(المنار) نشرت هذا الإحصاء جريدة الاهرام في أثناء السنة الماضية وتلك عبارتها نقلناها بنصها . واذا نحن طرحنا عدد الوثنيين والنصارى من المجموع بقي ٩٤ر٦٩٢ر٣٠٠ وهو عدد المسلمين. وقد كنا سمعنا من بعض كبراء الهند في أثناء سياحتنا فيها عام ١٣٣٠ (١٩١٢ م) ان عدد المسلمين فيها تسعون مليونا ونيف . ولكنني لا ازال اسمع الناس يقولون ويكتبون ان عددهم سبعون مليونا ، حتى ان مثل هذا القول ينقل عن بعض رجال السياسة من الانكليز أنفسهم . ولما جاء هذا الاحصاء مطابقا لما سمعناه من أهل المعرفة في الهند ترجح عندنا ان هذه الاقوال اما مبنية على إحصاء قديم علق باذهان اولئك القائلين ، واما ان الانكليز منهم يستثنون بعض الامارات المستقلة عند ذكر رعاياهم من مسلمي الهند وغيرهم يقلدهم في أقوالهم

البدع والخرافات والتقاليد و

خرافات وأوهام في قصور الملوك (*

يعتقد القراء أن الخرافات والاوهام التي تتخوف منها الطبقة العامه
من بلدان الممالك المتمدنة (؟) كوجود الجان وظهور الارواح والاشباح لا
عقول الطبقة المتمدنه من الشعب الاوربي والحقيقة ان هذه الاوهام التي لا ي
من العلماء غير شيعة الروحانيين (مناجاة الارواح) واتباعهم مالئة قصور الملو
في كل رأس من رؤوس سكان القصور ثغرة واسعة. وها نحن (أولاء) موردون
عن الاعتقادات الشائعة بالجان والارواح في قصور ملوك أوربة

تعتقد عائلة «هوهنزولرن» المالكة في ألمانية ان لها جنيتان إحداهما بيضاء
والثانية سوداء واليهما تشير الراية الالمانية، بمعنى ان البيضاء هي جنية الشر، والسوداء
جنية الخير

ففي عام ١٨٠٦ «على ماتفيد الكتب والاوراق القديمة» ظهرت الجنية
البيضاء في احدى نوافذ القصر الملكي، وما كادت تختفي حتى ورد الى الامبراطور
نبأ يفيد انكسار الجيش الالماني» في «اورستاد»

وقد ظهرت أيضا عام ١٨٨٤ قبل وقوع تلك الحوادث المشؤومة في ألمانية -
في حديقة القصر الملكي في برلين

وظهرت أيضا ثلاث مرات في «انتردنليدن» وفي كل مرة كانوا يحاولون
اغتيال غليوم الاول

ولما مات الامبراطور الشيخ شبعانا من السنين وكان قد بلغ من الجد حظا كبيرا
ظهرت الجنية البيضاء في احد أروقة القصر الملكي، وما كادت تختفي حتى جاءت
الانباء مفيدة ما قاساه فردريك الثالث من انواع العذاب وأصناف البلايا والمحن

*) منقول من جريدة الزمان العربية التي تصدر في بونس ايرس (الأرجنتين)

. القصر الملكي مكشوفة اليدين وأنبأت عن موت
ول في «شار لوتبنورغ» بعد تولية الحكم بثلاثة أشهر
فقد ظهرت للامبراطور الحالي في «برانبرغ» في أيام
ت له «ستكون امبراطورا قبل ان تتم الثلاثين ربيعا» وهكذا كان،
كلترة الملكي جنية بيضاء وظيفتها نقل أخبار الموت فقط «ناعية»
عند ما ماتت الملكة فكتوريا الشهيرة أخذت (الجنية) تصيح -
ض أشخاص موثوق بصدقهم - في داخل القصر الملكي

ويوجد مثل هذه الارواح والجنيات في القصور التاريخية القديمة، وكثيرا
مع الملوك والامراء والاشراف عن سكناها خوفا من تلك الارواح الخبيثة الهائلة
ففي قصر «باري يوماروي» توجد هذه الارواح بكثرة وطالما أعلنت
لمصائب قبل وقوعها . وعدد كبير من سكان هذا القصر أنبأتهم هذه الارواح عن
انقضاء آجالهم

وبهذه المناسبة نذكر الحادثة التالية التي جرت في القصر المذكور من مضي مئة سنة
كان الدكتور «ولتر» يطبب زوجة مدير القصر، وفي أحد الايام سأل المدير
المذكور عن تلك المرأة الجميلة الحسنة الملابس التي تلوح على محياها امائر الحزن،
والتي رآها عند دخوله الى القصر ، فبغت الرجل وصاح لالا . لا أريد ان تموت
امرأتي. فعجب الدكتور مما ظهر له واستوضحه عن العلاقة بين المرأة وموت زوجة
المدير المذكور، فأطلعه على حقيقة هذه السيدة البيضاء الجميلة، ومع انه لم يكن يرى
في مرض زوجة مدير القصر خطر على حياتها ، فقد ماتت في ذلك اليوم

هذا مارأينا ان ننقله تفكهة للقراء . ولا يمكننا نفي هذه الحوادث وغيرها مما
نطالعه يوميا عن استحضار الارواح وافعال الارواح ولا تصديقه ، لان بين المعتقدين
جماعة من العلماء الاعلام كالمستر ستيد وغيره ، وبين المكذبين العلماء الطبيعيون
على الاطلاق وغيرهم من المشاهير، ولا تزال خان العلماء و الفلاسفة في أميركة ولندن
وباريس وغيرها تبحث بحثا دقيقا متواصلا توصلا للحقيقة .

باب المراسلة

الاسلام في انـ

فضيلة .... [1] صاحب « المنار » الاغر

يسرني جدا أن أبلغ سيادتكم ان مساعي اخواننا المسلمين سائرة في طريق النجاح بدرجة فوق المأمول . ولقد تعود معظمنا أ... الدين الحنيف بل أهملنا حتى في مقاومة دعاة المسيحية في نفس بلاد... أتخيل ان ذكر وجود مبشرين مسلمين في انكلترا كاف وحده لـ... من القراء . ولاشك في أنه يدهشهم (دهشا) أكثر أن يعلموا أن هؤلاء على قلة عددهم قد نجحوا في نشر نور الاسلام بين عدد ليس بالضئيل من السيدات والرجال الانكليز .

يوجد في (ووكنج woKing) احدى ضواحي مدينة لندن جامع صغير يمثل المركز الرئيسي للجالية الاسلامية في بريطانيا العظمى ، ويصدر إمام ذلك الجامع مجلة شهرية تدعى « المجلة الاسلامية والهند المسلمة » — ومع أني لست ممن يرتاحون الى هذه المجلة نظرا لخلطها في كثير من الاحايين الدين بالسياسة ، فانه لايسعني الا الاعتراف بالخدمة الاسلامية الجليلة التي قامت بها في زمن لايتجاوز ثلاث سنوات . والفضل كل الفضل يرجع الى حضرة رئيس تحريرها إمام الجامع المشار اليه والى اعوانه .

ولقد تلقيت العدد الاخير منها (عدد يناير سنة ١٩١٥) فوجدت فيه الخبر المفرح الآتي :

---

(١) حذفنا من مكان النقط لقب « الاستاذ الامام » الذي صار كالعلم لشيخنا رحمه الله تعالى وان كنا جرينا على نشر الرسائل والاسئلة بنصها لاسباب تاريخية وغير تاريخية

.يسمبر ١٩١٤ ... الجمعية الاسلامية
يف الرحمن للورد هدلي وقد اعتنقت الاسلام
أني ساكسبي ، ومنذ الاسبوع الماضي قد أضفنا
استمرار اسماء ثلاثة أشخاص من الانكليز . »
... بان عن اعتناق الدين الاسلامي أحدهما من سيدة
... فورد ، والآخر من أحد افاضل الانكليز وهو المستر إرنست
... ما ممتلىء بعبارات تستحق التأمل والدرس وخصوصا من سادتنا
... ين ينسون تعاليم دينهم العالية بمجرد امتزاجهم بالافرنج . ونظرا لضيق
... الاغر ولعدم سعة وقتي اكتفي بترجمة كتاب السيدة المشار اليها .
... يه :

« سيدي محرر صحيفة المجلة الاسلامية والهند المسلمة .

لقد صرت في العهد الاخير بفضل مودة صديق مسلم اقرأ بانتظام أهم المؤلفات الاسلامية وأذكر بينها الكتب الشائقة التي وضعها السيد أمير علي وخصوصا نشرته عن حقوق النساء في الاسلام فإنها ذات قيمة كبيرة عندي .

ومما يستحق الذكر من المؤلفات الاخرى الممتعة التي شاقتني كثيرا كتاب « الهلال والصليب » تأليف خليل بك خالد ، وكتاب « اسرار مصر والاسلام الخفية » تأليف المستر ليدر ، وكذلك فصل « البطل كنبي » [1] من قلم كارليل .

فكانت صفوة ونتيجة دراستي الدقيقة هذه أني امتلأت اعجابا بمحمد (ص) باعتباره نبيا ومصلحا عظيما وبديانته الديمقراطية السمحة التي يهنيني ويريحني الآن اعتناقها

هذا واني اعترف بأن الديانة المسيحية المهذبة ديانة جليلة ، الا اني مع ذلك لا يمكنني بأية حال أن أتجاهل ان الاسلام لا يعلم الناس أسمى مبادئ المسيحية فقط بل هو يمتاز أيضا بدون أدنى شك بمزايا عظيمة لا توجد في المسيحية ،

---

(١) المراد من هذه العبارة : البطل النبي ، أو البطل بصفة النبي او من حيث هو نبي .

وذلك في مرميه
اجتماعي أدق وأصح .

لقد خطر في بالي أن أبعث بهذا الكتاب
وعلم قراء مجلتكم الغراء بذلك من الفائدة .

وختاما أتشرف بالامضاء باسمي الإسلامي

(

كم كانت تكون هذه النتيجة السارة مضاعفة ياسيدي الاستـ
الجامع الكبير المنوي بناؤه في عاصمة الامبراطورية الانكليزية التي
الملايين من المسلمين في عدة من أنحاء العالم ، ولست أدري لاي سـ
المسلمين في مصر والهند وغيرهما من الاقطار الاسلامية عن مواصلة الـ
المشروع الجليل حتى يمكن تحقيقه في المستقبل العاجل.

وكم تكون النتيجة مضاعفة اذا وجد بين سراتنا من يعضد « دار الـ
والارشاد » التعضيد اللائق بكلية عظيمة المقصد كهذه حتى يتيسر لكم ارسال الدعاة الى هذه البلاد . وبفضل علمهم ومعرفتهم بالانكليزية يرجى لهم حينئذ نجاح كبير هنا ، وخصوصا اذا تيسر لهم انشاء مجلة بالانكليزية تشمل صفوة ترجمة مايصدر في كل عدد من « المنار » الزاهر .

وكم تكون النتيجة مضاعفة اذا هزت الاريحية الدينية أحد امراء أو أغنياء المسلمين فوهب نحوا من خمسمائة جنيه أو أكثر في سبيل نقل « تفسير المنار » الى الانكليزية ، فانه مما يؤسف له جدا أن تنتشر بهذه اللغة المؤلفات العديدة ضد الاسلام ولا ينقل اليها كتاب جليل هو دائرة معارف اسلامية مثل « تفسير المنار » وما هذا بعزيز على امراء المسلمين الذين نراهم من أجل الحرب الحاضرة يجودون بمئات الآف من الجنيهات ، أفلا يوجد بينهم من يجود بجزء من مائة من ذلك في سبيل نشر نور السلم والاسلام ؟

ان من المغالطة أن يقال أن الانكليز مثلا يمنعون امراء الهند من عمل كهذا ، فان انكلترا معروفة بمنحها الحرية الدينية الكاملة لجميع رعاياها ، وهذا ما لا ينكره

، فلا يعقل
ـز في الهند في شأن ديني محض كهذا، أو يمنعوا
شاء لما فيه صالح دينه .

ـ في مصر أو في غيرها من الممالك الاسلامية
رخبرتنا الماضية تؤكد ذلك .

ـيتكم على أن تعلم العربية واجب على كل مسلم ، وأن من
ـعليمها اجباريا في جميع المدارس والكليات والجامعات الاسلامية
ـتى يتيسر لكل مسلم أن يعرف دينه من منبعه الاصلي، بغض النظر
ـب اللغة العربية الشريفة التي هي لغة القرآن الكريم ، ولكن اذا
ـلمسألة من وجهة التبشير فاننا نجد أن من الضروري أن ينقل الى اللغات
ـبية خيرة المؤلفات الاسلامية وخصوصا تفاسير القرآن الجلية المشهود بسعة العلم
ـقة فيها، فان هذا عماد المبشر المسلم في نشر دينه بين الافرنج . ومن العبث ان
يقول المبشر الذي يريد اجتذاب القوم اليه: تعلموا يا قوم العربية أولا و بعدها اطلعكم
على القرآن وأذكر لكم أصول الدين الاسلامي ...

أما نقل القرآن الشريف الى الانكليزية أو غيرها من اللغات الاوربية فاني أعدّه جرماً من حيث ان ذلك يؤدي الى اخفاء ما في لغة القرآن الشائقة من اعجاز البيان ، فضلا عن ان الترجمة تظهر بشكل مشوه غريب يجعل الاوربي الذي لا يعرف آداب العربية يعجب من كوننا نعتقد ان القرآن هو كلام الله جل شأنه ..!!
وان أي مسلم يطلع على ترجمة القرآن لا يسعه الا الضحك مع الاسف على الوقت الذي أنفق هباء في هذه الترجمة التي لا تؤدي الى شيء مامن مرامي القرآن العالية الحكيمة...

اني اعتقد أن الرجل المحسن الذي يهب مبلغا كافيا لترجمة تفسير عصري مثل تفسير « المنار » — ويعلم الله أني لا أقول هذا مجاملة لكم فاني لست من يخلط الخصوصيات بالعموميات — الذي هو خلاصة كل علم راجح من دماغي امامين كبيرين ، انما يؤدي خدمة اسلامية وانسانية فوق كل تقدير . ويعلم ان

هذا أمر حيوي .

نشر الدين القويم الداعي الى الم

واني أعد من الاعتراضات الغر ... ل قائ

ليست بنتيجة مرضية، لان كثيرين ممن يعتنقون الا

مثلا ، وهما من فرائض الاسلام ، ويفوت المعترض

الاسلام قد يجهل العربية، وربما لا يجد من يعلمه تعاليم دينه تف

مبنيا على نتيجة مطالعته وبحثه كما هو الغالب، أو قد يكون الباعث له

أداء فريضة الصلاة أو الصوم هو نفس الباعث للمسلم الاصلي على اغفال د

بياني هذا ليس معناه أني أبرر ذلك التهاون

هذا واني على كل حال أعتقد أن الايمان بمبادئ الاسـلام

المؤمن في بعض الفرائض ـ ليس بخسارة للاسلام [1] وبعبارة أخرى اننا

اغراء الاجانب بالاقناع والدليل (وحملهم) على اعتناق الدين الاسلامي

منهم ايمانا كليا بمبادئه وسيرا على فرائضه ورأينا منهم بعد ذلك اهمالا في

بعض الفرائض كما نرى من كثيرين من المسلمين الاصليين أنفسهم فلسنا مع ذلك

الا رابحين فلا ينبغي أن يحملنا هذا على الاستياء المتناهي لدرجة أن يقول قائل ان

نتيجة كهذه للتبشير الاسلامي غير مرضية أولا فائدة منها ...!

ان رجال الاصلاح كثيرون وفضيلتكم في مقدمتهم ، وقد بسطت لـكم فيما

تقدم بعض آراء لا أشك في أنه يشاركني فيها جميع أعضاء الجالية الاسلامية في

انكلترا، ولـكن إنفاذكم وانفاذ غيركم من المصلحين لها يحتاج الى « المال » ، فهل

نعيش نحن المسلمين الى الابد نعلل انفسنا بالنجاح والخير حينما نكتشف بابًا

جديدا لذلك ثم نفشل لاننا لانجد مفتاحه وهو غيرة وكرم امرائنا وسراتنا ؟؟ .....

لقد صحت الحـكمة القائلة : «ان الله لا يساعد الذين لا يساعدون أنفسهم »

ولو وضعها كل مسلم نصب عينيه وعمل بها لـكان لنا من المنعة والعز مانحسد عليه ،

---

(١) يريد الكاتب ان ترك المهتدي الى الاسلام لبعض العبادات وان كا

فرائض ليس بخسارة اذا كان صحيح الايمان بعقائد الاسلام واصوله

...ته وبركاته ؟

« مسلم غير متفرنج »

ب غير ... يه وحسن ظنه بنا ، ونوافقه على آرائه
والعمل تحتاج الى تفصيل وتمحيص ، وأرى ان
. سلام من مسلمي مصر ، وان كان يظن بعض الناس
أقوى منه في الهند علما وعملا . فمسلمو الهند يعملون لنشر
، ويتعاون العلماء والاغنياء منهم على ذلك على ضعف فيه يرجى ان يقوى
. ولم يوجد في مصر غني بذل مالا لخدمة دينيــة محضة ، ولا وجد عالم
ة دينية محضة جديدة الا شيخنا الاستاذ الامام في تصديه لاصلاح التعليم
لحقاته — الى ان قام من قام بتأسيس الدعوة والارشاد . وقد لقي هذا
عظيم في مصر أشد المقاومة . وكانت مصلحة الاوقاف الاسلامية قد
إعانة قليلة ٥٥٠ جنيها في السنة مع الوعد بمضاعفتها ولكن وزارة الأوقاف
جديدة قد قطعت هذه الاعانة في هذا العام بعد ان منعت نصف ما كان مقررا
للعام الماضي . ويظن كثير من المسلمين ان هذا بايعاز من الانكليز وأنا لا أظن
هذا ، بل أنا على رأيي القديم في الانكليز وهو أن المسلم يستطيع ان يخدم دينه في
بلادهم ومستعمراتهم بحرية قلما يجد مثلها عند غيرهم . وما آفة الاسلام الا منافقو أهله
وجبناؤهم . وسيفضح مانكتبه في تاريخ مشروع الدعوة والارشاد كثيرا من هؤلاء
المنافقين ، ومنهم الذين لا يزالون يكيدون في الخفاء ليحولوا دون مساعدة القصر له .
وسيرى مسلمو العالم وغيرهم في هــذا التاريخ الذي هو تاريخ الاصلاح الاسلامي
في هذا العصر مقارنة غريبة بين باشوات الاستانة وباشوات مصر

أما اقتراحكم ترجمة تفسير المنار بالانكليزية فيقلّ في المسلمين من يبذل المال
له لأن أكثر أغنياء المسلمين أغبياء أخساء ، وانما يبذل بعضهم المال في
المشروعات العامة لاجل الجاه عند الحكام والامراء ولا يكاد هؤلاء يلتمسون في
مثل هذا العمل جاها . والافراد العقلاء النبهاء منهم كثرت عليهم طرق البذل في
الخير ، ولعل هذا المشروع ينفذ في الهند يوما ما . واني أكاد أجزم بأن

هذا الاقتراح بو...
آباد ممن يثق هو بقوله في بيان
المدارس بالالوف من الجنيهات .
لي ولو كان لغيري لسعيت
ولا أذهب بك بعيدا فهذ
الهندية قد تبرع بمئة مجلد من كل جزء من هذا التفسـ
البلاد العربية فاذا اعان الله على اتمام التفسير وانفاذ تبر
ما اقترحت للترجمة . والله الموفق وبيده ملكوت كل شيء

مصاب الهند والعالم الاسلامي

بالشيخ شبلي النعماني

نعى الينا بريد الهند اشهر علمائها وأبعدهم شهرة وصيتا صديقـ
الملقب بشمس العلماء ، صاحب المصنفات النافعة واليد
ختم الله تعالى حياته السعيدة في خاتمة العام الماضي (٢٨ ذي الحجة) وله من العـ
٥٨ سنة ، على ما يؤخذ من ترجمته في بعض الجرائد ، فان صح هذا فقد مات في
مثل سن الاستاذ الامام التي مات فيها ، الا انه كان لنحافة بدنه وشيبته يظن انه
من أبناء السبعين ، ولم يكن يظهر على الاستاذ الامام مثل هذا الكبر وان عاجله
الشيب في سن الشباب ، ولعل رائيه كان يظن انه لم يتجاوز الخمسين ، على ان كلا
من الشيخين اللذين تساويا في العمر مات وهو شاب في علو الهمة وقوة العزيمة
والنشاط في السعي الى الاصلاح .

كان الشيخ شبلي عالما مستقلا لا عالما رسميا مقلدا ، وكان كأكثر العلماء المستقلين ،
والحكماء المصلحين ، استاذ نفسه ، وتلميذ همته ، تلقى قليلا عن الاساتذة ولكنه بجده
واجتهاده صار أشهر نوابغ علماء الهند في هذا العصر . نعم ان فيهم من يعدون أ
منه علما واطلاعا في علوم الحديث والفقه والأصول ، ولكن قلما

يها . ولا نعرف له
ن الذوق في فهم منثورها ومنظومها
نها . فأ كثر علماء الهند وغيرهم من
ة الفصيحة الا قليلا . وانما قصارى
المشهورة أو يؤلفوا رسالة أو كتابا
والاصول والمنطق والحديث ،
... المؤلفة في ذلك . ومن تجاوز
كثر غلطه وتكلفه وجاء بالغث الذي لا يكاد يفهم . وأما
نوادر المجيدين منهم : كان قادرا على الكتابة العربية
ة العجمة في العلوم والفنون والادب والتاريخ ، كما يعلم من نقده
سلامي وغيره
الله تعالى أمة وسطا بين أولى التفريط الجامدين على التقاليد القديمة،
ط من المفتونين بالتقاليد الحديثة، اذ كان صاحب مشاركة صالحة في
كنه من التدريس والتأليف فيها بطريقة استقلالية اذا شاء ،
في العلوم الكونية من رياضية وطبيعية واجتماعية عرف بها حال
اليه المسلمون فيه، وقد اتقن علم التاريخ اتقانا لعله لا يوجد في
يساويه فيه الان. وقد دخل في أعمال الحكومة ثم تركها،
عمل بتعليم في مدرسة العلوم الكلية في عليكده على عهد مؤسسها السيد احمد خان
الشهير وكان من أصدقائه، واشتغل بأمر الجمعيات العلمية، وساح في الممالك والاقطار،
فكان بعلومه وأعماله، وسعة تجاربه واختباره، وبما أوتيه قبل ذلك من ذكاء الذهن
وعلو الهمة ومضاء العزيمة، جديرا بأن يكون من زعماء الاصلاح . وأن يقوم في وجهه
من الخصوم من ينبزه بلقب الافساد ، ويرميه بالكفر والالحاد . كما هي سنة الله
تعالى في العباد . وسيعرف أهل وطنه من قيمته بعد وفاته، مالم يعرفوه له أو يعترفوا
به في حال حياته . وسنذكر في الجزء الثاني ماوصل الينا من ترجمته وما يعن لنا
من البحث فيها والاعتبار بها ، رحمه الله تعالى واحسن عزاء البلاد الهندية والامة
الاسلامية عنه

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب



يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و« منارا » كمنار الطريق

مصر ٣٠ ربيع الآخر ١٣٣٣ ٢٥ الحوت (ش ٣) ١٢٩٣ هـ ش ١٦ مارس ١٩١٥

تفسير القرآن الحكيم

﴿ تتمة مافي الجزء الاول ﴾

﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا واحسنوا ، والله يحب المحسنين﴾ ورد في عدة روايات تقدم بعضها ان بعض الصحابة استشكلوا عند نزول هذا التشديد في الخمر والميسر حال من مات من المؤمنين الذين كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، ولا سيما من حضر منهم غزوتي بدر واحد ، وكان امر الخمر عندهم اهم ، ومنهم من كلم النبي (ص) في ذلك. وفي رواية انهم سألوا عمن ماتوا وعن الغائبين الذين لم تبلغهم آية القطع بالتحريم . وان هـذه الآية نزلت جوابا لهم ، وقيل ان الآية نزلت فيمن كانوا يشددون على انفسهم في الطيبات من الطعام والشراب ، ختما للسياق بما يتعلق بحال من بدئ بهم ، والروايات المأثورة على الاول

الطعام ما يؤكل ، والطعم (بالفتح) مايدرك بذوق الفم من حلاوة ومرارة وغيرهما . يقال : طعم (كعلم وغنم) فلان بمعنى أكل الطعام - وطعم الشيء يطعمه ذاق طعمه أو ذاقه فوجد طعمه منه ، استعمل في ذوق طعم الشيء من طعام وشراب بأخذ قليل منه بمقدم الفم . ومن الاول قوله تعالى (فاذا طعمتم فانتشروا) أي أكلتم ، ومن الثاني (فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني) اي لم يذق طعم مائه. قال الجوهري : الطعم بالفتح مايؤديه الذوق، يقال طعمه مر أو حلو. وقال: طعم يطعم طعماً (بالضم) فهو طاعم اذا أكل أو ذاق . - مثل غنم يغنم غنما فهو غانم - فالطعم بالضم مصدر . وأنشد ابن الاعرابي :

فأما بنو عامر بالنسار غداة لقونا فكانوا نعاما
نعاما بخطمة صعر الخدو د لا تطعم الماء الا صياما

شبههم بالنعام التي لاترد الماء ولا تذوقه . وصرح في لسان العرب بأن طعم بمعنى أكل الطعام وانه اذا جعل بمعنى الذوق جاز فيما يؤكل و يشرب . واستشهد المفسرون له بقول الشاعر

فان شئت حرمت النساء سواكم وان شئت لم أطعم نقاخا ولا بردا

النقاخ بالضم الماء البارد ، والبرد النوم . قال الزمخشري : ألا ترى كيف عطف عليه البرد وهو النوم ، ويقال : ماذقت غماضا . اه

قال الآلوسي في تفسيره : وأما استعماله (أي طعم الماء) بمعنى شربه واتخذه طعاما فقبيح الا ان يقتضيه المقام ، كما في حديث « زمزم طعام طعم وشفاء سقم » فانه تنبيه على انها تغذي بخلاف سائر المياه . ولا يخدش هذا ما حكي ان خالدا القسري قال على منبر الكوفة وقد خرج عليه المغيرة بن سعيد : اطعموني ماء . فعابت عليه العرب ذلك وهجوه به ، وحملوه على شدة جزعه وقيل فيه :

بل المنابر من خوف ومن وهل واستطعم الماء لما جد في الهرب
وألحن الناس كل الناس قاطبة وكان يولع بالتشديق في الخطب

لان ذلك انما عيب عليه لانه صدر عن جزع فكان مظنة الوهم وعدم قصد المعنى الصحيح ، والا فوقوع مثله في كلامهم مما لاينبغي ان يشك فيه . اه

أقول أما الحديث فرواه ابن ابي شيبة والبزار بسند صحيح وهو على تشبيه مائها بالغذاء فليس مما نحن فيه . وأما كلام خالد فهو لحن الا ان يريد به اذيقوني طعم الماء - مبالغة في طلب القليل منه . ولا يقع مثله في كلام الفصحاء الا بهذا المعنى . فاذا لا يمكن ان يكون طعم في القرآن بمعنى شرب مطلقا ، ولا يجوز أن يفيد هذا المعنى إلا بالتبع لمعنى الاكل تغليبا له ، فيجعل « طعموا » هنا بمعنى أكلوا الميسر وشربوا الخمر . كتغليب الاكل في كل استعمال في مثل النهي عن أكل أموال اليتامى وعن أكل أموال النـاس بالباطل . ولم أر أحداً هدي الى هذا الايضاح بهذا التدقيق

والجناح ما فيه مشقة اومؤاخذة . أنشد ابن الاعرابي :

ولاقيتُ من جُمْـلٍ وأسباب حبها   جناحَ الذي لاقيت من تِربها قبلُ

وقال ابن حلـزة :

أعلينا جُناح كندة أن يغـ   ـنم غازيهمُ ومنا الجزاءُ

ويفسرونه غالبا بالإثم وهوما فيه الضرر، والضرر يكون دينيا ودنيويا، ولم يستعمل في القرآن الا في حيز النفي بمعنى رفع الحرج والمؤاخذة

ومعنى الآية على رأي الجمهور «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات» من الاحياء والميتين، والشاهدين والغائبين «جناح» إثم ولا مؤاخذة «فيما طعموا» اكلوا من الميسر أو شربوا من الخمر فيما مضى قبل تحريمهما — ولا في غير ذلك مما لم يكن محرما ثم حرم «اذا ما اتقوا» أي اذا هم اتقوا في ذلك العهد ما كان محرما عليهم — ومنه الاسراف في الاكل والشرب من المباح « وآمنوا» بما كان قد نزله الله تعالى « وعملوا الصالحات » التي كانت قد شرعت كالصلاة والصيام والجهاد « ثم اتقوا » ماحرمه الله تعالى بعد ذلك عند العلم به « وآمنوا » بما نزل فيه وفي غيره — كما قال (واذا ما انزلت سورة فمنهـم من يقول ايكم زادته هذه ايمانا ، فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمـانا وهم يستبشرون . واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم) وكما قال (و يزداد الذين آمنوا إيمانا) « وعملوا الصالحات» التي هي من لوازم الايمان ، « ثم اتقوا » أي ارتقوا عن ذلك فاتقوا الشبهات تورعا وابتعادا عن

الحرام ، «واحسنوا» أعمالهم الصالحات بان أتوا بها على وجه الكمال ، وتمموا نقصها بنوافل الطاعات « والله يحب المحسنين » فلا يبقى في قلوبهم أثرا من الآثار السيئة التي وصف بها الخمر والميسر من الايقاع في العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهما صقال القلوب وزيتها الذي يمد نور الايمان

وطالما استشكل المفسرون اشتراط ما اشترطته الآية لنفي الجناح من التقوى المثلثة والايمان المثنى والاحسان الموحد ، وطالما ضربوا في بيداء التأويل واستنباط الآراء ، وطالما رد بعضهم ما قاله الآخرون في ذلك ، وسبب ذلك اتفاقهم على ان الله تعالى لا يؤاخذ يوم القيامة أحدا بعمل عمله قبل تحريمه كما قال تعالى بعد ذكر محرمات النكاح (الا ما قد سلف) فقيل ان ما ذكر ليس بشرط لرفع الجناح بل لبيان حال من نزلت فيهم الآية . واما تكرار التقوى فقيل إنه لمجرد التأكيد ، أو للازمنة الثلاثة ، أو لاختلاف ما يتقى من الكفر والكبائر والصغائر، أومن مطلق ومقيد، أو بعضها للثبات والدوام .

وغفل هؤلاء عن معنى الشبهة التي وقعت لبعض الصحابة ونزلت الآية جوابا عنها . وبيانها من وجهين: (احدهما) ان الله تعالى حرم الخمر والميسر في الآية الاولى من هذه الآيات وبين في الثانية علة التحريم من وجهين، وهذه العلة لازمة لهما ، فاذا لم تكن مطردة في العداوة والبغضاء ، فهي مطردة في الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وناهيك بما ينقص من دين من صد عنهما . وانما كمال الدين ومناط الجزاء في الآخرة ما يكون من تأثير الايمان والعمل الصالح في تزكية النفس ، وإنارة القلب .

(ثانيهما) ان الله تعالى قد عرض بتحريم الخمر قبل نزول آيات المائدة بما بينه في سورة البقرة والنساء — واللبيب تكفيه الاشارة — فكان من لم يفطن لذلك مقصرا في اجتهاده ، وربما كان ذلك لايثار الهوى أو الشهوة

هذا وجه الشبهة ، وتلخيص الجواب عنها أن من صح ايمانه وصلح عمله وعمل في كل وقت بالنصوص القطعية المنزلة ، وبحسب ما اداه اليه اجتهاده في الظنية ، واستقام على ذلك حتى ارتقى الى مقام الاحسان - فلا يحول دون تزكية ذلك لنفسه

وصقله لقلبه ، ما كان قد أكل أو شرب مما لم يكن محرما عليه بحسب اعتقاده ، وان كان في ذلك من الإثم ما حرم بعد لاجله

ذلك بأن الله تعالى ماحرم شيئا الا لضرره في الجسم أو العقل أو الدين أو المال أو العرض ، والضرر يختلف باختلاف الاشخاص والاوقات والاحوال وقد يتخلف أحيانا ، اذ يكفي في التحريم أن يكون ضارا في الغالب ، فمن عمل عملا من شأنه الضرر في الجسم فربما ينجو من ضرره بقوة مزاجه اذا هو لم يسرف فيه ، ومن عمل عملا من شأنه نقص الدين - وهو غير محرم عليه أو غير عالم بتحريمه - فربما ينجو من سوء تأثيره الذاتي بقوة ايمانه و يقينه وكثرة أعماله الصالحة ، بحيث يكون ذلك الضرر كنقطة من القذر وقعت البحر أو النهر ، ولكن قوة الايمان ورسوخ الدين بالعمل الصالح ينافي الاقدام على ارتكاب المحرم ، الا ما يكون من اللمم والهفوات التي لا يصر المؤمن عليها . فالجناح العظيم والخطر الكبير من ارتكاب المعصية بعد العلم بتحريمها ليس فيما عساه يصيب مرتكبها من ضررها الذاتي التي حرمت لاجله فقط لان هذا قد يتخلف أو يكون ضعيفا أو مغلوبا ، بل الجناح والخطر الديني في الاقدام على مخالفة أمر الله تعالى وترجيح هوى النفس على مقتضى الايمان والاعتقاد . وهذا شيء قد حفظ الله منه من كانوا يشربون الخمر من أهل بدر وأحد . بل حفظهم الله تعالى من ضرر الخمر الاجتماعي الدنيوي أيضا ، لانهم لم يسرفوا فيها ولا سيما بعد نزول آية سورة النساء التي لم تبق لهم الا وقتا ضيقا لشربها . والآية تدل على ذلك . ويؤيده ان الله تعالى قد ألف بين قلوبهم فكانوا بنعمته اخوانا . بل كان ذلك شأن الصحابة عامة ، كان يكاد الشقاق يقع بينهم كما مر في أسباب نزول الآيات ، ولكن لا يلبث ان يغلبه الايمان ، فيكونوا مصداقا لقوله تعالى (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) فالمعصية لا تفسد الروح الا اذا كان فاعلها غير مبال بحرمة الشرع ، ولا يكون تأثيرها الذاتي قويا الا بالاسراف فيها والاصرار عليها

وقد سألني بعض الباحثين في علم الاخلاق وفلسفة الاجتماع من المصريين عن السبب في سوء تأثير الزنا في افساد اخلاق فساق المصريين وإذلال أنفسهم وإضعاف

بأسهم وعدم تأثيره في اليابانيين مثل هذا التأثير ؟ فأجبته على الفور : إن اليابانيين لا يدينون الله بحرمة الزنا كالمصريين ، فمعظم ضرره فيهم بدني وأقله اجتماعي ، ولكن ليس له ضرر روحي فيهم . وأما المصريون فمعظم ضرره فيهم روحي لأنهم يقدمون على شيء يعتقدون دينا وعرفا بقبحه وفحشه ، فهم بذلك يوطنون أنفسهم على دنية الفحش والاتصاف بالقبح ، فلذلك كان من أسباب المهانة والفساد فيهم . فأعجب بالجواب وأذعن له

شبهة لعشاق الخمر ودحضها

قال الامام الرازي : زعم بعض الجهال انه تعالى لما بيّن في الخمر أنها محرمة عند ما تكون موقعة في العداوة والبغضاء وصادة عن ذكر الله وعن الصلاة - بين في هذه الآية انه لاجناح على من طعمها اذا لم يحصل معه شيء من تلك المفاسد ، بل حصل معه أنواع المصالح من الطاعة والتقوى والاحسان الى الخلق . قالوا : ولا يمكن حمله على أحوال من شرب الخمر قبل نزول آية التحريم ، لانه لو كان المراد ذلك لقال « ما كان جناح على الذين طعموا » كما ذكر مثل ذلك في آية تحويل القبلة (وما كان الله ليضيع أعمالكم) ولكنه لم يقل ذلك بل قال (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح - الى قوله - اذا ما اتقوا وآمنوا) ولا شك ان اذا للمستقبل لا للماضي . واعلم ان هذا القول مردود باجماع كل الامة . وقولهم ان كلمة اذا للمستقبل لا للماضي - فجوابه ماروى أبو بكر الاصم انه لما نزل تحريم الخمر قال أبو بكر : يارسول الله كيف باخواننا الذين ماتوا وقد شربوا الخمر وفعلوا القمار ؟ وكيف بالغائبين عنا في البلدان لا يشعرون ان الله حرم الخمر وهم يطعمونها ؟ فأنزل الله هذه الآيات (الصواب الآية) وعلى هذا التقدير فالحل قد ثبت في الزمان المستقبل عن وقت نزول هذه الآية لكن في حق الغائبين الذين لم يبلغهم هذا النص . اهـ كلام الرازي بحروفه

وأقول ان جوابه ضعيف من كل وجه ، وقد كان رحمه الله على سعة اطلاعه فيما عدا الحديث من العلوم العقلية والنقلية غير دقيق في البلاغة وأساليب اللغة حتى إن عبارته نفسها ضعيفة . والصواب ان يقال في الرد على احتجاج أصحاب هذا التحريف

(أولا) ان قوله تعالى « ليس على الذين آمنوا » الخ ليس خبرا عمن نزلت بسبب السؤال عنهم الآية، وانما هي قاعدة عامة انشائية المعنى يعلم منها حكم من مات قبل القطع بتحريم الخمر وحكم من نزلت الآية في عهدهم وتليت عليهم وحكم غيرهم من عصرهم الى آخر الزمان. وهذا أبلغ وأعم فائدة من بيان حكم المسؤول عنهم خاصة .

و (ثانيا) انقول المشتبهين : لوكان المراد من الآية بيان حكم الذين ماتوا لقال « ما كان جناح على الذين طعموا » – باطل ، وقوله تعالى (وما كان ليضيع إيمانكم) الذين احتجوا به لايدل على مازعموا ، فان مثل هذا التركيب يدل على نفي الشأن لا على نفي حديث مضى ، فمعناه ما كان من شأنه تعالى ولا من مقتضى سنته أن يضيع إيمانكم . وقد بيناهذا من قبل غير مرة ونقلناه عن الكشاف ، فهو يعم الماضي والمستقبل . ومثله (ما كان لنا ان نشرك بالله) ويشبه العبارة التي قالوها قوله تعالى (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) ولم يقل أحد انها لنفي الحرج في الزمن الماضي ، بل تعم نفيه في الحال والاستقبال وهو موضع الفائدة له (ص) منها .

و (ثالثا)لو كان معنى الآية ماذكروه لأخذ به من شق عليهم تحريم الخمر من الصحابة ومن كان يميل اليها بعدهم

نعم انه لولا ماورد من سبب نزول الآية لكان المتبادر من معناها انه ليس على المؤمنين الصالحين تضييق وإعنات فيما أكلوا [وان شئت قلت او شربوا] من اللذائذ — كما توهم الذين كانوا حرموا على أنفسهم طيبات ما أحل الله لهم مبالغة في النسك — اذا كانوا معتصمين بعرى التقوى في جميع الاوقات والاحوال ، راسخين في الايمان متحلين بصالح الاعمال محسنين فيها ، لان الله تعالى لم يحرم عليهم شيئا من الطيبات ، وانما حرم عليهم الخبائث ، كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله والخمر والميسر . وا كل اموال الناس بالباطل ، وانما الجناح والحرج في الطعام والشراب على الكافرين والفاسقين ، الذين يسرفون فيهما ، ويجعلونهما اكبر همهم من حياتهم الدنيا ، ولا يجتنبون الخبيث منهما . فالعبرة في الدين بالايمان والتقوى والعمل الصالح والاحسان فذلك هو النسك كله ، لا بالطعام

والشراب وتعذيب النفوس وارهاقها . ولعل شيخنا لو فسر الآية لجزم بان هذا هو المعنى المراد ، وان ماورد في سبب نزولها اذا صح يؤخذ الجواب عنه من فحوى الآية . وهو انه لاجناح على من كانوا يشربون الخمر قبل تحريمها لأن العمدة في الدين هو التقوى لا أمر الطعام والشراب الذي لايحرم منه شيء الا لضرره

واذا لم يراع سبب النزول في تفسير الآية فلا يمكن ان يقال ان معناها « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات إثم فيما يشربون من الخمر » بعد القطع بتحريمها وتأكيده بما في سياق آيات التحريم من المؤكدات : لأن كلمة (طعموا) لامدلول لها في اللغة الا على أكل الطعام في الماضي أو تذوق كل ما له طعم من طعام وشراب بمقدم الفم في الزمن الماضي أيضا ، ولو صح ان يكون معنى الآية ما ذكروه لكان نسخا لتحريم شرب الخمر متصلا بالتحريم المؤكد ، اوتخصيصا له بغير هل التقوى الكاملة من المؤمنين الصالحين . وليس لهذا نظير في الاسلام ، ولا في غيره من الشرائع والأديان ، ولا يتفق مع بلاغة القرآن

فان قيل ان الافعال الماضية اذا وردت في سياق الاحكام التشريعية والقواعد العلمية تفيد التكرار الذي يعم المستقبل ، بمعنى ان هذا الفعل كلما وقع كان حكمه كذا — فلم لا يجوز على هذا ان يكون معنى الآية رفع الحرج والمؤاخذة عن المؤمن اذا شرب قليلا من الخمر بالشرط الشديدة المبينة فيها ، ويدخل في عموم التقوى منها ان لا يسكر ولا يكون بحيث توقع الخمر بينه وبين احد من الناس بغضا ولا عداوة ولا بحيث تصده عن ذكر الله وعن الصلاة ؟

قلت : ان الطعم في اللغة لا يدل على الشرب القليل ولا الكثير بل على ذوق المشروب بمقدم الفم ، أو إدراك طعمه من ذوقه بهذه الصفة كما حرره الجوهري وتبعه ابن الاثير في النهاية ،وقد مر بيان ذلك . وانت ترى الفرق الجلي بين الشرب الكثير والشرب القليل وبين طعم الماء بتذوقه في قصة طالوت قال (٢ : ٢٤٩ إن الله مبتليكم بنهر — فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فانه مني ، الا من اغترف غرفة بيده . فشربوا منه الا قليلا منهم) فقد جعل هذا الابتلاء على ثلاث مراتب : الاولى البراءة ممن شرب حتى روي ، والثانية الاتحاد التام بمن لم يذق

طعمه البتة، والثالثة بين بين وهي لمن أخذ غرفة بيده فكسر بها سورة الظمإ ولم يكرع فيروَه . هذا ماجرينا عليه في تفسير الآية (ص ٤٧٨ ج ٢) وهو ما تعطيه اللغة وجرى عليه جهابذتها في تفسير اللفظ كالزمخشري وتبعه البيضاوي وابو السعود والرازي والآلوسي وغيرهم، وقالوا ان قوله «الا من اغترف غرفة» استثناء من قوله «فمن شرب منه» الا ان بعضهم خلط، وأدخل في تفسير الآية ما لا يدل عليه لفظها، تبعا للروايات أو لاصطلاحات الفقهاء فيما يحنث به من حلف أنه لا يشرب من هذا النهر مثلا. واذا كان هذا هو معنى طعموا فلا فائدة من اباحة تذوق طعم الخمر بمقدم الفم لاحد، فيكون لغوا ينزه كتاب الله عنه

ولو كان المراد من الآية ما ذكروه لكان نصها : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح في شرب القليل من الخمر — أو ما لا يسكر ولا يضر من الخمر — اذا ما اتقوا — الخ ، ولكان أجدر الناس بفهم ذلك منها من أنزلت عليه (ص) ومن خوطبوا بها أولا من فصحاء العرب، ولم يؤثر عن أحد منهم ذلك بل صح عنهم ضده :

روى احمد وابو داود والترمذي — وقال حديث حسن — عن عائشة قالت: قال رسول الله (ص) « كل مسكر حرام وما اسكر الفرق منه فملء الكف منه حرام» الفرق بفتح الراء وسكونها مكيال يسع ستة عشر رطلا حجازيا. وقيل ان ساكن الراء مكيال آخر يسع ١٢٠ رطلا . ورواة هذا الحديث كلهم محتج بهم في الصحيحين الا أبو عثمان عمر — أو عمرو — بن سالم قاضي مرو التابعي فهو مقبول كما قال الحافظ في تقريب التهذيب، ونقل في أصله توثيقه عن أبي داود وابن حبان

وروى احمد وابن ماجه والدارقطني وصححه عن ابن عمر عن النبي (ص) قال «ما اسكر كثيره فقليله حرام» وروى مثله ابو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث جابر . قال الحافظ ابن حجر رواته ثقات ، وفي اسناده داود بن بكر بن أبي الفرات قال في التقريب صدوق . ولكن قال ابو حاتم الرازي : لا بأس به ليس بالمتين . وسئل عنه ابن معين فقال ثقة

وروى النسائي والدارقطني عن سعد بن أبي وقاص عن النبي (ص) قال « أنهاكم عن قليل ما اسكر كثيره » وفي رواية أخرى : ان النبي (ص) نهى عن قليل ما اسكر كثيره . واكثر رجال هذا الحديث قد احتج بهم البخاري ومسلم في الصحيحين، وفيهم الضحاك بن عثمان احتج به مسلم في صحيحه ، فلم يبق الا شيخ النسائي محمد بن عبدالله بن عمار نزيل الموصل . قال الحافظ في تقريب التهذيب: ثقة حافظ ، فهذا حديث صحيح لا مطعن فيه . ولا عبرة بما يوهمه كلام مثل العيني في هذا المقام .فتحريم قليل كل مسكر وكثيره صح في عدة أحاديث وثبت بالاجماع

قال الحافظ النسائي بعد رواية حديث سعد وما في معناه : وفي هذا دليل على تحريم المسكر قليله وكثيره وليس كما يقول المخادعون لأنفسهم بتحريمهم آخر الشربة وتحليلهم ما تقدمها الذي يشرب في الفرق قبلها ، ولا خلاف بين أهل العلم أن ان السكر بكليته لا يحدث على الشربة الآخرة دون الاولى والثانية بعدها ، وبالله التوفيق اه أي ان السكر يكون من مجموع ما يشرب لا من الشربة التي تعقبها النشوة .

(شبهة أخرى على تحريم قليل المسكر وعلة تحريمه)

ويعلم من هذه الاحاديث فساد قول من عساه يقول : ان القليل من الخمر لا تتحقق فيه علة التحريم والقياس ان الحكم يدور مع علته وجوداً وعدما . ومتى فقدت العلة ، كان اثبات الحكم منافيا للحكمة . ووجه فساده انه لا قياس مع النص ، وان قاعدة سد ذرائع الفساد الثابتة في الشريعة تقتضي منع قليل الخمر والميسر لانه ذريعة لكثيره . ولعله لا يوجد في الدنيا ما يشابهها في ذلك

بينا في تفسير آية البقرة التعليل العلمي الطبعي لكون قليل الخمر يدعو الى كثيره — وكذلك الميسر — وكون متعاطيهما قلما يقدر على تركهما (ص ٣٤١ ج ٢) ولهذا يقلّ أن يتوب مدمن الخمر ، لأن ما يبعثه على التوبة من وازع الدين أو خوف الضرر ، يعارضه تأثير سم الخمر — الذي يسمى الغَول (الكحول) — في العصب الداعي بطبعه الى معاودة الشرب ، وهو ألم يسكن بالشرب موقتا ثم يعود كما كان أو أشد . ومتى تعارضت الاعتقادات والوجدانات المؤلمة أو المستلذة

في النفس رجحت عند عامة الناس الثانية على الأولى ، وإنما يرجح الاعتقاد عند الخواص وهم أصحاب الدين القوي والايمان الراسخ ، وأصحاب الحكمة والعزيمة القوية . وهذا الألم الذي أشرنا اليه قد ذكره أهل التجربة في أشعارهم كقول أبي نواس :   * وداوني بالتي كانت هي الداء *

وقول الشاعر :

وكأس شربت على لذة   وأخرى تداويت منها بها

واننا نرى جميع المتعلمين على الطريقة المدنية في هذا العصر وأكثر الناس في البلاد التي تنتشر فيها الجرائد والمجلات العلمية يعتقدون أن الخمر شديدة الضرر في الجسم والعقل والمال وآداب الاجتماع ولم نر هذا الاعتقاد باعثا على التوبة منها الا الافراد منهم، حتى ان الأطباء منهم وهم أعلم الناس بمضارها كثيرا ما يعاقرونها ويدمنونها، واذا عذلوا في ذلك أجابوا بلسان الحال أو لسان المقال بما أجاب به طبيب عذله خطيب على أكله طعاما غليظا كان ينهى عن أكله اذ قال : ان العلم غير العمل فكما أنك أيها الخطيب تسرد على المنبر خطبة طويلة في تحريم الغيبة والخوض في الأعراض ثم يكون جل سمرك في سهرك اغتياب الناس ، كذلك يفعل الطبيب في نهيه عن الشيء لا ينتهي عنه اذا كان يستلذه

وقد مضت سنة الله تعالى بأن تكون قوة تأثير الدين على أشدها وأكملها في نشأته الأولى ، كما يفيده قوله تعالى (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) ولهذا ترك جمهور المؤمنين الخمر في عصر التنزيل، ولكن بقي من المدمنين من لم يقو على احتمال آلام الخمار ، وما يعتري الشارب بعد تنبه العصب بنشوة السكر ، من الفتور والخمود الداعي الى طلب ذلك التنبيه، فكان أفراد منهم يشربون فيجلدون ويضربون بالجريد وكذا بالنعال ، ثم يعودون راضين بأن يكون هذا الحد الذي يحدونه ، أو التعزير الذي يعزرونه ، مطهرا لهم من الذنب الديني عند الله تعالى ، ولا يبالون بعد ذلك ما تحملوا في سبيل الخمر من ايذاء وإهانة

وقد كان من هؤلاء المدمنين أبو محجن الثقفي (رض) ولما أبلى في وقعة

القادسية ما أبلى وكان نصر المسلمين على يده ، وترك سعد بن أبي وقاص (رض) اقامة الحد عليه وكان قد اعتقله لسكره ، تاب الى الله تعالى ، وعلل توبته في بعض الروايات بأنه كان يشرب عالما أن العقاب الشرعي يطهره، واذ حابوه به – كما ظن – تاب الى الله تعالى خوفا من عقاب الآخرة . ولم يترك سعد عقابه محاباة كما ظن بل لأن الحدود لاتقام في حال الغزو ولا في دار الحرب والتعزير يرجع الى الاجتهاد .
والتحقيق ان عقاب السكر تعزير ، وأن سعداً أداه اجتهاده الى ترك تعزير أبي محجن بعد ان بذل نفسه في سبيل الله وأبلى يومئذ ما أبلى ، ولا مطهر من الذنب أقوى من هذا . وهل يوجد في هذا العصر كثير من الناس يشابهون أبا محجن في قوة إيمانه وقوة عزيمته في دينه ؟

﴿غريبة﴾ زعم بعض عشاق الخمر أن خمرة العنب حرمت تعبدا لا لكونها تسكر وكون السكر رجسا يترتب عليه ماذكر في الآية ، ولا لما فيها من الاثم الكبير ، فلا يصح ان يقاس عليها كل مسكر . وهذا القول من هذيان السكارى وهو من أكبر آثامها لعنها الله .

﴿ بعض العبر في الخمر ﴾

من آيات العبرة ان الافرنج الذين يستبيحون شرب الخمر دينا ويستحسنونه أدبا ومدنية ويصنعون منه أنواعا كثيرة يربحون منها ألوف الألوف من الدنانير في كل عام – قد ألفوا جمعيات للنهي عن الخمور والسعي لإبطالها . وأقوى هذه الجمعيات نفوذا وتأثيرا في الولايات المتحدة الامريكية ، ومن عجائب وقائع تقليد متفرنجي المسلمين للافرنج ميل بعضهم الى الدخول في هذه الجمعيات وتأليف الفروع لها في البلاد الاسلامية ، وما أغنى المسلمين عن تقليد غيرهم في هذا ! وما أجدرهم بأن يكونوا هم الأئمة المتبوعين

ومن آيات العبرة فيها ان العرب كانوا يعدون من منافع الخمر الحماسة في الحرب وقوة الاقدام فيها – وقد ثبت عند الافرنج ان السكر يضعف الجنود عن القيام بأعباء

الحرب واحتمال أثقالها، فقررت بعض الدول إبطال الخمور الوطنية الشديدة الرواج في بلادها - وأكثر انتفاعها المالي منها - مدة الحرب، ولعل الدول كلها تجمع على هذا بعد، ومع هذا كله لا يزال بعض المسلمين الجغرافيين يتململون من تحريم الاسلام للخمر، (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى تبين لهم أنه الحق)

﴿ استدراكان على بيان حقيقة الخمر المحرمة بالنص والاجماع ﴾

﴿ الاستدراك الاول ﴾ الخمر نوعان نوع يخمر تخميرا، ونوع يقطر تقطيرا، وأقوى الخمور سما وأشدها ضررا ما كانت مقطرة، ويعبرون عنها بالاشربة الروحية. وهذا من مرجحات اختيارنا لقول سيدنا عمر بن الخطاب في تعليل تسمية الخمر، وانه مخامرتها العقل، وقد بينا جميع ماقيل في ذلك في تفسير آية البقرة (ص ٣٣١ ج ٢) والمرجح الثاني كون هذا القول لإمام من أفصح العرب الخلص، وأما غيره فهو مما استنبطه المولدون من كلام العرب الخلص. والثالث ان نقله أصح فهو مروي في الصحيحين وكتب السنن كما تقدم.

وقد استدل بعضهم على كون الخمر مما يعصر، أي لا مما ينبذ ويقطر، بقوله تعالى حكاية عن أحد صاحبي يوسف (ص) في السجن (اني أراني أعصر خمرا) وهو استدلال ضعيف وسخيف، فان اتخاذ الخمر من العصير لا ينافي اتخاذها من غيره، وليس في العبارة مايدل على الحصر، دع مايمكن ان يقال من أن هذا القول حكاية عن أعجمي في بيان ماراّه في نومه مما هو معهود في بلاده، فليس بحجة في لغة العرب ولا صناعتهم للخمر، وبالاولى لايكون حجة في الشرع

وقد اشتبه على بعض الناس ما طبخ من العصير قبل وصوله إلى حد الاسكار أو بعده هل يسمى خمرا أم لا ؟ كما اشتبه على الكثيرين أمر النبيذ. ومن المطبوخ الطلاء وهو الدبس، والباذق — وهو ماطبخ من عصير العنب أدنى طبخ حتى صار شديدا، وهو اسم اعجمي، وقيل أول من صنعه وسماه بذلك بنو أمية. وفي صحيح البخاري ان ابن عباس سئل عن الباذق فقال: سبق محمد (ص) الباذق، فما أسكر فهو حرام. اي ان العبرة بما يسكر من الشراب ولا عبرة بالأسماء، فالعسل حلال

ولكنه يمزج بالماء ويترك حتى يختمر ويسكر فيصير خمراً . وكل من عصير العنب ونبيذ الزبيب وغيره حلال ، فاذا اختمر وصار يسكر حرم قطعا ، وسمي خمراً ، لا عصيراً ولا نبيذاً

على ان من قال من أهل اللغة « ان الخمر هو المسكر من عصير العنب » إطلاقاً لما هو الغالب في عصر تدوين اللغة — لم يمنعهم ذلك ولا تسميتهم لبعض الخمر من غيره بأسماء أخرى ان يطلقوا اسم الخمر على جميع الاشربة المسكرة . فهذا ابن سيده نقل ذلك الاطلاق في المخصص عن صاحب كتاب العين كما اشرنا اليه في موضعه ، وأطال في بيان أسماء الخمر بحسب صفاتها ، ثم عقد بابا للانبذة التي تتخذ من التمر والحب والعسل قال فيه ما نصه :

« أبو حنيفة (أي الدينوري اللغوي) : فاما خمور الحبوب فما اتخذ من الحنطة فهو المزر وما اتخذ من الشعير فهو الجعة ، ومن الذرة السُّكُرْكة والسقرقة — حبشي ، ه أبو عبيد : الغبيراء السكركة — الى ان قال — ابن دريد : البتع ضرب من شراب العسل . وقد تقدم انها الخمر بعينها » أشار الى قوله في باب الخمر : « أبو علي عن السكري : البتع الخمر ، يمانية . وقد بتعنا بتعا — خمرنا خمرا ، البتاع الخمار » اه

(فائدة لغوية) ذكرنا فيما سبق من التفرقة بين الخمر والنبيذ أن أهل بلاد الشام يسمون النبيذ « نقوعا » وان الصواب ان يقال نقيع ، ثم رأيت في المخصص نقلا عن صاحب العين : النقوع والنقيع (بفتح النون فيهما) شيء ينقع فيه الزبيب وغيره ثم يصفى ماؤه ويشرب

﴿ الاستدراك الثاني ﴾ يحتج القائلون بكون الخمر المحرمة بنص القرآن هي ما كان من عصير العنب بأنه هو القطعي المجمع عليه ، وغيره ظني مختلف فيه ، وهذه العبارة قد تذكر في كثير من كتب الفقه وشروح الحديث مسلمة من غير بحث ، وفيها ان أول من قال بهذا القول (من الكوفيين) لاحجة له فيه فان أهل الاجماع الذين لاخلاف في اجماعهم هم الصحابة رضوان الله عليهم وهم لم يختلفوا في تحريم ما كان عندهم من خمر البسر والتمر والحنطة والشعير وغيرها . وقد خطب عمر على منبر رسول الله (ص) بحضرة كبار علماء الصحابة وجهورهم فقال « أيها الناس انه

نزل تحريم الخمر وهي من خمسة — من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير والخمر ماخامر العقل » فصرح بأن الخمر كانت من هذه الخمسة عندهم ، وأن مراد الشرع تحريم ما كان من غيرها أيضا ، وان حقيقة الخمر ما خامر العقل ، اي خالطه فأفسد عليه إدراكه وحكمه ، ومنه الداء المخامر ، ومن قال خامره غطاه فقد راعى أصل معنى خمر الشيء والمراد واحد . والحديث متفق عليه ، ولم ينقل ان أحدا من الصحابة أنكر على عمر قوله هذا ، ولذلك قال من قال من أهل الحديث والاصول ان هذا القول له حكم الحديث المرفوع الى النبي (ص) من حيث هو تفسير لحكم شرعي لا يقوله الصحابي برأيه ، فان قال قائل انه يمكن ان يقوله باعتبار فهمه للقرآن والسنة . قلنا اذا كان هذا ما فهمه هذا الامام في اللغة والدين ووافقه عليه جمهور الصحابة ولم ينقل عن أحد انه خالفه فيه — فهل يمكن ان نجد لنص شرعي تفسيرا أصح وأقوى من تفسير يصرح به أمير المؤمنين على منبر الرسول ويوافقه عليه علماء الصحابة وعامتهم ؟ وهل نقل عن الصحابة إجماع مستند الى دليله اقوى من هذا الاجماع ؟ فظهر بهذا ان كون كل شراب من شأنه الاسكار خمرا ثابت بالكتاب والسنة واجماع الصحابة المقرون بدليله و بالقياس . فان قيل ان هذا من الاجماع السكوتي المختلف فيه — قلنا انه ليس منه ، اذ السكوتي عبارة عن قول لمجتهد ينتشر في مجتهدي عصره فلا ينقل عنهم موافقة له ولا إنكار — وان إقرار جمهور الصحابة لقول عمر في حكم الموافقة القولية ، وقوله على المنبر جدير بان ينقل ويشيع ، وان يراجعه فيه البعيد اذا بلغه ، ولو راجعه أحد في ذلك لعاد الى ذكر المسألة على المنبر كما فعل عند ما أنكرت عليه المرأة ما كان اراده من الأمر بتحديد المهر ، ثم ان اجماعهم العملي على ترك جميع المسكرات منذ نزلت الآية يؤيد ذلك — واذا لم يكن مثل هذا اجماعا فلا سبيل الى إثبات إجماع قولي قط

فالحاصل أن أول من قال بهذا القول في الخمر لا حجة له فيه ، بل هو من جعل الدليل عين المدلول ، فانه هو المخالف وحده فكيف تكون دعواه الخلاف حجة لخلافه ؟ هذه مصادرة بديهية . نعم يصح ان يقال إن هذه شبهة عرضت لمن لم يبلغه النقل عن الصحابة فهو معذور فيها الى ان يبلغه النقل ، فمتى بلغه زالت الشبهة بالحجة

وأما من جاء بعد المخالف الاول و بلغه خلافه فشبهته أقوى عند أهل التقليد، وهؤلاء ليسوا من أهل الحجة والبصيرة في الدين ، فالكلام معهم لغو مالم يحكموا الدليل ويرضوا بحكم قوله تعالى (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول) الآية — فان رضوا به بينا لهم ماصح من فهم الصحابة لقوله تعالى وعملهم به بغير خلاف ، وما صح من قول رسوله « كل مسكر خمر »

﴿ تشديد السنة في شرب الخمر ﴾

روى البخاري ومسلم وأصحاب السنن ـ الا الترمذي ـ من حديث ابن عمر ان النبي (ص) قال « من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة» زاد مسلم في رواية « فلم يسقها »

قيل معناه انه لايدخل الجنة فيشربها فيها ، وقيل لايشربها فيها وان مات مؤمنا ودخلها لانه استعجل شيئا فجوزي بحرمانه ، قيل الا ان يعفو الله عنه . والقول الاول لايصح الا بالحمل على المستحل لشربها لانه رادٌّ للشريعة غير مذعن لها . ورواية مسلم « فلم يسقها » ظاهرة في رده

وروي هذا الحديث بلفظ « كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها لم يتب لم يشربها في الآخرة » وقد عزاه الحافظ المنذري الى الشيخين وأبي داود والترمذي والنسائي والبيهقي ـ قال ـ ولفظه في احدى رواياته . قال رسول الله (ص) « من شرب الخمر في الدنيا ولم يتب لم يشربها في الآخرة وان دخل الجنة » وهذا يرد ذلك التأويل أيضا ولكنه لم يمنع المنذري من حكايته كغيره

وروى احمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة ان رسول الله (ص) قال « لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » وفي رواية البخاري تقديم الخمر على السرقة . قيل هذا في المستحل ، وقيل النفي لكمال الايمان ، وقيل هو خبر بمعنى النهي .وقيل ان الايمان يفارق مرتكب امثال هذه الكبائر

مدة ملابسته لها وقد يعود اليه بعدها ، وحقق الغزالي في كتاب التوبة من الإحياء
ان مرتكب ذلك لا يكون حال ارتكابه متصفا بالايمان الاذعاني بحرمة ذلك وكونه
من أسباب سخط الله وعقوبته ، لأن هذا الايمان يستلزم اجتناب العصيان

وروى احمد باسناد صحيح وابن حبان في صحيحه والحاكم -- وقال صحيح
الاسناد — عن ابن عباس قال سمعت رسول الله (ص) يقول « أتاني جبريل
فقال : يامحمد ان الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها والمحمولة اليه وبائعها
ومبتاعها وساقيها ومسقاها » وروى أبو داود وابن ماجه عن ابن عمر حديثا بمعناه
وليس فيه ذكر جبريل . والترمذي وابن ماجه من حديث أنس « لعن رسول الله
(ص) في الخمر عشرة : عاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة اليه وساقيها
وبائعها وآكل ثمنها والمشتري لها والمشترى له » قال الترمذي : حديث غريب .

﴿ حكمة تشديد الاسلام في الخمر دون الاديان السابقة ﴾

ورد شبهة على تحريمها

اذا قيل : ان دين الله في حقيقته وجوهره والحكمة منه واحد لا خلاف فيه
بين الرسل المبلغين له ، وانما يختلف بعض الشرائع في امرين أصليين (احدهما)
ما يختلف باختلاف الزمان والمكان ، واحوال الشعوب والاجيال (وثانيهما)
ما اقتضته حكمة الله تعالى من سير أمور البشر كلها على سنة الترقي التدريجي الذي
من مقتضاه ان يكون الآخر أكمل مما قبله ، وبهذه السنة أكمل الله تعالى دينه
العام ، بانزال القرآن وعموم بعثة محمد عليه الصلاة والسلام . وقد قلت ان في الخمر من
الضرر الذاتي ما كان سببا للقطع بتحريمها وماذكرت من التشديد فيها ؟ وهذا يقتضي
ان تكون محرمة على ألسنة جميع الانبياء عليهم السلام ، والمنقول عن أهل الكتاب
انها لم تكن محرمة عليهم ، وان الانبياء انفسهم كانوا يشربونها — فهذه شبهة على
تحريم الخمر تحدث بها المحبون لها ، واستدل بها بعضهم على حل مادون القدر المسكر
مما سوى خمرة العنب التي زعموا ان نص القرآن قاصر عليها تعبدا ، كما نقل ذلك

صاحب العقد الفريد وأمثاله من الادباء الذين يعنون بتدوين أخبار الفساق والمجان وغيرهم . وانت ترى أن هذه الشبهة أقوى من شبهة بعض الصحابة التي تقدمت ولا يدفعها جوابك عنها ، بل زعموا ان النبي (ص) شرب من نبيذ مسكر ولكنه مزجه فلم يسكر به . فما قولك في ذلك ؟

فالجواب عن هذا من وجهين (أحدهما) أن نقل أهل الكتاب ليس حجة عندنا ولم يثبت عندنا في كتاب ولا سنة ما ذكروه . واذا كان قد وجد في المسلمين من حاول إثبات حل شرب ما دون القدر المسكر من الخمور كلها — الا ما اتخذ من عصير العنب وهو أقلها ضرا وشرا — مع نقل القرآن بالتواتر ، وحفظ السنة وسيرة أهل الصدر الاول بضبط واتقان لم يتفق مثله لأمة من الأمم في نقل دينها أو تاريخها — فهل يبعد ان يدعي أهل الكتاب مثل هذه الدعوى وينسبونها الى انبيائهم وهم لا يقولون بعصمتهم ؟

(الوجه الثاني) إننا اذا سلمنا ما ينقلونه في العهدين القديم والجديد من الاخبار الدالة على حل الخمر وعدم التشديد الا في السكر ، نقول (أولا) ان هذا التحريم من إكمال الدين بالاسلام ، وقد مهد الانبياء له من قبل بتقبيح السكر وذمه ، ولم يشددوا في سد ذريعته بالنهي عن القليل من الخمر لما كان من افتتان البشر بها ومنافعهم منها ، كما فعل الاسلام في أول عهده . — (وثانيا) ان الله تعالى ما اكمل دينه العام بالاسلام الا وهو يعلم أن البشر سيدخلون في طور جديد تتضاعف فيه مفاسد السكر ، وان مصلحتهم وخيرهم ان يتسلح المؤمنون بأقوى السلاح الأدبي لاتقاء شرور ما يستحدث من أنواع الخمور الشديدة الفتك بالاجساد والأرواح ، التي لم يكن يوجد منها شيء في عصور أولئك الانبياء عليهم السلام ، وما ذلك الا سد ذريعة هذه المفسدة بتحريم قليل الخمر وكثيرها . وهاك بعض ما يؤثر عن كتبهم في ذمها :

جاء في نبوة اشعيا عليه السلام (٥ : ١١ ويل للمبكرين صباحا يتبعون المسكر للمتأخرين في العتمة تلهبهم الخمر ١٢ وصار العود والرباب والدف والناي والخمر ولائمهم . والى فعل الرب لا ينظرون ، وعمل يديه لا يرون ١٣ لذلك سبي شعبي —

لعدم المعرفة ، وتصير شرفاؤه رجال جوع وعامته يابسين من العطش ١٤ لذلك وسعت الهاوية نفسها وفغرت فاها بلا حد) يشير الى ما استحقوه بذنوبهم تلك من عذاب الدنيا والآخرة

ثم قال (٢٨ : ١ ويل لاكليل فخر سكارى أفرايم وللزهر الذابل جمال بهائه الذي على رأس وادي سمائن المضروبين بالخمر – الى ان قال – ولكن هؤلاء ضلوا بالخمر وتاهوا بالمسكر ، الكاهن والنبي ترنحا بالمسكر ، ابتلعتهما الخمر ، تاها من المسكر ، ضلا في الرؤيا » – واعلم أن النبي عندهم لا يشترط فيه ان يكون موحى اليه.

ومن شواهد العهد الجديد في ذلك قول بولس في رسالته الى أهل افسس (٥ : ١٨ ولا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة) ونهيه عن مخالطة السكير (١ كو ٥ : ١١) وجزمه بأن السكيرين لا يرثون ملكوت السموات (غلا ٥ : ٢١ و ١ كو ٦ : ٩ و ١٠)

نبينا « ص » لم يشرب الخمر

أما نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فلم يكن يشرب الخمر في الجاهلية ولا الاسلام كما صرحوا به في سيرته . ولكنه كان يشرب النبيذ قبل تحريمها وبعده ، فاذا اشتبه في وصوله الى حد الاسكار لم يشرب منه كما تقدم . وقد روى الحميدي عن أبي هريرة ان رجلا كان يهدي الى النبي (ص) راوية خمر فأهداها اليه عاما وقد حرمت فقال النبي (ص) « انها قد حرمت » فقال الرجل : أفلا أبيعها ؟ فقال « ان الذي حرم شربها حرم بيعها » قال أفلا أكارم بها اليهود ؟ قال « ان الذي حرم شربها حرم ان يكارم بها اليهود » قال فكيف أصنع ؟ قال « شنها على البطحاء » وهذا الحديث لا يدل على شربه لها ، على أنه لم يصح هكذا ، ولكن له أصلا في صحيح مسلم وسنن النسائي من حديث ابن عباس قال « ان رجلا أهدى لرسول الله (ص) راوية خمر فقال له رسول الله (ص) « هل علمت ان الله تعالى حرمها ؟ » قال لا . فسارّ (اي الرجل) انسانا ، فقال له رسول الله (ص) « بم ساررته » قال : امرته ببيعها فقال « ان الذي حرم شربها حرم بيعها » قال ففتح المزادة حتى ذهب ما فيها .

ورواه احمد بزيادة ان المهدي كان من ثقيف أو دوس وأن ذلك كان عام الفتح . وروى احمد والبغوي من طريق ابن لهيعة وسليمان بن عبد الرحمن عن نافع

ابن كيسان الثقفي عن أبيه انه كان يتجر في الخمر وانه أقبل من الشام فقال يارسول الله اني جئتك (في الاصابة جئت) بشراب جيد فقال « يا كيسان انها حرمت بعدك » قال أفأبيعها ؟ قال « انها حرمت وحرم ثمنها » وفي ابن لهيعة وسليمان مقال. وروى احمد وأبو يعلى من حديث تميم الداري انه كان يهدي لرسول الله (ص) كل عام راوية خمر فلما كان عام حرمت جاء براوية فقال « اشعرت انها قد حرمت بعدك ؟ » قال أفلا أبيعها وانتفع بثمنها ؟ فنهاه . قال الحافظ في الفتح : ويستفاد من حديث كيسان تسمية المبهم في حديث ابن عباس ، ومن حديث تميم تأييد الوقت المذكور فان اسلام تميم كان بعد الفتح . وأقول : يعترض على هذه بتعذر إهدائه الخمر كل عام الى النبي (ص) لانها حرمت قبل اسلامه وقد أسلم سنة تسع كما نقله في الاصابة فلم يدرك من حياة النبي (ص) الا سنة واحدة كانت الخمر محرمة فيها قطعا ، فهذا الحديث منكر لايحتج به

ومن العجيب ان صاحب المنتقى أورد حديث أبي هريرة وترك حديث ابن عباس الصحيح ، وأن الشوكاني لم يتكلم على سنده

وما رواه النسائي من شر به من نبيذ السقاية بمكة وهو مايشرب منه الناس في الحرم ومن كونه شمه أولا فقطّب ودعا بذنوب من ماء زمزم فصب عليه ثم شرب، فقد ضعفه احمد والنسائي راويه وغيرهما لتفرد يحيى بن يمان برفعه وهو ضعيف . على انه لايدل على كونه كان مسكرا ولا على كون شر به منه كان نسخا لتحريم كل مسكر كما زعم بعض المفتونين بالنبيذ ، اذ لو كان الامر كذلك لكانت الرواية دالة على انهم كانوا مصرين على شرب المسكر وعلى إسقائه للحجاج جهرا في الحرم . وهذا زعم لم يقل به أحد بل هو منقوض بالروايات المتفق عليها وبما تواتر من انهم تركوا بعد نزول آيات المائدة كل مسكر - وانما يفسر ذلك ماقاله (ص) لوفد عبد القيس اذ أذن لهم بالانتباذ في الاسقية (أي قِرب الجلد) قال « فان اشتد فاكسروه بالماء فان أعيا كم فأهر يقوه » وفي رواية ابن عباس انهم سألوه ماذا يفعلون اذا اشتد في الاسقية فقال « صبوا عليه الماء - فسألوه - فقال لهم في الثالثة أو الرابعة أهريقوه » الحديث - رواه أبو داود . وهو يفسر لنا أمره بكسر ما في سقاية الحجاج بالماء اذ

شمه فعلم أنه بدا فيــه التغير وقرب ان يصير خمرا ، هذا اذا صح الحديث وما هو بصحيح . وكما أنه لم يصح شربه (ص) من النبيذ المسكر لم يصح أيضا ما رواه الدارقطني وابن أبي شيبة من ان رجلا شرب من إداوة عمر فسكر فجلده وقال : جلدناك للسكر ، أي لا لمجرد الشرب . وقد روى الترمذي أيضا والبيهقي ان عمر أتي في سفر بنبيذ فذاقه وقطب وأمر بأن يكسر بالماء . وعبارة النسائي: فلما قربه الى فيه كرهه فدعا به فكسره بالماء . قال نافع والله ماقطب عمر وجهه لأجل الاسكار حين ذاقه ولـكنه كان تخلل . وروي عن عتبة بن فرقد ايضا انه قد تخلل . وروى الأثرم عن الاوزاعي والعمري ان عمر إنما كسره بالماء لشدة حلاوته . ذكر ذلك الحافظ في فتح الباري وحمل الروايتين على حالتين أي انه كسر الشديد الحلاوة بالماء ، وأما الذي تخلل فلم يمزجه لان الخل لا يشرب شربا .

ويقول بعض النصارى : ان النبي (ص) شرب الخمر مع بحيرا الراهب وبعض الصحابة ، وان بعض من سكر من الصحابة قتل الراهب بسيف النبي (ص) فكان ذلك سبب تحريم النبي (ص) للخمر — وهذا قول مختلق لا أصل له البتة فلم يرو من طريق صحيح ولا ضعيف ولا موضوع ، وبحيرا الراهب لم يجئ الحجاز وانما روي انه رأى النبي (ص) مع عمه أبي طالب وغيره من تجار مكة في بصرى بالشام ولما اختبر حاله علم أن سيكون هو النبي الذي بشر به عيسى والانبياء (عليهم السلام) وأوصى به عمه وحذره من اليهود ان يكيدوا له. وكانت سن النبي (ص) اثنتي عشرة سنة . ولم يثبت ان بحيرا أدرك البعثة . وليس النبي (ص) هو الذي حرم الخمر كما حرم صيد المدينة وخلاها . بل كان ذلك بوحي تدريجي كما تقدم

(التداوي بالخمر)

اختلف العلماء في التداوي بالخمر والنجاسات والسموم لحديث طارق بن سويد الجعفي في الخمر — وسيأتي — وحديث أبي هريرة : نهى رسول الله (ص) عن الدواء الخبيث ، يعني السم . رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه ، وحديث أبي الدرداء مرفوعا « ان الله انزل الداء والدواء وجعل لـكل داء دواء فتداووا ولا تداووا

بحرام » رواه أبو داود من طريق اسماعيل بن عياش – وهو ثقة في الشاميين كما هنا ضعيف في الحجازيين — وثبت في الصحيحين اذن النبي (ص) للعرنيين بالتداوي بأبوال الابل . قال بعضهم بعدم الجواز مطلقا ، وقال آخرون : يجوز بشرط عدم وجود دواء من الحلال يقوم مقام الحرام . وقال شيخنا محمد عبده : يشترط في التداوي بالخمر أن لا يقصد المتداوي بها اللذة والنشوة ولا يتجاوز مقدار ما يحدده الطبيب ، وقد جاء في فتاوى المجلد السابع عشر من المنار في السؤال والجواب الآتيين :

(السؤال) هل يحل التداوي بالخمر اذا ظن نفعها بخبر طبيب أخذا من آية (ماجعل الله عليكم في الدين من حرج) ومن القاعدة المتفق عليها : الضرورات تبيح المحظورات . واذا جوزتم فماذا ترون في حديث « إنها داء وليست بدواء » أو كماورد ؟

[الجواب]

التداوي بالخمر لمن ظن نفعها شيء . والاضطرار الى شربها شيء آخر . فاما الاضطرار فانما يعرض لبعض الافراد في بعض الاحوال ، وهو يبيح المحرم من طعام وشراب بنص قوله تعالى (وقد بين لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه) وبنفي الحرج والعسر وغير ذلك من الادلة (أي كالنهي عن الإلقاء بالنفس الى التهلكة) . وقد مثل الفقهاء له في شرب الخمر بمن غص بلقمة فكاد يختنق ولم يجد ما يسيغها به سوى الخمر . ومثله من دنق من البرد وكاد يهلك ولم يوجد ما يدفع به الهلاك برداً سوى جرعة او كوب من خمر ، ومثله أو أولى منه من أصابته نوبة ألم في قلبه كادت تقضي عليه وقد علم أو أخبره الطبيب بأنه لا يجد ما يدفع عنه الخطر سوى شرب مقدار معين من الخمر القوية كالنوع لافرنجي الذي يسمونه (كونياك) فاننا نسمع من الاطباء أنه يتعين في بعض الاحيان لعلاج ما يعرض من مرض القلب ودفع الخطر وقد ثبت ذلك بالتجربة . وهذا النوع من العلاج لا يكاد يكون شربا للخمر وانما يؤخذ منه نقط قليلة لا تسكر . واما التداوي المعتاد بالخمر لمن يظن نفعها ولو بإخبار الطبيب كتقوية المعدة أو الدم ونحو ذلك مما نسمعه من كثير

الناس فهذا هو الذي كان الناس يفعلونه قبل الاسلام ونهى عنه النبي (ص) ونص الحديث الذي أشار اليه السائل « انه ليس بدواء ولكنه داء » رواه احمد ومسلم وابو داود والترمذي وسببه ان طارق بن سويد الجعفي سأل النبي عن الخمر وكان يصنعها فنهاه عنها ، فقال إنما اصنعها للدواء . فقاله . وقوله « ولكنه داء » هو الحق وعليه اجماع الاطباء ، فان المادة المسكرة من الخمر سم تتولد منه امراض كثيرة يموت بها في كل عام الوف كثيرة ، والسموم قد تدخل في تركيب الادوية ، ولكن الذين يشربون الخمر ولو بقصد التداوي بها لا يلبثون أن يؤثر في أعصابهم سمها ، فتصير مطلوبة عندهم لذاتها ، أي لا لمجرد التداوي بها ، فيتضررون بسمها ، فلا يغترن مسلم بأمر احد من الاطباء بالتداوي بها لمثل ما يصفونها له عادة، والله الموفق اه

هذا ما أجبنا به عن ذلك السوءال ونزيد في إيضاحه بالقواعد الشرعية واعتبار القياس فنقول : ان المقدار المسكر من الخمر محرم لذاته أي لما فيه من الضرر والمفاسد التي بينا أنواعها في تفسير آية البقرة — وما دون ذلك محرم لسد الذريعة كما بيناه في تفسير هذه الآيات . والقاعدة ان ما حرم لذاته يباح للضرورة ان كان مما يضطر اليه كأكل الميتة ولحم الخنزير ، ومنه شرب الخمر كما تقدم في الفتوى آنفا (وليس منه مثل الزنا كما لا يخفى) و يعبرون عن هذه القاعدة بقولهم « الضرورات تبيح المحظورات » واذا وصل التداوي بالخمر الى حد الاضطرار اليه بشهادة الثقة من الاطباء يجب ان يراعى فيه قاعدة « الضرورات تقدر بقدرها » فلا يجوز الزيادة على ما يقوله الطبيب حتى اذا حدده بالنقط امتنع زيادة نقطة واحدة . وأما المحرم لسدّ الذريعة فقد يباح للحاجة كرؤية الطبيب لعورات الرجال والنساء لأجل التداوي ، فالقياس أن هذا جائز مطلقا أو اذا لم يوجد غيره يقوم مقامه ، وعده بعضهم كتداوي العرنيين بأبوال الإبل بناء على ان كلامنهما نجس عند القائلين بذلك من الفقهاء كالشافعية. وظاهر حديث طارق بن سويد ان الخمر لا يجوز ان يكون دواء فيكون مستثنى من القاعدة ولا قياس مع النص . هذا اذا كان التداوي بالخمر مباشرة لغير اضطرار ، أما دخول نقط من الخمر في علاج مركب تكون أجزاء الخمر فيه مغلوبة غير ظاهرة ولا من شأنها أن تسكر فلا يدخل في ذلك فهو كالقليل من الحرير في الثوب والله أعلم

(اسباب ترجيح شرب الخمر الضار على حفظ الصحة والعقل والدين)

ثبت بالاختبار و بالاحصاء الذي عني به الافرنج ان أكثر من يبتلون بشرب الخمر لايقدمون على شربها الا بإغراء القرناء والمعاشرين من الاهل والاصحاب، وانهم لايحتسونها في أول العهد الا كرها ، لبشاعة طعمها ولاعتقاد الكثيرين منهم أنهم يقدمون على عمل منكر أو ضار، ولكن غريزة التقليد في الانسان وضعف ارادة أكثر الناس عن مخالفة العشراء والخلان ، هما اللذان يمهدان السبيل لطاعة الشيطان .

أما الشبهة التي يرجح بها العالمون بضرر الخمر داعيتا التقليد ومواتاة العشراء أولا — وطاعة غول الخمر آخراً — على داعية المحافظة على صحة الجسم والعقل فهي ظنهم ان الضرر المتيقن انما يكون بالاسراف في الشرب ، والانهماك في السكر، وأن شرب القليل من الخمر إما ان ينفع وإما ان لايضر، فلا ينبغي ان يترك مافيه من لذة النشوة والذهول عن المكدرات ومن مجاملة الاخوان ، لتوهم ضرر نجا منه فلان وفلان ، ولو سأل هؤلاء المخدوعون من سبقهم الى هذه المحنة واسرفوا في السكر حتى أفسد عليهم صحتهم وعفتهم و بيوتهم وثروتهم : هل كنتم يوم بدأتم بشرب الاثم تنوون الاسراف فيه وادمانه؟ لاجابهم جميع من سألوهم أو أكثرهم : لالا ، انما كنا ننوي ان نشرب القليل ، وما كنا نعلم ان القليل يقسرنا على الكثير، و يرمينا بعد ذلك بالداء الوبيل. حتى لا نجد الى الخروج من سبيل . ومن هنا تعلم ان ماذكرناه من قبل في تعليل شرب بعض المتعلمين والاطباء للخمر من ان العلم لايستلزم العمل — مبني على التسامح والاخذ بالظاهر ، فالعلم يستلزم العمل مالم يعارضه ماهو أرجح منه

وأما المؤمنون بتحريم الخمر فلهم شبهات متعددة لاشبهة واحدة ، — فمنهم من تعلق بقول من ذهب الى ان الخمرة المتخذة من عصير العنب هي المحرمة لذاتها وان ماعداها من المسكرات لايحرم منه الا القدر المسكر بالفعل ، أو الحسوة الاخيرة التي تعقبها نشوة السكر ، وأولوا ماورد في الاحاديث الصحيحة من النص على تحريم كل مسكر بأن لفظ المسكر وصف لموصوف محذوف وأن المراد ان المقدار المسكر من الشراب بالفعل هو الحرام. وقد بينا رد هذا فيما سبق وان لفظ مسكر في تلك الاحاديث

اسم جنس يعم كل شراب من شأنه الاسكار ولذلك ورد في الصحيح مقرونا بكل كقوله (ص) « كل مسكر خمر وكل مسكر حرام » كما تقدم ، ولا يمكن ان يكون المعنى كل مقدار مسكر بالفعل يسمى خمرا ، كما هو بديهي عند كل من له شمة من هذه اللغة . ولا يزال بعض الناس يبحث عن بعض الاخبار والآثار حتى الضعيفة والموضوعة ليستدل بها على ان شرب القليل من المسكر غير محرم وان كانت وقائع أحوال لا يحتج بها على فرض صحتها ، ويجعل ذلك مرجحا على نص القرآن والاحاديث المتفق عليها وعمل أهل الدين من السلف والخلف ، وقد تقدم تفنيد المزاعم ودحض الشبهات التي يتوكأ عليها هؤلاء الناس وأمثالهم كالذين زعموا ان تحريم كل مسكر قد نسخ ، فلا نعيده . نعم روى الطحاوي من طريق حجاج بن أرطاة ان ابن مسعود قال في حديث « كل مسكر حرام » : هي الشربة التي تسكر . وحجاج هذا ضعيف ومدلس

وانما نريد ان نشير الى تعللات من يقدمون على شرب أي نوع من أنواع الخمر لأجل السكر وهم يعتقدون ان ذلك من كبائر المعاصي ، فقد فات زمن الذين كانوا يغشون أنفسهم والناس بترك النبيذ الذي هو نقيع الزبيب والتمر ونحوهما زمنا يسكر فيه كثيره ثم قليله و يشربونه على أنه حلال ، فان سكروا أحالوا على غفلتهم عن الكثرة او على جور السقاة عليهم ، وكابروا أنفسهم بأنهم لم يكونوا يقصدون السكر ، كما كان يقع من بعض المترفين في القرون الأولى ، حتى عزي الى بعض خلفاء العباسيين ، وبعض رجال العلم والدين [1]

من اختبر حال المبتدئين بشرب الخمر على اعتقاد ضررها في الدنيا والمبتدئين بشربها على اعتقاد ضررها في الآخرة يرى بينهما شبها في ان كلا منهما ينوي في أول الامر أن يقتصر على القليل الذي لا يترتب عليه فساد يذكر . فأما الذين

(١) بالغ بعض المؤرخين والادباء حتى عزوا مثل ذلك الى مثل هرون الرشيد والمامون والقاضي يحيي بن اكثم وفند كلامهم في هؤلاء المحقق ابن خلدون واحتج بتوثيق رجال الجرح والتعديل ليحيي و بسيرة هرون في الدين والتقوى

يقلدون من قالوا ان القليل من غير خمر العنب ليس كالكثير فيكون اطمئنانهم اشد ، وأما الذين يتبعون النصوص ويوافقون الجمهور في تحريم قليل ما أسكر كثيره فمنهم المتفقهة وغير المتفقهة — فالمتفقهة يعللون أنفسهم أولا بمسألة علة التحريم وحكمته ، وقد فندنا شبهتهم هذه فيما سبق ، وغير المتفقهة يعتمدون على عفو الله تعالى قبل التعود والادمان كما يعتمدون عليه هم والمتفقهة بعده عند ما يعلمون بالاختبار والعمل ان قليل الخمر يفضي الى كثيرها ، ويرون أنفسهم قد انغمست في شرورها ومفاسدها .

فالتكأة الاخيرة لمن يشرب الخمر من أهل الدين هي تكأة أكثر المرتكبين لسائر المعاصي — وهي الغرور بكرم الله وعفوه ، إما بضميمة الاعتماد على بعض الاعمال الصالحة ولاسيما مايسمى منها بالمكفرات ، أو على الشفاعات ، وإما بدون ضميمة . ومن مكفرات الذنوب ما له أصل في السنة ومنها مالا أصل له ، وما له أصل قيدوه بالصغائر أو بمقارنة التوبة له ، وقد فندنا جهل هؤلاء وغرورهم في مباحث التوبة والكفارة من تفسير سورة النساء [راجع تفسير (٤ : ٦ أنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) في ص ٤٤٠ ج ٤ وتفسير (٤ : ٣٠ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) في ص ٤٦ ج ٥ من التفسير] وهذا الجهل والغرور يرسخ في قلوب هؤلاء ، بما نظمه وينظمه لهم فساق الشعراء ، كقول أبي نواس الشهير بالسكر والفجور

تكثر ما استطعت من المعاصي فانك واجد ربا غفورا
تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا

وقوله من قصيدة يذكر بها استعانته بالخمر على الفجور بغلام نصراني هرب منه الى الدير :

ورجوت عفو الله معتمدا على خير الأنام محمد المبعوث

واذا صح ما يهذي به هؤلاء الفجار ، فالدين كله لغو وعبث لا حاجة اليه — حاش لله —

﴿ فائدة في المشروع من المسابقة والرماية ﴾

ذكرنا في الكلام على الميسر ان أخذ المال في المسابقة والرماية جائز شرعا . وقد يتوهم بعض العامة منه ان مسابقة الخيل المعروفة في مصر وغيرها من ذلك الجائز، وما هي الا من القمار المحرم ، أما الجائز شرعا فهو ما كان من الاستعداد للقتال في سبيل الله . وقد اشترط فيه ان يكون السبق (بفتح السين والباء) ـ وهو الجعل الذي يكون لصاحب الفرس السابق ـ إما من الإمام (أي الخليفة) وهذا لاخلاف فيه ، وإما من أحد المتسابقين ، وعليه الجمهور ـ ولا يجوز أن يكون مال السبق من كل منهما ، واذا دخل بينهم ثالث اشترط أيضا أن لايخرج من عنده شيئا . وبهذا الشرط تخرج المسابقة من معنى الميسر والقمار . وما اشترطه الفقهاء من كون المسابقة معروفة الابتداء والانتهاء ، وكون الجعل والمسافة التي يستحق بها معلومين ، وكون الفرسين أو الافراس معينة ، وكون كل منهما أو منها يحتمل ان يسبق ـ كل ذلك مما يشترطه المقامرون أيضا ويزيدون عليه

روى أحمد بسند رجاله ثقات عن ابن عمر ان النبي (ص) سبَّق بالخيل وراهن . وفي لفظ : سابق بين الخيل وأعطى السابق . وروى بسند رجاله ثقات أيضا من حديث أنس ـ وقيل له : أكنتم تراهنون على عهد رسول الله (ص) أكان رسول (ص) يراهن ؟ قال : نعم والله لقد راهن على فرس يقال له (سَبحة) فسبق الناس ، فبهش [1] لذلك وأعجبه . وروى الشافعي وأحمد وأصحاب السنن الاربعة والحاكم من طرق عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) « لاسبق الا في خف أو نصل أو حافر » ولم يذكر ابن ماجه « أو نصل » صححه ابن القطان وابن حبان وحسنه الترمذي . والمراد بالنصل السهام عبر عن السهم بحديدته الجارحة . ويقاس على الرمي بالسهام الرمي ببندق الرصاص وقذائف المدافع . وأجاز الشافعية المسابقة على الاقدام بعوض

---

(١) قالوا معناه هش وفرح . (وهو بوزن فتح) وأشهر معناه الاقبال على ما يشتهى والاسراع للتمتع به ، ويتعدى بالى فيقال : بهش الطفل الى الثمرة أو اللعبة

كلام الصوفية في الوقت

من الجزء الثالث من كتاب مدارج السالكين . قال :

ومنها الوقت . قال صاحب المنازل (باب الوقت)

﴿ قال الله تعالى (ثم جئت على قدَر ياموسى) الوقت اسم لظرف الكون ، وهو اسم في هذا الباب لثلاثة معان على ثلاث درجات [1] : المعنى الاول [2] حين وجد [3] صادق لإيناس ضياء فضل جذبه صفاء رجاء ، أو [4] لعصمة جذبها صدق خوف ، أو لتلهب شوق جذبه اشتعال محبة ﴾ وجه استشهاده بالآية ان الله سبحانه قدر مجيء موسى أحوج ما كان الوقت اليه ، فان العرب تقول : جاء فلان على قدر . اذا جاء وقت الحاجة اليه ، قال جرير :

نال الخلافة اذ كانت على قدر كما أتى ربه موسى على قدر

وقال مجاهد : على موعد . وهذا فيه نظر لأنه لم يبق بين الله سبحانه وبين موسى موعد للمجيء حتى يقال انه أتى على ذلك الموعد ، ولكن وجه هذا ان المعنى جئت على الموعد الذي وعدناه أن ننجزه ، والقدر الذي قدرناه أن يكون في وقته . وهذا كقوله تعالى (ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا ، ويقولون : سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا) لان الله سبحانه وتعالى وعد بارسال نبي في آخر الزمان يملأ الأرض نورا وهدى ، فلما سمعوا القرآن علموا ان الله أنجز ذلك الوعد الذي وعد به . واستشهاده بهذه الآية يدل على محله من العلم ، لأن الشيء إذا وقع في وقته الذي هو أليق الاوقات بوقوعه فيه كان أحسن وأنفع وأجدر ، كما إذا وقع الغيث في أحوج الأوقات اليه ، وكما اذا وقع الفرج في وقته الذي يليق به

(١) قال في المتن « وهو على ثلاث درجات » (٢) وقال فيه : الدرجة الاولى (٣) وفيه « وجد وجه » الخ (٤) سقطت هذه الجملة من نسخة المتن

ومن تأمل أقدار الرب تعالى وجريها في خلقه علم انها واقعة في أليق الاوقات بها ، فبعث الله سبحانه موسى أحوج ما كان الناس الى بعثته ، وبعث عيسى كذلك ، وبعث محمداً صلى الله (عليه و) عليهم أجمعين أحوج ما كان أهل الارض الى ارساله، فهكذا وقت العبد مع الله يعمره بانفع الاشياء له أحوج ما كان الى عمارته

قوله « الوقت ظرف السكون » الوقت عبارة عن مقاربة حادث لحادث عند المتكلمين ، فهو نسبة بين حادثين ، فقوله ظرف الكون أي وعاء التكوين فهو الوعاء الزماني الذي يقع فيه التكوين ، كما ان ظرف المكان هو الوعاء المكاني الذي يحصل فيه الجسم ، ولكن الوقت في اصطلاح القوم أخص من ذلك . قال أبو علي الدقاق : الوقت ما أنت فيه ، فان كنت في الدنيا فوقتك الدنيا وان كنت بالعقبى فوقتك العقبى ، وان كنت بالسرور ، فوقتك سرور وان كنت بالحزن فوقتك الحزن . يريد أن الوقت ما كان الغالب على الانسان من حاله ، وقد يريد أن الوقت ما بين الزمانين الماضي والمستقبل ، وهو اصطلاح أكثر الطائفة ، ولهذا يقولون : الصوفي والفقير ابن وقته . يريدون أن همته لاتتعدى وظيفة عمارته بما هو أولى الاشياء به وأنفعها له ، فهو قائم بما هو مطالب به في الحين والساعة الراهنة، فهو لا يهتم بماضي وقته وآتيه، بل بوقته الذي هو فيه، فان الاشتغال بالوقت الماضي والمستقبل يضيع الحاضر ، وكلما حضر وقت اشتغل عنه بالطرفين فتصير أوقاته كلها فوات .

قال الشافعي رضي الله عنه : صحبت الصوفية فما انتفعت منهم الا بكلمتين : سمعتهم يقولون الوقت سيف فان قطعته والا قطعك ، ونفسك ان لم تشغلها بالحق والا شغلتك بالباطل

قلت : يالها كلمتين ما أنفعهما وأجمعهما وأدلهما على علو همة قائلهما و يقظته ! ويكفي هذا ثناء من الشافعي على طائفة هذا قدر كلماتهم

وقد يريدون بالوقت ما هو أخص من هذا كله، وهو ما يصادفهم في تصريف الحق لهم دون ما يختارونه لأنفسهم . ويقولون : فلان بحكم الوقت . أي مستسلم

لما يأتي من عند الله من غير اختيار ، وهذا يحسن في حال ويحرم في حال وينقص صاحبه في حال ، فيحسن في كل موضع ليس لله على العبد فيه أمر ولا نهي ، بل في موضع جريان الحكم السكوني الذي لا يتعلق به أمر ولا نهي كالفقر والمرض والغربة والجوع والالم والحر والبرد ونحو ذلك ، ويحرم في الحال التي يجري عليه فيها الامر والنهي والقيام بحقوق الشرع ، فان التضييع لذلك والاستسلام والاسترسال مع القدر انسلاخ من الدين بالكلية ، وينقص صاحبه في حال تقتضي قياما بالنوافل وأنواع البر والطاعة ، واذا أراد الله بالعبد خيرا أعانه بالوقت وجعل وقته مساعدا له ، واذا أراد به شرا جعل وقته عليه ونا كده وقته فكلما أراد التأهب للمسير لم يساعده[1] الوقت ، والاول كلما همت نفسه بالقعود أقامه الوقت وساعده

وقد قسم بعضهم الصوفية أربعة أقسام : أصحاب السوابق ، وأصحاب العواقب ، وأصحاب الوقت ، وأصحاب الحق ، قال :

(فاما أصحاب السوابق) فقلوبهم أبدا فيما سبق لهم من الله ، لعلمهم ان الحكم الازلي لا يتغير باكتساب العبد ، ويقولون : من أقصته السوابق لم تدنه الوسائل . ففكرهم في هذا أبدا ، ومع ذلك فهم يجدون في القيام بالاوامر واجتناب النواهي والتقرب الى الله بانواع القرب غير واثقين بها ولا ملتفتين اليها ، يقول قائلهم :

من أين أرضيك الا أن توفقني ... هيهات هيهات ما التوفيق من قبلي
ان لم يكن لي في المقدور سابقة ... فليس ينفع ماقدمت من عملي

وأما (أصحاب العواقب) فهم متنكرون فيما يختم به أمرهم ، فان الامور بأواخرها والاعمال بخواتيمها ، والعاقبة مستورة كما قيل :

لا يغرنك صفا الاوقات ... فان تحتها[2] غوامض الآفات

فكم من ربيع نورت أشجاره ، وظهرت أزهاره ، وزهت ثماره ، لم يلبث ان

---

(١) سقط من ن قوله « واذا أراد به شرا » الى هنا ـ فنقلناه من ب

(٢) لعل الاصل «فتحتها» فبه يستقيم الوزن ، أو ان كلمة صفاء ممدودة وربما كانت العبارة سجعا ولكنها كتبت في ب كما يكتب الشعر

أصابته جائحة سماوية فصار كما قال الله عز وجل (حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازّينت وظن أهلها انهم قادرون عليها — الى قوله — يتفكرون) فكم من مريد كبا به جواد عزمه [فخر صريعاً لليدين والفم] وقيل لبعضهم وقد شوهد منه خلاف ما كان يعهد عليه : ما الذي أصابك ؟ فقال حجاب وقع ، وأنشد

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت ولم تخف سوء مايأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

ليس العجب ممن هلك كيف هلك انما العجب ممن نجا كيف نجا

[تعجبين من سقمي صحتي هي العجب] الناكصون على أعقابهم أضعاف أضعاف من اقتحم العقبة :

خذ من الالف واحدا واطرح الكل بعده

وأما (أصحاب الوقت) فلم يشغلوا[1] في السوابق ولا في العواقب، بل اشتغلوا بمراعاة الوقت ومايلزمهم من أحكامه ، وقالوا : العارف ابن وقته[2] لاماضي له ولا مستقبل ، ورأى بعضهم الصديق رضي الله عنه في منامه فقال أوصني ، فقال له : كن ابن وقتك

وأما (أصحاب الحق) فهم مع صاحب الوقت والزمان ومالكهما ومدبرهما ، مأخوذون بشهوده عن مشاهدة الأوقات ، ولا يتفرغون لمراعاة وقت وزمان كما قيل :

لست أدري أطال ليلي أم لا كيف يدري بذاك من يتقلى
لو تفرغت لاستطالة ليلي ولرعي النجوم كنت مخلى
ان للعاشقين عن قصر الليـــل وعن طوله من العشق شغلا

قال الجنيد : دخلت على السري يوما فقلت له : كيف أصبحت ؟ فانشأ يقول :

مافي النهار ولافي الليل لي فرج فلا أبالي أطال الليل أم قصرا

ثم قال : ليس عند ربكم ليل ولا نهار. يشير الى انه غير متطلع الى الأوقات ، بل هو مع الذي يقدر الليل والنهار

(١) قال في ب بالفكر في السوابق ٢ وفيها « الفقر لاماضي له » الخ

فصل

قال صاحب المنازل « الوقت اسم في هذا الباب لثلاث معان : المعنى الاول حين وجد صادق » أي وقت وجد صادق . أي زمن من وجد يقوم بقلبه وهو صادق فيه غير متكلف له ولا متعمل في تحصيله « يكون متعلقه ايناس ضياء فضل » أي رؤية ذلك ، ولإيناس الرؤية قال الله تعالى (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا اني آنست نارا) وليس هو مجرد الرؤية ، بل رؤية مايأنس به القلب ويسكن اليه ، ولا يقال لمن رأى عدوه أو مخوفا « آنسه » ومقصوده ان هذا الوقت وقت وجد صاحبه صادق فيه لرؤية ضياء فضل الله ومنه عليه ، والفضل هو العطاء الذي لايستحقه المعطى أو يعطى فوق استحقاقه ، فاذا آنس هذا الفضل وطالعه بقلبه أثار ذلك [1] فيه وجدا آخر باعثا على محبة صاحب الفضل والشوق الى لقائه ، فان النفوس مجبولة على حب من أحسن اليها . ودخلت يوما على بعض أصحابنا وقد حصل له وجد أبكاه فسألته عنه فقال : ذكرت مامنّ الله به على من السنة ومعرفتها والتخلص من شبه القوم وقواعدهم الباطلة وموافقة العقل الصريح والفطرة السليمة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فسرني ذلك حتى أبكاني . فهذا الوجد أثاره ايناس فضل الله ومنه

قوله « جذبه صفاء رجاء » أي جذب [2] ذلك الوجد أو الإيناس أو الفضل رجاء صاف غير مكدر ، والرجاء الصافي هو الذي لا كدر يشوبه [3] بوهم معاوضة منك ؛ وان عملك هو الذي بعثك على الرجاء ، فصفاء الرجاء يخرجه [4] من ذلك بل يكون رجاء محضا لمن هو مبتدئ بالنعم من غير استحقاق ، والفضل كله له ومنه ، وفي يده أسبابه وغاياته ووسائله وشروطه وصرف موانعه ، كل بيد الله لايستطيع العبد أن ينال منه شيئا بدون توفيقه واذنه ومشيئته

---

(١) في ب « بذلك » ٢ وفيها « جذبه » (٣) كانت العبارة عندنا ناقصة فصححت على ب (٤) في ب « يخلصه »

ويلخص ذلك ان الوقت في هذه الدرجة الاولى عبارة عن وجد صادق سببه رؤية فضل الله على عبده ، لان رجاءه كان صافيا من الا كدار

قوله « أو لعصمة جذبها صدق خوف » اللام في قوله أو لعصمة معطوف على اللام في قوله أو لإيناس ضياء فضل ، أي وجد لعصمة جذبها صدق خوف، فاللام ليست للتعليل بل هي على حدها في قولك : ذوق لكذا ، ورؤية لكذا. فمتعلق الوجد عصمة، وهي منعة وحفظ ظاهر وباطن جذبها صدق خوف من الرب سبحانه، والفرق بين الوجد في هذه الدرجة والتي قبلها ان الوجد في الاولى جذبه صدق الرجاء وفي الثانية جذبه صدق الخوف ، وفي الثالثة التي تذكر جذبه صدق الحب ، فهو معنى قوله « أو لتلهب شوق جذبه اشتعال محبة » وخدمته التورية في اللهيب والاشتعال ، والمحبة متى قويت اشتعلت نارها في القلب فحدث عنها لهيب الاشتياق الى لقاء الحبيب ، وهذه الثلاثة التي تضمنتها هذه الدرجة وهي الحب والخوف والرجاء هي التي تبعث على عمارة الوقت بما هو الاولى لصاحبه والانفع له ، وهي أساس السلوك والسير الى الله ، وقد جمع الله سبحانه الثلاثة في قوله (أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ـ أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، ان عذاب ربك كان محذورا) وهذه الثلاثة هي قطب رحى العبودية وعليها دارت رحى الاعمال والله أعلم

فصل

قال ﴿ والمعنى الثاني [1] اسم لطريق سالك يسير بين تمكن وتلون، لكنه الى التمكن ماهو يسلك الحال ، ويلتفت الى العلم ، فالعلم يشغله [2] في حين ، والحال يحمله في حين ، فبلاؤه بينهما يذيقه شهوداً طورا ، ويكسوه عبرة طورا ، ويريه غيرة تفرق طورا ﴾ هذا المعنى هو المعنى الثاني من المعاني الثلاثة من معاني الوقت عنده ، قوله « اسم لطريق سالك » هو على الاضافة أي لطريق عبد سالك، قوله

(١) في المتن « الدرجة الثانية » (٢) في ب « يستعمله »

« يسير بين تمكن وتلون » أي ذلك العبد يسير بين تمكن وتلون ، والتمكن هو الانقياد الى أحكام العبودية بالشهود والحال ، والتلون في هذا الموضع خاصة هو الانقياد الى أحكام العبودية بالعلم ؛ فالحال يجمعه بقوته وسلطانه فيعطيه تمكينا ، والعلم يلونه بحسب متعلقاته وأحكامه ؛ قوله « لكنه الى التمكن ماهو يسلك الحال ويلتفت الى العلم » يعني ان هذا العبد هو سالك الى التمكن مادام يسلك الحال ، ويلتفت الى العلم [١] فاما إن سلك العلم والتفت الى الحال لم يكن سالكا الى التمكن ، فالسالكون ضربان : سالكون على الحال ملتفتون الى العلم وهم الى التمكن أقرب ، وسالكون على العلم ملتفتون الى الحال وهم الى التلون أقرب . هذا حاصل كلامه

وهذه الثلاثة هي المفرقة بين أهل العلم وأهل الحال حتى كانهما غيران وحربان ، وكل فرقة منهما لاتأنس بالأخرى ولاتعاشرها إلاعلى اغماض ونوع استكراه ، وهذا من تقصير الفريقين حيث ضعف أحدهما عن السير في العلم وضعف الآخر عن الحال في العلم ، فلم يتمكن كل منهما من الجمع بين الحال والعلم ، فأخذ هؤلاء العلم وسعته ونوره ورجحوه ، وأخذ هؤلاء الحال وسلطانه وتمكينه ورجحوه ، وصار الصادق الضعيف من الفريقين يسير باحدهما ملتفتا الى الآخر ، فهذا مطيع للحال [٢] وهذا مطيع للعلم ، لكن المطيع للحال متى عصى به العلم كان منقطعا محجوبا وان كان له من الحال ماعساه أن يكون ، والمطيع للعلم متى أعرض به عن الحال كان مضيعا منقوصا مشتغلا بالوسيلة عن الغاية ، وصاحب التمكين يتصرف علمه في حاله ويحكم عليه فينقاد لحكمه ، ويتصرف حاله في علمه فلا يدعه أن يقف معه ، بل يدعوه الى غاية العلم فيجيبه ويلبي دعوته ، فهذه حال الكمل من هذه الامة

ومن استقرأ أحوال الصحابة وجدها كذلك ، فلما فرق المتأخرون بين الحال والعلم دخل عليهم النقص والخلل والله المستعان (يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير) فكذلك يهب لمن يشاء علما ولمن يشاء حالا ، ويجمع بينهما لمن يشاء ويخلي من

(١) سقطت هذه الجملة من ن فاثبتناها من ب
(٢) فى ن « الى الحال » وهو غلط

يشاء منهما

قوله « فالعلم يشغله في حين » أي يشغله عن السلوك الى تمكن الحال ، لان العلم متنوع التعلقات فهو يفرق ، والحال يجمع، فانه يدعوه الى الفناء وهناك سلطان الحال؛ قوله « والحال يحمله في حين » أي يغلب عليه الحال تارة فيصير محمولا بقوة الحال وسلطانه على السلوك فيشتد [1] سيره بحكم الحال ، يعني واذا غلبه العلم شغله عن السلوك ، وهذا هو المعهود من طريقة المتأخرين [ان العلم يشغل عن السلوك] ولهذا يعدون السالك من سلك على الحال ملتفتا الى العلم . وأما على ماقررناه من أن العلم يعين على السلوك ويحمل عليه ويكون صاحبه سالكا به وفيه فلا يشغله العلم عن سلوكه وان أضعف سيره على درب الفناء ، فلا ريب ان العلم لايجامع الفناء ، فالفناء ليس هو غاية السالكين الى الله بل ولاهو لازم من لوازم الطريق وان كان عارضا من عوارضها يعرض لغير الكمل — كما تقدم تقرير ذلك — فبينا ان الفناء الكامل الذي هو الغاية المطلوبة الفناءعن محبة ماسوى اللهوارادته فيفنى بمحبة الله عن محبة ماسواه . وبارادته ورجائه والخوف منه والتوكل عليه والانابة اليه عن ارادة ماسواه وخوفه ورجائه والتوكل عليه ، وهذا الفناء لاينافي العلم بحال ، ولا يشغل عن العلم ولا يحول بين العبد وبينه ، بل قد يكون في أغلب الاحوال من أعظم أعوانه ، وهذا أمر غفل عنه أكثر المتأخرين بحيث لم يعرفوه ولم يسلكوه ، ولكن لم يخل الله الارض من قائم به داع اليه

قوله « فبلاؤه بينهما » أي عذابه وألمه بين داعي الحال وداعي العلم ، فايمانه يحمله على اجابة داعي العلم ، ووارده يحمله على اجابة داعي الحال ، فيصير كالغريم بين مطالبين، كل منهما يطالبه بحقه وليس بيده الا مايقضي أحدهما ، وقد عرفت ان هذا من الضيق والا فمع السعة يوفي كلا منهما حقه

قوله « يذيقه شهوداً طوراً » أي ذلك البلاء الحاصل بين الداعيين يذيقه شهوده طوراً ، وهو الطور الذي يكون الحاكم عليه فيه هو العلم

قوله « ويكسوه عبرة طوراً » الظاهر انه عبرة بالباء الموحدة والعين ، أي اعتبارا

(١) وفيها « فيشتمل »

بافعاله واستدلالا عليه بها ، فانه سبحانه دل على نفسه بأفعاله ، فالعلم يكسو صاحبه اعتبارا واستدلالا على الرب بأفعاله

ويصح أن يكون عبرة بالعين المهملة[١] والياء المثناة من تحت ومعناه ان العلم يكسوه عبرة[٢] من حجابه عن مقام صاحب الحال، فيعار من[٣] احتجابه عن الحال بالعلم وعن العيان بالاستدلال وعن الشهود الذي هو مقام الاحسان بالايمان الذي هو ايمان بالغيب

قوله « ويريه غيرة تفرق طوراً » هذا بالغين المعجمة ليس الا ، أي ويريه العلم غيرة تفرق في أوديته فيفرق بين أحكام الحال وأحكام العلم وهو حال صحو وتمييز . وكأن الشيخ رحمه الله يشير الى ان صاحب هذا المقام يغار تفرقه[٤] من جمعيته على الله. فنفسه تفر من الجمعية على الله الى تفرق العلم ، فانه لاأشق على النفوس من جمعيتها على الله ، فهي تهرب من الله الى الحال تارة والى العمل تارة والى العلم تارة ، هذه نفوس السالكين الصادقين ؛ وأما من ليس من أهل هذا الشأن فنفوسهم تفر من الله الى الشهوات والراحات ، فأشق ما على النفوس جمعيتها على الله وهي تناشد صاحبها أن لايوصلها اليه وان يشغلها بما دونه ، فان حبس النفس على الله شديد وأشد منه حبسها على أوامره وحبسها عن نواهيه ؛ فهي دائما ترضيك بالعلم عن العمل وبالعمل عن الحال وبالحال عن الله سبحانه وتعالى ، وهذا أمر لايعرفه الا من شد مئزر سيره الى الله وعلم ان كل ماسواه فهو قاطع عنه

وقد تضمن كلامه في هذه الدرجة ثلاث درجات - كما أشار اليه - : درجة الحال ، ودرجة العلم ، ودرجة التفرقة بين الحال والعلم ، وهذه الثلاث درجات[٥] هي المختصة بالمعنى الثاني من معاني الوقت والله أعلم

---

(١) فى ب زيادة « بالغين المعجمة » (٢) وفيها « غيرة » (٣) وفيها « فيعار حينئذ احتجابه » الخ (٤) وفيها « تفرقته » (٥) كان الظاهر أن يقال : الثلاث الدرجات

فصل

قال ﴿ والمعنى الثالث [1] قالوا : الوقت الحق . أرادوا به استغراق رسم الوقت في وجود الحق ،وهذا المعنى يسبق على هذا الاسم عندي لكنه اسم [2] في هذا المعنى الثالث لحين تتلاشى فيه الرسوم كشفا لاوجودا محضا . وهو فوق البرق والوجد ، وهو يفارق [3] مقام الجمع لو دام وبقي ، ولا يبلغ وادي الوجود لكنه يلقي [4] مؤنة المعاملة ، ويصفي عين المسامرة ، ويشم روائح الوجود ﴾

هذا المعنى الثالث من معاني الوقت أخص مما قبله وأصعب تصورا وحصولا ، فان الاول وقت سلوك يتلون، وهذا وقت كشف يتمكن ، ولذلك أطلقوا عليه اسم الحق لغلبة حكمه على قلب صاحبه ، فلا يحس برسم الوقت بل يتلاشى ذكر وقته من قلبه لما قهره من نور الكشف

فقوله « قالوا الوقت هو الحق » يعني ان بعضهم أطلق اسم الحق على الوقت، ثم فسر مرادهم بذلك وانهم عنوا به استغراق رسم الوقت في وجود الحق ، ومعنى هذا ان السالك بهذا المعنى الثالث اذا شهد استغراق وقته في وجود الحق يتلاشى عنه وقته بالكلية ؛ وتقريب هذا الى الفهم انه اذا شهد استغراق وقته الحاضر في ماهية الزمان فقد استغرق الزمان رسم الوقت الى ماهو جزء يسير جدا من أجزائه ، وانغمر فيه كما تنغمر القطرة في البحر ، ثم ان الزمان المحدود الطرفين يستغرق رسمه في وجود الدهر وهو مابين الأزل والابد ، ثم ان الدهر يستغرق رسمه في دوام الرب جل جلاله، وذلك الدوام هو صفة الرب، فهناك يضمحل الدهر والزمان والوقت ولا يبقى له نسبة الى دوام الرب جل جلاله البتة ، فاضمحل الزمان والدهر والوقت في الدوام الإلهي كما تضمحل الانوار المخلوقة في نوره ، وكما يضمحل علم الخلق في علمه وقدرهم في قدرته وجمالهم في جماله وكلامهم في كلامه، [5] بحيث لا يبقى للمخلوق

(١) وفي المتن « الدرجة الثالثة » (٢) وفيه « لكنه هو اسم » (٣) وفيه وفي ب وفيه « يشارف » وهو الصواب (٤) وفيها وفيه « يكفي » (٥) لعل الاصل : وكمالهم في كماله

نسبة ما الى صفات الرب جل جلاله

والقوم اذا أطلق أهل الاستقامة منهم [مافي الوجود الا الله] أو [ما ثم موجود على الحقيقة الا الله] أو [هناك يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل] ونحو ذلك من العبارات ، فهذا مرادهم لاسيما إذا حصل هذا الاستغراق في الشهود كما هو في الوجود، وغلب سلطانه على سلطان العلم ، وكان العلم [1] مغمورا بوارده ، وفي قوة التمييز ضعف وقد توارى العلم بالشهود وحكم الحال ، فهناك يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، وتزل أقدام كثيرة الى الحضيض الادنى ، ولا ريب ان وجود الحق سبحانه ودوامه يستغرق وجود كل ماسواه ووقته وزمانه ، بحيث يصير كانه لاوجود له ، ومن هنا غلط القائلون بوحدة الوجود وظنوا انه ليس لغيره وجود البتة ، وغرهم كلمات مشتبهات جرت على السنة أهل الاستقامة من الطائفة فجعلوها عمدة لكفرهم وضلالهم ، وظنوا أن السالكين سيرجعون اليهم وتصير طريقة الناس واحدة (ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)

قوله « وهذا المعنى يسبق على هذا الاسم عندي» يريد ان الحق سابق [2] على الاسم [3] الذي هو الوقت ، أي هو منزه عن أن يسمى بالوقت فلا ينبغي اطلاقه عليه ، لأن الأوقات حادثة

قوله « لكنه اسم في هذا المعنى الثالث لحين تتلاشى فيه الرسوم كشفا لاوجودا محضا» تلاشي الرسوم اضمحلالها وفناؤها، والرسوم عندهم ماسوى الله، وقد صرح الشيخ انها انما تتلاشى في الكشف لافي الوجود العيني الخارجي ، فان تلاشيها في الوجود خلاف الحس والعيان ، وانما تتلاشى في وجود العبد الكشفي بحيث لايبقى فيه سعة للاحساس بها لما استغرقه من الكشف ، فهذه عقيدة أهل الاستقامة من القوم

وأما الملاحدة أهل وحدة الوجود فعندهم انها لم تزل متلاشية في عين وجود الحق ، بل وجودها هو نفس وجوده ، وانما كان الحس يفرق بين الوجودين فلما

(١) في ب « وكان القلب » (٢) وفيها « سبحانه » بدل « سابق » وهو غلط
(٣) وفيها « هذا اسم » الخ

غاب عن حسه بكشفه تبين ان وجودها هو عين وجود الحق ، ولكن الشيخ كأنه عبر بالكشف والوجود عن المقامين اللذين ذكرهم في كتابه ، والكشف هو دون الوجود عنده ، فان الكشف يكون مع بقاء بعض رسوم صاحبه فليس معه استغراق في الفناء ، والوجود لايكون معه رسم باق ، ولذلك قال « لاوجودا محضا » فان الوجود المحض عنده يفني الرسوم ، و بكل حال فهو يفنيها [١] من وجود الواجد لايفنيها في الخارج

وسر المسئلة ان الواصل الى هذا المقام يصير له وجود آخر غير وجوده الطبيعي المشترك بين الموجودات ، ويصير له نشأة أخرى لقلبه وروحه نسبة النشأة الحيوانية اليها كنسبة النشأة فى بطن الام الى هذه النشأة المشاهدة في العالم ، وكنسبة هذه النشأة الى النشأة الأخرى

فللعبد أربع نشآت : نشأة في الرحم حيث لابصر يدركه ولا يد تناله ، ونشأة في الدنيا ، ونشأة في البرزخ ، ونشأة في المعاد الثاني ، [٢] وكل نشأة أعظم من التي قبلها ، وهذه النشأة للروح والقلب أصلا ، وللبدن تبعا ، فللروح في هذا العالم نشأتان (احداهما) النشأة الطبيعية المشتركة (والثانية) نشأة قلبية روحانية يولد لها قلبه و ينفصل من مشيمة طبعه ، كما ولد بدنه وانفصل من مشيمة البطن ، ومن لم يصدق بهذا فليضرب عن هذا صفحا وليشتغل بغيره . وفى كتاب الزهد للامام أحمد ان المسيح عليه السلام قال للحواريين : إنكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين . وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : هي ولادة الارواح والقلوب من الابدان وخروجها من عالم الطبيعة كما ولدت الابدان من البدن وخرجت منه ، والولادة الأخرى هي الولادة المعروفة والله أعلم

قوله « وهو فوق البرق والوجد » يعني ان هذا الكشف الذي تلاشت فيه الرسوم فوق منزلتي البرق والوجد ، فانه أثبت وأدوم ، والوجود فوقه لانه يشعر بالدوام ؛ قوله « وهو يشارف مقام الجمع لو دام » أي لو دام هذا الوقت لشارف مقام الجمع وهو ذهاب شعور القلب بغير الحق سبحانه وتعالى شغلا به عن غيره فهو

(١) وفيها « ينشيها » وهو غلط (٢) كلمة الثاني من زيادة ب

جمع في الشهود . وعند الملاحدة هو جمع في الوجود ، ومقصوده انه لو دام الوقت بهذا المعنى الثالث لشارف حضرة الجمع لكنه لايدوم .

قوله « ولا يبلغ وادي الوجود » يعني ان الوقت المذكور لايبلغ السالك فيه وادي الوجود حتى يقطعه ، و وادي الوجود هو حضرة الجمع ، قوله « لكنه يلقي مؤنة المعاملة » يعني ان الوقت المذكور وهو الكشف المشارف لحضرة الجمع يخفف عن العامل اثقال المعاملة مع قيامه بها أتم القيام بحيث تصير هي الحاملة ، فانه كان يعمل على الخبر فصار يعمل على العيان ، هذا مراد الشيخ . وعند الملحد انه يغني عن المعاملات الجسمانية ، و يرد صاحبه الى المعاملات القلبية ، وقد تقدم اشباع هذا المعنى

قوله « ويصفي عن المسامرة » المسامرة عند القوم هي الخطاب القلبي الروحي بين العبد وربه ، وقد تقدم ان تسميتها بالمناجاة أولى ، فهذا الكشف يخلص عن المسامرة من ذكر غير الحق سبحانه ومناجاته

قوله « و يشم رائحة الوجود » أي صاحب مقام هذا الوقت الخاص يشم روائح الوجود وهو حضرة الجمع فانهم يسمونها بالجمع والوجود ، ويعنون بذلك ظهور وجود الحق سبحانه وفناء وجود ماسواه . وقد عرفت ان فناء وجود ماسواه باحد اعتبارين : إما فناؤه من شهود العبد فلا يشهده ، وإما اضمحلاله وتلاشيه بالنسبة الى وجود الرب ، ولا تلتفت الى غير هذين المعنيين فهو إلحاد وكفر والله المستعان ؟

استفتاء أدباء العصر في بيت من الشعر

ذهب ذاهب بل كتب كاتب يقول في البيت المشهور الجامع لعيوب الخطيب في أول كتاب البيان والتبيين للجاحظ

جدير بُبهرٍ والتفات وسَعلة ومسحة عُثنون وفتل الاصابع

إن ضبط التفات وما عطف عليه بالجر غلط صوابه الرفع فيها كلها على ان « التفات » مبتدأ حذف خبره وما بعده معطوف عليه . فان كان يوجد أحد يجيز فهمه وذوقه للغة هذا الضبط فليتفضل ببيان ذلك لنا ؟

مدرسة
دار الدعوة والارشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

والحق أن الاعصاب كلها تربط أجزاء الجسم بعضها ببعض كما تربط أسلاك التلغراف بعض الممالك بالبعض الآخر

٤

﴿ تذييل لما تقدم ﴾

في الارادة والروح والقوى العقلية

قلنا إن سبب حركة القلب لايعلمه أحد إلا الله تعالى ، فهي من الخواص التي وهبها له ، وكذلك وهب مثل هذه الحركة الذاتية للخلايا ذات الاهداب المبطنة لبعض الاغشية كالشعب الرئوية، وللخلايا المتحركة ككريات الدم البيضاء وغيرها ، ولكن هناك فرقا بين حركة هذه وتلك، فان حركة الكريات لا انظام لها بخلاف حركة الاهداب فانها في غاية النظام، وسريعة جداً، وهي في انتظامها تشبه انتظام ضربات القلب . فكل هذه الخلايا تتحرك حركة ذاتية لا يعلم لها سبب مطلقاً، وإن كان للبيئة تأثير فيها بمثل الزيادة أو النقصان، ولكن نفس الحركة كأنها بارادة هذه الخلايا الحية . والحق أنها من أعظم مظاهر إرادتها وحياتها، وهي عامة في كل الخلايا ، نباتية كانت أو حيوانية ، ولكنها تكون أظهر في بعضها من البعض الآخر أو تكون كامنة فيه ،وهي أدل على إرادة بعضها من بعضها

ومعنى كون هذه الحركة بارادة الخلية أنها من عملها الذاتي الذي لا يظهر أن للبيئة تأثيراً في إيجاده وإنشائه ، فمثلا تشاهد الكريات البيضاء أو بعض الميكروبات تتحرك في السائل الواحد ثم تسكن ثم تتحرك بدون أي سبب خارجي وأحيانا

تتجه الى جهة ثم تعدل عنها الى غيرها وهكذا ، أي إن عملها يختلف في البيئة الواحدة، ولا معنى للارادة سوى هذا

وكذلك المخ قد يبدأ العمل ثم يتركه بدون أي سبب خارجي لا في الحال ولا في الماضي بحسب ما نعلم، بل بمحض الارادة والاختيار، وان عارض ذلك كثير من الفسيولوجيين

فالحق أن الارادة وحرية العمل هي أكبر خواص الاحياء وهي أعظم ما يميزها عن الجماد ، وأما زعم بعضهم أن الاعمال كلها ليست إلا أفعالا منعكسة فهو لا يمكن اثباته ، وما هذا الزعم إلا أثر من آثار التعاليم المادية في نفوسهم

هذا ولما كانت حياة الجسم كله متوقفة على حياة القلب فلا يبعد أن تكون الروح شيئا مستقرا فيه ، ولا يبعد أن تكون من عالم الاثير ، وبموت القلب تنفصل عنه . ولا نقول ان الخلايا الاخرى حية بغير شيء كهذا ، بل نقول ان حياة القلب أو روحه هي أكبرها وأعظمها ، ولذلك قلنا ان روحه هي روح الانسان لأن عليها مدار حياته، فهي الروح الرئيسة وغيرها تابع لها

واعلم ان القشرة السنجابية للمخ هي مركز الشعور العام والارادة والتعقل وان كان لكل الخلايا الحية مثل هذه الصفات إلا أنها فيها في الحالة الأثرية ، كما أن الانقباض هو من خواص الخلايا الحية كلها ولكنه في خلايا العضلات أظهر منه في غيرها ، وهكذا يقال في سائر الخواص الاخرى للحياة

وهناك علاقة كبرى بين قوة المخ فيما ذكر وبين حجمه ، واذا قارنا وزنه بوزن الجسم كله وجدنا أن مخ الانسان أكبرها بالنسبة الى جسمه . أما أكبر الامخاخ على الاطلاق فهو مخ الفيل والحوت

ثم إنك تجد أن مخ الذكي أثقل من مخ البليد والابله ، ومخ الرجل أثقل من مخ المرأة ، وقل مثل ذلك في الراقي في العلم والادب مع المنحط، الا ما يستثنى من ذلك

وكذلك كثرة التلافيف في القشرة السنجابية وتعقد تعاريجها وعمق الميازيب التي بينها كلها أشياء تختلف باختلاف القوى العقلية فهي تكثر في الانسان وتقل أو تنعدم في الحيوانات التي هي دونه رقيا . وعند ولادة الطفل يكاد المخ يكون غفلا منها

ثم تكثر الى زمن الشباب والكهولة وبعده تقل تدريجياً حتى تقرب في أرذل العمر شكل مخ الاطفال

ويلي مخ الانسان في كثرة التلافيف وتعقدها مخ بعض أنواع القردة

ففي المخ روح الادراك والشعور وفي القلب روح الحياة ، ولا يبعد أنهما أجزاء من روح واحدة. وهذه الروح في الاحياء ذات الخلية الواحدة (وتسمى الاولى) موزعة على جميع أجزائها بالتساوي وكلما ارتقينا في سلم الاحياء وجدنا أنها موزعة على الجسم بدرجات متفاوته كما ترى في الانسان، والله أعلم (وما أوتيتم من العلم الا قليلا)

المجموع الدوري للدم

ليس الدم في أجسام الحيوانات واقفا بل هو دائر فيها ولله في ذلك حكمتان رئيستان ، عليهما مدار حياة الحيوان : —

(أولها) توزيع المواد الغذائيـة وغيرها كالأدوية على جميع أجزاء الجسم وكذلك توزيع الأكسجين الذي هو ضروري للاحتراق الداخلي (التفاعل الحيوي)

(وثانيتهما) حمل جميع المواد المتخلفة عن التفاعل الحيوي الى الاعضاء المختصة بإخراجها من الجسم لضرر بقائها فيه كالكليتين . ومن ذلك أيضا حمل ثاني أكسيد الفحم الى الرئتين لإخراجه الى الهواء

والاعضاء المختصة بحركة الدم هي القلب والشرايين والاوعية الشعرية والأوردة

أما القلب فهو جسم مخروطي الشكل موضوع في الصدر بين الرئتين على الحجاب الحاجز وقاعدته الى الجانب الأعلى الأيمن، وقمته الى الاسفل الايسر ، وهو محاط بغلاف مصلي يسمى بالشغاف ويسميه الأطباء المتأخرون من العرب بالتامور

وفي القلب أربع غرف اثنتان علويتان واثنتان سفليتان ، فالأوليان تسميان أذينين والأخريان تسميان بطينين

أما الاذين الايمن ففيه ينفتح (الاجوف الاعلى) و(الاجوف الاسفل) وهما وريدان عظيمان يجتمع فيهما الدم من الجسم كله

ومن البطين الايمن يخرج شريان كبير يحمل الدم الى الرئتين

وفي جُدُر الأذين الأيسر أربع فتحات لأربعة أوردة : اثنان منها آتيان من الرئة اليمنى، واثنان من الرئة اليسرى

ومن البطين الايسر يخرج شريان عظيم يسمى بالافرنجية Aorta (أورطى) وبالعربية الأبهر وهو أكبر شريان في الجسم يحمل الدم في فروعه الى جميع أجزاء الجسم

وبين الاذين الايمن والبطين الايمن فتحة لها صمام (غطاء) يسمح بمرور الدم من الاولى الى الثانية ولا يسمح بالعكس

وبين الاذين الايسر والبطين الايسر فتحة لها صمام أيضا ولكنها أصغر من الفتحة المتقدمة ووظيفتها كوظيفة تلك

وكل من الشريان الرئوي والابهر له ثلاث صمامات تسمح بمرور الدم من القلب الى الشريان ولا تسمح بالعكس

وأعظم أمراض القلب هي التي ينشأ عنها تلف هذه الفتحات بحيث تضيق عن المعتاد أو تسمح برجوع الدم الى عكس المجرى الطبيعي

والقلب ينقبض من أعلى الى أسفل فينقبض أولا الاذينان فيندفع الدم منهما الى البطينين . ثم ينقبض البطينان فيندفع الدم منهما، الى الشريان الرئوي من الجهة اليمنى للقلب، ويندفع الدم الى الأبهر من الجهة اليسرى للقلب

وإذا اجتمع الدم الفاسد في الاوردة سار الى الاجوف الاعلى والاجوف الاسفل وانصب في الاذين الايمن ومنه الى البطين الايمن ومنه الى الشريان الرئوي فالرئتين لينصلح هناك (بخروج ثاني أكسيد الفحم منه ودخول أكسجين فيه من الهواء) ثم يعود الدم من الرئتين في الاوردة الاربعة التي تصب في الأذين الايسر ومن الاذين الايسر يندفع الدم الى البطين الايسر ومنه الى الابهر (الاورطي) ومن الابهر يوزع على جميع أجزاء الجسم كافة فيحمل اليها دما صالحا. وتنتهي جميع فروع الابهر بعروق دقيقة جدا يتصل بعضها ببعض كشبكة وهذه العروق هي المسماة بالشعرية تشبيها لها بالشعر وينشأ منها أوردة صغيرة

(وهي العروق التي يتجمع فيها الدم الفاسد بعد مروره على جميع أجزاء الجسم ولونه أسود) وهذه الاوردة الصغيرة يجتمع بعضها ببعض فيتألف منها أوردة أكبر فأكبر حتى تنتهى الى الاجوف الاعلى والاجوف الاسفل وهما أعظم وريدين في الجسم

ومن ذلك يعلم أن الشريان هو العرق الحامل للدم الصالح، والوريدهو العرق الحامل للدم الفاسد، وهذه التسمية صحيحة في الجسم كله ماعدا الشريان الرئوي فانه يحمل دما فاسدا، وماعدا الاوردة الاربعة الرئوية فانها تحمل دما صالحا، ولذا رأى المشرحون تعريفا آخر أصح، وهو أن الشريان هو كل عرق يحمل الدم الخارج من القلب، والوريد كل عرق يحمل الدم الذاهب الى القلب بقطع النظر عن صلاحه أوفساده

ومما تقدم يعلم أن الدم في دورته في الجسم كله لايخرج مطلقا عن العروق (الشرايين والاوعية الشعرية والاوردة) الااذا أصابهاحادث تمزقت بسببه فيخرج اذًا منهـا وينسكب حولها ويسمى ذلك بالرضّ أو الكدم [1] وهو الزرقه التي تشاهد في الجسم عند ضربه أو اصطدامه بجسم صلب

ويستثنى من ذلك موضعان ليس فيهما أوعية شعرية فيسير الدم من الشرايين الى تجاويف فيهما ومنها الى الاوردة وهما الذكر والطحال، وانصباب الدم في هذه التجاويف بكثرة في الذكر تحدث انتصابه

أما الاشياء الصالحة التي في الدم فتخرج مع مائية الدم من خلال جدر الاوعية الشعرية لتغذية جميع خلايا الجسم

وأما الكريات الدموية فهي التي تبقى دائمـا في داخل العروق الا في الاحوال الالتهابية . والمواد المائية الخارجة من الاوعية الشعرية تفعل ذلك بطريقة الاسموز الذي سبق بيانه في علم الطبيعة

عدد ضربات القلب والنبض

انقباضات قلب الانسان تبلغ في الدقيقة الواحدة نحو ٧٠ أو ٧٢ مرة في الذكر،

«١» الرض لغة الدق والكدم العض، و في اصطلاح أطباء هذا العصر يطلق الاول على النزف تحت الجلد من الاوعية الكبيرة والثاني عليه من الاعية الصغيرة

ونحو ٨٠ في الانثى، وهي في الاجنة والاطفال أكثر منها في غيرهم، وتقل في الشيوخ، وقد تزيد هذه الانقباضات في كثير من الاحوال كما في الخوف الشديد وفي الحميات وغير ذلك، وقد تكون هذه الانقباضات أو الضربات قليلة في بعض الاشخاص بدون مرض، وهي تضعف في بعض الامراض وخصوصا قبيل الموت. والدورة الدموية تتم في أقل من نصف دقيقة

وكلما انقبض القلب اندفع الدم منه الى الشرايين فيحدث فيها امتلاء فجائيا وهو المسمى بالنبض وهو الذي يجسه الاطباء فوق الرسغ وغيره لمعرفة حالة ضربات القلب، والنبض لا يشعر به عادة في الاوردة لأن قوة الضغط اذا وصلت الى الاوعية الشعرية التي بين الشرايين والاوردة تكون قد قلت حتى لا يشعر الانسان في الاوردة بضغط جديد متكرر كما في الشرايين. وعدد مرات النبض في الشرايين تعادل تماما مرات ضربات القلب وتحدث بعدها مباشرة الا انها في الشرايين البعيدة تتأخر فترة قصيرة جدا عن ضربات القلب

الدم

يوجد في جسم الانسان عادة $\frac{١}{١٣}$ من وزن جسمه دما، فيكون القدر الذي في جسم الكهل المعتاد من ٥ الى ٦ لترات من الدم. وهو سائل أحمر اللون غليظ يتركب ميكروسكوبيا من قسمين: الاول الكريات، والثاني ماء الدم وهو المسمى بالافرنجية (Plasma)

أما الكريات فهي نوعان: كريات حمراء وهي عبارة عن غشاء رقيق ممتلئ بمادة حمراء زلالية فيها جزء من الحديد تسمى «الهيموجلوبين» ويختلف شكل هذه الكريات الحمراء باختلاف الحيوانات: ففي ذوات الثدي تكون أقراصا مستديرة مقعرة من الجانبين ولا نواة لها، ماعدا الجمال فان كراتها محدبة من الجانبين وهو الفرق الوحيد بينها وبين الحيوانات الاخرى الثديية

أما في الطيور والزواحف والاسماك وذوات الحياتين وهي التي تعيش في الهواء والماء[١]

«١» تسمى باليونانية Amphibia وغيرها ومعنى Amphi « كلتا » و Bios « حياة » وهي تعيش في البر والبحر

كالضفادع فكرياتها جميعا بيضاوية الشكل محدبة من الجانبين ولها نواة. وحجم هذه الكريات كلها يختلف باختلاف الحيوانات . وأعظم منشأ للكريات الحمراء هو العظام الاسفنجية كما سبق وخصوصا عظام الضلوع وهي أهم مصدر لها

وأما الكريات البيضاء فهي خلايا حيوية ولها نواة واحدة أو أكثر وحركة ذاتية بحيث يمكن أن تنتقل من مكان الى مكان بنفسها ، وهي تنشأ من الغدد اللمفاوية ونحوها كالطحال. وأعظم وظيفة لها أنها تقتل الميكروبات وتأكلها فتنقي الدم منها فاذا أصاب جزءا من الجسم عارض أحدث فيه التهابا ودخل فيه بعض الميكروبات أسرعت هذه الكريات البيضاء اليها فالتهمتها وقتلتها فان تغلبت الميكروبات مرض الجسم وان نجحت الكريات في قتالها وقت الجسم من شر هذه الميكروبات، وما يموت منها في أثناء هذا القتال يتجمع في موضع الالتهاب مختلطا بغيره ويسمى بالمدّة أو الصديد، فأكثر كريات المدة عبارة عن شهداء هذي الحرب أي كريات بيضاء ميتة

أما عدد الكريات الحمراء في الجسم فهو ٥ ملايين كرية في كل مليمتر مكعب من الدم تقريبا، وأما البيضاء فهي من سبعة آلاف الى عشرة . وسيأتي في فصل التنفس الكلام على وظيفة الكريات الحمراء

واذا خرج الدم من العروق تجمد، وتجمده يحصل هكذا :ــ

ينفصل من مائية الدم مادة تسمى الفبرين أو الليفين لأنها كخيوط الليف فتحيط هذه الالياف بالكريات البيضاء والحمراء وتنقبض عليها وتكون الجزء المتجمد الذي يسمى بالعربية العلقة[1] (Clot) وما بقي من ماء الدم يسمى المصل

وفي الدم مواد زلالية وسكر (جلوكوز) وأملاح عديدة ومواد دهنية وماء وغير ذلك، أما مائية الدم اذا خففت بماء أكثر أوقلّ زلالها فتسمى اللمف

ومما تقدم يعلم أن الدم في دورته يحمل معه جميع المواد المغذية التي يحتاجها الجسم،وكذلك يأخذ معه من الجسم المواد التالفة التي تخلفت عن الاحتراق الجثماني ليوزعها على الاعضاء المختصة باخراجها من الجسم كالجلد والكليتين . وأهم هذه

«١» يسمى أول طور من أطوار الجنين أيضا بالعلقة لانه مركب من عدة خلايا «كريات» ناشئة من انقسام البويضة وتكون قطعة جامدة كعلقة الدم

المواد التالفة البولينا وحامض البوليك والكرياتينين وغير ذلك

حكم تحريم شرب الدم في الشرائع الالهية

(أولها) أن الدم عسر الهضم جدا حتى انه اذا انصب جزء منه في المعدة تقايأه الانسان أو يخرج مع البراز بدون هضم على صورة مادة لزجة سوداء والسبب في عسر هضمه هذا هو وجود المادة الحمراء الحديدية التي فيه . وفي أثناء مرور الدم في القناة الهضمية يتحلل ويتعفن وبذلك يضر الجسم أيضا . ومسئلة عسر هضمه المذكورة هنا مشاهدة كثيرا كلما انصب دم في المعدة بسبب جرح أو غيره

(ثانيها) أن الدم - كما سبق - يحمل كثيرا من المواد المتخلفة عن الجسم وهي فضلات له فلا يصح اعادتها اليه مع أن الطبيعة اقتضت خروجها منه ، نعم قيل أن البولينا نافعة في السل الرئوي ولكن ذلك لم يثبت الى الآن وهي ليست موجودة وحدها بل معها أشياء أخرى ضارة

[ولعله اذا ثبت ان البولينا نافعة يكون ذلك احد أسباب شرب العرب بول الإبل وهو يختلف بعض الاختلاف عن بول الحيوانات آكلة اللحم . فلهذا ربما كان نافعا في بعض الامراض كما ورد في بعض الاخبار النبوية

وأعظم اختلاف بين هذا البول وبين الأبوال الاخرى أنه هو وغيره من أبوال آكلات النباتات قلوي التأثير مشتمل على كثير من الكربونات وهي لاشك نافعة للمعدة وغيرها ، مدرة للبول]

(ثالثها) انه في كثير من الامراض العفنة المعدية يوجد في الدم ميكروبات ضارة جدا وكذا سمومها القتالة فانها تدور في الدم . فان قيل لم لا يطبخ الدم ويؤكل بعد قتل هذه الميكروبات بالغلي ؟ قلت (١) إن الغلي يجمد جميع المواد الزلالية التي في الدم وبذلك تصير أشد عسرا مما كانت (٢) إن من هذه السموم ما لا يتغير بالغلي تغيرا يجعلها صالحة للجسم (٣) إن بعض الميكروبات اذا تجمد ما حولها من المواد الزلالية التي في الدم وقتها من فعل النار لانها موصلة رديئة للحرارة ، وأيضا فان حبيبات (أي بزور) الميكروبات تقاوم درجة الغليان بضع دقائق فاذا لم تمت نمت في جسم آكل الدم وأمرضته

أما حقن دم الحيوان في وريد الانسان فنه انه قد ينتقل المرض اليه، أو يجمد الدم في عروقه، فان اتميز هذا وذلك بطرق علمية انحلت كريات الدم الحمراء لاختلاف كثافة الدمين ولغير ذلك ونزلت حمرة الدم في البول وذلك ضياع له. ولذلك لايحقن الاطباء الآن الدم و يحقنون عادة محلول ملح الطعام. على أن حقن الدم خارج عن موضوع التحرير.

اللمف والاوعية اللمفاوية

اذا خرجت مائية الدم من الاوعية الى أنسجة الجسم عادت الى الدم ثانية بطريق الاوعية اللمفاوية وهذه الأوعية عبارة عن قنوات دقيقة شعرية منتشرة في جميع أجزاء الجسم وفيها صمامات عديدة فتحمل جميع مائيـة الدم التي خرجت منه وتعيدها اليه

أما هذه المائية المخففة[1] والمالئة لجميع أجزاء الجسم فهي المسماة (بالمادة اللمفاوية) و «لمفا» كلمة لاتينية معناها الماء

وجميع الاوعية اللمفاوية التي في الذراع الايمن ونصف الصدر الايمن وما حوى ونصف الرأس والعنق الايمن وأعلا سطح الكبد كلها تجتمع وتصب في قناة واحدة تسمى «القناة اللمفاوية اليمنى» وهذه تصب في أحد الاوردة التي في داخل الصدر من أعلى الجانب الايمن

أما الاوعيـة اللمفاوية الباقيـة فتصب في قناة أخرى عظيمة تسمى «القناة الصدرية» وهي أيضا تصب فى أحد الاوردة فى أعلى الصدر من الجهة اليسرى

ويوجد في طريق جميع هذه الاوعية اللمفاوية غدد من مادة مخصوصة تسمى «الغدد اللمفاوية» ووظيفتها تكوين كريات بيضاء للدم وتصفية جميع المادة اللمفاوية المارة بها من كل مافيها من الميكروبات وغيرها، فاذا أصاب أحد أصابع اليد جرح مثلا فسد بسبب وجود ميكروبات فيـه أحس الانسان بانتفاخ وألم فى إبطه،

(١) نظرا لعسر مرور المواد الزلالية خلال الاغشية بطريق الاسموز - كما سبق بيانه - كانت هذه المائية مخففة لقلة الزلال فيها لذلك السبب

وذلك ناشئ من كبر حجم هذه الغدد وانفعالها انفعالا شديدا لقتل الميكروبات الواصلة اليها ، فان تغلبت عليها ولا تحولت الى خراج بسبب موت كثير من الكريات البيضاء التي فيها من عراكها مع الميكروبات كما سبق

وهذه المادة اللمفاوية تندفع نحو القلب بسبب ضغط المواد اللمفاوية المتجددة خلفها ، و بسبب حركات العضلات ، وأيضا بسبب انقباض بعض هذه الاوعية اللمفاوية على مافيها وغيرذلك. ويمنع رجوع هذه المادة الى الانسجة مافي هذه الاوعية من الصمامات العديدة

ويوجد في بعض الحيوانات التي تحت رتبة الانسان (وهي الواطئة) كالضفادع مثلا قلوب لتحريك هذه المادة اللمفاوية كقلب الدم الموجود في الانسان وغيره

دم الحيض

ينشأ دم الحيض من تمزق في أوعية الدم الموجودة في الغشاء المخاطي المبطن للرحم في كل شهر قمري مرة على الغالب ويختلط هذا الدم في أثناء نزوله بمواد مخاطية وأحماض وغير ذلك من مفرزات الرحم وغيره . ولا يعلم سبب هذا التمزق الشهري الى الآن . ومن ذلك يفهم انه ليس دما صافيا نقيا بل مختلطا بمفرزات الرحم والمبيضين وغيرهما. وتأثيره في ورق عباد الشمس يدل على حموضته

وانما حرم الجماع في زمن الحيض للاسباب الآتية : —

(١) إن تهييج أعضاء الانثى بالجماع في هذا الوقت قد يحدث احتقانا فالتهابات رحمية أو مبيضية أو حوضية تضر بصحتها ضرارا بليغا . وربما نشأ عن هذا الالتهاب تلف في المبيضين أو مجاري البيوضة يؤدي الى العقم . وأيضا فان تعريض الانثى للهواء في هذا الوقت يضر بأعضائها الداخلية وقد يحدث فيها التهابا

(٢) إن دخول مواد الحيض في مجرى قضيب الرجل قد يحدث فيه التهابا صديديا في بعض الاحيان ، وهذا الالتهاب يشبه السيلان، وقد يمتد الى الخصيتين فيؤذيهما وربما نشأ عن ذلك أيضا عقم الرجل

فجملة القول ان الجماع في المحيض قد يحدث عقما في الذكر والانثى ويؤدي الى

التهاب أعضائهما الذي يفسد صحتهما . وكفى بذلك ضرر . ولذلك تجد أطباء العالم المتمدن الآن ينهون عن الجماع في ذلك الوقت كما نهى القرآن عنه فانه لاشك أذى للرجل والانثى

النزف والنزيف

النزف معناه خروج الدم من أوعيته (الشرايين والأوعية الشعرية والأوردة) والنزيف هو الدم المنزوف · والنزف ثلاثة أنواع :—

(١) نزف الى خارج الجسم كأن ينصب الدم على الارض مثلا

و(٢) نزف في تجاويف الجسم كان ينصب في البطن

و(٣) نزف في داخل الانسجة كأن ينصب تحت الجلد أو في العضلات وهذا النوع الاخير هو المسمى بالرض أو الكدم كما سبق

وسبب النزف هو تمزق العروق بسبب ما كحادث يقطع العرق أو مرض يفجره كالدرن أوالزهري أو مرض القلب

أما النزيف الذي يكون خارج الجسم أو في تجويف من تجاويفه فالغالب أنه ينتهي بالموت اذا كان غزيرا بشرط أن لا يعوقه عائق يسد العرق الذي يخرج منه الدم ، ففي هذه الحالة لا يموت الشخص وانما يصاب بدوار شديد واصفرار. و بعد ذلك تعود اليه صحته شيئا فشيئا كلما تجدد دم بدل الجزء المفقود

وأما النوع الثالث وهو الذي ينسكب في أنسجة الجسم فهذا في الغالب لايورث ضررا كبيرا لان كمية الدم تكون عادة قليلة بسبب ممانعة أنسجة الجسم للنزيف ، وقد يحدث في مكان الدم خُرّاج

أما في الحالة الاولى والثانية فاذا فقد دم كثير من الجسم اشتد الدوار والاصفرار كما قلنا، و يصاب الانسان بما يسمى في علم الطب بالهبوط (أو الهمود) فيغمى عليه ويضعف نبضه ، ويصاب الجسم بعرق بارد ، وتبرد الاطراف ، و بعد ذلك يموت الشخص ، وقد يتشنج جسمه قبيل الموت

وأما في النزف داخل الانسجة فيزرق الجلد إذا كان الدم المنسكب قريبا منه ، و بعد بضعة أيام تأخذ هذه الزرقة في التلاشي تدريجيا حتى يعود الجسم كما

كان، وذلك بأن يمتص الدم المتسكب شيئا فشيئا حتى يعود الى العروق وان كان منحلا الا أنه يتركب مرة أخرى في بنيته فان عناصره لا تفقد

المعالجة

اذا قطع عرق انكمش بسبب مرونته وانقبض فمه بسبب الألياف العضلية الموجودة في جداره، فيمتنع بذلك النزف اذا كان العرق المقطوع صغيرا، أما اذا كان عظيما فلا بد من عمل الانسان لايقاف النزيف والا هلك الشخص

ويوجد عدة طرق لايقاف النزيف بعضها موقتة وبعضها دائمة

أما الموقتة فتنحصر في الضغط على المكان الذي يخرج منه الدم، أو ربط العضو ربطا شديدا، مثال ذلك أنا اذا رأينا رجلا طعن بسكين في ذراعه وشاهدنا دما كثيرا ينزف منه وجب علينا في الحال أن نبحث في الجرح عن مكان خروج هذا الدم ونضغط عليه ضغطا شديدا بأصابعنا أو بيدنا أو نربط الذراع فوق الجرح

ولا يترك الضغط أو الربط حتى يحضر الطبيب لايقاف النزيف بالطرق العلمية، ولا ضرر اذا استمر الضغط بضع ساعات فان العضو لا يموت من الضغط الا اذا امتنع عنه الدم فوق أربع أو ست ساعات

وأما الطرق العلمية لايقاف النزيف فأعظمها، وأهمها ما يأتي: —

(١) أن يمسك العرق المفتوح بجفت مخصوص لذلك (أي مقبض)[1] ويربط العرق بخيط من حرير أو نحوه مطهرا تطهيرا تاما بالغلي في الماء

(٢) أن يمسك العرق بالجفت ثم يلوى الجفت عدة مرات حتى ينقطع العرق وبهذه الوسيلة يقف النزيف ما لم يكن الشريان عظيما فيفضل ربطه

(٣) أن يمسك العرق ان كان صغيرا بالجفت ويترك عليه بضع دقائق ثم يرفع الجفت فيقف أيضا النزيف

(٤) ومما يستعمل في الأوعية الشعرية أو الصغيرة جدا هو أن يوضع على مكان النزف قطعة من الثلج أو شيء آخر بارد فتنكمش الانسجة والعروق فيبطل النزيف

(٥) أن يوضع على مكان النزف ماء حميم (شديد الحرارة) أو يكوى بشيء محمي

«١» أرى أن الاحسن تسمية مثل هذا المقبض بالحاسم لانه يقطع الدم

بالنار ، وقد كان القدماء يوقفون النزيف في الأطراف المبتورة بوضعها في الزيت حينما يغلي ، ولكنها طريقة وحشية

(٦) أن يحشى المكان الذي ينبعث منه الدم حشوا جيدا بقطن أو شاش ويربط ربطا شديدا وهذه الطريقة تستعمل كثيرا في وقف النزف من الاعضاء الغائرة التي لا يمكن ربط عروقها كالرحم مثلا

(٧) أن يوضع على الجرح مواد قابضة ، اما مسحوقة أو محلولة بالماء أو بغيره ، كالشب والقرض ومغلي الشاي ومغلي قشر الرمان والعفص وماء الجير وأملاح المعادن كالحديد والنحاس وغير هذا كثير . وهذه الطريقة قل أن تستعمل الآن الا في الاوعية الصغيرة أو الشعرية

(٨) إذا كان النزف من داخل الاحشاء كالرئة أو المعدة يجب أن يستلقي المريض على ظهره ويمتنع عن كل حركة حتى الكلام ويوضع الثلج على العضو الذي ينزف منه الدم، ثم يستدعى الطبيب في الحال

وأحسن ما يعطيه الطبيب في مثل هذه الاحوال مركبات الافيون والجويدار (وهو مادة فطرية تسلقية تنمو على نوع من الشعير يسمى الشيلم) وكلوريد الكالسيوم وغيره ، وهذه الادوية توقف النزيف إما بضعف ضربات القلب، أو بقبض أوعية الدم، أو بجعل الدم أقرب الى التجمد والتكون

أما النزف في داخل تجاويف الجسم كالبطن مثلا اذا تمزق عضو فيه فيعرف ذلك بحصول هبوط شديد عقب الاصابة مباشرة أو بعدها بقليل، واصفرار زائد في جميع الجسم وصغر في النبض ، ومعنى ذلك أن يشعر الانسان المتمرن بأن الأوعية الدموية ليست ممتلئة بالدم كالمعتاد ، واذا جس البطن في مكان الاصابة وجد فيه انتفاخا وألما وأصمية يعرفها الطبيب عند القرع . واذا كانت المعدة أو الامعاء هي المصابة تقايأ الشخص دما أو وجد في برازه. واذا كانت الاصابة في الكلية وما يتبعها بال الشخص دما

فهذه العلامات وأمثالها تدلنا على النزيف الداخلي . فالاسعاف الواجب في مثل هذه الحالة أن يلقى الشخص على الارض وترفع كل الوسائد من تحت

رأسه وتدفأ أطرافه السفلى ويؤمر بالامتناع عن كل حركة حتى الكلام ولا بأس من وضع شيء بارد على البطن اذا كانت الاصابة فيه

ثم يستدعى الطبيب في الحال . ولا حيلة للطبيب في مثل هذه الحالة الا عمل عملية عظمى بأسرع مايمكن وفيها يفتح البطن وتربط الأوعية النازفة وتخاط جميع الجروح وينظف البطن من الدم الذي انسكب فيه

أما علاج النزف تحت الجلد أو في العضلات فيكون بوضع أشياء مبردة على موضع الاصابة فانها تقبض الاوعية وتعوق النزف أو تمنعه ، واذا لم توجد هذه الاشياء المبردة فالاحسن ربط العضو فان ذلك أيضا يوقف النزف بسبب الضغط ويجب اراحة العضو المرضوض كمال الراحة

ومن الخطإ وضع الاشياء الدافئة على المكان المرضوض والدلك في أول الامر فان ذلك مما يزيد في النزف . ولا بأس من وضع الاشياء الدافئة بعد مضي عدة أيام لمساعدة امتصاص الدم المنسكب

أما علاج البنية بعد ايقاف النزيف فيكون كما يأتي : —

يوضع الشخص بحيث يكون الرأس منخفضا عن باقي الجسم ، ويدفأ تدفئة تامة وتدلك أطرافه ، ويستحسن أن تلف بلفائف من أسفل الى أعلى ، والغرض من ذلك كله دفع الدم الى الدماغ فان أعظم أسباب الاغماء بل الموت هو نقصان توارد الدم الى الدماغ ، ثم يعطى كميات كبيرة من المرق أو اللبن أو الماء ليشرب به وتعطى له أيضا بعض المنعشات وأحسنها الخمر والقهوة والشاي أو محلول النوشادر المخفف (من ١٠ الى ٢٠ نقطة) أو الاثير (من ١٠ الى ٣٠ نقطة) ويحترس من تصاعد الاثير في الهواء فانه اذا وصلت اليه النار أحدث فرقعة عظيمة خطرة وكذلك اذا استنشقه شخص بمقدار عظيم تحصل له غيبوبة تامة

وللطبيب في هذه الحالة أن يحقن المصاب تحت الجلد بمادة الاستركنين (بمقدار مليجرام الى ثلاثة) أو بسترات القهوين أو البنين (بمقدار ربع أو نصف جرام) ويحقن أيضا بمحلول ملح الطعام بنسبة سبعة جرامات ونصف في كل لتر (أي قدر ملعقتين صغيرتين في رطلين من الماء تقريبا) ويحقن برطلين الى ثلاثة فاكثر من

هذا المحلول تحت الجلد أو في الشرج أو في الاوردة . والغرض من هذا الحقن ملء أوعية الدم بسائل بدل الدم المنزوف ليستمر القلب في عمله وليتغذى الدماغ بما بقي من الدم في الجسم ، ويسمى ذلك المحلول بمحلول الملح الطبيعي أو بالمصل الصناعي

ويجب الاحتراس من عمل هذه الادوية المنعشة والحقن المسالئة للعروق قبل ايقاف النزيف بالطرق العلمية السابقة والا فان النزف يعود ثانية اذا امتلات العروق بالسوائل وانتعش القلب ، ويكون في هذه الحالة أشد خطرا على الشخص

*

ويقسم النزف باعتبار وقت حصوله الى ثلاثة أقسام :—

(١) ابتدائي وهو الذي يحصل من الاصابة نفسها

و(٢) انتعاشي وهو الذي يحدث بعد انتعاش الجسم اذا لم تربط الاوعية

و(٣) ثانوي وهو الذي يحصل بعد مضي ٢٤ ساعة من حصول الاصابة بسبب أن الطرق التي أجريت لايقاف النزيف لم تكن محكمة أو كانت عفنة أو كان الشخص مصابا بالزهري أو غيره ، فيفك الخيط الذي ربط به الشريان أو يسقط ، أو يتقرح الشريان المربوط بسبب عدم تطهير الخيط ، أو يحدث غير ذلك

أما النزف من الاوردة فانه في الاطراف يكون صادرا من أسفلها الى أعلاها غالبا ، ولا يتدفق تدفق النزف الشرياني ولون الدمين مختلف فالشرياني أحمر والوريدي يميل الى السواد . ويعالج قبل حضور الطبيب بربط العضو من أسفل الجرح لامن أعلاه ، وباقي العلاج هو كما في النزف الشرياني

الرعاف

الرعاف نزف يحصل من باطن الانف وأسبابه عديدة تنحصر في نوعين :—

(١) أسباب عارضية وهي التي تحدث من اصابة الانف بصدمة أو غيرها تجرحها أو تكسر عظامها

(٢) أسباب مرضية وهي أيضا نوعان :

(أ) موضعية وهي اصابة الانف نفسه بمرض كالزهري أو الدرن أو التهاب غشائها المخاطي التهابا حادا شديدا (وهو المسمى بالزكام)

و (ب) عمومية وهي كثيرة من أمراض الدم كالاسكربوط[1] والارجوانية (فرفورة)[2] وتصلب الانيميا وبعض الحميات العفنة (مثل الحمى الراجعة) وكأمراض القلب والكبد والكلى

وقد يحصل الرعاف في الاطفال والفتيان والفتيات ولا يعلم له سبب سوى رقة أنسجة أجسامهم فكثيرا ما تشاهد بعض البنات في سن البلوغ يحصل لها رعاف كثير ويتكرر ذلك عدة سنين حتى اذا كبرت زال من نفسه

وفي جميع تلك الاحوال السابقة سواء أكانت موضعية أم عامة يحصل النزف بتمزق شريان أو وريد صغير في غشاء الانف الباطن له. ويكثر تمزق عرق صغير يشاهد في الجزء الامامي الاسفل للحاجز بين المنخرين

المعالجة: تختلف باختلاف سبب النزيف — ففي الرعاف العادي للاطفال والشبان يجلس الشخص وترفع ذراعاه حتى تكون أعلى من رأسه ويوضع الثلج على قفاه ويستنشق الماء البارد أو أي محلول قابض كالشب أو مغلي الشاي باردا وغير ذلك كثير، فإن تعاصى الرعاف بعد ذلك يحقن الراعف بشيء قليل من خلاصة الجويدار تحت الجلد أو يحشى الانف حشوا جيدا بالموصلي (الشاش) المغموس في شيء قابض كالدرمتول[3] أو الشب وغيره واذا لم يوجد شيء من ذلك وكان النزف من جزء قريب أمكن ايقافه بالضغط على الانف نفسه أو بادخال قطعة من القطن بجفت أو نحوه والضغط بها على العرق النازف

---

(١) الاسكربوط مرض يحصل من عدم أكل النباتات والخضروات أو أكل الاشياء المتعفنة واعراضه ضعف عام وتقرح في اللثة ونزف من أجزاء كثيرة من الجسم وفي منسوجها

(٢) مرض يشبه الاسكربوط ويختلف عنه بعدم تقرح اللثة وقلة فساد الصحة وبسببه وغير ذلك

(٣) مادة مطهرة قابضة صفراء، وهي تحت غفصات البزموت. والكلمة يونانيه معناها الجلد لنفع هذه المادة في بعض أمراضه

جهاز التنفس

الغرض من التنفس دخول هواء صالح الى الرئتين ليتحد أكسجينه بالدم فيهما فينصلح بذلك وبخروج بعض أشياء ضارة منه أهمها غاز ثاني أكسيد الفحم

فاذا دار الدم في الجسم حمل إليه هذا الاكسجين فانه ضروري جدا للاحتراق اللازم لحياة الجسم

ومجاري الهواء هي الأنف ثم الحلق ثم الحنجرة ثم القصبة الهوائية ثم الشعبتين ثم الشعب الكبيرة ثم الشعب الصغيرة ثم التجاويف القمعية فالخلايا الهوائية أو الحويصلات الرئوية

وإنما بدأنا بالانف لانه هو المسلك الطبيعي للتنفس لا الفم ، وذلك لان في الأنف شعرا ينقي الهواء من بعض قاذوراته وميكروباته، وفيه أيضا أجزاء مخصوصة ممتلئة بالدم فتسخن الهواء قبل وصوله الى الرئتين، أما إذا كان التنفس من الفم فان الهواء يكون حاملا لكثير من الميكروبات والقاذورات الضارة بالرئتين وبالجسم كله، ولايسخن الهواء بمروره من الفم كسخونته اذا مر بالانف فيكون أبرد فيحدث سعالا اذا وصل الى الرئتين أو التهابا في الحنجرة أو الشعب الرئوية

ولذلك يجب حتما تعويد الناس عدم التنفس إلا من الأنف خصوصا وقت نومهم في الليل

أما الحلق أو الحلقوم فهو تجويف متصل بالأنف والفم والحنجرة والمريء (البلعوم) وموضعه خلف تجويف الفم ويمر به الطعام والشراب وهواء التنفس

وأما الحنجرة فهي جهاز الصوت وموضعها في أسفل الحلقوم وفي الجزء الامامي من العنق، وهي محاطة بغضاريف تحمل حبلين يسميان «الحبلين الصوتيين» وهما أقصر في النساء منهما في الرجال ، وبينهما فتحة ضيقة لمرور الهواء منها ، وفي أعلاها قطعة كاللسان تشبه الغطاء تسمى « لسان المزمار» تساعد على منع دخول أي شيء في الحنجرة أثناء البلع

والحبلان المذكوران هما اللذان يحدثان الصوت بسبب اهتزازهما اذا اندفع الهواء من بينهما، ويتنوع الصوت بمروره في تجويف الحلق والفم والأنف. والكلام عبارة عن تقطيع هذا الصوت المتولد من اهتزازهما، فيتقطع بالشفتين واللسان وغيرهما. وهذا الاهتزاز يحدث تموجا في الهواء (١) يتصل الى طبلة الاذن فيسمعه الانسان

وتجد في أسفل الحنجرة القصبة الهوائية وهي منفصلة عن المريء انفصالا تاما وتمتد من الفقرة الخامسة العنقية الى نقطة امام الفقرة الثالثة الظهرية وهناك تنقسم الى قسمين لكل رئة قسم ، وهما الشعبتان

وكل شعبة منهما تمتد الى الرئة وتنقسم الى عدة أقسام وكل قسم الى أقسام أخرى كالشجرة، الى أن تنتهي بشعب صغيرة جدا وهذه الشعب الصغيرة تنتهي بتجاويف صغيرة قمعية الشكل ، وهي المسماة بالتجاويف القمعية، وفي حيطان هذه التجاويف أبواب للخلايا الهوائية أو الحويصلات الرئوية ، ومن هذه الابواب مايوصل الى خلية واحدة ، ومنها ما يوصل الى عدة خلايا مجتمعة معا وهو الاكثر

وجميع المجاري التنفسية مبطنة بغشاء مخاطي ، لخلاياه السطحية أهداب (ماعدا الحويصلات والتجاويف القمعية) تتحرك من أسفل الى أعلا ، ووظيفتها طرد ذرات التراب وغيره الى الخارج. ومن التجاويف القمعية تتكون فصيصات الرئة

وصف الرئتين

الرئة اليسرى مكونة من جزئين عظيمين يسميان الفصين ، واليمنى مكونة من ثلاثة فصوص كبيرة ، وهذه الفصوص مركبة من الفصيصات المذكورة

وكل رئة مغطاة بغشاء مصلي يسمى « البليورا » كأنه كيس مختوم من جميع جهاته انبعج بدخول الرئة فيه، ولذلك يغطي سطحها بطبقة منه والطبقة الاخرى تغطي الضلوع . والبليورا كلمة يونانية معناها الجنب

أما الدم فيصل الى الرئتين بواسطة الشريان الرئوي الذي سبق ذكره وهناك

---

(١) لابد لانتقال الصوت من وسط مادي غير الاثير يجري فيه ، ولذلك لا يسمع الصوت في الفراغ فلا ينتقل من كوكب الى كوكب كالنور ، وهو أسرع سيرا في الجامد منه في السائل وفي السائل منه في الغاز

ينقسم الشريان الى عدة فروع حتى تصير شعرية وهذه الاوعية الشعرية منتشرة في حيطان جميع الحويصلات الرئوية والتجاويف القمعية وليست متصلة بالهواء وانما يصل إليها الاكسجين ويخرج منها غاز ثاني أكسيد الفحم وغيرهما بطريقة الاندوسموز والأكسوسموز وقدسبق تفصيلهما (في صفحة ٢٤ من هذا الكتاب) (*

فاذا انقطع ما بين الدم الذي في هذه الأوعية الشعرية والهواء حدث نزف رئوي

واعلم أن الرئتين في الصدر كأنهما في صندوق مغلق من جميع جهاته ما عدا فتحة واحدة وهي الحنجرة المتصلة بالفم والأنف . ولبيان كيفية حصول التنفس نقول :

اذا فرض أن هذا الصندوق كان كيسا من جلد أو نحوه وشدت جوانب هذا الكيس حتى اتسع تجويفه دخل الهواء بقوة الضغط الجوي ليملأ هذا التجويف المستجد، فاذا حال بينه وبين اتمام غرضه شيء آخر تمدد أمام الهواء والا انفجر، وهذا هو عين مايحصل في الصدر فانه يتسع فيدخل الهواء إلى الرئتين فيمددهما في أثناء الزفير (وهو جذب الهواء الى الصدر) فاذا انتهت حركة الزفير عادت الرئة الى حجمها الاصلي بسبب مرونتها فخرج الهواء منها ويسمى خروجه منها بالشهيق

كيفية تمدد الصدر واتساعه

اعلم أن الضلوع متصلة بالعمود الفقري من الخلف ومتجه كل منها الى الامام والاسفل فاذا انقبض ماينها من العضلات ارتفعت هي والقص فاتسع بذلك تجويف الصدر من جميع جوانبه

وهناك عضلة شهيرة تفصل الصدر عن البطن تسمى « بالحجاب الحاجز » وهي مقعرة من أسفلها ومحدبة من أعلاها كالقبة

فاذا انقبضت هذه العضلة تحول تقعيرها الى مسطح ونزلت الى البطن فضغطت على الاحشاء كالكبد والطحال والمعدة ، وبذلك يتسع الصدر في قطره الرأسي

ومما تقدم يفهم أن الصدر في التنفس يتسع من جميع جهاته بارتفاع الضلوع وبانخفاض الحجاب الحاجز فيضغط الهواء - كما قلنا - على الرئتين فيتسعان أمامه

فترى من هذا أن الرئتين لاتتسعان بنفسهما بل بحركة الصدر ، فاذا فرض

---

*) أي مايطبع منه على حدة

أن الصدر اخترق من أحد الجنبين مثلا بطل عمل رئة هذه الجهة لدخول الهواء من الخرق . فاذا اخترق الجنبان مات الشخص في الحال بانطباق الرئتين وبطلان التنفس

وحركة التنفس هذه وان كانت تابعة للارادة الا أن لها أعصابا تفعلها بدون ارادة الانسان أو علمه ، ومركز هذه الاعصاب في « البصلة أو النخاع المستطيل » وهي الجزء الذي بين النخاع الشوكي والمخ ويسمى هذا المركز بمركز الحياة. وتنبعث اليه منبهات من اجزاء كثيرة من الجسم كالجلد والرئتين نفسهما وغير ذلك، وتنعكس جميع هذه المنبهات في هذا المركز فتجري في الأعصاب المحركة لعضلات الصدر. ولذلك نرى انه اذا صب الماء البارد على الجسم اشتدت حركة التنفس وكذلك اذا مس الهواء جسم الطفل المولود ابتدأ تنفسه

أما الذي يحمل مركز التنفس على العمل الدائم في الحالة الطبيعية فأمران :-

(١) حالة الدم، فاذا كثر أكسجينه استراح المركز من العمل، واذا زاد في الدم غاز ثاني أكسيد الفحم تهيج المركز للعمل. وقيل ان الذي يهيجه هو نقص الاكسجين من الدم. وهذا القول الاخير هو الراجح الآن عند علماء الفسيولوجيا

(٢) تمدد الرئتين بالهواء يحمل هذا المركز على ايقاف عمله فترتخي العضلات ، وارتخاء العضلات الذي يتبعه هبوط الرئتين يحمل المركز على العمل فتنقبض عضلات التنفس وهلمجرا

وهذا وما قبله هو السبب في حصول التنفس ولو كان الانسان نائما أو مخدرا بالكلوروفورم أوغيره

ومما تقدم يفهم معنى الحديث القائل « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فان كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه »

فان امتلاء المعدة يعوق نزول الحجاب الحاجز ويضغط عليه وعلى القلب وبذلك يحصل عسر في التنفس وضيق في الصدر وخفقان في القلب

أما عدد مرات التنفس في الدقيقة الواحدة فيختلف من ١٤ الى ١٨ مرة في الشبان ، وحركة التنفس تختلف في الاطفال عنها في الرجال وفي النساء، ففي الاطفال

يحصل تنفسهم على الاكثر بنزول الحجاب الحاجز فيضغط على الاحشاء وبذلك يرتفع البطن ويسمى هذا الضرب من التنفس « بالتنفس البطني » أما في الرجال فأكثر حركة التنفس تشاهد في الجزء الأسفل من الصدر مع بروز البطن أيضا، وفي النساء تشاهد الحركة على الاكثر في الجزء العلوي من صدورهن

ويختلف أيضا عدد مرات التنفس باختلاف الاعمار وبالراحة والتعب وبالصحة والمرض، فيكون في الصغار وفي الحميات وغيرها أكثر، وكذا بعد التعب الجسماني أو الانفعال النفساني　　(يتبع)

الحق والقوة (*)

وبحث فلسفي عنهما بمناسبة الحرب الحاضرة

أو درس ضروري لنا نحن السوريين خصوصا والشرقيين عموما

الجنرال فون برنهاردي قائد مجرب له مكانة سامية في الجيش الالماني كما انه عالم طبيعي شهير له مصنفات شتى في علم الاحياء (بيولوجيا) يرجع اليها ويستقى منها . وقد أصدر هذا الجنرال كتابًا في سنة ١٩١٣ دعاه « المنطق والمبادىء في الحروب » ضمنه آراءه في الحرب ووجوب الالتجاء اليها عادا اياها فضيلة ، فكان هذا المؤلف موضوع الاحاديث في الاندية العلمية والسياسية في العالم باسره وزادت اهميته بعد اعلان الحرب الكبرى الحاضرة لان كثيرا من الاعمال الالمانية فيها أتت مصداقا لما ورد في ذلك الكتاب — كأن أركان حرب ألمانية كلهم هم الذين انشأوه لا فردا واحدا من قوادهم

ولما أكثرت المجلات العلمية والسياسية من البحث في هذا الكتاب وتعاليمه تصدت مجلة القرن التاسع عشر الشهيرة لنقده فنشرت مقالة بليغة مسهبة في عددها الاخير عنوانها « الحق والقوة » أردنا تعريبها والتعليق عليها لاننا نحن الشرقيين صرنا أحوج أمم الارض الى تعاليم الجنرال فون برنهاردي وأشدهم افتقارا الى من

*) نقل عن جريدة الافكار التي تصدر في البرازيل (عدد ٩٠٢)

يذيدها بيننا بعد ان شبعنا من التعاليم الاكليريكية والمبادئ الخيالية التي أذلتنا وغير عز، وافقرتنا وغيرنا اغتنى، وأضعفتنا وغيرنا قوي وأفلح .

قالت مجلة القرن التاسع عشر :

اشتهر كتاب الجنرال فون برنهاردي الاخير لانه لم يتضمن ابحاثا سياسية فقط بل تضمن ايضا ابحاثا فلسفية وعمرانية واجتماعية تشهد له بالجرأة وطول الباع . واننا في نقدنا فلسفة الاجتماع ومبادئها الواردة في ذلك الكتاب نحصر كلامنا فيما له علاقة بالحرب الحاضرة من تلك المبادئ. وايضاحاً لما نحن بصدده الآن ننشر أولا أهم تلك التعاليم التي نرى برنهاردي يبشر بها وهي مقتطفات من كتابه الآنف الذكر :

١ - تنازع البقاء

قال ان التنازع لاجل البقاء هو الناموس الاولي الذي لا مفر منه ، لا في المجتمع الانساني فقط بل في العالم الحيواني بأسره . وبموجب هذا الناموس لا يمكن حراز النجاح والارتقاء من دون استئصال العضو الضعيف من المجتمع . فالضعيف اذن يجب ان يهلك ويفنى . بيد ان المجتمع البشري يختلف عن غيره من المجتمعات الحيوانية في ان الانسان له حياة فردية وحياة عمومية معا وهذه الاخيرة مرتبطة بالوطن الذي ينتمي الفرد اليه ولذلك كان ناموس تنازع البقاء و بقاء الانسب لا ينطبق تمام الانطباق على الانسان كما ينطبق على الحيوان، لان الواحد من الحيوان لا ينظر الا الى مصلحته الخاصة فقط، أما الفرد البشري المرتبط بمجموع الامة المنتمي هو اليها فعليه نوع من المسؤولية نحو تلك الامة من حيث هي مجموع منتظم . والامة - وهي مجموع أفراد - لا حياة لها إلا بالتنازع أيضا ولكنها في هذا الجهاد يجب ان تلتجئ الى نظام موافق أو شريعة عادلة تسري على الكل من دون تمييز حتى اذا تعارضت مصلحة الفرد ومصلحة الامة كان على الفرد ان يضحي مصلحته الخاصة اذا اقتضت المصلحة العمومية تضحيتها [1] أي ان المنفعة الشخصية يجب ان تضحى على مذبح

(١) الافكار: كما عنينا مرة ان يطبع خطاب روزفلت، في «الاخلاق» ويوزع منه مليون نسخة في سورية والاستانة كذلك نتمنى الآن ان يترجم كتاب برنهاردي هذا ويوزع على جميع العثمانيين وعموم الشرقيين لان الشرق كله بحاجة ماسة الى مبادئ هذا الكتاب العملية دون المبادئ النظرية التي كانت علة انحطاطه

المنفعة العمومية عند الحاجة وفي الهيئات الراقية المنظمة

٢ — القوة المحسوسة واجبة لحفظ المجتمع

هذا من النظرة الشخصية الفردية، أما من النظرة العمومية فالمسألة فيها نظر لان الامة الواحدة في أثناء معاملاتها مع سائر الامم لا يجوز لها ان تسير بموجب المبدإ الآنف الذكر أي مبدإ تضحية الواحد لاجل الخير العام عند الحاجة الى ذلك، بل يجب على الامة كمجموع منظم ان تفسر الحق والعدالة تفسيراً آخر يلائم مصلحتها كما سترى

لا يمكن تنظيم أمة مالم يجتمع عدد كبير من أفراد تلك الامة تحت لواء المصلحة المشتركة بينهم، ومن العبث اجتماع البشر كلهم في أمة واحدة تحت نظام واحد لان هذه النظرية لا يمكن تطبيقها . وتأليف أمم صغيرة ضعيفة غير مستحيل غير ان حالة مثل هذه الامم الصغيرة تستوجب الشفقة لان وجودها مخالف للناموس الطبيعي أي ان ليس لها حق الوجودي ، ودونك البرهان الحسي العملي المعقول :

المقدمة المنطقية الاولى : ان البشر مضطرون بحكم نمو عددهم المضطرد الى تأليف جماعات طبقا لناموس التعاون ولكن هذه الجماعات تكون متباينة لا في الكمية فقط بل في الكيفية أيضاً

المقدمة المنطقية الثانية : ان اختلاف العناصر وعوامل الاقليم والمناخ وجدت منذ الازل وسوف تبقى بحكم الطبع الى الابد

النتيجة المنطقية الثابتة: لذلك وجب تباين الامم بعددها وأنواعها بسبب تباين الاجناس والالوان والاخلاق والعوامل الطبيعية من جيوغرافية وغيرها من العوامل الخارجية أي انه وجب وجود أمم ضعيفة بين أمم قوية بحكم الطبع . ولما كان ناموس تنازع البقاء — وهو ناموس طبيعي ثابت — يجبر الامم على حفظ كيانها وعلى تقوية ذلك الكيان على حساب الضعيف من جيرانها[1] كان من الضروري وجود ذلك التنازع بين الامم الضعيفة والامم القوية . لذلك قلت ان الامم الضعيفة

(١) المنار : يعني ان سنة تنازع البقاء تدفع الامم بما يشبه الاجبار الى حفظ وجودها الامي وتنميته مما تسلبه من الامم الضعيفة المجاورة لها

تستوجب الشفقة لانه لاحق لها بالوجود — ومن المستحيل دوام وجودها وهي عرضة لخطر الاضمحلال في كل حين بسبب التنازع الطبيعي بينها و بين القوي من جيرانها . ولا بد للقوي من استعمال قوته وهذا الاستعمال هو الحرب بأبسط معانيه . وأقول بعبارة أوضح : ان كل أمة يجب ان تعتمد على القوة، على القوة وحدها، في أثناء معاملاتها العمومية مع سائر الامم والا كانت أمة ضعيفة عرضة للفناء فى كل حين

انتقد الفيلسوف التلياني ماشيافللي مثل هذا التعليم بحجة انه يرمي الى اعتبار القوة غاية الوجود لا واسطته . ولكن غاية الوجود « هي حماية مصالح الفرد وترقيتها حتى يصل الى الدرجة المطلوبة من السعادة والكمال » وهذه لايمكن الحصول عليها من دون مساعدة الامة ، والامة لايمكن أن تقوم بالحماية والترقية مالم تكن قوية، وقوتها لاتأتي إلا من حصر محبة بنيها لها وحدها أولا، والا فانني لاأفهم كيف ان زيدا يحب خير العالم أجمع وهو لايحب خير أمته ووطنه وجنسه وعائلته أولا . فالواجب الانساني إذن يقضي على المرء بمحبة جنسه أولا

إذن أرى أن الناموس المسيحي القائل بالمحبة والاحسان والغيرية هو أشرف ناموس في الكون لكنه وضع لاجل العلاقات الفردية في الامة الواحدة فقط، ولا يمكن تعميمه على الانسان والانسانية، لان التعميم مخالف للنواميس الطبيعية الثابتة ، والتخصيص أولى، إذ أن الذي لايحب أخاه القريب، لايقدر على أن يحب البعيد الغريب وعلى هذا الرسول بولس ذاته فيلسوف الكنيسة المسيحية وواضع أهم تعاليمها

٣ ـ فلسفة العدالة في المعاهدات والحروب

ليست الحرب مقتصرة على اقتتال الجيوش فقط بل الحرب اصطلاح سياسي يعني وجود أمة تنازع أمة أخرى سواء كان باستخدام السلاح أو باستخدام السياسة . والحروب السياسية تعنى مضايقة فريق لفريق آخر بواسطة المعاهدات التجارية أو المعاملات الاقتصادية من صناعية وتجارية وزراعية وما أشبه . وإذا لم يذعن أحد الفريقين للآخر بحرب السياسية يصير الالتجاء الى السلاح أمرا لازما ، غير ان مسؤولية رجال الحكومة في أثناء الحروب السياسية تقضي عليهم بالمحافظة على مصالح الشعب وإنماء ثروته . هذه هي الغاية الاولى لهم . أما

الواسطة لخاضعة لحكم الظروف. فإذا كانت الظروف تحوجهم الى اطراح المبادئ النظرية الادبية جانباً فلهم ذلك لانهم بهذا الانحراف يخدمون المصلحة العمومية لا المصلحة الفردية . واذا رأوا الخطر محدقاً بالشعب فعليهم مباغتة العدو والغدر به قبل أن يتم معداته حتى يقضوا على قواه الهجومية والدفاعية ويأمنوا شرّ تنازعه اياهم منافع البلاد وثمار أراضيها ومعاملها وهذا لا يأتي إلا بانماء القوة المحسوسة وازديادها . ولذلك كانت القوة مظهرا من مظاهر العدالة لان الحروب عدل وبها وحدها تثبت العدالة على أساس متين . وبرهان ذلك أقول :

لنفرض ان أمة إبان ضعفها خضعت بحكم السيف الى جارها القوي وسلمت معه بشروط مكتتبة على ورق سموها معاهدة ، ولنفرض أن تلك الامة الصغيرة صارت قوية على تمادي السنين فرأت أن تلك الشروط التي كانت قد رضيت بها أولا في أيام ضعفها صارت ثقيلة عليها تضر بمصالح الشعب في أيام قوتها . فالشعب في هذه الحالة الاخيرة صار يرى ذاته مغدورا مغبوناً . واذا هب الى تمزيق المعاهدة الاولى المجحفة بحقوقه فعمله هذا هو العدل بعينه . ولا يمكن ان ترضى العدالة المجردة بغبن شعب كامل وغدره . ليس ذلك فقط بل اننا لانقدر أن ندعو الاذعان لشروط مجحفة عدالة وفضيلة . بل ان العدالة تقضي بتمزيق المعاهدة المضرة الجائرة بواسطة المفاوضات السياسية أولا التي ادعوها حرباً بطيئة كامنة ، فاذا نجحت فبه والا فاستعمال السيف والمدفع يصبح أمرا واجباً -- ولا يمكن أن يوجد الحق ويثبت مالم يكن مؤيدا بالسيف ومدعوماً بالمدفع وقوة الساعد ولذلك كانت الحرب فضيلة . أي ان الحرب أمر ضروري للمجتمع الانساني لانه رمز العدالة ومنشئ الشجاعة والجرأة في الامة ورفيق الحق والمطالبين به. واذا تركت الحرب تجبن الامة عن المطالبة بحقوقها فتبقى مغبونة مقهورة ذليلة ومثلها لايثبت في ميدان تنازع البقاء لان ناموس بقاء الانسب يقضي عليها إن عاجلا أو آجلا والانسب هو الاقوى في كل حال

هذه هي زبدة تعاليم الجنرال فون برنهاردي المدونة في كتابه الجديد « المنطق

والمبادىء في الحروب » ودونك مجمل الانتقاد العلمي الفلسفي البديع الذي نشرته مجلة القرن التاسع عشر الطائرة الصيت في عددها الاخير قالت :

تعليق مجلة القرن الـ ١٩ على الكتاب الالماني

ليس الجنرال فون برنهاردي وحده القائل هذا القول ولا هو من وضع هذه الفلسفة أي فلسفة القوة والاعتماد عليها وحدها لاجل تثبيت الحق والعدالة . بل اننا اذا أمعنا النظر نرى أن معظم علماء الالمان وفلاسفتهم قالوا بهذا الرأي ونشروا مثل هذه التعاليم من ارنست هكل العالم الطبيعي المعروف زميل شارلس دارون الى نياتش المادي الشهير، وغيرهما كثير. وليس من العدل والانصاف ان نقلل من أهمية هذه التعاليم لمجرد انها صادرة عن أعدائنا فإن « العلم مشاع بين جميع الامم وليس لوطنه حدود » فلندرس إذاً مبادىء الجنرال برنهاردي وتعاليمه بكل نزاهة ولنمحصها في بوتقة التحري بقطع النظر عن قائلها

قال ارسطو الفيلسوف اليوناني القديم: ان الفضيلة هي الوسط بين متضادين . أي ان الشجاعة مثلا هي فضيلة لانها وسط بين الجبن والتهور . فالجبن رذيلة لانه دليل الذل وصغر النفس، والتهور رذيلة أيضا لانه دليل الحماقة والكبرياء — وكل هذه العيوب الاخلاقية تدل على وجود مرض بعقل المصابين بها وخصوصاً الغرور والكبرياء [1] وقس على ذلك الصدق والكذب والحق والباطل وما أشبه ذلك من المتضادات

(١) الافكار : اتفق ونحن نقرأ هذه المقالة البديعة ان وصلتنا الصفاء الغراء فوجدنا فيها ما يأتي:ـ قال أحدهم: المتكبر أجدر الناس بالشفقة لان الكبرياء مرض في العقل» أي ان صاحب الصفاء يتألم من كثرة ما يرى من المتكبرين حوله . وقد تذكرنا خطبة مطبوعة باللغة الانكليزية عندنا للدكتور دانيال باس رئيسنا العلامة الكبير قالها امام صف المنتهين مرة فراجعناها واذا في احدى صفحاتها ما يأتي :

« وانني أوصيكم بالاعتدال في كل شيء . لان الاعتدال من أهم الاخلاق التي يحتاج اليها الشرق . ومن أعظم المصاعب أمام عملنا نحن المربين والمهذبين في هذه البلاد اننا نرى أفراداً بين السوريين هم متهذبون بكل معنى الكلمة تمام التهذيب ـ وبالاصل gentleman، وافرادا غيرهم على غاية من التاخر والانحطاط والحلقة لوسطى بينهم تكاد تكون مفقودة. و بينما نرى الكرم لحد التبذير في البعض نرى =

وكم ضل أفاضل من الرجال سواء السبيل لأنهم اتخذوا التطرف ديدنًا لهم فكانوا باهمالهم الصدق مثلا يكذبون، وهم لا يدرون، وبتطرفهم بالتمسك بالحق حسب اعتقادهم يخدمون الباطل وهم لا يقصدون . والحقيقة أن تعاليم الجنرال برنهاردي مطابقة تمام المطابقة لتعاليم ارسطوطاليس كبير الفلاسفة لولا ما بها من تجسيم يبلغ حد الغلوّ أحيانًا فضلا عن خلوها من رابط متين يربط الحق بالقوة كما سترى

٢

ان الاساس الذي بنى عليه الجنرال برنهاردي كتابه هو التعليم القديم القائل ان « الحق للقوة » والدعامة التي دعم بها ذلك الاساس هي تعليمه القائل بأن كل الآراء المتعلقة بالحياة الاجتماعية والسياسية تكون آراء مضرة اذا تجاهلت كون الحق للقوة لانها أي الآراء ليست في هذا التجاهل سوى رياء وتضليل

وبموجب تعاليم برنهاردي يكون الاشترا كيون مرائين ويكون الراديكاليون المتطرفون أكثر رياء وخداعا ، ليس ذلك فقط بل ان كل الفلاسفة الذين يخالفون مذهب داروين القائل ببقاء الانسب بعد التنازع لاجل البقاء قد اضروا الهيأة الاجتماعية لانهم دلوها على التواكل والاستسلام وعلموها الحيلة والرياء وأبعدوها عن القوة ـ وهي الفضيلة المقدسة التي هي أساس كل الفضائل

وللجنرال برنهاردي فضل عظيم في انه شرح هذه التعاليم العملية وحاول تطبيقها على حالة أوربا السياسية الحاضرة . ولا شك في انه صادق فيما يقول عن القوة وتقديسها ـ تلك القوة التي صار الشعب الانكليزي (تذكر ان الكاتب عالم انكليزي) يستخف بها وينسبها الى قبائل الزولوس المتوحشة حتى انه أصبح في الآونة الاخيرة يبالغ في تحقيرها وتحقير كل أمة تعتمد عليها . ولكن لما نشبت الحرب الحاضرة أدرك الشعب خطأه وعلم ان من دون الاعتماد على القوة خطر الغزوة

= أيضاً البخل لحد الشح في البعض الآخر . وكذلك بينما نرى الذل والجبن في طبقة نرى الغرور فاشياً والكبرياء لحد الادعاء الممقوت في طبقة ثانية . واذا قدرت هذه المدرسة « أي المدرسة الكلية » على ايجاد حلقة وسطى توجد الاعتدال في مشارب السوريين وأخلاقهم نكون قد عملنا عملا تهذيبيا عظيما »

الالمانية وبالتالي خطر فناء انكلترة من العائلة السياسية الكبرى

ولا جدال في ان القوي تغلب يوما على الضعيف جاره واحتفظ بمركزه المتفوق بالقوة الوحشية وهذا ينطبق على الامم كما على الافراد . ولا جدال أيضا في ان كل حكومة راقية تضمن لابنائها المتفردين بالقوة أفضل المراكز ولو على حساب المجموع لان مجموع الامة يستفيد منهم . وكما ان الام يجب ان تكون قوية جدا حتى تتمكن من الاعتناء بطفلها الضعيف كذلك يجب على رجالها ان يضمن لها التقوية محافظة عليها وعلى صغيرها . هذا الشطر الاول من كتاب برنهاردي واظن ان الاندية العلمية والسياسية عندنا سلمت بصحته فورا .

أما الشطر الثاني الذي أقام العلماء وأقعدهم فهو كلام ذلك الجنرال الالماني عن علاقة الامة الواحدة بغيرها من الامم الاخرى فان ذلك الكلام يقرر ان أفراد الامة الواحدة يجب عليهم التضامن والتكاتف وتبادل الصدق والولاء والعطف والمحبة بعضهم مع بعض فقط حسبما ورد في مثل الزوج والزوجة ومسؤوليتهما نحو طفلهما الضعيف . أما في علاقة الشعب بغيره من الشعوب القريبة فالجنرال برنهاردي يقول بصراحة ان لا رحمة ولا شفقة ، بل ويل للضعيف في تنازع البقاء، لان القوة وحدها هي الحكم الاخير في العلاقات العمومية، وبقاء الانسب يقضي بانقراض الضعيف ان لم يكن اليوم فغدا

وبجملة أوضح أقول ان أركان حرب ألمانية يقولون بالحق والعدالة والرحمة بين أبناء العائلة السياسية الواحدة ، ولكن يقولون بمعاملة الغريب على قاعدة بقاء الانسب - أي على قاعدة الحق للقوة . وعند درس هذا المذهب بنزاهة وانصاف نرى انه ليس مذهبا جديدا ولا مخالفا لما نراه جاريا في الكون ، سواء اردنا ذلك أم لم نرده . إذن لا أرى ان الذين خطأوا برنهاردي هم من القوم المصيبين المنصفين (١) .

نعم ان عندنا شرائع تضمن العدالة وتجبر الحكومة على اجرائها حفظا لحقوق

«١» الافكار: ان قائل هذا الكلام هو مستر مالوك من علماء الانكليز اعداء الالمان الالداء وكلام الخصم حجة

الضعيف من جاره القوي ، ولكن هذه الشرائع وتلك عدالة تسري على أبناء الامة الواحدة فقط أما على غيرنا من الامم والحكومات فمن ينكر انا لا نعاملهم بما يعامل به بعضنا بعضا ، ان نكران هذا الامر هو الرياء بعينه ، وهذا هو مبدأ برنهاردي أيضاء وهاك نص احدى عباراته حرفيا بهذا الصدد قال :

« لايوجد في الكون حكومة تجري على غيرها من الحكومات ذات القوانين وذات النوع من العدالة الذي تجريه على افرادها هي . كذلك ليس من الواجب على أي حكومة ان تعتني بالغريب وتعطف عليه وتساعده ، ولكن من أوجب الواجب عليها الاعتناء بأولادها وتقوية الضعفاء منهم فقط واجراء العدالة بتمام النزاهة والتدقيق بين المتخاصمين منهم وحدهم . واذا قلنا ان محكمة دولية عمومية يجب ان تنشأ لاجل فض الخلافات بين الدول على مبدإ الحق والعدالة المجردة نعود ونرجع الى القوة الوحشية المحسوسة لاجل تأييدها ، واليك البرهان :

« هب ان خلافاً نشب بين أمتين أو أكثر ورفع أمره الى تلك المحكمة الدولية العمومية العليا (الموهومة) وهذه بموجب الحق والعدالة المجردة أصدرت حكمها ضد الامة القوية المتعدية ، ورفضت تلك الامة القوية ان تخضع لحكم المحكمة العادل فماذا علينا ان نفعل؟ علينا أن نلتجئ الى جيش قوي جدا يرغم تلك الامة القوية على قبول حكم المحكمة العليا وتنفيذه . والا كانت العدالة والحق والحكم حبرا على ورق من الوجهة العملية . ولما لم يكن تنظيم جيش عمومي ممكننا كان من المستحيل اذن اجراء الحق بين الامم المتباينة في العدد والقوة اجراء فعليا كما يجري في الامة الواحدة التي لها من قوة جندها مايجعل الحق نافذا والعدالة المجردة ممكنة — ولكن بين أفرادها فقط . ومجمل القول ان الناموس الطبيعي المعقول هكذا يأمر أي ان العدالة المجردة يجب ان تجري ولكن بين أبناء الامة الواحدة فقط لان ذلك ضروري لحفظ كيانها ولتقويتها أما مع الامم الاخرى فالحق للقوة في كل حال وويل للضعيف والمستضعف [1]

---

(١) المنار : حقا انه لم توجد شريعة تأمر بالمساواة والعدل العام غير الاسلام ولكن كانت الدول الاوربية تراعي العدل فيما بينها في الجملة حتى جاءت هذه الفلسفة الجديدة بهذه الحرب العامة التي لابد ان تعود عليها بالنقض ولو بعد حين

الاستعمار

تنازع ألمانية وانكلترة بسببه

وبعد هذا يوضح الجنرال برنهاردي مسألة الاستعمار بقوله: ان كل أمة قوية لابد لها يوما من طلب التوسع في املاكها لان أفرادها المتزايد عددهم يحتاجون أولا الى المواد الغذائية وثانيا الى المواد الاصلية في الصناعة حاجة تزيد بالنسبة الى عددهم المتكاثر، وهذه لايجدونها الا في الخارج. واذا زادت مصنوعاتهم تراهم يضطرون الى ايجاد أسواق جديدة لاجل تصريفها - أي الى ايجاد مستعمرات، فالمستعمرات إذن من لوازم الامم الراقية

والاستعمار يتم بطرق ثلاث: (١) المهاجرة واختلاط المهاجرين تدريجاً مع السكان الاصليين والامتزاج بهم امتزاجاً سلمياً حتى يتغلبوا عليهم بفضل تفوقهم على الوطنيين بالقوى البدنية والعقلية والاخلاقية، (٢) بانشاء مستعمرات منظمة في بلاد أهلها من نصف المتمدنين أو من غير المتمدنين وامتلاك مثل هذه المستعمرات غير صعب ألبتة، (٣) بالحرب واغتصاب المستعمرات من أيدي أهليها عنوةً إذا كان أولئك الاهلون على جانب من المنعة والتمدن. وهذه الطرق الثلاث تدعى المهاجرة والاستعمار والاغتصاب وهي لاتتم إلا باستعمال القوة في احدى مظاهرها وبمعاملة سكان البلاد الاصليين حسب ناموس تنازع البقاء لاحسب الحق والعدالة.

والحق كل الحق مع الجنرال برنهاردي في هذا التصريح، لان كل أمة قوية استملكت بلادها وبلاد غيرها بقوة السيف يوماً لم تعامل الاهلين الاصليين قط بالمساواة والعدالة كما يدعون. وليس في هذه التعاليم شيء جديد كما قلت آنفا ولكن الذي زادها أهمية هو اشتباك ألمانيا منفذة هذه المبادىء بحرب كبرى مع غيرها من الامم ووجود حزب قوي عندنا (أي في انكلترا) شعاره «السلم مهما كلفه الامر» ومذهبهُ هو أن الذي يأخذ بالسيف بالسيف يؤخذ. وسها عن بال هذا الحزب المتخنث ان الذي لاسيف عنده يكون أول مَن يسقط بسيف الغير، وخصوصاً في هذه الايام أيام المنازعات والمناظرات والمسابقات الهائلة

ولا أصدق من كلام الجنرال برنهاردي عن السوسياليست والراديكاليين (الاشتراكيين والمتطرفين) الذين يزعمون أن الحكومة ليست سوى شركة ضمانة عملها توزيع المنافع والمرافق بالسواء – ان هذه الاراء لا يمكن العمل بموجبها أبدا لانها آراء نظرية بحتة وكل أمة تسير بموجبها تضعف فتنحط وتفنى على تمادي الاجيال . والشواهد العديدة التي اقتبسها برنهاردي من دارون وكنت وهكل وفشت وشلر وغوث تؤيد هذا المذهب، وحبذا لو أنه ذكر اسم كروب ومدافعه أيضاً حتى يصير الاقتباس تاماً، لان كروب واختراعاته لاتقل أهمية عن تعاليم أولئك الفلاسفة

فضائل الحرب — نقد برنهاردي

انني من المعجبين بتصريح برنهاردي القائل ان للحرب فضيلتين هما الشجاعة والعدالة ، فالشجاعة فضيلة لانها رائد الاستقلال ، والعدالة فضيلة لانها رائد الصدق والصدق رفيق القوي دائما ، ولكن العدالة والصدق يجب أن ينحصرا في الامة الواحدة وافرادها فقط دون غيرهم حسب تعليم برنهاردي، أما في العلاقات مع الغرباء وبين الامم الاخرى فللقوة المركز الاول دائما ، وكل من يقول بخلاف ذلك فهو خادع أو مخدوع

الى هنا انتهى اعجابي بالتعاليم العملية التي دونها الجنرال برنهاردي في كتابه الاخير، ولكن موضوعاً اجتماعياً فلسفياً كهذا لايخلو من التعقيد والصعوبة لذلك لاألوم برنهاردي إذا رأيته يناقض نفسه في بعض الاحايين ، ويخلط في تدوين المباديء وشرحها في البعض الآخر

فمن جملة المتناقضات في تعاليمه عدم شفقته على الامم الضعيفة حالة كونه لم يضمن لنا طريقة ثابتة بها تبقى الامة القوية قوية الى ماشاء الله — وهذا من أهم الاعتراضات أيضاً على مذهب دارون القائل ببقاء الانسب . ومن جملة مواضع الخلط والخبط في شرح مبادئه عدم جمعه بين العدالة والقوة جمعاً علمياً ترتاح النفس اليه، بل أراه أبقى هوة عميقة بين القوة الوحشية التي عبر عنها بالحرب وبين العدالة المجردة التي لايجوز لها أن تخضع للقوة

ليس ذلك فقط بل ان الجنرال برنهاردي اعتمد على علم الاحياء (بيولوجيا) في مصنفه الاخير وهو مولع بهذا العلم لكنه تجاهل وجود ناموس التعاون والتضامن في النوع الواحد ونسي أو تناسى ان الانسان مهما تعددت أممه وأجناسه وعناصره وألوانه لم يخرج عن كونه نوعاً واحداً من أنواع الاحياء هو نوع الانسان يتطلب كيانه ناموس التعاون والتضامن ولو باحد أشكاله البسيطة

ويحوجني الوقت والمجال لأبين أن العلاقة بين الحق والقوة هي علاقة شديدة موجودة فعلا وهي مثل الارتباط المتين الموجود بين الحرية والمسؤولية وبين الحق والواجب، فكما أن الحرية توجد المسؤولية والحق يوجد الواجب والعكس بالعكس كذلك أرى أن ناموس « الحق للقوة » الذي ينادي به الجنرال برنهاردي وأركان حرب المانيا عموما يقتضي وجود علاقة متينة بين الحق والقوة لم يشر اليها برنهاردي ولا عرضاً في سياق كلامه . لذلك نرى ان المانيا في هذه الحرب مغمضة عين الحق في بعض تصرفاتها المخالفة ومجسمة فضيلة القوة الوحشية المحسوسة في سائر اجرا آتها مما جعلها عرضة للنقد العادل

أما ما خلا هذه النقط القليلة القابلة الانتقاد فكلام الجنرال برنهاردي صحيح لاغبار عليه، ويجدر بالحزب السلمي في انكلترا أن يدرسه بمزيد التدقيق والتروي عله يقلع عن تعاليمه النظرية الضارة ويساعد القائلين منا بوجوب تنظيم جيش قوي دائم وتعويد الامة على تربية رجال أشداء أقوياء البدن وعلى غاية من النشاط والبسالة اه

[المنار] نقلنا ما تقدم عن جريدة الافكار البرازيلية بنصه مع تصحيح لفظي قليل والقارئ يرى ان غرض صاحب مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية من تلخيص ماالخصه من الكتاب الألماني هو إقناع قومه بأن يحذو حذو الألمان في شدة العناية بالقوة الحربية ومنه جعل الخدمة العسكرية اجبارية ، والظاهر ان شر عاقبة لهذه الحرب هو زيادة عناية الامم الاوربية كلها بالاستعداد للحرب وان كان بعض الناس يظنون انها سترجع الى رشدها بما تقاسي من خسارة الانفس والاموال

بين روسيا والمانيا (*)

(وفيه وصية غليوم الاول لحفيده غليوم الثاني)

يذكر قراء « الافكار » ماعربناه من مدة من تلغراف الامبراطور غليوم الى القيصر نقولا إذ قال له يومئذ انه موصى على فراش موت جده بالمحافظة على صداقة روسيا . وقد قرأنا مؤخرا تلك الوصية المشهورة التي أوصى بها الامبراطور غليوم الاول حفيده امبراطور المانيا الحالي في الساعات الاخيرة من حياته إذ استدعاه وزوّده بنصائحه ووصاياه وما يفرض عليه عمله والسياسة التي يجب عليه اتباعها إذا تبوأ العرش . وهذا ملخص نص الوصية :

« إذا كتب لك الحق سبحانه وتعالى أن تملك على عرش أجدادك القياصرة فاعتنق الحق والعدل وبثهما في الرعية . واعتن بالجيش مزيد العناية . واجهد في اكتساب ميل العامة وحب الشعب الالماني باسره . واسع في تقرير السلام العسكري والسياسي في داخل المملكة وخارجها مع مراعاة قوانينها وشرائعها . وساعد الضعيف ، واعضد العاجز ، وساو كليهما بالقوي ، حتى لا يكون امتياز ولا حيف ، و(حتى) تكون حرية مطلقة في جميع الاديان والمذاهب . تودد الى الامم الغربية على اخلاف نزعاتها ، وحافظ على اتحاد أوستريا والمجر حليفة جرمانيا الامينه ، لان في هذا الاتحاد موازنة للسياسة الاوربية ورابطاً بين الدولتين من قديم التاريخ . ولا تحرم البلاد من فوائد السلم وثماره الطيبة المذاق إذا لم تكن الحرب أمرا واجباً فيما لو تعدت على المانيا دولة ورامت مهاجمتها أو مهاجمة حليفتها . ولا تستخدم قوة ألمانيا لإثارة حرب عدائية تكون أنت البادئ فيها ، فان المانيا ليست في حاجة الى مجد عسكري جديد ولا الى افتتاح حديث . حاذر الحرب قدر استطاعتك واياك ، ودولة الشمال . ثابر على اتباع خطة المودة الوطيدة نحو قيصر روسيا اسكندر الثالث ودع المانيا ان تسير على خطة السلام والوفاق الحبي مع روسيا ، وابذل كل نفيس

*) منقولة عن جريدة الافكار البرازيلية

في سبيل مرضاتها واستمالة ودها اليك ، وايد الصلات السلمية التي كانت لنا في مدة المائة سنة الماضية في مملكة روسيا جارتنا . فهذه كانت حاساتي(؟) الشخصية التي تنطبق على مصالح المانيا » انتهى

هذا بعض ما وقفنا عليه من وصايا الامبراطور غليوم الاول الى حفيده الامبراطور غليوم الثاني الذي بذل جهده في اتباع وتحقيق أماني جده من توثيق عرى الصلات مع جارته والممالك المتحالفة معه حتى تبقى العلائق الودية على سابق حالها غير واهية ولا منفصمة

وقد عرف العالم أجمع ما كان لروسيا من الشأن المهم في حربي عام ١٨٦٦ مع النمسا وعام ١٨٧٠ مع فرنسا، والخدمة الجلى التي قام بها اسكندر الثاني قيصر روسيا في تسهيل الوحدة الالمانية ، وقد عرف ذلك غليوم الاول كما عرفه وزيره البرنس بسمارك . ولهذا أوصى حفيده غليوم الثاني بتحسين صلاته مع روسيا . ولا يزال العالم يذكر تلغراف غليوم الاول الى القيصر اسكندر الثاني سنة ١٨٧٠ إذ قال له « أعترف بأن جل الفضل في فوزي ونجاحي عائد اليك » فضلا عما كان من أعمال بسمارك في حياة غليوم الاول وفردريك الثالث في تسهيل التقرب الى روسيا بالرغم من التحالف الثلاثي ومن مبادئ أوستريا وسياستها البلقانية. وقد كان بسمارك لا يطيب له عيش الا يوم يأمن نفوذ روسيا . والامبراطور غليوم الثاني ذاته بعد قبضه على صولجان الامبراطورية زار القيصر الروسي قبل أن يزور حليفتيه النمسا وايطاليا ،كما زار جده غليوم الاول قيصر روسيا يوم تبوأ عرش أجداده ، وعمل على تأييد التحالف الشمالي واهتم في زيادة التقرب من روسيا لتحسين صلات الدولتين، إذ لم يشأ ان يبتعد عنها لما بين الاسرتين المالكتين في روسيا والمانيا من صلة القربى ،فضلا عن ضرورة الاحترام للوصية السابقة الذكر

ولكن دلكاسه الداهية وزير خارجية فرنسا حالاً مشهور بعداوته لالمانيا فعين منذ سنة ونصف سفيراً لدولته في بطرسبرج واستطاع بدهائه الغريب أن يفهم روسيا أن النمسا ليست بالعدوة الرهيبة لو لم تكن تعضدها المانيا وان خير طريقة لكسر شوكة النمسا هي اضعاف المانيا، وساعدته الظروف والحنكة

السياسية، فابان لروسيا مطامع المانيا وما صنعته مع روسيا في معاهدة برلين وغيرها .
وقد نجح دلكاسه في سياسته نجاحاً باهراً إذ أضاف الى الحقد الكامن في قلوب الشعب حقد الحكومة الروسية ، فتراخت العلائق بين الحكومتين وسعى القيصر للتملص من ربقة نفوذ امبراطور المانيا عليه ؛ وخصصت حكومته عشرة مليارات ليرة لنظارة الحربية لسنة ١٩١٣ واشترت بتسعة وعشرين مليوناً من الليرات أوتومو بيلات حربية ، وأضافت عددا عظيما الى جيشها الهائل ، وجعلت الخدمة العسكرية في بعض الفرق أربع سنوات ، وارادت تغيير المعاهدة التجارية بينها وبين المانيا ، وضربت رسما باهظاً على القمح الوارد من المانيا الى فنلندا ، وأطلقت سراح الصحافة فاثارت على حكومة برلين عواطف السلافيين ، ومكنت الحقد بين الشعبين.
وكان المسيو دلكاسه العامل في كل ذلك الذي وصل الى هذه النتيجة

وكانت الامة الروسية قد رأت خيلاء الامة الالمانية فهالها أمرها لاسيا وهي تنظر اليها نظرة جار يود ضرر الآخر تجارةً وصناعةً وسياسةً . أضف اليه الحقد المتولد في قلوب السلافيين ضد الجرمانيين وتصرف بسمارك نحو روسيا في معاهدة برلين كما قلنا بعد ان كان حليفها سنة ١٨٧٨ وقلما ترى الآن في روسيا من يحب المانيا حتى من أولئك الذين يجري في عروقهم الدم الالماني أو النمسوي كالبولونيين في بوزين وفرسوفيا والتشك في برات والصرب والكروات في اغرام و بلغراد حتى في طيات قلوب البلغاريين في صوفيا . وهذا الحقد المنفجر في جميع جوارح السلافيين أرغم حكومة بطرسبرج على الانتصار للصربيين وشهر الحرب على النمسا . وقد أرادت حكومة القيصر أولاً ان تتخذ من السلافيين حقدهم لرشق نباله في صدور النمسويين فقط ، وذلك لان المانيا قد لعبت دورا مهماً في بلاط روسيا لوجود عدد عظيم من الدوقات الالمانيات في القصر الامبراطوري — كماريا بافلوفنا قرينة الغراندوق فالديمير واليزابت فيودوروفنا شقيقة القيصرة ورئيسة دير كبير الراهبات ودوقيات أولدنبرغ وليستنبرغ والامبراطورة الكسندرا — وعدد عظيم من القواد والضباط وولاة الامور الالمانيي الاصل الذين يشتغلون بجميع قواهم لزيادة متانة العلاقات بين روسيا والمانيا ، عدا عن العلائق الوطيدة الشخصية

بين القيصر والامبراطور ولان. حربًا عوانًا تقع بين المـانيا وروسيا لاتفيد الثانية كثيرا

أما حقد حكومة القيصر على النمسا فكان ولا يزال هائلاً جدا لان فيها الأقل من ١٦ مليونا من السلافيين تابعين لخمسة عشر مليونا من الجرمانيين. لذلك ليس من الصعب على حكومة بطرسبورج الضرب على وتر نصرتهم الجنسية فضلاً عن ان النمسا مازالت تعرقل سياسة روسيا في البلقان، وكانت الحرب بينها بين روسيا أمرا طبيعيا لامفرّ منه اه

ترجمة الشيخ شبلي النعماني

﴿ بقلم الشيخ حبيب الرحمن خان الشرواني ﴾

مترجمة من جريدة (عليكده إنستيتيوت غازت) بقلم عبد الرزق من تلاميذ دار الدعوة والارشاد

انتهت السنة الثانية والثلاثون الهجرية على حادثة فجائية ستذكر في تاريخنا الى زمن بعيد : أذيع خبر وفاة الشيخ شمس العلماء شبلي النعماني في صبيحة ٢٨ ذي الحجة أي في الوقت الذي تنير فيه الشمس العالم، ولكن وآسفاه غربت فيه شمس العلم وأظلم العالم العلمي.

(ثم بين الكاتب مجد المسلمين القدماء وكثرة وجود العلماء والنابغين فيهم الذين كانوا يخلفون السلف، وانحطاط المسلمين الآن وفقدان الرجال الذين يحلون محل موتاهم. وقال)

ان في سيرة الشيخ عبرا ودروسا للطبقتين -طبقة النابتة الحديثة وطبقة العلماء، فلو كتب تاريخه لكان نافعا للمسلمين. وتوخيا للفائدة نلمح الى تاريخه فنقول :

الشيخ شبلي النعماني من بلدة أعظم كدة الشهيرة وهو من أسرة كبيرة وابن رجل عظيم. لا أعلم سنة ولادته ولكني قرأت ما كتب في الجرائد من انه ولد سنة ١٨٥٧ أي سنة الثورة. وكان من أسباب تقدمه العلمي ذهنه الثاقب وطبعه السليم وحرص والده على تثقيفه وتربيته، ووجود أستاذ كامل له كمحمد الفاروق الذي كان ماهراً في العلوم العربية والاداب الهندية. أخذ الشيخ شبلي علم الحديث عن العلامة أحمد علي الشهير، وبعد فراغه من التحصيل دخل خدمة

الحكومة ولكنه لم يلبث أن تركها من تلقاء نفسه . ثم قرر معلما للغة العربية في كلية علي كره فاتخذ له بيتا بجوار السيد أحمد خان رئيس الكلية . وكان السيد يبحث في العلوم المختلفة فاقتبس منه ومن المعلم آرنلد الاستاذ في الكلية معلومات في الفلسفة والعلوم الحديثة ، وهو الذي علم الاستاذ المذكور عليه كثيرا من العلوم الاسلامية واللغة العربية ، لهذا كان في تأليف كتاب « الدعوة الاسلامية » Preaching Of Islam „ للاستاذ أرنلد يد كبيرة للشيخ .

وخرج من الكلية سنة ١٨٩٨ بعد أن توفي السيد أحمد وذهب الى حيدرآباد وهنالك كانت قد أسست الجمعية العلمية المسماة « السلسلة الآصفية » فتوظف فيها براتب ٢٠٠ روبية في الشهر (والآن قد زيد فيها مائة فصارت ٣٠٠ روبية) وألف بضعة كتب باسمها ثم رتب مشروع كلية حيدرآباد .

ولما رجع من حيدرآباد طلبه محسن الملك رئيس الكلية لها ولكنه لم يقبل ورجح ندوة العلماء عليها ، وأقام في مدينة لكهنؤ فكان فيها عضوا كبيرا عاملا . وفهم مقاصدها حق الفهم وأراد أن يثمرها فنظم شؤونها وأصدر مجلة كبيرة باسمها كانت من أكبر المجلات الهندية وأرقاها . وهي لاتزال فخرا في اللغة الهندية . ولكنه لما انتخب رئيسا للجمعية بعد اعتزال رئيسها الشيخ محمد علي لم يقدر على استخدام الاعضاء كلهم كما استخدمهم سلفه ، لانه اشتهر بحرية الرأي والاجتهاد في كل شيء ، فخالفه العلماء وظنوا به الظنون ، حتى قال بعضهم أنه دهري ويريد افساد الجمعية . فلم ينجح في عمله هذا كما ينبغى ، ولكنه استطاع تنفيذ كثير من مقاصدها .

وساح في البلاد الاسلامية فى زمن اقامته في الكلية للاستعانة على تاليف تاريخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمطالعة الكتب التي لاتوجد في الهند فكان الكتاب من أحسن الكتب التاريخية على طريقة حديثة وسيكون فخرا له الى الابد . وبعد رجوعه من السفر ذهب الى رستميد فمرض هناك مرضا شديدا ذهب بصحته الجيدة فلم تعد الى الموت .

ومن الحوادث المؤلمات في حياته اصابة رجله بالرصاص . وسبب ذلك انه كان جالسا في حرمه والبندقية في يد زوجة ابنه فسقطت على الارض فاصابت ساقه . وآخر حياته مملوءة بمخالفة العلماء له في الندوة ولكنه مع هذا كله مازال مشغولا بتأليف تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم . وأرسل الي خطابا قبل وفاته بقليل وصف فيه تاثير موت أخيه في نفسه ثم قال : أريد تاسيس دار للمصنفين ودار لتكميل العلوم أدرس فيها بنفسي التفسير والحديث ويدرس فيها غيري من العلماء

الآخرون لعلي أنجح في هذا بعد العجز عن العمل في الندوة التي أضعت وقتي فيها . ولكن جاءت المنية قبل تحقق رجائه . جزاه الله خير الجزاء لاعماله النافعة للمسلمين

ترجمة الشيخ شبلي النعماني

بقلم عبد الرزاق أحد طلبة دار الدعوة والارشاد

كان الشيخ شبلي النعماني من أكبر علماء الهند قدرا وأوسعهم علما وأشدهم غيرة على الدين والامة . خدم المسلمين زمنا طويلا بدون تعب ولا نصب ولا مبالاة بحوادث الدهر . ومن مزاياه الكثيرة انه كان نابغا في علوم عديدة . مجتهدا في الدين والعلوم العقلية . ماهرا في تاريخ الشرق والغرب . أديبا بارعا في اللغة العربية والفارسية ، ينشد الشعر بالفارسية مثل أعظم شعراء العجم . وهو يعد من أئمة اللغة الهندية وأفصح كتابها . له كتب كثيرة جدا في الفلسفة والتاريخ وآداب اللغتين الفارسية والهندية وفي علوم شتى . وآخر كتاب كان يعنى بتأليفه هو « سيرة النبي صلى الله عليه وسلم » ولم يكد يتمم جزءا منه حتى عاجلته منيته وهو ابن خمس وستين سنة تقريبا . هذا الكتاب ليس مثل سائر الكتب التاريخية بل أراد رحمه الله أن يكتب باستقصاء لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من آثار النبي وأقوال المتخرسين(؟) الا أحصاها وبحث فيها بحثا تاريخيا فلسفيا ليس من ورائه بحث . وكان من اهتمامه بالكتاب المذكور أنه قبل الاشتغال فيه أعلن في الجرائد الهندية انه يحتاج الي خمسين ألف روبية (٣٣٢٥ جنيها) ليسافر الى الممالك الاسلامية والافرنجية ويطالع في مكاتبها الكتب المؤلفة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتساءل عمن يساعده بذلك ؟ فأجابت طلبه « أميرة بهوپال » التي اشتهرت بالأعمال الخيرية والعلمية ، غير انها لم تأذنه بالسفر لكبر سنه وما أصابه من العرج بل وعدت بان تطلب له جميع الكتب المحتاج اليها وتعطي ٢٠٠ روبية شهريا لمترجمي الكتب الافرنجية منها (لان الشيخ لم يكن عالما بلغات الغرب) فاشتغل الشيخ بالكتاب ثلاث سنوات وكمل منه جزء واحد كما ذكر آنفاً .

وكان ينتهز الفرص لينفع المسلمين . ومن مآثره أنه نجح في مسئلة الوقف على الاولاد عند الحكومة فاجازته بعد ان كانت أبطلته .

ربما يظن ظان أن هذا الشيخ الجليل كان من متخرجي المدارس العالية ومن أصحاب الشهادات العليا . وليس الامر كذلك . فانه لم يتعلم في مدرسة ما قط بل كان يتلقى بعض العلوم المتروكة القديمة في بيوت بعض العلماء . ولم يكن يعلم شيئا

من أحوال العالم المدني ولـكن علامات الذكاء كانت تنطق على سماه بعظيم مستقبله.
ولما كمل دروسه غير المنظمة انتظم في سلك المعلمين في كليـة على كرة الشهيرة وهنالك ظهر له انه يوجد عالم غير عالمه وعلوم غير الفقه والكلام والفلسفة اليونانية فاخذ يطالع العلوم حتى عد من أكبر علماء الهند . وفي هذه الاثناء ساح في البلاد الاسلامية كلها ليعرف داء المسلمين ودواءه . وبعد رجوعه الى وطنه ابتدأ دوره الذهبي، لانه ترك الوظيفة ولم يعمل شيئا بعد إلا لأصلاح المسلمين. ولهذا الغرض أخـذ على عاتقه مشروع ندوة العلماء ، وهي لم تـكن شيئا يذكر قبله وبهمته العالية ترقت في مدة قصيرة حتي سمع صوتها في العالم المدني وتخرج فيها العلماء والمربون. وكانت له أماني كثيرة حالت منيته دونها اذ وافته بعد ان مرض نصف شهر فسقطت بذلك حلقة كبيرة من سلسلة المصلحين، وانطفأ مصباح الهند، فليحزن على فقده المصلحون والهنود المسلمون ، انا لله وانا اليه راجعون

(المنار) فقدنا الاستاذ النعماني في عهد هذه الحرب التي حرمتنا رؤيته ماعدا جريدة عليكده من جرائد الهند فلم نقف على شيء من تأبينها وترجمتها له . والشيخ حبيب الرحمن الذي كتب تلك النبذة الوجيزة في جريدة عليكده من أهل العـلم والدين ، وحزب المصلحين المعتدلين ، ولـكنه أوجز واختصر حتى انه لم يذكر لنا مصـنفات الشيخ : ولعل أهل مصر وغـيرها من البلاد العربية لايعرفون منها الا رده الوجيز علي كتاب تاريخ التمدن الاسلامي، وما هو الا عجالة جعلها نموذجا لبيان ما أنـكره من ذلك الـكتاب ولم يرد به الاستقصاء . وكنت رأيت له رسالة في الجزية نشرت بعضها في المجلد الاول من المنار وهي تدل على اجتهاده في التاريخ وعلوم الدين . ومن سوء حظ المسـلمين أن يقوم حزب الجمود في وجوه هؤلاء الأفراد من المصلحين كالشيخ النعماني ويحولوا بينهم وبين خدمتهم لملتهم وأمتهم. ويضعف أنصار الاصلاح عن احباط أعمالهم ، ومما يذكر بالاعجاب في ترجمته أنه لم يوجد فى أمراء الهند وعظمائها رجل عرف قيمة هذا الاستاذ الـكبير المصلح كما عرفته أميرة بهوبال فضلى نساء تلك الاقطار وأقيالها

وسننشر في الجزء التالي كلمة وجيزة من صلة المودة بيننا وبين الفقيد وكتابا منه يعلم منه شيء من صلته العلمية الدينية بصاحبة بهوبال أدام الله النفع بها .

السر محمد سلطان آغا خان

زار مصر فى أوائل هذه السنة السر محمد سلطان آغا خان زعيم طائفة الاسماعيلية أقدم طوائف الباطنية بل إمامهم ومعبودهم . جاءها عائدا من لندرة عاصمة انكلترة

حيث يقيم معظم سنته — الى وطنه بمبي أول ثغور الهند حيث يقيم مدة فصل الشتاء عادة . وقد نزل ضيفا على الجنرال غرانفيل مكسويل القائد العام للجيوش البريطانية بمصر فلقي من الحفاوة والاكرام من الحكومة المصرية وكبراء الانكليز مايليق بمقامه ومكانه من ثقة الدولة البريطانية به وإخلاصه في خدمته لها

وقد اجتمعت به في دار (مستر ستورس السكرتير الشرقي لدار الحماية الانكليزية) وتحدثنا أكثر من ساعة فى الشؤون المصرية وأحوال المسلمين في مصر وفي غيرها من الاقطار . وكان أكثر الحديث أسئلة منه وأجوبة مني ، وكنت أحب أن أساله عن أمور فلم يتسع الوقت لذلك ، وتحدثنا بتمني اجتماع آخر فلم يتيسر ولعل من أسباب ذلك كثرة تنقله فى البلاد المصرية وعدم لبثه فى القاهرة بعد ذلك الا قليلا

وقد كان أول حديثه الشكوى من قلة عناية المسلمين بالعلم وسألني عن سبب ذلك فشرحت له رأيي فيه ، ومما ذكرته له فى ذلك أن العلم لايرتقي وترتقي الامم به الا بالعمل ، ولا سيما العلوم الطبيعية والآلية (الميكانية) التي يشعر عقلاء المسلمين بشدة حاجاتهم اليها ، وتوقف مجاراتهم للافرنج عليها ، وان أسبابا سياسية واجتماعية حالت دون السير فى هذه العلوم على الطريقة العملية التي تتوقف على ايجاد المعامل ودور الصناعة فى البلاد ، وان الحكومات هي ذات الشان الأول فى ايجاد ذلك وأكثر حكام المسلمين ليسوا منهم . وأما الحكومات الاسلامية المستقلة فقد كانت الدولة العثمانية والامارة المصرية — وهما أقربهن الى الحضارة — شرعتا فى اقتباس العلوم والفنون الأوربية منذ مئة سنة أو أكثر ، أي قبل شروع اليابان في ذلك ، ولكن حال استمرارها على الطريقة العملية مالا سعة فى الوقت لشرحه فزالت المعامل ودور الصناعة التي شرع فيها محمد علي باشا كما اضمحل ما أنشيء من ذلك في الاستانة مع كون الحاجة اليها أشد والقدرة عليها أتم ، واكتفى الترك والمصريون باقتباس المبادي الناقصة من هذه العلوم والفنون ، وانما يتوسع قليل منهم بما هم أقل حاجة اليه من غيره كالقوانين وتاريخ الامم الاوربية ولغاتها ، مع جهلهم بشريعتهم وتاريخ ملتهم وآدابها ، ولأجل هذا كان ضرر أكثر المتعلمين أكبر من نفعه . ولما كان الطب لايكون الا عمليا كان هو أنفع ما اقتبسناه من العلم الحديث ، ففي مصر والبلاد العثمانية كثير من الاطباء الذين يخدمون البلاد أجل خدمة . وكذلك الهندسة فانها قد أفادت بقدر الحاجة اليها في الاعمال كالري وسكك الحديد فالمهندسون المصريون لايقصرون عن الأوربين الذين يعملون معهم في هذه البلاد

أما حديثنا عن حالة مصر ومسألة الحماية الانكليزية الجديدة فلا يجوز نشره الآن

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب



يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

﴿ قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و« منارا» كمنار الطريق ﴾

مصر ٢٩ جمادى الاولى ١٣٣٣ ٢٣ الحمل (ر ١) ١٢٩٣ هـ ش ١٤ إبريل ١٩١٥

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٩٧) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ . فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٨) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ، أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ ، أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ . عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٩) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ

وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَادُمْتُمْ حُرُمًا. وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

بينا في تفسير الآية (٩٠) ان هذه السورة افتتحت بآيات من أحكام الحلال والحرام في الطعام واحكام النسك (ومنها الصيد في أرض الحرم او في حال الاحرام) وتلاها سياق طويل في بيان أحوال أهل الكتاب ومحاجتهم ، ثم عاد الكلام الى شيء من تفصيل تلك الاحكام الخ ونقول الآن : إن الله جاءت آلاؤه نهى عباده المؤمنين عن تحريم الطيبات وعن الاعتداء فيها وفي غيرها ، وأمرهم بأكل الحلال الطيب ، ولما كان بعض المبالغين في النسك قد حلفوا على ترك بعض الطيبات ، بين لهم بهذه المناسبة كفارة الايمان ، ثم بين لهم تحريم الخمر والميسر لأنهما من أخبث الخبائث ، فكان هذا وذاك متمما لما في أول السورة من أحكام الطعام والشراب . وناسب ان يتمم أحكام الصيد في الحرم والإحرام أيضا : فجاءت هذه الآيات في ذلك

وقال الرازي في مناسبة هذا لما قبله مانصه : ووجه النظم انه تعالى كما قال (لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم) ثم استثنى الخمر والميسر عن ذلك — فكذلك استثنى هذا النوع من الصيد عن المحللات وبين دخوله في المحرمات . اه وما قلناه خير منه وأصح ، وليست الخمر والميسر من الطيبات فيستثنيان منها بل رجس خبيث

﴿ يا ايها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله ايديكم ورماحكم ﴾ الابتلاء الاختبار ، والصيد مصدر أطلق على ما يصطاد من حيوان البحر مطلقا ومن حيوانات البر الوحشية لتؤكل ، وقيل مطلقا فيدخل فيه غير المأكول لحمه الا ما أبيح قتله كما يأتي . وتقدم تفصيل الكلام في الصيد في تفسير أول السورة. وسيأتي في تفسير الآية التالية الخلاف فيما يكفر به المحرم عن صيده . ووصف الصيد بكونه تناله الأيدي والرماح يراد به كثرته وسهولة أخذه ، وامكان الاستخفاء بالتمتع به . وروي عن ابن عباس ومجاهد ان مايؤخذ بالأيدي صغاره وفراخه وبالرماح كباره . وقال مقاتل بن حيان : انزلت هذه الآية في عمرة الحديبية فكانت الوحش

والطير تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا ، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون

ووجه الابتلاء بذلك ان الصيد ألذ الطعام وأطيبه وناهيك باستطابته و بشدة الحاجة اليه في السفر الطويل كالسفر بين الحرمين، وسهولة تناول اللذيذ تغري به، فترك ما لا ينال الا بمشقة لا يدل على التقوى والخوف من الله تعالى كما يدل عليه ترك ما ينال بسهولة ، وقد قيل ان من العصمة ان لا تجد ، وهل يعد ترك الزنا ممن لا يصل اليه الا بسعي و بذل مال وتوقع فضيحة كترك يوسف الصديق له إذ غلقت امرأة العزيز الابواب دونه وقالت : هيت لك ؟

والمعنى يا أيها الذين آمنوا ان الله تعالى يقسم بأنه سيختبركم بارسال شيء كثير من الصيد — أو ببعض من أنواعه — يسهل عليكم أخذ بعضه بأيديكم و بعضه برماحكم

﴿ ليعلم الله من يخافه بالغيب ﴾ أي يبتليكم به وأنتم محرمون ليميز من يخافه غائبا عن نظر الناس غير مراء لهم ولا خائف من انكارهم ، فيترك أخذ شيء من الصيد ، ويختار شظف العيش على لذة اللحم ، خوفا من الله تعالى وطاعة له في سره — أو يخافه حال كونه متلبسا بالايمان بالغيب الذي يقتضي الطاعة في السر، والجهر ، فاذا وقع ذلك منكم علمه الله تعالى لأن علمه يتعلق بالواقع الثابت ، وترتب على علمه به رضاه عنكم واثابتكم عليه ، كما يعلم حال من يعتدي فيه، وقد بين جزاءه في الجملة الآتية فدل ذلك على ما حذف من جزاء من يخافه . والمشهور : ان المراد بمثل هذا التعبير انه تعالى يعاملكم معاملة المختبر الذي يريد ان يعلم الشيء وان كان علام الغيوب ، لان هذا من ضروب تربيته لكم ، وعنايته بتزكيتكم ، وقد تقدم تفسير مثل هذا التعليل بعلم الله تعالى (في ص ٨ ج ٢ وص ١٤٨ ج ٤)

﴿ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم ﴾ أي فمن اعتدى بأخذ شيء من ذلك الصيد بعد ذلك البيان والإعلام الذي اخبركم الله تعالى به قبل وقوعه فله عذاب شديد الالم في الآخرة — قيل وفي الدنيا بالتعزير والضرب — لانه لم يبال باختبار الله له ، بل سجل على نفسه انه لا يخاف الله تعالى بالغيب . ولكنه قد يخاف لوم المؤمنين وتعزيرهم ، اذا هو اخذ شيئا من الصيد بمرأى منهم ، وهذا شأن

المنافقين الذين هم في الدرك الاسفل من النار ، لا شأن المؤمنين الصادقين الابرار ،

﴿ يا ايها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم ﴾ هذا بيان لما يجب على المحرم المعتدي في الصيد من الجزاء والكفارة في الدنيا ، سبق في أول السورة تحريم الصيد على من كان محرما بحج أو عمرة ومن كان في أرض الحرم ، وقد اعاده هنا ليرتب عليه جزاءه . وتقدم هنالك ان الحرم بضمتين جمع حرام وهو المحرم بحج أو عمرة وان كان في الحل

﴿ ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ أي ومن قتل شيئا من الصيد وهو محرم قاصدا لقتله فجزاؤه – او فعليه جزاء – من الانعام مماثل لما قتله في هيئته وصورته ان وجد ، والا ففي قيمته ، وقيل في قيمته مطلقا . وسيأتي تحقيق الخلاف في ذلك . قرأ عاصم وحمزة والكسائي « فجزاء » بالرفع والتنوين ، و « مثل » بالرفع والاضافة لما بعده وهو ظاهر . وقرأ الباقون باضافة جزاء الى مثل ، وهو مخرج على ان مثل الشيء عينه على حد « ليس كمثله شيء » أو هو من قبيل خاتم فضة أي من فضة وأي المعنى فعليه جزاء الذي قتله أي جزاء عنه . وقال الزمخشري : أصله « فجزاء مثل ماقتل » بنصب مثل بمعنى فعليه أن يجزي مثل ماقتل من النعم ، ثم أضيف كما تقول : عجبت من ضرب زيدا ، ثم من ضرب زيد اه

قتل المحرم بحج او عمرة للصيد حرام بالاجماع لنص الآية . ولكن أكل المحرم مما صاده من ليس بمحرم مختلف فيه فقيل يحرم مطلقا عملا بظاهر الآية الآتية وحديث الصعب بن جثامة عند احمد ومسلم وغيرهما . وقيل يجوز مطلقا لما ورد من ان النبي (ص) واصحابه أكلوا مما أهدي اليهم من لحم الحمار الوحشي. والجمهور على جواز الاكل مما يصيده غير المحرم لنفسه ويهدي منه للمحرم ، وهو التحقيق الذي يجمع به بين الروايات كما يدل عليه حديث أبي قتادة في الصحيحين وغيرهما وهو الذي صاد الحمار الوحشي واكل منه النبي (ص) واصحابه في الحديبية

وقد اختلفوا في الصيد الذي نهت الآية عن قتله فقال الشافعي : هو كل حيوان وحشي يؤكل لحمه ، فلا جزاء في قتل الاهلي وما لا يؤكل لحمه من السباع والحشرات،

وهي كثيرة في مذهبه ، ومنها الفواسق الخمس التي ورد الأذن في حديث عائشة في الصحيحين وغيرهما بقتلها في الحل والحرم — وهي الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور . وأخرجاه أيضا من طريق مالك وايوب عن نافع عن ابن عمر . قال أيوب : قلت لنافع فالحية ؟ قال الحية لا شك فيها ولا يختلف في قتلها . وألحق مالك وأحمد وغيرهما بالكلب العقور الذئب والسبع والنمر والفهد لأنها أشد ضررا منه . وقال زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة : الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها . وذهب أبو حنيفة الى وجوب الجزاء في قتل كل حيوان الا الفواسق الخمس وجعل الذئب منها لانه كلب بري . والمراد بالغراب الأبقع الضار لا الاسحم الذي يؤكل فانه صيد . والحاصل ان الحيوانات الضارة التي تقتل اتقاء ضررها ، لا جزاء على المحرم اذا قتلها ، أطلق ذلك بعضهم ، قال الحافظ ابن كثير وقال مالك رحمه الله : لا يقتل الغرابَ الا اذا صال عليه وآذاه ، وقال مجاهد بن جبر وطائفة : لا يقتله بل يرميه ، وروي مثله عن علي كرم الله وجهه . وقد روى هشيم : حدثنا يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي نعم عن أبي سعيد عن النبي (ص) انه سئل عما يقتل المحرم فقال « الحية والعقرب والفويسقة (اي الفأرة) — ويرمي الغراب ولا يقتله — والكلب العقور والحدأة » رواه أبو داود عن احمد بن حنبل والترمذي عن احمد بن منيع كلاهما عن هشيم » ثم ذكر ان الترمذي حسنه .

واختلفوا في اشتراط التعمد لوجوب الجزاء فذهب أكثرهم الى أنه لا يشترط التعمد . وقالوا ان الكتاب دل على جزاء المتعمد وسكت عن جزاء المخطئ ولكن السنة مضت بأن عليه الجزاء أيضا . قاله الزهري

والجمهور على ان المتعمد هو القاصد لقتله مع ذكره لاحرامه وعلمه بحرمة قتل مايقتله . ومنهم من يشترط نسيان الإحرام . ولم نر للجمهور حديثا مرفوعا يدل على تغريم المخطئ ولا رواية صحيحة صريحة في كون ذلك كان من عمل النبي (ص) وخلفائه الراشدين ، الا ما رواه الحكم عن عمر انه كتب بذلك . وروى الشافعي وابن المنذر عن عمرو بن دينار قال : رأيت الناس أجمعين يغرمون في الخطإ ، وما قاله الزهري أصرح منه . ولكن لا يعد مثل هذا من أقوال التابعين دليلا شرعيا.

ويشبه ان يكون قول عمرو بن دينار حكاية للاجماع ، ولكن لا يصح فالخلاف في المسألة مروي عن ابن عباس وطاوس وسعيد بن جبير — كلهم صرحوا باشتراط العمد . وعبارة طاوس : لا يحكم على من أصاب صيدا خطأ إنما يحكم على من أصابه عمدا ، والله ما قال الله الا « ومن قتله منكم متعمدا » وروي عن ابن عباس ومجاهد وابن سيرين اشتراط التعمد للقتل مع نسيان الاحرام . والروايات في الخلاف مفصلة في الدر المنثور . واشتراط العمد مذهب داود الظاهري ، وقد شرح الرازي استدلاله بالآية شرحا يؤذن باختياره له .

وروي عن سعيد بن جبير ما يصح ان يكون بيانا لسبب الخلاف لولا اجمال فيه ، وذلك قوله : إنما كانت الكفارة فيمن قتل الصيد متعمدا ، ولكن غلظ عليهم في الخطإ كي يتقوا . اه ولم يبين من أين جاء التغليظ ، فان صحت الرواية عن عمر انه : كتب أن يحكم عليه في الخطإ والعمد — جاز ان يكون هذا اجتهادا منه في أحوال خاصة لسد ذريعة صيد العمد في حال الاحرام ، كما فعل في امضاء الطلاق الثلاث باللفظ الواحد لمنع الناس منه ، ثم تبعه الجمهور في هذا وذاك من غير بحث في السبب الباعث له على ذلك ومراعاة المصلحة التي أرادها وعدم تعديها . ومن لم يتبعه في ذلك يقول إن اجتهاده ليس شرعا ولا دليلا من أدلة الشرع ، فكيف يؤخذ على علاته فيما كان كمسألتنا من المسائل المنصوصة في القرآن أو التي مضت فيها السنة قبله وفي صدر خلافته كمسألة الطلاق الثلاث ؟ هذا مع علمنا بأنه كان يخطئ فيراجع فيعترف بخطإه ويرجع عنه .

فان قيل ان العلماء المجتهدين قد اتبعوه في ذلك لإقرار الصحابة إياه عليه وعدم معارضتهم له كعادتهم فيما يرونه خطأ — قلنا انه لم يثبت أنه عرض مسألة تغريم من قتل الصيد خطأ على الصحابة وأقروه عليه . وانما قال الحكم انه كتب ، ولم يقل لمن كتب ، والظاهر — ان صح — أنه لبعض عماله ، ويحتمل ان يكون في واقعة حال اقتضت ذلك ، ونص كتابته لم يذكر في الرواية . والحكم الذي روى هذا الاثر هو ابن عتيبة الكندي الكوفي كما يظهر من اطلاق اسمه وهو على توثيق الجماعة له من المدلسين كما قال ابن حبان في الثقات . وقال فيه ابن مهدي : الحكم بن عتيبة ثقة

ثبت ولـكن يختلف معنى حديثه . ولم نقف على رجال السند اليه عند الذين رووا الاثر عنه — وهم ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور — لنعرف درجة روايتهم . وجملة القول ان هذا الاثر ليس بحجة ، وسيأتي ماصح من حكم عمر

بعد كتابة ماتقدم راجعت تفسير شيخ المفسرين ابن جرير الطبري فاذا به قد أورد في رواياته قول من قالوا ان المراد من التعمد في الآية هو العمد لقتل الصيد مع نسيان قاتله لاحرامه حال قتله إياه ، وقول من قالوا انه العمد لقتله مع ذكر قاتله لاحرامه — ولـكنه ذكر في هذه الروايات قول من قالوا بالجزاء في العمد بالـكتاب وفي الخطإ بالسنة أو لسد الذريعة وحفظ حرمات الله أي بالقياس — ثم قال :

« والصواب من القول في ذلك عندنا ان يقال : إن الله تعالى حرم قتل صيد البر على كل محرم في حال احرامه مادام حراما بقوله (ياأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم) ثم بين حكم من قتل ماقتل من ذلك في حال احرامه متعمداً لقتله — ولم يخصص المتعمد قتله في حال نسيانه إحرامه ولا المخطئ في قتله في حال ذكره إحرامه ، بل عم في إيجاب الجزاء على كل قاتل صيد في حال احرامه متعمدا ، وغير جائز إحالة ظاهر التنزيل الى باطن من التأويل لا دلالة عليه من نص كتاب ولا خبر لرسول الله (ص) ولا إجماع عن الامة ، ولا دلالة من بعض هذه الوجوه — فاذا كان كذلك فسواء كان قاتل الصيد من المحرمين عامدا قتله ذاكرا لاحرامه او عامدا قتله ناسيا لاحرامه ، او قاصداً غيره فقتله ذاكرا لاحرامه ، في أن على جميعهم من الجزاء ما قال ربنا تعالى وهو (مثل ما قتل من النعم) الخ »

أقول هذا هو الاستدلال الصحيح البين ولـكن لا يظهر دخول القسم الاخير من التفصيل فيه ، وهو قوله « او قاصداً غيره فقتله ذاكرا لاحرامه » لان هـذا من قتل الخطإ لا العمد الا أن يريد صورة معينة وهي ان يقصد قتل صيد فيصيب صيداً غيره وهو ذاكر لاحرامه ، اذ يصدق عليه انه قصد قتل الصيد باطلاق وأنه منتهك لحرمة الاحرام. ولعل هذا هو المراد ، وأما اذا رمى غرضا لا حيوانا او حيوانا

يباح قتله كالكلب العقور فأصاب سهمه او رصاصه صيدا لم يكن يراه مثلا — فلا جزاء عليه في هـذا بمقتضى الدليل الذي قرره ، وسيأتي ان عمر قال في مثله أنه أشرك فيه العمد بالخطإ

ثم قال ابن جرير : وأما ما يلزم بالخطإ قاتله فقد بينا القول فيـه في كتابنا (كتاب لطيف القول في أحكام الشرائع) بما أغنى عن ذكره في هذا الموضع ، وليس هذا الموضع موضع ذكره ، لان قصدنا في هذا الكتاب الابانة عن تأويل التنزيل ، وليس في التنزيل للخطإ ذكر فنذكر أحكامه . اه

واختلفوا في المثل المراد من الآية فذهب الجمهور الى اعتبار مثل المقتول في خلقه كصورته وفعله ، وذهب ابراهيم النخعي الى اعتبار القيمة وتبعه أبو حنيفة وأبو يوسف. والاول مؤيد بحكم الرسول (ص) وحكم علماء الصحابة . روى أحمد واصحاب السنن الاربعـة وابن حبان والحاكم عن جابر قال : جعل رسول الله (ص) في الضبع يصيبه المحرم كبشا وجعله من الصيد . اي لانه يؤكل لحمه كما ثبت في غير هذا الحديث أيضا . وقد روي مرفوعا وموقوفا. وذكر الترمذي أنه سأل البخاري عن هذا الحديث فصححه . ورواه الدارقطني عن الاجلح بن عبد الله عن أبي الزبير عن جابر عن النبي (ص) قال « في الضبع اذا أصابه المحرم كبش وفي الظبي شاة وفي الارنب عناق وفي اليربوع جفرة » قال والجفرة التي قد ارتعت . والاجلح هـذا قال أبو حاتم لا يحتج بحديثه ووثقه يحيى بن معين وقال ابن عدي صدوق . وقال الحافظ في تقريب التهذيب : صدوق شيعي من السابعـة . فاعتمد توثيقه . وقال الشوكاني في نيل الاوطـار : وحديث جابر أخرجه البيهقي وأبو يعلى وقالا : عن عن عمر رفعـه . وأما الدارقطني فرواه من طريق ابراهيم الصائغ عن عطاء عن جابر يرفعـه وكذلك الحاكم ، ورواه الشافعي عن مالك عن أبي الزبير موقوفا على جابر وصحح وقفه الدارقطني من هـذا الوجه . وقال السيوطي في الدر المنثور : وأخرج ابن أبي شيبـة والحاكم وصححه عن جابر قال قال رسول الله (ص) « الضبع صيد فاذا أصابه المحرم ففيه جزاء كبش مسن وتؤكل»

أقول والحديث يدل على اعتبـار السن في المماثلة فالعنز بالتحريك انثى المعز

كالنعجة من الضأن ، والعناق (بالفتح) الانثى من ولد المعز قبل استكمالها السنة — والجفرة بفتح الجيم الانثى من ولد الضأن التي بلغت أربعة أشهر .

﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ اى يحكم بالجزاء من النعم ، وكونه مثل المقتول من الصيد ، رجلان من أهل العدالة والمعرفة منكم أيها المؤمنون ، ووجه الحاجة الى الى حكم العدلين ان المماثلة بين النعم وهي الابل والبقر والغنم بأنواعها — و بين الصيد الوحشي وأنواعه كثيرة مما يخفى على أكثر الناس . قال ابن جرير : ووجه حكم العدلين اذا أرادا ان يحكما بمثل المقتول من الصيد من النعم على القاتل ان ينظرا الى المقتول أو يستوصفاه فان ذكر انه أصاب ظبيا صغيرا حكما عليه من ولد الضأن بنظير ذلك الذي قتله في السن والجسم ، فان كان الذي أصاب من ذلك كبيرا حكما عليه من الضأن بكبير — وان كان الذي أصاب حمار وحش حكما عليه ببقرة ، ان كان الذي أصاب كبيرا فكبيرا من البقر وان كان صغيرا فصغيرا ، وان كان المقتول ذكرا فمثله من ذكور البقر ، وان كان أنثى فمثله من البقر أنثى . ثم أورد من الشواهد على ذلك ماحكم به عمر وعبد الرحمن بن عوف على اللذين قتلا الظبي وقد رواها من عدة طرق ولا يبعد ان تكون القصة متعددة ، وقد حكما بشاة ، وسيأتي

وأما مالا مثل له من النعم بوجه من وجوه الشبه فيحكم العدلان فيه بالقيمة . قال الحافظ ابن كثير : وأما قوله « فجزاء مثل ماقتل من النعم » حكى ابن جرير ان ابن مسعود قرأ: « فجزاؤه مثل ماقتل من النعم » (* وفي قوله « فجزاء مثل ماقتل من النعم » على كل من القراءتين دليل لما ذهب اليه مالك والشافعي واحمد والجمهور من وجوب الجزاء في مثل ماقتله المحرم اذا كان له مثل من الحيوان الانسي خلافا لابي حنيفة رحمه الله حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثليا أو غير مثلي . قال وهو مخير ان شاء تصدق بقيمته وان شاء اشترى به هديا . والذي حكم به الصحابة في المثلي أولى بالاتباع ، فانهم حكموا في النعامة ببدنة وفي بقرة الوحش ببقرة وفي الغزال بعنز. وذكر قضايا الصحابة وأسانيدها مقرر في كتاب الاحكام. وأما اذا لم يكن الصيد مثليا فقد حكم ابن عباس فيه بثمنه يحمل الى مكة . رواه البيهقي

*) لم تثبت هذه القراءة بالتواتر فلعله قال الجملة على طريقة التفسير فظنها السامع قراءة

ثم قال وقوله تعالى : « يحكم به ذوا عدل منكم » يعني انه يحكم بالجزاء بالمثل أو بالقيمة في غير المثلي عدلان من المسلمين . واختلف العلماء في القاتل هل يجوز أن يكون أحد الحكمين على قولين (أحدهما) لا، لانه قد يتوهم في حكمه على نفسه وهذا مذهب مالك (والثاني) نعم، لعموم الآية وهو مذهب الشافعي واحمد . واحتج الاولون بأن الحاكم لا يكون محكوما عليه في صورة واحدة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين حدثنا جعفر هو ابن برقان عن ميمون بن مهران ان اعرابيا أتى أبا بكر فقال: قتلت صيدا وأنا محرم فما ترى علي من الجزاء ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه لأبيّ بن كعب وهو جالس عنده: ما ترى فيما قال الاعرابي؟ فقال الاعرابي أتيتك وأنت خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أسألك وأنت تسأل غيرك ؟ فقال أبو بكر وماتنكر ؟ يقول الله تعالى (فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم) فشاورت صاحبي اذا اتفقنا على أمر أمرناك به . وهذا اسناد جيد لكنه منقطع بين ميمون والصدّيق . ومثله يحتمل ههنا. فبين له الصديق الحكم برفق وتؤدة لما رآه أعرابيا جاهلا وانما دواء الجهل التعليم. فاما اذا كان المعترض منسوبا الى العلم فقد قال ابن جرير : حدثنا هناد وأبو هشام الرفاعي قالا حدثنا وكيع بن الجراح عن المسعودي عن عبد الملك بن عمير عن قبيصة بن جابر قال : خرجنا حجاجا فكنا اذا صلينا الغداة أقدنا رواحلنا فنتماشى نتحدث ، قال فبينما نحن ذات غداة اذ سنح لنا ظبي أو برح ، فرماه رجل كان معنا بحجر فما أخطأ حشاه. فركب وودعه ميتا ، قال فعظمنا عليه، فلما قدمنا مكة خرجت معه حتى أتينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقص عليه القصة ، قال والى جنبه رجل كأن وجهه قلب فضة. يعني عبد الرحمن بن عوف . فالتفت عمر الى صاحبه فكلمه، قال ثم أقبل على الرجل فقال أعمدا قتلته أم خطأ ؟ فقال الرجل لقد تعمدت رميه وما أردت قتله، فقال عمر: ما أراك الا أشركت بين العمد والخطإ، اعمد الى شاة فاذبحها وتصدق بلحمها وانتفع باهابها . قال فقمنا من عنده فقلت لصاحبي أيها الرجل عظم شعائر الله فما درى أمير المؤمنين مايفتيك حتى سأل صاحبه ، اعمد الى ناقتك فانحرها

فلعل ذلك، يعني أن يجزئ عنك[1] قال قبيصة : ولا أذكر الآية من سورة المائدة «يحكم به ذوا عدل منكم» فبلغ عمر مقالتي فلم يفجأنا منه الا ومعه الدرة قال فعلا صاحبي ضربا بالدرة[2] أقتلت في الحرم وسفهت فى الحكم[3] قال ثم أقبل علي، فقلت يا أمير المؤمنين : لا أحل اليوم شيئا يحرم عليك مني. فقال ياقبيصة بن جابر اني أراك شاب السن، فسيح الصدر، بين اللسان، وان الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيء فيفسد الخلق السيء الاخلاق الحسنة ، فاياك وعثرات الشباب . ثم ذكر ابن كثير طرقا أخرى لأثر قبيصة. ثم نقل عن ابن جرير الطبري ان ابن جرير البجلي قال : أصبت ظبيا وأنا محرم فذكرت ذلك لعمر فقال ائت رجلين من اخوانك فليحكما عليك فأتيت عبد الرحمن وسعدا فحكما علي بتيس أعفر . ثم نقل عنه ايضا ان رجلا رمى ظبيا فقتله وهو محرم فأتى عمر ليحكم عليه فقال له عمر: احكم معي. فحكما فيه بجدي قد جمع الماء والشجر . ثم قال عمر (يحكم به ذوا عدل منكم) قال ابن كثير : وفي هذا دلالة على جواز ان يكون القاتل أحد الحكمين كما قاله الشافعي واحمد رحمهما الله تعالى

(ثم قال) واختلفوا هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم فيجب ان يحكم فيه ذوا عدل وان كان قد حكم من قبله الصحابة؟ يرجع فيه الى عدلين؟[4] وقال مالك وأبو حنيفة بل يجب الحكم في كل فرد فرد سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا

---

(١) هذا التفسير من الحافظ ابن كثير يفيد ان الرواية « فلعل ذلك » بحذف خبر لعل وهي كذلك فى الدر المنثور . وفى نسخة ابن جرير المطبوعة بالمطبعة الميمنية « ففعل ذلك » وهذه الطبعة كثيرة الغلط

(٢) سقط من هنا قوله «وجعل يقول» كما فى تفسير ابن جرير . او « وهو يقول » كما فى الدر المنثور

(٣) وفى ابن جرير « وسفهت الحكم » وعبارة الدر المنثور « اقتلت الصيد فى الحرم وسفهت الفتيا »

(٤) فى العبارة تحريف وسقط ويقرب ان يكون الاصل: فقال الجمهور ماحكم فيه الصحابة لايرجع فيه الى عدلين - اي بل يعمل بحكمهم

وقداستدل الحنفية بتحكيم العدلين على كون المراد بالمثل القيمة قالوا لأن التقويم هو الذي يحتاج الى النظر والاجتهاد دون المماثلة . والظاهر خلاف ذلك لان قيم هذه الاشياء مما يعرفه كل الناس في الغالب ، وانما يحتاج الى الاجتهاد والنظر في دقائق المشابهة بين الحيوانات الوحشية على كثرتها واختلاف صورها وطباعها وبين الانعام على قلتها وتقارب صفاتها . ومال الآلوسي الى جعل كل من القولين محتاجا الى هذا الاجتهاد من الحـكمين ، جمعا بين مذهبه الاول ومذهبه الثاني ، إذ كان من فقهاء الشافعية،ثم صار مفتي الحنفية .

أما قوله تعالى ﴿ هديا بالغ الـكعبة ﴾ فمعناه أن ذلك الجزاء الواجب على قاتل الصيد يجب ان يكون هديا يصل الى الـكعبة و يذبح هنالك أي في جوارها حيث تؤدى المناسك ويفرق لحمه على مساكين الحرم . وقد تقدم في أول تفسير الآية الثانية من السورة ان الهدي لايكون الا من الانعام فهو يؤيد ماذهب اليه الجمهور من كون المماثلة في الجزاء انما تعتبر في الصفات والهيئات . وكلمة (هديا) حال من (جزاء) بنـاء على انه خبر ، أو من الضمير في قوله (يحكم به) أو منصوب على المصدر أي يهدى هديا

﴿ أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ﴾ قرأنافع وابن عامر بإضافة « كفارة » الى « طعام »أي كفارة طعام لا كفارة هدي ولاصيام،والباقون بتنوين كفارة . أي فعـلى من قتل الصيد وهو محرم معتمدا جزاء من النعم ممـاثل له أو كفارة طعام مساكين أو مايعادل ذلك الطعام من الصيام . والعدل بالفتح المعادل للشيء المساوي له مما يدرك بالبصيرة والعقل كالعدل في الاحكام ، وبالـكسر المعادل والمساوي مما يدرك بالحس كالغرارتين من الاحمال على جانبي البعير يسمى كل منهما عدلا ، هذا معنى ماقاله الراغب . وقال الزمخشري بعـد ذكر القراءة الشاذة بالـكسر : والفرق بينهما ان عدل الشيء ماعادله من غير جنسه كالصوم والاطعام، وعدله ماعدل به في المقدار ، ومنه عدلا الحمل لان كل منهما عدل بالآخر حتى اعتدلا ، كأن المفتوح تسمية بالمصدر ، والمـكسور بمعنى المفعول به كالذبح ونحوه، ونحوهما الحمل والحمل . وهذا القول هو المروي عن أئمة اللغة

وهذه الانواع الثلاثة هي التي ذكرت في فدية الحلق بقوله تعالى (٢ : ١٩٦ فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) فالنسك هناك بمعنى الهدي هنا، وقد ثبت في الصحيح ان النبي (ص) أمر كعب بن عجرة بحلق رأسه لما آذته القمل وان يطعم ستة مساكين أو يهدي شاة أو يصوم ثلاثة أيام . فعلم بذلك أن صيام اليوم الواحد يعـدل اطعام مسكينين . وان اطعام ستة مساكين وصيام ثلاثة أيام يعدل ذبح شاة في النسك، فان قيل ان هذا مخالف لجعل صيام ثلاثة أيام معادلة لإطعام عشرة مساكين في كفارة اليمين — قلنا ان الصيام في كفارة اليمين لم يجعل مساويا للاطعام بل تخفيفا على من لم يستطع الاطعام والا لخير بينهما . وقد علم من كفارة الظهار ان صيام شهرين أعظم من اطعام ستين مسكينا، اذ فرض الاطعام ، على من لم يستطع الصيام ، وهي على الترتيب لا التخيير . وفي حديث أبي هريرة المتفق عليه جعل كفارة المجامع في نهار رمضان ككفارة الظهار

والمروي عن ابن عباس في تفسير الآية موافق لما أمر به النبي (ص) كعب ابن عجرة في المعادلة والتقدير ، ولـكنه جعل الثلاثة هنا على الترتيب لا التخيير ،

وكذلك قال مجاهد والسدي بالترتيب في الثلاثة ، وعن مجاهد رواية أخرى بأنها على التخيير وهو يرويها عن ابن عباس . وعلى هذا القول جمهور الفقهاء ومنهم أبو حنيفة وصاحباه ومالك والشافعي وأحمد في إحدى الروايتين عنهما .

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس انه قال : اذا قتل المحرم شيئا من الصيد فعليه فيه الجزاء ، فان قتل ظبيا أو نحوه فعليه ذبح شاة تذبح بمكة ، فإن لم يجد فاطعام ستة مساكين، فان لم يجد فصيام ثلاثة أيام . فان قتل أيلا أو نحوه فعليه بقرة ، فان لم يجدها صام عشرين يوما . وان قتل نعامـة أو حمار وحش أو نحوه فعليه بَدَنة من الابل ، فان لم يجد أطعم ثلاثين مسكينا [1] فان لم يجد صام ثلاثين يوما . والطعام مد مد يشبعهم

وروى ابن جرير عن ابن عباس أيضا انه قال : اذا أصاب المحرم الصيد حكم

(١) هكذا وجدنا الرواية في تفسير ابن جرير وابن كثير والقياس ان تكون العبارة : ستين مسكينا ، والا فهي على غير القياس

عليه جزاؤه من النعم فان وجد جزاءه ذبحه فتصدق به ، وان يجد جزاءه قوم الجزاء دراهم ثم قومت الدراهم حنطة ثم صام مكان كل صاع يوما .

ثم ذكر في رواية أخرى عنه انه قال : فان لم يجد جزاء قوم عليه الجزاء طعاما ثم صام لكل صاع يومين . والظاهر ان رواية صيام يوم عن كل صاع مبنية على القول بأن يطعم كل مسكين نصف صاع أي مدين وهو المروي عن تلميذه مجاهد — وان رواية صيام يومين عن كل صاع مبنيـة على القول بأن يُطعم كل مسكين مد واحد كما سبق في الرواية الاولى عنه .

واختار ابن جرير ان كل مسكين يطعم مدا . وعليـه علماء الحجاز كمالك والشافعي . وأبو حنيفة وأصحابه يوجبون مدين لكل مسكين . وقال احمد مد من حنطة ، ومدان من غيره . وقد أطال الشافعي في بيـان التفرقة بين كفارة الصيد وفدية الاذى وتكلم في سائر الكفارات واثبت بدقائق القياس التي لا يغوص عليها الامثله ان صيام يوم يعدل طعام مد . وقد عقد الربيع بابا خاصا لهذه المسألة في الام كما أطال في جميع فروع هذه المسائل ، مقرونة بالشواهد والدلائل .

وذهب الجمهور الى أن التقويم يكون في المكان الذي قتل فيه الصيد وقيل بل يقوّم بمكة حيث تكون الكفارة وهو مروي عن الشعبي . وذهب الجمهور القـائلون بالتخيير بين الثلاثة الى ان المخير بينها هو قاتل الصيد . وقيل بل التخيير للحكمين ، وحكى هذا عن محمد بن الحسن

واختلفوا في مكان الاطعـام فقال بعضهم مكانه مكان الهدي اي مكة لانه بدله وقال آخرون بل هو مخير فيه

﴿ليذوق وبال أمره﴾ هذا تعليل لايجاب الجزاء . وفسر الوبال بسوء العاقبة وهو من الوبل والوابل الذي هو المطر الثقيل . قال الراغب ولمراعاة الثقل قيـل للامر الذي يخاف ضرره وبال . ويقال طعام وبيل . والذوق مستعمل في الادراك العام ، غير خاص بادراك اللسان ، وقد استعمله القرآن في ادراك ألم العذاب والوبال ولم يستعمله في ادراك الطعوم الا في قوله تعالى (فلما ذاقا الشجرة) وفي قوله (لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا الا حميما وغساقا) وكل استعماله فيما يكره ويذم .

ولا شك في أن الجزاء والعقوبة من أثقل الاشياء وأشقها على الناس سواء كانت مالية أو بدنية

﴿ عفا الله عما سلف ﴾ اي لا يؤاخذكم الله تعالى بما سلف قبل التحريم أو قبل الجزاء وقيل عما سلف في الجاهلية لان الاسلام يجبّ ما قبله ويطهر نفس صاحبه من الادران السابقة فلا يبقي لها أثرا في النفس تترتب عليه مؤاخذة

﴿ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام﴾ أي ومن عاد الى قتل الصيد بعد تحريمه وايجاب الجزاء والكفارة عليه - أو من عاد الى قتله مرة ثانية بعد ان كفر عنه في المرة الاولى — فان الله ينتقم منه في الآخرة، لان الجزاء في الدنيا لم يزعه ولم يزجره عن الاصرار على المخالفة . والله عزيز أي غالب على أمره فلا يغلبه العاصي ، ذو انتقام ممن أصر على الذنب . والانتقام المبالغة في العقوبة . وظاهر الآية ان الجزاء في الدنيا انما يمنع العقاب في الآخرة اذا لم يتكرر الذنب ، فان تكرر استحق صاحبه الجزاء في الدنيا والعقاب في الآخرة ، وبهذا قال الجمهور . وروي عن سعيد بن جبير وعطاء ان الانتقام هنا هو الكفارة . وهو خلاف الظاهر . وروي عن ابن عباس ان من قتل شيئا من الصيد خطأ وهو محرم يحكم عليه فيه كلما قتله ، فان قتل عمدا يحكم عليه مرة واحدة فان عاد يقال له : ينتقم الله منك، كما قال الله عز وجل . والمراد انه لا تجتمع عليه عقوبتا الدنيا والآخرة ، وبهذا قال شريح ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن البصري وابراهيم النخعي كما رواه ابن جرير

﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة﴾ المراد بالبحر الماء الكثير المستبحر الذي يوجد فيه السمك وغيره من الحيوانات المائية التي تصاد فيدخل فيه الانهار والآبار والبرك ونحوها . وصيد البحر ما يصطاد منه مما يعيش فيه عادة وان أمكن ان يعيش خارجه قليلا او كثيرا كالسرطان والسلحفاء . وقيل هو ما لا يعيش الا فيه . وطير الماء ليس منه فيما يظهر على القولين لانه ليس من الحيوانات المائية وانما يلازم الماء ليصيد طعامه منه . قال الشافعي في الام بعد بيان معنى البحر بمعنى ما تقدم: ومن خوطب باحلال صيد البحر وطعامه عقل انه انما أحل له ما يعيش في البحر من ذلك وانه أحل كل ما يعيش في مائه لانه صيده . وطعامه عندنا

ما ألقي وطفا عليه والله أعلم ، ولا أعلم الآية تحتمل الا هذا المعنى . او يكون طعامه في دواب تعيش فيه فتؤخذ بالايدي من غير تكلف كتكلف صيده، فكان هذا داخلا في ظاهر جملة الآية والله أعلم اه .

وعن أبي هريرة ان النبي (ص) قرأ الآية وقال « ما لفظه ميتا فهو طعامه» رواه ابن جرير عنه. وروى مثله عن أبي بكر وعمر وابن عباس، وذكر ان أبا بكر قاله على المنبر . وفي لفظ لابن عباس : ماقذف به ميتا . وقال جابر بن عبد الله : ما حسر عنه. وعن أبي أيوب : مالفظ البحر فهوطعامه وان كان ميتا. فهؤلاء يرون ان المراد بطعامه في الآية ما لاعمل للانسان ولا كلفة في اصطياده كالذي يطفو على وجهه والذي يقذف به الى الساحل والذي ينحسر عنه الماء في وقت الجزر أو لاسباب أخرى،لا فرق بين حيه وميته . وعن ابن عباس في رواية أخرى قال: صيده الطري وطعامه المالح للمسافر والمقيم .وأخذ بهذا بعض العلماء. ولولاهذه الروايات لكان المتبادر من الآية عندي — أحل لكم أن تصطادوا من البحر وان تأكلوا الطعام المتخذ من حيوانه سواء صدتموه أنتم أوصاده لكم غيره أو ألقاه البحر اليكم. وسواء كنتم حلالا أو محرمين. وأما قوله «متاعا» فمعناه لاجل تمتيعكم به او متعكم الله به متاعا حسنا . والسيارة جماعة المسافرين يتزودون منه ، فهو متاع للمقيم والمسافر

﴿ وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما ﴾ هذا أعم من تحريم قتل الصيد فانه يشمل أخذه من غير قتل . وقيل يشمل أكله وان صاده غير المحرم مطلقا ، والتحقيق التفصيل ، فما صاده غير المحرم لاجل المحرم او باعانته او اذنه لا يحل للمحرم الاكل منه ، وما صاده غير المحرم لنفسه او لمثله ثم أهدي منه للمحرم فهو حل له . وقد قلنا في تفسير الآية السابقة ان هذا ما يجمع به بين الروايات . وفيه أنه تخصيص للكتاب بأخبار الآحاد. وقد أجازه الجمهور ومنعه بعض الحنابلة مطلقا . ولبعض العلماء تفصيل فيه لا محل لذكره هنا

روى احمد والشيخان عن أبي قتادة قال : كنت يوما جالسا مع رجال من أصحاب النبي (ص) في منزل في طريق مكة ورسول الله (ص) امامنا والقوم محرمون وانا غير محرم عام الحديبية ، فأبصروا حمارا وحشيا وأنا مشغول اخصف

نعلي فلم يؤذنوني وأحبوا لو أني أبصرته ، فالتفت فأبصرته فقمت الى الفرس فأسرجته ثم ركبت ونسيت السوط والرمح ، فقالوا : والله لانعينك عليه . فغضبت فنزلت فأخذتهما ثم ركبت فشددت على الحمـار فعقرته ثم جئت به وقد مات ، فوقعوا فيه يأكلونه ، ثم إنهم شكوا في أكلهم اياه وهم حرم ، فرحنا وخبأت العضد معي فأدركنا رسول الله (ص) فسألناه عن ذلك فقال « هل معكم منه شيء؟ » فقلت نعم . فناولته العضد فأكلها وهو محرم . وفي رواية لهم « هو حلال فكلوه » وفي رواية لمسلم « هل أشار اليه انسان او أمره بشيء ؟ » قالوا : لا . قال « فكلوه » ولفظ البخاري « هل اشار اليه أحد ان يحمل عليها أو أشار اليها ؟ » قالوا لا . قال « فكلوا ما بقي من لحمهـا » ورواية التأنيث مبنية على أن ماصاده ابو قتادة كان أتانا لاحمارا . ففي راية البخاري : فرأينا حمر وحش فحمل عليها أبو قتادة فعقر منها أتانا الخ وهذا هو الصواب الا ان تكون الواقعة متعددة خلط الرواة بعضها ببعض .

وفي رواية لأحمد وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وابن خزيمة أن أبا قتادة قال للنبي (ص) : وإني انما صدته لك . فأمر أصحابه فأكلوا ولم يأكل . وسنده جيد وقد استغربوا هذه الزيادة وشكوا في كونها محفوظة، لمخالفتها رواية الصحيحين، وحاول بعضهم الجمع بكونه أكل قبل ان يخبره بأنه اصطاده له وامتنع بعد العلم بذلك. وهو تكلف ظاهر ، ولا يظهر الجمع الا اذا ثبت أو احتمل تعدد الواقعة . وفي هذه الرواية شذوذ آخر وهو ان أباقتادة قال: خرجت مع رسول الله (ص) زمن الحديبية فأحرم أصحابي ولم أحرم فرأيت حمارا فحملت عليه فاصطدته فذكرت شأنه لرسول الله (ص) وذكرت اني لم أكن أحرمت واني انما اصطدته لك الخ ماتقدم. واستشكلوه بانه كيف جاز ان يترك الاحرام وهو معهم. والصواب كما قال ابن عبد البر ان النبي (ص) كان وجهه على طريق البحر مخافة العدو فلذلك لم يكن محرما . فعلى هذا لا يكون لتعبيره عن خروجه وعدم إحرامه هنا وجه ظاهر .

وروى احمد والشيخان عن الصعب بن جثامة انه أهدى الى رسول الله (ص) حمارا وحشيا وهو بالأبواء أو بوَدّان (كلاهما في طريق مكة) فرده عليه . فلما

رأى ما في وجهه قال «انا لم نردّه عليك الا أنا حُرُم»
وروى الشافعي وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم من حديث جابر ان النبي (ص) قال «صيد البر لكم حلال مالم تصيدوه أو يُصد لكم» وله طرق لايخلو واحد منهامن علة. قال الشافعي هذا أحسن حديث روي في هذا الباب وأقيس

﴿ واتقوا الله الذي اليه تحشرون ﴾ فلا تحلوا ما حرمه عليكم من الصيد وغيره مخافة ان يعاقبكم يوم تحشرون اي تجمعون وتساقون اليه يوم الحساب

فتاوى المنار

افتتحنا هذا الباب لاجابة أسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة. وينبغي للسائل أن يبين اسمه ولقبه و بلده وعمله (وظيفته) وله بعدذلك أن يرمز الى اسمه بالحروف او يعبر بماشاء من الألقاب ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخراً لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما أجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران أو ثلاثة أن يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

(صدق به وصدق له)

(س ١) من صاحب الامضاء مدير مجلة الأديان في بنجاب بالهند

سيدي العزيز!

كتبت في أحد أعداد المنار (كاسمعت) أن هناك فرقا بين قولنا «صدق له» «وصدق به» وقلت أن الاخير يفيد معنى التحقق والامضاء، والاول يفيد معنى الإتمام (أي تحقق مضمون الشيء) وما استعمله القرآن بالنسبة الى التوراة والانجيل هوالتعبير الاول. وهذا التفسير هو الجدير بالاعتبار ويحل الاشكال الذي بين المسلمين والنصارى في مسألة شهادة القرآن لكتبهم. واني أعد لكم فضلا كبيرا

علي اذا أقمتم لي الدليل على صحة هذا الفرق بين العبارتين حتى يتيسر للانسان ان يقتبسه كلما قام جدال بيننا وبينهم في هذه المسألة وأملي ان تبادروا بالجواب

عبدكم (؟) المخلص
شرالي
مدير مجلة الاديان

(ج) إن ما أشرتم اليه من التفرقة بين صدق به وصدق له وقع في رسالة الدكتور محمد توفيق صدقي لا في كلام المنار. وما ينشر في المنار لغيرنا لا يصح أن نطالب بالدليل عليه بل نسئل عن رأينا فيه. والذي يؤخذ من استعمال القرآن لكلمة التصديق وما اشتق منها ومن استعمال العرب هو ان «صدّق» فعل يتعدى بنفسه كما قال تعالى (٣٧:٣٧ بل جاء بالحق وصدّق المرسلين) وأن التصديق يكون بالقول كقولك: صدّق فلان فيما أخبر به. ويكون بالفعل، ومثاله أن تقول: ان فلانا سيفعل كذا، او يقول كيت وكيت – فيفعل ذلك الفعل او يقول ذلك القول، فهذا يسمى تصديقا لما قلته عنه، سواء أراد به ذلك أم لا، كل جائز في اللغة مستعمل فيها .
فتصديق نبينا صلى الله عليه وآله وسلم للمرسلين عليهم السلام ولكتبهم يصح فيه الوجهان – يصح أن يراد به إخباره بصدقهم فيما بلغوه عن الله تعالى، وان يراد به ان بعثته وصفاته وأفعاله دلت على صدقهم في البشارة به، وبكل من القولين قال أهل التفسير المأثور والمعقول، والقرائن ترجح أحدهما على الآخر في المواضع المختلفة
ولم يرد صدّق متعديا باللام فيما نعلم. اما مثل قوله تعالى (٢ : ٤١ وآمنوا بما انزلت مصدقا لما معكم) وقوله (٢:٩١ وهو الحق مصدقا لما معهم) فاللام فيه للتقوية لا للتعدية، وهو بمعنى قوله (٦:٩٢ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه) ومعنى ذلك أنه دال على صدق تلك الكتب فيما بشرت به من بعثة النبي (ص) او ناطق بصدق أولئك المرسلين فيما جاؤا به عن الله تعالى . فان أريد بالتصديق القولي منه فهو لا ينافي ما أثبته في آيات أخرى من تحريف القوم لبعض تلك الكتب الصادقة ونسيانهم حظا منها. ومثاله ان يقول قائل لقوم ان فلانا المؤرخ صادق وان ما كتبه لكم من تاريخكم أو تاريخ كذا صحيح، ولكنكم نسيتم بعض ما جاءكم

به فلم تحفظوه ، وحرفتم بعض كلمه فلم تبينوه ولم تستبينوه . هذا هو التحقيق في تفسير الآيات الواردة في هذه المسألة . وقد فصلنا القول فيها في مواضعهامن التفسير وأيدناه بالدليل

واما قولهم : صدق بكذا أو بفلان ، — فهو ليس من التصديق الذي معناه مجرد إثبات الصدق بالقول أو الفعل ، فان التصديق بمعنى اثبات الصدق يتعلق بالاقوال لا بالاشخاص والاشياء، فاذا اسند الى الاشخاص فانما يسند اليهم باعتبار مضاف محذوف ، « فمعنى صدق المرسلين » صدق أقوالهم . فاذا عدي التصديق بالباء كان متضمنا لمعنى الايمان فكان تصديق اعتقاد محله القلب ، فالتصديق بالنبي هو الايمان بنبوته لا قولك بلسانك إنه صادق ؛ ولا فعلك فعلا يدل على صدق كلام قاله. وأما تصديقه فيشمل هذا وذاك . والمصدق باللسان قد يكون غير مصدق بالقلب . وحقيقة معنى تضمين فعل معنى آخر هو أن تضم معناه الى معنى الفعل الاصلي بتعديته الى ما يتعدى اليه لكي يدل على معناه أولا و بالذات.وتبقى دلالته على معناه الاصلي مرادة ولو على سبيل اللزوم والاكمال. كقوله تعالى(ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم)أي لا تأكلوها بضمها الى أموالكم لتكون ربحا لكم ككسبكم. وهذا لا ينافي الاكل منها بمخالطة اليتيم وإشراكه مع الوصي في المعيشة مع اتقاء الوصي قصد الربح منه ، كما أنه لا ينافي ضمها الى أمواله لحفظها معها لليتيم لا لنفسه

وقد استعمل التصديق في القرآن متعديا بالباء في أربعة مواضع —١— قوله تعالى حكاية لبشارة الملائكة لزكريا (٣ : ٣٩ ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله) — ٢ — قوله تعالى (٣٩ : ٣٢ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) — ٣ —قوله (٦٦ : ١٢ وصدّقت بكلمات ربها وكتبه) أي السيدة مريم عليها السلام — ٤ —قوله (٩٢ : ٥ وصدّق بالحسنى) فكل موضع من هذه المواضع يراد بالتصديق فيه الايمان المستلزم للتصديق الاساني . والحسنى صفة لمحذوف قيل هو كلمة التوحيد ، واختار شيخنا انه الشريعة والملة

والايمان يتعدى بنفسه بالباء واذا تعدى باللام كان متضمنا لمعنى الاتباع كما لا يخفى على من استقرأ استعماله في الكتاب العزيز وكلام فصحاء العرب والله أعلم

أول الخلق وكونه نور النبي (ص)   (تأخر كثيرا)

(س ٢) من صاحب الامضاء في الجامع الازهر

فضيلة الاستاذ ! بعد تقديم اللائق بمقامكم أعرض على حضرتكم مسألة طالما تكررت على مسامعنا ولم نفقه لهامعنى وسألت عنها بعض مشايخي بالازهر فأجابوا بأنها من مواقف العقول فأرجو من فضيلتكم الشرح عنها

سمعنا أن الاشياء خلقت من نوره صلى الله عليه وسلم ، وأنه موجود قبل الكائنات. فما معنى النور الذي خلقت منه الكائنات، وكيف يقبل القسمة مع أنه من المكيفات ؟ وكيف يكون النبي أولا وآخرا ؟ أجيبوا لازلتم للدين منارا

كاتبه احمد مصطفى النسقى

(ج) مايذكر في الموالد وبعض الكتب من كون أول الخلق نور النبي (ص) لايصح منه شيء، فما ينبى عليه من الاشكال ساقط يصدق عليه ماقلناه في الامر الثاني من جواب السؤال عن عدد صفات الله تعالى وعلمه بها (في ص ٧٣٩ م ١٧) . وتجدون البحث في مسألتكم مفصلا في (ص ٨٦٥ - ٨٦٩) من مجلد المنار الثامن

﴿ كتاب الجفر . وحديث الاستعاذة من الحور بعد الكور ﴾

(س ٣ و ٤) من صاحب الامضاء في جهة أبي كبير « الشرقية »

حضرة السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار المنير

السلام عليكم ورحمة الله. وبعد فنرجو اولا التكرم بافادتنا عن كتاب الجفر المنسوب للامام علي كرم الله وجهه هل هو صحيح أو باطل وما هي أدلة المثبتين وما هي أدلة النافين وما هو رأيكم الخاص

ثانيا ما معنى قوله صلى الله عليه وسلم « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » هذا وتنازلوا بقبول فائق احترامي   ابو هاشم علي قريط

«ج » أما كتاب الجفر فلا يعرف له سند الى امير المؤمنين وليس على النافي دليل وانما يطلب الدليل من مدعي الشيء ولا دليل لمدعي هذا الجفر

واما معنى الحديث فقد قال ابن الاثير في النهاية : « نعوذ بالله من الحور بعد الكور »اي من النقصان بعد الزيادة، وقيل من فساد أمورنا بعد صلاحها، وقيل من الرجوع عن الجماعة بعد ان كنا منهم. وأصله من نقض العمامة بعد لفها . اه وفي لسان العرب : يقال كار عمامته على راسه اذا لفها ، وحار عمامته اذا نقضها.

حرب المدنية الاوربية

والمقارنة بينها وبين المدنية الاسلامية ، والفتوحات العربية

لقد أرتنا هذه الحرب من ضروب العبر ، ما لم يكن يخطر قبلها على قلب بشر، وهتكت لنا من أستار الرياء ، ما أرانا كثيرا من حقائق الاشياء ، التي لم يكن يلمحها الا أفراد الحكماء، فظهر للذكي والبليد ، والغوي والرشيد ، ان هذه المدنية المادية ، مدنية قوة وحشية ، وشهوات بهيمية ، كانت تخدع الابصار وتفتن البصائر، بما يدعيه أهلها في زمن السلم من حب الحق والتحلي بلباس الفضائل ، واقامة ميزان العدل ، وثل عروش أئمة الجور والظلم ، حبا في سعادة الناس ، ورغبة في المساواة بين الافراد والاجناس

وقد كان من مقدمات هذه الحرب بين الدول الكبرى حربان في البلقان ، اقترف فيهما البلقانيون من ضروب القسوة وفظائع العدوان ، وتقتيل الشيوخ والولدان ، وهتك الاعراض ونهب الاموال ، مالم يعرف التاريخ أقبح منه منظرا ، ولاأسوأ عاقبة وأثرا، ولم يكن يخطر في بال أحد أن هذه الموبقات يمكن ان يقع مثلها من دولة من الدول الكبرى ، دول العلم والفنون والمدنية الرائعة في هذا العصر الذي يفضلونه على جميع العصور ، ويسمونه عصر الحضارة والنور ، نعم ان أنواره المادية يكاد شعاعها يذهب بالابصار ، ويمكن ان يفضل بها الليل على النهار ، ولكن يتمثل لك في هذا الضوء عالم المدنية ، هيكلا من هياكل الوثنية، قد نصب في محرابه تمثال القوة الحربية ، واضعا إحدى قدميه على الحق والاخرى على الفضيلة ، رافعا بيمنى يديه راية القهر والسلطة، وبشمالها راية الشهوة واللذة ، والناس ما بين راكع له وساجد ، ومحرق للبخور ومقدم للذبائح

قلما كان أحد من الناس يظن ان دول العلم والحضارة تقترف مثل ذلك الظلم والعدوان ، وتجترح تلك السيئات التي اجترحتها شعوب البلقان ، فجاءت هذه الحرب مكذبة لظن الخير فيها ، وأحقت من القضاء بالقسوة والفظاعة عليها شر ما أحقت على من قبلها ، اذ كانت أقدر على التنكيل والتدمير من البلقانيين الذين

هم عالة عليها ، بقدر ما آتاها العلم من أسبابها وآلاتها ، فقد جعلت العلم الجدير بأن يكون مصدر العدل والرحمة والسعادة ، مصدرا للظلم والقسوة والشقاوة ، فهذه دولة ألمانية الممتازة بسعة العلوم واتقان الفنون ، قد امتازت بما اخترعته من آلات التخريب وأسباب المنون ، وينقل لنا عنها محاربوها ما تقشعرّ منه الجلود ، ويتصدع من هوله الحجر الجلمود ، من مدافع تدرك الحصون والمعاقل ، وغواصات تنسف البوارج والبواخر ، وغازات سامة يتكون منها دخان أخضر ، يقتفي آثاره الموت الأحمر، فهو مصداق قول الله تعالى (فارتقبْ يومَ تأتي السماءُ بدُخَانٍ مبين * يَغشى الناسَ هذا عذابٌ اليم)

وضعوا للحرب قوانين لتخفيف نكباتها ومصائبها مستمدة محاسنها من الشريعة الاسلامية شريعة العدل والرحمة ، ولكن ثبت انهم مارعوها حق رعايتها ، وانما يعملون بها في بعض الامور الظاهرة المشتركة بين كل من المتقاتلين كمعاملة الاسرى ، ومن أمن منهم ان يعاقب بمثل عاقب به لعجز خصمه أو لامكانه إخفاء جنايته ، لم يلتزم أحكام قوانين الحرب وحقوق الدول ولا معاهداتها احتراما لها ، أو حبا في الحق والعدل اللذين توضع القوانين والعهود لاجلهما .

فأين حرب هذه الامم والدول التي خدع الناس كلهم حتى المسلمون بها ، وصاروا يباهون بفضائلها ، وارتقائها في معارج المدنيـة الانسانية بعلومها وفنونها ، — من حرب الصحابة الذين كان أكثرهم أميـين ؟ تلك الحرب التي لم يعرف التاريخ البشري مثلها في رعاية الحق والعدل والورع ، واستعمال الرأفة والرحمة في السرّ والعلن، بل شهـد فيلسوف التاريخ والاجتماع (غوستاف لو بون) للعرب كلهم بذلك فقال: ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب . فبـذلك العصر النوراني فليفاخر المفاخرون ، لا بعصر الوحشيـة المنظمة التي جاء بها القرن العشرون

هل نقل ناقل أو قال قائل ان أحدا من الصحابة عليهم الرضوان أو ممن حارب معهم من التابعين انتهك عرضا ، أو قتل شيخا أو امرأة أو غلاما، أو سلب لأحد من أعدائه مالا ، أو هدم كنيسة أو ديرا، أو قتل راهبا أو قسيسا ؟ أو مثل بقتيل ،

أو أجهز على جريح ؟ كيف وقد كان الرسول (ص) يوصيهم بمثل قوله « انطلقوا باسم الله و بالله (ص) ولا تقتلوا شيخا فانيا[١] ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم ، (واحسنوا ان الله يحب المحسنين) » رواه أبو داود من حديث انس بن مالك — وروى احمد من حديث ابن عباس قال كان رسول الله (ص) اذا بعث جيوشه قال « اخرجوا باسم الله تعالى تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله ، لاتغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا[٢] ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع »

ومن وصايا الخليفة الأول أبي بكر الصديق (رض) المقتبسة من مشكاة النبوة ما رواه مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد ان ابا بكر بعث جيوشا الى الشام فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان — وكان يزيد أمير ربع من تلك الارباع — فقال اني موصيك بعشر خلال : لا تقتل امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما، ولا تقطع شجرا مثمرا، ولا تخرب عامرا، ولا تعقرنّ شاة ولا بعيرا الا لمأكله ، ولا تعقرن نخلا ولا تحرقه ، ولا تغلل ولا تخبن[٣]

نعم قد كان يقع قليل من الشذوذ يقابل بالانكار، الا اذا دفع اليه الاضطرار ، والنادر لا حكم له . روى الشيخان وأصحاب السنن ما عدا النسائي وغيرهم عن ابن عمر قال : وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي النبي (ص) فنهى رسول الله (ص) عن قتل النساء والصبيان .

وروى احمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن رياح بن ربيع انه خرج مع رسول الله (ص) في غزوة غزاها وعلى مقدمته خالد بن الوليد فمر رياح وأصحاب رسول الله (ص) على امرأة مقتولة مما أصابت المقدمة فوقفوا ينظرون اليها

---

(١) المراد بالشيخ الفاني من لا يقاتل وقد كان الناس كلهم مقاتلة الاهؤلاء الذين نهى الحديث عنهم والقاعدة الاسلامية العامة انه لا يقاتَل الا من يقاتِل

(٢) الغلول الخيانة والغنائم . والتمثيل تشويه الأعضاء بنحو قلع العين وجدع الانف وصلم الاذن . وقد حرم الاسلام بالتمثيل بالقتلى فضلا عن الاحياء ، وقد ثبت وقوع التمثيل في حرب المدنية الاوربية وفي الحرب البلقانية قبلها

(٣) أخبن الرجل خبأ في خبنة ثوبه أو سراويله شيئا . والخبنة بالضم طية الثوب وثنيته . وفي نسخ الموطإ المطبوعة وأكثر الكتب التي نقلت عنه: ولا تجبن بالجيم

حتى لحقهم رسول الله (ص) على راحلته فأفرجوا عنها ، فوقف عليها رسول الله (ص) وقال « ما كانت هذه لتقاتل — وقال لأحدهم — الحق خالدا فقل له لا تقتلوا ذرية ولا عسيفا »[٢] وروى أبو داود في مراسيله عن عكرمة ان النبي (ص) مر بامرأة مقتولة يوم حنين فقال « من قتل هذه » ؟ فأخبره رجل انه كان غنمها فلما رأت الهزيمة أهوت الى قائم سيفه لتقتله به فقتلها قبل ان تقتله . ولا أتذكر قتل امرأة في مغازي النبي (ص) غير هاتين الا تلك المرأة اليهودية التي أمرها زوجها ان تلقي الرحى على بعض المسلمين في غزوة بني النضير ليقتلوها فلا تعيش بعده اذ كان موطنا نفسه على ان يقاتل حتى يقتل ففعلت

وقد كان رفق النبي (ص) بالنساء أعظم من ذلك فقد روى ابن اسحق ان بلالا مرّ بصفية وابنة عم لها على قتلى يهود بعد سقوط حصن بني أبي الحقيق فلما رأت المرأة القتلى صكت وجهها وصاحت وحثت التراب على وجهها فقال النبي (ص) لبلال « أنزعتِ الرحمةُ من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما » ؟

ومن ضروب العبرة في حرب المدنية الاوربية كثرة ما يتقاضونه من البلاد التي يفتحونها من الغرامات ، وما يفرضونه عليها من الأتاوات ، وقد كان المسلمون الاولون يكلفون أهل البلاد ضيافة ثلاثة أيام ، لضرورة الحاجة الى القوت وعدم تيسر أسبابه بالطرق النظامية المتبعة في هـذه الايام ، وأما الجزية والخراج اللذان يفرضونهما على أهل البلاد فهما أقل مما تفرضه كل حكومة من حكومات الارض على أبناء جنسها في بلادها ، دع ما تفرضه الحكومات الاوربية في مستعمراتها ، فهو يستغرق معظم غلات أرضها ، فلا يبقى لأكثر أهلها منها الا ما يسد الرمق ، ويستعين به على مداومة العمل ، وقد قرأنا في الصحف ما فرضه الألمان على أهل بلجيكة من الغرامات وما حملوهم من الاثقال ، بعد ما حل بهم ما حل من الخزي والنكال ، فاذا هو مما تعجز عن حملة الجبال لا الجمال ، ولا غرو فان كل حظ أهل هذه المدنية المادية

---

(١) العسيف الاجير

من الحياة والدافع لها الى القتال ، انما هو الاستكثار من جمع الاموال ، والتمتع باللذة والعظمة والسلطة والجاه ، ولو ظفر البلجيكيون بالالمان، لأنزلوا بهم الخزي والهوان ، وعاملوهم كما عاملوا أهل الكونغو منذ أعوام ، فأين هذا من عفة المسلمين ولا سيما الصحابة الكرام .

روى البلاذري في فتوح البلدان عن سعيد بن عبد العزيز قال : بلغني انه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع و بلغ المسلمين اقبالهم عليهم لوقعة اليرمك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم . فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : لَولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الا ان نغلب ونجهد . فأغلقوا الابواب وحرسوها . وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا ان ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه ، والا فانا على أمرنا مابقي للمسلين عدد . فلما هزم الله الكفرة (يعني الروم أي الرومانيين) وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلسين وأدوا الخراج . اه

وفي رواية احفظها ولا أتذكر موضعها الآن أن الصحابة لماردوا ما كانوا أخذوا من الجزية قالوا انا كنا أخذناهاجزاء حمايتكم والدفاع عنكم وقد عجزنا الآن عن ذلك ، فحلف الاهالي ان أبناء دينهم ما كانوا ليرجعوا مالا أخذوه الخ

فهل عهد من فاتح فى الاولين والآخرين ان يرد الخراج الى أهل البلاد التي يفتحها ، بناء على ان الخراج لا يباح أخذه الا لأجل حفظ البلاد والدفع عنها ، وان العجز عن ذلك وان كان في سبيل الدفاع عن تلك البلاد يوجب رد الاموال الى أصحابها ؟ لا لا ، ان هذا العدل والورع لم يعرفه البشر الا من الصحابة رضي الله عنهم ، فان كان من وليهم من خلفاء العرب وامرائهم دونهم ، فهم يفضلون سائر الامم في رفقهم وقناعتهم

كان بنو أمية أحرص العرب على نعيم الملك وسعة العيش ، فخرجوا في كثير من أمر السلطة والتصرف في بيت المال عن السنة المتبعة وسيرة الخلفاء الراشدين

وانما استقام عليها منهم عمر بن عبد العزيز . أما سيرتهم في الغزو والقضاء بين الناس وادارة البلاد فكانوا يتحرون فيها العدل والرحمة ، وكذلك كانت سيرة العباسيين في الشرق، والامويين في الغرب (أي الانداس) ومن شذ عن ذلك لغير سبب حفظ الملك كان مذموما وعرضة للعقاب ، وقد تضاعفت ثروة الممالك واستبحر عمرانها بعد أن انتزعوها من الروم والفرس . بما كانوا يسوسونها به من الرحمة والعدل ، ولم يفطن لهذا بعض الكتاب الذي انبرى في هذه الايام الى ذم ولاة العرب بكونهم لم يكن لهم همّ إلا جباية الخراج، وقوله في أفراد منهم إنهم لم يفعلوا شيئا للبلاد ، أو لم يقل فلان المؤرخ انهم فعلوا شيئا — وهو يعلم علما ضروريا ان عدم القول لايستلزم عدم الفعل، وان ماسكت عنه زيد يجوز ان لا يسكت عنه عمرو، ويعلم علما نقليا أن مزية الفاتحين الاولين من العرب هي العدل والرحمة لا الصناعة التي امتاز بها مؤسسو الاهرام وأمثالهم ، وكانت ولا تزال شاهدة على استبدادهم وظلمهم

كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز يشكو اليه قلة دخل بيت المال بمصر بكثرة دخول الناس في الاسلام ، ويستأذنه في ضرب جزية على المسلمين . فكتب اليه عمر هذه الكلمة العالية « ان محمدا (ص) بُعث هاديا ، ولم يبعث جابيا »

وكتب اليه عدي بن أرطاة : أما بعد أصلح الله أمير المؤمنين فان قبلي أناسا من العمال قد اقتطعوا من مال الله عز وجل مالا عظيما لست أرجو استخراجه (وفي رواية : لست أقدر على استخراجه) من أيديهم الا أن أمسهم بشيء من العذاب. فان رأى أمير المؤمنين ان يأذن لي في ذلك فعل » فأجابه بقوله :

« أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب بَشر، كأني لك جُنّة من عذاب الله . وكأن رضائي عنك ينجيك من سخط الله عز وجل ، فانظر من قامت عليه بينة عدول فخذه بما قامت عليه به البينة ، ومن أقر لك بشيء فخذه بما أقر به ، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم وخل سبيله . وأيم الله لأن يلقوا الله عز وجل بخياناتهم ، أحب الي من ألقى الله بدمائهم . والسلام »

وروي عن يحيى الغساني أنه قال : لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل قدمتها فوجدتها من أكثر البلاد سرقا ونقبا ، فكتبت الى عمر أعلمه حال البلد وأسأله :

آخذ الناس بالظنة ، وأضربهم على التهمة ، أم آخذهم بالبينة ، وما جرت عليه السنة ؛ فكتب الي أن خذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة ، فان لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله . قال يحيى ففعلت ذلك فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقا ونقبا .

ومن ضروب العبرة في هذه الحروب ماتراه في كلام كثير من الكتاب من بنائها على قاعدة من قواعد المدنية الحديثة قررها الالمان وتوسعوا في فلسفتها وألفوا فيها الكتب، ووافقهم عليها من وافقهم بالقول والفعل أو بالفعل دون القول - وهي قاعدة « الحق للقوة » - وقد نشرنا في الجزء الذي قبل هذا مقالا في شأن الكتاب الذي ألفه أحد قواد الالمان وعلمائهم (الجنرال فون برنهاردي) في ذلك وسماه (المنطق والمبادئ في الحروب) وفي نقد مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية له، ومنه تعلم أنهم جعلوا الأثرة وتفضيل الاقوياء على الضعفاء حتى في الحقوق المدنية مما تقتضيه الفضيلة والحكمة بل زعموا أنه من أصول الديانة المسيحية وأحكامها، وان مساواة الشعب الغالب للشعب للمغلوب لايجوز في نظر العلم والفلسفة ولا في حكم الدين

ندع لعلماء اللاهوت ورجال الكنيسة حكمهم فيما عزاه الجنرال الالماني وغيره الى الديانة المسيحية مع اعتقادنا ان من آداب دين المسيح عليه السلام المبالغة في الايثار (الذي يعبر عنه القوم بانكار الذات) وهو ضد الاثرة التي يدعيها هذا الفيلسوف الالماني وغيره، فهو ينافي طلب السلطة وانتزاع ملك الناس وملكهم بالقوة ، لاجل التمتع بالجاه واللذة ، لان من قواعد الانجيل ان يعطي المؤمن ماله لغيره ، فكيف يتفق هذا مع انتزاعه من غيره مايملكه ؟ وأما الاسلام فهو وسط بين هذه المدنية المادية ، وبين زهد المسيحية ، فهو دين سيادة وسلطة مدنية ، وفضيلة أدبية روحية ، فالايثار فيه فضيلة مندوبة ، وهو في المسيحية فريضة مطلوبة ، قال الله تعالى في وصف المؤمنين (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) . وأما قاعدة الاسلام في الاحكام فهي العدل والمساواة في الحقوق بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر ، والقريب والبعيد ، والحبيب والبغيض ، قال تعالى (٥ : ٨ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى) والآيات في هذا

المعنى كثيرة أوردنا طائفة منها في الرد على الكاتب الامريكي الذي زعم - فيما كتبه بمناسبة إلغاء الدولة العثمانية الامتيازات الاجنبية - ان الشريعة الاسلامية جاءت بعدم المساواة بين المسلم وغيره، وبينا هنالك انه لاتعرف شريعة في الارض قررت هذه المساواة غير الشريعة الاسلامية . وقد جرى على ذلك الخلفاء الراشدون على وجه الكمال ، وكان هو الاصل والقاعدة عند الامويين والعباسيين في القضاء . وانما وقع الشذوذ والخروج عنه في بعض الاحكام السياسية والعسكرية

واقعة مساواة عمر بن الخطاب بين علي صهر الرسول وابن عمه وبين رجل من عامة اليهود ، وغلط عمر في تسمية اليهودي وتكنية علي، واستياء علي منه لتفضيله اياه على خصمه بالتكنية ، واعترافه هو بأن ذلك خطأ - واقعة مشهورة معروفة . وقد جرى لعمر بن عبد العزيز ما يقرب منها :

قال الحكم بن عمر الرعيني : شهدت مسلمة بن عبد الملك يخاصم اهل دير اسحق عند عمر بن عبد العزيز بالناعورة ، فقال عمر لمسلمة : لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدي . ولكن وكل بخصومتك من شئت والا فجاثِ [1] القوم بين يدي. فوكل مولى له بخصومته فقضى عمر عليه بالناعورة . ذكره الحافظ ابن ابن الجوزي في سيرته

قلت أن هذه الواقعة تشبه واقعة علي مع اليهود . وأعني بالتشبيه المساواة في التكريم والاحترام بين الرفيع وان كان بيت النبوة أو الملك وبين سائر الناس حتى من غير المسلمين ، فعلي كان سيد آل بيت الرسول وعمادهم ، ومسلمة كان من بيت الملك فهو ابن عبد الملك بن مروان ، وناهيك بما كان لبني عبد الملك من العز والسلطان .

أما المساواة في الحقوق نفسها فكانت هي الاصل الذي يجري عليه كل الحكام الا من شذ لاسباب عارضة أو لفساد في خلق الشخص ووقائعها في عهد عمر بن عبد العزيز لا تحصى . وقد كان أول مظلمة رفعت اليه يوم توليته مظلمة

«١» اي اجلس بازائهم جاثيا على ركبتك مثلهم اذلا تمييز في الخصومة بين ابناء الخلفاء والامراء وبين دهماء الناس كاهل الدير وغيرهم

ذمي من أهل حمص ادعى ان العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبه أرضه ، قال عمر : ياعباس ماتقول ؟ قال أقطعنيها — أي الارض — أمير المؤمنين الوليد بن الملك وكتب لي بها سجلا . فقال : ماتقول ياذمي ؟ قال ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل . فقال عمر : كتاب الله أحق ان يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، اردد عليه ياعباس ضيعته . فردها عليه

وقد كان أهل بيت الملك من بني أمية تأثلوا ضياعا ومزارع كثيرة من بيت المال، وكان لبعض الناس في بعضها حق أو مقال ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز ردها، وكان أول مابدأ به رد ماكان له ولولده من ذلك

وروى انه استشار مولاه مزاحما في ذلك فقال : يامزاحم ان هؤلاء القوم اعطونا عطايا والله ما كان لهم ان يعطونا اياها وما كان لنا ان نقبلها ، وان ذلك قد صار الي ليس علي فيه دون الله محاسب . فقال له مزاحم ياأمير المؤمنين هل تدري كم ولدك؟ انهم كذا وكذا . قال فذرفت عيناه فجعل يستدمع ويقول. أكِلهم الى الله تعالى . ثم ذهب مزاحم وذكر ذلك لعبد الملك بن عمر عسى ان يكف أباه عن ذلك . فقال له عبد الملك : بئس وزير الدين أنت يامزاحم . ثم وثب فانطلق الى بيت أبيه عمر فاستأذن عليه فقال له الآذن : ان أمير المؤمنين قد وضع رأسه للقائلة . قال استأذن لي . قال : أما ترحمونه ليس له من الليل والنهار الا هذه الوقعة . قال عبد الملك : استأذن لي لا أم لك . فسمع عمر الكلام فقال : من هذا ؟ قال هذا عبد الملك . قال ائذن له. فدخل عليه وقد اضطجع للقائلة فقال: ماحاجتك يابني في هذه الساعة . قال: حديث حدثنيه مزاحم . قال فأين وقع رأيك من ذلك ؟ قال وقع رأيي على انفاذه . قال فرفع عمر يديه وقال : الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على أمر ديني . نعم يابني ، أصلي الظهر ثم أصعد المنبر فأردها علانية على رؤوس الناس . فقال عبد الملك : ومن لك بالظهر يا أمير المؤمنين ! ومن لك ان بقيت الى الظهر ان تسلم لك نيتك الى الظهر! فقال قد تفرق الناس ورجعوا للقائلة . فقال عبد الملك تأمر مناديك ينادي : الصلاة جامعة . فيجتمع الناس (قال اسماعيل بن أبي حكيم الراوي لهذه الواقعة وهو من رجال صحيح مسلم) فنادى المنادي : الصلاة

جامعة. فخرجت فأتيت المسجد فجاء عمر فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فان هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا والله ما كان لهم ان يعطوناها، وما كان لنا ان نقبلها، وان ذلك قد صار اليّ ليس عليّ فيه دون الله محاسب. ألا واني قد رددتها و بدأت بنفسي واهل بيتي. اقرأ يامزاحم.

قال الراوي: وقد جيء بسفط قبل ذلك ـ او قال جونة ـ فيها تلك الكتب. فقرأ مزاحم كتابا منها فلما فرغ من قراءته ناوله عمر ـ وهو قاعد على المنبر و بيده جَلم (أي مقص) فجعل يقصه بالجلم، واستأنف مزاحم كتابا آخر فجعل يقرؤه فلما فرغ منه دفعه الى عمر فقصه، ثم استأنف كتابا آخر، فما زال حتى نودي بصلاة الظهر

هذه هي أحكام الاسلام فمن خالفها كان خارجا عن هديه، استعملوا القوة، في اقامة العدل مع الرحمة، وبذلك ساد من ساد من خلفائهم ودولهم، فقاعدتهم «القوة للحق» وقاعدة المدنية الحديثة «الحق للقوة» واما المتأخرون منا فهم مذبذبون بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء، وما رأيت أصدق في وصف القوم ووصفهم من قول شاعر بني العنبر أول شعراء الحماسة:

لو كنتُ من مازنٍ لم تستبح إبلي ... بنو اللَّقيطةِ من ذهل بن شيبانا

اذاً لقام بنصري معشر خُشُنٌ ... عند الحفيظة ان ذو لُوثة لانا

قومٌ اذ الشرُّ أبدى ناجذيه لهم ... طاروا اليه زَرَافاتٍ ووُحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندُبُهم ... في النائبات على ماقال برهانا

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد ... ليسوا من الشر في شيء وان هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن اساءة أهل السوء احسانا

كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس إنسانا

فليت لي بهم قوما اذا ركبوا ... شنوا الإغارة فرسانا وركبانا

ومن ضروب العبرة في هذه الحرب مانراه في أخبارها من الكذب والتناقض والتعارض والتهاتر والتمويه والتدليس وسوء التحريف وفساد التأويل، يشترك في

ذلك أصحاب الشركات البرقية . والجرائد السياسية ، حتى سرى الى المجلات التاريخية والعلمية ، بل لم يعد أحد من الناس يثق كل الثقة بالتقارير والبلاغات الرسمية، لانهم يرون كل خصم يكذب خصمه في أخباره الرسمية . ولو سئل أصحاب الجرائد في كل قطر من الاقطار عن سبب ما ينكر عليهم مما ذكر — لاجابوا: ان سببه الاول تضييق حكوماتنا علينا ، وإلزامها إيانا عرض كل ما نكتبه على رقبائها الذين سلبوا حرية الكتابة منا ، مع اجتهادنا في جعل ما نكتبه موافقا لمصلحتها ، وتجنبنا من تلقاء أنفسنا كل ما نرى ان نشره مخالف سياستها .

هذا عذر عارض، والمشهور بين الناس ان الجرائد لاتتحرى الصدق فيما تنشره لافي أيام السلم وعهد الحرية، ولافي أيام الحرب وعهد المراقبة ، وانها تتعمد الكذب والتمويه اذا كان لها في ذلك منفعة . والحق انها تواريخ فيها الصادق والكاذب؛ والحق والباطل، تجمع بين الدرة والبعرة، وتأتي بالذرة واذن الجرّة؛ وانني لا أشهد لجريدة من الجرائد التي أعرفها في الشرق انها تمثل حال البلاد التي تصدر فيها والامة التي تتكلم عنها تمثيلا صحيحا كما يعرفه المختبر للبلاد والامة . ولو كانت هذه الجرائد في عصر رجال الجرح والتعديل من المحدثين ، لجعلوا أصحابها في عداد الوضاعين ، ولم يرتقوا بهم الى درجة الضعفاء أو المدلسين. كيف وقد ضعف بعضهم القاضي الواقدي و بعضهم قال انه كذاب وانه كان يضع الحديث . وهو من اكبر الحفاظ واشهر المؤلفين ، كتب عنه سليمان الشاذكوني كتابا ثم أتاه فسأله عما كتبه عنه قبل ان يخرج به ، فاذا هو لم يغير حرفا منه

لم تُعنَ أمة من أمم العلم بمثل ماعني به المسلمون من ضبط الرواية في القرون الاولى . فان كانوا دونوا في تواريخهم كل ما قيل ماصح منه ومالم يصح لاجل الجمع والاحصاء ، فالعمدة عندهم على الاسانيد ، فما كان محل الشبهة منها أمكن تمحيص الرواية فيه بالبحث عن رجال سنده . فاذا انفرد بعض الرواة او المؤرخين بطعن في العلويين أو الامويين او العرب – مثلا — يمكننا بالنظر في السند أن نعرف هل فيه أحد المتعصبين غير الثقات من النواصب أو الروافض أو الشعوبية فنتهمه بوضعه أم لا؟ وتحرير هذه المسألة لايمكن الا بمقال طويل ، وعلى الله قصد السبيل .

مدرسة دار الدعوة والإرشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

الفرق بين الهواء الداخل الى الرئتين والخارج منها

الهواء الداخل الى الرئتين تركيبه عين تركيب هواء الجو أعني هكذا : —

أكسجين	٢٠،٩٦ في المائة (١)
نيتروجين	٧٩ « «
غاز حامض الكربونيك (وهو غاز ثاني أكسيد الفحم)	٠،٠٤ « «
بخار الماء	كميته مختلفة

وحرارة هذا الهواء تختلف باختلاف الجهات والأوقات وغير ذلك

أما الهواء الخارج من الرئتين فتركيبه كما يأتي : —

أكسجين	١٦،٠٣ في المائة
نيتروجين	٧٩ « «
غاز ثاني أكسيد الفحم	٤،٤٠ « «
بخار الماء	الهواء مشبع به
الحرارة	كحرارة الجسم

فيفهم من ذلك أن النيتروجين لاتتغير كميته لعدم حاجة الجسم اليه من طريق التنفس فيذوب في الدم كما يذوب في الماء ولا عمل له في الجسم مطلقا. وفائدة النيتروجين في الهواء تخفيف مقدار الأكسجين فيه ، فاننا اذا استنشقنا أكسجين

(١) هذه المقادير بالحجم لا بالوزن

خالصا احترق جسمنا بسرعة كبيرة ونحف واحتجنا الى مقادير عظيمة من الطعام لتعويض هذا النقص الكبير فلذا اقتضت الحكمة الالهية تخفيفه بالنيتروجين

نعم ان النيتروجين ضروري لتركيب جميع الخلايا الحية ولكنه يصل الى الجسم في الطعام وفي الشراب (كاللبن) لا بطريق التنفس — كما قلنا —

أما الاكسجين الداخل مع الهواء فكميته أكثر من كمية الخارج معه، لانه يتحد مع هيموجلوبين الكريات الحمراء ويدور مع الدم فاذا وصل الى أنسجة الجسم جذبته اليها واتحدت به وهذا ما يسمى «بالاحتراق الداخلي» أو «التنفس الداخلي» اللازم لحياة الجسم

واذا اتحد الاكسجين مع أجزاء الجسم تولدت مواد أخرى بقاؤها ضار بالجسم، فتدور مع الدم لتفرزها الاعضاء المختصة بذلك كالكليتين والجلد في البول والعرق

ومن هذه المواد الناشئة من الاحتراق الداخلي غاز ثاني أكسيد الفحم والماء وهذا هو السبب في زيادة غاز ثاني أكسيد الفحم والماء في الهواء الخارج من الرئتين

وقد وجد علماء الفسيولوجيا أن الهواء الخارج من الصدر يشتمل أيضا على بعض مواد نيتروجينية عضوية ولكنهم لم يكتنهوا الى الان ماهيتها ولا تركيبها وهي السبب في رداءة رائحة هواء الغرف المسكونة، واذا تنفسها الانسان مرة أخرى أضرت بصحته ضررا بليغا يفوق ضرر استنشاق القليل من غاز ثاني أكسيد الفحم، فان هذا الغاز لا يفسد تركيب أي جزء من أجزاء الجسم، ولكنه اذا ملأ الجو مات الانسان اختناقا لعدم وجود الاكسجين فيه

المواد المختلطة بالهواء

ويوجد في الاهوية الفاسدة غير ذلك أيضا مواد أخرى غازية ضارة بالانسان ضررا بليغا ومن أهمها الهيدروجين المكبرت وهو الذي يتولد من المراحيض وغيرها، وهذا الغاز يفسد الدم ويضر بالجسم أيضا

وكذلك أول أكسيد الفحم فانه سام جدا، وهو يتولد من الاحتراق الناقص للفحم

ويوجد في الهواء أيضا ميكروبات وذرات مختلفة من التراب والمعادن والفحم

وغير ذلك، فالميكروبات تحدث أمراضا عديدة في الجسم الانساني، وتلك الذرات تحدث أيضا نزلات شعبية والتهابات رئوية مزمنة

لهذا كله يجب أن يكون الهواء المستنشق نقيا من كل ما تقدم فلا يكثر فيه أكسيدا الفحم الناشئان من أنفاس الحيوانات والنباتات ليلا ومن اشتعال النيران ، ويجب أن يكون هواء الامكنة المسكونة بعيدا عن المراحيض ، دائم التجدد ، معرضا للشمس فانها تقتل كثيرا من ميكروباته، بعيدا عن الأتربة والمصانع التي تثير غبارا من المعادن وغيرها

سنة الله في الاكسجين والكربون

ولا يتوهم القارئ مما سبق أن كمية الاكسجين في الهواء آخذة في النقص شيئا فشيئا بسبب التنفس وبسبب النيران ، فان الله تعالى وضع لذلك سنة حكيمة بها يبقى الأكسجين في الهواء الى ماشاء الله ، وذلك بأن جعل الورق الاخضر لجميع النبات يحلل (بتأثير أشعة الشمس فيه) غاز ثاني أكسيد الفحم فيمتص منه الفحم ويخرج الأكسجين . وهذا الفحم باتحاده مع عناصر أخرى تتركب منه أخشابها وما فيها من صموغ وسكر وزيوت وغير ذلك. فكأن الفحم الخارج من الانسان وغيره من الحيوانات ضروري للاشجار فاذا أكل الانسان شيئا من هذه الأشجار عاد الى جسمه ثم يحترق فيه فيخرج في الهواء فيعود الى الشجر ، وهكذا كالدائرة

وبحركة الرياح (وهي ناشئة من اختلاف درجة حرارة الهواء) وبتماوج ذراته وانتشارها توجد حركة دائمة في هواء الارض فتبعثر الاكسجين وتنشره في جميع الجهات ، ولولا ذلك لماتت الحيوانات التي في البقاع الخالية من الاشجار

ومن الخطإ العظيم تغطية الوجه أثناء النوم وكذلك غلق منافذ الغرفات مع وجود أشخاص فيها أو مصابيح وغيرها فان ذلك قد يقتل الانسان

أما ثاني أكسيد الفحم المتكون من الاحتراق الداخلي فانه يوجد في الدم لا ذائبا فيه بل متحدا مع عنصر الصوديوم بصورة كربونات الصوديوم أو بيكربونات الصوديوم، فاذا وصل هذان الملحان الى الرئتين خرج من البيكربونات ثاني أكسيد الفحم

بطريق الاكسوسموز، ومما يساعده في خروجه الخلايا المبطنة للحويصلات الرئوية فتفرزه. وسبب حصول الاكسوسموز هو نقصان كمية ثاني أكسيد الفحم في الهواء، كما أن السبب في دخول الاكسجين من الهواء في الدم هو أيضا قلة الاكسجين في الدم عنها في الهواء. وقبل دخول الاكسجين للدم يذوب في الرطوبة التي تغطي جدران الحويصلات الرئوية ومنها يدخل للدم . ويجب أن لا يتوهم القارئ أن كل الهواء الذي في الحويصلات الرئوية يخرج منها أثناء الشهيق ، فالواقع أنه يخرج جزء منه و يبقى جزء آخر، و بطريقة الانتشار يسرع أكسجين الهواء الى الداخل لكثرته وغاز ثاني أكسيد الفحم الى الخارج لكثرته أيضا — كما سبق بيانه—

ثقل غازات الهواء

من تأمل في تركيب الهواء والفرق بين درجات ثقل غازاته وجد أن النيتروجين من أخفها، وغاز ثاني أكسيد الفحم من أثقلها، فلذا يتكاثر هذا الغاز الاخير بقرب سطح الارض وفي الحفر وكلما ارتفع الانسان نقصت كمية هذا الغاز وزادت كمية النيتروجين ، ولذا كثيرا ما سمعنا بموت أشخاص هبطوا الى أماكن منخفضة كالآبار وغيرها

أما الأكسجين فلكونه أثقل من النيتروجين يكثر في الهواء المجاور للأرض ويقل في جو السماء، يشعر بذلك من توقل [صعّد] في جبل عال أو حلق في الجو بطيارة وأعظم علو أمكن للانسان أن يصل اليه في القباب الطيارة أو المناطيد أو الجبال هو ٨٨٣٨ مترا. أما الصعود بعد ذلك فيؤدي الى هلاك الانسان إما لنقص الأكسجين أو لانفكاك غازات الدم منه فتحدث أعراض خطرة ، ويتعسر التنفس أو يتعذر بسبب نقص كمية الأكسجين نقصا عظيما فلا يحدث الاندوسموز . زد على ذلك أنه اذا عاش الانسان بضع دقائق في ذلك المكان المرتفع حصل له نزف من الأنف أو الرئتين أو غيرهما لقلة ضغط الهواء الجوي على جسم الانسان . ولتعلم أن الصعود الى نحو ٥٠٠٠ مترا لا يوافق جمهور الناس حتى المتعودين لذلك من سكان الجبال

أما ارتفاع هواء الجو فلا يقل عن ٣٠٠ كيلو مترا

التنفس الصناعي

اذا بطل تنفس الانسان بسبب مَا كاستنشاق الكلوروفورم أو الغرق في الماء أو استنشاق غازات الاحتراق أو غير ذلك مما يبطل التنفس أمكن إعادة الحياة الى المصاب بطريقة « التنفس الصناعي » واستعمال المنعشات ونحوها بشرط أن لاتكون المدة قد طالت ، وأن لا تكون أنسجة الجسم قد بدأ فيها أقل شيء من الفساد

أما طريقة التنفس الصناعي فهي أن تزيل كل ماأمكنك ازالته مما قد يوجد في مجاري التنفس كالماء في الغريق مثلا بان تقلب المصاب على وجهه وترفع رجليه الى أعلاه، ثم تضعه على مكان عال لتتمكن منه وتخفض رأسه وتخرج لسانه بشده بمقبض (جفت) أونحوه ثم تمسك بعضديه وتجذبهما الى أعلا رأسه ثم تخفضهما الى جنبيه وتضغط بهما على صدره، ويستحسن أن يساعدك شخص آخر في ذلك الوقت بان يضغط على بطنه أيضا ليرتفع الحجاب الحاجز فيحصل الشهيق بسبب ذلك، أما الزفير فان الذي يحدثه هو جذب الذراعين المذكور هنا. ويتكرر هذا العمل في الدقيقة الواحدة نحو خمس عشرة مرة ، ولا يصح اليأس من عودة الحياة الا بعد مضي نحو ساعة على الاقل . وفي أثناء هذا العمل توضع خرق مبتلة بالماء الحار على القلب أو ينبه الحجاب الحاجز بالضرب بمثل المنشفة على قسم المعدة وينشق المصاب (كبسول الأميل نيتريت) ويحقن بالاستركنين أو الأثير أو غيرهما تحت الجلد ويحقن بجزء من الخمر أو الكحول في الشرج الى غير ذلك . فاذا فعلت جميع هذه الاشياء باستمرار عادت الحياة غالبا خصوصا اذا كانت ضربات القلب موجودة . ومن أحسن المستنشَقَات في ذلك الوقت غاز الاكسجين إن وجد

جهاز الهضم

مقدمة في الغدة

قبل البدء في الكلام على هذا الجهاز ينبغي أن نبدأ بتعريف كلمة « الغدة » لشدة الاحتياج اليها فيما سيأتي

تطلق هذه الكلمة على ثلاثة أنواع من أجزاء الجسم : —

(١) الغدة اللمفاوية وهي عبارة عن شيء كعقدة مركبة من عدة كريات تشبه كريات الدم البيضاء ، يمسك بعضها بجانب بعض مادة تسمى بالمنسوج الضام ، ووظيفتها تنقية المواد اللمفاوية من الميكروبات وغيرها ولذلك نجد كثيرا منها موضوعا في طريق الأوعية اللمفاوية بحيث تصب فيها ثم تخرج منها ـ كما سبق ـ

(٢) غدة الافراز وهي التي تخرج مواد كثيرة من الجسم بعضها له منفعة خاصة والبعض الآخر لانفع له وإنما تخرجه لضرر بقائه في الجسم . مثال الاول اللعاب واللبن ومثال الثاني البول والعرق ، وقد يكون الشيء المخرج له نفع في الجسم ويضر بقوه فيه كاثرة وهي المادة الصفراء التي يفرزها الكبد

وتتركب الغدد الافرازية من غشاء مجهري [ميكروسكوبي] يوجد على سطحه خلايا الافراز وتكون طبقة واحدة في الغالب ، وتوجد عدة طبقات منها في مكان شهير بالجسم وهو الخصية ، وعلى الجانب الآخر من هذا الغشاء المذكور توجد أوعية الدم ومنها تخرج المواد بطريق الاكسوسموز فتتصرف فيها الخلايا وتخرج منها مواد كيماوية عجيبة التركيب

أما أشكال هذه الغدد فمنها الكيسي وذلك بأن ينبعج الغشاء الى جهة الأوعية الدموية فيتكون كيس صغير مبطن بالخلايا وله فوهة يخرج منها الافراز

ومنها الأنبوبي وهي التي يكون لها تجويف كالأنبوبة لا كالكيس ، ومنها الأنبوبي المتفرع ، ومنها عنقودي الشكل ، ومنها الملتوي

ويلاحظ أن في هذا النوع من الغدد قناة في داخل الغدة الافرازية وفيها تجري مفرزاتها كاللبن والعرق وغيرهما

أما الضرب الاول من الغدد فلا قناة لها

وأما الضرب الثالث فهو أيضا لاقناة له وهو يشمل عدة أعضاء في الجسم كالطحال (وهو نوع من الغدد اللمفاوية) والغدة الدرقية والغدة السعترية في صدور الاطفال ، وغير ذلك مما سيأتي الكلام عليه في فصل خاص

والذي يهمنا في الكلام على الهضم هو الضرب الثاني

تشريح الجهاز الهضمي ووظيفته

يبتدئ هذا الجهاز بالفم ثم المرئ ثم المعدة ثم الامعاء الصغيرة فالكبيرة وينتهي بالدبر . ويصب فيه عدة افرازات من غدد متنوعة لهضم الطعام ولغير ذلك، وتمر فيه الاغذية والاشربة في مدة تختلف من يوم الى يوم ونصف يوم وقد تكون أقل من ذلك بكثير كاحوال الاسهال وقد تكون أكثر من ذلك في أحوال الامساك

أما الفم ففيه اللسان والاسنان وغدد اللعاب وفي نهايته توجد اللوزتان

ووظيفة اللسان هي تحريك الطعام ليمتزج باللعاب وليمكن مضغه و بلعه، ومن وظائفه أيضا الكلام كما سبق، وادراك طعوم الاشياء وعليه مدار معرفة ماينفع الانسان وما يضره من المأكولات والمشروبات. وادراك الطعوم اللذيذة يحرك شهوة الطعام فيجيد هضمها

أما الاسنان فهي عادة نوعان : الاسنان اللبنية أو المؤقتة، والاسنان الدائمة، وقد ينبت للشيوخ أسنان مرة ثالثة ولكنها مسئلة نادرة الحصول

أما الاسنان اللبنية فهى ٢٠ والاسنان الاخرى ٣٢ منها ١٦ في الفك الأعلا و ١٦ في الفك الاسفل.

وعلى الاسنان مدار جودة هضم الطعام لانها تهشمه وتسحقه الى قطع صغيرة لتتمكن الأعصرة الهاضمة من الوصول الى جميع أجزائه، فمن ازدرد طعامه بلا مضغ أضر بجهاز الهضم خصوصا و بالجسم عموما ، فيجب إطالة المضغ وإتقانه . ويجب علينا أيضا المحافظة على الاسنان وإلا أصابها العطب وفقدناها فنخسر جزءا عظيما من أجزاء جهاز الهضم . وأعظم شيء للمحافظة عليها هو تنظيفها جيدا وعدم استعمال شيء بارد على شيء ساخن في الفم أو بالعكس فان ذلك من أعظم مايفسدها

وأشهر أمراض الاسنان نوعان: —

(١) النوع الاول ان يصيبها الحفر (التسويس) وهو عبارة عن تفتت جزء من عظم السن وانكشاف لبه والتهاب هذا اللب فيحصل بسبب ذلك ألم شديد يحرم الانسان لذة النوم والطعام و تموت السن لفساد أوعية الدم المغذية لها التي في داخل اللب. والميكروب المسبب لذلك يسمى (Leptothrix Buccalis) اي

«الشعرة الدقيقة الفمية» ويوجد في هذا المرض أيضا الاميبا [1] الفمية [Amoeba]

وعلاجه يكون باعدام العصب الذي في داخل اللب بمادة كاوية كحامض الفنيك أو الكريوزوت، وذلك يطهر اللب ويسكن الألم . والاولى أن يعدم اللب بأكسيد الزرنيخوز – كما هي العادة – ثم يحشا التجويف بالذهب أو بمواد أخرى يعرفها أطباء الاسنان كالخزف، وهو أحسن من غيره

(٢) النوع الثاني داء ريج (Rigg) وهو مرض كثير الانتشار بين الناس يبدأ بالتهاب حول جذر السن في سمحاق العظم فتتكون مواد صديدية وبضغطها على جذر السن يرتفع شيئا فشيئا حتى تسقط ، وهذا الداء هو سبب سقوط أسنان كثير من الناس ، وسببه دخول ميكروب خاص الى جذر السن من أي تقرح صغير في اللثة وهذا الميكروب يسمى (الاستربتوكوك [2] اللعابي) [Strept ococcus] وهو يوجد عادة في أفواه جميع الناس، الا أنه في بعض أحوال مخصوصة كضعف البنية بسبب ما – يتمكن من ايذاء الانسان فيدخل الى جذور الاسنان وهناك يفعل فعلته الشنعاء

ولا علاج ناجعا لهذا الداء سوى الحقن بميكروب المرض [3] المأخوذ من نفس المريض كما سيأتي توضيحه والا فالمبادرة الى قلع ما يصاب به من الاسنان والاستعاضة عنها بأسنان صناعية واستعمال المطهرات المتنوعة والنظافة التامة للفم مع تقوية البنية بالاغذية الجيدة والهواء النقي وغير ذلك . ومما يسكن الألم في هذا المرض استعمال مضمضة من الخل، وهي فائدة شائعة بين العامة

وأحسن طريقة لنظافة الاسنان هى استعمال السواك خصوصا بعد كل طعام . وهو يؤخذ من شجرة الاراك ، وفيه مواد عطرة مطهرة بعض التطهير للفم ومعطرة

---

(١) اسم يوناني معناه « المتغير » يطلق على حيوين دقيق ذو خلية واحدة ، وهو دائم التغير لشكله ، وله حركة ذاتية

(٢) أي البزور السلسلية لوجودها بهيئة سلاسل حينما يراها الانسان بالمجهر . والكلمة يونانية

(٣) ذلك يشبه ان يكون مصداقا لقول الشاعر « وداوني بالتي كانت هي الداء »

له وتساعد على الهضم أيضا وهو يشد اللثة تقبض فيه . ويسمي الارك بعض الافرنج (شجرة محمد) لحث الشريعة الاسلامية على استعمال السواك كما هو معلوم ، ولا يغني عنه الا استعمال المسفرة (الفرشة) مع بعض أدوية عطرية مطهرة قابضة ، ويجب غليها بعد كل استعمال والا تكاثرت فيها الميكروبات الضارة بالاسنان ، وكذلك يجب تجديد طرف السواك بعد كل استياك

أسماء الأسنان ووقت ظهورها

أما أسماؤها فهي :— ثنيتان في الوسط وبجانبيهما رباعيتان ثم نابان ثم ضاحكتان ثم ست أرحاء ، ثلاث في كل جانب، ثم ناجذان، واحد في اليمين وآخر في اليسار وهما آخر الاضراس . وذلك في كل من الفكين الأعلى والاسفل

وقت ظهور الأسنان

الاسنان اللبنية تظهر في الطفل من الشهر السادس الى الرابع والعشرين على هذا الترتيب :—

الثنيتان السفليتان	٦ — ٩ أشهر
الثنيتان العلويتان والرباعيتان العلويتان	٨ — ١٠ أشهر
الرباعيتان السفليتان والضواحك	١٥ — ٢١ شهرا
الأنياب	١٦ — ٢٠ شهرا
الارحاء	٢٠ — ٢٤ شهرا

وليس للطفل سوى أربع أرحاء في فمه ، وأسنانه كلها عشرون فقط

وهذه المدد تقريبية فانها تختلف كثيرا بحسب بنية الاطفال واختلاف أمزجتهم وغير ذلك ، فمنهم من يولد وفيه الثنايا ظاهرة ، ومنهم من يتأخر ظهور أسنانه الى نهاية السنة الثانية أو الى عدة سنين بعدها

وفي وقت ظهور الاسنان تصاب الاطفال عادة ببعض اعراض مرضية كالاسهال والقيء والحمّى فالضعف . ومتى كملت اسنان الطفل العشرون يمكث بها الى السنة السادسة أو السابعة ثم يظهر ضرس (رحى) خلفها في السنة السادسة أو السابعة وتسقط

باقي الأسنان واحدة بعد الاخرى ويظهر مكانها غيرها على هذا الترتيب : —

في السنة السادسة : الأرحاء الثانية
« « السابعة : الثنايا
« « الثامنة : الرباعيات
« « التاسعة : الضواحك
« « العاشرة : الأرحاء الأولى
« « ١١ — ١٢ : الأنياب
« « ١٣ — ١٣ : الارحاء الثالثة
« « ١٧ — ٢٥ : النواجذ

فترى من هذا أن الاسنان التي تظهر في السنة ١٢ أو ١٣ يمكث الشاب بها الى السنة ١٧ فيظهر ضرس العقل أو الحلم وهو الناجذ إما في هذه السنة أو فيما بعدها الى ٢٥ أو ٣٠ وفي النادر أن يتأخر عن ذلك

أما أسنان الشيوخ — ان ظهرت — فيكون ظهورها بين السنة ٦٣ و ٨١

وجوب أكل الانسان اللحم والنبات

بالتأمل في أسنان الحيوانات المختلفة نرى ان آكلة اللحوم اسنانها حادة جدا ، أما أسنان الحيوانات الآكلة للنباتات ونحوها فهي كايلة ، وأسنان الانسان متوسطة في حدتها بين الطرفين . وكذلك اذا نظرنا في مقياس أمعاء الحيوانات المختلفة نجد أن أمعاء آكلة اللحوم قصيرة وآكلة الخضروات ونحوها طويلة وأمعاء الانسان وسط بينهما ، وذلك يدلنا على أن الانسان بطبيعته يجب أن يأكل اللحوم والخضروات جميعاً، وفي ذلك اعظم دليل على خطأ مذهب النباتيين فانه مخالف للطبيعة البشرية ، هذا وقد وجد ان الفيران البيضاء وهي التي لا يؤثر فيها ميكروب الجمرة الخبيثة تتأثر به اذا غذيت بالنباتات فقط . فلا يبعد أن يكون الانسان كذلك بمعنى أنه يصير عرضة لبعض الامراض إذا اقتصر على الخضروات (راجع صفحة ١٧٩ من كتاب Manual Of Bacteriology تأليف Hewlett)

اللعاب

يتولد اللعاب من غدد مخصوصة وهي ثلاث: الغدة النكفية وموضعها تحت الاذن وأمامها، وتسمى أيضا الاذنية، ولها قناة تمتد منها الى الفم تسمى قناة ستنسون (Stenson) وفتحتها بقرب الرحى الثالثة للفك الاعلا

والغدة الثانية تحت الفك الأسفل ولها قناة تسمى قناة هوارتون (Wharton) تصب بجانب قيد اللسان، وفتحتها مرتفعة قليلا كحلمة صغيرة

والغدة الثالثة تسمى «الغدة التي تحت اللسان» لأنها تحت الغشاء المخاطي المتكون منه قيده، ولها عدة قنوات بعضها ينفتح في الفم مباشرة وهو الأكثر والبعض الآخر تتكون منه قناة أكبر تصب في قناة هوارتون المذكورة

واللعاب مركب من ماء وزلال وأملاح متعددة ومادة مخصوصة تسمى «اللعابين» وهي أهم ما فيه. «واللعابين»[1] من الخمائر التي سيأتي توضيحها في الفصل التالي . وفي لعاب الانسان أيضا آثار من مادة سامة جدا لاتعرف فائدتها الآن، وربما كانت مما يقتل الميكروبات. ووظيفة اللعاب أن يرطب الطعام حتى يسهل مضغه وازدراده ويذيب بعض مواده ليدرك طعمها وهو ضروري للنطق الفصيح ويهضم المواد النشوية التي في الطعام فيحولها الى سكر يسمى الملتوز (أو سكر الشعير)[2] ويستمر تأثير اللعاب في المواد النشوية حتى بعد وصولها الى المعدة بنحو ربع أو نصف ساعة حتى يفسد عصير المعدة الحمضي مادة اللعابين فيبطل تأثيرها في النشاء . واللعابين لايهضم النشاء غير المطبوخ لانه لايؤثر في مادة «السللولوز» المحيطة بذراته، وهي مادة الخشب أيضا

---

(١) في اصطلاح علم الكيمياء كثيرا ما يتركب اسم المادة الفعالة في الشيء باضافة (ين) إليه فمثلا (البنين) هو اسم المادة الفعالة في البن أو القهوة ولذلك يسمى أيضا (القهوين) وهكذا. فاللعابين مادة اللعاب الفعالة في الهضم وقد جارينا هنا الافرنج في هذا الاصطلاح كما جاريناهم في غيره مما سبق بيانه لسبقهم لنا في العلم والاختراع والاكتشاف

(٢) سمي بذلك لانه يتولد في الشعير النابت (Malt) وغيره لتغيرات كيماوية تحصل في نشائه اذا ابتل بالماء

اللوزتان

اما اللوزتان فهما غدتان مفرويتان موضعهما على جانبي الحلق في منتهى الفم يخرج منهما كريات بيضاء تمتزج باللعاب أو تسير في الدم . وفائدتهما قتل بعض الميكروبات بهذه الكريات البيضاء وقتل ما يقف عليهما من الميكروبات أيضا أو يدخل فيهما ، فهما كحصنين يقتلان ما اقترب منهما و يبعثان بجنودهما في اللعاب لقتل بعض الاعداء التي تحل في أجزاء الفم المتنوعة. وهذان الجسمان كثيراً ما يحصل فيهما التهاب تحدث عنه الحمى ويمرض الجسم بسببها ، وعلة حصول هذا الالتهاب ضعف البنية ودخول ميكروبات كثيرة فيهما فيزداد حجمهما وتكثر كرياتهما ليتغلبا على هذه الميكروبات، فان نجحا حفظا الجسم من خطر عظيم - وان كان الانسان يمرض بضعة أيام أثناء هذه الحرب - وان غلبا تكوّن فيهما خراجات أو أفلت بعض الميكروبات منهما الى الدم فتنشأ عن ذلك أمراض متنوعة كالرومانزم (الرثية) وآفات القلب وغير ذلك. ويقل التهابهما في الأقوياء لأن كرياتهم البيضاء تكون قوية فتقتل الميكروبات بسهولة بدون حاجة الى إثارة حرب عامة

كلمة في الخمائر

يحصل تخمر الأشياء بسبب وجود ميكروبات مخصوصة، ومن أشهر أنواع هذه الميكروبات ما يحول السكر الى غول (كحول) [١] وغاز ثاني اكسيد الفحم ، ولهذا التخمر سميت الخمر خمرا في أحد الأقوال . وهو السبب في فورانها وحرافة طعمها

ومن الميكروبات ما يحول بعض أنواع السكر (سكر اللبن) الى حامض اللبنيك ، وهو السبب في حموضة اللبن فاذا امكننا منع الميكروبات من الوصول

(١) يسمى الكحول بالفرنسية (Alcool) وهو روح الخمر أو المادة الفعالة فيها وهي سبب جميع شرورها ومضارها ، ويقول الافرنج إنهم أخذوا هذه الكلمة عن اللغة العربية، فالظاهر أنها مأخوذة من كلمة « غول » الواردة في وصف خمر الجنة في قوله تعالى (لا فيها غول) وهو ما يغتال العقول و يفسد الصحة (ولا هم عنها ينزفون) أي لا يسكرون منها لعدم وجود تلك المادة الضارة في خمر الآخرة وعليه فسنستعمل في كتابنا هذا كلمة (غول) بدل كلمة كحول أو(Alcool) والمراد بها ما يسمونه (السبرتو) (Spirit)

إلى الاشياء أو قتلناها فيها بطل كل تخمر وتعفن، فاذا أردنا حفظ اللبن مثلا من أن يختمر وجب أن نغليه غليا جيدا ونضعه في زجاجات معقمة (مطهرة) بحيث لا يصل اليه أي ميكروب، فيبقى سليما من الفساد طول الدهر، وهذه الطريقة مستعملة في جلب الألبان الينا من البلاد الاجنبية كسويسرة وغيرها

ومن هذا يتضح ان السبب في الفساد والتعفن هو هذه الميكروبات، وتسمى بالخمائر

أما فعل هذه الميكروبات فهو بافراز مواد مخصوصة لها تأثير كيماوي في الأجسام، وهذه المواد المفرزة يسمونها أيضا بالخمائر. وعلى ذلك فالخمائر نوعان: الميكروبات نفسها ومفرزاتها، وكما أن إفراز هذه الميكروبات سمي بالخمائر كذلك يسمى بعض افرازات الجسم بالخمائر أيضا لانها تؤثر في الاجسام تأثيرا كيماويا فتحدث فيها تغييرا بالتركيب والانحلال كتأثير إفراز الميكروبات، وذلك مثل اللعابين الذي سبق ذكره في اللعاب. وسيأتي ذكر غيره في بحث مفرزات (عصارات) المعدة والامعاء. وهذه الخمائر كلها تقريبا مواد آزوتية، إما زلالية أو قريبة من الزلالية — بحسب ما نعلم الآن — ما عدا البيبسين فيقال انه لا نيتروجين فيه

ومن الغرائب ان افراز الميكروبات إذا كثر يقتل نفس الميكروبات التي تولده كما في الخمر مثلا فان غولها يقتل ميكروباتها وغيرها، واذا غلي الشيء الذي فيه هذه الخمائر بنوعيها ماتت الميكروبات وفسدت الخمائر فيبطل عملها. ومن الخمائر المشهورة مادة تستخرج من غشاء المعدة الرابعة للحيوانات المجترة كالعجول تسمى بالأنفحة، وفائدتها تحويل اللبن الى جبن

والميكروبات هي نباتات مجهرية، بعضها يحتاج لأكسجين مطلق [1] يعيش فيه، والبعض الآخر يعيش بغير اكسجين مطلق

بقية الكلام على جهاز الهضم

يندفع الطعام بعد الفم الى الحلقوم، وهو تجويف ينفتح فيه تجويفا الأنف والفم ثم الحنجرة، وفي أسفله المريء

وفي جدران الحلقوم غدد لمفاوية تشبه في منسوجها اللوزتين، ووظيفتها

(١) أي غير متحد بشيء يتقيد به

كوظيفتهما أي انها تقتل الميكروبات كما سبق

أما المريء فهو أنبوبة لحمية تمتد من الحلقوم الى المعدة وطولها من ٩ الى ١٠ بوصات ، ويدخل في تركيب جدرانه ألياف عضلية تكون في نحو ثلثه الأعلى اختيارية وفي الباقي غير اختيارية ، وهو مبطن بغشاء مخاطي كالمعتاد . وفي المريء يمر الطعام إلى المعدة

وأما المعدة فهي ككيس كمثري الشكل تحت الحجاب الحاجز في البطن ، ولها فتحتان : الاولى منهما متصلة بالمريء وتسمى « بالفؤاد » لقربها من القلب ، والفتحة الثانية تسمى « بالبواب» والمعدة مركبة من ألياف عضلية ومبطنة بغشاء مخاطي وسطحها الخارجي مغطى بغشاء مصلي وهو جزء من البريتون (١)

وفي الغشاء المخاطي عدة غدد لافراز العصير المعدي . وتتحرك المعدة حركة غير اختيارية بما فيها من الألياف العضلية وهذه الحركة تشبه مخض اللبن ويراد بها مزج الطعام بالعصير المعدي حتى ينهضهم الهضم الاول

أما العصير المعدي فأهم ما فيه من المواد هو حامض الهيدروكلوريك (٢) (بنسبة ٢ في الألف) ومادة يسميها الافرنج (Pepsin) ونسميها بالعربية « الهاضوم » وهي خميرة تفرزها الغدد المعدية ، ويقال إنها خالية من النيتروجين — كما سبق — وعلى ذلك فهي ليست من المواد الزلالية . ووظيفتها تحويل المواد الزلالية الى مادة أخرى تسمى بالافرنجية(Peptone) (أي المهضوم) وذلك بضم عناصر الماء الى ذرات المواد الزلالية ثم انقسامها فتحدث هذه المادة الپيتونية، وهي سهلة الذوبان سهلة الامتصاص لكون ذراتها أصغر من ذرات الزلال

وأما الطعام فانه يمكث في المعدة نحو أربع ساعات فيها يحصل هذا الهضم المذكور في المواد الزلالية، ويتحول سكر القصب الى مادة أخرى سكرية ، وتقتل جميع الميكروبات تقريبا بما في هذا العصير المعدي من الحامض فيصير الطعام طاهرا لكيلا يضر بالجسم ، فاذا حدث للمعدة ما يقلل افراز هذا الحامض أو يمنعه

---

(١) هو الغشاء المغشي للأحشاء البطنية ، ومنه جزء كالمنديل يسمى بالثرب ، ويمكننا أن نسمي البريتون بالعربية (الغشاء المحيط) (٢) مركب من هيدوجين وكلورين

أمكن دخول ميكروبات أو ديدان الى الامعاء ، أو الى الجسم نفسه

هذا كله هو وظيفة المعدة ، ولا تأثيرلها في المواد النشوية ولا في المواد الدهنية الا باسالتها وبهضم ما أحاط بها من الغلف الزلالية . والعصارة المعدية لاتنفرز الا وقت الطعام

وأول انفتاح للبواب يحصل بعد نحو ٢٠ دقيقة من نزول الطعام في المعدة فيمر الى الامعاء جزء مما في المعدة ، ثم ينغلق البواب ، ثم يتتابع هذا الفتح والانغلاق في البواب وتأخذ مدة انغلاقه في التقصر ومدة انفتاحه في الطول حتى يمر الطعام الذي في المعدة شيئا فشيئا الى الامعاء بحيث يمر كله في نهاية الساعة الرابعة تقريبا

وبعد المعدة توجد الامعاء الصغيرة أو الدقيقة ثم الامعاء الكبيرة أو الغليظة

أما الامعاء الصغيرة فطولها نحو من ٢٠ قدما ، وتقسم الى ثلاثة أقسام : -

(١) الاثنا عشري، وطوله ١٢ أصبعا أو ١٠ بوصات وفيه يحصل الهضم الاعظم للطعام كما سيأتي تفصيله (٢) الصائم، سمي بذلك لوجوده فارغا بعد الوفاة عند تشريح الجثة ، يبلغ طوله خمسي الامعاء الصغيرة الباقية بعد الاثني عشري (٣) اللفائف ، وهي الثلاثة الأخماس الباقية من الامعاء الصغيرة

وأما الامعاء الكبرى فتبتدئ من الحفرة الحرقفية اليمنى بما يسمى (بالاعور) وفي أسفله مصير صغير كالدودة يسمى بالزائدة الدودية ، وفيها يحصل مرض مشهور هو التهابها الذي قد يكون سببا في وفاة الشخص ان لم يتداركه الاطباء بالعلاج الفعال . وهذه الزائدة هي أحد الاعضاء الأثرية الشهيرة في جسم الانسان التي لما ينته الناس الى حل لمعناها أحسن مما ذهب اليه دارون [١] وقيل ان لها افرازا

(١) هو العلامة الانكليزي (تشارلس دارون) عاش بين سنة ١٨٠٩ و ١٨٨٢ ميلادية . وقد ذهب الى أن الانواع الحية ليست ثابتة ، ولم يخلق كل منها مستقلا عن غيره بل نشأ بعضها عن بعض بالتغير التدريجي البطيء مع طول الزمان لعوامل طبيعية بينها بيانا شافيا . وقد توسع العلماء في هذا المذهب حتى طبقوه على كل شيء في هذا الوجود فصار يشمل الجماد والامور المعنوية كالأفكار واللغات =

يحدث لينا فتُطرَد المواد البرازية وترتفع في القولون مضادة للجذب الارضي في الحيوانات المنتصبة القامة (القرد والانسان) ولذلك لا توجد في الحيوانات الأخرى، واذا استئصلت حدث امساك متماص مستديم يؤدي الى ضعف الجسم ومرضه كما دلت عليه تجاربهم على ما قالوا

وبعد الاعور يوجد القولون [١] وهو أربعة أقسام القولون الصاعد والقولون المستعرض والقولون النازل والتعريج السيني

ثم المستقيم الذي ينتهي بالشرج وهو فتحة الدبر

وطول الامعاء الكبيرة يختلف من ٥ الى ٦ اقدام

والامعاء مركبة من الطبقات الآتية (١) طبقة مصلية وهي من البريتون الذي سبق ذكره (٢) طبقة عضلية مركبة من طبقتين : مستطيلة وحلَقية ، فالمستطيلة في الخارج والحلقية في الداخل (٣) الغشاء المخاطي ويفصله عن الطبقة العضلية (٤) طبقة رابعة فيها تتفرع أوعية عديدة دموية ولمفاوية وأعصاب دقيقة . وفي الطبقة المخاطية غدد كثيرة لافراز العصير المعوي ، منها نوع في الاثني عشري يسمى بغدد (برونر) [٢] ونوع آخر في الامعاء كلها يسمى بغدد (ليبركهن) وهي من الشكل الأنبوبي البسيط . ويوجد غير ذلك في الغشاء المخاطي وتحته منسوج لمفاوي ، بعضه يتكون منه غدد صغيرة تسمى (بالغدد المنعزلة أو الوحيدة) والبعض الآخر يتجمع على شكل بيضاوي يحدث بقعا في طول جدران المصران تسمى ببقع بايير (Peyer) [٣] وهي توجد بكثرة في اللفائف

وفي هذه الغدد اللمفاوية بنوعيها يحصل التهاب بسبب ميكروب مخصوص فتحدث

= والمعتقدات والشرائع وغيرذلك . فمحصل هذا المذهب أن الكون بما فيه لم يخلق دفعة واحدة بل خلق أطوارا طبقا لسنة التدرج والترقي. فالمذهب في الجملة صحيح لاشك فيه ، ويكفي في إثباته قوله تعالى (وقد خلقكم أطوارا) وانما النزاع في بعض تفاصيله ، وسنعود الى بيان ذلك في فرصة أخرى ان شاءالله تعالى

(١) القولون اسم هذه الامعاء الغليظة باليونانية ، والكلمة من تعريب المتقدمين

(٢) نسبة لعالم ألماني يدعى « فون برون »

(٣) مشرح سويسري عاش بين سنة ١٦٥٣ و ١٧١٢

عنه الحمى المعروفة بالتيفودية أو الحمى المعوية وهذه البقع المنسوبة لبايير لا توجد في الامعاء الغليظة وانما توجد فيها الغدد المنعزلة فقط — وهي التي تكثر جداً في الأعور والزائدة الدودية —

وبالتهاب هذه الغدد التي في الامعاء الغليظة مع الأغشية المخاطية وتقرحها يحصل المرض المسمى بالدوسنطاريا (الزحار) سمي بذلك في العربية لانه يحدث منه زحير شديد متكرر، ومن أعراضه أيضا المغص الشديد والحمى والاسهال مع نزول مواد مخاطية دموية صديدية متكررة بمقادير صغيرة في كل دفعة

وفي الغشاء المخاطي للامعاء الصغيرة مايسمى بالخَمْل وهو كالاهداب لهذا الغشاء، وهو أعظم آلات امتصاص المواد الغذائية. وفيه أيضا غير ذلك مايسمى بالصمامات الهلالية لكركرنج (Kerkring) وهي عبارة عن ارتفاعات تتكون من ثنيات الغشاء المخاطي على نفسه، وفائدتها ان تعوق سير الطعام حتى يهضم وأن تكبر سطح الغشاء المخاطي للامعاء ليكثر افرازه وامتصاصه للمواد المهضومة، ولذلك يبتدئ وجودها بعد البواب بأصبعين أو ثلاثة وتكثر شيئا فشيئا خصوصا في الاثني عشري والصائم وكذلك تكبر تدريجا، ثم تأخذ في القلة والصغر حتى تنتهي في منتصف اللفائف. ولا وجود لها هي والخمل في الامعاء الكبيرة لقلة الامتصاص وعدم الهضم فيها.

والحكمة في وجود الغدد اللمفاوية المذكورة آنفا هي حفظ الجسم من دخول الميكروبات فيه ولذلك تكثر في اللفائف وفي الامعاء الغليظة حيث يكثر التعفن والفساد لخلو هذه الاجزاء من العصارات المطهرة، بخلاف المعدة فان عصيرها مطهر كماسبق، والصفراء في الاثني عشري من وظائفها أيضاتقليل تعفن الطعام

ويصب في الامعاء الصغيرة قناتان عظيمتان: إحداهما من عضو يسمى باليونانية (البنكرياس) ويمكننا أن نسميه بالعربية (الغدة الجسدية) والاخرى هي قناة الكبد تحمل المرة (الصفراء) الى الأمعاء، وهاتان القناتان تجتمعان معا عند نهايتهما وتصبان بفتحة واحدة غالبا في الجزء النازل من الاثني عشري في الجهة الانسية منه

أما البنكرياس (الغدة الجسدية) فهي أهم غدة في الجهاز الهضمي كله ، طولها نحو ٦ الى ٨ بوصات ، وموضعها خلف المعدة ووضعها مستعرض بالنسبة للجسم امام الفقرة القطنية الاولى . وتفرز عصيرا فيه خمائر أربع هامة جدا كل منها يهضم جزأ مخصوصا من الغذاء (إحداها) هاضوم زلالي [1] لهضم جميع المواد الزلالية كاللحم والبيض فيحولها الى المادة المسماة (پپتون) وهو أقوى من هاضوم المعدة المسمى پپسين بكثير (الثانية) الهاضوم النشوي وهو الذي يحول المواد النشوية الى سكر الشعير وهو أيضا أقوى بكثير من [اللعابين] حتى انه يؤثر في النشاء غير المطبوخ . ولا يوجد هذا الهاضوم في أمعاء الاطفال الرُّضع قبل الشهر السادس ولذلك كان من الخطر عليهم أن يطعموا أي مادة نشوية كالبطاطس والخبز ؛ فان ذلك يفسد جهازهم الهضمي ويضعف صحتهم فيصابون كثيرا بالاسهال وغيره وبداء الكساح (Rickets) (الثالثة) الهاضوم الشحمي ووظيفته أن يحدث مستحلبا مع المواد الشحمية أو الدهنية ويحللها أيضا الى جلسرين [2] وحوامض شحمية ، وكلاهما سهل الامتصاص . وقد يتحد بعض هذه الحوامض مع البوتاسيوم أو الصوديوم فيتكون من ذلك الصابون ، والصابون أيضا سهل الامتصاص ؛ فاذا امتصت هذه الاشياء عادت الى شحم كما كانت (الرابعة) خميرة تشبه الانفحة وظيفتها تحويل اللبن الى جبن ، وهذه أقل الخمائر المذكورة تأثيرا في الهضم

والعصير البنكرياسي قلوي التأثير بخلاف العصير المعدي فانه حمضي

أما الكبد فهي أكبر عضو في الجسم ، موضعها الجهة اليمنى من البطن تحت الحجاب الحاجز مباشرة . ولها وظائف عديدة فهي تفرز المِرَّة (الصفراء) وتخزن فيها أكثر المواد السكرية وبعض الزلالية بعد ان تتحول الى النشاء الحيواني (جليكوجين) لحين الحاجة اليها فتحولها ثانية الى سكر يخرج منها مع الدم ليحترق في الجسم خصوصا في عضلاته ، وهذه الوظيفة هي من أكبر وظائفها ، وتكوّن أيضا حامض البوليك والبولينا لتفرزهما الكلى ولولا ذلك لتراكمت بعض المواد الضارة بالجسم

---

(١) اذا أطلقنا هذه الكلمة أردنا بها الهاضوم المعدي المسمى باليونانية ببسين

(٢) كلمة يونانيه معناها حلو

ومن وظائفها أيضا أنها تصفي المواد التي تهضمت في الأمعاء وتنقيها من الميكروبات ومن بعض السموم وذلك أثناء مرورها فيه ولذلك اقتضت الحكمة الإلهية ان تجتمع جميع الأوردة الآتية من القناة الهضمية ويتكوّن منها وريد واحد هو الوريد الذي يسمى (الباب [1]) الذي يجتمع فيه ما انهضم من الزلال والسكر وبعض الشحم فيصل الى الكبد وهناك تفرز منه الصفراء وينقى

أما المرة (الصفراء) فهي إفراز ضار بقاؤه بالجسم ، فلذا تنصب في الأمعاء لتخرج مع البراز وهي السبب في تلون البراز باللون المعهود ، وجزء من الصفراء لايخرج مع البراز وانما يمتص ثانية في الجسم فتفرزه الكلى وهو السبب في تلون البول باللون المعروف. وفي الاجنة تتجمع الصفراء في امعائهم حتى إذا ولدوا نزل البراز من أمعائهم أسود اللون ويسمى (بالعقي)

ولا يتوهمن القارئ مما ذكر ان الصفراء لا فائدة لها في الهضم بل هي أكبر مايعين العصير البنكرياسي على هضم جميع المواد المذكورة سابقا وخصوصا المواد الدهنية ، والصفراء تقلل التعفن والفساد كما قلنا ، وهي أيضا منبهة للحركة الدودية للامعاء ، ولذلك يعرض لمن احتبست فيه الصفراء - بأن انسدت - مجاريها مايسمى (باليرقان) فيصفر جميع جسمه ويحصل له امساك منكرر ويرى في برازه شحم غير مهضوم وتكون له رائحة كريهة جدا

أما مجاري الصفراء فهي في مبدئها مجهرية (ميكروسكوبية) وتبتدئ من داخل الخلايا الكبدية وتجري فيما بينها وتتجمع هذه القنوات بعضها مع بعض حتى تكبر شيئا فشيئا الى ان تنتهي بقناتين عظيمتين : احداهما تخرج من الفص الايمن للكبد ، والاخرى من الفص الايسر لها وتجتمعان معا فيحدث منهما قناة واحدة . وفي أسفل الكبد كيس صغير يسمى بالحويصلة الصفراوية (المرارة) لها قناة أيضا تتحد مع قناة الكبد وتتكون منهما القناة الكبرى المسماة (بالقناة المشتركة) التي قلنا انها تصب في الاثني عشري . وفائدة هذه الحويصلة أن تكون مستودعا

---

(١) سمي بذلك لأنه يحمل الأغذية والاشربة بعد الهضم الى الكبد ومنها الى الجسم ، فكأنه باب لدخول الطعام والشراب الى البدن

للمرة في وقت عدم الحاجة اليها

وإذا انسدت القناة الكبدية وحدها حصل اليرقاق وكذلك اذا انسدت القناة الكبرى ، أما اذا انسدت قناة الحويصلة فقط كبرت هذه بسبب افراز مواد مخاطية من باطنها وحدث كيس تحت الكبد ، و بانسداد هذه القنوات السالفة الذكر بحصيات كبدية تتكون غالبا في الحويصلة يحصل المغص الكبدي

و إذا انعكست حركة الامعاء بحيث تعود الصفراء الى المعدة من البواب حصل القيء الصفراوي ، وهو مر الطعم

أما لون المرة فسببه اشتمالها على مواد ملوّنة لاتختلف عن هيموجلو بين الدم إلا بعدم وجود الحديد فيها ، وذلك لان الكبد من المواضع التي تباد فيها الكريات الحمراء القديمة فتأخذ الكبد منها الهيموجلو بين وتفصل منه الحديد وتلقي بالباقي في افرازه وهو السبب في تلون المرة باللون المعروف . أما الحديد فان الكبد تركبه مع غيره من العناصر ويخرج منها في الدم فاذا وصل الى نقو العظام امتزج بكريات (خلايا) هناك فتنشأ منها الكريات الحمراء

ولوجود مادة الحديد في خلايا الكبد كانت الكبد من أحسن المآكل المغذية المجددة ، للدم غير أنها أعسر هضما من اللحوم البيضاء

اما جميع المواد النشوية والسكرية المهضومة فانها تمتص في الدم بعد أن تتحول الى سكر العنب ، فاذا وصلت الى الكبد حجزمنها موقتا ما زاد عن حاجة الجسم بصورة النشاء الحيواني المذكور (الجليكوجين) وهذا النشاء يتحول شيئا فشيئا كلما احتاج الجسم اليه الى سكر العنب مرة أخرى و يسير في الأوردة الكبدية ويدور مع الدم فيغذي أنسجة الجسم وعضلاته وفيها يحترق فيتحول الى ثاني أكسيد الفحم والى الماء — كما سبق —

واعلم ان الطعام الذي تم هضمه في المعدة وسار منها الى الاثني عشري يسمى (الكيموس) وهي كلمة يونانية معناها العصير

أما الأمعاء فانها تفرز عصيرا آخر أهم وظيفة له تحويل سكر القصب وسكر الشعير الى سكر العنب ، ولها أيضا بعض التأثير في المواد النشوية فتحولها الى سكر

ومما تقدم يفهم أن أجزاء الطعام الاصلية تتحول قبل امتصاصها كما يأتي — :

(١) الماء والاملاح لا تتحول الى شيء وتمتص كما هي

(٢) المواد الزلالية [1] تحولها عصارات المعدة والبنكرياس الى پپتون ولكنها عند امتصاصها تحولها خلايا الغشاء المخاطي للامعاء الى مواد زلالية أخرى مثل التي في الدم

(٣) المواد الشحمية والدهنية يمتص جزء منها كما هو ، وأكثرها ينحل بالعصير البنكرياسي الى جلسرين وحوامض شحمية — كما تقدم — وكل من هذه الحوامض والجلسرين سهل الامتصاص ، ولكن في أثناء مرورها خلال الغشاء المخاطي للامعاء تحولها خلاياه الى شحم أو دهن كما كانت من قبل انحلالها ، وبعض الحوامض يتحد مع صوديوم المرّة فيتكون صابون وهو سهل الامتصاص ويساعد أيضا على امتصاص الشحم كما هو ، فالشحم يهضمه عصير البنكرياس مع المرة بعد أن يحولاه الى (مستحلب) وذلك مما يعين أيضا على هذا الهضم والامتصاص

(٤) أما المواد النشوية فانها تتحول باللعاب والعصير البنكرياسي الى سكر الشعير ، ثم يتحول هذا السكر وسكر القصب — ان وجد — بواسطة العصير المعوي الى سكر العنب ، وهذا السكر سهل الامتصاص ويبقى في الدم كما هو غير أنه يخزن الزائد منه مؤقتا في الكبد على صورة الجيكوجين - كما قلنا — أما سكر اللبن فيتحول أثناء امتصاصه الى سكر العنب أيضا ، ولا تأثير للعصارات الهاضمة فيه

امتصاص الاغذية

أما الامتصاص فانه يحصل في القناة الهضمية من أولها الى آخرها أي من الفم الى المستقيم ، ولكن الامتصاص في الفم قليل جدا كثير في المعدة والامعاء خصوصا في الصائم من الامعاء الصغيرة

ولما كان بعض المواد الزلالية يمكن امتصاص القليل منها وإن لم تهضم [2]

---

(١) تسمى أيضا الاولية (Proteids) لان لها المنزلة الأولى بين الاغذية ، والنيتروجين من لوازم تركيبها (٢) المراد بالهضم هنا التغير الكيماوي المخصوص الذي يحصل في الاغذية قبل امتصاصها -

وكذلك الشحم والزيوت فلذا يستعمل الأطباء في بعض الأمراض الحقن الشرجية المغذية للمرضى ولكن أكثر هذه الحقن يهضم هضما صناعيا قبل حقنه لتسهيل امتصاصه لعدم وجود عصارات هاضمة في المستقيم

أما الماء والاملاح والمواد السكرية والزلالية فكلها تمتص من الامعاء بواسطة فروع الوريد الباب ليحملها الى الكبد — كما سبق — مع بعض أجزاء من الدهن قليلة جدا ، ولكن أكثر المواد الدهنية تمتصها أوعية لمفاوية مخصوصة موجودة في الامعاء ، وهذه الاوعية تسمى (بالاوعية اللبنية) لان هذه المواد الدهنية التي تجري فيها تشبه اللبن وتسمى (بالكيلوس) وهي كلمة يونانية أيضا معناها العصير؛ وهذه الاوعية اللمفاوية تصب في غدد لمفاوية منثورة في طريقها لتنقيتها من الميكروبات ونحوها ، وكل من الاوعية وهذه الغدد موجود بين طبقتي المساريقا (Mesentery) [١] وهي عبارة عن غشاء من البريتون يعلق الامعاء الصغيرة بالظهر ويحيط بها

والغدد اللمفاوية التي بين طبقتي المساريقا يحصل فيها التهاب فضخامة عند تقرح الامعاء في الحمى التيفودية وغيرها

واعلم أن الزلال المهضوم المسمى (پپتون) اذا دخل الدم من غير أن تحوله الخلايا المخاطية الى زلال كزلال الدم كان سما زعافا فلذا كان تحويله قبل امتصاصه واجبا

ومن المعلوم أن سم الثعابين ونحوها هو مواد زلالية تقرب من الپپتون فلذا كان أكله مغذيا لا ضرر فيه لان خلايا الغشاء المخاطي تتكفل بتحويله إلى مايصلح للجسم قبل امتصاصه ، أما اذا حقن في الدم أو تحت الجلد بدون هذا التحويل كان خطرا على الحياة

وفي الامعاء ميكروبات عديدة ، وهذه الميكروبات تحدث تغيرا وتحليلا في الاغذية فوق الذي تحدثه العصارات الهاضمة فينشأ عن ذلك غازات وغيرها ، بعضها يضر امتصاصه وبعضها لا ضرر فيه ، وهذه الغازات هي التي تحدث القراقر

(١) كلمة يونانية معناها (وسط الامعاء) لان هذا الغشاء متصل بوسط الامعاء

في البطن وخروج الأرياح ، ويكثر تكون هذه الغازات بأكل المواد النباتية .
وقد تؤثر العصارات الهاضمة في بعض المواد المأكولة فتخرج منها مواد سامة للجسم اذا امتصت في الدم ، ولكن هذه الميكروبات تحللها الى أجسام أخرى وبذلك تبطل ضررها ، فوجودها في الامعاء ضروري ، ومن الخطإ محاولة قتلها بالأدوية المطهرة

أما البراز فهو فضلات جميع الاغذية والاشربة التي لم تمتص ، ومفرزات الجهاز الهضمي ، وغير ذلك

والسبب في حصول الاسهال أحد ثلاثة أمور (١) إما اضطراب حركة الامعاء حتى تكون أسرع من الحالة الطبيعية فيمر فيها الطعام والشراب بسرعة زائدة قبل ان يجف بالامتصاص (٢) وإما زيادة العصارات الهاضمة وخصوصا افرازات الامعاء بسبب مرضها كالتهابها (٣) وإما قلة امتصاص خلايا الغشاء المخاطي للاطعمة والاشربة لمرض ما فيها . وهذه الاسباب في الغالب تكون مجتمعة في الاسهال العادي وقد تحصل بالمسهلات ، ولذلك كان الاسهال الزائد عن الحد ضارا جدا لانه ينهك القوى

والسبب في الامساك عكس ما تقدم ، وضرره يكون بامتصاص بعض المواد الضارة في الدم وبضغطه على بعض الاعضاء كالاوردة أو الاعصاب فيعوق وظيفتها وقد تنشأ عنه البواسير والصداع والضعف وآلام عصبية في الفخذ الايسر لضغط المواد البرازية في التعريج السيني والمستقيم على الاعصاب . أما مدة مرور الطعام في الامعاء فهي عادة من ٢٤ — ٣٦ ساعة ، منها نحو ١٢ ساعة للامعاء الدقيقة

(فصل في الاطعمة والاشربة وغيرها)

المواد الضرورية للجسم سبق ذكرها مرارا وهي باختصار : المواد الزلالية (الأولية) والسكرية والنشوية (الكربوهيدراتية) والدهنية والماء والاملاح وهذه المواد يأخذها الانسان اما من الحيوانات أو من النباتات ، والحيوانات المأكولة تأخذها أيضا من النباتات ، فمصدر غذاء الانسان كله هو النباتات . وهذه المواد كلها توجد في أنواع مختلفة من الاطعمة أهمها :—

(١) اللبن

هو غذاء كامل لاشتماله على جميع المواد السابقة وعلى الدهن المعروف (السمن والزبدة والقشدة) ويستخرج منه الجبن وهو جل المواد الزلالية والدهنية مع بعض أملاح تضاف إليه من الخارج

واذا تعرض اللبن للهواء زمنا ما، هبطت إليه بعض ميكروبات مخصوصة تحول سكره الى حامض اللبنيك وهذا يرسب الزلال الذي في اللبن فيغلظ ويكون كاللبن المعروف في مصر (باللبن الزبادي) المسمى بالعربية (اللبن الخاثر والرائب) وقد توضع في اللبن خميرة فيها بعض ميكروبات أخرى فتحول سكره الى غول فينشأ نوع من الخمر بسبب ذلك يعرف في بلاد التتار بالكفير أو الكوميس وكل من الكفير [١] والكوميس [٢] سهل الهضم مغذ للانسان منبه للدورة الدموية بما فيه من الغول بمقادير قليلة ونافع في السل الرئوي — كما يقال — ولكن الاكثار والادمان عليه له بعض الاثر السيء الذي للخمر عامة

أما اللبن الخاثر فهو أيضا سهل الهضم لقلة مائه ووجود الحامض فيه، مغذ للانسان ولكن اذا طالت مدة تخمره تولدت فيه مواد سمية ضارة، وهذا النوع نافع في الحميات لقلة افراز المعدة للحمض أثناء الحميات وهو مفيد أيضا في نزلات المثانة

واللبن قد يختلط بميكروبات أخرى محدثة للامراض بعضها يصل اليه من الانسان كميكروب الحمى التيفودية، والبعض الآخر قد يصل اليه من غيره كميكروب الحمى المالطية في لبن بعض المعز وكالدفتيريا فانها تصيب البقر والضأن. وكثير من البقر يصاب بالتدرن فيكون اللبن سببا في الدرن الانساني وان لم توجد فيه ميكروبات الدرن نفسها اذ يكفي وجود سمومها فيه فان ذلك يضعف البنية ويهيئها لقبول ميكروب الدرن. فلذا يجب أخذ اللبن من الحيوانات السليمة في أوان نظيفة جدا وبأيد كذلك. وللثقة بطهارته من جميع الميكروبات يجب غليه قبل تعاطيه مدة خمس دقائق على الاقل

---

(١) يصنع من لبن البقر والمعز والغنم (٢) يصنع من لبن الفرس

واذا منعنا وصول سائر الميكروبات الى اللبن أمكننا حفظه دهرا بدون فساد كما سبق

وللانفعال النفساني الشديد تأثير في افراز اللبن حتى إنه قد يسم الصغار

ومن السهل أخذ زبدة اللبن أو القشدة بالآلة المبعدة عن المركز المسماة باللاتينية [Centrifuge] فاذا أديرت بسرعة أبعدت جميع المواد التي في اللبن عن المركز لثقلها ماعدا زبدة اللبن فانها تأتي نحو المركز لخفتها ، و بسبب خفتها أيضا تصعد الى سطح اللبن اذا سخن بالنار كما هو معلوم

واذا أخذت زبدة اللبن صار ثقله النوعي أزيد من المعتـاد فاذا أضيف إليه جزء من الماء عاد ثقله الى المعتاد (وهو في لبن البقر ١٠٢٨ الى ١٠٣٤)

ومن طرق غش اللبن أن يضاف عليه الماء مع النشاء لإكثار كميته ولـكن النشاء تمكن معرفته بطريقـة كيماوية سهلة جدا وذلك بوضع جزء من صبغة اليود عليه فيتلون في الحال باللون الازرق اذا كان فيه نشاء

ويصنع من زيوت النبـاتات وشحم الحيوانات زبدة كاذبة تسمى باللاتينية وغيرها المرغرين (ومعناها حرفيا مادة اللؤلؤ سميت بذلك للمعانها) يستعملهـا التجار كثيرا بقصد الغش وهي في الحقيقة لا ضرر فيها الا أنها أرخص ثمنا

ومن أكثر الالبان تغذية لبن الجاموس والعنز، وأسهلها هضما لبن المرأة والأتان (أنثى الحمير) وأكثرها سكرا لبن المرأة ويقرب منه في ذلك لبن الأتان

(جدول تركيب الالبان المختلفة)

نوع اللبن	المواد الزلالية	الدهن	السكر	الاملاح	الماء
لبن المرأة	٢٫٢٩	٣٫٨١	٦٫٢٠	٠٫٣٠	٨٧٫٤٠
« البقرة	٣٫٥٥	٣٫٦٩	٤٫٨٨	٠٫٧١	٨٧٫١٧
« الفرس	٢٫٠٠	١٫٢٠	٥٫٦٥	٠٫٣٦	٩٠٫٧٩
« الاتان	٢٫٢٥	١٫٦٥	٦٫٠٠	٠٫٥٠	٨٩٫٦٠
« العنز	٤٫٣٠	٤٫٧٨	٤٫٤٦	٠٫٧٥	٨٥٫٧١
« الجاموسة	٦٫١١	٧٫٤٥	٤٫١٧	٠٫٨٧	٨١٫٤٠

(٢) البيض

وهو يؤخذ من أنواع مختلفة من الطيور، وأكبره بيض النعام، وهو أيضا غذاء كامل لاشتماله على جميع المواد اللازمة للجسم، ولذلك تتكون منه أجنة الطيور فتخرج منه كاملة الاعضاء والاجزاء. وطبقاته مؤلفة كما يأتي: —

القَيض (القشرة) مركبة من مواد جيرية أهمها كربونات الكلسيوم، وبها ثقوب عديدة لازمة لدخول الهواء الى البيضة وخروجه منها لتنفس جنين الطير، فاذا سدت جميع هذه الثقوب اختنق ما في داخلها ومات. وسدها أيضا بمثل الشمع أو الصمغ يحفظ البيضة من الفساد، فانه يمنع دخول الميكروبات اليها. ويلي هذه القشرة طبقة أخرى رخوة، ثم بياض البيض (الغِرْقِئ) وهو يتركب من مواد زلالية مع قليل من الدهن والملح، ووظيفته تغذية جنين الطير، وهو محيط بالمح (الصفار) من جميع الجهات، أما (المح) فهو عبارة عن خلية حية كبقية الخلايا الحيوانية ولها نواة يبتدئ فيها تكوُّن الجنين بانقسامها وتغذيها بما حولها من المواد المغذية. والمح يتركب أكثره من مواد دهنية وأملاح مع قليل من الزلال المسمى جلوبيولين، ولا يحصل هذا الانقسام في النواة الا اذا كانت ملقحة بالحيوان المنوي للذكر، ومدة التفريخ للدجاج ٢١ يوما أي ثلاثة أسابيع

والبيض مغذ جدا سهل الهضم الا اذا طبخ طبخا شديدا فان ذلك يجمد مواده ويجعلها عسرة الهضم، واذا شرب منه جزء بدون طبخ أو مع طبخ قليل أفاد الجسم وغذاه، غير أن الافراط فيه مما يتعب الكلى، وقد ينزل جزء من زلاله في البول

ولمعرفة البيض الجيد من البيض الفاسد تذاب أوقيتان من ملح الطعام في نصف لتر ماء فاذا غرقت البيضة في هذا السائل دل ذلك على جودتها، والا كانت فاسدة مشتملة على غازات ناشئة من الفساد هي السبب في خفتها

(٣) العسل

هو في الاصل ما تجمعه النحل من رحيق الازهار، ثم تحوله في معدها الى هذه المادة المخصوصة ثم تلقيه من أفواهها في خلاياها مصداقا لقوله تعالى (يخرج من

بطونها شراب مختلف ألوانه) وفائدة العسل للنحل تغذية صغارها [١] به

والعسل يشمل أنواعا من السكر أهمها سكر العنب مع مواد عطرة، وفيه أيضا جزء من الأبور (وهو المادة التي تسميها الافرنج (Pollen) وهي عبارة عن عنصر الذكر في الازهار الذي تلقح الانثى به، والابور مادة پروتو پلازمية حية أي مشتملة على زلال وغيره، ولذا كان العسل مشتملا على كثير من العناصر الضرورية للحيوانات. أما شمعه فلا يهضم ولا يكتسب منه الجسم شيئا

والعسل مغذ جدا سهل الهضم للغاية بل ان سكر العنب الذي فيه لا يحتاج الى العصارات الهاضمة فانه يمتص بدونها. والعسل ملين مقوّ للجسم، و بسبب سهولة هضمه وتقويته للجسم واحداثه اللين كان نافعا في كثير من الامراض فيجعل الجسم قوي المقاومة لانواع كثيرة من الميكروبات، وقد يتغلب عليها بسبب ذلك، فهو نافع في سائر الامراض التي تنهك القوى كالسل والسرطان والانيميا والبلغرا وفي الحميات وغير ذلك حتى قال بعضهم انه نافع في البول السكري، ولكن ذلك لم يثبت الآن عند الجمهور

وهو يحرض شهوة الطعام أيضا ويكثر من إفراز المعدة ومن اللعاب فيرطب الحلق، ولذا كان نافعا في التهاب اللوزتين والحلقوم وفي السعال. كل ذلك يؤيد قوله تعالى (فيه شفاء للناس) وقد يجوز اعطاؤه أيضا في أحوال الاضطرابات المعدية المعوية لانه سهل الهضم جدا مساعد عليه — كما قلنا — فلذا ينفع المصابين بعسر الهضم، ويجوز اعطاؤه في أول الامر للمصابين بالذّرب كما يعطى زيت الخروع بقصد تنظيف القناة الهضمية من المواد التي تحدث تهيجها، ويحسن اعطاؤه ملينا للاطفال بدل زيت الخروع فانه ملين لذيذ الطعم تشتهيه أنفسهم. ومن ذلك تعلم حكمة وصف رسول الله (ص) العسل لمن أصيب باطلاق بطنه بقصد تنظيف القناة الهضمية وتغذية المريض به لسهولة هضمه، و يشبه ذلك وصف الاطباء غذاء اللبن في الذّرَب مع أنه يسهل كثيرا من الناس

---

(١) تسمى صغار النحل اللوث (بالضم) والطرد (بالفتح) والرصع بالتحريك والديسم (بوزن جعفر)

ومن أحسن الاغذية النافعة للحميات العسل مع اللبن ، فان العسل يحترق في الجسم ويوفر احتراق أجزائه الاخرى بسبب الحمى. وذلك مما يعين الجسم على التغلب عليها . هذا وإن عسل النحل الذي يجمعه من أزهار سامة يحدث أعراض التسمم لمن يطعمه ، وكذلك الحال في ألبان الانعام التي تأكل نباتات سامة ، فيجب الاحتراس من ذلك ما أمكن م؟

الحنين الى الاوطان

كتاب مختصر من احسن كتب الادب طلاوة ، واشدها حلاوة ، وارشقها عبارة واجودها اختيارا للآلئ الكلام المنثورة والمنظومة ، واطبعها لملكة البيان في نفس الطالب ، وذوق البلاغة من الشاعر والكاتب . وحسبك انه لامام ائمة الادب ابي عثمان الجاحظ ، الذي نوه الزمخشري بمكانته العليا من البيان، في خطبتي كتابيه اساس البلاغة والكشاف. وهاك هذا النموذج من اوله . قال بعد البسملة

إن لكل شيء من العلم ونوعٍ من الحكمة وصنفٍ من الادب — سببا يدعو الى تأليف ما كان فيه مشتتاً ، ومعنى يحدُو[1] على جمع ما كان متفرقا، ومتى أَغفل حملةُ الادب وأهلُ المعرفة تمييزَ الاخبارِ ،واستنباط الآثار ، وضم كل جوهر نفيس الى شكله ، وتأليف كل نادر من الحكمة الى مثله ، بطلت الحكمة ، وضاع العلم ، وأميت الأدب ، ودرس مستور كل نادر . ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر ، ونقرهم آثار الاوائل في الصخر ، — لبطل أول العلم وضاع آخره ؛ ولذلك قيل :

لا يزال الناس بخير ما بقيَ الاوّل يتعلم منه الآخر

وان السبب على جمع نتف من أخبار العرب في حنينها الى أوطانها،

(١) يحدو ــ حداه على الامر بعثه اليه

وشوقها الى تربها وبلدانها، ووصفها في أشعارها، توقد النار في أكبادها، أني فاوضت بعض من انتقل من الملوك في ذكر الديار، والنزاع [1] الى الاوطان، فسمعته يذكر أنه اغترب من بلد الى آخر أمهد من وطنه، وأعمر من مكانه، وأخصب من جنابه؛ ولم يزل عظيم الشان، جليل السلطان، تدين له من عشائر العرب ساداتها وفتيانها، ومن شعوب العجم أنجادها [2] وشجعانها، يقود الجيوش ويسوس الحروب، وليس ببابه إلا راغب اليه أو راهب منه، فكان اذا ذكر التربة والوطن حن اليه حنين الإبل الى أعطانها، [3] وكان كما قال الشاعر:

اذا ماذكرت الثغر فاضت مدامعي		وأضحى فؤادي نهبة للهماهم [4]

حنيناً الى أرض بها اخضر شاربي		وحُلت بها عني عقودُ التمائم [5]

وألطف قوم بالفتى أهل أرضه		وأرعاهم للمرء حق التقادم

وكما الآخر:

يقر بعيني أن أرى من مكانه		ذرا عقدات الابرق المتقاود [6]

١ النزاع الى الشيء الاشتياق اليه

٢ الانجاد جمع نجد وهو الشجاع السريع الى الاجابة فيما دعي اليه

٣ الاعطان أوطان الابل ومباركها عند الماء، واحدها عطن

٤ الهماهم الهموم

٥ التمائم جمع تميمة، وهي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادها يتقون بها العين فى زعمهم فابطلها الاسلام، ذكره فى النهاية لابن الاثير

٦ ذرا الشيء بالضم أعاليه الواحدة ذروة بكسر الذال وضمها، وقال في معجم البلدان: قال ابن الاعرابي الابرق جبل مخلوط برمل وهى البرقة، وكل شيء خلط من لونين فقد برق. والمتقاود المستوي، قال في أساس البلاغة: تقاود المكان استوى، قال:

الا ليت شعري هل أرى من مكانه		ذرا عقدات الابرق المتقاود

وأن أرد الماء الذي شربت به　　سليمى وقد مل السُّرى كل واخد[١]
وألصق أحشائي ببرد ترابه　　وان كان مخلوطا بسم الاساود[٢]

فقلت : لئن قلت ذلك لقد قالت العجم : من علامة الرشد أن تكون النفس الى مولدها مشتاقة ، والى مسقط رأسها توَّاقة[٣] وقالت الهند : حرمة بلدك عليك ، كحرمة أبويك ، لأن غذاءك منهما وأنت جنين — وغذاءهما منه . وقال آخر : احفظ بلداً رشحك غذاؤه ، وارع حمى أكنك فناؤه . وأولى البلدان بصبابتك اليه بلد رضعت ماءه ، وطعمت غذاءه ، وكان يقال : أرض الرجل ظئره[٤] ، وداره مهده ، والغريب النائي عن بلده ، المنتحي عن أهله ، كالثور النادّ[٥] عن وطنه ، الذي هو لكل رام قنيصه . وقال آخر : الكريم يحن الى جنابه ، كما يحن الاسد الى غابه ؛ وقال آخر الجالي عن مسقط رأسه ومحل رضاعه ، كالعير[٦] الناشط[٧] عن بلده ، الذي هو لكل سبع قنيصة ، ولكل رام دريئة[٨] ؛ وقال آخر : تربة الصبا تغرس في القلب حرمة وحلاوة ، كما تغرس الولادة في القلب رقةً وحفاوة[٩] ؛ وقال آخر : أحق

---

١ السرى سير عامة الليل وفي المثل « عند الصباح يحمد القوم السرى » ويقال جمل واخد ووخاد اذا كان واسع الخطو ، وقد وخد يخدو وخداً ووخدانا
٢ الاساود جمع أسود وهو العظيم من الحيات
٣ تاق اليه توقانا اشتاق اليه فهو تائق وتواق
٤ الظئر المرأة التي حضنت ولد غيرها
٥ ند البعير ندا (بتشديد الدال) نفر وذهب على وجهه شاردا
٦ العير الحمار الوحشي والاهلي أيضا
٧ قال في أساس البلاغة : ثور ناشط ــ خارج من أرض الى أرض
٨ الدريئة حلقة يتعلم عليها الطعن
٩ الحفاوة المبالغة في الاكرام

البلدان بنزاعك اليه بلد أمصك حلب رضاعه، وقال آخر: اذا كان الطائر يحن الى أوكاره فالانسان أحق بالحنين إلى أوطانه ؛ وقالت الحكماء : الحنين من رقة القلب — ورقة القلب من الرعاية — والرعاية من الرحمة — والرحمة من كرم الفطرة — وكرم الفطرة من طهارة الرشدة[1] وطهارة الرشدة من كرم المحتد[2] ، وقال آخر : ميلك الى مولدك ، من كرم مَحتدِك ، وقال آخر : عسرك في دارك، أعز لك من يسرك في غربتك ، وأنشد

لقرب الدار في الإقتار خير　　من العيش الموسع في اغتراب[3]

وقال آخر : الغريب كالغرس الذي زايل أرضه، وفقد شِربه ، فهو ذاوٍ[4] لا يثمر ، وذابل لاينضر . وقال بعض الفلاسفة : فطرة الرجل معجونة بحب الوطن — ولذلك قال بقراط : يداوى كل عليل بعقاقير أرضه ، فان الطبيعة تتطلع لهوائها ، وتنزع الى غذائها ؛ وقال أفلاطون : غذاء الطبيعة من أنجع أدويتها ؛ وقال جالينوس : يتروح العليل بنسيم أرضه — كما تتروح الارض الجدبة ببلل القطر

والقول في حب الناس الوطن، وافتخارهم بالمحال قد سبق ، فوجدنا الناس بأوطانهم أقنعَ منهم بأرزاقهم — ولذلك قال ابن عباس : لو قَنِع الناس بأرزاقهم، قناعتهم بأوطانهم مااشتكى عبد الرزق؛ وترى الاعراب تحن الى البلد الجدب والمحل القفر والحجر الصلد ، وتستوخم[5] الريف

١ الرشدة صحة النسب وهي بكسر الراء ، والفتح لغة
٢ المحتد الاصل ، يقال هو كريم المحتد وهم كرام المحاتد
٣ الاقتار مصدر أقتر الرجل اذا افتقر　٤ ذاو — ذابل
٥ استوخم البلد، وهو وخم ووخم بالكسر والسكون أيضا اذا لم يصلح للسكن

حتى قال بعضهم

أتجلين في الجالين أم تتصبري على ضيق عيش والكريم صبور [1]

فبالمصر برغوث وحمى وحصبة وموم وطاعون وكل شرور [2]

وبالبيد جوع لا يزال كأنه ركام بأطراف الإكام تمور [3]

وترى الحضري يولد بأرض وباء وموتان وقلة خصب — فاذا وقع ببلاد أريف من بلاده، وجناب أخصب من جنابه، واستفاد غنى حن الى وطنه ومستقره.

ولو جمعنا أخبار العرب وأشعارها في هذا المعنى لطال اقتصاصه. ولكن توخينا تدوين أحسن ماسنح من أخبارهم وأشعارهم وبالله التوفيق

ومما يؤكد ما قلنا في حب الاوطان قول الله عز وجل حين ذكر الديار يخبر عن مواقعها من قلوب عباده فقال: (ولو أنا كتبنا عليهم أنِ اقتلوا انفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم) فسوّى بين قتل أنفسهم، وبين الخروج من ديارهم. وقال تعالى (وما لنا ألاَّ نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا) وقال الاول: عمر الله البلدان بحب الاوطان، وكان يقال لولا حب الناسِ الاوطان لخرِبت البلدان، وقال عبد الحميد الكاتب وذكر الدنيا: نفتنا عن الاوطان، وقطعتنا عن الاخوان، وقالت الحكماء أكرم الخيل أجزعها من السّوط،

---

١ الجلاء الخروج من البلد. يقال: جلوا عن أوطانهم، اذا خرجوا منها

٢ الموم هو البرسام مع الحمى

٣ الركام السحاب المتراكم بعضه فوق بعض ـ والاكمة تل، وقيل شرفة كالرابية وهو ما اجتمع من الحجارة في مكان واحد وربما غلظ، والجمع اكم وجمع الاكم اكام مثل جبل وجبال ـ ومار الشيء تحرك بسرعة

واكيس الصبيان أبغضهم للكتاب ، وأكرم الصفايا أشدُّها ولها الى أولادها ، وأكرم الإبل أشدُّها حنينا الى أوطانها، وأكرم المهارى أشدها ملازمة لأمها ، وخير الناس آلفهم للناس

وقال آخر من أمارات العاقل بره لاخوانه ، وحنينه الى أوطانه ، ومداراته لاهل زمانه. واعتل أعرابي في أرض غربة فقيل له ما تشتهي ؟ فقال حِسلَ (١) فلاة وحَسوَ (٢) قلات (٣) ، وسئل أخر فقال : مخضا (٤) رَوِيا ، وضبا مشويا ، وسئل آخر فقال : ضبا عنينا أعور ، وقالت العرب حماك أحمى لك ، وأهلك أحفى بك ، وقيل الغربة كربة ، والقلة ذلة . وقال

لا ترغبوا إخوتي في غربة أبدا   إن الغريبَ ذليل حيثما كانا

وقال آخر : لا تنهض عن وَكرك فتنغصك الغربة ، وتضيمك الوحدة ، وقال آخر لا تجف أرضا بها قوابلك (٥) — ولا تشك بلدا فيه قبائلك ، وقال أصحاب القيافة (٦) في الاسترواح : اذا أحست النفس بمولدها تفتحت مسامها فعرفت النسيم . وقال آخر يحن اللبيب الى وطنه ، كما يحن النجيب (٧) الى عطنه ، وقال كما أن لحاضنتك حق لبنها — كذلك لارضك حق وطنها ، وذكر أعرابي بلده فقال رملة كنت جنين ركامها ، ورضيع غمامها ، فحضنتني أحشاؤها ، وأرضعتني أحساؤها (٨) ، وشبهت

١ الحسل ولد الضب حين يخرج من بيضه ٢ حسا زيد المرق يحسوه حسوا شربه شيئا بعد شيء وحسا الطائر الماء تناوله بمنقاره ٣ القلات جمع قلت بالفتح وهي النقرة فى الجبل يستنقع فيها الماء ٤ المخض والمخيض ما مخض من اللبن وأخذ زبده ٥ القوابل جمع قابلة وهي المرأة التي تأخذ الولد عند الولادة
٦ القائف الذي يتتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه والجمع القافة ويسمى فعله بالقيافة ٧ النجيب من الابل القوي الخفيف السريع
٨ الاحساء جمع حسي وهي سهل من الارض يستنقع فيه الماء

الحكماء الغريب باليتيم اللطيم [١] الذي ثكل [٢] أبويه ـ فلا أم ترأمه [٣] ولا أب يحدب عليه [٤]؛ وقالت أعرابية اذا كنت فى غير أهلك فلا تنس نصيبك من الذل؛ قال الشاعر

لعمرى لَرهط المرء خير بقية عليه وان عالَوا به كل مركب

اذا كنت فى قوم عِدًا لست منهم فكل ما عُلفت من خبيث وطيب [٥]

وفي المثل أوضح من مرآة الغريبة ـ وذلك أن المرأة اذا كانت هديا في غير أهلها تتفقد من وجهها وهيئتها ما لا تتفقده وهي في قومها وأقاربها ـ فتكون مرآتها مجلوة تتعهد بها أمر نفسها وقال ذو الرمة

لها أذن حشر وذفرى أسيلة وخد كمرآة الغريبة أسجح [٦]

---

١ اللطيم الذي يموت أبواه ٢ الثكل فقدان المرأة ولدها ٣ رئمت الناقة الولد عطفت عليه ٤ يحدب عليه يعطف عليه ٥ قال ابن السكيت قوم عدا غرباء وانشد البيت قال ولم يأت فعل في الصفات غير هذا وهو أيضاً مذهب سيبويه وهم اسم للجمع. وقال ابن السيد في الاقتضاب هذا البيت لزرافة بن سبيع الاسدي فيما ذكر يعقوب وذكر الجاحظ أنه لخالد بن نضلة الجحواني من بني أسد ـ والعدى الغرباء والعدى أيضا الاعداء ـ والاكل والعلف ههنا مثلان مضروبان للموافقة وترك المخالفة ـ وكان هذا الشاعر قد راغم قومه وعتب عليهم ثم جاور غيرهم ـ وندم على مفارقة قومه ـ ولذلك قال قبل هذا البيت

لعمري لقوم المرء خير بقية عليه وان عالوا به كل مركب

من الجانب الاقصى وان كان ذا غنى جزيل ولم يخبرك مثل مجرب

تبدلت من دودان نصرا وأرضها فما ظفرت كفي ولا طاب مشربي

ثم أفاض في شرح البيت

٦ الحشر ما لطف من الآذان ـ والذفرى من الحيوان العظم الشاخص خلف الاذن ـ والاسيل من الخدود الطويل المسترسل. وسجح الخد كفرح سهل ولان وطال في اعتدال. وقل لحمه وقال في اساس البلاغة وجه اسجح مستوي الصورة ورجل اسجح الخدين وقد سجح قال ذو الرمة وقد انشد البيت

سفور النساء واختلاطهن بالرجال

وفوضى الآداب بمصر

في هذه الايام التي ثبت فيها عن نساء فرنسة كلهن ، حتى غانيات باريس منهن ، انهن لبسن ثياب الحداد ، بعد رفولهن في تلك الأزياء ، التي تقلدهن فيها سائر النساء ، في جميع الارجاء ، وظهرن بمظهر الراهبات الناسكات ، وهن أولئك الفاتنات ، الكاسيات العاريات ، المائلات المميلات ، اللواتي فتنّ قلوب الرجال ، حتى صاروا يشدون اليهن الرحال ، بل يطيرون اليهن على مراكب النار ، في سباسب الارض وأجواز البحار ، وتركن المراقص والملاهي والحانات ، الى ساحات القتال والمستشفيات ، والى دور الصناعة ، وأعمال الزراعة ، ليخففن عن أمتهن أثقال هذه الحرب الضروس ، في هذا العصر العبوس

= في هذه الايام التي مس الناس فيها الضر ، وهدد الأمم والدول العسر ، فكسدت غلات الزراعة ، وتعطلت معامل الصناعة ، ووقفت حركة التجارة ، وقل الدرهم والدينار ، وغلت أثمان الاشياء ، وخاف العقلاء ان يعقب هذه الحرب قحط ومجاعات ، تتلوها فتن وأوبئة وثورات ، وشعر المبذرون من أهل السعة والثروة ، بوجوب الاقتصاد في النفقة خوفا من سوء العاقبة

= في هذه الايام التي تدك فيها الحصون والمعاقل ، وتدمر المعابد والمنازل ، وتثلّ العروش ، وتذهب باستقلال الشعوب ، وتنذر أقوى الدول بأسا ، وأشدهن بطشا ، ذلا بعد عزة ، وضعفا بعد قوة ، وفقرا بعد ثروة ، وعبودية بعد حرية

= في هذه الايام — وقد زلزلت الارض زلزالها ، وأخرجت الارض أثقالها ، وقال الانسان مالها ، وما عسى ان يكون مآلها — انبرى نفر من الشبان والشواب ، من المتفرنجين والمتفرنجات في هذه البلاد ، يتبارون في تحبير المقالات ، وإقامة الحجج والبينات ، المؤلفة من مقدمات الشبه والخيلات ، على وجوب سفور النساء المصريات ، واختلاطهن بالرجال في الملاهي والمجتمعات ، وفي عامة الاحوال والاوقات . ليشاركن

الرجال في حريتهم ، ويساهمنهم في التمتع بمحاسن (الطبيعة) ويقتبسن منهم الآداب والافكار الجديدة ، ولذلك يسمون مطلبهم هذا « تحرير المرأة » فمرادهم ان المرأة في رق أهلها ثم زوجها ، وانه ينبغي ان تفعل ما تشاء ولا يصح لاحد أن يحجر عليها ، ولا أن يصدها عما تحب وتهوى

يتوهم هؤلاء المساكين ان الفوضى الأدبية التي يرتعون فيها هي الحرية التي ينوه بمدحها الافرنج ، والتي بها وصلوا الى ماوصلوا اليه من العلم والصناعة ، وما أنتجا من الملك والسيادة ، ولم يعقلوا أن هذه الفوضى هي التي حلت روابطهم القومية ، وأضعفت مقوّماتهم ومشخصاتهم الجنسية ، وجرفت ثروتهم الى البلاد الاجنبية ، وجعلتهم غير أهل للاستقلال في إدارة بلادهم ، فضلا عن مد نفوذهم و بسط سلطانهم على غيرهم ، ولم يستفيدوا منها الا الغرور بأنفسهم ، وكثرة الدعاوي العريضة بألسنتهم .

النساء المسلمات غير مسترقات في مصر ولا في غيرها ، ولا محرومات من التمتع بمحاسن الوجود وطيبات الدنيا ، فأما نساء الفلاحين فأمرهن معروف وانهن يشاركن الرجال في كل شيء ، ولا يعنيهن طلاب « تحرير المرأة » فيما يقولونه عن النساء المصريات. وأما نساء الموسرين في المدن اللواتي تتوجه اليهن أنظار هؤلاء المحررين ، فهن أكثر تمتعا بزينة الدنيا ونعيمها من الرجال ، الا في أمر واحد فقط وهو حرية المجاهرة بالفسق ، ومعاشرة الرجال ومخادنتهم في الجهر ، فالفاسقة منهن لاتفسق الا وراء الستر ، أو في المواخير المعروفة ببيوت السر ، ولا تخرج مع خدن لها للتنزه الا مستخفية ، إلا ان تكون مغمولة أو متهتكة .

وأما البرقع فهو زيّ اختارته لنفسها ، وزينة تجذب الانظار اليها ، لأنه يظهر المحاسن ، ويخفي المعايب ، وقد اعترف بذلك قاسم امين . وسبقه اليه الشيخ احمد فارس الكاتب الاجتماعي الشهير ، وقد نظم في البرقع هذين البيتين :

لايحسب الغرُّ البراقع للنسا منعالهن عن التمادي في الهوى
ان السفينة انما تجري اذا وضع الشراع لها على حكم الهوا

على ان البراقع كانت في عهد زيارته لمصر ساترة لمعظم الوجه ، فكيف لو رأى براقع هذه الايام التي قلت فيها من مقال سابق « تلاعبها الانفاس ، وتخترقها أشعة

عيون الناس » ؟

واني لأعجب من المدافعين عن الحجاب كيف يعدون هـذه البراقع البيضاء الشفافة من محصلاته أو متماته ، وما هي الامن هاتكاته أو مزيلاته ، الا ان يكون مرادهم رد كل مايجيء به خصومهم من العبث بعادات الامة لاجل التفرنج وزيادة التهتك. كما اني أعجب من اهتمام الآخرين بإزالتها دون غيرها من زينة النساء المدنيات وهي لا تمنع علما ولا عملا ولا صلاحا ولا فسادا ، الا ان يكون مرادهم ترك كل وطني احتقارا له ، واستبدال المشخصات الافرنجية بالمشخصات الوطنية تعظيما لقدرها ، أو توهما أن تشبهنا بالافرنج في مشخصاتهم — وهو سهل علينا — يقوم مقام جعل مقوماتنا كمقوماتهم — وهو ماعز علينا — فيكون لنا شرف التلهي بقشور مدنيتهم وقد انحطت هممنا عن اللحاق بهم في لبابها وحقائقها .

أولم يكفهم اناشرعنا نقلدهم في هذه الظواهر القشرية ـ فتزيّا حكامنا بأزيائهم، وتبعهـم الناس بالتدريج المعتاد في مثل ذلك ، ثم قلدناهم في الاثاث والرياش والماعون وفي كثير من العادات، وهل كان ذلك كله الا سببا لحرف ثروتنا، وانتزاعهم إياها منا ، وبعد ان قضي على صناعتنا ، ولم تحل صناعتهم محلها ، دع تأثيره في اضعاف ديننا وآدابنا، التي هي مقومات أمتنا، فخرجنا عن كوننا أمة متماسكة بما بينها من الروابط كتماسك البناء المتين ، وصرنا كالانقاض التي لا مالك لها، يأخذها المعمرون فيشيدون بها دورا جديدة لهم

لماذا لا نعتبر بحال الامة الانكليزية التي نالت أعظم سيادة في الارض بأخلاقها وصفاتها وعاداتها، كالثبات والتروي والمحافظة على مقومات الامة ومشخصاتها حتى المفضولة منها ، وعدم اقتباس شيء من عادات غيرها وآدابه وان كان أحسن مما عندها، الا ان يكون بالتدريج البطيء، في الزمن الطويل

وجملة القول إن زي النساء المدنيات بمصر هو زي زينة تجذب أنظار الرجال اليهن قلما يوجد زي يفي بهـذا الغرض مثله وهو ليس من الحجاب في شيء ، ولعله أبعد الازياء عن آداب الاسلام وصيانته ، فلباس البدويات والقرويات السافرات الوجوه اقرب الى أدب الاسلام وصيانته منه ، ولـكن الدعوة الى إزالته

بدعوى قبحه — لانه من الحجاب الضار المذموم بزعم هؤلاء الدعاة وبروح التفرنج التقليدي الذي يدفعهم اليه — دعوة ضارة مضعفة لمزاج الامة صادعة لبنائها الاجتماعي، وانما يحسن الدعوة الى تغييره بدعوى مخالفته للآداب الدينية ، وشرف الصيانة الاسلامية ، والى استبداله بزي آخر يجمع بين الجمال والكمال ، ولا يقصد به تقليد أحد من الشعوب والاجيال .

ان المقلد لاينفك مرتكسا في الضعف يخبط في ليل دجوجي

*

وأما المطلب الثاني من مطالب أعداء الحجاب — وهو اختلاط النساء بالرجال فهو الجد الذي يؤبه له ويهتم به، وحسبك من بيان ضرر الدعوة اليه بروح التفرنج، وأسلوب ذم الحجاب المنسوب الى الشرع ، ماقلناه آنفا في ضرر الدعوة الى تغيير الزي، وتأمل في الموضوع نفسه لتدرك مافيه من الضرر أو النفع

لعل عدد نساء الموسرين في المدن لايبلغ معشار $\frac{١}{١٠٠٠}$ عدد نساء الفقراء اللواتي يبعن في الاسواق والطرقات أو يخدمن في البيوت ونساء القرى والبادية ، وهؤلاء هن اللواتي يوصفن بالحجاب ، والجهاد كله في سبيلهن

هذا العدد القليل من النساء يخالط الرجال الاجانب كل يوم في الاسواق والشوارع والمتنزهات، وكذا في بعض البيوت. فالنساء المدنيات يشترين بأنفسهن من الرجال كل ما يحتجن اليه من الثياب والحلي والاعطار وأدوات الزينة حتى ما يستحيا من ذكره . ونرى الكثيرات منهن في ضواحي المدن ومتنزهاتها يركبن مع الرجال في المركبات ، أو يماشينهم في الطرقات ، ومنهن السافرة عن وجهها . والمخاصرة لخدنها ، واذا سمعت أخبار بيوت السر من وقائع الشحنة (البوليس) أو المختبرين تعلم ان هذه البيوت النجسة كثيرة جدا ، وان أخدانها من النساء (المحجبات) ، وعشاقهن من الافندية والبكوات والباشوات ، يعدون بالألوف لا بالمئات ، دع ذكر الذين يذهبون بنسائهم الى أوربة فيلبسن مدة سفرهن ملابس الافرنجيات كما يفعل رجالهن ، ويجتمعن معهم أو منفردات عنهم بالرجال في المطاعم والملاهي والملاعب والمراقص ، ودع ذكر الذين يدخلون أصدقائهم من الرجال على

نسائهم في بيوتهم ، و يأمرونهن بمجالستهم ومؤاكلتهم وهن حاسرات عن رؤسهن ، مبديات لنحورهن ، لاسافرات عن وجوههن فقط . بل أقول لك همسا ، ما أخجل ان أجهر به جهرا : ان المحادثة ذائعة بين التلاميذ والتلميذات

كل هذا كثير شائع في مصر فما الذي بقي ممنوعا من اختلاط النساء بالرجال ، حتى قام بعض الشبان والشواب ينشدونه ويجاهدون في سبيله في هذه الايام ، التي صدعت بناء الانسانية أعظم صدع ، وحصرت همّ الشعوب كله في الخوف على استقلالها في الشرق والغرب ؟

انما بقي شيئان اثنان (أحدهما) ان العرف يحظر على الرجل الاجنبي ان يخلو بامرأة أجنبيــة من هؤلاء المدنيات (كما يحظر الشرع الخلوة بكل أجنبية بغــير عذر شرعي) أو يطلب الانفراد بهــا بزيارة أو غير زيارة . فمخالفة هذا لا تزال تعد قبيحة في العرف فلا تقع من غير المتهتكين الا خفية .

(ثانيهما) ان هؤلاء النساء لايجالسن الرجال في مجالسهم الخاصة في البيوت ولا العامة في المجامع والملاهي ، الا من شذ

أما اباحة خلوة المرأة بالرجل إباحة مطلقة بغير نكير فلا يكاد يذ كرها محاربو الحجاب في مقالاتهــم اذ لايجدون شبهة يزينونها بها ، وانما يكثرون اللغط في مجالسة النساء للرجال في المجالس الخاصة والمجامع العامة زاعمين ان ذلك يرقي عقول النساء و يزيد في علومهن وآدابهن ، وهذه أظهر شبهاتهم في هــذا الباب ، وقد اشرعنا لها طريقا لاينكره عرف ولا شرع فيما كتبناه في المجلد الثاني من المنار تقريظا لكتاب تحرير المرأة ، وهو أنه يمكن تحصيل هذه الفائدة بمجالسة النساء في البيوت لمحارمهن من الرجال كالاخوة والاعمام والاخوال ، وأولاد الاخوة والاخوات ، و بقضاء الازواج أوقات فراغهم مع نسائهم في البيوت ، فلماذا يترك هذا مدعو الحرص على فائدة الاختلاط ان كانوا صادقين ؟

وأما المجامع العامة فقلما يوجد في مصر منها ما يفيد النساء فائدة تستحق كل هذا الجهاد . فالمجامع العامة الدائمة هي المعروفة بالقهاوي والخانات ، وغير الدائمة منها هي المآتم والاعراس . وقد وجد في البلاد قليل من الاندية الخاصة ، وأحاديث

الناس فيها كاحاديثهم في الملاهي العامة من كل وجه، ولكن تلقى فيها أحيانا بعض الخطب والمحاضرات التي لا يفهم بعضها الا القارئات ، وهذه المحاضرات تنشر غالبا في الصحف فيمكن لمن يستفدن منها أن يقرأنها فيها ، ولا فائدة للنساء في مجامع الرجال سواها ، ولكنها لا تخلو من مفاسد :

غشيان النساء لهذه المجامع من أقوى الوسائل لتعرف الفساق بهن واغوائهن إياهن ، والفساق هم الذين يحرصون على هذا الاجتماع بالنساء في الغالب . أما أهل الفضائل والآداب الصحيحة فقليل ماهم ، وأ كثرهم — ولا كثرة فيهم — لا يحب هذا الاختلاط ولا يميل اليه . فان وجد فيهم من يرغب فيه للاصلاح الخالص من شوائب الهوى فمن ذا الذي يعرف هؤلاء الافراد وهم أندر من الكبريت الاحمر؟ وكيف السبيل الى جمعهم في أندية خاصة يختلف النساء اليها دون غيرها لاجل ترقية أفكارهن وآدابهن ؟؟؟

الى متى نغش أنفسنا ، ونتعامى عن فساد الاخلاق والآداب الغالب على نابتتنا ، الذي لم يزدد مع تربية التفرنج الا تفاقما واستشراء ؟ أنبذل هذه الصبابة الباقيـة لنسائنا من ارث فضائل سلفنا الى هؤلاء السفهاء ، ونسمي هذا اصلاحا للبيوت باصلاح النساء ؟

اذا كان « خير الناس أنفعهم للناس » كما ثبت في النقل والعقل فالفلاحون في هذه البلاد خير من هؤلاء المتفرنجين الذين تلقفوا قليلا من اصطلاحات مبادي الفنون، لم يستعدوا بها لعمل ما للامة ، الا ان يكونوا خدما واجراء للحكومة ، التي يعدون اللهج بذمها من شعائر الوطنية الصادقة، فمن تستغني الحكومة عن استخدامه منهم يمسون و يصبحون كلا على الامة وعالة على العاملين فيها كالفلاحين ، يأكلون ثمرات أعمالهم، و يفسدون مابقي من فضائلهم وآدابهم ، ويحسبون انهم من الأئمة المصلحين فيهم ، (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)

ألا ان النساء في حاجة الى العلم والادب والاصلاح، وليس الرجال أقل حاجة منهن الى ذلك . ففساد أخلاق الرجال هو الذي أفسد النساء وأضاع ثروة الامة وحل روابطها الاجتماعية، ولم يبدلها بها روابط خيرا منها ولا مثلها

ألا ان هذا الاصلاح الصحيح انما هو اصلاح النشء بتربية الاخلاق والآداب الدينية أولا، ثم بتعليم العلوم التي يعمل المتعلم بها من يوم خروجه من المدرسة الى ان يهرم أو يموت — وعلوم النساء العملية العامة تربية الاطفال وادارة البيوت — وانما يقوم بذلك على الوجه النافع خيار الامة دينا وعقلا وأدبا بتأليف الجمعيات الخيرية والعلمية، فان لم يوجد من هؤلاء من يقوم بهذا العمل على وجهه بالتعاون فان الامة تظل مذبذبة لا يستقيم لها أمر ولا يتم فيها اصلاح (وما يتذكر الا أولو الالباب)

الشيخ شبلي النعماني

كان الشيخ شبلي النعماني — رحمه الله وأدام النفع به — ركنا من أركان نهضة الاصلاح الاسلامي في الهند

ورجال هذا الاصلاح في كل الاقطار الاسلامية أمة وسط بين فريق الجامدين على التقاليد والعادات التي انتهى اليها أمر جمهور المسلمين بعد فتك التفرق الديني والسياسي بهم، وانتشار البدع والخرافات فيهم، وإضاعة جل ماترك سلفهم من العلم والمجد التليد، وإعراضهم عن العلم الحديث والمجد الطريف — وبين فريق المتفرنجين الذين أصابوا حظا من اللغات الاجنبية، وتلقفوا قليلا من العلوم والفنون الاوربية، فأحدث لهم ذلك غرورا بأنفسهم، واحتقارا لأمر أمتهم، فطفقوا يمرقون منها بزلزال عقائدهم وأفكارهم، وتغيير عاداتهم وأزيائهم، فوهت فيهم جميع مقوماتها، ولم يندغموا في أمة من الأمم التي يقلدونها، على ان منهم من يحسبون انه يمكن جعل أمتهم كلها، مثلهم أو مثلها.

المباينة بين الجامدين والمتفرنجين عظيمة، كل منهم يحتقر الآخر ويكرهه، ويعده علة اضعف الامة وانحطاطها. أولئك يرمون هؤلاء بالكفر والفسوق، وينفرون ويُنفّرون منهم ومن هذه العلوم والفنون، ويعدونهم آلات الاجانب التي يحلاون بها عناصر الامة ويستعملونها كما يستعملون عناصر الارض في تنمية ثروتهم،

وإعلاء كلمتهم ، واستعمار البلاد وجعلها تحت سلطتهم — وهؤلاء يرمون أولئك بالتعصب والجهل والخرافات والهمجية ، التي يجب نسفها لاقامة بناء الحضارة والمدنية . والحق ان كلا منهما مخطيء في شيء ومصيب في شيء آخر ، وله مزايا حسنة ورزايا ضارة ، وان الامة لو سارت على رأي كل منهما وحده لم تكن عاقبتها الا الانحلال والهلاك .

وأما حزب الاصلاح ، فهو وحده محل الرجاء ، لانه يقدر مزية كل من الحزبين قدرها ، ويعرف منافعه ومضاره ، ويريد ان يكون معقد الارتباط والاتصال بينهما بارجاع كل منهما عن خطأه ، والسير بالامة في طريق تحفظ به مقوماتها ومشخصاتها ، وتعيد الموروث النافع منها الى جدته ، وتتدرج في استبدال النافع بالضار منه ، وتقتبس من علوم العصر وفنونه وصناعاته مالاتقوم لامة قائمة في هذا العصر بدونه ، وليس هذا المقام مقام شرح الاصلاح ولا بيان أحوال الاحزاب الثلاثة ، وانما ذكرنا هذا لبيان مرادنا من قولنا ان فقيد الاسلام في الهند كان ركنا من الاصلاح الاسلامي

ولم يكن طلاب الاصلاح الا أفراداً من الناشئين في بيوت حزب الجمود أو حزب التفرنج ، هداهم الله تعالى باستعداد في فطرتهم ، وتوفيق في سيرتهم ، الى معرفة الطريقة المثلى لصلاح أمتهم . وكان المعقول ان يكون رجال العلم الديني أقدر على أهل الجمود منهم على المتفرنجين ، ولكن كثيرا ما كان الأمر على غير ذلك . وسببه أن كبراء الجامدين من الشيوخ هم أشد حسدا وبغضا للمصلح الديني من غيره ، فهم يكيدون له ، ويضعون من العواثير له ما لايضعون لغيره . — فلهذا لم يتم للشيخ شبلي ما كان يريد من الاصلاح في ندوة العلماء ، وكان أدنى الناس الى مساعدته المتدينون من كبراء الدنيا كأميرة بهو بال . وقد أخبرني رحمه الله تعالى أن الامير الجواد ، الذي تفاخر به الهند أمراء المسلمين في جميع البلاد ، النواب محمد علي راجا محمود آباد ، عرض عليه مبلغا كبيرا من المال يدفعه سنويا لمدرسة ندوة العلماء بشرط جعلها للمسلمين كافة كمدرسة عليكره لا خاصة بأهل السنة . وهذا باب عظيم من أبواب الاصلاح ما كان ليشايعه عليه المتعصبون من أعضاء الندوة ، فلذلك اعتذر للأمير بأن هذا عمل ما حان وقته

وأما الاميرة المحسنة التقية صاحبة بهو بال ، التي جعلها الله تعالى بعد المصلح العظيم السيد صديق حسن خان ، نصيرة العلم وخادمة الاسلام، فقد كانت ظهيرة للشيخ في جميع ما يخدم به الدين والعلم من الاعمال . واننا ننشر هنا نص كتاب جاءنا منه ، يشير الى ما كان من صلتها وصلتنا به ، وهو :

الى حضرة السيد المحترم　　　متع الله المسلمين بطول بقائه

بعد التحية والسلام

إني لم أزل أقرأ في الجرائد ماتبذلون من السعي في تأسيس دار العلم والارشاد ، وهذه هي بغيتنا التي كنا ننشدها نحن أهل الندوة ، فجعل الله سعيكم مشكورا ، وتوج عملكم بالنجاح . طالما تاقت نفسي الى زيارة مصر للقائكم، ولكن هيهات فاني قد قطعت إحدى رجلي لرصاصة أصابتها فبقيت جليسا[1] للبيت غير قادر على تحمل أعباء الرحلة والسفر. والامر الذي دعاني الآن الى ارسال النميقة ان الاميرة سلطان جهان (بيكم) صاحبة ايالة بوفال [2] خرجت راحلة الى لندرة للحضور في حفلة تتويج الملك جرج ، وهي تريد زيارة البلاد الاسلامية وتصل في مصر في شهر رمضان

وهي من عظماء بلادنا أعطت مائة ألف روبية[3] لتكميل كلية عليكده ، وعينت ثلاث مائة روبية جراية شهرية لندوتنا ، وكم لها من أمثال ذلك

ولها شدة عناية بتربية عائلتها ، ولذلك أرادت أن تجلب احدى المعلمات المسلمات من مصر المحروسة ، وقد كتبت الي أن أكون مساعدا لها في انجاح هذا الامر . فالمرجو من حضرتكم انها لما تصل الى قاهرة [1] وتستدعي من حضرتكم الاستشارة والاستعانة فافعلوا مايليق بكم من اكرام مثل هذا الضيف الكريم العديم المثل والفضل لكم[2]　　　شبلي نعماني

في ٧ مايو سنة ١٩١١　　　ندوة　　　لكهنؤ

---

١ ـ يحتمل ان تكون الكلمة « حلسا » بالحاء المهملة المكسورة اذ يقال : فلان حلس بيته ، أي ملازمه . وأصل الحلس مايفرش تحت سرج الدابة أو رجل البعير وعلى الارض في البيت وقد يفرش غيره فوقه

٢ ـ هكذا يكتب الهنود اسم هذه الايالة ، والمشهور عندنا ما كان يكتب في مصنفات السيد حسن صديق خان وهو هكذا « بهوبال »

هذا وان الفقيد رحمة الله تعالى قد اشترك بالمنار من أول العهد لظهوره وكان مواظبا على قراءته معجبا به. وقد كان له من حسن الظن بصاحب المنار ماحمله على دعوتنا لرئاسة مؤتمر ندوة العلمي السنوي رجاء زيادة إقبال مسلمي الهند على هذا المؤتمر وما يتبع ذلك من تعضيد الندوة ومساعدتها . وهذا نص كتابه الاول في ذلك

بسم الله الرحمن الرحيم

الى حضرة الفاضل الاستاذ مولانا رشيد رضا أطال الله بقاءه

لا يخفى على أمثالكم ان اغارات جرجي زيدان على أعراض العرب في كتابه تاريخ التمدن الاسلامي أكثر من ان تحصى، وان كل ما دسّه وموّه به لا أصل له أصلا، وحين اطلعت على ذلك كاد قلبي ان يتميز من الغيظ غير اني صبرتُ وأمعنت النظر فيما له نظر . ولما عيل عني الصبر ونأى، قمت على ساق وألفت رسالة أكشف فيها دسائسه، وهي الآن تطبع وأريد إرسال مافُرغ من طبعه منها اليكم لكي تدرجوه في جريدتكم — وكذلك الى الفراغ منها بأسرها

ومما انهيه اليكم ان ندوة العلماء في كل عام تعقد محفلا عاما يحضر فيه الخاص والعام والامراء والنواب وأهل الحل والعقد ويكون انعقاده عامنا هذا في أول ابريل سنة ١٩١٣ فنحن معشر المعتمدين والاراكين نهوى ونود من صميم قلوبنا ان يكون صدر (٣) هذا المحفل العظيم وواسطة عقده النظيم حضرتكم الشريفة ، فان تشرفونا بالقدوم علينا في الهند تهرع أهل البلاد الشاسعة الى هذا المحفل الاسلامي على كل ضامر من كل فج عميق لمقدمكم المبارك ان شاء الله تعالى ، ويحصل بعون

١ـ كذا في الاصل ومهما اتقن علماء الاعاجم العربية فانهم يظلون يغلطون في تعريف الاعلام وتنكيرها

٢ـ لقصر مدة إقامة الامير بمصر لم يتيسر لنا اختيار معلمة يمكن أن تراها وتختبرها ثم لم يتيسر ذلك بعد سفرها أيضا وقد عرضنا ذلك على الآنسة نبوية موسى فطلبت ان يكون راتبها الشهري مئة جنيه مع شروط أخرى ، وانه ليوجد فى الهند معلمات انكليزيات لا يزيد راتب احداهن عن بضعة جنيهات

٣ـ يعنون بكلمة صدر ما نعبر نحن عنه بكلمة رئيس وبهذا المعنى يستعملونها في لغتهم الأوردية

الله لكم ما أنتم بصدد الاجتهاد فيه من اظهار مقاصد مجلس التعليم والارشاد، و يعظم بذلك محفل ندوتنا و يقدر قدره. وفي طي رقيمي هذا أرسل اليكم خطبة والي الهند وعميدها، فيظهر لكم منها ان الدولة البريطانية لها عناية تامة بندوة العلماء ولولا ذلك لم تعين لها في كل شهر خمسمائة روبية من خزائنها ، فان عزم جنابكم على تشريفنا بما اقترحناه فلا عليه ان يلاقي سفير الدولة البريطانية في مصر المحمية و ينهي اليه خطبة والي الهند وعميدها في حق ندوة العلماء، وعريضتها عند قدوم الملك المعظم مع ملكته المعظمة قاعدة الهند دهلي، لكي يكون على علم و يستحسن قدومكم علينا، وان أمكن منكم طلب الاجازة بذلك مرقومة فيها فنعم ذلك . ودمتم أفندم ، شبلي نعماني

٥ جنوري (يناير) سنة ١٩١٣ ندوة العلماء — لكهنؤ

جاءنا هذا الكتاب ونحن نستعد لفتح مدرسة (دار الدعوة والارشاد) فكان المانع من اجابة هذا الدعوى أرجح من المقتضي اذ كان لابد من السفر بعد فتح المدرسة بشهر أو أقل — وأنا ناظر موظف لها، والروح المدبر في تأسيسها والقيام بها ، — ولكن أعضاء مجلس جماعة الدعوة والارشاد رأوا ان رحلتي الى الهند خير لمشروعنا لان إشهاره في مثل ذلك المؤتمر العظيم فقروا في جلسة رسمية إجازتي واعانتي على ذلك

اقترح الشيخ رحمه الله تعالى علي أن اسافر بإجازة من عميد الدولة الانكليزية هنا، وأرسل الي خطبة حاكم الهند العام الذي ذكر ندوة العلماء بخير لأتوسل بها الى هذه الاجازة ، فكان هذا من بعد نظره وغور فهمه للسياسة ، وكان مراده أن تكون هذه الاجازة كتابية فلم يتيسر ذلك ، فلقي الشيخ من انكار والي لكهنؤ عليه دعوتي الى رياسة مؤتمر الندوة ما لقي ، وأمكنه ارضاؤه بما كان أعده لذلك من الحجج ، ومنها ما كتبه لورد كرومر في تأبين شيخنا الاستاذ الامام من مدح حزبه ، وخطبة للدكتور مرجليوث الاستاذ الشهير في مدرسة اكسفورد ذكر فيها رأي صاحب المنار في الجامعة الاسلامية بكلام مرضي وثناء حسن

ونحمد الله ان حقق ظن الشيخ رئيس الندوة وأعضائها الكرام فينا ، اذ كان الاقبال على المؤتمر في ذلك العام مما لم يسبق له نظير من قبل . ورحم الله الشيخ شبلي وأحسن عزاء المسلمين عنه

تقريظ المطبوعات الجديدة (*)

خواطر في القضاء والاقتصاد والاجتماع

بقلم فقيد العلم والعمل والجد المرحوم علي ابو الفتوح باشا وكيل نظارة المعارف العمومية المصرية، طبعه باذن المؤلف نجيب افندي مترى صاحب مطبعة المعارف بمصر في سنة ١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م على ورق جيد طبعا نظيفا فجاءت صفحاته ٣٦٠

الكتاب مجموعة مقالات كانت متفرقة في الجرائد والمجلات العربية وغير العربية فجمعت في حياة كاتبها ومرعليها فأصلح فيهاما أراد، وزاد في بيان المراد. وهو يطلب من ناشره ومن مكتبة المنار بمصر

جملة مسائل الكتاب مما اشتغل به مؤلفه علماوعملافجاءت وافية واضحة مفيدة ونحن ننقل طائفة عنه من مقالة [الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية] قال :

« يظن كثير من الناس حتى من المسلمين أنفسهم أن المبادئ المقررة في الشريعة الغراء لا توافق هذا الزمان الذي بلغ فيه الانسان من المدنية والحضارة درجة رفيعة، ويتوهمون أن الاحكام والروابط التي في القوانين الحديثة الوضعية لا مقابل لها في الاصول الاسلامية ، وأنها بمثابة الاختراعات المادية الجديدة التي أنتجها فكر علماء الغرب لم يسبقهم بها أحد !

« ولكن الباحث في الفقه الاسلامي ولو قليلا لايلبث أن يغير هذا الظن ويتحقق من أن أسلافنا بلغوا في الرفاهة وتقرير المبادئ العمرانية والاجتماعية والقضائية شأواً قلما يجاريهم فيه أحد ، الا ان صعوبة كتب المتأخرين وكيفية تأليفها، والتواء أساليبها ، وتعقيد عباراتها ، قد أوصد الباب في وجه من يريد الوقوف على حقيقة الشريعة الغراء من غير المنقطعين لدراستها

« ولذلك فاني أشير على من يسلك هذا الطريق ان يقصد المؤلفات القديمة لانها أسهل مورداً وأغزر مادة مع خلوها من التعقيد وتنزهها عن المشاغبات اللفظية، وليترك هذه الكتب الحديثة للمنقطعين لفهمها بدون ملل ولا حساب للوقت

(*) كتب تقاريظ هذا الجزء شقيقنا السيد صالح مخلص رضا وقد تأخر نشره على انه هو قد قصر فيما عهد اليه من كتابة التقاريظ حتى اجتمع لدينا كتب كثيرة من مطبوعات السنين الاخيرة

«أذكر هذا على أثر مطالعتي لكتاب الخراج للامام أبي يوسف المتوفى سنة ١٨٢ هجرية . وقد ألف هذا السفر الجليل برسم أمير المؤمنين هارون الرشيد وفيه من النصائح والاحكام ما يجدر بأمراء المسلمين اتباعه والعمل به

«عثرت في هذا المؤلف الصغير الحجم على درر كثيرة عمدت الى نظمها في هذه المقالة حتى يرى المسلمون ولا سيما المشتغلين منهم بالقوانين الافرنكية ان المتقدم لم يترك شيئا للمتأخر. ولعلهم ينكبون على دراسة الشريعة والآداب الاسلامية لانهما لا ينافيان العصر الحاضر ولا المدنية الحديثة اذا فهما حق الفهم ودُرسا بعقل وتمييز

«وما أجدر الحكومات الاسلامية باستنباط قوانينها وأحكامها من الشريعة مع اختيار القول الاكثر مناسبة للزمان والمكان لتكون هذه القوانين والاحكام أكبر احتراماً في النفوس وأشدّ موافقة لاخلاق وعادات من وضعت لهم،،

ثم أتى بوجوه قانونية و بنود وافقت فيها القوانين الوضعية الفقه الاسلامي »

كتاب الانساب للسمعاني

تأليف أبي سعيد عبد الكريم السمعاني ، نقله الاستاذ مرغوليوث استاذ العربية في جامعة اكسفرد بالفوتغرافية عن نسخة محفوظة في المتحف البريطاني وطبع سنة ١٩١٢ على ورق من أجود الورق على نفقة (تذكار جب) وصفحاته تزيد على ١٦٠٠ صفحة بالقطع الكبير

وضع السمعاني كتابه هذا في القرن السادس الهجري ،فكان عمدة المؤرخين والمحدثين . وقد ذكر في مقدمته فضل علم الانساب وجاء بالآيات والاحاديث في ذلك وعقد فصلا للحث على هذا العلم ، وقد زاد الاستاذ مرغوليوث هذا المعنى ايضاحا اذ وضع للكتاب مقدمة وجيزة باللغة الانكليزية بين فيها المراد بعلم الانساب واشتهار بعض الاعلام من المحدثين بانسابهم كالبخاري والترمذي والنسائي مما دعا الى تعريف الرجال بأنسابهم .

وقد ساعد المستر السن الاستاذ مرغوليوث فوضع في هوامش الكتاب دوائر صغيرة قبالة كل سطر تبتدئ فيه ترجمة أحد المترجمين فأفاد، ولولا ذلك لما أغنى كتابة أ كثر الا[illegible] في [illegible]صفحات الكتاب

اذا [illegible]

بعضه الى بعض، وينقص بعض كلمه النقط فنتمنى ، لو يطبع ثانية بالحروف المطبعية بعد مقابلة هذه النسخة بغيرها من النسخ الواضحة الصحيحة كالنسخة التي رآها صاحب المنار في لكنهو بالهند فتعم فائدته ، فنحن أحوج الى هذا الكتاب ممن تولوا طبعه وأحق بإحياء مآثر أسلافنا ، واننا نشكر للاستاذ مرغوليوث هذه الهدية النفيسة كما نشكر لجمعية [تذكار جب] احياءها هذا الكتاب وغيره من آثار العرب

شرح السيرة النبوية (رواية ابن هشام)

طبع هـذا الكتاب بمطبعة هندية بمصر سنة ١٣٢٩ ، وكتب في طرته ماتقدم ، وانه مطبوع بإرادة « أمبراطور ألمانيا وملك بروسية وملك ورتمبرج »

تأليف الشيخ الامام الحافظ المحدث الفقيه أبو ذر محمد بن مسعود الخشني . استخرجه وصححه بولس برونله . وأبو ذر هذا اسمه مصعب بن محمد كما في القاموس ، وهو من علماء الاندلس أخذ عنه الشريشي شارح مقامات الحريري. وكتابه هذا أمالي أملاها في شرح غريب السيرة . وجعله عشرين جزءا وكان ينبغي ان تسمى فصولا لا أجزاء ، وقد طبع طبعا جيدا في جزئين من قطع أصغر من المنار ، وجعلت أرقام صفائحهما متصلة فيحسن ان يجعل مجلدا واحدا فيكون مؤلفا من ٤٦٦ ص وثمن الكتاب عشرة قروش ويطلب من مكتبة ديمر بمصر

رجال المعلقات العشر

تأليف الشيخ مصطفى الغلاييني استاذ اللغة العربية في مدرستي المكتب السلطاني والكلية العثمانية في بيروت وطبع بالمطبعة الاهلية في بيروت سنة ١٣٣٠ على ورق جيد طبعا نظيفا وصفحاته ٣٦٠ بالقطع الوسط وثمنه ١٢ قرشا ويطلب من مكتبة المنار بمصر .

الكتاب مصدر بمقدمتين أولاهما في خلاصة تاريخ العرب قبل الاسلام والثانية في خلاصة تاريخ أدب اللغة العربية من العصر الجاهلي الى اليوم وصفحات المقدمة الاولى ١٦ صفحة والثانية ٣٠ صفحة ثم الكلام على رجال المعلقات بالتفصيل ويتضمن سيره الشاعر وموته والكلام على شعره ومعلقته وسبب نظمها ونخبة من شعره . وقد ضمنت من الفوائد اللغوية والتاريخية والادبية مالا يوجد في غيره. وقد جعله لتلاميذ السنة الربعة والخامسة [illegible] والسادسة والسابعة في المكت[illegible]



﴿ قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق ﴾

مصر ٣٠ جمادى الآخرة ١٣٣٣ — ٢٣ الثور (ر ٢) ١٢٩٣هـ ش ١٤ مايو ١٩١٥

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(١٠٠) جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ . ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

هذه الآية تتمة السياق السابق، وقد ذكر الله تعالى فيه ان جزاء الصيد يكون هديا بالغ الكعبة . وأريد بالكعبة هنالك حرمها وجوارها الذي تؤدى فيه المناسك كما تقدم، ثم ذكر الكعبة هنا واراد به عينها ولذلك بينها بالبيت الحرام، وذكر الهدي أيضا .

وقال الرازي : اعلم ان اتصال هذه الآية بما قبلها هو ان الله تعالى حرم في

الآية المتقدمة الاصطياد على المحرم ، فبين (اي هنا) ان الحرم كما انه سبب لأمن الوحش والطير فكذلك هو سبب لأمن الناس من الآفات والمخافات ، وسبب لحصول الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة . اه

﴿جعل الله الـكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد﴾ الجعل هنا إما خلقي تكويني وهو التصيير ، وإما أمري تكليفي وهو التشريع ، وسيأتي توجيه كل منهما. و[الـكعبة] في اللغة البيت المـكعب اي المربع . وقيل المرتفع من كعب الرمح وهو طرف الانبوب الناشز، أو كعب الرجل وهو الناتئ عند مفصل الساق، ومنه كعبت الجارية (البنت) وكعب ثديها يكعب اذا نتأ وارتفع فهي كاعب وكَعاب، وثدي كاعب. والاول أصح. وقد غلب اسم الكعبة على بيت الله الحرام الذي بناه ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام بمكة أم القرى في جزيرة العرب . وقد سبق بيان ذلك في تفسير سورة البقرة (ج ١) وتفسير آل عمران (ج ٤) قال مجاهد : انما سميت الكعبة لانها مربعة . وقال عكرمة : انما سميت الكعبة لتربيعها . و[القيام] أصله القوام بالواو فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها كالميزان. والمراد به ما يقوم به أمر الناس ويتحقق أو يستقيم ويصلح. وقرأ ابن عامر «قيما» بكسر القاف وفتح الياء، وهو بمعنى «قياما» وقد تقدم مثله في أول سورة النساء و [الشهر الحرام] ذو الحجة الذي تؤدى فيه مناسك الحج في تلك المعاهد المقدسة. وقيل المراد به جنس الاشهر الحرم التي كانو يتركون فيها القتال. و[الهدي] مايهدى الى الحرم من الانعام للتوسعة على فقرائه . و[القلائد] هنا ذوات القلائد من الهدي وهي الانعام التي كانوا يقلدونها اذا ساقوها هدياء خصها بالذكر لعظم شأنها . وقيل هي على معناها الاصلي وهو مايقلد به الهدي من النبات ، وكذا ما كان يتقلد به مريدو الحج والراجعون منه الى بلادهم ليأمنوا على انفسهم في عهد الجاهلية . وتقدم تفصيل القول في ذلك أول السورة

والمعنى على الوجه الاول في الجعل ان الله تعالى جعل الكعبة التي هي البيت الحرام قياما للناس الذين يقيمون بجوارها والذين يحجونها، أي سببا لقيام مصالحهم ومنافعهم، بايداع تعظيمها في القلوب ، وجذب الافئدة اليها، وصرف الناس عن الاعتداء فيها،

وعلى مجاور بها وحجاجها ، وتسخيرهم لجلب الارزاق اليها . فهذا هو الجعل الخلقي التكويني. ويؤيده دعاء ابراهيم صلى الله عليه وعلى آله وسلم الذي حكاه الله تعالى عنه بقوله (١٤: ٣٧ ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم. ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم الثمرات لعلهم يشكرون) وفي معناه قوله تعالى (٣٨:٥٧ وقالوا إن نتبع الهدى معك نُتخطّف من أرضنا. أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ، ولكن أكثرهم لايعلمون) وقوله تعالى (٣٩:٦٧ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويُتخطف الناس من حولهم ؟ ...)

والمعنى على الوجه الثاني انه جعلها قياما للناس في أمر دينهم المهذب لاخلاقهم المزكي لانفسهم ، بما فرض عليهم من الحج الذي هو من أعظم أركان الدين لانه عبادة روحية بدنية مالية اجتماعية—وتقدم بيان بعض حكمه وسيأتي لها مزيد ان شاء الله تعالى — وما شرع في مناسك الحج من الصدقات والذبائح التي تطهر فاعلها من رذيلة البخل وتحببه وتحبب اليه الفقراء والمساكين ، ويتسع بها رزق أهل الحرم . وهذا هو الجعل الامري التشريعي . دع ما تستلزمه كثرة الناس هنالك من جلب الارزاق وعروض التجارة التي تقوم بها أمور المعيشة

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (رض) انه فسر القيام هنا بقوله : قياما لدينهم ومعالم لحجهم ، وفي رواية أخرى عنه قال : قيامها أن يأمن من توجه اليها . وروي عن سعيد بن جبير فيه ثلاثة أقوال (١) صلاحا لدينهم (٢) شدة لدينهم (٣) عصمة في امر دينهم . فهذه أقوال من جعل القيام دينيا فقط . وانما هو ديني دنيوي ، لان أهل الحرم وحجاجه ما كانوا ليجدوا فيه ما يعيشون به من الغذاء، وما يأمنون به على أنفسهم الهلاك،لولا ان جعل الله الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد قياما لأمر المعيشة ، كما جعلها قياما لامر الدين ، ولكن خص بعضهم القيام الدنيوي بزمن الجاهلية

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : كان الناس فيهم ملوك يدفع بعضهم عن بعض ولم يكن في العرب ملوك يدفع بعضهم عن بعض ، فجعل

الله لهم البيت الحرام قياما يدفع بعضهم عن بعض به — والشهر الحرام كذلك يدفع الله بعضهم عن بعض بالاشهر الحرم والقلائد ، ويلقى الرجل قاتل أبيه وابن عمه فلا يعرض له ، وهذا كله قد نسخ

وروى ابن أبي حاتم عن ابن شهاب قال : جعل الله البيت الحرام والشهر الحرام قياما للناس يأمنون به في الجاهلية الاولى لا يخاف بعضهم بعضا حين يلقونهم عند البيت او في الحرم أو في الشهر الحرام

وروى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابو الشيخ عن قتادة : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد » قال حواجز ابقاها الله في الجاهلية بين الناس ، فكان الرجل لوجرّ كل جريرة ثم لجأ الى الحرم لم يُتناول ولم يُقرب ، وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقر به . وكان الرجل لو لقي الهدي مقلدا وهو يأكل العصب [1] من الجوع لم يعرض له ولم يقر به ، وكان الرجل اذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر فأحمته ومنعته من الناس . وكان اذا نفر (أي عاد من الحج) تقلد قلادة من الإذخر او من السمر [2] فمنعته من الناس [3] حتى يأتي أهله — حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية اه

والمختار أن جعل الله تعالى هذه الاشياء قياما للناس هو جعل تكويني تشريعي معا ، وهو عام شامل لما تقوم به وتتحقق مصالح دينهم ودنياهم ، وشامل لزمن الجاهلية وعهد الاسلام ، ولكن له في كل من العهدين صورة خاصة به — ففي عهد الجاهلية كان التكويني أظهر والتشريعي أخفى ، لانهم على إضاعتهم لشريعة ابراهيم واسماعيل (ص) الا قليلا من مناسك الحج مزجوها بالوثنية والخرافات الوضعية كانت آيات الله تعالى التكوينية ظاهرة فيهم ، كما تقدم بيانه آنفا ، وسبق ما في معناه في سورة آل عمران. وأما في عهد الاسلام فالتشريعي أظهر

---

(١) العصب بالتحريك أطناب المفاصل التى تلائم بينها وتشدها وهى لا تمضغ ولا تهضم فلا تغذي (٢) الاذخر نبات عطر يكثر في الحرمين ، والسمر بالتحريك شجر معروف (٣) منعته حمته وحفظته فلا يعتدي عليه أحد لاجلها

﴿ذلك لتعلموا ان الله يعلم مافي السموات وما في الارض وان الله بكل شيء عليم﴾
أي فعل ذلك الجعل لاجل ان تعلموا منه اذا تأملتم فيه انه تعالى يعلم مافي العالم العلوي والسفلي وان علمه محيط بكل شيء. وذلك انه عز وجل جعل في قلوب العرب في طور جاهليتها وغلظتها وتفانيها في الغزو والسلب والنهب تعظيما لهذا المكان وللاعمال التي تعمل فيه وللزمن التي فيه تؤدى هذه الاعمال هنالك منعهم من اعتداء بعضهم على بعض، وكان سببا لحقن الدماء وسعة الرزق، وقد عجزت جميع أمم الحضارة والمدنية في القديم والحديث — بَلهَ أمم البداوة — عن تأمين الناس في قطر من الاقطار وزمن معين من كل سنة بحيث لا يمكن ان يقع فيهما قتال ولاقتل ولا عدوان، وكذلك جعل في أحكام الحج ومناسكه أعظم الفوائد والمنافع الروحية والجسدية، والدينية والدنيوية، كما علم مما مر آنفا بالاجمال. ومما بيناه في غير هذا المكان من حكم الحج بالتفصيل، وقد ثبتت هذه المنافع والفوائد التي عليها مدار قيام أمر الناس ثبوتا قطعيا بالمشاهدة والتجربة، فدل ما ذكر على أن جعل البيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد قياما للناس لم يكن الا لحكمة بالغة صادرة عن علم بخفايا الامور وغاياتها، فكان دليلا على أنه سبحانه يعلم ما في السموات وما في الارض من أسباب الرزق ونظام الخلق وغير ذلك، وانه عليم بكل شيء فلا تخفى عليه خافية. على ان آياته الدالة على علمه بما في السموات والارض وبغير ذلك أعم وأظهر في نظر العقل من جعله بعض الامكنة والازمنة سببا لدفع الشقاوة عن كثير من الناس وجلب السعادة والهناء لهم، فان سننه تعالى في الفلك وسير الشمس والقمر وغيرهما بحسبان، وفي عالم الجماد والنبات والحيوان، لا يعتريها من الشبهات ما يعتري السنن المتعلقة بنوع الانسان، ولكن الناس يغفلون عنها

---

(١٠١) اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (١٠٣) قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ

فَاتَّقُوا اللَّهَ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

أرشدنا جل شأنه في الآية التي قبل هذه الى بعض آيات علمه في خلقه وأمره، وارشدنا في هذه الى العلم بأن العليم بكل شيء، الذي ظهرت آيات علمه وحكمته في خلق السموات والارض، كما ظهرت في جعل البيت الحرام قياما للناس — لا يمكن ان يترك الناس سدى، كما انه لم يخلقهم عبثا، فلا يليق بحكمته وعدله أن يجعل الذين اجترحوا السيئات، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا ان يسوي بين الطيب والخبيث كالمؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلح والمفسد، والمظلوم والظالم، فلا بدّ اذاً من الجزاء بالحق، ولا يملك الجزاء الا من يقدر على العقاب الشديد، وعلى المغفرة والرحمة، لذلك قال ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ لمن دسّى نفسه بالشرك والفسوق والعصيان ﴿ وان الله غفور رحيم ﴾ لمن زكى نفسه بالاعمال الصالحة مع مع التوحيد والايمان، فلا يؤاخذه بما سلف قبل الايمان، ولا بما يعمله من السوء بجهالة اذا بادر الى التوبة والاصلاح. ولا باللمم، اذا اجتنب كبائر الاثم والفواحش، بل يستر ذنبه ويمحوه، فيضمحل في ايمانه وعمله الصالح، كما يُستر القذر القليل، و يضمحل بما يغمره من الماء الكثير، ويخصه فوق ذلك برحمة منه ورضوان.

فالآية متضمنة للترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، فهي وعيد لمن كفر و تولى عن العمل بكتاب الله، ووعد لمن آمن به وعمل الصالحات. وقد تقدم تفسير المغفرة والرحمة في كثير من الآيات. ولعل في تقديم ذكر العقاب وتأخير ذكر المغفرة والرحمة اشارة الى ان العقاب قد ينتهي بالمغفرة والرحمة فلا يدوم، لان رحمته تعالى سبقت غضبه كما ثبت في الحديث الصحيح، ولذلك يغفر كثيرا من ظلم الناس لانفسهم (و يعفو عن كثير) وأعاد اسم الجلالة في مقام الاضمار للدلالة على ان مغفرته ورحمته ثابتتان له بالاصالة

﴿ما على الرسول الا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ هذا بيان لوظيفة الرسول في إثر بيان كون الجزاء بيد الله العليم بكل شيء، وهي ان الرسول من حيث هو رسول ليس عليه الا تبليغ رسالة من أرسله، فهو لا يعلم جميع ما يبديه

المكلفون من الاعمال والاقوال وما يكتمونه منها فيكون أهلا لحسابهم وجزائهم على أعمالهم، وانما يعلم ذلك الله وحده . وفيه ابطال لما عليه أهل الشرك والضلال من الخوف من معبوداتهم الباطلة والرجاء فيها، والتماس الخلاص والنجاة من عذاب الآخرة بشفاعتها ، فهو يقول بصيغة الحصر « ما على الرسول الا البلاغ » والبيان لدين الله وشرعه ، فبذلك تبرأ ذمته ، ويكون من بلغهم هم المسؤلين عند الله تعالى؛ والله وحده هو الذي يعلم ما تبدون وما تكتمون من عقائدكم واقوالكم وافعالكم فيجازيكم عليها، بحسب علمه المحيط بكل ذرة منها ، فيكون جزاؤه حقا وعدلا ، ويزيد المحسنين كرما منه وفضلا . (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) فلا تطالبوا بسعادتكم الا أنفسكم ، ولا تخافوا عليها الا منها .

ويؤيد تفسيرنا هذا قوله في سورة الرعد (١٣ : ٤٠ فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وقوله في سورة الانعام (٦ : ٤٨ وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٤٩) والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون (٥٠) قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم اني ملك ، إن أتبع الا ما يوحى اليَّ . قل هل يستوي الاعمى والبصير ، أفلا تتفكرون ؟ (٥١) وأنذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون)

وأما الشفاعة الواردة في الاحاديث فلا تناقض الشفاعة المنفية هنا وفي آيات أخرى — لانها عبارة عن دعاء مستجاب يظهر الله عقبه ماسبق به علمه واقتضته حكمته بحسب مافي كتابه، تكريما للداعي الشفيع من غير ان يكون مؤثرا في علم الله ولا في ارادته ، لان الحادث لايؤثر في القديم ؛ (هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)

ثم انه تعالى لما بين الجزاء وكونه منوطا بالاعمال ، أراد ان يبين مايتعلق به الجزاء من وصف الاعمال والعاملين لها، فأثبت وجود حقيقتين متضادتين يترتب على

على كل منهما مايليق بها ، وهما حقيقة الطيب وحقيقة الخبيث ، فقال ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ﴾ أي قل أيها الرسول مخاطبا كل فرد من أفراد أمة الدعوة :

لا يستوي الخبيث والطيب[1] من الاشياء والاعمال والاموال — كالضار والنافع، والفاسد والصالح ، والحرام والحلال -- ولا من الناس كالظالم والعادل ، والجاهل والعالم ، والمفسد والمصلح ، والبر والفاجر . فلكل من الخبيث والطيب في القسم الاول حكم يليق به عند الله تعالى ، ولكل منهما في القسم الآخر جزاء ومكان يستحقه بحسب صفته (سيجزيهم وصفهم) وهو الحكيم العليم الذي يضع كل شيء في موضعه ، ولعل نكتة تقديم الخبيث في الذكر كون السياق للاهتمام بازالة شبهة المغترين بكثرته ولذلك قال ﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ الخطاب من الرسول لكل مكلف بلغته دعوته كما تقدم ، أي ولو أعجبك أيها السامع كثرة الخبيث من الناس لقوتهم ، أو من الاموال المحرمة لسهولة تناولها، والتوسع في التمتع بها ، كأكل الربا والرشوة والغلول والخيانة، أو لدعوى أصحابها انها دليل على حب الله لهم ورضاه عنهم ، اذ فضلهم بها على غيرهم، (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين)

أي لا يستويان ولو فرض ان كثرة الخبيث أعجبتك وغرتك فصرت بعيدا عن ادراك حقيقة الامر ، وهي أن القليل من الحلال كراتب الحاكم العادل ، وربح التاجر الصادق ، خير من كثير الحرام كالرشوة والخيانة ، باعتبار حسن العاقبة في الدنيا والآخرة ، كما ان القليل الجيد من الغذاء أو المتاع خير من الكثير الرديء الذي لا يغني غناءه ولا يفيد فائدته . بل يضر آكله ويفسد عليه معدته

كذلك القليل الطيب من الناس خير من الكثير الخبيث ، فالفئة القليلة من أهل الشجاعة والثبات والايمان، تغلب الفئة الكثيرة من ذوي الجبن والتخاذل والشرك، وان أفرادا من أهل البصيرة والرأي ، ليأتون بما تعجز عنه الجماعات من أهل الغباوة والخرق ، والعالم الحكيم ، يسخر لخدمته ألوفا من الجاهلين (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

كان المشركون يفخرون على المؤمنين في صدر الاسلام بكثرتهم ويعتزون بها (وقالوا نحن اكثر أموالا وأولادا) فضرب الله تعالى لهم مثل الكافر الذي فاخر المؤمن بقوله (أنا أكثر منك مالا واعز نفرا) وكيف كانت عاقبة أمره

(١) راجع تفسير الكلمتين في ص ١٦٩ و١٧٠ ج ٧ من التفسير

خسرا . وقال لهم (٨ : ١٩ ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين) ثم قال للمؤمنين تثبيتا لهم حتى لاتروعهم كثرة المشركين في عددهم وعُددهم (٨ : ٢٦ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الارض تخافون ان يتخطفكم الناس فآواكم وايدكم بنصره) وجاءت هذه الآية بالقاعدة العامة وهي ان العبرة بصفة الشيء لابعدده وانما تكون العزة بالكثرة بعد التساوي في الصفات

ولما كان من دأب أهل الغفلة والجهل الغرور بالكثرة مطلقا قال تعالى تعقيبا على ما أثبته من تفضيل الطيب على الخبيث وان كثر الخبيث ﴿فاتقوا الله ياأولي الالباب لعلكم تفلحون﴾ أي فاتقوا الله يا أصحاب العقول الراجحة ولا تغتروا بكثرة المال الخبيث ، ولا بكثرة أهل الباطل والفساد من الخبيثين ، فان تقوى الله تعالى هي التي تنظمكم في سلك الطيبين ، فيرجى لكم ان تكونوا من المفلحين ، أي الفائزين بخير الدنيا والآخرة

وانما خص أولي الالباب بالذكر في عجز الآية بعد مخاطبة كل مكلف في صدرها لان أهل البصيرة والروية من العقلاء هم الذين يعتبرون بعواقب الامور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها ، بعد التأمل في حقيقتها وصفاتها ، فلا يصرون على الغرور بكثرة الخبيث ، بعد التنبيه والتذكير . وأما اغرار الغافلون الذين لم يمرنوا عقولهم على الاستقلال في النظر ، والاعتبار بالتجارب والحكم ، فلايفيدهم وعظ واعظ ولا تذكير مذكر ، بل لايعتبرون بما يرون بأعينهم ويسمعون بآذانهم من حوادث الاغنياء الذين ذهبت أموالهم الكثيرة المجموعة من الحرام ، والامم والدول التي اضمحلت كثرتها العاطلة من فضيلتي العلم والنظام ، وكيف ورث هؤلاء وأولئك من كانوا أقل مالا ورجالا ، اذ كانوا أفضل اخلاقا وأعمالا ، (والعاقبة للمتقين)

روي عن السدي ان المراد بالخبيث هنا المشركون و بالطيب المؤمنون. وروي عن أبي هريرة قال : لَدرهم حلال أتصدق به أحب الي من مئة ألف ومئة ألف حرام ، فان شئتم فاقرؤا كتاب الله (قل لا يستوي الخبيث والطيب) وروى ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن الاسكندراني قال : كتب الى عمر بن عبد العزيز بعض

عماله يذكر ان الخراج قد انكسر، فكتب اليه عمر : ان الله يقول « لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » فان استطعت ان تكون في العدل والاصلاح والاحسان بمنزلة من كان قبلك في الظلم والفجور والعدوان فافعل . ولا قوة الا بالله .

---

(١٠٤) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ، وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ، عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠٥) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ

قال الرازي : في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه (الاول) انه تعالى لما قال « ماعلى الرسول الا البلاغ » صار التقدير كأنه قال : مابلغه الرسول اليكم فخذوه وكونوا منقادين له ، وما لم يبلغه الرسول اليكم فلا تسألوا عنه ولا تخوضوا فيه ، فانكم ان خضتم فيما لاتكليف فيه عليكم فربما جاءكم بسبب ذلك الخوض الفاسد من التكاليف مايثقل عليكم ويشق عليكم (الثاني) انه تعالى لما قال « ماعلى الرسول الا البلاغ » وهذا ادعاء منه للرسالة (؟) ثم ان الكفار كانوا يطالبونه بعد ظهور المعجزات بمعجزات أخر على سبيل التعنت كما قال تعالى حاكيا عنهم (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ـ الى قوله ـ قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا) والمعنى اني رسول أمرت بتبليغ الرسالة والشرائع والاحكام اليكم ، والله تعالى قد أقام الدلالة على صحة دعواي في الرسالة باظهار أنواع كثيرة من المعجزات، فبعدذلك طلبُ الزيادة من باب التحكم، وذلك ليس في وسعي، ولعل اظهارها يوجب مايسوءكم، مثل انها لو ظهرت فكل من خالف بعد ذلك استوجب العقاب في الدنيا. ثم ان المسلمين لما سمعوا الكفار يطالبون الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المعجزات وقع في قلوبهم ميل الى ظهورها فعرفوا في هذه الآية أنهم لا ينبغي ان

يطلبوا ذلك ، فربما كان ظهورها يوجب مايسوءهم (الوجه الثالث) ان هذا متصل بقوله (والله يعلم ماتبدون وما تكتمون) فاتركوا الامور على ظواهرها ولا تسألوا عن أحوال مخفية ان تبد لكم تسؤكم . اه كلام الرازي بنصه

وأقول: ان مناسبة هاتين الآيتين لآية تبليغ الرسول للرسالة مناسبة خاصة قريبة، ولهما موقع من مجموع السورة ينبغي تذكره والتأمل فيه . ذلك أن هذه السورة آخر ما نزل من السور، وقد صرح الله تعالى في أوائلها بإكمال الدين ، وإتمام النعمة به على العالمين ، فناسب أن يصرح في أواخرها بأن الرسول قد أدى ما عليه من وظيفة البلاغ، وأنه ينبغي للمؤمنين ان لايكثروا عليه من السؤال، لئلا يكون ذلك سببا لكثرة التكاليف التي يشق على الامة احتمالها ، فتكون العاقبة ان يسرع اليها الفسوق عن أمر ربها .

فان قيل: اذا كان الامر كذلك فلم طال الفصل بين هذا النهي و بين الخبر باكمال الدين ، ولم يتصل به في النظم الكريم؟ قلت: تلك سنة القرآن في تفريق مسائل الموضوع الواحد من أخبار وأحكام وغيرهما لما بيناه مرارا من حكمة ذلك، وهاك أقوى ماورد في أسباب نزول الآيتين :

روى أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وغيرهم عن أنس ابن مالك قال: خطب رسول الله (ص) خطبة ما سمعت مثلها قط وقال فيها «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» قال فغطى أصحاب رسول الله (ص) وجوههم لهم خنين[1] فقال رجل: من أبي ؟ قال «فلان» فنزلت هذه الآية (لا تسألوا عن أشياء) قال الحافظ ابن كثير «وقال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة في قوله (ياايها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم) الآية ، قال فحدثنا أن أنس بن مالك حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه حتى أحفوه بالمسألة فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر فقال

(١) روي بالمعجمة و بالمهملة وهما اسمان لصوتين مخصوصين والمراد هنا البكاء بهما فالاول البكاء الذي يخرج به الصوت من الخياشيم مع غنة و الثاني البكاء المرتفع من الصدر وهو دون النحيب

«لاتسألوني اليوم عن شيء الا بينته لكم» فأشفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بين يدي أمرقد حضر، فجعلت لا ألتفت لا يمينا ولا شمالا الا وجدت كل رجل لافاً رأسه في ثو به يبكي، فأنشأ رجل كان يلاحي فيدعى الى غير أبيه فقال: يانبي الله من أبي؟ قال «أبوك حذافة» قال ثم قام عمر أو قال فأنشأ عمر فقال رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا عائذا بالله—أو قال أعوذ بالله — من شر الفتن. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لم أر في الخير والشر كاليوم قط صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط» أخرجاه (أي الشيخان) من طريق سعيد، ورواه معمر عن الزهري عن أنس بنحو ذلك أو قريبا منه. قال الزهري فقالت أم عبد الله بن حذافة: ما رأيت ولدا أعق منك (قالت) أكنت تأمن أن أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رؤس الناس؟ فقال والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته

« وقال ابن جرير أيضا· حدثنا الحرث حدثنا عبد العزيز حدثنا قيس عن ابي حصين عن ابي صالح عن ابي هريرة قال: خرج رسول الله صل الله عليه وسلم وهو غضبان محمارٌ وجهه حتى جلس على المنبر فقام اليه رجل فقال: أين انا؟ قال «في النار – فقام آخر فقال: من ابي؟ قال– ابوك حذافة» فقام عمر بن الخطاب فقال: رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالقرآن اماما، انا يا رسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك والله اعلم من آباؤنا. قال فسكن غضبه ونزلت هذه الآية (ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن اشياء ان تُبد لكم تسؤكم) الآية. اسناده جيد

« وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من السلف منهم اسباط عن السدي— فذكر ابن كثير عنه مثل حديث أبي هريرة في جملته وزاد في آخر كلام عمر — فاعف عنا عفا الله عنك، فلم يزل به حتى رضي. فيومئذ قال «الولد للفراش وللعاهر الحجر» (ثم قال) قال البخاري: قال حدثنا الفضل بن سهل حدثنا ابو النضر حدثنا ابو خيثمة حدثنا ابو الجويرية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاءً فيقول الرجل: من ابي؟ ويقول الرجل

تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية (يا ايها الذين آمنوا لاتسألوا عن اشياء ان تبد لكم تسؤكم) حتى فرغ من الآية كلها، تفرد به البخاري

« وقال الامام احمد: حدثنامنصور بن وردان الاسدي حدثنا علي بن عبد الاعلى عن أبيه عن أبي البختري وهو سعيد بن فيروز عن علي قال لما نزلت هذه الآية (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) قالوا يارسول الله أفي كل عام؟ فسكت. فقالوا: أفي كل عام؟ فسكت. قال ثم قالوا : أفي كل عام ؟ فقال :« لا ولو قلت نعم لوجبت ، — ولو وجبت لما استطعتم » فأنزل الله (ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم) الآية. وكذا رواه الترمذي وابن ماجه من طريق منصور ابن وردان به . وقال الترمذي غريب من هذا الوجه وسمعت البخاري يقول أبو البختري لم يدرك عليا » اه

أقول منصور بن وردان ثقة كما قال ابن حبان وغيره . وأبو البختري هو سعيد ابن فيروز التابعي ثقة فيه تشيع روى عنه الجماعة كلهم ، ولكن مراسيله ضعيفة

وقد عزا السيوطي في الدر المنثور حديث علي هذا الى احمد والترمذي « وحسنه » وابن ماجه وابن أبي حاتم والحاكم وذكر نحوه عن ابن عباس عازيا إياه الى عبد بن حميد وابن المنذر والحاكم — قال « وصححه » — والبيهقي في سننه. وفيه ان السائل الاقرع بن حابس . وذكر مثله أيضا عن الحسن من تخريج عبد ابن حميد وفيه ” ذروني ما وذرتكم “ الخ وهذه الزيادة من أحاديث الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ولفظ البخاري ” دعوني ما تركتكم “ — ولفظ مسلم : دعوني ماتركتكم — فانما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فاذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، واذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم »

قال القسطلاني في شرحه له تبعا للحافظ ابن حجر، وسبب هذا الحديث على ما ذكره مسلم [أقول وكذا النسائي] من رواية محمد بن زياد عن أبي هريرة (رض) قال: خطبنا رسول الله (ص) فقال ”يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا“ ، فقال رجل: أكل عام يارسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله (ص) « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم — ثم قال — ذروني ماتركتكم » الحديث

وأخرجه الدارقطني مختصرا وزاد فيه فنزلت (ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم) اه وأقول: محمد بن زياد هذا ثقة روى عنه الجماعة كلهم .

ونص سنن النسائي: عن أبي هريرة قال خطب رسول الله (ص) عليه وسلم الناس فقال ,, ان الله عز وجل قد فرض عليكم الحج ،، فقال رجل : في كل عام ؟ فسكت عنه حتى أعاده ثلاثا فقال ,, لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت ما قمتم بها . ذروني ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ؛ فاذا أمرتكم بالشيء (وفي نسخة بشيء) فخذوا به ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوا،، وروى عن ابن عباس مسألة وجوب الحج وان الاقرع بن حابس قال: كل عام يارسول الله؟ فسكت فقال « لو قلت نعم لوجبت ثم اذا لاتسمعون ولا تطيعون ولكنه حجة واحدة » وفي فتح الباري ان ابن عبد البر نقل عن رواية مسلم ان السؤال عن الحج كان يوم خطب (ص) وقال «لايسألني أحد عن شيء الا أخبرته»

وقال ابن جرير : حدثني اسحق بن ابراهيم بن حبيب بن الشهيد ، قال حدثنا عتاب بن بشير عن خصيف عن مجاهد عن ابن عباس (لاتسألوا عن أشياء) قال هي البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ، ألا ترى انه يقول بعد ذلك : ماجعل الله من كذا ولا كذا . قال وأما عكرمة فانه قال إنهم كانوا يسألونه عن الآيات فنهوا عن ذلك ثم قال (قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) قال فقلت قد حدثني مجاهد بخلاف هذا عن ابن عباس فما لك تقول هذا ؟ فقال : هيهْ

ثم روى ابن جرير مثل قول مجاهد عن سعيد بن جبير . ثم قال : وأولى الاقوال بالصواب في ذلك قول من قال: نزلت هذه الآية من أجل اكثار السائلين رسول الله (ص) المسائل ، كمسألة ابن حذافة إياه من أبوه ، ومسألة سائله إذ قال « ان الله فرض عليكم الحج » أفي كل عام ؟ وما أشبه ذلك من المسائل، لتظاهر الاخبار بذلك عن الصحابة والتابعين وعامة أهل التأويل . وأما القول الذي رواه مجاهد عن ابن عباس فغير بعيد عن الصواب . ولكن الاخبار المتظاهرة عن الصحابة والتابعين بخلافه . ذكرنا القول به من أجل ذلك . على انه غير مستنكر أن تكون المسألة عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي كانت فيما سألوا النبي (ص) عنه

من المسائل التي كره الله لهم السؤال عنها أ ﻫ ماقاله وفيه أن تلك الاخبار صحاح فوجب ترجيحها . يشير الى ضعف سند رواية مجاهد لان خصيف بن عبد الرحمن راويها عنه قد ضعفه الامام أحمد وقال مرة: ليس بقوي . وقال أبو حاتم : تكلم في في سوء حفظه . ولكن قال ابن معين فيه مرة صالح ومرة ثقة

والطريقة المتبعة في الجمع بين أمثال هذه الاحاديث: أن يقال ان النهي في الآية يشمل كل ماورد في سبب نزولها وكل ماهو في معناه ، وليس كل ماروي في أسباب النزول كان سببا حقيقيا ، بل كانوا يقولون في كل مايدخل في معنى الآية ويشمله عمومها إنها نزلت فيه ، وكثيرا ما ينقلون كلام الرواة بمعناه فيجيء منطوقه متعارضا، وقد بينا هذه المسألة مرارا . وأبعد ماقيل في أسباب نزول هذه الآية ان بعضهم كان يسأل النبي عن الشيء امتحانا أو استهزاء ، وهذا لا يصدر الا من كافر صريح أو منافق ، والخطاب في الآية للمؤمنين فلا يمكن ان يكون نهيا لهم عن سؤال الامتحان أو الاستهزاء، وانما يجوز ان يكون في الآية تعريض بالكافرين والمنافقين

وفي بعض روايات حديث أنس بن مالك : ان الناس سألوا نبي الله (ص) حتى أحفوه بالمسألة الخ الحديث المتقدم . وفي حديث لأبي موسى الاشعري في الصحيحين بمعناه « فلما أكثروا عليه المسألة غضب وقال : سلوني » فبعض العلماء يرى ان النهي عن السؤال في الآية لهذا الاحفاء والاغضاب الذي آذوا به الرسول (ص).

والقول الجامع للروايات والمتبادر من اللغة في معنى الآية ما يأتي

﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم ﴾ [أشياء] اسم جمع أو جمع لكلمة [شيء] وهي أعم الالفاظ مطلقا أو الالفاظ الدالة على الموجود ، فتشمل السؤال عن الاحكام الشرعية، والعقائد والاسرار الخفية،والآيات الكونية، اذا تحقق فيما ذكر معنى الجملتين الشرطيتين، والمقصود أولا و بالذات النهي عن سؤال الرسول(ص) عن أشياء من أمور الدين ودقائق التكاليف،ويليه السؤال عن الاسرار الخفية المتعلقة بالاعراض وغير ذلك من الاشياء التي يحتمل ان يكون اظهارها سببا للمساءة ، إما بشدة التكاليف وكثرتها ، واما بظهور حقائق تفضح أهلها . ولكن

حذف مفعول « تسألوا » يدل على العموم ، أي ولا تسألوا غير الرسول عن أشياء يحتمل ان يكون إبداؤها سببا لمساءتكم ، فهي تتضمن النهي عن الفضول وما لا يعني المؤمن .

ومن المقرر في قوانين العربية ان شرط « ان » مما لايقطع بوقوعه. والجزاء تابع للشرط في الوقوع وعدمه ، فكان التعبير بقوله « ان تبد لكم تسؤكم » دون « اذا أبديت لكم تسوءكم » دالاّ على ان احتمال إبدائها وكونه يسوء كاف في وجوب الانتهاء عن السؤال عنها .

وبهذا يسقط قول من يقول ان أمثلة المسائل المنهي عنها الواردة في أسباب النزول مما لا يمكن العلم بكون إبدائها يسوء السائلين عنها، بل يحتمل عندهم ان يكون مما يسر ، وقد كان جواب من سأل عن أبيه سارًّا له . وكذلك من سأل عن الحج ، اذ كان جوابه التخفيف عنه وعن الامة ببيان كون الحج يجب على كل مستطيع مرة واحدة لا في كل عام . ويمكن ان يقال مثل هذا في كل سائل عن أمثال هذه المسائل فلا يظهر تعليل النهي بهذا الشرط . كل هذا يسقط بما ذكرنا من دلالة الجملة الشرطية المصدرة بإن على احتمال وقوع شرطها لاعلى القطع بوقوعه

ويدل على هذا الذي قررناه قول النبي (ص) للأعرابي الذي سأله عن الحج « ويحك ماذا يؤمنك أن أقول نعم؟ ولوقلت نعم لوجبت » الخ ماتقدم ، وفي رواية لابن جرير « ولو وجبت لكفرتم ، إلا انه إنما أهلك الذين قبلكم أئمة الحرج » فهو صريح في كون احتمال قوله « نعم » كان كافيا في ترك ذلك السؤال . ويدل عليه أيضا في سؤال عبدالله بن حذافة عن أبيه قول أمه له : مارأيت ولدا أعق منك ، أتأمن أن تكون أمك قارفت ماقارف أهل الجاهلية فتفضحها على رءوس الناس ؟ وسيأتي رأينا في جوابه (ص) لابن حذافة

﴿ وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ﴾ أي وان تسألوا عن جنس تلك الاشياء التي من شأنها ان يكون إبداؤها مما يسوءكم حين ينزل القرآن في موضوعها لاجل فهم مانزل اليكم فان الله يبديه لكم على لسان رسوله . وبنحو هذا القول قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري، فانه بعد ايراد الوجوه السابقة في

السؤال عند تفسير صدر الآية قال في تفسير هذه الجملة مانصه :

« يقول تعالى ذكره للذين نهاهم من أصحاب رسول الله (ص) عن مسألة رسول الله (ص) عما نهاهم عن مسألتهم إياه عن فرائض لم يفرضها عليهم ، وتحليل أمور لم يحللها لهم ، وتحريم أشياء لم يحرمها عليهم — قبل نزول القرآن بذلك — : ياأيها المؤمنون السائلون عما سألوا عنه رسولي مما لم أنزل به كتابا ولا وحيا لاتسألوا عنه ، فانكم إن أظهر ذلك لكم تبيانٌ بوحي وتنزيلٍ ساءكم ، لان التنزيل بذلك اذا جاءكم فانما يجيئكم بما فيه امتحانكم واختباركم، إما بايجاب عمل عليكم ولزوم فرض لكم ، وفي ذلك عليكم مشقة ولزوم مؤنة وكلفة ، وإما بتحريم مالو لم يأته بتحريمه وحي كنتم من التقديم عليه في فسحة وسعة ، وإما بتحليل ماتعتقدون تحريمه وفي ذلك لكم مساءة، انقلكم عما كنتم ترونه حقا الى ما كنتم ترونه باطلا. ولكنكم ان سألتم عنها بعد نزول القرآن بها ، وبعد ابتدائكم شأن أمرها في كتابي الى رسولي اليكم، بين عليكم ماأنزلته اليه من إتيان كتابي ، وتأويل تنزيلي ووحيي .

« وذلك نظير الخبر الذي روي عن بعض أصحاب رسول الله (ص) الذي حدثنا به هناد بن السري قال حدثنا أبو معاوية عن داود بن أبي هند عن مكحول عن أبي ثعلبة الخشني قال « ان الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها ، وحدّ حدودا فلا تعتدوها، وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها» ثم روى (ابن جرير) مثل هذا المعنى عن عبيد بن عمير تفسيرا للآية. وروى عن ابن عباس انه قال: لاتسألوا عن أشياء ان نزل القرآن منها بتغليظ ساءكم ذلك، ولكن انتظروا فاذا نزل القرآن فانكم لاتسألون عن شيء الا وجدتم تبيانه اه وظاهر كلامه ان الحديث موقوف على أبي ثعلبة وستعلم انه مرفوع

وقال الحافظ ابن كثير في بيان هذا الوجه « أي لاتسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها فلعله قد ينزل بسؤالكم تشديد أو تضييق. وقد ورد في الحديث « أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » ولكن اذا نزل القرآن بها مجملة فسألتم عن بيانها بينت لكم حينئذ لاحتياجكم اليها (عفا الله عنها)

أي مالم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه ، فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها . وفي الصحيح عن رسول الله (ص) انه قال « ذروني ما تركتكم فانما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » وفي الحديث الصحيح أيضا « ان الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدّ حدودا فلا تعتدوها ، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها »

أقول: أما حديث « ذروني ماتركتكم » وفي رواية بلفظ « دعوني » فهو في الصحيحين . وسببه السؤال عن الحج كما تقدم . وأما حديث ابي ثعلبة فقد عزاه الحافظ ابن كثير الى الصحيح أيضا ولم يسنده ولا أشار الى من خرجه .وهو في سنن الدارقطني . وأورده صاحب مشكاة المصابيح عنه في الفصل الثاني من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة قال: وعن أبي ثعلبة الخشني قال قال رسول الله (ض) « ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها »

ورويناه في الاربعين النووية[1] عنه بلفظ «ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدَّ حدودا فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها » قال النووي : حديث حسن رواه الدارقطني وغيره.

وثم وجه ثان في معنى الجملة وهو أنه يقول : ان تسألوا عن تلك الاشياء في زمن نزول القرآن وعهد التشريع يظهرها الله لكم — ان كانت اعتقادية ببيان ما يجب ان يعلم فيها ، وان كانت عملية ببيان حكمها ، لان لكل شيء حكما يليق به في علم الله وحكمته ، والله تعالى يبين لعباده بنص الخطاب ما لابد لهم منه لصلاح أمري معادهم ومعاشهم — وبفحوى الخطاب أو الاشارة ما يفتح لهم باب الاجتهاد في كل ما له علاقة بأمور مصالحهم ، فيعمل كل فرد أو هيئة حاكمة منهم بما ظهر انه الحق والمصلحة، وينتهي عما يظهر له انه الباطل والمفسدة ، فيكون الوازع للفرد

(١) كتاب الاربعين النووية أول كتاب تلقيته عن الشيوخ، قرأته في بلدنا (القلمون) على استاذنا وشيخ شيوخنا علامة الديار السورية بل العربية الشيخ محمود نشابه (رحمه الله تعالى) واجازني به وذلك قبل ان ابدأ بطلب العلوم

في المسائل الشخصية من نفسه بحسب درجته في العلم والفضيلة ، وللمجموع في الاحكام والسياسة من أنفسهم أيضاء لانه يتقرر بتشاور أولي الامر منهم ، وفي ذلك منتهى السعة واليسر. واذا كان الامر كذلك فالواجب ان يترك أمر التشريع اليه تعالى لانه أعلم بمصالح العباد من أنفسهم ، فلا تسألوا عن أشياء ان أبديت لكم أحكامها تسوءكم و تحرجكم ، ومتى سألتم عنها في عهد التشريع لابد ان تجابوا وتبين لكم ، ولكن هذا البيان قد يسد في وجوهكم باب الاجتهاد الذي فوضه الله اليكم ، ويقيدكم بقيود أنتم في غنى عنها (وسيأتي تفصيل هذا المبحث قريبا عقب تفسير الآيات)

فحاصل هذا الوجه أن السؤال عن تلك الاشياء في زمن نزول القرآن يقتضي ابداءها لكم ، وإبداؤها يقتضي مساءتكم ، فيجب ترك السؤال عنها البتة

وحاصل الوجه الاول تحريم السؤال عن الاشياء التي من شأن ابدائها ان يسوء السائلين الا في حالة واحدة وهي أن يكون قد نزل في شأنها شيء من القرآن فيه إجمال وأردتم السؤال عن بيانه ليظهر لكم ظهورا لا مراء فيه كما وقع في مسألة تحريم الخمر بعد نزول آية البقرة (تقدم بيانه بالتفصيل) فعلى هذا تكون الجملة الشرطية الثانية من قبيل الاستثناء من عموم النهي . وانما يدل هذا على جواز السؤال عن تلك الاشياء بشرطه لا على وجوبه، فالسؤال عما ذكر غير مطلوب باطلاق

وكل من هذين الوجهين ظاهر في السؤال عن الاشياء التي تقتضي أجوبتها تشريعا جديدا وأحكاما تزيد في مشقة التكاليف . ولا يظهر البتة في سؤال الآيات الكونية لما يعارض ذلك من النصوص الدالة على عدم إجابة مقترحي الآيات لعنادهم ومشاغبتهم، وكون الاجابة تقتضي هلاكهم اذا لم يؤمنوا بها كما هي سنة الله فيمن قبلهم (فان قيل) انما هذا الوعد للمؤمنين ، وانما كانت تلك الاقتراحات من الكافرين (قلنا) لو أن المؤمنين فهموا من الآية أنهم يجابون الى مايقترحون من الآيات لوجد كثير منهم يقترح ذلك لما للنفوس من الشوق الى رؤية الآيات . وأما السؤال عن الأمور الواقعة التي تقتضي أجوبتها أخبارا عن أسرار خفية وأمور غيبية، فلا يظهر فيه كل من الجوابين مثل ظهوره في طلب الاحكام ،

ولا سيما الاشياء الشخصية كسؤال بعضهم عن أبيه ، فاذا صح انه مراد من الآية فوجهه والله أعلم أن زمن نزول القرآن هو زمن بيان المغيبات ، واظهارها للرسول عند الحاجة الى معرفتها ، ومنه وقت السؤال عنها ؛ فانه ان سئل عنها يخبره الله بها مزيدا في إثبات نبوته ورسالته ، كما أخبره بالجواب عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين حين سأله اليهود عنها . وعندي ان جوابه صلى الله عليه وآله وسلم لمن سأله عن أبيه جواب شرعي لاغيبي ، بدليل قوله بتلك المناسبة « الولد للفراش » فكأنه قال له : أبوك الشرعي من ولدت على فراشه وهو حذافة بن قيس ، وهذا من أسلوب الحكيم المتضمن لتعليمهم ماينفعهم من السؤال ، فهو من قبيل ماورد في تفسير (يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج) وقد تقدم في تفسير سورة البقرة (ج٢)

وهذه الآية تدل على عدم جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة أو على انه لايقع — وقد غفل جمهور الاصوليين عن الاستدلال بها — وبيان ذلك ان مايسئل عنه إما ان يكون مما يطلب العلم به كالعقائد والاخبار ، وإما ان يكون ممايطلب العمل به وهو الاحكام . وتأخير البيان - دع تركه وعدمه - يقتضي الاقرار على الاعتقاد الباطل ، أو العمل بغير الوجه المراد للشارع . ولا يدخل في هذا ولا ذاك السؤال عن الامور الشخصية كسؤال من سأل عن ناقته ، ولذلك جعلنا هذا النوع من السؤال غاية في خفاء دخوله في عموم (وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) فان كان داخلا فيها فحكمته — والله أعلم — ان عدم إبداء الجواب للسائل المؤمن ربما كان مشككا له في رسالة الرسول (ص)

وذهب أبوالسعود مذهباغريبا في الآية وتعليل إبداء الاشياء المسؤل عنها بما يوجب المساءة في كل من نوعيها فقال : والمراد بها ما يشق عليهم ويغمهم من التكاليف الصعبة التي لايطيقونها ، والاسرار الخفية التي يفتضحون بظهورها ،ونحو ذلك مما لاخير فيه ، فكما ان السؤال عن الامور الواقعة مستتبع لإبدائها ، كذلك السؤال عن التكاليف مستتبع لايجابها عليهم بطريق التشديد لإساءتهم الادب ، واجترائهم على المسألة والمراجعة ، وتجاوزهم عما يليق بشأنهم من الاستسلام لأمر

الله عز وجل ، من غير بحث فيه ولا تعرض لكيفيته وكميته . اهـ

ثم أورد على ما قرره — بعد ان استشهد عليه بما ورد في سبب نزول الآية — ثلاثة ايرادات وأجاب عنها فقال :

(إن قلت) تلك الاشياء غير موجبة للمساءة البتة ، بل هي محتملة لايجاب المسرة أيضا، لان إيجابها للاولى ان كان من حيث وجودها فهي من حيث عدمها موجبة للاخرى قطعا ، وليست إحدى الحيثيتين محققة عند السائل ، وانما غرضه من السؤال ظهورها كيف كانت ، بل ظهورها بحيثية ايجابها للمساءة ؟

(قلت) لتحقيق المنهي عنه كما ستعرفه مع مافيه من تأكيد النهي وتشديده ، لأن تلك الحيثية هي الموجبة للانتهاء والانزجار لاحيثية ايجابها للمسرة ، ولاحيثية ترددها بين الايجابين

(ان قيل) الشرطية الثانية ناطقة بأن السؤال عن تلك الاشياء الموجبة للمساءة مستلزم لابدائها البتة كما مر ، فلم تخلف الابداء عن السؤال في مسألة الحج حيث لم يفرض في كل عام ؟

(قلنا) لوقوع السؤال قبل ورود النهي ، وما ذكر في الشرطية انما هو السؤال الواقع بعد وروده، اذ هو الموجب للتغليظ والتشديد ، ولا تخلف فيه

(ان قيل) ماذكرته انما يتمشى فيما اذا كان السؤال عن الامور المترددة بين الوقوع وعدمه كما ذكر من التكاليف الشاقة . وأما اذا كان عن الامور الواقعة قبله فلا يكاد يتمشى ، لان مايتعلق به الابداء هو الذي وقع في نفس الأمر ولا مرد له ، سواء كان السؤال قبل النهي أو بعده ، وقد يكون الواقع مايوجب المسرة كما في مسألة عبدالله بن حذافة ، فيكون هو الذي يتعلق به الابداء لاغيره ، فيتعين التخلف حتما

(قلنا) لااحتمال للتخلف فضلاعن التعين، فان المنهي عنه في الحقيقة انما هو السؤال عن الاشياء الموجبة للمساءة الواقعة في نفس الامر قبل السؤال ، كسؤال من قال : أين أبي ؟ لا عما يعمها وغيرها مما ليس بواقع لكنه محتمل للوقوع عند المكلفين حتى يلزم التخلف في صورة عدم الوقوع . اهـ

وحاصل ماذهب اليه أن المراد من الآية نهي المؤمنين عن السؤال عما يعلمون

أن الجواب عنه يسوءهم من الاخبار والاحكام دون ما يعلمون انه يسرهم أو يكون محتملا للمسرة والمساءة ـ وهذا النوع من السؤال قلما يقع من أحد — وأن من سأل عن شيء مما يتعلق بالاحكام في زمن نزول القرآن فان الجواب عنه لايكون الا بالتشديد عقوبة له ولجميع الامة على اساءة أدبه . وان هذا المذهب بعيد عن العقل والنقل ، غير منطبق على عموم الرحمة و يسر الشرع ، وقد غفل قائله عفا الله عنه عند كتابته عن ذلك فلم يفكر الا في ظواهر مدلول اللفظ . ولا نتوسع في بسط الاعتراض عليه ، اكتفاء بتقرير الصواب الذي هدانا الله تعالى اليه

أما قوله تعالى ﴿ عفا الله عنها والله غفور حليم ﴾ فقد روي في تفسيره قولان (أحدهما) ما رواه ابن جرير عن عبيد بن عمير وأشرنا اليه فيما نقلناه عنه، ونقلنا مثله عن ابن كثير ، وهو ان هذه الاشياء التي نهيتم عن السؤال عنها هي مما عفا الله عنه بسكوته عنه في كتابه وعدم تكليفكم اياه ، فاسكتوا عنه أيضا . وأيدوا هذا القول بحديث أبي ثعلبة الخشني اذ قال (ص) « وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها » والجملة على هذا صفة لاشياء كما قال بعضهم، أو هي استئناف بياني يتضمن تعليل النهي، وهو يناسب كون النهي عن المسائل المتعلقة بالتشريع

(ثانيهما) ان معناه عفا الله عما كان من مسألتكم قبل النهي فلا يعاقبكم عليها لسعة مغفرته وحلمه ، فهو كقوله فيما يشابه هذا السياق (عفا الله عما سلف) وقوله (الا ماقد سلف) ولا مانع عندنا يمنعنا من ارادة المعنيين معا. فان كل ماتدل عليه عبارات القرآن من المعاني الحقيقية والمجازية والكنائية يجوز عندنا ان يكون مراداً منها مجتمعة تلك المعاني أو منفردة، مالم يمنع مانع من ذلك كأن تكون تلك المعاني مما لايمكن اجتماعها شرعا أو عقلا، فحينئذ لايصح ان تكون كلها مرادة، بل يرجح بعضها على بعض بطرق الترجيح المعروفة من لفظية ومعنوية

ثم قال تعالى ﴿ قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾ أي قد سأل هذه المسألة — أي هذا النوع منها — أو هذه المسائل — أي أمثالها — قوم من قبلكم ثم أصبحوا بعد إبدائها لهم كافرين بها ، فان الذين أكثروا السؤال عن الاحكام التشريعية من الامم قبلكم لم يعملوا بما بين لهم منها، بل فسقوا عن أمر

ربهم، وتركوا شرعهم لاستثقالهم العمل به، وأدى ذلك الى استنكاره واستقباحه، أو الى جحود كونه من عند الله تعالى، وكل ذلك من الكفر به. والذين سألوا الآيات كقوم صالح لم يؤمنوا بعد اعطائهم إياها بل كفروا واستحقوا الهلاك في الدنيا قبل الآخرة- والاخبار الغيبية كالآيات أو منها- وقد اقتصر ابن جرير في هذه الآية على تفسير المسائل التي سألوها وكفروا بها بالآيات التي يؤيد الله بها الرسل عليهم السلام، وذكر ابن كثير المعنيين اللذين قررناهما آنفا واستشهد للاول بمسألة السؤال عن الحج. ولا بد من الجمع بينهما لتكون هذه الآية تتمة لما قبلها، وبيانا لسبب ذلك النهي الجامع للمعنيين كما تقدم. ويؤيد الاول ما ورد في حديث السؤال عن الحج من كون فرضه كل عام يفضي الى الكفر، وانما يظهر ذلك بالوجه الذي قررناه وبيناه، ولم نر أحدا سبقنا اليه.

والعبرة في هذه الآية ان كثيرا من الفقهاء وسعوا بأقيستهم دائرة التكاليف، وانتهوا بها الى العسر والحرج المرفوع بالنص القاطع، فأفضى ذلك الى ترك كثير من أفراد المسلمين وحكوماتهم للشريعة بجملتها، وفتح لهم أبواب انتقادها والاعتراض عليها، فاتبعوا بذلك سنن من قبلهم. ولا بد لنا من عقد فصل خاص في تفصيل هذا البحث

اللغة العربية

أقدم اللغات الشرقية وأم المدنية المصرية والبابلية

كنا نستدل على عراقة العرب في المدنية بما روى لنا التاريخ القديم من استعمارهم لمصر في عهد دولة الرعاة (الهكسوس) وغيرهم، واستعمارهم قبل ذلك للعراقين، وما كان لنا في ذلك الا علم اجمالي، ثم جاءنا علماء العاديات (الآثار القديمة) بالاكتشافات والتحقيقات التي خرجنا بها من حيز العلم الاجمالي الى حيز العلم التفصيلي، وكان أعظم ما اكتشفوه في حفائر العراق شريعة حمورابي (ملكي صادق) الموصوف في العهدين القديم والجديد بأنه ملك البر وملك السلام وكاهن

الله العلي ، ومن أخبار سفر التكوين انه بارك على ابراهيم عليه الصلاة والسلام وعلى آله ، وان ابراهيم أعطاه العشور . وقد بين هؤلاء العلماء ان شريعة حمورابي كانت عربية ،وهي أقدم شريعة من الشرائع التي عرفها التاريخ ، وقد زعم بعض علماء الألمان ان التوراة مقتبسة منها (راجع المجلد السادس من المنار)

وقد نشرنا في المجلد الخامس عشر (سنة ١٣٣٠) خطابا طويلا في اللغة العربية لجبر افندي ضومط استاذ العلوم العربية في القسم العالي من المدرسة الكلية الامريكانية ببيروت ألقاه في الاحتفال السنوي لسنة ١٩١١م أتحفنا به، وموضوعه [بحث تاريخي فاسفي في مواطن العربية المضرية ونسبتها الى اخواتها من اللغات السامية] ومما جاء فيه ان العلامة رونسن المؤرخ الاثري يرجح ان المدنية المصرية القديمة لم يكن منبتها مصر بل جاءتها من العراق و بلاد العرب (المنار ص١١٦م١٥) وأن الباحثين اتفقوا على ان لغة الاشوريين وقدماء البابليين واحدة ، وان الآثار البابلية تثبت ان الناطقين باللغة السامية هنالك لم يكونوا من أهل البلاد الاصليين ، وانما جاءوها من مكان آخر وتغلبوا على أهلها الذين كان لهم مدنية عظيمة إذ كانوا غزاة فاتحين ثم ترجموا الكثير من آداب أهل البلاد بلغتهم السامية ، والظاهر انهم كانوا من جزيرة العرب (المنار ص ١١٧ م ١٥)

ثم بين ان اللغة العربية هي أم اللغات السامية وسيدتها ، وان أرومتها الاولى كانت في اليمن وحضرموت وعمان . وانه انشعب منها فرع الى بلاد بابل بالعراق فانقسم الى شعبتين بدوية وحضرية ، وان بعض العمالقة والعاديين من قدماء العرب هاجروا الى سورية — بعضهم هاجر من العراق لما اضطهدهم النماردة ، و بعضهم هاجر من جزيرة العرب بقصد التجارة والاستعمار — كما هاجر غيرهم من اخوانهم الى شطوط افريقية فكان منهم الامهرية والحبشة — (قال جبر افندي ضومط) ومن هؤلاء المهاجرين كان العبرانيون وأمم الشام من الكنعانيين والفينيقيين . وعليه تكون العبرانية والفينيقية والعربية (أي المضرية) شعبتين من الفرع العادي ، والحمرية والحبشية من الفرع القحطاني (المنار ص ١٩٩ م ١٥)

أقول فعلى ما تقدم يكون كل من مدينة العراق وسورية ومصر عربي الاصل

ثم تولد من ذلك الاصل فروع استقلت واختلفت باختلاف الدول والملل ، حتى جاء الاسلام فأرجع تلك الفروع كلها -- ماقرب منها عن أصله وما بعد - الى الفرع المضري ، فكأنه عمد الى أفراد عشيرة كانوا متفرقين متباعدين يحسب كل منه انه اجنبي عن الآخر فجمع بينهم فعادوا الى الوشيج الجامع فكانوا أسرة واحدة

لكن علامة الآثار والعاديات المصرية وامام اللغة الهيروغليفية في مصرنا الآن أحمد بك كمال أمين دار الآثار المصرية اظهر لنا من الاتحاد بين اللغة العربية واللغة المصرية القديمة ما لم يكن في الحسبان ، فقد ألف قاموسا كبيرا أورد فيه ألوفا من الكلمات الهيروغليفية الموافقة للغة العربية المضرية في الغالب- إما موافقة تامة وإما موافقة بضرب من التحريف أو القلب والإبدال المعهود مثله في اللغتين. ومن المعلوم ان المدنية العربية القديمة كانت في العاديين والقحطانيين سكان حضرموت واليمن ، وهم الذين استعمروا مصر والعراق وسورية . وقد ضاع أكثر لغتهم، ولعلها لو دونت كاللغة المضرية لفسرت لنا من اللغة المصرية القديمة مالم يفسر الى اليوم، حتى فيما نراه يخالف منها المضرية بتحريف أو قلب أو ابدال

وكان المشهور عن احمد بك كمال أنه يرى أن العربية أصل للغة المصرية القديمة المدونة بالقلم الهيروغليفي ومن لوازم هذا ان أصحاب تلك المدنية كانوا من العرب. ثم إنه رأى نصا يدل ظاهره على أن العرب أنفسهم أو بعضهم من المصريين فأخذ بظاهره حملا له على الصدق ، وبنى عليه محاضرة ألقاها في مدرسة المعلمين الناصرية في العام الماضي. وذلك النص ما وجد منقوشا في الدير البحري (مكان بجهة الاقصر) في زمن الدولة الثامنة عشرة (كان زمنها من سنة ١٦٠٠ — ١٣٨٠ ق م) وهي أرقى دول مصر، وفيه ان المصريين الاولين اشتهروا باسم الاعناء ، ولم يبين النص أصلهم ، ولا من أين جاؤا ، ولكنهم استعمروا الجهة الجنوبية من مصر وأسسوا المدن بأسمائهم. وفيه ان بعضهم هاجر الى القيروان وتونس والجزائر. وبعضهم الى أواسط أفريقية والصومال ، وبعضهم قطع البحر الاحمر الى بلاد العرب وانتشر فيها وسار من هناك الى جنوب فلسطين ، وأطلق على كل عنو من

أولئك الاعناء المهاجرين اسم مركب تركيبا إضافيا فصار يقال أعناء كذا واعناء كذا.. ولفظ « أعناء » عربي معناه الاخلاط من الناس يكونون من قبائل شتى.

أما نحن فنرى أن ذلك النص ربما كان عن عقيدة تقليدية وهمية بأن مصر الموطن الاول للبشر، والاصل الذي تفرغت منه الشعوب والامم، وينقل مثل هذا عن قدماء الهنود والصينيين . فهذه تقاليد متعارضة ليس لنا عليها دليل عقلي ولا نقلي للترجيح بينها ، فنجري فيها على قاعدة تعارضت فتساقطت . على أن أولئك الاعناء المجهول أصلهم يجوز ان يكونوا من العرب ، وان يكون من هاجر الى جزيرة العرب منهم عاد الى بلاده، وبهذا يجمع بين هذا القول وقول العلامة رونسن الذي رجح كون المدنية المصرية الاولى قدجاءت من بلاد العرب والعراق. والامر المتيقن عندنا الآن هو ان لغتنا العربية الشريفة هي لغة قدماء المصريين ومظهر مدنيتهم. ونتيجته ان قدماء المصريين من العرب أو العرب منهم فهم أمة واحدة، وكذلك السوريون والعراقيون كما تقدم

وقد رغبنا الى احمد كمال بك ان يتحفنا بفصول ملخصة من قاموسه الذي أشرنا اليه فتفضل بالاجابة وجعل الفصل الاول في بعض الحبوب والنبات وهذا نصه

مقارنة بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية (*)

١

(في بعض الحبوب والنبات والاشجار والأثمار المصرية)

وفيه استطراد الى كلمات أخرى

بُر البر القمح الواحدة بُرّة

قمح هو اسم عندهم للقمح والخبز ويميز بينهما برسم النبت عند

(*) راجع ماذكرناه عن اللغة المصرية في المقتطف المطبوع في مارس سنة ١٩١٤ وفي تقويم الشرق للدكتور هنري مدور المطبوع سنة ١٣١٥ وذلك في صحيفة ٣٥٠ الى ٣٥٨ وقدرمزنا هنا بحرف (ع) للعبرية وحرف (ق) للقبطية

نهاية الكلمة في الاول والخبز في الثاني [١]

وجد الكثير منه في المقابر المصرية محفظ بالمتاحف واختبرت حبوبه في الزراعة فلم ينجح، وقد اختبر الكيماويون بعض هذه الحبوب فوجدوها مدهونة بطلاء حافظ لها على مرور الدهر ووجد (شوينفورث) قمحا أصغر في الحجم من قمحنا المعروف وهو يشبه القمح البحري وكان يستعمل في الطب والغذاء

حنت حنطة هي البر ـ ج .حنط

(بُد) بض بياض : وكلمة البيضاء تطلق فى العربية على القمح

فمو الفوم هو الحنطة وقد ذكر فى القرآن الكريم

جل (والجيم تقلب غينا) غلة ـ ج غلال

شرت ق سِرِيت : سُلت ـ هو الشعير أو ضرب منه ، والشين تقلب سينا بالمصرية فيقولون شلم بمعنى سلّم ، واللام تقلب راء وبالعكس

الشعير عندهم صنفان أبيض وأحمر ويصنع منه الخبز والجعة ومن خبزه ما هو محفوظ في المتحف المصري بالقاهرة، ووجدت حبوبه في مقبرة كاهون بالفيوم من عصر العائلة الثانية عشرة لكن حبه أصغر من شعيرنا الآن وكانوا يتخذون من سوقه مزامير

ُترا ذُرة

ُبول فول ـ لان الباء تقلب فاء كفيوم أصلها بيوم أي اليمّ ، وكفأى أصله عندهم بأى

قال هيرودوت في كتابه الثاني ان المصريين لم يزرعوا الفول في أرضهم فاذا خرج فيها لم يأكلوه لانيا ولا ناضجا وان قسوسهم لا يستطيعون النظر اليه لانهم يرون انه نجس ، ومع ذلك فقد ورد عنهم انهم كانوا يجففونه ويحفظونه بدليل قولهم (فول هاف) أي جاف، لان فاء الكلمة مقلوبة عن الجيم. فلابد وان يكون قول هيرودوت هذا غير صحيح اذ الفول كان ولا يزال من الاغذية المصرية الى هذا اليوم

(١) اصطلح أهل اللغة المصرية القديمة على ان يرسموا في آخر كل كلمة الصورة الدالة على معناها أو المؤيدة له

عرشان ق . أرشان: بُلسُن واحدته بلسنة. بُلَس . بُلُس :عدس

كمنن كمون

سَنوت سنوت وهو الشمار أو الكمون

رمان رِحرمان ، إرما — الرّمان . ق . أرمان . ع ريمون وبالبربرية — أرمون

شجر دخل مصر في عصر العائلة الثامنة عشرة وقت انتشاب الحرب العظيمة مع أهل آسيا في عهد الملك أحمس وقد وجد مع اسمه مرسوما في صورة البستان التي زين بها (أنّا) جدر حجرة قبره بطيبة وهو الذي توفي أيام (تحوتمس) الاول الذي كان أول فرعون تجول في بلاد الشأم وأخضعها لحكمه وعليه ربما كان هذا الملك أول من جلب لبلاده هذا الشجر فغرس في البساتين. وهذا لاينافي معرفة المصريين لاسمه من قبل. وما وجد في المقابر منه أصغر حجما من نوعه المعروف الآن فهو شبيه برمان طور سينا وكان يستعمل قشره لقتل الدود واستعمله القبط للحكة وصنع منه المصريون شرابا في عصر الرمسيسيين

دُبَح ذبحو ، ضبحي : تفاح — ق . جبح

وهو الشجر المعروف بحسن فاكهته ويكثر اسمه في القرابين التي يذكر فيها الرمان والزيتون والتين وتدل النصوص على ان وجوده في ارض مصر كان في عصر العائلة التاسعة عشرة

نُزا لوز : وكذا في العبرية والحبشية ونونها تقلب لاماً كما في نقب ولقب فالاول مصري والثاني عربي

بنرى لايزال يعرف في بعض الجهات بالبنور وصحته بَرْنيّ اسم للنخلة وللتمر . ويقال تمر بَرْنيّ ولا تكاد الاضافة تكون في البرنيّ لان البرني هو التمر وقد ذكر في قول الشاعر —

باتوا يعشون القُطَيعاء ضيفهم (١) وعندهم البرني في جُلَل دُسم

(١) المنار: رواية لسان العرب : جارهم — بدل ضيفهم. والقطيعاء نوع من =

أَمَمٌ عَمٌ عِمٌ ج عمومة، أعُمٌ، أعمام، أعمة — نخل طوال. والالف تنوب عن العين في كثير من الكلمات

عَوَنَتٌ عوانة: نخلة طويلة

حُن حُون أهان ج أهنة وأهْن: عرجون التمر مافوق الشماريخ. والهناء عذق النخل (فالهاء فيهما بدل من الحاء لقرب مخرجيهما)

طاروي جمار النخل — الجيم والطاء يتناوبان في المصرية كقولهم: طُرًّا بمعنى كُلاًّ. وهاتان الكلمتان مصريتان عربيتان

سر: سلاءٌ ج سلاءة، وأسل الواحدة أسلة: شوك النخل (الراء بدل اللام) ق سوره سوري

زدتو الزيتون ق جويث جيت. ع. زيت:

زِت زيت وكان يستعمل للاضاءة خصوصا فى المعابد

وجد الكثير من أكاليل الزيتون على رءوس الموتى التي لا تجاوز تاريخها العائلة المتممة للعشرين وعليه يظن ان الزيتون لم يغرس فى دبار مصر قبل العائلة الثامنة عشرة لكن وجد مذكورا فى نصوص هرم الملك (تيتي) فهو معروف من عهد بناء الاهرام أو قبل ذلك

كرَماَ كنم: كرم ج كُرُوم وبالعبرية كرم

كامو: كرّام — صاحب الكرم والمعتني به وأصله كارمو فسقطت منه عين الكلمة لان الراء والنون واللام تسقط في كثير من الكلمات. ق جمي جمه

= التمر يظهر من مقابلته بالبرني الذي هو أجود التمر انه رديء وقيل هو البسر قبل ان يدرك. والجلل ج جلة — كقلة وقلل. وهي قفة التمر، ودسم ج أدسم ودسماء صفة لها ولعله باعتبار تمرها

كارّ ج كاريو : أكَارَ جا أكرة وأكَّارون اي حرّاث من أكَرَ الارض اكرا وأكره حفرها. وجاء في المصرية والعربية ايضا :

مَنَ مان الارض شقها للزراعة . والاسم منه:

مَن أماأن: مزارع. ويقال ايضا :

سق شق الارض اي فلحها والسكة الحرث. ق إسكاي. إسخاي

باث باث (المكان) يبوثه بوثا حفره

باي فأى فأواً وفأيا : فلق (والباء تنوب عن الفاء نحو بدح وفدح بمعنى ضرب)

قَنَا.كَنّا : قَناة ج قنا، وهو الرمح وصاحبه قناء بالتشديد . عود القنا قصب الذريرة

ويقال له باليونانية (كانا) وبالعبرية (قناح) ويذكر في التذاكر الطبية مع انه لاينبت بديار مصر ولو اعتمدنا على انه هو المذكور في النصوص المصرية بقصب فنيقيا لساغ لنا ان نقول انه كان يستحضر من آسيا في عهد الفراعنـة وقد اطلق عليه العرب والعبريون والمصريون القدماء اسم قنا

نزا : اللوز في العربية والحبشية

سر : زير، أي كتان.وفي القبطية : سال. سول وله اسماء أخرى وهذا النوع المسمى بالنباتية (لينوم هيميله) وجدت بذوره في مقابر العائلة الثانية عشرة والعائلة المتممة للعشرين ويذكر كثيرا في تذاكر الطب واتخذوا منه الغزل والنسيج والثياب الخ

سشن : سَوْسَن وسُوسَنْ وسوسان ـ نبات طيب الرائحـة الواحدة سوسنة والجمع سواسن . ق . شوشن . واللاطيني : سوزينوم ومنه اسم العلم سوزان، وبالبربرية سوشانه وهو اللوطس الابيض المعروف عند المصريين القدماء ولايزال ينبت فى المستنقعات وعلى شواطئ القنوات الى يومنا هذا

عنبو عنب . بالعربية والعبرية .

حرر حلق حليلي حريره حريري: حنون نور كل شجرة ونبت وقد حنن الشجر والعنب اذا نور (لان النون عندهم تنوب عن الراء)

وكذلك يقال عندنا في اللغة العامية المصرية الآن وفي المصرية القديمة نقب بدل لقب بالعربية الفصيحة وفي المصرية تفن يقابلها فى العربية تفل ، أي بصق . والقلب والابدال لهما أصول فى هاتين اللغتين يقتضي مراعاتها لتظهر المقابلة. ومنها :

حلل هلل يهلل تهليلا، وقد جاء في نقش بمدينة (أبو) الواقعة في الجهة الغربية من لوقصر ما نصه [وكان المحاربون مثل السبع يهللون في بُهرة الاصواء[1] (أي وسط الجبال)] هذه العبارة نقلت بنصها ليعلم وجه الشبه بين اللغتين. ويقال في المصرية والعربية إبهارّ النهار أو الليل أي انتصف ، وبَهَرَ: فاق ، وبهار : صنم

حرّ حُرٌّ حية دقيقة مثل الجان أو ولد الحية كما في القاموس

بدّكا بطيخ

دبا طبار— اكبر التين[2] بسقوط الراء وتقدم مثله في كلمة كامو

تون تين

وجد كثير من التين في المقابر القديمة العهد وحفظ بالمتاحف ولا يزال يرى مرسوما فوق موائدهم مع العنب والقثاء والرمان

كونت جنة : تين قال بعض المفسرين في تفسير: (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) أي ورق التين اكنت : جنة ج جنات

---

(١) المنار : الاصواء جمع صوى بالضم ، وصوى جمع صوة (كقوة وقوى) والصوة ما غلظ وارتفع من الارض فلم يبلغ أن يكون جبلا ، فيظهر أن المصريين أطلقوه على الجبال أو على غير الشامخ منها ، على ان رسم الشامخ وغيره متشابه ، والرسم هو المفسر للغة في كتابتهم . وللصوة أيضا الاعلام التي يهتدى بها المسافرون وجماعة السباع (٢) في القاموس أن الطبار (بوزن الرمان) شجر يشبه التين

أس . أسو آس نبات معروف . قال ابو حنيفة الدينوري ينبت بأرض العرب و بالسهل والجبل وخضرته دائمة

وهو نبت مصري ترى أغصانه في أيدي الراقصات المرسومة على جدران المقابر ووجد من آثاره شيء في قبور تل بسطة بالزقازيق وفي مقابر هوارة بالفيوم وقد حفظ في متحف الليد شيء منه

اس بوللي آس بَري بصر بصل (الراء تنوب كثيرا عن اللام ومنه رأرأ ويقابلها في العربية رأرأ ولألأ بمعنى لمع)

اسل أسلة : الاثل شجر ذكر في القرآن واحده اثلة ج اثلات وأثول ، وهو نوع من الطرفاء والثمر ويقال له بالقبطية: اسي واسه

اعلمنا هيرودوت و بليني ان الاثل كان ينبت في مصر ووجد منه (أنجر) بقايا في طوبة عثر عليهـا في قرية الـكاب بصعيد مصر ووجد شوينفورت فروعا منه في تابوت من العائلة المتممة للعشرين وكثيرا ما تذكر النصوص هـذه الشجرة لانها كانت مقدسة عندهم

كَمتى كَمَاةٌ زلم الزَّلَمَ: وهو حب العزيز

بسباس بسباسة وهي الشمار

بكاء بَكاء قال ابو العباس النباتي هو شجر معروف عند العرب بمكة شبيه بالبيسام

يسر إيصار أيْصَرٌ حشيش وبالحبشية ائرْ .

شنذث سنط صنط شنيز شنظ ق شنت شنته : شجر مصري قديم يذكر في نصوص الاهرام

وجد من زهره اكاليل على مدينة الملك احعمس الاول وامنوفيس الاول كلاهما من العائلة الثامنة عشرة وكانت تصنع من خشبه السفن والتوابيت والتماثيل واثاث البيوت الخ

(للمقارنة بقية) أحمد كمال
الامين بالمتحف الوطني

مدرسة

دار الدعوة والإرشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

٦

(٤) اللحم

يؤخذ هذا الصنف من الطعام من الأنعام والطيور والحيوانات البحرية ، والمعتاد أكله من الحيوانات البرية هي التي لا تأكل اللحم لحكمة ستظهر في الكلام على الديدان المعوية فيما يأتي ان شاء الله

واللحم نوعان: اللحم الابيض، واللحم الاحمر. فمثال الاول لحم الارانب ، ومثال الثاني لحم الضأن . والابيض أسهل هضما من الاحمر ولكن الاحمر أكثر تغذية لاشتماله على جزء من مادة الهيموجلوبين فتكثر الدم . واللحم يشتمل على جميع الاجزاء الضرورية للجسم تقريبا، ففيه الماء والزلال ونحوه من المواد الآزوتية كالجلاتين والزنثين [xanthin] [1] وغيرهما وفيه أيضا الدهن والمواد السكر بوهيدراتية (الجليكوجين وسكر العنب والإينوسيت Inosite [2]) وفيه أيضا أملاح عديدة منها فسفات البوتاسيوم وملح الطعام وغيرهما ؛ وكل هذه المواد تختلف مقاديرها باختلاف الحيوانات المتنوعة وهي توجد بكثرة عظيمة في لحم الدجاج فهو أكثرها تغذية؛ وفي اللحم أيضا حامض السار كولكتيك [Sarcolactic] [3]

«١» معناها الاصفر باليونانية لان هذه المادة صفراء

«٢» سكر اللحم والكلمة يونانية أيضا ، ومعناها الحرفي (العضلة)

«٣» لفظ مركب من كلمتين (Sarco) يونانية معناها اللحم و (Lactis) لاتينية معناها اللبن، اي حامض اللبنيك المتولد في اللحم

اذا كان جديدا فلذا ينفع في الاسكربوط . ويوجد في الخنزير الشحم بكثرة تفوق سائر أنواع اللحوم الاخرى فلذا كان أعسر اللحوم هضما لأن الشحم فيه يحيط بأليافه العضلية فيحول دون وصول العصارات الهاضمة اليها فيتعب المعدة والامعاء، وقد يحدث منه القيء أو الاسهال، وربما هيأ الزائدة الدودية للالتهاب ولذلك تكثر أصابتها به في بلاد الافرنج فان فساد الهضم من أسباب هذا المرض

وكثيرا ما تكون الحيوانات مصابة بأمراض متعددة مثل الدرن [١] والجمرة الخبيثة وأنواع كثيرة من الديدان سنذكرها تفصيلا فيما يأتي، فلذا يجب أن يكون الحيوان المأكول سليما من كل مرض. ويجب أيضا طبخ اللحم جيدا حتى تقتل فيه الميكروبات وأكياس الديدان بقدر الامكان. وأضر ديدان تنشأ من أكل اللحوم هي الديدان التي تنشأ من أكل الخنزير ، وهذه حكمة أخرى في تحريمها. ولا يتوهمن القارئ ان الطبخ يزيل جميع أضرار اللحوم المريضة فانه اذا قتلت الميكروبات بسبب شدة الحرارة بقيت سمومها وكلما اشتد الطبخ للتأكد من قتلها زاد تجمد المواد الزلالية وعسر هضمها ، على أن الطبخ قد لا يقتل بعض ميكروبات الدرن التي تكون في باطن اللحم لأنه موصل رديء للحرارة

أما لحوم الحيوانات البحرية فمن أسهل اللحوم هضما، وقد لوحظ أن الناس الذين يأكلونها بكثرة أقوياء البنية أصحاء، الا أنه قد يصاب بعضهم بالجذام فلذا ظن بعض الاطباء أن الاقتصار على أكل السمك أو الاكثار من أكل الفاسد المتعفن منه كالفسيخ مما يهيئ الجسم لقبول هذا المرض الخبيث، ولكن ذلك لم يثبت الى الآن

ومن أنواع الحيوانات البحرية الحيوانات ذوات الاصداف كالبطلينوس وهي سهلة الهضم جدا ، غير ان ميكروب الحمى التيفودية قد يوجد فيها

ومن أنواعها أيضا السرطان البحري ونحوه وهي لكثرة أكلها المواد القذرة تضر آكليها بذلك و بشدة عسر هضمها . وأجود أنواع السمك هو الذي يصطاد حيا من المياه الجارية النظيفة . والسمك سريع الفساد فلذا يجب أن لا يترك زمنا

(١) الدرن كثير الحصول للبقر والخنازير ، قليل جدا في الضأن ، ونادر في المعز

طويلا بل يؤكل غضا غريضا. ويعرف السمك الغريض (الطازه) بيبس لحمه ، وبانتصاب ذيله . والسمك الفاسد المتعفن هو من أضر المأكولات فانه يتولد فيه من الفساد بعض مواد سمية آزوتيـة تسمى Ptomaines[1] وهي شديدة الخطر حتى ان كثيرا من الناس قتلوا بسبب أكلهم السردين والفسيخ، ومن لم يمت منهم قد يصاب بالدوار والصداع والاسهال أوالقيء وغير ذلك

أما البطارخ (وتسمى الصُّعْقُر وهي عبارة عن بيض السمك) فهي أقل فسادا من لحمه ، وهي مغذية محرضة لشهوة الطعام ويشترط أن لا يكثر الانسان من أكلها في المرة الواحدة ، وقيل أن أكلها يمسك البطن و يمنع الاسهال

والأسماك ذوات الحرشف هي غالبا ألذ طعما وأسهل هضما من التي لاحرشف لها لـكثرة دهنها وقذارة المياه التي تعيش فيها، ولذلك حرمت التوراة أكل ما ليس له حرشف (راجع سفر اللاويين ١١ : ٩ — ١٢) ومن أسماك الانهار ما يكون سببا في إصابة الانسان بدودة شريطية كما سيأتي تفصيله

ويقال ان أكل الأطعمة الحيوانية الفاسدة مدة طويلة يسبب الاسكربوط وهو رأي راجح جدا الآن ، وذلك مثل اكل القديد (البسطرما)

(جدول تركيب أشهر اللحوم)

المواد	الثور	العجل	الخنزير	الحصان	الدجاج	نوع من السمك
ماء	٧٦٫٧	٧٥٫٦	٧٢٫٦	٧٤٫٣	٧٠٫٨	٧٩٫٣
زلال وجلاتين	٢٠٫٠	١٩٫٤	١٩٫٥	٢١٫٦	٢٢٫٧	١٨٫٣
شحم	١٫٥	٢٫٩	٦٫٢	٢٫٥	٤٫١	٠٫٧
مواد كربوهيدراتية	٠٫٦	٠٫٨	٠٫٦	٠٫٦	١٫٣	٠٫٩
أملاح	١٫٢	١٫٣	١٫١	١٫٠	١٫١	٠٫٨

(٥) الاطعمة النباتية

هذه الاطعمة منها مايؤكل بلا طبخ كالجرجير والفجل وغيرهما، ومنها ما يؤكل

(١) معناها (مواد الجيفة) وهي لفظ يوناني

مطبوخا كالبقول وغيرها . وهي في جملتها تشمل كثيرا من الزلال والدهن والمواد السكر بوهيدراتية والحوامض النباتية وأملاح عديدة، وفيها مادة يتعسر هضمها تسمى (السللولوز[١]) وهي التي يتكون منها جدران خلاياها وأخشابها وغير ذلك من أليافها

أما زلالها فيوجد بكثرة في البقول كالقمح والفول والعدس والحمص . ويسمى الزلال الذي يستخرج من القمح باللاتينية — الجلوتين (مادة غروية) ، وهو لا يوجد فيه بشكله المعروف الا بعد أن يضاف اليه الماء فيتحد مع ما فيه من المواد الزلالية و يتولد هذا الصنف المخصوص من الزلال ، وهو سهل الهضم ، ولذلك كان من الاغذية النافعة المفيدة

وأما الدهن فهو يوجد بكثرة في بعض الثمار كالزيتون واللوز وغير ذلك الا أنه يقل وجوده في بعض البقول كالقمح مثلا

والزيوت نوعان : ثابتة، وطيارة . فالثابتة هي كالشحم في تركيبها ، ويحصل الانسان عليها بعصر الحبوب بآلات مخصوصة، وسميت ثابتة لانها لا تتطاير

أما الزيوت الطيارة فهي مركبة من الكربون والهيدروجين والاكسجين الا أن مقادير هذه العناصر وأوضاعها مغايرة كل المغايرة لتركيب الزيوت الثابتة، ومن أمثلة هذا الصنف من الزيوت زيت القرنفل ونحوه من الزيوت العطرية ونظرا لكونها سهلة التطاير تُتحصل بالتقطير . فاذا غلي الينسون مثلا في ماء صعد منه الزيت في بخاره ويمكن الحصول عليه بالانبيق . أما الماء الذي غلي فيه فلا يبقى فيه من هذا الزيت الا النادر جدا أولا يبقى فيه شيء

الزيوت الثابتة مغذية ملينة وتحترق في الجسم فتولد فيه حرارة عظيمة جدا ، ولذلك يحسن أكلها في البلاد الباردة

والزيوت الطيارة منعشة منبهة للاعضاء كلها فتقوي الهضم ودورة الدم وتدر البول وتنفث البلغم من الصدر وتزيد في قوة الحركة الدودية للامعاء وبذلك تخرج أرياحها وتزيل آلامها ، وهي مطهرة أيضا قاتلة للميكروبات فتطهر الشعب

(١) كلمة اصلها لاتيني معناه (خلية صغيرة) سميت هذه المادة بذلك لتركب جدران الخلايا النباتية منها

والامعاء والبول

أما الاملاح التي في النباتات فهي مقادير كبيرة من فسفات البوتاسيوم وفيها أيضا فسفات الحديد وهو كثير الوجود في البقول خصوصا في القمح ، فيكثر دم آكله، ويقل في الاطعمة النباتية ملح الطعام فلذا يحتاج اليه النباتيون كثيرا فيأخذونه من الخارج . وفي الخُضَر والفواكه أملاح عضوية وحوامض مثل حامض الطرطريك (الدرديك)وهو موجود بكثرة في عصير العنب متحدا مع البوتاسيوم، وحامض الليمونيك الموجود بكثرة في الليمون والبرتقال (واليوسف افندي) والكريز وغير ذلك، وحامض التفاحيك موجود بكثرة في التفاح والكمثرى (الاجاص) وحامض الاكساليك [1] يوجد في الحماض والكرنب والطماطم والراوند، وغير ذلك من الحوامض ، وهي تتحول في الدم الى كربونات قلوية فتدر البول وتذيب حامض البوليك الذي ينشأ من احتراق المواد الزلالية احتراقا ناقصا فينشأ منه النقرس (داء مخصوص في المفاصل) والحصوات الكلوية والمثانية . فهذه الحوامض النباتية تساعد على إزالة حامض البوليك الضار بالجسم

والامتناع عن أكل الخضر زمنا طويلا يؤدي الى ضعف بالجسم وتقرح باللثة وحدوث أنزفة متعددة في أنسجة الجسم وخارجه ، وهذه الاعراض كلها هي المسماة (بداء الاسكربوط) ولا دواء له الا الخُضَر والاغذية غير المتعفنة

ومما تقدم يعلم ان الاقتصار على أكل اللحوم وغيرها من المواد الحيوانية قد يضر بالجسم وخصوصا اذا أكلها الانسان ولم يروض جسمه بالحركات أو الاعمال البدنية المتعبة فان ذلك يقلل احتراق المواد الزلالية الاحتراق الواجب الذي تتحول به الى (بولينا) ليتيسر للكلى أن تخرجها من الجسم لسهولة ذوبانها، بل يكون الاحتراق ناقصا فيتولد من المواد الزلالية حامض البوليك الذي يحدث مرض النقرس والحصوات كما سبق . وهذا المرض كثير الحصول للمترفين بسبب إسرافهم في المآكل الزلالية كاللحوم وغيرها و إقلالهم من الحركات الجثمانية ولذلك يسمى «داء الملوك » . وللوقاية منه يجب القصد في أكل المواد الزلالية ، والمواظبة على الرياضة

(١) اكسس (Oxys) باليونانية معناها حامض و (Oxalis) أسم الحماض فيها

البدنية، والاكثار من أكل النباتات من خضر وفواكه وغيرها حتى تذيب هذا الحامض الضار (أي حامض البوليك) وتخرجه من الجسم

وأكل المواد النباتية بلا طبخ قد تنشأ عنه أمراض كثيرة كالحمى التيفودية والدوسنطاريا وبعض الديدان المعوية كالدود الخيطي الذي يوجد بكثرة في المستقيم عند بعض الناس . والسبب في تلك الامراض هو وجود بعض الميكروبات وبويضات الديدان في الطين والماء الذي يسقى به الزرع، فتعلق هذه بالنباتات وبذلك تصل الى الانسان اذا أكلها بدون تطهير، ولذلك يجب غسلها غسلا جيداً متكررا فان ذلك يزيل كثيرا من مضارها ولكن الأولى تطهيرها بالغلي لمن أراد أن يصون نفسه صيانة تامة من هذه الامراض . ويجب في زمن انتشار بعض الأوبئة كالهيضة (الكوليرا) والحمى التيفودية أن تغلى جميع هذه المأكولات غليا جيدا أو يترك أكلها حتى ينتهي الوباء

ولما كانت الحوامض كالليمون والخل قاتلة لبعض الميكروبات المرضية كان وضعها على النباتات الخضراء كالخس مثلا أو الفجل هو من أحسن الوسائل التي تقي الجسم شر هذه الميكروبات . أما تأثيرها في بويضات الديدان فهو غير واف بالغرض، والراجح أنها لا تقي الانسان منها مطلقا

الكلام في الحبوب واغذيتها وغير ذلك

(١) القمح ، فيه نشاء كثير، وزلال، ودهن قليل جداً، والمادة المسماة سللولوز وأملاح أهمها فسفات الحديد كما سبق وماء ، أما السللولوز فيوجد أكثره في غلاف حبوب القمح وهو الذي يفصل بالطحن والنخل ويسمى بالنخالة ، وأكلها يهيج حركة الامعاء ويحدث لينا فلذا كان نافعا من هذه الوجهة

الطبقة التي تلي غلاف القمح تشتمل على الجزء الأعظم من الزلال ولونها أسمر . وأما باطن الحبة ففيه الجزء الاعظم من النشاء

والخبز يصنع بعجن الدقيق بالماء — كما هو معلوم — فيتحول زلال الدقيق الى المادة المسماة جلوتين واذا أريد الحصول عليها يوضع العجين في قطعة من الموصلي (الشاش) ثم يفرك عدة مرات في الماء فيخرج النشاء الذي في العجين من ثقوب الشاش وتبقى

مادة الجلوتين في داخل الشاش، وهذه يصنع منها خبز أو فطير للمصابين بالبول السكري

أما الخميرة فهي مركبة من خلايا نباتية ، وفائدتها احداث الغول (السكحول) وثاني أكسيد الفحم ، وهو المقصود بالذات لانه يحدث الفقاقيع في العجين فيجعله اسفنجيا وبذلك يسهل هضمه بعد خبزه. وبالخبز يزول ما في العجين من السكحول والغاز وتقتل خلايا الخميرة

(ب) الشعير ،وتركيبه يقارب تركيب القمح الا أن زلاله لا يتكون منه الجلوتين باضافة الماء اليه وانما يبقى ذائبا في الماء ، ويصنع من الشعير(ماء الشعير) وهو مغذ قليلا نافع للمرضى والاطفال، واذا وضع على لبن الجاموس أو البقر منع تجبنه في معد الاطفال تجبنا كبيرا بل تتكون قطع جبنية صغيرة متفرقة يسهل هضمها . ولا يصح اعطاء هذا اللبن للاطفال الا اذا خفف بماء الشعير . وكيفية صناعة هذا الماء ان يغلى ٥٠ جراما من الشعير اللؤلؤي [1] في ٧٥٠ جراما من الماء مدة ٢٠ دقيقة في اناء مغطى ثم يصفى الماء، وهذا الماء هو المسمى بماء الشعير

(ج) القرطم(الشوفان) وهو يشبه الشعير في زلاله وفيه دهن كثير

(د) الارز، وفيه نشاء كثير وزلال قليل جدا ودهن أقل من الزلال وسللولوز أقل منها كلها وملح قليل جدا فكأنه لا يشتمل الا على النشاء ، وإذا طبخ جيدا كان سهل الهضم جدا بسبب قلة السللولوز فيه

(ه) الذرة، هي مثل القرطم في تركيبه بالنسبة لاشتمالها على دهن كثير وزلال كزلاله، وتنقصها كذلك مادة الجلوتين اللزجة فيتفتت خبزها، وينمو في العتيق منها فطر مخصوص يفسدها. فاذا أكلها الناس فقد يحدث لهم المرض المسمى (بالپللغرا) وهي كلمة يونانية و ايطالية أيضا معناها «الجلد الوحشي» (Pellis جلد و Agria وحشي) وقال بعضهم إنه قد ينشأ حتى من أكل الذرة السليمة اذا كان الشخص معدما رديء التغذية

وظن آخرون سنة ١٩١٠ أن له ميكروبا ينتقل ببعض أنواع الذباب (السكيت)

---

(١) شعير ازيل قشرة ثم كسرت حبوبه الى قطع مستديرة ملساء، يوجد عند كثير من البقالين

[Sandflies] وقيل إن سببه كسبب الاسكربوط أعني أنه ينشأ من عدم اعطاء الجسم حقه من المواد الضرورية لتغذيته ، فالاسباب أحد ثلاثة : (١) إما الذرة الفاسدة (٢) وإما نقص بعض المواد الضرورية للجسم (٣) وإما ميكروب مخصوص ينتقل بلسع السكيت

وهذا المرض كثير الانتشار في مصر، وأعراضه : آلام بالمعدة واسهال متعاص وفساد في الهضم وضعف في الجسم وفقر في الدم وطفح يظهر كثيرا في الايدي والاقدام والمرافق والركب والعنق والصدر ، ويسمى هذا الطفح عند الفلاحين (بالقشف) ويكون الجلد فيه خشنا متشققا أسمر اللون أو أسوده، ثم يتقشر ويضمر. ومن أضر أعراض هذا المرض ضعف يصيب المجموع العصبي كله فيصاب الانسان بالضعف العقلي والماليخوليا [1] (اي جنون الكآبة والحزن) وأعراض أخرى من الجنون كالميل للانتحار. وهذا الداء من أعظم أسباب الجنون في مصر وكذلك شرب الحشيش. وأعراضه تزول في آخر الصيف عادة ثم تظهر في الربيع، ويتكرر ذلك كل سنة، وبعد ٣ أو ٤ سنوات تشتد الاعراض ويزيد الضعف الى أن يموت المريض. ومدة المرض غالبا ٥ سنوات وفي الحالات الخفيفة ١٠ الى ١٥ سنة والاطفال قليلو الاصابة به وهو يكثر بين سن الثلاثين والخمسين

وعلاج هذا الداء ان يمنع الذرة بتاتا عن المصاب، ثم تعالج الاعراض التي عنده مثل الاسهال فيعالج بالغذاء اللبني والمواد القابضة المعروفة في الطب، فاذا زال الاسهال يعطى المريض الاغذية الجيدة السهلة الهضم والادوية المقوية كالحديد والزرنيخ خصوصا، وتراعى جميع الوسائل الصحية. وهذا الداء ان لم يتدارك في أول الامر استفحل واستحال شفاؤه وأدى الى الموت لا محالة وقد يموت الشخص منه ولا يصاب بالجنون

والذرة التي تحدث هذا المرض هي الذرة الشامية وحبوبها كبيرة — كما هو معلوم — وأما الذرة الرفيعة المستديرة فلم يعرف أنها تحدثه

---

(١) معناها الحرفي في اليونانية (المرة السوداء) لتوهمهم انها تختلط بالدم فتحدث هذا الجنون ، ومثل هذه المرة لا وجود لها . وكلمة ماليخوليا من تعريب المتقدمين

وتمتاز حبيبات نشاء القمح عن حبيبات نشاء الذرة بتكوير أكبرها، أما حبيبات الذرة فهي كثيرة السطوح ، وبهذا يمكن بالمجهر تمييز دقيق القمح عن دقيق الذرة

(و) الحمص والفول والعدس ، هذه المواد فيها زلال أكثر مما في اللحم وفيها نشاء كثير أيضا ودهن قليل ، وفيها أيضا مادة السللولوز، فهي من أعظم ما عند النباتيين من المواد المغذية، أما زلالها فيوجد فيها متحدا على الاكثر مع الكبريت والفسفور، وهو غير الجلوتين الذي بالقمح ، ولولا أنها عسرة الهضم لكان للنباتيين وجه وجيه في تأييد مذهبهم (راجع أيضا صفحة ٧١ من هذا الكتاب)

(ز) البطاطس، فيها نشاء كثير وزلال قليل ودهن قليل جدا و بعض أملاح وسللولوز ، وفيها أيضا مقدار من حامض الليمونيك إما خالصا أو متحدا مع البوتاسيوم والصوديوم والكلسيوم، ولذلك فهي مغذية جدا نافعة في الاسكر بوط

(جدول تركيب بعض الاغذية النباتية السابقة)

المواد	القمح	الشعير	القرطم	الأرز	العدس	الحمص	البطاطس
الماء	١٣٫٦	١٣٫٨	١٢٫٤	١٣٫١	١٢٫٥	١٤٫٨	٧٦٫٠
المواد الزلالية	١٢٫٤	١١٫١	١٠٫٤	٧٫٩	٢٤٫٨	٢٣٫٧	٢٫٠
الدهن	١٫٤	٢٫٢	٥٫٢	٠٫٩	١٫٩	١٫٦	٠٫٢
النشاء	٦٧٫٩	٤٫٩	٥٧٫٨	٧٦٫٥	٥٤٫٨	٤٩٫٣	٢٠٫٦
السللولوز	٢٫٥	٥٫٣	١١٫٢	٠٫٦	٣٫٦	٧٫٥	٠٫٧
الاملاح	١٫٨	٢٫٧	٣٫٠	١٫٠	٢٫٤	٣٫١	١٫٠

(ح) الفواكه ، يكثر فيها الماء وأنواع مختلفة من الحوامض والاملاح والسكر والسللولوز وغير ذلك كالصمغ في التين مثلا ، وفي بعضها نشاء كثير كالطلح (الموز) فهي مغذية مدرة للبول مذيبة لحامض البوليك مانعة للاسكر بوط والنقرس و بعض الحصوات البولية. وطبخ بعضها مما يسهل هضمها كالتفاح والخوخ، وهو قاتل لما فيها من الميكر و بات وغيرها . وفي البلح والموز — فوق ذلك — مواد زلالية ،

فهما من الأغذية الكاملة
وأكل الفواكه عقب الطعام يعين على الهضم لانها تكثر عصارة الفم والمعدة بلذيذ طعمها

تركيب البلح (*)

ماء	١٢،٠٠	مادة صمغية	١٢،٠٠
سكر (من نوع سكر القصب)	٥٠،٠٠	سللولوز	٢٠،٠٠
مواد زلالية	٦،٠٠		

تركيب الموز (*)

ماء صاف	٧٣
مواد أخرى متنوعة	٢٧

أما هذه المواد الاخرى ففيها مايأتي بالنسبة للمائة : —

ماء	١٣،٠٠	مواد زلالية	٤،٢٥
نشاء	٦٧،٥٠	أملاح	٣،٥٠
صمغ	٤،٥٠	سكر	٢،٠٠
سللولوز	٤،٧٥	زيت ودهن	٠،٥٠

﴿ تنبيه ﴾ اعلم ان الدهن والزلال المأخوذ من عالم الحيوان أسهل هضما بكثير مما يؤخذ من عالم النبات . والعبرة في جميع الاغذية هي بما يمتصه الجسم من الاشياء المأكولة ، لا بمقدار ما في الطعام الذي يزدرده الانسان من المواد المغذية ، فانها قد تكون عسرة الهضم

(٦) الماء

مركب من الهيدروجين والاكسجين — كما سبق — بنسبة اثنين من الاول الى واحد من الثاني حجما، وهو ضروري جدا لجميع الاجسام الحية فان ٦٤ في

*) امدنا بهذا التركيب محمد شوقي بك بكير النباتي الشهير في مصر فشكرا له

المائة من جسم الانسان ماء، وهو أيضا ضروري لجميع افرازات الجسم ولسيولة الدم ولغسل ما في الجسم من الاوساخ واخراجه في مثل العرق والبول، و بتبخره اذا خرج في العرق تتلطف حرارة الجسم

والماء عسر الهضم قليلا في المعدة بمعنى أنه يمتص منها ببطء، ولكنه يمتص بسرعة زائدة من الامعاء، واذا كان الاكثار منه مع الطعام أو عقبه بقليل محدثا لعسر الهضم بسبب تخفيفه للعصير المعدي. ولكن المقادير المعتدلة منه أثناء الاكل تزيد في افراز هذا العصير؛ واذا شرب الماء بمقادير كبيرة في وقت خلو المعدة من الطعام أدرّ البول وغسل كثيرا من أوساخ الجسم وزاد في سمنه بترسيب مواد شحمية فيه وكمل التغيرات الحيوية في الجسم فينقص مقدار حامض البوليك المنفرز في البول و بذلك يقل تكون الحصوات الكلوية ويغسل الصغير منها، وكذلك يقل تكون الحصوات الصفراوية في مرارة الكبد وقنواته

والماء ينعش الخلايا الحية فيزيد في قوة مقاومة الجسم للميكروبات المختلفة. ومن فوائده أيضا انه اذا شرب منه قليل عند القيام من النوم صباحا أحدث لينا عند المصابين بقبض الامعاء

وللماء فوائد أخرى كثيرة في استعماله في الغسل والاستحمام سنتكلم عليها — ان شاء الله تعالى — عند الكلام على النظافة

وبالاختصار انه من أكبر ضروريات الحياة بحيث ان الامتناع عن شربه أياما قليلة قاتل لامحالة، والممزوج منه بالاشربة السكرية وغيرها كالشاي والمرق قد يغني عن الصرف

هذا ويجب الاحتراس من شرب الماء البارد عقب التعب الجثماني الشديد كأن يشرب الانسان بعد العدو ونحوه من الاعمال والرياضات المتعبة فان ذلك قد يقتل الشخص بالسكتة القلبية. وشرب الماء الحار مسكن للقيء مساعد للهضم ولكن الماء الفاتر هو من اشهر المقيئات وأبسطها

ويجب خلو الماء من جراثيم الامراض خصوصا وقت فراغ المعدة من الطعام لعدم وجود العصارة الحمضية المطهرة حينئذ

(٧) الاملاح (ومن أهمها ملح الطعام وهو كلوريد الصوديوم)

هذه الاملاح ضرورية للجسم أيضا لانها تدخل في تركيب جميع أجزاء الجسم وسوائله ويتكون منها حامض الهيدروكلوريك الضروري للهضم المعدي، وتذيب المواد الزلالية الموجودة في الدم وغيره من سوائل الجسم، ولولاها لرسب كثير من الزلال في الاوعية الدموية واللمفاوية فتبطل الدورة. وقلة تعاطي ملح الطعام تحدث ضعفا شديدا وتورما وفقرا في الدم وموتا، وهذه الاعراض كانت تشاهد كثيرا في بلاد فرنسة حينما كان الناس يمتنعون عن تعاطي الملح بسبب وضع ضرائب عليه. والمقادير الكبيرة من ملح الطعام مثل ملء الملعقة من أحسن المقيئات فيفيد في الاسعاف لسهولة الحصول عليه في أوقات التسمم، وهو أيضا يحدث اسهالا اذا اخذ بكثرة. وحقن محلوله في المستقيم يزيل الديدان الخيطية منه، ويحقن أيضا تحت الجلد وفي الاوردة بنسبة ٧٫٥ جرامات الى كل لتر ماء معقم عند حصول النزف — كما سبق — وفي تسمم الدم وفي الغيبوبة الديابيطيسية أي الناشئة من البول السكري. والغرض من حقنه أن يخفف من تأثير السم في الجسم ويزيل بعضه بإدرار البول

والاكثار من ملح الطعام قد يحدث تورما في الجسم أيضا، خصوصا في الالتهاب الكلوي الحاد، لتعسر خروج هذا الملح مع البول في هذا المرض، فيتراكم في أنسجة الجسم ويجتذب اليه الماء الذي يتخلف فيها ويحدث الورم (œdema)

أما الاملاح الاخرى كفسفات الكلسيوم ومركبات الحديد فهي ضرورية لتكون العظام ولتولد الكريات الحمراء وغير ذلك. وأملاح الجير موجودة بكثرة في اللبن والبيض والخضر وهي مما ينمي عظام الاطفال ولذلك كان أكل هذه المواد المذكورة واجبا على المراضع لكيلا تصاب أولادهن بداء الكساح

(٨) التوابل والافاوية والمنبهات

يوجد غير ما تقدم مواد أخرى كثيرة يستعملها الانسان في طعامه وشرابه والغرض منها تنبيه الهضم أو الجهاز العصبي وغيره، ومن هذه المواد الفلفل والبصل والثوم[1]

(١) في الثوم زيت طيار فيه كبريت وهذا الزيت هو السبب في كراهة رائحته كما أنه هو السبب في كراهة رائحة الحلتيت

وأنواع البهار المعروفة والقهوة والشاي وغير ذلك

أما المواد العطرية والبهارات فالشيء الفعال فيها زيوت طيارة تنبه الاعصاب والعضلات وتكثر العصارات الهاضمة، ولكن الغلو في تعاطيها مما يؤدي الى تعب المعدة وفساد الهضم

(ا) الخل — حامض مخفف معروف، يستخرج اما بالتقطير الجاف للخشب، أو بتأكسد الخمر بواسطة بعض الميكروبات فانها اذا عرضت للهواء مدة طويلة استحالت الى خل وبطل تأثيرها المعروف . وعناصر الخل (وهي الكربون والهيدروجين والاكسجين) توجد في الخشب بحالة أخرى ، فاذا حلل الخشب بالنار في إناء مغلق حدث منه الخل . وهو نافع في داء الاسكربوط الا أنه أقل فائدة في ذلك من عصير الليمون ، ومن فوائده أيضا أنه يساعد الهضم ويدر البول فهو كباقي الحوامض النباتية المذكورة آنفا

وحامض الخليك في الخل (بنسبة ٣—٦ في المئة) مختلط ببعض موادأخرى

(ب) القهوة — معروفة ، وتسمى حبوبها بعد تحميصها ودقها « البُنّ » وهو الذي يوضع في الماء المغلي ويشرب . وفي القهوة مادة آزوتيـة وقهوين ودهن وسكر وحامض التنيك (الدّبغ) وسللولوز وأملاح . أما القهوين فهو أهم ما فيها وفائدته تنبيه المخ فيقلل النوم ، وهو أيضا يقوي العضلات وضربات القلب ويدر البول، فلذا يستعمله الناس لازالة النعاس ولتنبيه المخ للاعمال العقلية وفي بعض أمراض القلب . والقليل من القهوة أيضا يحدث في بعض الاشخاص لينا ولكن الاكثار من تعاطيها يحدث عسرا في الهضم وينهك القوى العصبية، فيحدث أرقا وخفقانا وتقطعا في ضربات القلب، فلذا يجب عدم الافراط في شربها.وأحسن وقت لاستعمالها أن يشربها الانسان اذا أحس بالنعاس بعد أن يستوفي الجسم الراحة التي يحتاجها من النوم وغيره . وشرب القليل منها عقب الطعام يساعد على الهضم ، خصوصا بما فيها من الحرارة . وحامض التنيك الذي فيها من أشد المواد القابضة فاذا أخذت القهوة بمقدار زائد أحدثت قبضا بدل اللين المذكور

والقهوة بما فيها من حامض التنيك والقهوين من أحسن مايستعمل ترياقا للتسمم

بالأفيون، ويصح حقنه بمقادير كبيرة في المستقيم عند المسموم به اذا كان في حالة الغيبوبة

(ج) الشاي – مثل القهوة في التركيب تقريبا ، وفائدته كفائدتها ويصح استعماله مع اللبن في الاسهال والدوسنطاريا فانه يحدث قبضا

وطريقة صنعه هو أن يغلى الماء غليا جيدا ثم يجعل على ورق الشاي بضع دقائق فيخرج منه نقيع مشتمل على المواد النافعة في الشاي ويقل بذلك نزول حامض التنيك في النقيع بخلاف ما إذا غلي في الماء، ونظرا لكونه أشد صفاء من القهوة جاز استعماله أكثر منها في الاسهال ونحوه لعدم وجود رواسب فيه تؤذي الامعاء. وحكم الاكثار منه أو الادمان عليه كحكم القهوة الا أنه يحدث النقد في الاسنان

(د) الكاكاو – حبوب شجرة مخصوصة تنبت كثيرا في جزائر الهند الغربية. ويدخل في تركيبها الماء والزلال والثيو برومين [1] والدهن والنشاء وبعض أملاح وصمغ وسللولوز. وليس في الكاكاو (تنين) ولذلك لا يحصل منها القبض الذي يحصل من القهوة والشاي

والثيو برومين مادة تشبه القهوين والشايين في تركيبها وتأثيرها غير أنها تؤثر في المجموع العضلي أكثر من تأثيرها في المجموع العصبي، ولذلك يشعر الانسان بقوة في جسمه وعضلاته بعد تعاطي الكاكاو، وهو أيضا مدر للبول ، ونظرا لاشتمال الكاكاو على كثير من الدهن (نحو ٥٠ في المائة) تعد من الاغذية النافعة، وفيها أيضا نشاء كثير. ومن الكاكاو تصنع (الشوكولاتا) وذلك بازالة جزء من دهنها ثم يضاف عليها السكر وبعض مواد أخرى عطرية وغيرها فلذا كانت (الشوكولاتا) مغذية منبهة.

وكلمتا « كاكاو » و « شوكولاتا » مكسيكيتان

ودهن الكاكاو أو زبدته يستعمل طبيا في صناعة الاقماع الشرجية التي تلبس لازالة بعض الآلام والامراض التي في الشرج، والسبب في اختيار هذه الزبدة هو أنها تذوب بحرارة الجسم الطبيعية

(هـ) المياه الغازية – مثل ماء الصودا والغازوزة – اهم ما فيها الماء مع

---

(١) لفظ يوناني معناه الحرفي (إله الطعام)

غاز ثاني اكسيد الفحم. وشربها منبه للهضم مسكن لآلام المعدة والقيء، ويجب أن تعمل من ماء نظيف لكيلا تنقل الى الانسان ميكروبات الامراض. على أننا نعلم أن ثاني اكسيد الفحم مع الضغط الشديد يقتل كثيرا من الميكروبات التي في الماء

(و) الخمور — يستعملها الناس أيضا للتنبيه والانعاش، وقد سبق الكلام عليها فلا حاجة للتكرار . وانما نقول كلمة في كيفية صناعتها، فهي نوعان: أحدهما أنها تعمل بتخمير بعض أنواع السكر المستخرج من الفواكه وغيرها كالشعير المستعمل في الجعة (البيرة) والنوع الآخر يستخرج بالتقطير بعد التخمير . فمن أمثلة النوع الاول الخمر التي يسمونها الآن النبيذ[1] والبيرة، ومن أمثلة النوع الثاني الكونياك والوسكي . واهم ما في النوعين هو الغول (الكحول) ولكن فيها مواد أخرى بعضها ينشأ من التخمير والبعض الآخر أصله مما في الفواكه وغيرها

ومن الخطإ الشائع اعتقاد أن شرب البيرة نافع فقد قرر الاطباء أنها ضارة كباقي أنواع الخمور ، زد على ذلك أنها تهيئ الجسم اكثر من بعض الانواع الاخرى لمرض النقرس والروماتزم والسمن الزائد وشربها بكثرة يفسد الهضم . ويضاف عليها حشيشة الدينار وهي مما يخدر الاعصاب فتحدث ثقلا في الدماغ وميلا للنوم الكثير وفيها مواد أخرى تنشأ أيضا أثناء التخمير وهي ضارة بالجسم ضررا بليغا

(ز) الدخان — يسمى بالطباق أو التبغ (Tobacco) وبالتتن، وهو ورق شجرة معروفة . أعظم مادة مؤثرة فيه تسمى النيكوتين (Nicotine) نسبة لرجل يسمى « نيكوت » (Nicot) وهو الذي جلبها لفرنسة في سنة ١٥٦٠ ومادة النيكوتين من أشد السموم فعلا وأقواه تأثيرا وسرعة، وهي تكثر اللعاب وقد تحدث اسهالا وقيئا وهمودا (هبوطا)، والاكثار من التدخين قد يحدث التهابا في الحلق وإقهاء (فقد شهوة الطعام) وتقطعا في ضربات القلب وخفقانا ونزلة حنجرية والتهابا في

---

(١) النبيذ من الشراب هو نقيع التمر والزبيب ونحوهما وهو اذا طال العهد على نقعه يختمر فيصير مسكرا . ولهذا اختلف الفقهاء في حل شربه . وأما الخمر التي تسمى في عرف هذا العصر نبيذا فهي المحرمة بالاجماع. وقد اشبع المنار الكلام في ذلك من عهد قريب

العصب البصري يؤدي الى ضعف في النظر وضمور في هذا العصب ، وكثيرا ما يعجز الشخص المكثر منه عن تمييز الاحمر من الاخضر

ولا فائدة فيه الا أنه منبه للمخ مريح للعقل عند كثير من الناس

هذا وقد زعم بعض المؤلفين أن الدخان لا يؤثر في النظر الا اذا كان الشخص من المدمنين للخمر أيضا . والحق أن كلا منهما كاف بمفرده لاحداث هذا التأثير في النظر فتجد أن المدمن للتدخين أو لشرب الخمر (وخصوصا من يواظب على شرب مقادير صغيرة يوميا ومتكررة بحيث لا يسكر منها) اذا بلغ عمره ٣٥ — ٥٠ سنة لا يقدر على القراءة أو الكتابة ونحوهما، ويضعف نظره للاشياء كلها خصوصا في النور الشديد، ويعجز عن تمييز الالوان — كما سبق — وهذه الاعراض تبتدئ عنده بسرعة الا أن حصولها كلها لا يتم الا تدريجيا بعد مضي عدة أسابيع أو أشهر من مبدئها، وهي كثيرة الحصول للاشخاص الذين يجمعون بين ادمان الخمر والدخان وان كان كلا منهما وحده كاف لاحداثها — كما قلنا — أما الذين يسكرون أحيانا وفي الفترات لا يدخنون ولا يشربون خمرا فهم أقل تعرضا لتلك الاعراض

واذا لم يستفحل الداء ولم يزمن، فمجرد الامتناع عن الخمر والدخان كاف لتحسين الحال أو الشفاء، ومما يساعد على ذلك استعمال يودو البوتاسيوم، وحقن الاستركنين في الصدغ أو تعاطيه من الباطن، والحجامة الجافة والرطبة، والحمام الساخن للاقدام، ومراعاة القوانين الصحية كافة خصوصا ما به اصلاح المعدة ، والاستغراق في النوم. ولا بد من المواظبة على ذلك زمنا طويلا مع عدم العودة الى شرب الدخان أو الخمر مطلقا

وفي مبدإ هذا المرض ربما لا يشاهد تغيير مّا في قاع العين — اذا امتحن — ثم توجد فيه أشياء يراها الاخصائيون بمنظار العين (Ophthalmoscope)

والتغير الذي يحصل في هذا المرض هو كالذي يحصل في الكبد والمخ مثلا لمدمن الخمر فتضمر الاليـاف العصبية بسبب الضغط عليها بالمواد الالتهابية و بما زاد في المنسوخ الضام الذي بينها ثم ينقبض عليها ويفسدها

طبخ الطعام

الطبخ نافع لاسباب عديدة (منها) أنه يقتل الميكروبات والديدان ونحوها فيقي الجسم من أمراضها (ومنها) انه في المآكل النباتية يشقق طبقات السللولوز التي تحيط بنشائها ، وبذلك يسهل هضمها (ومنها) أنه في اللحوم وغيرها من المواد الحيوانية يذيب بعض المواد المخصوصة العسرة الهضم جدا ، على أنه يجمد المواد الزلالية التي فيها أيضا الا أن هذا أخف وطأة من المضار الاخرى التي تنشأ من اكل اللحم نيئا . (ومنها) أنه يفرق الالياف العضلية للحم بتكون فقاقيع من البخار بينها ، وبذلك يسهل هضمها ، وبتجمد المواد الزلالية يسهل مضغها . وسخونة الطعام نافعة للهضم ، منعشة للجسم

واذا اريد الحصول على مرق من اللحم مغذ قطع اللحم الى قطع صغيرة ووضع في الماء البارد ثم سخن بالتدريج شيئا فشيئا الى أن يغلي ؛ أما اذا أريد الاحتفاظ بالمواد الغذائية وبقاؤها في اللحم دون المرق فيغلى الماء غليا شديدا ثم يوضع فيه اللحم أثناء الغليان ، فان ذلك يجمد المواد الزلالية في الحال ويكوّن طبقة تحيط باللحم تمنع نزول المواد المغذية في الماء ، ولذلك كان المرق المصنوع بهذه الطريقة قليل النفع

اوقات الطعام وقوانينه

سبق ان الطعام يمكث في المعدة أربع ساعات في الغالب . ويختلف هذا الوقت باختلاف قدر الطعام ونوعه ، والصحة والمرض ، والراحة والتعب ، ونوع الهواء المستنشق وغير ذلك . ولذا تعود الناس أن يأكلوا مرة كل ٥ أو ٦ ساعات ، وهي طريقة حسنة لااعتراض عليها ، ولكن يجب أن يراعي الانسان فوق ذلك - في مسألة الاكل عدة أمور (١) أن لا يأكل الا اذا جاع ، وبعبارة أخرى أن لا يدخل طعاما على طعام فان ذلك يفسد الهضم (٢) أن لا يأكل الانسان عقب تعب شديد (٣) أن لا يجهد نفسه بعد الطعام في عمل جثماني أو عقلي فان ذلك يصرف الدم عن المعدة الى الأعضاء العاملة فيتعطل الهضم . وعليه فمن الخطأ المذاكرة أو الجري أو الجماع عقب الاكل مباشرة . وأضرها الجماع فان الصدمة العصبية التي تحدث

للجسم منه قد تقتل الشخص بالسكتة القلبية لاسيما اذا كان القلب مريضاء والتعب الذي يعقبه مفسد للهضم . و يلحق بذلك أيضا الاستحمام عقب الا كل فانه ضار أيضا بسبب توجه الدم الى الجلد اذا كان الماء ساخنا، أما اذا كان باردا فان حركة المعدة والقلب تضطرب بسبب البرودة ، ثم يذهب الدم عن المعدة حينما تتمدد أوعية الجلد بسبب رد الفعل المعتاد عقب الاستحمام بالماء البارد فتتعب هي والقلب. وكذلك لاتحسن المذا كرة عقب الطعام الا بعد ساعة على الأقل (٤) ان لا ينام الانسان عقب الطعام مباشرة فان النوم يضعف حركة جميع أعضاء الجسم ومنها المعدة فيتعطل الهضم و يضيق النفس . نعم ان الراحة عقب الطعام نافعة ولكن الاستغراق في النوم هو الضار، ومن المستحسن جدا أن يتعود الانسان تناول الفطور في الصباح مع قليل من القهوة أو الشاي ، فان ذلك يقوي الجسم والهضم حتى انه شوهد في البلاد التي فيها حمى الملاريا (النافض) قلة اصابة الاشخاص المتعودين فعل ذلك في الصباح وحسن بنيتهم (٥) أن لا يشرب ماء شديد البرودة على طعام شديد السخونة

اما الا كثار من الطعام زيادة عن المعتاد فيحدث ضعفا في المعدة وتمددا فيها، وفسادا في الامعاء ، واحتقانا في الكبد، و يتعب الكلى ، و يحدث داء النقرس ، واذا كان الطعام الزائد شحما أوسكرا أونشاء فقد يحدث سمنا زائدا وانحلالا في العضلات أو بولا سكريا من كثرة النشاء والسكر

والامتناع عن أ كل الدهن والشحم البتة يضعف الصحة

أما الامتناع عن المواد السكر بوهيدراتية (النشاء والسكر ونحوهما) فيضطر البنية الى احراق مافيها من الشحم فيتولد من ذلك حوامض شحمية ومركبات عضوية من قبيل حامض أنز بديك (Butyric) وهذه الحوامض تقلل قلوية الدم. فان كان الشخص مصابا بالبوال السكري (الديابيطس)[1] فقد يحدث له الغيبوبة التي تكون سببا في موته

لذلك يرى أعلم الاطباء الآن أن الامتناع المطلق عن أ كل تلك المواد في هذا المرض - كما كان متبعا من قبل - خطر جدا ، ولذلك قلنا ان عسل النحل

(١) كلمة يونانية معربة معناها يقرب من معنى كلمة البوال أي كثرة البول

نافع في هذا المرض لانه يغني عن تلك المواد الكربوهيدراتية ، وهو من أسهلها هضما ، والقليل منه يكفي (راجع صفحة ٨٨ من هذا الكتاب)

واذا أريد تقليل سمن شخص مصاب بالتشحم العام وجب عليه الامتناع عن المواد الدهنية والكربوهيدراتية بقدر الامكان ، والاكثار من تعاطي المواد الزلالية فانها تزيد احتراق أنسجة الجسم . وهذه الطريقة تسمى طريقة بنتنج Banting [1]

أما قلة الطعام فانها تحدث ضعفا في الجسم وتقلل قوة مقاومته للميكروبات ، فان من المعلوم أن الكريات البيضاء تزيد عقب الاكل فتكون قوة الجسم على مقاومة الميكروبات أكبر ، فاذا قلت هذه الكريات بالصوم ضعف الجسم وربما صار عرضة لبعض الامراض . نعم ان الصوم عن الطعام نافع في أمراض المعدة والامعاء والكبد والكلى وحصواتهما والنقرس والرماتزم (الرثية) والحميات وأمراض القلب وغير ذلك ، الا أن الغلو فيه له هذا الضرر الذي ذكرناه ، ولذلك نص الشارع صلى الله عليه وسلم على وجوب الاعتدال في كل شيء ونهى عن صوم الدهر وعن الوصال في الصيام واستحب السحور وتأخيره وتعجيل الفطر وقد قال (ص) لمن نهاه عن كثرة الصيام والقيام (ان لبدنك عليك حقا)

ومما يخفف ضرر الصوم عند المسلمين أن يباح لهم أن يتعاطوا كل ما أرادوا ليلا فلذلك كان الضرر الناشئ من الضعف في أثناء النهار قليلا أو معدوما وبجانبه نفع يفوق كثيرا هذا الضرر وذلك هو إراحة الجهاز الهضمي والكبد والجهاز البولي واحراق مافي الجسم من الزيادة الضارة وغير ذلك مما ذكرناه ، ولكن يجب الاحتراس من ملء المعدة عقب الافطار مباشرة فان الجسم تكون قواه في ذلك الوقت ضعيفة وكذلك المعدة . فالواجب طبيا أن يأكل الانسان أو يشرب شيئا قليلا ثم يعود الى إتمام الاكل بعد صلاة المغرب كما كان يفعل رسول الله (ص)

ولما كان الصوم نافعا من الوجهة الدينية والاخلاقية اغتفر الشارع ذلك الضرر القليل أو المشكوك فيه في جانب نفعه العظيم

---

(١) كان تجارا من اهالي لندن ، أوصي الجمهور بهذه الطريقة سنة ١٨٦٣ وعاش بين سنة ١٧٩٧ و١٨٧٨

ومما يمحو ذلك الضرر الابتعاد عن ملاقاة المرضى وكل مالامسهم اثناء النهار، وصرف الوقت في النوم بقدر الامكان، ولذلك يستحب عندنا في الشريعة الاسلامية النوم للصائم فانه فضلا عن فائدته الطبية بإراحته الجسم وتوفير قواه يقي الانسان من اللغو والرفث ولذلك ورد في بعض الآثار (نوم الصائم عبادة)

الجهاز البولي ووظيفته

لايختلف هـذا الجهاز في الذكور والاناث الا في الاحليل (مخرج البول) وهو في كل منهما مركب مما يأتي :—

(١) الـكُليتان وهما عضوان مخصوصان لافراز البول موضعهما في القسم القطني من البطن خلف البريتون على جانبي العمود الفقري ويمتدان من الفقرة الاخيرة الظهرية الى الثالثة القطنية، واليمنى منهما منخفضة قليلا عن اليسرى بسبب وجود الـكبد في هذه الجهة ، وطول كل منهما نحو أربع بوصات، وعرضهما نحو بوصتين ونصف

والـكلية عبارة عن منسوج مخصوص مركب من أنابيب كثيرة العدد لإفراز البول من الدم، والدم يأتي اليها بشريان عظيم متصل بالاورطى (الابهر)مباشرة ، ويتفرع هذا الشريان في الـكلية الى عدة فروع يخرج منها فروع دقيقة جدا تنتهي بعمل أشكال كروية تسمى كريات مالپيغي[1](Malpighi) يحيط بها مبدأ أنابيب الـكلى، وكل أنبوبة بعد تعرجها عدة تعرجات تصب في أنابيب أخرى مستقيمة ، وهذه الانابيب تنفتح في قمم حلمات صـغيرة (عددها من ٨ الى ١٨) توجد في بطن الـكلية حول تجويف مخصوص يسمى « الحويض الـكلوي » وهو مبدأ للحالب

(٢) أما الحالب فهو عبارة عن أنبوبة تمتد من الـكلية الى المثانة وتحمل البول اليها، وينفتح في قاع المثانة بانحراف، أعنى أنه يسير قليلا في جدارها بين غشائها المخاطي والطبقة العضلية، وذلك لمنع رجوع البول فيه بانطباقه على نفسه بسبب ضغط البول عليه حينما تمتلأ المثانة به. وكل من الحالبين مركب من منسوج ليفي ومنسوج

(١) مشرح إيطالي عاش في بولونيا (Bologna) بين سنة ١٦٢٨ و ١٦٩٤

عضلي وغشاء مخاطي، والغرض من المنسوج العضلي أن يدفع البول نحو المثانة

(٣) أما المثانة فهي كيس يسع نحو نصف لتر من البول في امتلائه العادي ، وموضعه في الحوض خلف العظم العاني وفي أسفل الجدار الامامي للبطن . والمثانة مركبة من عدة طبقات أهمها الطبقة العضلية والطبقة المخاطية، وفائدة الطبقة العضلية هي قذف البول الى الخارج، وهذه الطبقة العضلية مركبة من ثلاث طبقات: خارجية، وداخلية (واليافهما تمتد من الامام الى الخلف غالبا) ووسطى ، وأليافها حلقية تحيط بالمثانة ، وعند فتحة المثانة في الاحليل تتجمع من هذه الطبقة الوسطى الياف كثيرة تسمى « العضلة العاصرة للمثانة » وهي التي تمنع البول من السلس

(٤) أما الاحليل فهو اسم لمجرى البول في كل من الذكر والانثى، وهو — طبعا — أطول في الذكر منه في الانثى. أما فتحته في الانثى فهي فوق فتحة المهبل الذي هو عبارة عن مكان الجماع ومخرج دم الحيض والجنين

أما كمية البول فهي في اليوم نحو ١٥٠٠ سنتمترا مكعبا. وهذه الكمية تختلف أيضا باختلاف مقدار الشرب وحرارة الجو وقوة القلب و بعض المواد المأكولة، فاذا اشتدت حرارة الجو مثلا كثر افراز العرق و بذلك يقل البول، واذا شرب الانسان مقدارا عظيما من الماء أو تعاطى بعض المواد المدرة للبول فان هذه الكمية تزداد

والبول حمضي التأثير في ورق عباد الشمس ، هذا في الحيوانيين . أما في النباتيين فانه قلوي التأثير. واذا ترك البول في اناء مدة من الزمن تحولت (البولينا) التي فيه بفعل الميكروبات الى كربونات النوشادر وصار البول قلوي التأثير ، وهذا هو سبب رائحة النوشادر فيه

والثقل النوعي للبول يختلف من ١٠١٥ الى ١٠٢٥ وفي البول السكري يزداد هذا الثقل النوعي كثيرا

والبول مشتمل على مواد كثيرة أهمها الماء والاملاح و بعض المركبات العضوية الاخرى كالبولينا

أما جل الماء والاملاح فتفرز بواسطة كريات مالبيغي، وأما باقي المواد الاخرى فتفرزها أنابيب الكلى المتعرجة أثناء سير الدم في الاوعية الشعرية التى حولها

والبول الطبيعي خال من السكر ومن الزلال تقريبا فلا يوجد فيه شيء منهما يذكر [١] إلا في أحوال مرضية ، والسكر الذي يوجد حينئذ فيه هو سكر العنب ولا يوجد فيه سكر اللبن الا في المراضع . وأهم سبب لوجود الزلال فيه هو التهاب الكلى المسمى داء بريت (Bright) [٢] الذي يفسد خلاياها خصوصا خلايا كريات ماليبغي . وأهم ما يحدث هذا الداء التعرض للبرد الشديد، خصوصا عقب الافراط في السكر أوالجماع ، أو الاصابة بالحميات العفنة كالقرمزية. وهذا الداء من أضر مايحدث للجسم، وهو سبب في موت كثير من الناس. وهناك مرض آخر منتشر في الجهاز البولي في مصر يسمى «داء بلهارس» سنتكلم عليه عند الكلام على الديدان

واذا أراد الانسان التبول صدر من النخاع الشوكي تيار عصبي الى المثانة فانقبضت، والى عضلات البطن فانقبضت أيضا ، وفي أثناء انقباضهما ترتخي العضلة العاصرة لعنق المثانة فيخرج البول الا اذا عاقه عائق كحصاة تكونت في المثانة

وقد تتكون الحصيات في أنابيب الكلى نفسها وتكون حينئذ صغيرة جدا كحبات الرمل ، أما الحصيات الكلوية التامة فتكون غالبا في اعلى الحالب أي في الحويض الكلوي وهي السبب في حصول الآلام القطنية عند المصابين بها ، فاذا نزل جزء منها في الحالب اشتد المغص بالمصاب الى درجة مفزعة ، ولا يزول غالبا الا اذا عادت الحصاة الى الحويض أو نزلت في المثانة ، أما إذا وقفت في الحالب وسدته تراكم البول خلفها وضغط على منسوج الكلية فأتلفه واذا طالت مدته استحالت الكلية الى كيس عظيم . وأهم هذه الحصيات هي حصيات حامض البوليك الذي يكثر بتعاطي المواد الزلالية مع قلة الحركة الجثمانية — كما قلنا — ولا علاج للحصاة بعد تكونها الا بالعمليات الجراحية ما لم تكن صغيرة وتخرج بنفسها مع البول . وأحسن المخترعات الحديثة لمعرفة مكانها وشكلها وحجمها هو أشعة

---

(١) في البول الطبيعي ١ في ١٠٠٠٠ من السكر ، وأثر من الزلال ، وكلاهما يتعذر ادراكه بالطرق الكيماوية المعتادة

(٢) هو رتشارد بريت (Richard Bright) الانكليزي عاش بين سنة ١٧٨٩ و ١٨٥٨ ميلادية

رونتجن (Röntgen) فانها تظهر ما في الجسم من الاجسام الصلبة كالحصيات والعظام والاشياء الغريبة كالرصاص - وسيأتي الكلام عليها -

والخلاصة ان وظيفة الكلية هي إفراز المواد المتخلفة من الاحتراق الداخلي للجسم لان بقاء هذه الفضلات فيه ضار به جداء واذا بطلت هذه الوظيفة بسبب فساد الكليتين نشأ عن ذلك الموت لتسمم الجسم بالمواد البولية، ولذلك يسمى هذا التسمم بالتسمم البولي (Uraemia) و بعبارة أصح « تسمم الدم بالبول »

الجهاز التناسلي ووظيفته

هذا الجهاز — وان اختلف في الظاهر في الذكر والانثى — هو واحد في منشئه وتركيبه، ولذلك قال ابن سينا[1] في قانونه ان آلة التوليد في الاناث « كأنها مقلوب آلة الذكران » وهو تعبير يقرب المسئلة الى الفهم وان لم يكن حقيقيا على اطلاقه

اعضاء الذكر

القضيب والصفن المشتمل على الخصيتين والقناة الناقلة والحويصلات المنوية والبروستاتا وغيرها مما سيأتي

أما القضيب فهو مركب من ثلاثة أجسام اسطوانية الشكل: اثنان منها في أعلاها، والثالث في أسفلهما . ومنسوج هذه الاجسام الثلاثة يشتمل على تجاويف عديدة اذا احتبس فيها الدم بسبب ضغط العضلات على الاوردة حصل الانتصاب، والجسم الاسطواني الاسفل هو الذي فيه الاحليل (أي مجرى البول)

ومركز الانتصاب في (الانتفاخ القطني للنخاع الشوكي) الذي يقابل الفقرتين أو الثلاثة الاخيرة من الفقار الظهرية

والحشفة متصلة بالقسم الاسفل من تلك الاجسام الاسطوانية ، ويغطي الحشفة

(١) هو الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا الفيلسوف العربي الشهير ، ولد بقرب بخارى سنة ٩٨٠ ميلادية وتوفي سنة ١٠٣٧ م (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ) وله مؤلفات عديدة جاوزت المئة، وكان كتابه في الطب المسمى (القانون) معولا عليه حتى في أوربة عدة قرون ، وترجم الى عدة لغات ، وطبع بالعربية في رومة سنة ١٥٩٣م (١٠٠١ هـ)

جلدة تسمى القلفة، وهي التي تقطع في الختان

وفائدة الختان منع تراكم الافرازات تحت القلفة وكذلك تسهيل معالجة ماينشأ في الحفشة من الادواء، ومن فوائدها أيضا تعريض الحشفة نفسها لشدة الاحساس فتقوى الشهوة ويكون الالتذاذ بالجماع اكمل. وفي بعض الاشخاص قد تكون فتحة القلفة ضيقة فيتعسر خروج البول ويتسبب من ذلك كثرة الزحير فيصاب الشخص بمثل سقوط المستقيم أو الفتق السُّري أو الأَرْبي وغير ذلك

وضيق الفتحة هذا هو من أكبر الاسباب لهذه الامراض خصوصا في الاطفال ولا دواء له الا الختان، وتراكم الافرازات قد يؤدي الى جلد عميرة والتهاب الحشفة والصاقها بالقلفة، ويهيئها لقبول الامراض الزهرية بل والسرطانية في الشيوخ. ولذلك كان الختان عند فقهاء المسلمين سنة مؤكدة وعند بعضهم واجبا، ولكنه عند اليهود فرض لا هوادة فيه

الصَّفن: وهو الجلدة المعروفة التي تشبه الكيس وفيها الخصيتان. أما الخصيتان فهما غدتان كبيرتان كحجم البيضة مختصتان بإفراز الحيوانات المنوية. أما تركيبهما فهو كما يأتي: يحيط بالخصية غشاء سميك يخرج منه عدة جدران تقسم الخصية الى عدة أقسام، وفي هذه الاقسام توجد أنابيب طويلة ورفيعة جدا يبلغ عددها نحو ٨٤٠ (وقيل ٣٠٠) وطول كل منها نحو من قدمين وربع وقطرها صغير جدا وهي ملتفة على نفسها ومبطنة من داخلها بخلايا مخصوصة تتحول بالتدريج الى الحيوانات المنوية

أما هذه الحيوانات المنوية فكل منها عبارة عن خلية واحدة، لها رأس وجسم وذنب، ورأسها هو نواة الخلية، ولها حركة سريعة جدا، واذا رآها الانسان بالميكروسكوب ظنها ديدانا دقيقة أو علقا، وتعيش مدة بعد خروجها من الانسان، وشكلها يختلف باختلاف الحيوانات المتنوعة وأقرب الاشكال شبها بحييوين الانسان حييوين مني القرد. واذا انفصلت هذه الحيوانات من خلايا الانابيب سارت فيها، وهذه الانابيب تتجمع شيئا فشيئا الى ان تتكون منها قناة واحدة تسمى «بالقناة الناقلة» والدم الوارد الى الخصيتين يأتيهما بشريانين رفيعين طويلين يخرجان من الابهر الممتد من القلب خلف الترائب الى نهاية الصلب تقريبا (والصلب هو السلسلة الفقرية

كما سبق) وهذا الدم يغذي الخصية فتنقسم خلاياها بعد أن تتغذى به وينشأ من انقسامها هذه الحيوانات المنوية . وعلى ذلك فأصل المني أو دمه يخرج كما قال تعالى (من بين الصلب والترائب) [1]

أما هذه القناة الناقلة التي يحس بها الانسان في الصفن كحبل صلب فهي تحمل المني الى جدران البطن ثم تدخل البطن ولكنها تبقى خارج البريتون وتستمر في سيرها الى أسفل المثانة وتكون بينها وبين المستقيم [2] وهناك تتحد بقناة الحويصلة المنوية التي في الجهة الوحشية منها، ويتكون من اتحاد القناتين قناة واحدة تصب في مجرى البول بعد خروجه من المثانة بقليل وتسمي (بالقناة القاذفة)

أما الحويصلة المنوية فهي كيس صغير كأنبوبة ملتفة على نفسها ولها في جوانبها عدة فروع ، وهي تفرز سائلا لبنيا رقيقا يضاف الى المني لتسهيل حركة الحيوانات فيه ، وفي هاتين الحويصلتين يتجمع المني الى حين قذفه عند الجماع ونحوه ، فهما مستودعان له

البروستاتا (وهي كلمة يونانية معناها الإمام) يحيط بمبدإ مجرى البول بعد عنق المثانة خلف العظم العانى وتحته ، وهو يفرز مادة تضاف الى المني تسمى بالودي [3] وتنبعث منه بعدة أنابيب تصب في مجرى البول أثناء مروره في البروستاتا ، وهذا العضو كثيرا ما يصاب بالضخامة في الشيوخ فيحدث عندهم عسر البول واحتباسه

وهناك غدتان صغيرتان في العجان على جانبي مجرى البول لهما افراز مخصوص يسمى بالمذي وهو السائل الذي ينزل عند المداعبة ، وفائدته تليين

---

(١) الترائب هي عظام الصدر تطلق على الذكر والانثى وان كان يغلب استعمالها في الانثى ومنه قول امرئ القيس (ترائبها مصقولة كالسجنجل)

(٢) لذلك يكثر الاحتلام عند امساك البطن أو عند امتلاء المثانة بالبول، فلذا يجب اطلاق البطن والتبول قبل النوم لمنع ذلك

(٣) هو ما ينزل أحيانا بعد البول ومن أشهر اسبابه واكثرها شدة الميل الى النساء مع عدم الوصول اليهن ، والتحرق عليهن

قناة البول لتسهيل سير المني فيها ، وتيسير إيلاج القضيب في الفرج عند الجماع . وهاتان الغدتان تسميان غدتي (كوبر) « Cowper » والقذف يحصل بانقباض الالياف العضلية التي في المجاري المنوية وحولها، فان في كل هذه الاجزاء المذكورة كثيرا من المنسوج العضلي

ويبتدئ تكون الحيوانات المنوية عند البلوغ، وهو يحصل عادة في بلادنا بين السنة ١٢ و ١٦ وقد يبلغ بعض الغلمان في التاسعة من عمرهم ، وآخرون في السنة ١٨ واذا بلغ الشخص خشن صوته ونبت الشعر في وجهه وعانته ووجد فيه الميل الطبيعي للانثى. ويستمر افراز المني الى أواخر العمر، فقد عرف ان بعض الشيوخ رزقوا بالولد في سن الثمانين بل بعد المئة، ولكن الميل الشهواني يضعف عادة في الانسان كلما كبر ، وقد يزول في الصغر لضعف أو مرض أو غيرهما، ويكون حينئذ قاصرا على الميل النفسي وان كانت القوة الجثمانية نفسها ضعيفة أو مفقودة بسبب ضعف الانتصاب أو عدمه

اعضاء الانثى

تبتدئ هذه الاعضاء من الخارج الى الداخل بالفرج، وأجزاؤه هي (١) جبل الزهرة [1] وهو القبة التي في أعلاه وعليها ينبت الشعر (٢) الشفران الكبيران، وهما الممتدان من جبل الزهرة الى ما يسمى بالشوكة وهي الغشاء الذي يجمع بينهما عند أسفلهما. وهذه الاجزاء مركبة من جلد وشحم مع جزء من المنسوج المسمى بالخلوي، وفيها غير ذلك أعصاب وأوعية وغدد وألياف عضلية . والشفران في الانثى يقابلان الصفن في الرجل (٣) الشفران الصغيران ، وهما قطعتان صغيرتان من الجلد بين الشفرين الكبيرين ويعرفان عند عامة النساء في مصر بالورقتين، يمتدان في أعلاهما الى البظر (٤) البظر وهو جسم صغير يقابل في الذكر القضيب ، وهو مثله في تركيبه ونشوئه، غير أنه مركب من جسمين اسطوانيين فقط ، وله رأس كرأس الذكر ، ولكنه

(١) الزهرة هي ما يسميها الرومان Venus (فينس) وهو الكوكب المعروف ببهائه وجماله ، وكانوا يزعمون انه (إلهَ الحب) والى هذه القطعة من الفرج تنسب الامراض الزهرية الناشئة من الزنا غالبا

غير مثقوب ، ولا يوجد فيه الجسم الثالث الذي للرجل ، والبظر عضو حساس خصوصا رأسه ويتحرك بالشهوة وينتصب كالذكر تماما . ولذلك اعتاد الشرقيون من قديم الزمان أن يقطعوه وحده أو مع الشفرين الصغيرين ، وتسمى هذه العملية بعملية الخفض ، وهي مستحسنة في الشريعة الاسلامية لانها مما يقلل ثوران الشهوة عند النساء وخصوصا في البلاد الحارة

(٥) غدد (بارثولين) وهما غدتان صغيرتان على جانبي فتحة الفرج تفرز كل منهما مادة لزجة صافية تشبه المذي، وهي تسيل مثله عند تحرك الشهوة في النساء (٦) العُذْرة (غشاء البكارة) وهو غشاء يسد فتحة الفرج كلها أو بعضها ، ولكنه له في الغالب فتحة أو أكثر لنزول دم الحيض ، وله أشكال عديدة أكثرها الهلالي والحلقي، وقد يكون معدوما بالمرة من أصل الخلقة . واذا كان هذا الغشاء مسدودا بالمرة امتنع دم الحيض من النزول فيتراكم في الرحم وينشأ منه أعراض مخصوصة يعرفها الاطباء ، وتسمى المرأة المصابة بهذه العاهة بالرتقاء. وعند تمزق هذا الغشاء في العذارى يخرج منه مقدار من الدم كما هو معروف ، ويسمى هذا التمزيق بالافتضاض. وفي تمزيقه بالاصبع خطر فقد يتمزق معه المهبل وربما يفضي ذلك الى الوفاة

هذه هي أعضاء المرأة الظاهرة

أما أعضاؤها الباطنة فتبتدئ بالمهبل ، وهو أنبوبة عضلية موصلة بين الفرج والرحم، ولها فتحة مسدودة بالغشاء المذكور وفي أعلى هذه الفتحة يوجد الصماخ البولي، أي فتحة البول الواصلة الى المثانة. والمثانة في النساء فوق المهبل

ووظيفة المهبل هي أن يكون محلا للجماع ومخرجا للجنين ودم الحيض

أما الرحم فهو جسم كمثري الشكل، عضلي سميك أجوف، له فتحة في المهبل وفيه فتحتان أخريان لأنبوبتين تسميان بوقي فللوبيوس[1] لحمل البويضات الى الرحم

(١) هو جبريل فللوبيوس (Gabriel Fallopius) المشرح الشهير ، كان من أهالي بادوا (Padua) بقرب مدينة البندقية ولد سنة ١٥٢٣ ومات سنة ١٥٦٢ وهو أول من وصف هذين البوقين وصفا دقيقا

أما (البوقان) فمبطنان من الداخل بغشاء مخاطي له أهداب، وطول كل منهما نحو أربع بوصات وطرف كل منهما مشرشر ، وخلف البوقين (المبيضان) وهما جسمان يشبهان الخصيتين وليسا أجوفين وفي داخلهما بويضات صغيرة جدا ميكروسكوبية في داخل حويصلات تسمى حويصلات (جراف) وهذه الحويصلات تقرب من سطح المبيض شيئا فشيئا حتى تنفجر فتخرج البويضة [١] وتصل الى البوق . والبوق متصل بالمبيض بقناة صغيرة هي جزء من الطرف المشرشر ،وهو ينطبق على المبيض حين انفجار الحويصلة

البويضة والبلوغ واليأس

أما البويضة فأصلها من الغشاء المحيط بالمبيض الذي هو عبارة عن البريتون . وتتكون هذه البويضات في البنات منذ ابتداء خلقتهن بحيث تولد البنت وفيها عدد مخصوص من البويضات تبلغ الالوف. ويقال ان هذه البويضات تسقط من البنات في زمن طفوليتهن قبل البلوغ . ويتفق في البنات البالغات والنساء زمن انفجار الحويصلات وخروج البويضات منها مع زمن الحيض . والرأي الراجح الآن عند بعض العلماء أن كل مبيض تنفجر منه حويصلة مرة في كل شهرين بمعنى أن الحيض اذا اتفق مع انفجار الحويصلة التي في المبيض الايمن مثلا في هذا الشهر انفجرت حويصلة من المبيض الايسر في الشهر التالي وهكذا ، أي ان كل انفجار من مبيض يكون في شهر وحده

وأما زمن البلوغ في البنات عندنا فيكون من ١٢ الى ١٤ سنة ، وفي البلاد التي أشد حرا من مصر كبلاد الهند والعرب كثيرا ما تحيض البنت في السنة التاسعة، وزمن الحيض يتفق مع زمن النسل عادة الا أنه ثبت ان بعض البنات حملت قبل أن تحيض ،كما ثبت أن بعض العجائز حملت بعد اليأس. وسن اليأس في النساء هو في الغالب من ٤٥ الى ٥٠ ومنهن من يستمر حيضها الى ما بعد ذلك بكثير كالسنة التاسعة والستين

(١) تشمل الحويصلة عادة بويضة واحدة واحيانا بويضتين ونادرا ثلاثا وقد تشمل البويضة نواتين بدلا من واحدة، وذلك من اسباب الحمل التوأمي كما سيأتي

الحيض – عبارة عن نزف يحصل من الغشاء الخاطي المبطن للرحم ويصحبه تمزق في هذا الغشاء وسقوط بعض الأجزاء منه ، ولا يحدث الحيض الا للنساء و لبعض أنثيات القرود ، ومدته تختلف من يوم الى ثمانية أيام، وفي الغالب ستة أيام فقط

وسبب الحيض وفائدته مجهولة الى الآن. وهو ليس ضروريا لحدوث الحمل ، فقد شوهد أن بعض النساء لاتحيض مطلقا ومع ذلك تحمل كالعادة

الخنثى – انسان يتعسر أو يتعذر تمييز نوعه ان كان ذكرا أو أنثى وهي أنواع :—

(١) من يكون في الحقيقة ذكرا ولكن أعضاءه تشبه الانثى ، فيكون له صفن مشقوق كشفري المرأة وقضيبه صغيرا جدا ولا فتحة فيه وتكون فتحة البول بين الشفرين، وقد يكون له ثديان[1] ولكنه لايحيض و ينقذف منه المني من خصيتين تكونان غالبا في شفرية وقد تبقيان في بطنه، وفي هذه الحال لا يمكن الحكم عليه الا بفحص دقيق جدا كأن يمتحن السائل المقذوف منه فان وجدت فيه حيوانات منوية تحققنا ذكورته وإلا فلا ، وفي مثل هذا الشخص تكون فتحة البول أضيق من المهبل وتتصل بالمثانة ولا يحس بوجود رحم له

(٢) من تكون أنثى وأعضاؤها تشبه الذكر كأن تكون ثدياها ضامرتين و بظرها كبيرا جدا، ومنهن من يكون رحمها أيضا ساقطا بين فخذيها فيشبه الصفن، ومثل هذه المرأة قد تشتهي النساء وتميل الى السحاق ، وتعرف هذه بحصول الحيض لها وعدم وجود أي حيوان منوي في افرازها، وقد يدرك الباحث فيها وجود المبيضين ووجود الرحم

(٣) من يوجد له مبيض في جهة وخصية في الجهة الاخرى، ووجدت أحوال نادرة جدا كان الشخص يأتيه الحيض شهريا ومع ذلك يقذف حيوانات منوية، كشخص عرف في أوربة يسمى « كثرين هوهمان » (Catherine Hohmann) لم يعرف له نظير

---

(١) قد رأيت اثنين من هذا النوع لاحدهما ثديان كثديي البنت البكر البالغة وقد طلب مني قطعهما ففعلت

ومن هذا النوع الاخير من تكون أعضاؤها الظاهرة كاعضاء الذكر والباطنة كأعضاء الانثى ، وبالعكس ، ولا يوجد دليل على ان مثل هذا الشخص لاتتلقح بويضاته بمني نفسه ، غاية الامر أن وجود مثل هذا الشخص أندر من الكبريت الاحمر، وأكثر منه ندرة أن تلقح حيواناته المنوية بويضاته

ولا يوجد عندنا مانع عقلي أو نقلي يمنعنا من تجويز ان تكون مريم عليها السلام من هذا النوع الاخير فمسألتها أندر من النادر، فلا غرابة اذا لم نعرف أنها حدثت لغير مريم، إذ يندر ان يتفق حصول ذلك في العالم إلا مرة أو مرتين فيتعذر على الناس معرفة ذلك باليقين، على أن الوثنيين قد زعموا حصول مثل تلك الولادة لبعض آلهتهم، وربما كان بعض مازعموا صحيحا (راجع كتاب «النصرانية والاساطير» تأليف روبرتسن صفحة ١٦٨ـ ١٧١) ولاينافي ذلك ان تكون مريم وابنها آية للعالمين، فان في كل ماخلق الله آية خصوصا مثل تلك الشواذ العجيبة النادرة جدا، ولذلك قال تعالى (وفي خلقكم وما يبثّ من دابة آيات لقوم يوقنون) أما ارسال الملك اليها فقد كان لتبشيرها بحصول هذا الحمل النادر العجيب كما بشر زكريا بالولد مع شيخوخته وعقم امرأته ، وقوله في سورة مريم (لأهب لك) قد يراد به أنه متكلم عن الله كما قالت الملائكة المرسلة للوط (الا امرأته قدرنا) أي قدر الله ولذلك ورد في قراءة سبعية قول جبريل (ليهب لك) أي ليهب لك الله، وإنما هو مبشر لها بذلك فقط، ويؤيد ذلك أيضا قوله تعالى في سورة آل عمران (ان الله يبشرك بكلمة منه) الآية. وأما قول أمها (إني وضعتها أنثى) اذا دل على انها عرفت حقيقتها فقوله تعالى بعده مباشرة (والله أعلم بما وضعت) أدل على انها لم تعرف الحقيقة وانما حكمت بالظاهر والله أعلم منها بالواقع ونفس الامر. وقوله (واصطفاك على نساء العالمين) — أي فضلك عليهن — لا يدل على أنها منهن ولذلك لم يقل (أصطفاك منهن) (١)

---

(١) المنار: ان هذا التعبير لايؤدي معنى الاول . وقد فات الكاتب الجواب عن قوله تعالى « ومريم ابنة عمران » فهو جزم بأنها انثى ، ولعله يدخله في حيز الترقي الآني في جوابه . وما ذكره احتمال اكبر فائدته زلزال جمود الماديين =

على أننا لم نقل إنها لم تكن امرأة بل نقول « يحتمل أنها كانت لها أعضاء الذكر والانثى وتغلب عليها الانوثة بدليل حملها لعيسى وولادتها له وإرضاعها إياه . واذا صدقنا كتب العهد الجديد قلنا إنها أيضا تزوجت بعد ولادة عيسى ورزقت بأولاد (مت ١ : ٢٥ و ١٣ : ٥٥) فكانت أعضاء الانوثة فيها أجلى و أكمل من أعضاء الذكورة »

هذا و يوجد في الحيوانات الدنيئة ما تتوالد اناثها بلا تلقيح عدة أجيال فيجوز ان مايحصل في هذه الحيوانات على سبيل القاعدة يحصل مثله في الانسان على سبيل الشذوذ، مثال ذلك أن المعتاد في بعض الحيوانات أن تلد عدة صغار في بطن واحد كالارانب وغيرها وذلك هو القاعدة فيها ، ومن النساء من ولدت ٦ أطفال في بطن واحد ومنهن من كان لها أكثر من ثديين. والخلاصة أن عجائب مخلوقات الله تعالى كثيرة، وله في كل شيء آية

التلقيح

التلقيح هو اجتماع عنصر الذكر (الحيوان المنوي) بعنصر الانثى (البويضة) واذا كان التلقيح بين الاقارب الاقربين كان النسل رديئا لسببين (١) أنه يكون أضعف ممن يولد من زوجين بعيدين [1] وهذه القاعدة مضطردة حتى في النباتات فان ثمر الشجرة التي تلقحت أزهارها بأزهار أشجار أخرى يكون أقوى وأحسن، حتى ان ثمرة الزهرة الواحدة اذا تلقحت بزهرة مجاورة لها من نفس شجرتها كانت ثمرتها خيرا مما اذا تلقحت بنفس أبورها (هو مسحوق التذكير في الزهرة كما سبق) (٢) انه اذا كان الزوجان قريبين انحصرت في نسلهما الاشياء

= الذين ينكرون ولادة عيسى عليه السلام من أم بلا أب. والافالظاهر المتبادر ان خلقه آية من الخوارق المنتظمة في سلك السنن الروحية، لا من فلتات السنن المادية

(١) المنار : ورد في الآثار « اغتربوا لا تضووا » أي تزوجوا الغرائب لئلا تصيروا ضواة أي ضعافا نحفاء بكثرة تزوجكم من ذوي القربى ، ولم يثبت هذا في الحديث عن النبي « ص » خلافا لما في صحاح الجوهري وغيره. وقال عمر بن الخطاب لآل السائب : قد أضويتم فانكحوا في النزائع . اي الغريبات

الرديئة الموروثة عنهما،أما اذا اختلطت البيوت بعضها ببعض تحسن نسل الرديء منها وبقي، ولولاذلك لانقرض أو لبقيت بعض الامراض العقلية والجثمانية متوارثة في نسله الى ماشاء الله، فلهذه الاسباب حرم القرآن الشريف زواج الاقارب الاقربين

وبالجماع ينصب المني في مهبل المرأة فتسير حيواناته المنوية الى الرحم ويساعدها في سيرها حركة امتصاص تحصل في الرحم نفسه ، فاذا وصلت الى الرحم ذهبت الى البوقين ، وهناك تتجمع في البوقين وتعيش بعضة اسابيع فاذا صادفتها بويضة لقحتها، واذا لم تتلقح البويضة تموت بعد خروجها من الحويصلة ببضعة أيام

والتلقيح عبارة عن دخول رأس الحيوان المنوي وجسمه في البويضة مع سقوط ذنبه فيتحد هذا الجزء من الحيوان المنوي بنواة البويضة بعد أن ينفصل عنها جزء كبير منها ، والتلقيح يحصل عادة في بوق (فلوبيوس) والذي يراه جمهور العلماء أن حيوانا واحدا يلقح بويضة الانسان ، ومنهم من يرى أن الذي يلقحها (أو يمتزج بها) حيوانات عديدة — وهو الارجح —

وليس الجماع ولا التذاذ النساء ضروريا لحصول التلقيح بل قد يكفي قذف المني على باب الفرج ولو كانت الفتاة عذراء أو نائمة أو مخدرة بالكلوروفورم فان ما للحيوانات المنوية من الحركة كاف لتوصيلها الى البوقين ، ولذلك ورد عن النبي (ص) ان العزل لا يمنع الحمل كما هو مشهور في الاحاديث، ومن ذلك قوله (ص) « اصنعوا ما بدا لكم فما قضى الله فهو كائن وليس من كل الماء يكون الولد »

نموذج من كتاب كنز الحقائق

في فقه خير الخلائق

﴿ فصول متفرقة والعناوين فوقها من وضع المنار ﴾

البدعة الشرعية

(فصل) البدعة الشرعية الامر الحادث في الدين بعد القرون الثلاثة المشهود لها بالخير، لم يدل عليها دليل من الكتاب والسنة ، وكل بدعة ضلالة ، وهي كثيرة سيما في عصرنا هذا. فانهم قد أحدثوا في الدين أشياء ما كانت في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه — كعقد مجلس الميلاد، والقيام عند ذكر الولادة وانشاء عيد الميلاد (١) وقراءة الفاتحة على الحلواء والطعام، والاجتماع لقراءة القرآن في اليوم الثالث (٢) وايصال الثواب الى الميت بتعيين يوم أو وقت وتسريج السرج على القبور (٣) وبناء التوابيت (٤) ونصب الاعلام ، وذكر الخلفاء بعد كل ترويحة ، وتسمية الصحابة والسلاطين في الخطب، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم قبيل الاذان والاقامة (٥) والتثويب والترحيم وأمثالها .

علامة أهل الحديث

(فصل) من علامات أهل الحديث الجمع بين الصلاتين حالة الاقامة والصحة لحاجة دينوية أو دينية، والمسح على الخفين والجوربين، ولو غير ثخينين، والمسح على العمامة، ورفع اليدين في ثلاثة مواطن ـ عند الركوع وعند رفع الرأس من الركوع وعند القيام من التشهد الاول، ووضع اليدين على الصدر ، والجهر بآمين ، وقراءة التسمية أول كل سورة ،وقراءة الفاتحة خلف الامام في كل صلاة، والاعتدال في

---

(١) أي الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، ومثله سائر الاحتفالات التي جعلوها كالشعائر الدينية . وقد افتى الفقيه ابن حجر المكي بكون القيام عند ذكر ولادة النبي (ص) بدعة كما تراه في كتابه الفتاوي الحديثية ولكن لم يبال بفتواه أحد (٢) أي بعد موت الميت الذي يقرأ لأجله (٢) لعله يريد طلب إيصال الثواب (٣) يريد إيقاد السرج (٤) أي للقبور (٥) لعل هذا معتاد في بلاد المؤلف (الهند) وفي بعض بلادنا يزيدون في آخر الاذان مايزيدون من ذلك وكله بدع

الركوع والسجود والقومة، وأداء الصلاة وقراءة السور على وفق السنة .

المتفقه والعامي والتقليد

(فصل) اذا كان الرجل يعرف الحديث والقرآن فيعمل عليهما ولا يقلد أحدا من المجتهدين ، والعاميّ الذي لايعرف الحديث والقرآن يسأل العلماء و يعمل على قولهم [١] والمجتهد يخطئ و يصيب ، ومع خطائه له أجر ، ويجوز ان يكون الرجل مجتهدا في بعض المسائل ومقلدا في بعضها ، ويجزله ان يعمل بالرخص ، والامرُ بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل مسلم بقدر القدرة ، ولا يجوز العنف والتشدد في المسائل الاختلافية .

بيعة الصوفية وإلباس الخرقة

(فصل) البيعة الشائعة بين الفقراء لها أصل من الشرع وهي بيعة التوبة، أما إلباس الخرقة والقلنسوة وأمثالها من مراسم الفقر فلا تثبت بالنقل الصحيح ، ويجب علينا ان نحب أولياء الله كلهم ونعظمهم من غير ان نفضل بعضهم على بعض ، و يجب ترك قولهم اذا خالف الحديث .

علامة أهل البدع

(فصل) لاهل البدع علامات وهي الوقيعة في أهل الاثر وتسميتهم بالوهابية والنجدية والعرشية والصفاتية والمجسمة والمشبهة. وهم برآء من ذلك لايصدق عليهم الا الاسم الواحد «وهو أصحاب الحديث» كثرهم الله وأبقاهم الى يوم القيامة

﴿ باب الأنجاس ﴾

يطهر البدن والثوب بالماء ولو مستعملا حتى لا يبقى عين ولا لون ولا ريح ولاطعم . ولو[٢] عسر زوال الاثر فلا يضر ،ولا يجوز بغير الماء. والخف والنعل بالدلك،[٣] ولو كانت النجاسة رطبة أو يابسة أوغير ذات جرم. والمني طاهر وغسله وفرك اليابس منه ازكى وأولى، وكذلك الدم ـ غير دم الحيض ـ ورطوبةُ الفرج[٤] والخمرُ وبولُ

(١) اي يسألهم عما يجب عليه في كتاب الله وسنة رسوله (ص) لاعن آرائهم ومذاهبهم (٢) لعل الاصل (واذا) (٣) أي ويطهر الخف أو النعل بدلكهما بالارض كيفما كانت نجاستهما (٤) معطوف على قوله : والمني طاهر

الحيوانات غير الخنزير. ولا نجس عندنا الا غائط الانسان وبوله ودم الحيض و بول الخنزير وخراءه والروث ولحم الخنزير وشحمه والحمار الانسي والميتة. فيجب تطهير كل نجس قليله وكثيره حتى الرشاش . وتطهر الارض باليبس أو صب الماء عليها . ويطهر البساط الذي لايمكن غسله بصب الماء عليه. والحديد والمرآة والزجاج بالمسح ، والاستحالة مطهرة

(فصل) أيما إهاب دبغ فقد طهر وشعر الانسان والميتة والخنزير طاهر وكذا عظمها وحافرها وقرنها ومنقارها .

(فصل) لاتنزح البئر بوقوع نجس أو موت حيوان فيها اذا لم يتغير أحد أوصاف الماء، فان تغير فيجب نزح الماء كله أو الى ان لايبقى التغير

(فصل) بول مايؤكل لحمه طاهر وكذا سؤره وجميع الأسآر غير سؤر الكلب والخنزير ففيه قولان وكذا في ريق الكلب ، والعرقُ كالسؤر

﴿ أهم أخبار الحرب الاوربية والآراء فيها ﴾

إن الاخبار الصحيحة والآراء المفيدة لاتكاد تستنبط من الجرائد الا نكدا ، وان للمجلات من الاناة والروية في الاختيار ماليس للجرائد اليومية ولا غير اليومية أيضا، واننا نمحص ماوقفنا عليه من الاخبار والآراء الكثيرة بالجمل الآتية في هذه الحرب

(١) الدول المتحاربة فريقان — دول التحالف الانكليزي ودول التحالف الألماني (يُنسب كل حلف الى أقدر دوله التي هي محل رجاء الرجحان له) فالاول هو الراجح في الحرب البحرية حتى ان رجحانه حال دون منازلة الآخر له، الا ماتغرقه الغواصات من سفنه . والثاني هو الراجح في الحرب البرية الى هذا اليوم

(٢) اتفق رجال السياسة والحرب من الفريق الاول على ان السبب الاول لرجحان الفريق الثاني في الحرب البرية هو كثرة الذخائر والاسلحة عندهم، فتوجهت همة دوله كلها الى الاستكثار من ذلك، حتى ان انكلترة انشأت وزارة خاصة سمتها وزارة الذخائر جعلت المئات من المعامل الحرة تحت مراقبتها ، فصارت انكلترة

وفرنسة - وهما دولتا العلم والصناعة في هذا التحالف - تعملان من الذخائر والاسلحة أضعاف ما كانتا تعملان من قبل، ويقدرون ان استعدادهما واستعداد حلفائهما لايتم الا في ربيع السنة القابلة. على انهم يشترون الذخيرة والسلاح من الولايات المتحدة واليابان بمئات ألوف الالوف من الجنيهات

(٣) كانت الروسية قد رجحت على النمسة رجحانا ظاهرا فانتزعت منها غاليسية ووصلت الى أعالي جبال الكربات المشرفة على سهول المجر وسباسبهم؛ ولكن ألمانية انجدتها في ربيع هذا العام بزهاء مليون ونصف مليون من جيشها، فأجاتا الروسية عما كانت استونت عليه من بلادها، وانتزعتا منها ماانتزعتا من مملكة بولندة وغيرها، ولا يزال لهما الرجحان في مطاردتها، والفضل الاول في ذلك لمدافعهما الضخمة التي تدك أعظم الحصون والمعاقل، ولكثرة ماعندهما من الذخيرة، وقد اتسع ميدان هذه الحرب فامتد من بحر البطليق في الشمال الى آخر حدود بولندة في الجنوب. ويقال ان الالمان يطمعون في الوصول الى بترغراد (بطرسبرج) عاصمة الروس، والنمسويون مع الالمان يمدون أعناقهم الى أودسه أعظم ثغور الروس في البحر الاسود

(٤) الحرب في الميدان الغربي (فرنسة وبلجيكة) سجال ولكنها حرب مطاولة لا مناجزة، والالمان هم الذين يهاجمون الفرنسيس والانكليز والبلجيكيين في الغالب، والفريقان معتصمان في الخنادق، وقلما يربح أحد من خطوط خصمه شيئا الا ويسترده منه الآخر

(٥) الحرب بين إيطالية والنمسة سجال أيضا، ولكنها لاتزال بطيئة الحركة ضعيفة التأثير لايكاد العالم يشعر بوجودها

(٦) الحرب في جوار الدردنيل سجال أيضا، وهي مناجزة لامطاولة، والحلفاء هم المهاجمون في الغالب، على أنها حرب خنادق كحرب الميدان الغربي

(٧) أخبار الحرب في العراق قليلة جدا ومما لاريب فيه ان الانكليز قد استولوا على جزء عظيم من ولاية البصرة

(٨) أخبار الحرب في القوقاس ومايسمونه أرمينية أقل من أخبار الحرب في العراق، وأبعد عن الثقة من جميع الاخبار، فانه لايعرف منها شيء الامايذيعه الروس

في كل شهر أو أشهر من أخبار معركة كان لهم الرجحان فيها ، ومن أخبارها ان ضلع الارمن في البلاد العثمانية معهم حتى انهم يقاتلون معهم ، وهذا خبر معقول ومنتظر ، وكان العثمانيون يقاتلون الروس في بلاد القوقاس الروسية ، ومن أخبار الروس الاخيرة انهم استولوا على مدينة (وان) العثمانية بمساعدة الارمن فيها ونصبوا عليها واليا من زعماء الارمن. ويقال ان الترك فتكوا بالارمن فتكا ذريعا

(٩) ان كل فريق من الاحلاف اجتهد منذ اشتعلت نار الحرب في جذب الدول التي على الحياد اليه ولو بالعطف والمودة ، ففاز التحالف الانكليزي بانتزاع ايطالية من التحالف الألماني وحملها على خوض غمرات الحرب معه ، وهو يبذل جهده منذ سنة لجذب دول البلقان الى قتال العثمانية والنمسة ، ولا يزال البلقانيون بين الإقدام والإحجام ، لما بينهم من أسباب النزاع والخصام، واطمعهم في تراث الترك والنمساويين من جهة ، وكراهتهم أخذ الروسية الآستانة وزقاقي البوسفور والدردنيل من جهة أخرى ، دع ما للنمسة وألمانية من النفوذ في البلغار ، ولألمانية خاصة من النفوذ في الرومان واليونان ، فان ملكي البلغار والرومان من أسرة عاهل ألمانيـة ، وملكة اليونان أخته ، فوشيجة الرحم لها تأثير عظيم ، ولكن أكثر الشعوب البلقانية أميل الى التحالف الانكليزي . ولا سيما الشعب اليوناني ، فانه شديد البغض للترك والطمع في كثير من بلادهم ، وشديد الميل الى محاربيهم اذا تهم ولمحاربتهم لهم

(١٠) قد اختلف الباحثون في عاقبة هذه الحرب ونتيجتها، والمعقول انه اذا نُصر أحد الفريقين نصراً مؤزّرا وظفر ظفرا تاما، فان رأس دوله تكون لها السيادة العليا في أوربة والشرق كله ، ولكن دول الفريق الآخر ـ أو مابقي منها ـ تذل وتخزى زمنا طويلا تبذل فيـه كل مايستطيع بذله المستضعف المستذل في مقاومة خصمه من الكيد والحيلة، الى ان يستدير الزمان ، وتديل له من عدوه الاقدار ، وأما اذا طال أمد الحرب حتى ضعف الفريقان ونفدت قواهما، ولم يرجح أحدهما على الآخر بشيء، أو رجح بالدرهم أو القيراط ، فلم يكن باستطاعته السيطرة على خصمه ، والاستمرار على قهره ، فيوشك ان تكون شروط الصلح متعادلة. وتبقى الموازنة بين

الدول متقاربة، و يستمر ذلك عشرات من السنين يظهر فيها نبوغ الشعب الذي يفوق غيره في الهمة والاستعداد . وهاك أشهر ماقيل في طمع كل فريق من الآخر اذا انتصر انتصارا تاما أو قريبا من التام

(١١) مقصد دول التحالف الانكليزي من الحرب الذي لا يكفون عنها باختيارهم مالم يصلوا اليه، هو ازهاق الروح العسكري البروسي الذي نفخ في جميع الشعوب الالمانية حب الحرب ، واعتقاد كونها فضيلة وكمالا للبشر — ثم حل عقدة الوحدة الالمانية وارجاع ممالكها الصغيرة الى ما كانت عليه قبل الوحدة التي أنشأها البرنس بسمرك سنة ١٨٧٠ ومنعها من الاستعداد لحرب ثانية ، والاستيلاء على الاسطول الالماني . ثم حل امبراطورية النمسة والمجر واعطاء كل دولة من دول التحالف أبناء جنسه منها. وبهذا يستميلون دول البلقان اليهم الآن ، لان في النمسة ملايين عديدة من الرومان والسلاف والطليان وغيرهم — ثم تمزيق المملكة العثمانية وتقسيمها

ومن البديهي الذي لايحتاج الى النص ارجاع بلجيكة كما كانت

أما الآستانة والزقاقان العظيمان اللذان على جانبيها فالارجح أن روسية لاترضى بها بديلا ان ظفروا ظفرا نهائيا، بعد ما أصابها من الخسارة التي هي أضعاف خسائر سائر حلفائها . و يقال ان حلفاءها أنفسهم يشترطون تدمير حصون البوسفور والدردنيل ونزع السلاح منهما وعدم تسليحهما في المستقبل. وقيل ان الآستانة تكون منطقة حرة . ولكنها ان صارت الى الروس فلا بد ان يغتنموا أول فرصة لتحصين الزقاقين بعد أن يستعدوا لذلك سرا

(١٢) اذا ظفر التحالف الالماني ظفرا تاما فالمشهور أن ألمانية تريد أن تضم مملكة بلجيكة الى ممالك الاتحاد الجرماني ، ولايدرى أيراد جعل بولونية مستقلة أم تابعة لها أم للنمسة، ولا بد حينئذ من جعل النفوذ الاعلى في البلقان للنمسة، و يقال

إن ألمانية لاتطمع في أخذ شيء مما استولت عليه من مملكة فرنسة، الا سواحل بحر المانش، ولكنها تطمع في جميع مستعمراتها الافريقية الشمالية. وتعطي الدولة العثمانية القوقاس الروسية أيضا. وقداشتهر انهاتمنيها بانشاء امبراطورية اسلامية كبيرة. ثم انها تفرض على خصومها غرامة حربية ثقيلة، وأما استعادة ماأخذ من مستعمراتها، فهي من البديهات التي لاحاجة الى ذكر طلبها لها. هذا أقل مايقال عنها، وقيل بل هي تطمع في جعل أوربة كلها تحت سيطرتها، لما وجد في مؤلفات غير واحد من رجال العلم والسياسة والحرب فيها، من الحث على السعي لجعل العالم كله خاضعا للنفوذ الالماني ومستمدا من الحضارة الالمانية

ومن الناس من يقول ان هذه مزاعم افتحرها أعداء ألمانية لينفروا عنها الشعوب التي على الحياد ويحملوها على مناوأتها، ولكن وجد من النقل عن الالمان مايدل على ذلك، وهو غير بعيد عن العقل وشواهد التاريخ، فان بطرس الاكبر على كونه هو البادئ بتقوية روسية كان يرمى الى هذا الغرض، ونابليون الاول كان يمني نفسه به، ومن أصول تربية الامم أن يبث فيها عقيدة تفضيل نفسها على غيرها، وكونها أجدرها بالسيادة والسعادة، وكل أمة لاتعتقد هذا الاعتقاد لايمكن ان تسود وتعتز، ولكن الامة اذا لم تبن جميع أعمالها الاجتماعية على أساس هذه العقيدة يقتلها داء الغرور، ولا سيما اذا احتقرت غيرها من الامم ولم تقدر مزاياها حق قدرها، ومن المحتمل ان يكون بعض علماء الالمان بثوا في أمتهم هذه العقيدة لاجل ان ينهضوا بها في ميادين المسابقة والمباراة للامم التي سبقتها الى الاستعمار وغيره، ثم اغتروا بما وصلوا اليه من العلم والثروة والاستعداد الحربي فقرب ذلك الى عقول كثير من حكامهم وقوادهم انه يمكن لدولتهم القضاء على قوى الدول الاستعمارية الثلاث (انكلترة وفرنسة وروسية) وجعلهن تحت سيطرة ألمانية، وحينئذ تمنعهن من تجديد الاستعداد للحرب، فتنفرد بسياسة العالم في الشرق والغرب، ولا يبعد ان تزين لكثير منهم فلسفة حب السيادة ان هذا يكون خيرا للبشر، لانه يمنع أسباب الحروب بمنع تنافس التحاسد الذي من شأنه ان يكون بين الاقران من الدول، كما يكون بين الاقران من الافراد، وأن يتخيل هؤلاء الفلاسفة أن العالم لما صار باتصال بعضه ببعض كالامة الواحدة ـ وجب

أن تكون له دولة واحدة ترجع اليها السلطة العليا كما ترجع سلطة الولايات من المملكة الواحدة الى السلطة العليا في عاصمة المملكة، لان التفرق مدعاة العداوة والشقاق المفضي الى التقاتل والتفاني

وقد يرد عليهم فلاسفة سائر الامم بأن مايزعمونه خيال تولد من اقتران حب السلطة، بالغرور بالقوة، وأن حب السلطة غريزي في البشر فلن ترضى أمة بسيادة غيرها عليها مختارة ، ولا سيما الامم التي تمكن في قلوب أهلها عز الحرية والسيادة، فلا يزال المسود يكيد للسائد ، ويتربص به الدوائر ، وقد انقرض في الالزاس واللورين جيل وبجدد جيل ، فكان الجيل الجديد كسلفه يكره الالمان ويحب الفرنسيس ، فالفلسفة الحق ان انتظام البشر لايتم في هذا الزمان الا ببنائه على قاعدة استقلال الشعوب والاجناس، وأما القوة التي فوض اليها الحكم اليوم بين المتنازعين على السيادة في الارض فلا يمكن ان تظل محتكرة للغالب ، فاذا كانت هذه الحرب لاتنتهي بابطال قاعدة (الحق للقوة) وبالرجوع عن فكرة سيادة الاقوياء على الضعفاء ، واكراههم على الخضوع لما يسوسونهم به ويلزمونهم إياه ، وبوضع قواعد مضمونة للمساواة العامة بين جميع الشعوب والاجناس يكون بها الادنى مختارا في اقتباس العلم والحضارة من الاعلى ، — اذا لم تنته هذه الحرب بهذا وتضمنه جميع الدول بقانون تتعاهد على تنفيذه بالقوة والاتفاق على قتال المخالف له ، فلا شك في كونها تكون اشأم حرب على البشر ، لانها لا يمكن ان تفضي الى رضاء المغلوب بسيادة الغالب، بل تفضي الى استمالة المغلوبين لغيرهم من الشعوب المغلوبة على أمرها ، والمكرهة على الخضوع لغيرها ، والاستعداد لحرب مثل هذه أو شر منها ، وان ظن الغالبون انهم قادرون على ان يحولوا دونها .

ونحن نرى ان هذه الفلسفة الاخيره هي الصحيحة ، المؤيده بروح الحق والفضيلة ، فعسى ان يكون لناولسائر الامم الشرقية نصيب منها، اذا أراد الله برحمته ان يكون المنتهى اليها .

مدرسة دار الدعوة والارشاد

قد اضطررنا في السنة المدرسية الماضية (سنة ١٢٩٢ هجرية شمسية) ان نجعل الاجازة الصيفية قبل موعدها بشهر ، بقرار من مجلس ادارة الجماعة ، وسبب ذلك قطع وزارة الاوقاف المصرية ما كانت قررته من الاعانة للمدرسة ، وعدم الرجاء في شيء يذكر من التبرعات بسبب العسرة الحاضرة، حتى ان الشيخ قاسم ابراهيم قطع اشتراكه السنوي في جماعة الدعوة والارشاد قبل الحرب. وقد كنا ننفق على الطلبة بالتقتير في تلك السنة

أما مقدار إعانة الاوقاف فقد كان خمسمائة وخمسين جنيها، وقد كنا موعودين من قبل الديوان بمضاعفته أضعافا ، حتى ان محمد محب باشا الذي عين أول ناظر للاوقاف - بعد تحويله الى نظارة - قال لي أمام بعض الفضلاء في داره قبيل سفره الى الاستانة في رمضان العام الماضي: إنه يمكن ابلاغ الاعانة في هذا العام الى ألف وسبعمائة جنيه . وانما يمكن الزيادة على ذلك فيما بعدها من السنين . قال ذلك بعد أن دقق النظر في نظام المدرسة وميزانيتها و بعد زيارته لها واختباره لحالها بنفسه

ولو طلبت المبلغ الذي كان مقررا في أول العام الماضي عقب تصديق الجمعية التشريعية على ميزانية الاوقاف لقبضته ولكنني فضلت حفظه في خزينة النظارة على حفظه في صندوق المدرسة ليؤخذ بالتدريج عند الحاجة الى لانفاق . ولما طلبت بعضه عند الحاجة الى الصرف — لقرب دخول السنة الدراسية — امتنع وكيل الاوقاف محمد شوقي باشا من الصرف، معللا منعه بوجوب الاقتصاد وقلة الدخل بسبب الحرب. فراجعت رئيس النظار (حسين رشدي باشا) مرارا فوعد بالمساعدة وأحالني على عدلي باشا الذي كان نائبا عن محمد محب باشا في نظارة الاوقاف ووعد بتوصيته. و بعد عدة مراجعات أمر عدلي باشا بصرف ٣٠٠ جنيه أقساطا، وقال لي اذا كثرت الواردات بعد ذلك ندفع لك الباقي. وقبضت حينئذ ستين جنيها من الاعانة

ثم تحولت الاحوال وتغير شكل الحكومة فأعطى اسماعيل صدقي باشا الذي

تولى (وزارة الاوقاف) قليلا وأ كدى (أي منع الباقي) فكان مجموع ما قبضته من الاعانة بيدي ١٣٥ جنيها . وكنت أحلت ادارة أوقاف محمد شريف باشا الكبير على النظارة بأجرة مكان المدرسة بكتاب مني قبلته النظارة وصارت تدفع ما يستحق من الاجرة أقساطا شهرية . ولكن وزارة اسماعيل صدقي باشا منعت فيما منعته اعطاء بقية الاجرة . كانت الاجرة كلها ١٣٠ جنيها دفعت وزارة الاوقاف منها ٩٧ جنيها ونصفا . ورجعت علي ادارة وقف شريف باشا بمبلغ ٣٢ جنيها ونصف جنيه فوفيتها حسابها

فعلم من هذا ان مجموع ما صرف من اعانة الاوقاف للمدرسة في العام الماضي ٢٣٢ جنيها ونصف جنيه وهو دون المبلغ الذي كان أمر بصرفه عدلي باشا موقتا

ولما علمنا ان الوزارة الجديدة قطعت الاعانة كلها البتة، غلبنا حسن الظن ورددنا على من اساءه، وقرعنا جميع الابواب التي هي مظنة الرجاء لاعادته، بحجة ان هذه المدرسة الدينية الخيرية ليس لها دخل ثابت سواه، وانها أحوج الى الاعانة من كل المعاهد العلمية والخيرية التي تساعدها وزارة الاوقاف حتى من الجامعة المصرية ومدارس العروة الوثقى والجمعية الخيرية — فألفينا جميع تلك الابواب موصدة في وجهنا، ولكن باب الله تعالى لا يوصد، فاتكالا عليه عز وجل سنفتح المدرسة في السنة المدرسية القابلة كما فتحناها في السنة الماضية، ولكننا لا ننفق على الطلبة شيئا. ولا نقبل في القسم الداخلي طالبا جديدا الا أن يأتي الله بالفتح لبعض أبواب رزقه، أو أمر من عنده

أما موعد فتح المدرسة في السنة الدراسية القابلة فسيكون ان شاء الله تعالى في أول الخريف الثاني (منزلة العقرب) الموافق منتصف شهر ذي الحجة الحرام خاتمة سنة ١٣٣٣ فعسى ان تكون السنة القابلة سنة خير ويسر، وان جاءت بعد شدة وعسر (ان مع العسر يسرا، ان مع العسر يسرا)

تصحيح بيت من الشعر

في (ص ١٢٠ ج ٢) استفتاء في بيت من الشعر وقع غلط في أول كلمة منه وهي « جدير » وصوابها « مليء » وقد فاتنا ان نصححه في الجزء الثالث

تقريظ المطبوعات الجديدة (*)

كنز الحقائق من فقه خير الخلائق

كتاب في فقه الحديث تأليف العلامة وحيد الزمان الملقب بالنواب وقار نوازجنك بهادر. طبع في العام الماضي طبعا حجريا في مطبعة شوكة الاسلام ببلدة بنكلور بالهند على ورق جيد. وصفحاته ٢٤٢ بقطع المنار ويباع في مكتبة المنار وثمنه عشرة قروش

الكتاب مختصر من كتاب مطول للمؤلف اسمه [نزل الابرار من فقه النبي المختار] وحسبنا من تقريظه مايراه القراء في النموذج الذي اقتبس منه ونشر في هذا الجزء من يسر مذهب اهل الحديث ، على أن فيه مسائل اجتهادية واغلاطا معظمها من الناسخ منها ما يدرك بالبداهة

البيان والتبيين

كتب أبي عثمان الجاحظ كلها مختارة في الفصاحة والبلاغة عند أهل الادب وهذا الكتاب منها أشهر من نار على علم ، فهو مستغن عن تقريظ أهل هذا العصر. وحسبهم ماقاله فيه حكيم العرب، وأمام أهل العلم والادب، عبد الرحمن بن خلدون في الكلام على علم الادب من مقدمته، وهذا نصه :

« سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول فن الادب وأركانه أربعة دواوين ، وهي (أدب الكاتب) لابن قتيبة ، و (كتاب الكامل) للمبرد ، و (كتاب البيان والتبيين) للجاحظ ، و كتاب (النوادر) لأبي علي القالي . وما سوى هذه الاربعة فتبع لها ، وفرع عنها »

وحسبنا من معرفة مكانة الجاحظ في البيان والبلاغة تنويه امامهما الزمخشري به في خطبة الكشاف وخطبة أساس البلاغة — وما كانت الخطب بموضع التنويه بالدهماء ، ولكن قد يذكر فيها أئمة العلماء والحكماء

(*) عهدنا بتقريظ المطبوعات الى شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

طبع كتاب البيان والتبيين بمصر منذ عشرين سنة طبعة رديئة كثيرة الاغلاط ، فاضطر الادباء وطلاب الانشاء الى اقتنائها ، والاستفادة منها على علاتها ، حتى نفدت نسخها ، وغلا ثمنها ، فسخر الله تعالى في العام الماضي محب الدين افندي الخطيب المحرر بجريدة المؤيد وعارف افندي المحايري لإعادة طبعه . فطبعاه طبعا حسنا على ورق حسن، وعني الاول منهما بتصحيحه وضبط اشعاره بالشكل ، وقد تعب في مراجعتها في مظانها من الدواوين المخطوطة والمطبوعة وفي كتب اللغة والادب ، تعبا لايعرف كنهه الا من عني بمثل ذلك،وقد جعل ثمنه عشرة قروش من الورق النباتي و١٥ قرشا من الورق الابيض ويطلب من مكتبة المنار بمصر

الحنين الى الأوطان

نشر في جزء الشهر الماضي من المنار نموذج من هذا الكتاب مصدر بعبارة وجيزة في وصفه والفائدة من مطالعته ، كمطالعة سائر مصنفات مؤلفه ، (الجاحظ) مقرونة بالوعد بتقريظه، وقال صاحب المنار : ان هذا الكتاب يشرح غريزة حب الوطن ، التي هي من أقوى غرائز البشر ، بأفصح العبارات ، المأثورة عن أبلغ الاعراب، والشعراء والكتاب، فهو من هذه الجهة كتاب فلسفة ، كما انه من حيث عبارته كتاب أدب ولغة ، ومن شواهد حب الوطن عن أهل هذا العصر ما اختبرناه من حال مهاجرة السوريين في مصر وأمريكة وغيرهما من الاقطار ، فاننا نراهم على عراقتهم في المهاجرة والاغتراب واثرائهم في بلاد أرقى من بلادهم عمرانا وحرية، لايفتئون يحنون الى أوطانهم على كثرة شكواهم من سوء حالها وذمهم لحكومتها. (قال) وقد سمعت اصحاب المقتطف والمقطم يقولون منذ بضع سنين : إننا لم نشتر شيئا من الأثاث لبيوتنا الا وكان يخطر في بالنا عند شرائه — : اذا أتيح لنا العود الى بلادنا فهل يكون هذا مما ننقله او مما نبيعه ؟

طبع الكتاب بمطبعة المنار طبعا متقنا مضبوطا على نفقة عبد الفتاح افندي قتلان مدير مكتبة المنار ، وقد تولى تصحيح أصله وضبطه ووضع الحواشي والتفسير لغريبه الاستاذ الشيخ طاهر الجزائري الشهير · وثمنه قرش ونصف قرش

كتاب المسح على الجوربين

وكتاب الاستئناس، لتصحيح أنكحة الناس

(من تأليف الشيخ محمد جمال الدين القاسمي رحمه الله تعالى. طبعا معا في مطبعة الترقي بدمشق الشام سنة ١٣٣٢ وصفحاتهما ٨٤ صفحة. ويطلبان من مكتبة المنار بمصر.)

هذان الكتيبان المفيدان من آخر ما كتبه عالم الشام وفقيد الاسلام رحمه الله تعالى. أتمهما في العام الماضي الذي توفي فيه. وموضوع الاول إثبات المسح على الجوربين وكل مايستر الرجلين كالنعال السابغة واللفائف والقساخين. وفيه فوائد كثيرة في الحديث والاصول. وقد أثبت المسألة بالدليل ونقل فيها مايؤثر عن أئمة الفقه،
قال منشئ المنار: وقد سبق لنا الافتاء بهذا في المنار منذ بضع سنين فكان له أحسن تأثير في تيسير الصلاة على كثير من أهل الترف والنعيم، كما أخبرني بذلك بعض خواص المصريين المصلين. ثم أعدت إثبات ذلك بايضاح في تفسير آية الوضوء. وأما هذا الكتاب. فقد استقصى كل ما يتعلق بالمسألة وزاد مازاد من المسائل الاستطرادية كما هو شأن من يفرد مسألة صغيرة بالتصنيف.

وأما الكتاب الآخر فالغرض منه مقاومة ماعليه متأخرو المسلمين من التساهل الذي يشبه الفوضى في أمر الطلاق ورد ماجرى عليه كثير من الفقهاء من الافتاء بالطلاق في وقائع كثيرة لاتقوم الحجة على وقوع الطلاق فيها، ومن مباحثه المفيدة التي عمت البلوى بها مبحث طلاق الغضبان والسكران والهازل والمكره والحالف بالطلاق أو المعلق له يريد الترغيب أو الترهيب دون الطلاق، والطلاق مرة واحدة بلفظ الثلاث. ومبحث وجوب الاشهاد على الطلاق واشتراطه لصحته، ومن قال بذلك من أئمة آل البيت وغيرهم من الصحابة والتابعين

والقاعدة التي بني عليها هذا الكتاب اللطيف هي ان النكاح متى وقع وثبت كان أمرا يقينيا فلا يزول بحكم اجتهادي لانه ظن لايزول به اليقين، ولا بخبر آحادي ولا سيما اذا كان مطعونا فيه كحديث « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد : النكاح والطلاق والرجعة »

﴿ نقابات التعاون الزراعية ﴾

نظامها وتاريخها وثمراتها في مصر وأوربة

(طبع على ورق جيد بمطبعة النهضة الادبية بمصر سنة ١٣٣٢ صفحاته ٢٤٥ بحجم المنار)

هذا كتاب جديد من أفضل ثمرات النابتة الجديدة بمصر، ألفه عبد الرحمن بك الرافعي المحامي، فخدم به هذه البلاد خدمة جليلة هي في أشد الحاجة اليها،

إن ثناءنا على هذا الكتاب تأييد لرأي صاحب المنار الذي بينه مرارا في مجلته وفي الجرائد، وهو ان أحوج ما يحتاج اليه أهل مصر في هذا العصر أمران (أحدهما) حفظ ثروتهم حتى تكون غلة أرضهم وثمرات كسبهم خاصة لهم، (وثانيهما) تعميم التربية الصحيحة مع التعليم على الوجه الذي تتكون به الامة . وانه لايقوم بهذه التربية مع التعليم الا الجمعيات الخيرية .

فهذان الامران هما الركنان اللذان لايرجى لمصر صلاح ولا فلاح الا بهما ، وهذا الكتاب مما يرفع بناء الاول منهما ، ويحسن منا في هذا المقام ان نعطر تقريظ الكتاب بكلمة ثناء على عمر بك لطفي الذي أحسن الله خاتمة عمره بالعناية بأمر النقابات الزراعية علما وعملا فكان قدوة صالحة لهذا المؤلف الذي يعد من تلاميذه ،

للكتاب فاتحة في موضوعه للمؤلف ومقدمة لاحمد بك لطفي المحامي . وفيه ثلاثة أبواب ، عنوان أولها « التعاون في أوربة » وفيه ١٤ فصلا — وعنوان الثاني « التعاون في مصر » وفيه ستة فصول — الاول في نظام الحياة الاقتصادية عند الزراع وعيوبه — الثاني في الدعوة الى التعاون وفيه بيان « الدور الاول » من جهاد عمر بك لطفي . والثالث في « الدور الثاني من جهاد عمر بك لطفي ومنشآت التعاون التي أسسها والنظام الذي اختاره لها » والرابع في أعمال النقابات الزراعية بمصر ، والخامس في قانون الخمسة الافدنة، والسادس في التشريع الجديد للتعاون . وعنوان الباب الثالث « نماذج تعاونيه » وهذه النماذج تعلم قراء الكتاب كيف يؤلفون النقابات الزراعية حسب القانون . وكيف يكتتبون لها . وكيف يكون الشراء والسلف منها — الى غير ذلك من المعاملات

وقد قال المؤلف في فاتحة الكتاب مانصه :

« على أننا بأخذنا بأسباب التعاون نحيي سنة قديمة، فان نظام التعاون وان كان بشكله الحديث نظاما غريبا جديداً، الا أن الفكرة التعاونية في ذاتها أي فكرة تعاون الايدي العاملة على القيام بالعمل المشترك واقتسام ارباحه وثمراته فكرة قديمة عرفها أجدادنا العرب، فقد أثبت الاستاذ لروابوليو في كتابه المطول في الاقتصاد السياسي أن القوافل التي كانت تجوب البلاد العربية ما بين الحجاز والشام بقصد المتاجرة ما هي الاجماعات تعاونية وقتيــة يتعاون أفرادها على الكسب والتجارة

الحساب

كتاب وضعه صديقنا محمد عبد الخالق افندي اسماعيل الطالب في انكلترة تمهيداً لكتاب سيضعه في علم الجبر وقد صدره بمقدمة حث فيها على نشر العلم باللغة العربية [اوسع اللغات] وقد طبعه سنة ١٣٣٢ في مصر بمطبعة البسفور طبعا نظيفا على ورق متوسط نجاءت صفحاته ١٦٨ ويطلب من مكتبة المنار بمصر وثمنه ٢٥ مليما

الكتاب جزيل الفائدة وفيه من الجداول والرسوم والاشكال ما يوضح مسائله، وعبارته جزلة فصيحة فنحث على اقتنائه

(كتاب الفوز بالمراد من تاريخ بغداد)

تأليف الكاتب الاجتماعي الشهير (الأب انستاس الكرملي) صاحب مجلة لغة العرب. طبعه بمطبعة الشاهبندر في بغداد سنة ١٣٢٩ وصفحاته ٧٦ وثمن النسخة منه خمسة قروش صحيحة، ويطلب من مكتبة المنار بمصر

والكتاب مستمد من كتب التاريخ العربية والافرنجية ومن اختبار مؤلفه الشخصي وقد بدأه بتاريخ بغداد من عهد سقوطها على يد هولاكو سنة ٦٥٥ ه الى سنة ١٣٢٩ أي سنة (تأليفه [illegible]ت الايام شيء كثير

(التقري[illegible] ١٩١٤)

هذا ا[illegible] [illegible]وميزانيتها ومحضر [illegible] اوله صورة الكتاب

العالي السلطاني الصادر لهيئة الجمعية المؤرخ في ١٣ ربيع الاول ١٣٣٣ و ٢٩ يناير سنة ١٩١٥ عدد ١١ وهذه جملة منه قال بعد التحيات لهيئة الجمعية ما نصه :

« هذا وقد اقتضت ارادتي ان يكون لقسم الاعانة بالجمعية نصيب من مساعدة خزينتي الخاصة بفضل الله كما انها ستتكفل سنويا بالنفقات التي يحتاجها أنبغ طالب من طلبة مدارس الجمعية لاتمام دروسه بأوربة وان تخصص ثلاث جوائز للثاني والثالث والرابع من التلامذة مكافأة لهم وتشجيعا لاخوانهم ... » الخ

ويؤخذ من هذا التقرير ان الجمعية قد اشترت اطيانا مساحتها ١٦ فدانًا وكسورا و٤ آلاف و٧ مئة و ٤٨ مترا و ٢٧ سنتيما وقد دفعت ثمنا للجميع ٩ آلاف و ٥ مئة و٢٤ جنيها و٢٤٤ مليما ، وان النجاح في امتحان القسم الابتدائي من مدارسها زاد على ٦٧ في المئة . ويسر كل مسلم وكل محب للخير استمرار نجاح الجمعية وخدمتها للفقراء بالتعليم والاعانات

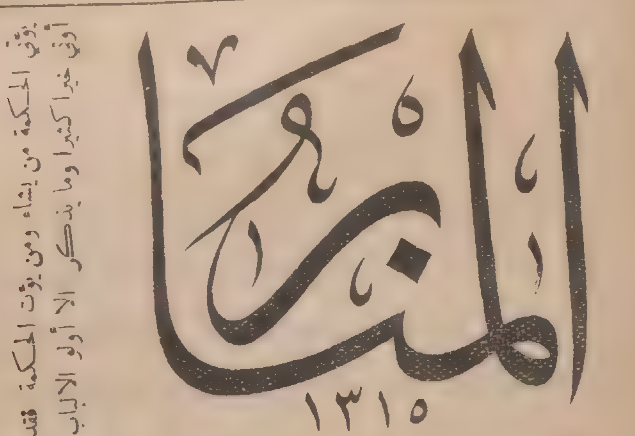
(ذكرى الماضي — أو — سياحة في الجبل)

مقالات وجدانية خيالية نشرها كاتبها محمد افندي صبري الطالب بجامعة باريس وناشر كتاب (شعراء العصر) وقد اعتنى بجمعها وطبعها كتابا مستقلا صالح افندي شكري احد عمال جريدة المؤيد وهي تطلب منه ومن المكاتب الشهيرة

(رواية الفلاح)

قصة تمثيلية ادبية وضعها عبد العزيز بك فريد ناظر مدرسة خليل آغا بمصر ، وحرر عبارتها الاستاذ الشيخ [illegible] المدرسة ، ووضع أزجالها الشيخ احمد القص[illegible] [illegible]البنوي . وهي مفيدة جدا بما تحذر [illegible] [illegible]تر في هذا البلد ، ومثلها في ذلك [illegible] [illegible] ورق جيد بمطبعة الخاصة الخدي[illegible]

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب



يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و« منارا » كمنار الطريق

مصر ٣٠ شعبان ١٣٣٣ — ٢٠ السرطان (ص ١) ١٢٩٣هـ ش ١٣ يوليو ١٩١٥

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

تتمة العلاوة

(أقول) : ثم إنه أورد بعد هذا كثيرا من الاحاديث النبوية في هذا الموضوع وفيها ما هو عام وما هو خاص . منها حديث أبي رافع الذي أرسله المشركون الى النبي (ص) فأسلم وأبى أن يرجع اليهم فقال له النبي (ص) « اني لا أحبس بالعهد ولا أحبس البُرُد ولكن ارجع اليهم فان كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع » فذهب ثم عاد فأسلم. رواه أبو داود. وحديث حذيفة وأبي حِسْل اللذين أخذهما المشركون فلم يطلقوهما الا بعد أن أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه لينصرفانّ الى المدينة ولا يقاتلان مع النبي (ص) وذلك قبيل غزوة بدر. فلما أخبرا النبي (ص) بذلك قال « انصرفا ، نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم » فلم يأذن لهما بالقتال معه . وقد استوفينا الكلام على مسألة الشروط في تفسير

(أوفوا بالعقود) من أول السورة

بيان ما أخطأ فيه مثبتو القياس

ثم ان ابن القيم بين أنواع الخطأ الذي وقع فيه مثبتو القياس والرأي في الاحكام الشرعية وقفى على ذلك بما هو فصل الخطاب عنده في المسألة فقال :

«(فصل) واما أصحاب الرأي والقياس فانهم لما لم يعتنوا بالنصوص ولم يعتقدوها وافية بالاحكام ولا شاملة لها . وغلاتهم على انها لم تف بعشر معشارها[1] فوسعوا طرق الرأي والقياس، وقالوا بقياس الشبه، وعلقوا الاحكام بأوصاف لا يعلم ان الشارع علقها بها ، واستنبطوا عللا لا يعلم ان الشارع شرع الاحكام لاجلها . ثم اضطرهم ذلك الى أن عارضوا بين كثير من النصوص والقياس، ثم اضطربوا فتارة يقدمون القياس وتارة يفرقون بين النص المشهور وغير المشهور ، واضطرهم ذلك أيضاً الى ان اعتقدوا في كثير من الاحكام انها شرعت على خلاف القياس . فكان خطاؤهم من خمسة أوجه :

«احدها ظنهم قصور النصوص عن بيان جميع الحوادث

«الثاني معارضة كثير من النصوص بالرأي والقياس

«الثالث اعتقادهم في كثير من احكام الشريعة انها على خلاف الميزان والقياس. والميزان هو العدل فظنوا ان العدل خلاف ما جاءت به هذه الاحكام

«الرابع اعتبارهم عللا وأوصافا لم يعلم اعتبار الشارع لها، وإلغاؤهم عللا وأوصافا اعتبرها الشارع كما تقدم بيانه

«الخامس تناقضهم في نفس القياس كما تقدم أيضا. ونحن نعقد ههنا ثلاثة فصول الفصل الاول في بيان شمول النصوص للاحكام والاكتفاء بها عن الرأي و القياس

« الفصل الثاني في سقوط الرأي والاجتهاد والقياس و بطلانها مع وجود النص

« الفصل الثالث في بيان (أن) احكام الشرع كلها على وفق القياس الصحيح وليس فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حكم يخالف الميزان والقياس الصحيح. وهذه الفصول الثلاثة من أهم فصول الكتاب، وبها يتبين للعالم المنصف

(١) نقل هذا القول عن إمام الحرمين وعد من أكبر زلاته.

مقدار الشريعة وجلالتها وهنيهتها[١] وسعتها وفضلها وشرفها على جميع الشرائع، وان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما هو عام الرسالة الى كل مكلف فرسالته عامة في كل شيء من الدين أصوله وفروعه ودقيقه وجليله. فكما لا يخرج أحد عن رسالته فكذلك لا يخرج حكم تحتاج اليه الامة عنها وعن بيانه له، ونحن نعلم انا لا نوفي هذه الفصول حقها ولا نقارب وانها أجل من علومنا وفوق ادراكنا، ولكن ننبه ادنى تنبيه ونشير أدنى اشارة الى ما نفتتح أبوابها[٢] وننهج طرقها والله المستعان وعليه التكلان» اه

أقول : اننا لم نجد في الكتاب الا فصلين من هذه الثلاثة التي وعد بها ، الاول في شمول النصوص وإغنائها عن القياس ، والثاني في بيان ان أحكام الشرع كلها على وفق القياس الصحيح والميزان المستقيم والموافقة لعقول البشر ومصالحهم. ولا ندري أسقط الفصل الذي بين فيه سقوط الرأي والاجتهاد والقياس مع وجود النص؟ أم اغفل كتابته بعد الوعد به نسيانا للوعد واكتفاء باتفاق العلماء على المسألة، وكون من يعتد بدينه وعلمه من أهل الرأي والقياس كربيعة وأبي حنيفة والشافعي لم يثبتوا حكما في مسألة فيها نص بالقياس الا اذا كانوا غير عالمين بالنص أو غير ثابت عندهم ، أو لم يفهموا الحكم منه .

شمول النصوص للاحكام وتفاوت الافهام فيها

وقد صدّر الفصل الاول بمقدمة نفيسة في نوعي الدلالة وتفاوت الافهام في النصوص فقال :

«(الفصل الاول) في شمول النصوص واغنائها عن القياس، وهذا يتوقف على بيان مقدمة وهي: ان دلالة النصوص نوعان حقيقية واضافية. فالحقيقية تابعة لقصد المتكلم وارادته، وهذه الدلالة لا تختلف ؛ والاضافية تابعة لفهم السامع وادراكه وجودة فكره وقريحته وصفاء ذهنه ومعرفته الالفاظ ومراتبها، وهذه الدلالة تختلف اختلافا متباينا بحسب تباين السامعين في ذلك؛ وقد كان أبو هريرة وعبد الله بن

(١) لعل الاصل هيمنتها . فالهنيهة والهنية الشيء اليسير ولا معنى له هنا . والهيمنة حفظ الشيء والرقابة عليه والقيام به (راجع تفسير « مهيمنا » في (ص ٤١٠ ج ٦ تفسير) (٢) لعل الاصل : نفتتح به أبوابها

عمر أحفظ الصحابة للحديث وأكثرهم رواية له. وكان الصديق وعمر وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت أفقه منهما، بل عبد الله بن عباس أيضا أفقه منهما ومن عبد الله بن عمرو.

« وقد أنكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على عمر فهمه اتيان البيت الحرام عام الحديبية من اطلاق قوله « انك ستأتيه وتطوف به » فانه لا دلالة في هذا اللفظ على تعيين العام الذي يأتونه فيه

« وأنكر على عدي بن حاتم في فهمه من الخيط الابيض والخيط الاسود نفس العقالين

« وأنكر على من فهم من قوله « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردلة [1] من كبر » شمول لفظه لحسن الثوب وحسن النعل ، وأخبرهم انه[2] بطر الحق وغمط الناس

« وانكر على من فهم من قوله « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » انه كراهة الموت واخبرهم ان هذا للكافر اذا احتضر و بشر بالعذاب فانه حينئذ يكره لقاء الله والله يكره لقاءه ، وان المؤمن اذا احتضر و بشر بكرامة الله احب لقاء الله واحب الله لقاءه

« وانكر على عائشة اذ فهمت من قوله تعالى (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) معارضته لقوله صلى الله عليه وآله وسلم « من نوقش الحساب عُذِّب » و بين لها ان الحساب اليسير هو العرض، أي حساب العرض لا حساب المناقشة

« وأنكر على من فهم من قوله تعالى (من يعمل سوءا يجز به) ان هذا الجزاء انما هو في الآخرة وانه لا يسلم أحد من عمل السوء، وبين ان هذا الجزاء قد يكون في الدنيا بالهم والحزن والمرض والنصب وغير ذلك من مصائبها . وليس في اللفظ تقييد الجزاء بيوم القيامة

---

(١) كذا وفي نسخة من الكتاب ذرة ورواية مسلم في صحيحه « مثقال حبة » وفي رواية غيره « حبة خردل » ولا أذكر من رواه بلفظ مثقال خرلة أو ذرة

(٢) أي الكبر

« وانكر على من فهم من قوله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) انه ظلم النفس بالمعاصي وبين انه الشرك، وذكر قول لقمان لابنه (ان الشرك لظلم عظيم) مع ان سياق اللفظ عند اعطائه حقه من التأمل يبين ذلك، فان الله سبحانه لم يقل ولم يظلموا أنفسهم بل قال (ولم يلبسوا ايمانهم بظلم) ولبس الشيء بالشيء تغطيته به واحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي الايمان ويحيط به ويلبسه الا الكفر. ومن هذا قوله تعالى (بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فان الخطيئة لا تحيط بالمؤمن أبدًا فان ايمانه يمنعه من احاطة الخطيئة به، ومع ان سياق قوله (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون) ثم حكم الله أعدل حكم وأصدقه ان من آمن ولم يلبس ايمانه بظلم فهو أحق بالامن والهدى، فدل على ان الظلم الشرك

« وسأله عمر بن الخطاب عن الكلالة وراجعه فيها مرارا فقال « يكفيك آية الصيف » واعترف عمر بأنه خفي عليه فهمها، وفهمها الصديق

« وقد نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن لحوم الحمر الاهلية ففهم بعض الصحابة من نهيه انه لكونها لم تخمس، وفهم بعضهم ان النهي لكونها كانت حمولة القوم وظهرهم ، وفهم بعضهم انه لكونها كانت حول القرية

« وفهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة وكبار الصحابة ماقصده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالنهي وصرح بعلته من كونها رجسا

« وفهمت المرأة من قوله تعالى (وآتيتم احداهن قنطارا) جواز المغالاة في الصداق فذكرته لعمر فاعترف به [1]

« وفهم ابن عباس من قوله تعالى (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) مع قوله (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) ان المرأة قد تلد لستة أشهر ، ولم يفهمه عثمان فهم برجم امرأة ولدت [2] حتى ذكره به ابن عباس فأقرّ به

(١) أي اعترف به ورجع عما كان هم به من إلزام الناس ان لا يزيدوا على مهور بنات النبي (ص) غفلة عن الآية (٢) أي ولدت بعد ستة أشهر من زواجها

« ولم يفهم عمر من قوله « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها » قتالَ مانعي الزكاة حتى بين له الصديق (ذلك) فأقر به . وفهم قدامة بن مظعون من قوله تعالى (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا) رفع الجناح عن الخمر حتى بين له عمر انه لايتناول الخمر ، ولو تأمل سياق الآية لفهم المراد منها، فانه انما رفع الجناح عنهم فيما طعموه متقين له فيه ، وذلك انما يكون باجتناب ماحرمه من المطاعم ، فالآية لاتتناول المحرم بوجه ما

« وقد فهم من فهم من قوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) انغماس الرجل في العدو حتى بين له أبو أيوب الانصاري ان هذا ليس من الإلقاء بيده الى التهلكة بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضاة الله وان الإلقاء بيده الى التهلكة هو ترك الجهاد والاقبال على الدنيا وعمارتها

« وقال الصديق رضي الله عنه: ايها الناس انكم تقرءون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها (ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول «ان الناس اذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك ان يعمهم الله بالعقاب من عنده» فأخبرهم انهم يضعونها على غير مواضعها في فهمهم منها خلاف ما اريد بها

« واشكل على ابن عباس أمر الفرقة الساكتة التي لم ترتكب ما نهيت عنه من اليهود هل عذبوا أو نجوا ، حتى بين له مولاه عكرمة دخولهم في الناجين دون المعذبين، وهذا هو الحق، لانه سبحانه قال عن الساكتين (واذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) فأخبر أنهم أنكروا فعلهم وغضبوا عليهم، وان لم يواجهوهم بالنهي فقد واجههم به من أدى الواجب عنهم ، فان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، فلما قام به أولئك سقط عن الباقين فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم ، وأيضا فانه سبحانه انما عذب الذين نسوا ما ذكروا به وعتوا عما نهوا عنه، وهذا لا يتناول الساكتين قطعا، فلما بين عكرمة لابن عباس أنهم لم يدخلوا في الظالمين المعذبين كساه برده وفرح به

«وقد قال عمر بن الخطاب للصحابة ما تقولون في (اذا جاء نصر الله والفتح)— السورة؟ قالوا أمر الله نبيه اذا فتح عليه ان يستغفره، فقال لابن عباس ما تقول أنت؟ قال: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اعلمه اياه. فقال ما أعلم منها غير ما تعلم. وهذا من أدق الفهم وألطفه ولا يدركه كل أحد، فانه سبحانه لم يعلق الاستغفار بعلمه[1] بل علقه بما يحدثه هو سبحانه من نعمة فتحه على رسوله ودخول الناس في دينه، وهذا ليس بسبب للاستغفار، فعلم ان سبب الاستغفار غيره، وهو حضور الاجل الذي من تمام نعمة الله على عبده توفيقه للتوبة النصوح والاستغفار بين يديه[2] ليلقى ربه طاهرا مطهراً من كل ذنب، فيقدم عليه مسرورا راضيا مرضيا عنه. ويدل عليه (أيضا) فسبح بحمد ربك واستغفره وهو صلى الله عليه وآله وسلم كان يسبح بحمده دائما، فعلم ان المأمور به من ذلك التسبيح بعد الفتح ودخول الناس في الدين أمر أكثر من ذلك المتقدم. وذلك مقدمة بين يدي انتقاله الى الرفيق الاعلى، وانه قد بقيت عليه من عبودية التسبيح والاستغفار التي ترقيه الى ذلك المقام بقية فأمره بتوفيتها، ويدل عليه أيضا انه سبحانه شرع التوبة والاستغفار في خواتيم الاعمال فشرعها في خاتمة الحج وقيام الليل، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم اذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثا. وشرع للمتوضئ بعد كمال وضوئه ان يقول: اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين. فعلم ان التوبة مشروعة عقيب الاعمال الصالحة، فأمر رسوله بالاستغفار عقيب توفيته ما عليه من تبليغ الرسالة والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجا، فكان التبليغ عبادة قد أكملها وأداها فشرع له الاستغفار عقيبها

« والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص وان منهم من يفهم من الآية حكما أو حكمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه واشارته وتنبيهه واعتباره، وأخص من هذا وألطف ضمه الى نص آخر متعلق به، فيفهم من اقترانه به قدرا

(١) كذا في الاصل والظاهر انه بعملي، أي عمل الرسول (ص) (٢) الضمير في يديه عائد الى الاصل وهو الذي يربط الصلة بالموصول

زائدا على ذلك اللفظ بمفرده. وهذا باب عجيب من فهم القرآن لا يتنبه له الا النادر من أهل العلم، فان الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به، وهذا كما فهم ابن عباس من قوله (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) مع قوله (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) ان المرأة قد تلد لستة أشهر، وكما فهم الصديق من آية الفرائض في أول السورة وآخرها ان الكلالة من لا ولد له ولا والد، وأسقط الاخوة بالجد، وقد أرشد النبي صلى الله عليه وآله وسلم عمر الى هذا الفهم حيث سأله عن الكلالة وراجعه السؤال فيها مرارا فقال: « يكفيك آية الصيف » وانما أشكل على عمر قوله: (قل الله يفتيكم في الكلالة ان امرؤ هلك ليس له ولد) الآية فدله النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ما يبين له المراد منها، وهي الآية الاولى التي نزلت في الصيف فانه ورث فيها ولد الام في الكلالة السدس ولا ريب ان الكلالة فيها من لا ولد له ولا والد وان علا »

أقول: ثم انه أورد بعد هذه المقدمة عدة مسائل مما اختلف فيه السلف ومن بعدهم بينتها النصوص، وهي ست مسائل في أحكام المواريث. وقد وضح فيها إغناء النص عن القياس أتم الايضاح.

مثال النصوص الكلية المغنية عن القياس

ثم زاد على تلك المسائل عدة نصوص كلية يغني كل منها عن كثير من الاقيسة وذلك قوله أدام الله النفع بعلمه:

« ومن ذلك الاكتفاء بقوله « كل مسكر خمر » عن اثبات التحريم بالقياس في الاسم أو في الحكم كما فعله من لم يحسن الاستدلال بالنص

« ومن ذلك الاكتفاء بقوله (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) عن اثبات قطع النباش بالقياس اسما أو حكما، اذ السارق يعم في لغة العرب وعرف الشارع سارق ثياب الاموات والاحياء

« ومن ذلك الاكتفاء بقوله (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) في تناوله لكل يمين منعقدة يحلف بها المسلمون من غير تخصيص الا بنص واجماع، وقد بين ذلك سبحانه في قوله (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم

بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين) فهذا صريح في ان كل يمين منعقدة فهذا كفارتها، وقد أدخلت الصحابة في هذا النص الحلف بالتزام الواجبات والحلف بأحب القربات المالية الى الله وهو العتق كما ثبت ذلك عن ستة منهم ، ولا مخالف لهم من نفسهم ، وادخلت فيه الحلف بالبغيض الى الله وهو الطلاق كما ثبت ذلك عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة ولا مخالف له منهم. فالواجب تحكيم هذا النص العام والعمل بعمومه حتى يثبت اجماع الامة اجماعا متيقنا على خلافه فالامة لا تجمع على خطإ البتة

« ومن ذلك الاكتفاء بقوله صلى الله عليه وآله وسلم « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ » في ابطال كل عقد نهى الله ورسوله عنه وحرمه وانه لغو لا يعتد به، نكاحا كان أو طلاقا أو غيرهما، الا ان تجمع الامة اجماعا معلوما على ان بعض ما نهى الله ورسوله عنه وحرمه من العقود صحيح لازم معتد به غير مردود، فهي لا تجمع على خطإ و بالله التوفيق

« ومن ذلك الاكتفاء بقوله تعالى (وقد فصل لكم ما حرم عليكم) مع قوله صلى الله عليه وآله وسلم « وما سكت عنه فهو مما عفا عنه » فكل ما لم يبين الله ولا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم تحريمه من المطاعم والمشارب والملابس والعقود والشروط فلا يجوز تحريمها، فان الله سبحانه قد فصل لنا ماحرم علينا، فما كان من هذه الاشياء حراما فلا بد ان يكون تحريمه مفصلا، وكما انه لا يجوز اباحة ما حرمه الله، فكذلك لا يجوز تحريم ما عفا عنه ولم يحرمه و بالله التوفيق »

لا شيء في الشرع يخالف القياس الصحيح

ثم شرع ابن القيم في بيان كون جميع أحكام الشريعة موافقة للقياس الصحيح الموافق للعدل والعقل فقال:

﴿ الفصل الثاني ﴾ في بيان انه ليس في الشريعة شيء على خلاف القياس، وان مايظن مخالفته للقياس فأحد الامرين لازم فيه ولابد — اما ان يكون القياس فاسدا، أو يكون ذلك الحكم لم يثبت بالنص كونه من الشرع . وسألت شيخنا قدس الله

روحه عما يقع في كلام كثير من الفقهاء من قولهم هـذا خـلاف القياس لما ثبت بالنص أو قول الصحابة أو بعضهم وربما كان مجمعا عليه كقولهم طهارة الماء اذا وقعت فيه نجاسة خلاف القياس ، وتطهير النجاسة على خلاف القياس، والوضوء من لحوم الابل والفطر بالحجامة والسلم والاجارة والحوالة والكتابة والمضاربة والمزارعة والمساقاة والقرض وصحة صوم الآكل الناسي والمضي في الحج الفاسد - كل ذلك على خلاف القياس؛ فهل ذلك صواب أم لا؟ فقال: ليس في الشريعة ما يخالف القياس . وأنا أذكر ما حصلته من جوابه بخطه ولفظه وما فتح الله سبحانه لي بيمن ارشاده وبركة تعليمه وحسن بيانه وتفهيمه

«ان أصل هذا ان تعلم ان لفظ القياس لفظ مجمل يدخل فيه القياس الصحيح والفاسد . والصحيح هو الذي وردت به الشريعة ، وهو الجمع بين المتماثلين والفرق بين المختلفين . فالاول قياس الطرد والثاني قياس العكس ، وهو من العدل الذي بعث الله به نبيه صلى الله عليه وآله وسلم . فالقياس الصحيح مثل ان تكون العلة التي علق بها الحكم في الاصل موجودة في الفرع من غير معارض في الفروع يمنع حكمها ، ومثل هذا القياس لا تأتي الشريعة بخلافه قط ، وكذلك القياس بإلغاء الفارق وهو أن لا يكون بين الصورتين فرق مؤثر في الشرع، فمثل هذا القياس أيضا لا تأتي الشريعة بخلافه . وحيث جاءت الشريعة باختصاص بعض الاحكام بحكم يفـارق به نظائره فلا بد ان يختص ذلك النوع بوصـف يوجب اختصاصه بالحـكم ويمنع مساواته بغيره ، ولـكن الوصـف الذي اختص به ذلك النوع قد يظهر لبعض الناس، وقد لا يظهر وليس من شرط القياس الصحيح ان يعلم صحته كل احد . فمن رأى شيئا من الشريعـة مخالفا للقياس فانما هو مخالف للقياس الذي انعقد في نفسه . ليس مخالفا للقياس الصحيح الثابت في نفس الامر. وحيث علمنا أن النص بخلاف قياس علمنا قطعا انه قياس فاسد ، بمعنى ان صورة النص امتازت عن تلك الصور التي يظن انها مثلها ، بوصف أوجب تخصيص الشارع لها بذلك الحـكم . فليس في الشريعة ما يخالف قياسا صحيحا ، ولكن يخالف القياس الفاسد وان كان بعض الناس لا يعلم فساده ، ونحن نبين ذلك فيما ذكر في السؤال» اه المراد منه

(أقول) ثم انه بعد هذا بين خطأ من قال ان تلك المسائل جاءت على خلاف القياس بيانا كافيا شافيا في عدة فصول ظهر به بطلان كثير من كلام فقهاء القياس وأصولهم وقواعدهم ، وتضمن ذلك فوائد نفيسة — منها انعقاد العقود بأي لفظ عرف به المتعاقدان مقصودهما ، وان الشارع لم يحدّ لألفاظ العقود حدا لا النكاح ولا غيره — وان الكناية مع القرينة كالصريح ، ومنها بيان أنواع المعاملات المالية وبطلان كثير من الشروط التي اشترطها فقهاء القياس فيها ، ومنه يعلم يسر الشريعة وسعتها وموافقتها للعدل والعقل

ثم أورد بعد هذا ما استشكله نفاة الحكمة والتعليل والقياس من تفريق الشريعة بين المتماثلين وجمعها بين المختلفين في عدة مسائل كثيرا ما يذكرونها، كفرض الغسل من المنيّ الطاهر دون البول النجس وما في حكمه ، وكذا إبطال الصيام بالاستمناء ، ونضح الثوب من بول الغلام وغسله من بول الجارية ، وقصر الصلاة الرباعية دون غيرها ، وايجاب اعادة الصيام على الحائض دون الصلاة ، وتحريم النظر الى الحرة ولو عجوزا شوهاء دون الامة ولو شابة حسناء ، وقطع يد سارق ربع دينار دون مغتصب ألف دينار مع جعل دية اليد خمس مئة دينار — الى غير ذلك من المسائل الكثيرة في العبادات والمعاملات المالية والزوجية وفي العقوبات ، ولعله استوفى كل ما بلغه من المسائل التي زعم بعض الناس أنها على خلاف القياس والعقل.

ثم أجاب عن ذلك كله بالاسهاب ، الذي لا يكاد يوجد مثله في غير هذا الكتاب. وفي جوابه أو أجوبته هذه من حكم الشريعة وأسرارها و بيان موافقتها للعقل ومصالح البشر — ومن خطإ غلاة القياسيين ، ما لا يستغني عنه أحد من طلاب علم الشرع والتفقه في الدين

نذكر من تلك المسائل الكثيرة مسألة واحدة على سبيل النموذج ، وهي الجواب عن قول منكري القياس ان الشارع حرم بيع مدّ حنطة بمد وحفنة وجوز بيعه بقفيز من شعير (١) فهذا تفريق بين المتماثلين مخالف للقياس والعقل عندهم . وقد

(١) القفيز مكيال يساوي أربع ويبات والويبة مكيال يسع ٢٢ أو ٢٤ مدا نبويا

أطال في ردّ هذا بما بين به حكمة تحريم الربا في النقدين والبر والشعير والتمر والملح التي ورد بها الحديث ، فنلخص ذلك بمجمل وجيزة :

(١) قال « الربا نوعان جَلي وخفي . فالجلي حرم لما فيه من الضرر العظيم ، والخفي حرم لأنه ذريعة الى الجلي ، فتحريم الاول قصدا ، وتحريم الثاني وسيلة .

« فأما الجلي فربا النسيئة ، وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية ، مثل ان يؤخر دينه ويزيده في المال، وكلما أخره زاد في المال حتى تصير المئة عنده آلافا مؤلفة ، وفي الغالب لا يفعل ذلك الا معدم محتاج ، فاذا رأى المستحق يؤخر مطالبته ويصبر عليه بزيادة يبذلها له تكلف بذلها ، ليفتدي من أسر المطالبة والحبس ، ويدافع من وقت الى وقت، فيشتد ضرره ، وتعظم مصيبته ، ويعلوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده » الخ

(أقول) وهذا الربا الجاهلي هو الذي نزل فيه التشديد والوعيد . وقال الامام احمد انه هو الربا الذي لاشك فيه. كما نقله المصنف عنه في هذا السياق وغيره عنه وعن غيره من السلف ، وهو الذي روى فيه ابن عباس وأسامة بن زيد عن النبي (ص) انه قال « لاربا الا في النسيئة » أو « انما الربا في النسيئة » كما رواه الشيخان في الصحيحين ، وقد روي ان ابن عباس وابن عمر لم يكونا يحرمان ربا الفضل ، وقيل رجعا عن ذلك ، وجزم الحافظ في الفتح برجوع الثاني والاختلاف في رجوع الاول . ويحتمل ان يكون مرادهما بالربا ما نزل فيه وعيد القرآن كما تقدم في تفسير آياته في سورتي البقرة وآل عمران . وذهب ابن القيم في هذا السياق الى ما اعتمده الجمهور من ان المراد به حصر الكمال اي ان الربا التام الكامل لا يكون الا في النسيئة . (قال) فان ربا الفضل انما سمي ربا تجوزا من باب اطلاق اسم المقصد على الوسيلة ، وهو نحو من اطلاق اسم المسبب على السبب . ويدل على ذلك حديث أبي سعيد الخدري الآتي

وأقول هو من قبيل اطلاق اسم الزنا على النظر الى المرأة الاجنبية بشهوة . وانما حرم هذا النظر والخلوة بالاجنبية لسد الذريعة كربا الفضل

(قال) واما ربا الفضل فتحريمه من باب سد الذرائع كما صرح به في حديث

أبي سعيد الخدري (رض) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين فاني أخاف عليكم الرماء » والرماء هو الربا. فمنعهم من ربا الفضل لما يخافه عليهم من ربا النسيئة . الى آخر ما قاله في ايضاح ذلك وهو واضح

(٢) بين ان الحديث نص على تحريم الربا في ستة أعيان وهي الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح — ثم قال: فاتفق الناس على تحريم التفاضل فيها مع اتحاد الجنس — أي كبيع الذهب بالذهب والقمح بالقمح ، بخلاف بيع الذهب بالفضة والقمح بالشعير مثلا فانهم جوزوه — وتنازعوا فيما عداها ، فطائفة قصرت التحريم عليها ، واقدم من يروى هذا عنه قتادة ، وهو مذهب أهل الظاهر ، واختيار ابن عقيل (هو من أئمة الحنابلة) في آخر مصنفاته مع قوله بالقياس ، قال : لان علل القياسيين في مسألة الربا ضعيفة ، واذا لم تظهر فيه علة امتنع القياس

(٣) بين ان أهل القياس اختلفوا في علة تحريم الربا في تلك الاعيان الستة التي ورد بها الحديث . فأما البر والشعير والتمر والملح فذهب بعضهم كأبي حنيفة وظاهر الرواية عن أحمد ان علته كونه مكيلا وموزونا فيجري الربا في كل مكيل وموزون. وذهب بعض آخر الى ان علته كونه طعاما، وهو مذهب سعيد بن المسيب والشافعي ورواية عن احمد فيجري في كل مايطعم . وذهب غيرهم الى ان علة ذلك كونها قوت الناس ، وعبارة ابن القيم : وطائفة خصته بالقوت وما يصلحه ، وهذا قول مالك وهو أرجح هذه الاقوال كما ستراه . أقول واعتبر بعض المالكية في القوت ما يدخر . وأما الذهب والفضة فالعلة فيهما عند أبي حنيفة واحمد في احدى الروايتين عنه الوزن ، فيجري الربا على هذا في كل موزون وكل مكيل من المعادن كغيرها. وهذا أوسع الاقوال وأشدها في الربا . والجمهور على ان العلة فيهما الثمنية — أي كونهما معيار الأثمان في المعاملات كلها . قال ابن القيم : وهذا قول الشافعي ومالك واحمد في الرواية الاخرى . وهذا هو الصحيح بل الصواب . ثم أورد الادلة على ذلك وأولها الاجماع على إسلامهما في الموزونات من النحاس والحديد وغيرهما ، فلو كان النحاس والحديد ربويين لم يجز بيعهما الى أجل بدراهم نقداً، فان مايجري فيه الربا اذا اختلف جنسه جاز التفاضل فيه دون النساء ، والعلة اذا انتقضت من

دون فرق مؤثر دل على بطلانها الخ ماقاله

(٤) بنى ابن القيم بيان حكمة تحريم الربا على الراجح المختار من تعليل حصره في الاجناس الستة ، ولا تظهر حكمة ذلك على قول من قال ان الربا يجري في كل ما يكال و يوزن ، بل هذا التضييق على العباد لا يعقل له حكمة ، ولا هو عبادة بالنص ، وقد بينا حكمة تحريم الربا في تفسير آياته من سورتي البقرة وآل عمران فيراجع هناك [1] وفي اعلام الموقعين

(٥) بين أيضا أن ماحرم لذاته لايباح شرعا الا للضرورة ان كان مما يضطر اليه، وما حرم لسد الذريعة يباح للحاجة والمصلحة . و بنى على ذلك جواز بيع الحلية من الذهب والفضة بنقود منهما تزيد على وزنها في مقابلة مافيها من الصنعة ،واستدل على هذا الجواز بأدلة منقولة ومعقولة أيضا . واستشهد على جواز ربا الفضل للمصلحة الراجحة بإباحة النبي (ص) بيع العرايا [2]، وذكر من نظائره إباحة نظر الخاطب والطبيب والشاهد الى المرأة الاجنبية - حتى ان الطبيب ينظر كل عضو تتوقف معالجته على النظر اليه ، وكذا لمسه ، وإباحة لبس الحرير لمنع الحكة أو القمل . والامثلة والشواهد كثيرة

والغرض مما لخصناه هنا بيان فضيلة المذهب الوسط بين مذهبي نفي القياس البتة والتوسع فيه باستنباط العلل البعيدة . فمقتضى مذهب ابن حزم انه اذا وجد أهل قطر لاقوت لهم الا الرز ولا نقد لهم الا من النحاس فانه يباح لهم الربا في نقدهم وقوتهم . وهذا ينافي حكمة الشارع في تحريم ذلك وهو غلو في الاباحة . و يقابله الغلو في الحظر وهو مذهب القائلين بجريان الربا في كل مكيل وموزون ، والمذهب الوسط ان الاجناس الستة المذكورة في الحديث كانت ولا تزال معيار

(١) (ص ١٠٦ من الجزء الثالث و ص ١٢٥ من الجزء الرابع من التفسير)

(٢) العرايا جمع عرية كقضايا جمع قضية . وهي النخل تعطى لمن يأكل ثمرها ولا يملك رقبتها . والمراد ببيعها بيع ما عليها من الرطب بما يخرص و يقدر به من التمر ، لشدة حاجتهم الى ذلك اذ كان يكون للرجل عرية فى حائط نخل فيكره أصحاب الحائط دخوله عليهم لأخذ رطب عريته فيشترونه منه بالتمر

الأثمان وأصول الاقوات لاكثر البشر فكان ربا النسيئة فيها — وهو الذي يتضاعف اضعافا كثيرة — مضرا بهم ضررا بليغا ، فكان من الرحمة والمصلحة تحريمه أشد التحريم وجعله من الكبائر، وتحريم ما كان ذريعة له تحريم الصغائر. فاذا وجدت هذه العلة في نقد آخر غير الذهب والفضة ، وقوت آخر غير البر والشعير والتمر والملح ، صح قياسهما على الاجناس الستة لحلولها محلها ، وانطباق حكمة التشريع على ذلك

(فان قيل) ان المعتدلين في القياس من أهل الاثر لا يعتدون الا بالعلة الثابتة عن الشارع بالنص كقوله تعالى في تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير (٦ : ١٤٥ فانه رجس) أي خبيث مستقذر فهو داخل في عموم (ويحرم عليهم الخبائث) ولا نص على علة الربا (قلنا) انهم يريدون بالنص هنا ما ثبت بالمنطوق أو المفهوم أو القرينة الواضحة ، كفحوى الخطاب ولحنه وما يقوم مقامه ، فمنه ما يكون معلوما من مقاصد الشرع بالضرورة أو البداهة ، أو بضرب من ضروب الدلائل اللفظية كترتيب الحكم على المشتق كالزاني والسارق ، والاجناس الستة التي ورد الحديث بجريان الربا فيها من هذا القبيل ، فان تخصيصها بالذكر لابد ان يكون لمعنى فيها اقتضاه والا كان لغوا أو عبثا يتنزه عنه العقلاء ، فكيف يصدر عن الانبياء ؟ وليس فيها معنى تمتاز به على غيرها من المعادن والاطعمة الا كونها نقود الناس التي هي معيار معاملاتهم ومبادلاتهم ، وأغذيتهم الرئيسية وأصول أقواتهم ، وأما كونها توزن أو تكال فهو من صفاتها العامة ، ككونها تنقل وتحمل وتنظر وتلمس وتباع وتشترى ، ولو كانت هذه الصفات مقصودة للنبي (ص) لما عبر عن الكثير الذي لا يحصر ببعض أفراده من غير بيان لعلته ، بل كان البيان الصحيح يتوقف على مايفهم به المراد من التعبير ، كان يقول : كل مايكال أو يوزن فحكمه كذا . وما قررناه واضح جدا وان خفي على بعض أئمة الفقهاء فقد رأيت أن أكابر علماء الصحابة الذين كانوا أوسع علما وفهما للنصوص من أولئك الفقهاء بشهادة علماء الامة كلهم قد خفي على بعضهم ماهو مثل هذه المسألة في الوضوح أو أشد . والبشر عرضة للغفلة والذهول ، وان من أنهض الحجج على بطلان التزام تقليد فرد معين من العلماء

ما ظهر كالشمس من خطإ أكابر المجتهدين في بعض الاحكام ، إما بمخالفة النص الصريح ، وإما بتنكب القياس الصحيح

ولم أر مثلاً لجعل الكيل والوزن علة للربا أظهر من جعل «الدخول في الجوف» علة لتحريم الاكل والشرب على الصائم — في كون كل من العلتين لا يدل عليهما الشرع ولا اللغة ولا العقل المدرك للحكم والمصالح ، ولذلك قاسوا على الاكل والشرب إدخال المسبار في جرح البطن أو الرأس . حتى قال بعضهم : اذا خرجت مقعدته عند الغائط فأدخلها بيده — أي بعد الاستنجاء — فانه يفطر !

وبأمثال هذه الاقيسة زادت أحكام العبادات وأنواع المحرمات على ما كان معروفا في زمن اكمال الدين أضعافا كثيرة ، ولم يبق لنا شيء ينطبق عليه ما أمتن به علينا الشارع من سكوته عن أشياء عفا عنها رحمة بنا من غير نسيان . تحقيقا لقوله تعالى إنه يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر ، وإنه ما جعل علينا في الدين من حرج ، وإنه لا يريد أن يعنتنا

ماحققه الشوكاني في مسألة القياس

بين الامام محمد بن علي الشوكاني في كتابه (ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الاصول) الخلاف في القياس الفقهي هل يجوز التعبد به عقلا أم لا ؟ واختلاف القائلين بالجواز هل وقع بالفعل أم لا ؟ واختلاف القائلين بالوقوع في شروطه ودلائله هل هي سمعية أو عقلية ؟ وانقسام القائلين بعدم الوقوع الى فريقين : فريق يقول لم يوجد في الشرع مايدل عليه فوجب الامتناع من العمل به ، وفريق يستدل على نفيه بالكتاب والسنة واجماع الصحابة واجماع العترة وبالعقل ، ثم قال

« وقد استدل المانعون من القياس بأدلة عقلية ونقلية ولا حاجة بهم الى الاستدلال فالقيام في مقام المنع يكفيهم ، وايراد الدليل على القائلين به . وقد جاؤا بأدلة عقلية لاتقوم بها الحجة فلا نطول بذكرها ، وجاؤا بأدلة نقلية فقالوا : دل على ثبوت التعبد بالقياس الشرعي الكتاب والسنة والاجماع »

ثم أورد ماقالوه وبحث فيه بحث الامام النحرير ملتزما قواعد الاصول وآداب

المناظرة فنلخص ذلك بما يأتي :

﴿ الدليل الاول من القرآن ﴾ قوله تعالى (فاعتبروا ياأولي الابصار) وقد نقل عن المحصول للامام الرازي رد الاستدلال بهذه الآية على القياس الفقهي من وجوه، وبحث فيما اختاره من كون الاعتبار حقيقة في المجاوزة ، ووافقه على كون الآية غير حجة للقياسيين فقال « والحاصل ان هذه الآية لاتدل على القياس الشرعي لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام، ومن أطال الكلام في الاستدلال بها فقد شغل الحيز بما لاطائل تحته »

﴿ الدليل الثاني والثالث ﴾ قوله تعالى (فجزاءٌ مثل ماقتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم) وقوله تعالى (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) وهذان مما استدل به الامام الشافعي في رسالته

قال الشوكاني : ولا يخفاك ان غاية مافي آية الجزاء هو المجيء بمثل ذلك الصيد ، وكونه مثلا له موكول الى العدلين ومفوض الى اجتهادهما ، وليس في هذا دليل على القياس الذي هو إلحاق فرع بأصل لعلة جامعة . وكذلك الامر بالتوجه الى القبلة فليس فيه الا إيجاب تحري الصواب في أمرها، وليس ذلك من القياس في شيء

﴿ الدليل الرابع ﴾ ما استدل ابن سريج وهو قوله تعالى (ولو ردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) قال الشوكاني قالوا : أولو الامر هم العلماء والاستنباط هو القياس . ويجاب عنه بأن الاستنباط هو استخراج الدليل من المدلول بالنظر فيما يفيده من العموم أو الخصوص أو الاطلاق أو التقييد أو الاجمال أو التبيين في نفس النصوص، أو نحو ذلك مما يكون طريقا الى استخراج الدليل منه . ولو سلمنا اندراج القياس تحت مسمى الاستنباط لكان ذلك مخصوصا بالقياس المنصوص على علته وقياس الفحوى ونحوه ، لابما كان ملحقا بمسلك من مسالك العلة التي هي محض رأي لم يدل عليها دليل من الشرع ، فان ذلك ليس من الاستنباط من الشرع بما أذن الله به، بل من الاستنباط بمالم يأذن الله به . اه

أقول وقد بينا في تفسير الآية ان أولي الامر ليسوا هم علماء الفقه المعروف وأصوله

بل هم أولو الحل والعقد من الامة فراجعه في محله

﴿ الدليل الخامس ﴾ ما استدل ابن سريج ، وهو قوله تعالى (إن الله لايستحيي ان يضرب مثلاما — بعوضةً فما فوقها) قال : لان القياس هو تشبيه الشيء بالشيء فما جاز من فعل من لاتخفى عليه خافية فهو ممن لا يخلو من الجهالة والنقص أجوز . واعتمد الشوكاني في رد هذا الاستدلال قلبه على صاحبه ببيان ان من لاتخفى عليه خافية فكل ما يضرب به من مثل وما يثبته من تشبيه شيء بشيء يجب ان يكون صحيحا ، واما من لايخلو من النقص والجهل فلا نقطع بصحة ذلك منه ولا نظنه لما في فاعله من الجهالة والنقص .

وأقول:ان تقرير هذا الاستدلال هفوة من أكبر الهفوات، بل سقطة من أقبح السقطات ، فانه — على كونه ليس من الموضوع في ورد ولا صدر — عبارة عن قياس العبد على الرب ، وجعله أحق بالتشريع وأجدر . وقد أطال ابن القيم رحمه الله تعالى في مسألة أمثال القرآن من سياقه الذي اختصرناه فيراجع في كتابه

﴿ الدليل السادس ﴾ قوله تعالى في الرد على من أنكر إحياء العظام وهي رميم (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة) قال الشوكاني : ويجاب عنه بمنع كون هذه الآية لاتدل[1] على المطلوب لابمطابقة ولاتضمن ولاالتزام، وغاية مافيها الاستدلال بالاثر السابق على الاثر اللاحق وكون المؤثر فيهما واحدا ، وذلك غير القياس الشرعي الذي هو ادراج فرع تحت أصل لعلة جامعة بينهما

﴿ الدليل السابع ﴾ قوله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) وقد نسبه الى ابن تيمية (قال) وتقريره ان العدل هو التسوية ، والقياس هو التسوية بين مثلين في الحكم ، فيتناوله عموم الآية. و يجاب عنه بمنع كون الآية دليلا على المطلوب بوجه من الوجوه . ولو سلمنا لكان ذلك في الاقيسة التي قام الدليل على نفي الفارق فيها — لا في الاقيسة التي هي شعبة من شعب الرأي ، ونوع من أنواع الظنون الزائفة ،

---

(١) كذا والمراد بمنع كونها تدل على المطلوب بوجه ما . وأما منع كونها لا تدل فهو من قبيل نفي النفي إثبات وهو ليس بمراد

وخصلة من خصال الخيالات المختلة .اه

أقول أخطأ الشوكاني ههنا وأصاب — أصاب فيما رمى اليه من كون الامر بالعدل ليس دليلا على القياس الفقهي المعروف الذي يجعل كل مايوزن في حكم النقدين من الذهب والفضة وكل مايكال في حكم البر والشعير والتمر والملح ، ويجعل مسبر الجراح مفطرا للصائم كالطعام والشراب. واخطأ مراد ابن تيمية من القياس والعدل اذ يظهر انه لم يطلع على ما كتبه هو ثم تلميذه ابن القيم في ذلك ، وسنعود الى ذكر مذهبهما فيه

الاستدلال على القياس بالحديث والاجماع

ثم أورد الشوكاني ما استدلوا به على حجية القياس من الحديث والاجماع، وبدأ الكلام بحديث معاذ اذ أقره النبي (ص) على قوله « اجتهد رأيي ولا آلو » في القضاء بما لايجده في كتاب الله ولا سنة رسوله . وقد تقدم تضعيف ابن حزم لهذا الحديث ، وقد قال الشوكاني : ان الكلام في اسناده هذا الحديث يطول ، وقد قيل انه مما تلقي بالقبول . ثم أجاب عنه وعن سائر أدلتهم بعد تلخيصها بما نصه :

« وأجيب عنه بأن اجتهاد الرأي هو عبارة عن استفراغ الجهد في الطلب للحكم من النصوص الخفية . ورد بأنه انما قال « أجتهد رأيي » بعد عدم وجوده لذلك الحكم في الكتاب والسنة. وما دلت عليه النصوص الخفية لايجوز أن يقال إنه غير موجود في الكتاب والسنة. وأجيب عن هذا الرد بأن القياس عند القائلين به مفهوم من الكتاب والسنة فلا بد من حمل الاجتهاد في الرأي على ما عدا القياس فلا يكون الحديث حجة لاثباته ، واجتهاد الرأي كما يكون باستخراج الدليل من الكتاب والسنة يكون بالتمسك بالبراءة الاصلية ، أو باصالة الاباحة في الاشياء أو الحظر على اختلاف الاقوال في ذلك ، أو التمسك بالمصالح ، أو التمسك بالاحتياط

« وعلى تسليم دخول القياس في اجتهاد الرأي فليس المراد كل قياس بل المراد القياسات التي يسوغ العمل بها والرجوع اليها ، كالقياس الذي علته منصوصة والقياس الذي قطع فيه بنفي الفارق في الدليل الذي يدل على الاخذ بتلك

القياسات — لا القياسات المبنية على تلك المسالك التي ليس فيها الا مجرد الخيالات المختلة والشبه الباطلة

« وأيضا فعلى التسليم لادلالة للحديث الا على العمل بالقياس في أيام النبوة لان الشريعة اذ ذاك لم تكمل فيمكن عدم وجدان الدليل في الكتاب والسنة وأما بعد أيام النبوة فقد كمل الشرع لقوله (اليوم أكملت لكم دينكم) ولا معنى للا كمال الا وفاء النصوص بما يحتاج اليه أهل الشرع إما بالنص على كل فرد أو باندراج مايحتاج اليه تحت العمومات الشاملة * ومما يؤيد ذلك قوله تعالى (مافرطنا في الكتاب من شيء) وقوله (ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين)

« واستدلوا أيضا بما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القياسات كقوله « أرأيت لوكان على أبيك دين فقضيته أكان يجزئ عنه - قالت نعم قال - فدين الله أحق أن يقضى » وقوله لرجل سأله فقال أيقضي أحدنا شهوته ويؤجر عليها؟ فقال « أرأيت لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ - قال نعم قال - فكذلك اذا وضعها في حلال كان له أجر » وقال لمن أنكر ولده الذي جاءت به امرأته أسود « هل لك من إبل؟ - قال نعم قال - فما ألوانها - قال حمر، قال فهل فيها من أورق - ؟ قال نعم - قال فمن أين؟ - قال لعله نزعه عرق، قال - وهذا لعله نزعه عرق» وقال لعمر وقد قبل امرأته وهو صائم « أرأيت لو تمضمضت بماء » وقال « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وهذه الاحاديث ثابتة في دواوين الاسلام . وقد وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم قياسات كثيرة حتى صنف الناصح الحنبلي جزأ في أقيسته صلى الله عليه وآله وسلم

« ويجاب عن ذلك بأن هذه الاقيسة صادرة عن الشارع المعصوم الذي يقول الله سبحانه فيما جاءنا به عنه (إن هو الا وحي يوحى) ويقول في وجوب اتباعه (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وذلك خارج عن محل النزاع فان القياس الذي كلامنا فيه انما هو قياس من لم تثبت له العصمة ولا وجب اتباعه ولا كان كلامه وحيا، بل من جهة نفسه الامارة وبعقله المغلوب بالخطإ، وقد قدمنا أنه قد وقع الاتفاق على قيام الحجة بالقياسات الصادرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم

«واستدلوا أيضا باجماع الصحابة على القياس. قال ابن عقيل الحنبلي: وقد بلغ التواتر المعنوي عن الصحابة باستعماله وهو قطعي. وقال الصفي الهندي: دليل الاجماع هو المعول عليه لجماهير المحققين من الاصوليين. وقال الرازي في المحصول: مسلك الاجماع هو الذي عول عليه جمهور الاصوليين * وقال ابن دقيق العيد: عندي أن المعتمد اشتهار العمل بالقياس في أقطار الارض شرقا وغربا قرنا بعد قرن عند جمهور الامة الا عند شذوذ متأخرين. قال وهذا أقوى الادلة

« ويجاب عنه بمنع ثبوت هذا الاجماع فان المحتجين بذلك انما جاؤنا بروايات عن أفراد من الصحابة محصورين في غاية القلة، فكيف يكون ذلك اجماعا لجميعهم مع تفرقهم في الاقطار واختلافهم في كثير من المسائل، ورد بعضهم على بعض وانكار بعضهم لما قاله البعض كما ذلك معروف ؟

« وبيانه انهم اختلفوا في الجد مع الاخوة على أقوال معروفة وأنكر بعضهم على بعض، وكذلك اختلفوا في مسئلة زوج وأم وأخوة لام واخوة لأب وأم وأنكر بعضهم على بعض، وكذلك اختلفوا في مسئلة الخلع، وهكذا وقع الانكار من جماعة من الصحابة على من عمل بالرأي منهم. والقياس ان كان منه فظاهر وان لم يكن منه فقد أنكره منهم من أنكره كما في هذه المسائل التي ذكرناها. ولو سلمنا لكان ذلك الاجماع انما هو على القياسات التي وقع النص على علتها والتي قطع فيها بنفي الفارق، فما الدليل على انهم قالوا بجميع أنواع القياس الذي اعتبره كثير من الاصوليين وأثبتوه بمسالك تنقطع فيها أعناق الابل، وتسافر فيها الاذهان حتى تبلغ الى ما ليس بشيء، وتتغلغل فيها العقول حتى تأتي بما ليس من الشرع في ورد ولا صدر، ولا من الشريعة السمحة السهلة في قبيل ولا دبير؟ وقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم انه قال «تركتكم على الواضحة ليلها كنهارها» وجاءت نصوص الكتاب العزيز بما قدمنا من اكمال الدين وبما يفيد هذا المعنى ويصحح دلالته ويؤيد براهينه

«واذا عرفت ما حررناه، وتقرر لديك جميع ماقررناه، فاعلم ان القياس المأخوذ به هو ما وقع النص على علته، وما قطع فيه بنفي الفارق، وما كان من باب فحوى الخطاب أو لحن الخطاب على اصطلاح من يسمي ذلك قياسا، وقد قدمنا انه من

مفهوم الموافقة

«ثم أعلم ان نفاة القياس لم يقولوا باهدار كل مايسمى قياسا وان كان منصوصا على علته أو مقطوعا فيه بنفي الفارق بل جعلوا هذا النوع من القياس مدلولا عليه بدليل الاصل مشمولا به مندرجا تحته وبهذا يهون عليك الخطب ويصغر عندك ما استعظموه» ويقرب لديك ما بعدوه ، لان الخلاف في هذا النوع الخاص صار لفظيا، وهو من حيث المعنى متفق على الاخذ به والعمل عليه. واختلاف طريقة العمل لا يستلزم الاختلاف المعنوي لاعقلا ولا شرعا ولا عرفا. وقد قدمنا لك أن ماجاؤا به من الادلة العقلية لا تقوم الحجة بشيء منها، ولا تستحق تطويل ذيول البحث بذكرها * وبيان ذلك أن أنهض ما قالوه في ذلك أن النصوص لاتفي بالاحكام فانها متناهية والحوادث غير متناهية * ويجاب عن هذا بما قدمناه من إخباره عز وجل لهذه الامة بأنه قد أكمل لها دينها، وبما أخبرها رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من أنه قد تركها على الواضحة التي ليلها كنهارها *

« ثم لايخفى على ذي لب صحيح وفهم صالح ان في عمومات الكتاب والسنة ومطلقاتهما وخصوص نصوصهما ما يفي بكل حادثة تحدث، ويقوم ببيان كل نازلة تنزل ، عرف ذلك من عرفه وجهله من جهله اه

ثم قال الشوكاني عند الكلام على النص من مسالك العلة في القياس ما نصه :

« واعلم أنه لا خلاف في الاخذ بالعلة اذا كانت منصوصة ، وانما اختلفوا هل الاخذ بها من باب القياس أم من العمل بالنص ؟ فذهب الى الأول الجمهور ، وذهب الى الثاني النافون للقياس — فيكون الخلاف على هذا لفظيا . وعند ذلك يهون الخطب ويصغر ما استعظم من الخلاف في هذه المسألة . قال ابن فورك : ان الأخذ بالعلة المنصوصة ليس قياسا وانما هو استمساك بلفظ نص الشارع ، فان لفظ التعليل اذا لم يقبل التأويل عن كل ما تجري العلة فيه كان المتعلق به مستدلا بلفظ قاض بالعموم . » اه

أقول: ان بعض الناس لايعد كل تعليل في النصوص من قبيل العام فيجري كل ما تحققت فيه العلة مجرى افراد العام في حكمه ؛ فالخلاف بين هؤلاء وبين

الذين ينوطون الاحكام بالعلل المنصوصة حقيقي لا لفظي ، سواء كانوا يسمون ذلك عملا بالنص أو قياسا ، وانما الخلاف اللفظي بين هذين الفريقين المتفقين على تحكيم العلل المنصوصة . وابن تيمية وابن القيم من علماء الاثر انما يوافقان الجمهور على اثبات القياس بهذا المعنى ؛ ويريان انه بهذا المعنى داخل في مفهوم كلمتي العدل والميزان . وهذا حق ، ومن مقتضاه انه خاص بأحكام المعاملات دون العبادات المحضة ، فان العبادات قد استوفتها النصوص وبينتها السنة العملية فلا وجه للزيادة فيها أو النقص منها ، ولا لإيقاع شيء منها على غير ما كان عليه النبي (ص) وأصحابه .

قال حذيفة (رض) : كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول (ص) فلا تعبّدوها . والآثار عن الصحابة والتابعين وغيرهم من علماء السلف الصالحين في هذا كثيرة . ومن تتبع ما زاده بعض الفقهاء في أحكام العبادات بالقياس على المأثور عن أهل الصدر الأول لم ير لشيء منه حجة قيمة ولا قياسا صحيحا

أصول الفقه عند الظاهرية

وهي المسائل التي جعلها الامام أبو محمد علي بن حزم مقدمة لكتابه (المحلى)
وعناوين المسائل من زيادة المنار

٢

أفعال النبي (ص)

﴿ مسألة ﴾ وأفعال النبي (ص) ليست فرضا إلا ما كان منها بيانا لامر فهو حينئذ أمر ، لكن الائتساء به عليه السلام فيها حسن . برهان ذلك هذا الخبر الذي ذكرنا آنفا من أنه لا يلزمنا شيء الا ما أمرنا به أو نهانا عنه ، وأن ما سكت عنه فهو ساقط عنا . قال الله عز وجل (لقد

كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)

شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا

﴿ مسألة ﴾ ولا يحل لنا اتباع شريعة نبي قبل نبينا عليه السلام . قال الله عز وجل (لِكُلٍّ جعلنا منكم شِرعة ومنهاجا) حدثنا أحمد بن محمد بن الجسور ، نا وهب بن مرة ، نا محمد بن وضاح ، نا أبو بكر بن أبي شيبة ، نا هشيم ، نا بشار، نا يزيد الفقير : أخبرني جابر بن عبد الله أن رسول الله (ص) قال « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي : نُصرتُ بالرّعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتي ادركته الصلاة فليصل ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة . وكان النبي يبعث الى قومه خاصة و بعثت الى الناس عامة » — فاذا صح أن الانبياء عليهم السلام كلهم لم يبعث أحد منهم الا الى قومه خاصة، فقد صح أن شرائعهم لم تلزم الا من بعثوا اليه فقط ، وإذ لم يبعثوا الينا ، فلم يخاطبونا قط بشيء ، ولا أمرونا ولا نهونا، ولو أمرونا ونهونا وخاطبونا لما كان لنبينا عليه السلام فضيلة عليهم في هذا الباب . ومن قال بهذا فقد كذب هذا الحديث وأبطل هذه الفضيلة التي خصنا الله تعالى بها

— فان صح أنهم عليهم السلام لم يخاطبونا بشيء فقد صح يقينا ان شرائعهم لا تلزمنا اصلا ، وبالله تعالى التوفيق

تحريم التقليد

﴿ مسألة ﴾ ولا يحل لأحد ان يقلد احدا لا حيا ولا ميتا ، وعلى كل احد من الناس الاجتهاد حسب طاقته. فمن سأل عن دينه فانما يريد

معرفة ما ألزمه الله عز وجل في هذا الدين . ففرض عليه ان كان أجهل البرية أن يسأل عن أعلم أهل بلده بالدين الذي جاء به رسول الله (ص) فاذا دُلَّ عليه سأله ، فاذا افتاه قال له : هكذا قال الله ورسوله ؟ فان قال له نعم ، أخذ بذلك وعمل به أبدا ، وان قال له هذا رأيي أوهذا قياس ، أو هذا قول فلان ، وذكر له صاحبا أو تابعا او فقيها قديما او حديثا ، او سكت أو انتهره ، أو قال له لا ادري ، فلا يحل له ان يأخذ بقوله . ولكن يسأل غيره . وبرهان ذلك قوله عز وجل (يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم) [1] فلم يأمر عز وجل قط بطاعة بعض أولي الامر ، فمن قلد عالما او جماعة علماء فلم يطع الله تعالى ولا رسوله (ص) ولا اولي الامر ، واذا لم يرد الى ما ذكرنا فقد خالف امر الله عز وجل ، ولم يأمر الله عز وجل قط بطاعة بعض اولي الامر دون بعض

فان قيل فان الله تعالى قال (فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) وقال تعالى (ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم) قلنا نعم ولم يأمر الله عز وجل ان نقبل من النافر للتفقه في الدين رأيه ، ولا ان يطاع أهل الذكر في رأيهم ، ولا في دين يشرعونه لم يأذن به الله عز وجل ، وانما أمر تعالى أن نسأل أهل الذكر عما لا نعلم من الذكر الوارد من عند الله تعالى فقط ، لا عما قاله [2] من لا سمع له ولا طاعة ، وانما أمر تعالى بقبول

(١) في الاصل: واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم (٢) في الاصل عن من قاله

نذارة النافر للتفقه في الدين فيما تفقه فيه من دين الله تعالى الذي اتى به رسوله (ص) لا في دين لم يشرعه الله عز وجل

ومن ادعى وجوب تقليد العامي للمفتي فقد ادعى الباطل ، وقال قولا لم يأت به قط نص قرآن ولا سنة ، ولا إجماع ولا قياس، وما كان هكذا فهو باطل لانه قول بلا دليل، بل البرهان قد جاء بابطاله، قال الله تعالى ذاماً لقوم (انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا)

والاجتهاد انما معناه بلوغ الجهد في طلب دين الله تعالى الذي أوجبه على عباده ، وبالضرورة يدري كل ذي حس سليم ان المسلم لا يكون مسلما الا حتى يقرّ بأن الله تعالى إلهه لا إله له غيره، وان محمدا رسول الله (ص) فهذا الدين اليه والى غيره، فاذ لا شك في هذا ففرض عليه ان يسأل اذا سمع فتيا: أهذا هو حكم الله تعالى وحكم رسوله؟ وهذا لا يعجز عنه من يدري بالاسلام ولو أنه كما جلب من (قوقو) وبالله تعالى التوفيق

استفتاء أهل الحديث لا الرأي

﴿ مسألة ﴾ وان قيل له اذا سأل عن أعلم بلده في الدين : هذا صاحب حديث عن رسول الله (ص) وهذا صاحب رأي وقياس ، فليسأل صاحب الحديث ، ولا يحل له أن يسأل صاحب الرأي أصلا . وبرهان ذلك قول الله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) وقوله تعالى (لتبين للناس ما نزل اليهم) فهذا هو الدين لا دين سوى ذلك. والرأي والقياس ظن والظن باطل

حدثنا احمد بن محمد بن الجسور ، نا احمد بن سعيد ، نا ابن وضاح ، نا يحيي بن يحيي ، نا مالك عن أبي الزناد عن الاعرج عن أبي هريرة ان

رسول الله (ص) قال «إياكم والظن فان الظن أكذبُ الحديث»

حدثنا يونس بن عبدالله ، نا يحيي بن مالك بن عائذ ، نا ابو عبدالله ابن أبي حنيفة ، نا أبو جعفر احمد بن محمد بن سلامة الطحاوي ، نا يوسف ابن يزيد القراطيسي ، نا سعيد بن منصور ، نا جرير بن عبد الحميد عن المغيرة بن مقسم عن الشعبي قال « السنة لم توضع بالمقاييس » حدثنا محمد ابن سعيد بن ثبات (؟) نا اسماعيل بن اسحق البصري ، نا احمد بن سعيد بن حزم ، نا محمد بن ابراهيم بن حمون الحجازي ، نا عبدالله بن احمد بن حنبل قال : سمعت أبي يقول « الحديث الضعيف أحب الينا من الرأي »[1] حدثنا همام بن احمد ، نا عباس ابن أصبغ ، نا محمد بن عبد الملك بن اعين ، نا عبدالله ابن احمد بن حنبل ، قال سألت ابي عن الرجل يكون ببلد لا يجد فيه الا صاحب حديث لا يعرف صحيحه من سقيمه وأصحاب رأي فتنزل به النازلة : من يسأل ؟ فقال ابي : يسأل صاحب الحديث ولا يسأل أصحاب الرأي . ضعيف الحديث أقوى من رأي أبي حنيفة

رفع الخطأ والنسيان

﴿ مسألة ﴾ ولا حكم للخطإ ولا للنسيان الا حيث جاء في القرآن أو السنة لهما حكم قال تعالى (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ماتعمدت قلوبكم) وقال تعالى (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او أخطأنا)

إنما التكليف بالاستطاعة

﴿ مسألة ﴾ وكل فرض كلفه الله تعالى الانسان فان قدر عليه لزمه ، وان عجز عن جميعه سقط عنه ، وان قوي على بعضه وعجز عن بعضه

(١) الحديث الضعيف عند أحمد هو الحسن عند الجمهور

سقط عنه ما عجز عنه ولزمه ماقدر عليه منه سواء كان أقله او اكثره ·
برهان ذلك قول الله تعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) وقول رسول
الله (ص) « اذا أمرتكم بأمر فاءتوا منه ما استطعتم » وقد ذكرناه قبل
باسناده وبالله تعالى التوفيق

لا يقدم الموقت على وقته

﴿ مسألة ﴾ ولا يجوز ان يعمل احد شيئا من الدين موقتا بوقت
قبل وقته ، فان كان موقتاً الاول من وقته والآخر من وقته لم يجز أن يعمل
لاقبل وقته ولا بعد وقته، لقول الله عز وجل (ومن يتعد حدود الله فقد
ظلم نفسه) وقال تعالى (تلك حدود الله فلا تعتدوها) والاوقات حدود
فمن تعدى بالعمل وقته الذي حده الله تعالى له ، فقد تعدى حدود الله[1]
-- حدثنا عبد الله بن يوسف ، نا أحمد بن فتح ، نا عبد الوهاب بن عيسى

---

(١) الحدود المكانية أولى بهذا الحكم من الحدود الزمانية كمواقيت الحج ،
وقد عبر عنها في الأحاديث بمادة الحد كما في حديث ابن عمر في البخاري « ان رسول
الله (ص) حد لأهل نجد قرنا » وقد مضى عمل النبي (ص) وأصحابه على ذلك
فيصدق على مخالفة الحديث الآتي « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » وقد
أنكر عثمان على من أحرم من خراسان ، وأنكر مالك على من أراد الاحرام من
مسجد الرسول بالمدينة وقال له : أخشى عليك الفتنة . وحديث أم سلمة في
الاهلال من المسجد الاقصى لا يصح . وما روي في تفسير اتمام الحج والعمرة « أن
تحرم من دويرة أهلك » فمعناه أن تنوي الحج منها كما يفسره ما روي عن ابن عباس
وغيره من قوله « أن تحرم من دويرة أهلك لا تريد الا الحج والعمرة ، وتهل من
الميقات ، ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة حتى اذا كنت قريبا من مكة قلت
لو حججت أو اعتمرت ! وذلك يجزئ ولكن التمام أن تخرج له لا لغيره »
وبهذا تتفق هذه الرواية مع تفسير الجمهور وظواهر النصوص والسنة العملية .

نا أحمد بن محمد، نا أحمد بن علي، نا مسلم بن الحجاج، نا اسحق ابن ابراهيم - هو ابن راهويه - عن ابي عامر العقدي، نا عبد الله بن جعفر الزهري، عن سعيد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، قال سألت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: أخبرتني عائشة أن رسول الله (ص) قال «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ»

(قال علي) ومن أمره الله تعالى أن يعمل عملا في وقت سماه له فعمله في غير ذلك الوقت إما قبل الوقت وإما بعد الوقت، فقد عمل عملا ليس عليه أمر الله تعالى وأمر رسوله (ص) فهو مردود باطل غير مقبول، وهو غير العمل الذي أمر به

فان جاء نص بأنه يجزئ في وقت آخر فهو وقته أيضا حينئذ، وانما الذي لا يكون وقتا للعمل فهو ما لا نص فيه وبالله تعالى التوفيق

المجتهد المخطئ خير من المقلد المصيب

﴿ مسألة ﴾ والمجتهد المخطئ افضل عند الله من المقلد المصيب. هذا في اهل الاسلام خاصة. واما غير اهل الاسلام فلا عذر للمجتهد المستدل ولا للمقلد. وكلاهما هالك. برهان هذا ما ذكرناه آنفا باسناده من قول رسول الله (ص) «اذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر» وذم الله تعالى التقليد جملة، فالمقلد عاص والمجتهد مأجور

وليس من اتبع رسول الله (ص) مقلدا لانه فعل ما أمره الله تعالى به، وانما المقلد من اتبع دون رسول الله (ص) لانه فعل ما لم يأمره الله تعالى به. وأما غير أهل الاسلام فان الله تعالى يقول (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)

الحق واحد لا يتعدد

﴿ مسألة ﴾ والحق من الاقوال في واحد منها وسائرها خطأ وبالله تعالى التوفيق. قال الله تعالى (فماذا بعد الحق إلا الضلال) وقال تعالى (ولو كان عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وذم تعالى الاختلاف فقال (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا) وقال تعالى (ولا تنازعوا) وقال تعالى (تبيانا لكل شيء) فصح أن الحق في الاقوال هو ما حكم الله تعالى به فيه ، وهو واحد لا يختلف ، وإن الخطأ ما لم يكن من عند الله تعالى ، ومن ادعى ان الاقوال كلها حق ، وأن كل مجتهد مصيب ، فقد قال قولا لم يأت به قرآن ولا سنة ولا إجماع ولا معقول

وما كان هكذا فهو باطل ويبطله أيضا قول رسول الله (ص) « اذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر » فنص عليه السلام أن المجتهد قد يخطئ

ومن قال ان الناس لم يكلفوا إلا اجتهادهم فقد أخطأ ، بل ما كلفوا الا إصابة ما أمر الله تعالى به ، قال الله تعالى (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) فافترض عز وجل اتباع ما انزل الينا وأن لا نتبع غيره ، وألا نتعدى حدوده

وانما آجر المجتهد المخطئ اجرا واحدا على نيته في طلب الحق فقط ، ولم يأثم إذ حُرم الاصابة . فلو أصاب الحق اجر اجرا آخر ، كما قال عليه السلام انه اذا أصاب اجر اجرا ثانيا . حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد ، نا ابراهيم بن احمد ، نا الضريري ، نا البخاري ، نا عبد الله بن يزيد المقري ، نا حيوة بن شريح ، نا يزيد بن عبد الله بن الهادي ، عن محمد بن ابراهيم بن الحارث عن بشر بن سعيد عن ابي قيس مولى عمرو

ابن العاص عن عمرو بن العاص انه سمع رسول الله (ص) يقول « اذا حكم الحاكم فاجتهد ثم اصاب فله اجران ، واذا حكم فاجتهد فأخطأ فله اجر » ولا يحل الحكم بالظن اصلا لقول الله عز وجل (ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا) ولقول رسول الله (ص) « اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث » وبالله تعالى التوفيق اهـ

المقارنة بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية (*)

٣

نص وترجمة الوصفة الطبية المدرجة في القرطاس الطبي المحفوظ بمتحف برلين. وهي التاسعة والتسعون بعد المائة. وكانت كتابة هذا القرطاس في زمن العائلة التاسعة عشرة واسم الوصفة الطبية بلسانهم « بخر » (١)

لمأة (٢) تمشؤ الست لا تمشؤ (٣)

---

*) لأحمد كمال بك أمين المتحف المصري

(١) البخر مقلوب الخبر بالضم أي الاختبار بالتجربة ونحوها .

(٢) اللمأة اللمحة . فالهمزة مقلوبة عن الحاء وهذا القلب معهود في اللغتين العربية والمصرية . وقد ورد في العربية لمأة ولمحة بمعنى واحد ، بل هو فعل واحد

(٣) هو من المشاء بالفتح وهو بالعربية النماء ومنه الماشية. قال في لسان العرب : وأصل المشاء النماء والكثرة والتناسل . ولكن فعله بالعربية يائي يقال مشت إبل بني فلان تمشي مشاء إذا كثرت . والمصريون همزوا الفعل

وقد اختلف علماء اللغة العربية في إطلاق لفظ الست على المرأة فقيل إنه مأخوذ من الجهات الست كما قال البهاء زهير : =

بُرّ [٤] وعُضّ [٥] تفوحهما [٦] الستّ بمائها رفاء [٧] مثل البرني [٨]
والعيش [٩] في غلافين [١٠] فان ذرءا [١١] لوفرتهما [١٢] فانها تمشؤ وان ذرأ
البر فهو ذكر وان ذرأ العض فهو ست وان عدم الذره لاتمشؤ

والمعنى: إن أريد أن يعرف هل تلد المرأة أم لا تلد، وماذا تلد ان ولدت، فليوضع في غلاف أي إناء شيء من البرّ وفي إناء آخر شيء من الشعير كما يفعل في نقع التمر والعيش، وتبول المرأة عليهما كل يوم، فان نبتا معا فانها تلد وان نبت القمح وحده تلد ذكرا وان نبت الشعير وحده تلد انثى. وان لم ينبتا لاتلد

= ولكن غادة ملكت جهاتي فلا عجب اذا ماقلت ستي

وقيل لحن أو عامي. وقال الفيروزبادي الصواب ان أصله سيدتي. وظاهر كلامه انه مخصوص بالنداء وحالفه غيره في هذا. واستعمال هذه الكلمة بمصر أكثر من استعمالها في سائر البلاد العربية. ولا يبعدان تكون مما أخذ العرب عن قدماء المصريين لا العكس

(٤) البر والقمح والحنطة واحد في اللغتين كما تقدم في النبذة الأولى

(٥) العض بضم العين المهملة من أسماء الشعير بالعربية والمصرية وهو المراد هنا

(٦) المراد بالتفويح بالماء هنا إراقة البول. ومادته فوح تدل في العربية على الاراقة لكنه استعمل في الدم يقال أفاح الدم اذا أراقه وسفكه، وفاح الجرح. على انتشار الرائحة وهو المشهور، وعلى السعة. وقالوا بحر فواح

(٧) قال أحمد كمال بك رفاء معناه كل يوم ولا نعرف له أصلا في العربية بهذا المعنى ويقرب منه الرفاء (بالكسر) وهو الاتصال والالتحام

(٨) البرني أجود التمر وذكر في النبذه الاولى

(٩) العيش اطلق على الخبز في اللغتين لأنه المادة التي يعيش بها أكثر الناس

(١٠) الغلاف بوزن كتاب الصوان والغشاء الذي يصان به الشيء يقال غلاف الكتاب وغلاف السيف واستعمل بالمصرية بهذا المعنى

(١١) يقال بالعربية ذرأ الأرض بمعنى بذرها، ويقال بذرت الارض اذا أخرجت نباتها متفرقا

(١٢) معناه بالمصرية كلاهما. والوفرة بالعربية الكثرة.

مدرسة
دار الدعوة والارشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

٨

الاعضاء التي لاقناة لها

علم مما سبق أن في جسم الانسان نوعين من الاعضاء : —

(النوع الاول) : هو الذي له قناة تحمل افرازه سواء أكان هـذا الافراز صالحا للجسم أم ضارا به، فمثال الصالح افراز البنكرياس ومثال الضار افراز الكلية. وتسمى هذه الاعضاء « بالغدد التي لها قناة » وافرازها يسمى « بالافراز الخارجي » لانه يرى خارجا منها ويجري في قنواتها ، وأكثر هذه الاعضاء له افراز آخر يسمى « بالافراز الداخلي » وهو الذي يجري في الأوردة الدموية أو في الاوعية اللمفاوية. وله فوائد سنذكرها ان شاء الله تعالى . مثال ذلك الخصية فان لها افرازا خارجيا وهو المني يجري في قنواتها المعروفة ، وافرازا داخليا لايرى وله تأثير في بنية الشخص وهيئته وصوته وشعر وجهه ونحو ذلك من مميزات الذكور التي تفقد بالخصاء

(النوع الثاني) : الاعضاء التي لاقناة لها كالطحال وغيره . وهذه لها افراز واحـد يسمى « بالافراز الداخلي » له منافع عظيمة في الجسم ، وقال آخرون إن المراد من هذه الاعضاء الاخيرة ليس افراز مواد نافعة للجسم بل إخراج بعض فضلاته لضرر بقائها فيه ، والظاهر أن كلتا النظريتين صحيحة من بعض الوجوه ، ولكن الأولى أكثر قبولا عند الجمهور الآن من الثانية . وهاك بيان وظيفة تلك الاعضاء التي لاقناة لها : —

(١) الطحال عضو شهير ، وهو أكبر الغدد التي لاقناة لها، وموضعه في الجهة اليسرى من البطن بين المعدة والحجاب الحاجز . أما وظائفه فخمس :

(أولها) تكوين كريات بيضاء للدم (ثانيها) توليد بعض الكريات الحمراء في بعض الحيوانات (ثالثها) اتلاف الكريات الحمراء القديمة التي قاربت الفساد (رابعها) تكوين بعض مواد نيتروجينية كحامض البوليك لاخراجها من الجسم لضرر بقائها فيه (خامسها) يقوم الطحال بوظيفة مستودع للدم يجتمع فيه اذا انتهى الهضم فيمتلئ به ويكبر حجمه، واذا ابتدأ الهضم يندفع الدم منه الى المعدة

(٢) الغدة الصعترية غدة مؤقتة تكبر عقب ولادة الطفل الى نهاية السنة الثانية إذ يتم نموها ، ثم تأخذ في التناقص شيئا فشيئا حتى لايبقى الا أثرها في زمن البلوغ . موضعها في الجزء الامامي من الصدر وراء القص وتمتد الى أسفل العنق ولونها يميل الى الحمرة أو يقرب من السنجابي

ووظيفتها تكوين كريات بيضاء كباقي الغدد اللمفاوية . وفي الحيوانات التي تسبت (Hibern ate)[١] تبقى فيها هذه الغدة الصعترية مدة الحياة كلها ، وفي أثناء يقظتها يتراكم فيها جزء عظيم من الشحم، وهذا يستعمل في أثناء سباتها فيأخذ في الاحتراق شيئا فشيئا

فيظهر من ذلك انها تجتمع فيها بعض المواد التي تلزم للحياة في أثناء هذا النوم الطويل في تلك الحيوانات

ويقول بعض العلماء انها تولد أيضا بعض الكريات الحمراء في الاطفال

واذا أزيلت هذه الغدة من بعض الحيوانات كالضفادع مثلا حصل لها ضعف عضلي شديد مع شلل ينتهي بالموت

(٣) الغدة الدرقية تشاهد في أسفل العنق من الامام على القصبة الهوائية ، وشكلها يشبه الدرقة ولذلك سميت بهذا الاسم . وهي في النساء أكبر منها في الرجال ، وفي زمن الحيض تنتفخ قليلا . وقد تصاب بمرض فتحصل فيها ضخامة

---

(١) كلمة لاتينية معناها حرفيا (تشتي) والمرادبها السبات الذي يصيب بعض الحيوانات مدة الشتاء كالخفاش (الوطواط)

عظيمة تسمى بلسان الاطباء (جواتر) Gositre [١] وهو مرض عسير الشفاء ولا يزول غالبا الا بعملية جراحية فيستأصل من العنق، ويجب الاحتراس من ظن أن هذه الغدة هي القطعة الناتئة في العنق المسماة « بتفاحة آدم » [٢] فان هذه الغدة التي نتكلم عليها هي تحت التفاحة بقليل

أما مادتها فمركبة من منسوج مخصوص مشتمل على حويصلات صغيرة جدا مملوءة بمادة غروية مركبة من الزلال وعنصر اليود

ووظيفة هذه الغدة ان تفرز افرازا داخليا له تأثير عظيم في بنية الشخص وقواه العقلية، فاذا مرضت أو استئصلت في الاطفال وقف جسمهم عن النمو وأصيبوا بالبله

واذا أصابها المرض في الكبر حدث للانسان ما يسمى « بالتورم المخاطي » [Myxoedema] في جسمه فتضخم جميع الانسجة التي تحت الجلد حتى يتورم جسمه ويصاب بالضعف العام في جميع قواه الجثمانية والعقلية، ولذلك يجب الاحتراس في أثناء العمليات الجراحية من استئصال هذه الغدة كلها بل يتحتم ترك جزء منها ليقوم بهذه الوظيفة المهمة

وانما سمي هذا المرض الاخير بالتورم المخاطي لظنهم أن هذا الورم ناشئ عن زيادة المواد المخاطية تحت الجلد. والحقيقة أن المنسوج الضام الذي تحت الجلد بجميع أجزائه هو الذي يضخم لا المادة المخاطية التي فيه وحدها

ولعلاج هذه الاحوال يجب استمرار حقن خلاصة من الغدة الدرقية تحت جلد المصاب أو تستعار له هذه الغدة من أحد الحيوانات وتلصق بجسمه جراحيا (وهي طريقة قليلة النجاح) وأحسن من ذلك كله ان يأكل المريض من هذه الغدة مادام حيا

ويوجد للغدة الدرقية أخوات صغيرة بجوارها أو فيها والراجح عند بعض العلماء أن التأثير الاعظم في المجموع العصبي وغيره هو لهذه الغدد الصغيرة

(٤) الغدة التي فوق الكلية هي جسم شكله كالقلنسوة المضغوطة من الجانبين

---

(١) كلمة فرنسية معناها الحرفي البلعوم
(٢) سميت بذلك لظهورها في الرجل أكثر منها في الانثى

يرى على قمة كل من الـكليتين ؛ أما وظيفتها فأول من اهتدى اليها طبيب انكليزي يسمى (أديسون) Addison في سنة ١٨٥٥ م ولذلك سمي المرض الناشئ من اصابة هذه الغدة باسمه الى اليوم. وأعراضه ضعف في المجموع العضلي كله وفي المجموع الدوري للدم وفي الاعصاب، واصابة الجلد بلون السمرة بحيث تشبه النحاس

واذا استخلص من هذه الغدة خلاصة وحقنت تحت الجلد أحدثت انقباضا في الاوعية الدموية الصغيرة ، فهي لذلك تنفع في منع النزيف، وكذلك اذا وضعت هذه الخلاصة على الاغشية المخاطية صيرت لونها أكمد لانقباض الاوعية الدموية فيها ومنعت النزيف ، ولذلك يستعملها أطباء العيون في العمليات الجراحية للعين بنسبة واحد في الألف لمنع النزيف . وأشهر الامراض التي تصيبها هو التدرن

(٥) الجسم النخامي أو المخاطي هو جسم في الدماغ أحمر سنجابي يشاهد على السرج التركي للعظم الوتدي من عظام الجمجمة أسفل المخ ، ومرض هـذا الجسم يحدث ضخامة فظيعة في عظام الاطراف العليا والسفلى وكذلك في عظام الوجه

(٦) الغدة الصنو برية هي أيضا داخل الجمجمة تحت مؤخر الجسم المندمل الموصل بين فصي المخ ، في وسطها تجويف صغير، ولم تعلم لهـذا الجسم وظيفة الى الآن، وغاية مايعرف عنه أنه أثر ضامر لعين ثالثة

وتوجـد هذه العين في حال أحسن منها في الانسان في الاورال (العظاء) [Lizards] خصوصا في النوع المسمى بالافرنجية «هتيريا» (Hatteria) وهي فيها مغطاة بالجلد ، وفي الحرباء و بعض الزواحف تتصل الغدة الصنو برية بعـين ثالثة في وسط سطح الرأس ولـكنها في الحالة الاثرية أيضا

وهذا العضو هو من أعظم وأشهر الاعضاء الاثرية التي بنى عليها مذهب داروين

(٧) الجسم العصعصي يوجد عند نهاية العصعص وفيه منسوج ضام مشتمل على كثير من أوعية دموية صغيرة .وهذا الجسم لاتعرف له وظيفة أيضا

(٨) الجسم السباتي هو جسم عند انقسام الشريان السباتي[1] الذي في جانبي

---

(١) سمي بذلك لان الضغط على هذا الشريان ضغطا يقلل الدم عن الدماغ يحدث نوما عميقا (أي سباتا) أو غيبوبة

العنق الايمن والايسر

وهذا الجسم يشبه في تركيبه الجسم العصعصي وهو مثله أيضا في جهلنا وظيفته جهلا تاما

الجلد : تركيبه ووظيفته

يتركب الجلد من طبقتين : العليا تسمى البشرة ، والسفلى تسمى الادمة ، وفيهما الشعر والاظفار والغدد الدهنية وغدد العرق ، أما البشرة فهي مركبة من طبقات عديدة ، كل منها مركب من خلايا بعضها بجانب بعض كالبلاط

وأما الطبقات السطحية فهي كالقشور الميتة وتفقد منها نوياتها ، وتنفصل عن الجلد شيئا فشيئا ، ويحصل نمو البشرة من طبقاتها السفلى . وفي هذه الطبقات ترى المواد الملونة لبعض أنواع البشر . وفيها أيضا تحفظ المواد التي يستعملها الناس للوشم . وطبقات البشرة تتغذى بالمادة اللمفاوية ، ولها مجار دقيقة جدا بين خلياتها ، ولا يوجد في البشرة عروق للدم ، ولكن يوجد في الطبقات السفلى منها أعصاب دقيقة جدا

وأما الادمة فهي مركبة من منسوج ليفي كثيف ، وهذه الكثافة تتناقص شيئا فشيئا حتى تصل الى المنسوج الخلوي الذي تحت الجلد و به الشحم . وفي الادمة حلمات صغيرة توجد بكثرة في راحة الكفين وفي أخمص القدمين ، وهي أكبر الحلمات الجلدية ، ويكون بعضها بجوار بعض صفا صفا ، وهي السبب فيما نشاهده في جلد الراحة مثلا من القنوات الصغيرة . وهذه القنوات لها أشكال متنوعة في يد كل شخص ، بحيث يتعذر وجود شخصين متماثلين فيها من جميع الوجوه ، ولذلك يختبر بها تحقيق الشخصية

وفي الحلمات الجلدية لفائف من الأوعية الشعرية الدموية ، وفي بعض الاجزاء كالاخمصين والراحتين وغيرهما أجسام بيضاوية لها علاقة مخصوصة بحاسة اللمس

وفي الطبقات السفلى من أدمة الصفن والقضيب وحلمة الثديين ألياف عضلية غير اختيارية ، وهي التي تحدث الانكماش في جلد تلك الاعضاء بانقباضها

وأما الاظفار فهي عبارة عن بعض طبقات من طبقات البشرة تنوعت تنوعا خاصا

وأما الشعر فهو أيضا طبقات من البشرة تنوعت تنوعا مخصوصا، وكل شعرة تنبت من بصيلة في حفرة مخصوصة تسمى الحويصلة الشعرية . والشعر يوجد في جميع أجزاء الجسم بدرجات مختلفة ماعدا الراحتين والاخمصين والقضيب، أما لونه فهو ناشئ عن وجود مادة ملونة في خلاياه. وسبب الشيب فقد هذه المادة، وقد يتولد في الشعر فقاقيع هوائية وهي التي تظهر أن لونه أبيض عند حصول فزع للانسان مثلا

وكل حويصلة من حويصلات الشعر لها ليفة عضلية صغيرة تجذبها في بعض الاحوال فينتصب الشعر كما يحصل عند البرد أو الفزع

وأما الغدد الدهنية فهي غدد كيسية موضعها في الأدمة وتنفتح قنواتها في أعلى حويصلات الشعر ، وهي تفرز مادة دهنية فائدتها تليين الشعر والجلد ، و بانسداد هذه الغدد والتهابها يحصل « حب الشباب » بسبب كثرة افراز المادة الدهنية في هذا الطور من العمر ، وبعد سن الثلاثين يندر وجود هذا المرض

وأما غدد العرق فتوجد في جميع سطح الجلد وتكثر جدا في الاماكن التي لاشعر فيها كالراحتين ، وكل منها عبارة عن أنبوبة ملتفة على نفسها ، موضعها في الادمة أو فيما تحتها - وهو الغالب - وتنفتح قنواتها في سطح البشرة

وأما المادة التي تفرز في داخل الاذن فلها غدد تشبه غدد العرق

وظائف الجلد

(١) أن يكون وقاية للجسم ومركزا للحس باللمس

(٢) عليه مدار تنظيم حرارة الجسم - كما سبق -

(٣) يتنفس الجسم منه ، فانه يخرج منه غاز ثاني اكسيد الفحم ، ويمتص الجسم أكسجين من الهواء . وهذه الوظيفة في الحيوانات ذوات الجلد السميك ضعيفة جدا ولكن لها في ذوات الجلد الرقيق أهمية عظمى ، حتى اذا نزع منها الرئتان عاش الحيوان مدة بالتنفس الجلدي فقط كما في الضفادع

(٤) الامتصاص ، وهذه الوظيفة لها أهمية في العلاج فان كثيرا من المواد اذا وضعت على الجلد دخلت البنية كالزئبق مثلا وكذلك الزيوت وغيرها كثير ، فبامتصاص الزئبق من هذا الطريق يمكن معالجة الداء الافرنجي . وكذلك يعالج الاطفال النحفاء بدلك أجسامهم بالزيوت خصوصا زيت السمك ، وهي طريقة لطيفة لتوقي طعمها المبغوض . ومن هنا فهم سبب سمن اكثر المشتغلين بمس الزيوت والشحوم كالجزارين مثلا فان أجسامهم تمتص شيئا منها . والامتصاص بالجلد هو بالضرورة أضعف من الامتصاص بالاغشية المخاطية

(٥) الافراز ، ومعناه خروج بعض المواد الضارة بطريق الجلد من جسم الانسان في العرق وغيره

العرق

توجد غدد العرق بكثرة في الانسان في راحتيه واخمصيه — كما سبق — ولذلك يكثر العرق فيهما ، ولكن يوجد اختلاف بين الحيوانات في كمية العرق التي تفرزه وفي الاماكن التي يفرز منها بكثرة . فالثور يعرق أقل من الحصان والغنم ، والفيران والارانب والمعز لاتعرق ، والخنزير انما يعرق أنفه بكثرة ، واما الكلاب والقطط فتعرق براحة أرجلها

واذا خرج العرق من الجسم تبخر في الهواء وفي تبخره يجتذب جزءا من حرارة الجسم فتعرض له البرودة وإذا كان الهواء جافا وحارا ومتحركا كان التبخر عظيما ، والعكس بالعكس

ومقدار العرق في اليوم نحو ٧٢٠ جراما

تركيب العرق : اذا خرج العرق من الجسم يخرج معه شيء كثير من الفضلات الضارة ، وهو يمتزج بالمادة الدهنية التي تفرزها الغدد المذكورة سابقا ، ويختلط كذلك ببعض خلايا البشرة التي انفصلت عنها وهذه الخلايا فيها كثير من مادة الكبريت ، وهذه هي احدى الطرق لاخراج هذا العنصر من الجسم

أما العرق فيشتمل على ماء كثير وأملاح متعددة أشهرها ملح الطعام ، وحوامض دهنية ومادة البولينا وهي التي تخرج بكثرة في البول وهي من أشهر

فضلات الجسم المتخلفة عن احتراق المواد الزلالية فيه - كما سبق -

ومما سبق تعرف العلاقة بين افراز الكلى وافراز الجلد ، فاذا كثر العرق قل البول و بالعكس . وهذا هو السبب في قلة افراز البول اذا اشتد الحر في زمن الصيف. لذلك كان من أحسن طرق علاج المصاب بمرض في الكلى أن تكثر عرقه بالتدفئة أو بالحمامات الساخنة أو ببعض الادوية التي يعرفها الاطباء، وبهذه الوسيلة تخرج بعض الفضلات الضارة من الجسم بطريق الجلد فتستريح الكلى حتى يتم شفاؤها

وتوجد مواد كثيرة اذا تعاطاها الانسان خرجت بكثرة في العرق مثل الجاوي، و بعض الادوية حين خروجها من الجسم تهيج الجلد وتحدث فيه طفحا مخصوصا كالزرنيخ مثلا. ومثل ذلك سموم بعض الامراض فانها تحدث طفحا في الجلد. وسيأتي الكلام عليها في الجزء الثاني ان شاء الله

وثم مواد أخرى غير ما ذكر تخرج مع العرق في بعض الاحوال،فقد شوهد أن بعض الناس يتلون عرقهم بلون مغاير للون الطبيعي بسبب خروج دم فيه أو بخروج المادة الحمراء الملونة للدم. وقد يخرج في العرق مادة زلالية وذلك في مرض الرثية (الروماتزم) الذي يكون فيه العرق أشد حموضة من المعتاد ، وقد يخرج فيه أيضا حامض اللبنيك وذلك في الحمى النفاسية أو في داء الكساح أو الخنازير

الاستحمام: علم مما سبق أن الاغتسال ضروري للانسان لان تركه يسبب تراكم تلك المواد المذكورة آنفا على سطح الجلد فتسد قنوات الغدد وتعوق افرازها، واذا قل افراز الجلد كثر مجهود الرئتين والكليتين فتصاب بالعطب. زد على ذلك كون القذارة تحط من قدر المرء وتنفر الناس منه وتحدث بعض أمراض في الجلد نفسه كالحكة

ومن فوائد الاستحمام غير ما ذكر أنه ينشط الجسم و ينبه المجموع العصبي والدوري ، ولذلك أوجبه الشارع الحكيم بعد الجنابة لازالة ما يحدث للجسم من الفتور بعد الجماع . و الاستحمام يقوي المرضى والضعفاء ، ومن ذلك تظهر حكمة اغتسال الحائض والنفساء لان هاتين الحالتين هما - من غير شك - مرضيتان

واحسن طريقة لازالة أوساخ الجسم هي استعمال الماء الفاتر أو الساخن مع

الصابون والدلك بالليف أونحوه، ولا يخفى أن الدلك من أحسن الوسائل المستعملة في الطب الحديث لتقوية الاعصاب والعضلات وازالة بعض الآلام، ولذلك يمدح بعض أطباء الافرنج الامام مالكا رضي الله عنه لجعله الدلك من فرائض الغسل فانه أكثر تقوية للجسم من الغسل وحده

أما الصابون فانه يتولد من تأثير البوتاسيوم والصوديوم في المواد الدهنية أو الزيتية

انواع الحمامات هي :—

(١) البارد وحرارته تكون أقل من حرارة الجسم بكثير
(٢) الفاتر وحرارته أقل بقليل
(٣) الساخن وحرارته مثل حرارة الجسم
(٤) الحار وهى مثل حرارة الجسم اذا أصابته الحمى الشديدة

والمياه الساخنة منبهة للجسم مزيلة لآلام الروماتزم وغيرها ، ويصح لكل انسان أن يستعملها

أما المياه الباردة فالاولى أن لايستعملها الانسان الا في زمن الصيف بشرط أن يكون صحيح البنية سليم الكليتين والرئتين . واذا أحسّ الانسان بعدها بحرارة في جسمه كان ذلك دليلا على أن بنيته تتحملها بشرط السلامة من المرض

وينبغي أن يستعمل الانسان بعد الحمام البارد الدلك الشديد والتدفئة بالملابس الكافية والرياضة البدنية نحو نصف ساعة

وكذلك يجب في جميع الحمامات تنشيف الجسم من الماء تنشيفا جيدا فان في ذلك وقايته من البرد، ويجب في الحمام الساخن أن لايخرج الانسان منه دفعة واحدة الى الهواء البارد ، وأحسن وقت للاستحمام أن يكون في الصباح قبل الفطور او بعد تناول لقيمات قليلة جدا مع فنجان من القهوة أو الشاي، ومن الضرر البليغ أن يغتسل الانسان بعد الجوع الشديد أو التعب الكبير أو بعد امتلاء المعدة بالطعام ، ولا يصح دخول الحمام عقب الأكل الا بعد مضي ساعة أو ساعتين على الاقل

ولا يجوز استعمال الماء البارد للشيوخ والعجائز ولا للمصابين بضعف القلب
والماء البارد نافع جداً في الحميات وكذلك الفاتر، وهذا مصدق للحديث القائل
«الحمى من فيح جهنم فابردوها بالماء» — كما سبق — والمعالجة بالماء Hydrotherapy
نجحت نجاحا عظيما في شفاء كثير من الامراض الضعفية والامراض التي تنهك القوى
العقلية ولازالة مضار الحياة الجلوسية

أما السبب في احساس الانسان بالحرارة عقب استحمامه بالماء البارد فهو تمدد أوعية
الجلد وامتلاؤها بالدم بعد انقباضها عند استعمال الماء البارد وهو ما يسمى «برد الفعل»

والواجب أن يكون زمن الحمام البارد قصيرا جدا (أي بضع دقائق) فان
الغرض منه ليس تنظيف الجسم بل تقويته ، ويجب أن لا يكون الحمام الساخن في
مكان فاسد الهواء كأن توضع فيه النار مثلا

وينبغي الاستحمام في الصيف مرتين في الاسبوع على الاقل، وفي الشتاء مرة
واحدة ، وينبغي تغيير الملابس بعد الاستحمام؛ ومن هنا نفهم حكمة الشارع في سن
غسل الجمعة ولبس أحسن الثياب يومه ، وفي فرض الغسل بعد كل جنابة ولو
بالاحتلام ، وفرض طهارة الثوب

الملابس

الغرض من الملابس حفظ الجسم من البرد والحر والرياح والمطر والقاذورات
وهي تدفئه وتحفظه من بعض العوارض وكذلك تزينه

وتتخذ الملابس إما من الحيوان أو من النبات

(١) ما يتخذ من الحيوان

فهو الصوف والوبر والشعر : وهي تؤخذ من الانعام كما هو معروف. وهذه الاشياء
جمعا تغزل ثم تنسج ما عدا اللباد فانه يصنع بلا غزل ولا نسج وتميز هذه الاشياء
عن المواد النباتية يوضع جزء منها في محلول القلويات [١] الكاوية فاذا ذاب علم

---

(١) كمحلول الصودا الكاوية أو البوتاسا الكاوية وهما عبارة عن
هيدرات البوتاسيوم أو الصوديوم

أنه من أصل حيواني

والكشمير يتخذ من شعر معز بلاد التبت

وهذه الاصناف جميعا موصلة رديئة للحرارة وتمتص الرطوبة بسهولة وسرعة ولكنها تتبخر منها ببطئ ، فلذلك كانت نافعة جدا في التدفئة . ومن معايبها أنها تيبس وتنكمش بالغسل

الحرير : يفرز من غدتين بأسفل جسم دودة القز ، ولهما قناتان تنفتح في الشفة السفلى لفم الدودة . والخيط الواحد عبارة عن خيطين دقيقين جدا ملتصق أحدهما بالآخر وطوله نحو ٤٠٠٠ ياردة

وتفرز الدودة هذا الخيط لتبني به بيتاحولها يحيط بها ويخفيها عن الاعين ويحفظها من كل مايؤثر فيهامدةتحولها الى فراش، ويسمى هذا البيت بالشرنقة ، فاذا تحولت الى فراش ثقب هـذا البيت وخرج منه ، فتـتزاوج ذكوره باناثه وتضع الاناث بيضا صغيرا جدا كحجم رأس الدبوس الصغير يشبه بزور الخشخاش (أبي النوم) وهذه البويضات تفقس فتخرج منها ديدان دقيقة وهي ديدان القز، ولاتفرز الحرير الا بعد كبرهاوتمام نموها ، وتتغذى هذه الديدان بورق التوت، وفي بلاد المغول نوع آخر منها يتغذى بورق البلوط . وهاك تفصيل حياة هذه الدودة كما علمته بالمشاهدة أثناء تربيتي له:—

يبدأ بيض القز ينقس في أواخر شهر فبراير أو أوائل مارس وقت ظهور ورق التوت ، ويكون الدود صغيرا جدا كالنمل ثم يكبر حتى يصير طول الواحدة نحو ٦ — ٨ سنتي متر . و يخرج الحرير في أوائل شهر ابريل ، ويقال إنه يمكن تربيته أيضا على ورق الخس ولكن حريره يكون أقل . وتتكون الشرانق فاذا تمت خرج الفراش منها بعد نحو ١٨ أو ١٩ يوما، وتبدأ الاناث بوضع بيضها بعد نحو ٢٤ ساعة من خروجها . وعدد بيض كل نحو ٢٠٠ على الاقل . ويموت الذكر والانثى من الفراش بعد خروجه بنحو عشرة أيام . والانثى أكبر قليلا وأصفى بياضا

أما لون البيض الجديد فهو مصفر فاذا قدم صار رماديا. وهو مفرطح ومنبعج في وسطه . ولا يأكل الدود داخل الشرنقة شيئا ولا يشرب ، وكذلك الفراش

ولون الشرنقة أبيض أو مصفر قليلا أو كثيرا، وشكله بيضاوي مخصر، وطول الشرنقة من اثنين ونصف الى ثلاثة ونصف سنتي مترا وعرضها واحدونصف تقريبا . وقد يفقس البيض مرة أخرى في مايو

أماخيط الحرير فله قلب محاط بمادة شمعية زلالية. ولتمييز هذه الخيوط الحريرية عن الخيوط النباتية يوضع عليها حامض البكريك Picric [1] ولونه أصفر فاذا تلونت به كانت حريرا صحيحا والا فلا

ولتمييز الحرير عن الصوف مثلا يوضع القماش في محلول قلوي من أكسيد الرصاص فاذا تلون باللون الاسود دل ذلك على أنه صوف لوجود مادة الكبريت فيه فتتحد مع الرصاص وتحدث هذا اللون الاسود، أما الحرير فليس فيه هذه المادة الكبريتية

والحرير يمتص الرطوبة بكثرة وهو موصل ردئ للكهرباء ويقال انه يحفظ الروائح وجراثيم الامراض

ولا يحتاج الجسم الى لبس الحرير الا اذا كان مصابا بداء الحكة، ولا شك أن الشارع يبيحه في مثل هذا المرض فقد لبسه بعض الصحابة بأمر رسول الله (ص) في ذلك المرض ، لان الضرورات تبيح المحظورات

ويؤخذ من الحيوانات أيضا الفرو والريش والجلود . أما الفرو فيستعمل في البلاد القطبية ، والريش يستعمل للزينة غالبا، والجلود تستعمل في الاحذية وغيرها

(٢) مايتخذ من النبات

القطن : وهو خيوط تحيط ببزور شجرة معروفة تنبت في البلاد الحارة والمعتدلة كمصر ، وهذه الشجرة هي حقيقة شجرة مباركة. فقطنها ضروري للملابس والاثاث وغير ذلك، وبزورها يستخرج منها زيت جيد نافع في التغذية يسمى في مصر بالزيت الحلو . وهذه البزور تستخرج منها خلاصة تدر لبن المراضع ، وكذلك اذا أعطيت للانعام كثر لبنها ، وهذه الخلاصة تباع باسم (Lactagol) تصنع في المعامل الافرنجية . وتستعمل سيقان هذه الشجره في الوقود وقشر جذورها مجهض للحبالى

(١) كلمة يونانية معناها « مر »

والقطن كالصوف يغزل أولا ثم ينسج لصناعة الاقمشة منه ، وهو عبارة عن مادة السللولوز المتقدم ذكرها

واذا وضع القطن في محلول الصودا الـكاوية تحول الى مادة تشبه الحرير، وهي التي تصنع منها أكثر الاقمشة المسماة كذبا حريرا

وخيوط القطن تتحمل الغسـل والغلي ، وهي تمتص الرطوبة امتصاصا رديئا وتوصل الحرارة جيدا ولذلك كانت للملابس القطنية مبردة

الـكتان : يؤخذ من سيقان شجرة مخصوصة بأن تخمر هذه السيقان في مكان رطب ثم تدق الى أن تتفرق خيوطها ثم تمشط، ومن بزور هذه الشجرة يستخرج الزيت المسمى بالزيت الحار. وهو فضلا على كونه مغذيا مدر للبول ومنفث للبلغم ، وتستعمل هذه البزور أيضا في عمل الضمادات (اللبخ) . والمنسوجات الـكتانية موصلة جيدا للحرارة وامتصاصها للرطوبة ردئ كالقطن ولـكنها أغلى ثمنـا منه لنعومتها وبريقها

القنب : يؤخذ من سيقان شجرة أخرى كما يؤخذ الـكتان ولـكنه خشن جدا وقل ان يستعمل الا في الحبال والقلاع والاكياس الخيشية. ومن هذا النبات يؤخذ الحشيش، وهو تلك المادة المغيبة الملعونة . وبزر القنب يستعمل لغذاء الطيور

ألوان الملابس وسعتها

أما ألوان الملابس فتأثيرها في الحرارة كما يأتي : الابيض يمتص الحرارة امتصاصا رديئا جدا فهو أبردها، ويليه الاصفر فالاحمر فالاخضر فالازرق فالاسود، ولذلك اذا وضعت قطعة من ثلج في قماش اسود وقطعة أخرى في قماش أبيض ذابت الاولى أسرع من الثانية لان الابيض يطرد الحرارة والاسود يمتصها وتنفذ منه الى الثلج، وكذلك يرتفع زئبق الترمومتر درجات اكثر اذا وضع على قماش اسود

ومن الخطأ لبس الملابس الملونة فوق الجلد مباشرة فان اكثر الالوان تشتمل على مادة سامة فتهيج الجلد ، واذا امتصت منه افسدت الصحة

ويجب أن تكون الملابس غير ضيقة والاعاقت الدورة والتنفس وشوهت شكل الاعضاء، كمشدات الافرنج وأحذية أهل الصين . ولبس الاحذية الضيقة ضار جدا

بالاقدام فقد يغوص بعض الاظفار في اللحم ويحـدث قروحا والتهابات تؤذي الشخص أذى بليغاء زعلى هذا ما تحدثه الاحذية الضيقة في بشرة القدم من الحلمات الصلبة المؤلمة

نظافة الملابس

أما نظافة الملابس فهي واجبة طبا وشرعا لقوله تعالى (وثيابك فطهر) فهي فرض على المسلم وإن لم يشترطها بعضهم في صحة الصلاة

واما المضار الناشئة من قذارة الثوب فهي عديدة واليك بيان بعضها :

(١) اذا ترا كم العرق والافراز الدهني في الملابس منعها امتصاص العرق وعاق الجلد عن تأدية وظيفته وأحدث حكة فبثورا أو دمامل . وهذا هو أهون المضار

(٢) اذا اتسخت الملابس كثر فيها القمل والبراغيث وهما من أشد الحيوانات فتكا بالانسان ، فان القمل ينقل الى الانسان الحمى التيفوسية والحمى الراجعة، والبراغيث تنقل اليه الطاعون فللوقاية من هذه الامراض الفتا كة يجب تطهير الملابس من سائر الحشرات

(٣) الملابس القذرة كثيرا ما تكون سببا في نقل العدوى من شخص الى آخر اذا تناقلاها أو لمساها، فمثلا الجرب والارضة الجلدية (تينيا) كثيراما تنقل بهذا الطريق. واذا تنجس الثوب بالبول أو البراز أو الصديد أو الدم كان سببا في نقل الحمى التيفودية والدوسنطارية والديدان الخيطية والرمد الصديدي والزهري وغير ذلك . واذا كان الشخص من حاملي الامراض — وسيأتي بيـان ذلك — كانت بعض مفرزاته معدية ولو كانت صحته جيدة

وحيث ان طهارة الثوب فرض وهذه الطهارة لاتكون تامة الا اذا خلا الثوب من البول والبراز وغيرهمـا وخلوه منهما لا يكون الا بالاستنجاء فينتج من ذلك أن الاستنجاء فرض على المسلم

وأحسن طريقة لتطهير الثوب أن يغلى غليا جيدا نحوا من نصف ساعة ثم بعد ذلك يغسل بالماء والصابون ثم ينشر في الشمس كالمعتاد. ولا عيب في هذه الطريقة الا انها تجمد المواد الزلالية كالدم والصديد فيتعسر ازالتهما تماما من الثوب، أما غسله

بالماء البارد قبل الغلي فيذهب تلك المواد بسهولة ولـكنه يلوث الايدي والماء، فاذا اتبعت هذه الطريقة الاخيرة وجب غسل الايدي غسلا جيدا وتطهيرها بوضعها في مادة مطهرة كالغول (الـكحول) وغيره، والواجب ان يغلى الماء الذي غسلت فيه قبل أن يلقى منعا لانتشار الامراض بين الناس

فصل

في تنظيف الجسم كله تفصيلا

﴿ مع بيان فوائد ذلك وتطبيقها على الدين الحنيف ﴾

نظافة الرأس تكون بحلقه أو قصه ثم يغسل بالماء الساخن والصابون مع الدلك بشيء خشن كالليف . ولم ينه الشارع عن الحلق الا في الاحرام ولـكنه أباحه لمن به مرض أوأذى من رأسه. والحلق واجب طبا لإزالة الحشرات ولتمكين الأدوية من برء أمراض الشواة (جلدة الرأس) ولعلاج جروحها أو كسور عظامها ولوضع الضمادات الباردة فوقها في الصداع أوضربة الشمس أو النزف المخي أو غير ذلك . واذا أبت امرأة حلق رأسها لوجود قمل أوصئبان فيـه أمكن اذهاب ذلك بصب زيت البترول فوق شعرها فان ذلك قاتل للقمل ، وحمض الخليك بنسبة ١ — ٤ يسهل استخراج الصئبان من الشعر — كما سبق —

واذا تركت نظافة الرأس أضر الانسان القمل وحدث برأسه قروح و بثور وأمراض أخرى كالقراع فيتسمم دمه بما في رأسه من القروح وقد تصيبه الحمرة أو تلتهب العقد اللمفاوية في العنق أو يصيبه داء الخنازير

غسل الوجه واجب كذلك وخصوصا لتنظيف العينين فان ذلك يقيهما من أرماد كثيرة ، والاحسن ان تغسل العينان في كل يوم مرة أو مرتين بمحلول حامض البوريك المشبع (أي بنسبة ٤ في المائة) بعد الغسل بالمـاء والصابون

أما نظافة الاذن فيكفي أن تغسل كما تغسل في الوضوء ولا يجوز اللعب في داخلها بشيء فان ذلك قد يحدث التهابافيها أو يثقب طبلتها. وحركة الفكين في

المضغ وغيره كفيلة باخراج أفها (وسخ الآذان) وعندئذ يسهل غسله، واذا أهملت الآذان من الغسل يعرض لها صمم من تراكم الاوساخ فيها وطنين مع دوار، وقد يحدث ألم فيها، وسعال مستمر

غسل الانف يكون بالاستنشاق والاستنثار، اما نتف شعره فمذموم وقد ورد في بعض الآثار مايفيد مدح نبات شعر الانف . وحكمته ان هذا الشعر ينقي هواء التنفس من التراب والميكروبات وغيرهما

نظافة الفم هي من أكبر المهمات وتكون بالمضمضة والسواك ولذلك كاد الشارع ان يفرضه، ويرى بعض أطباء الافرنج الآن ان السواك خير من مسفرتهم (فرشتهم) لان السواك يمكن تجديد طرفه المستعمل مرارا كثيرة ارخص ثمنه ، أما الفرشة فلا يمكن تجديد شعرها فتترا كم فيها أنواع الميكروبات الضارة بالاسنان ولذلك قال بعض اطباء الاسنان ان السبب في انتشار أمراضها بينهم هو استعمال هذه الفرشة ونصحهم باستعمال السواك وتجديده كثيرا أو بغلي الفرشة بعد كل استياك

أما مرض الاسنان فانه مؤلم جدا ومفسد للهضم ويحدث منه تسمم في الدم فيصفرلون الشخص وتضعف قواه، وقد يصيبه داء الخنازير أيضا، واذا مرض ضعفت مقاومة جسمه عن احتمال الامراض فلذا كان الواجب العناية بنظافة الاسنان نظافة تامة

أما الشارب فالافضل قصه فانه تترا كم فيه الاوساخ والميكروبات فتصل الى طعام الانسان وشرابه. ولا بأس بترك اللحية لانها بعيدة عن ذلك وهي مظهر من مظاهر الرجولية

الابطان يجب نتفهما أو حلقهما منعا لتراكم القمل أو الميكروبات فيهما، وقد تتولد عفونات فيهما تحدث روائح كريهة، ومن الميكروبات التي تنمى في الابط مايحدث العرق الاحمر

وكذلك يجب تقليم الاظافر وتخليل ما في الايدي من الثنيات فان وجود الميكروبات فيها وتحت الاظافر ضار جدا لسهولة وصولها الى طعام الانسان وشرابه ومن أشهر الامراض التي تصل بهذا الطريق هي الحمى التيفودية ولذلك يجب

غسل اليدين غسلا جيدا قبل كل طعام. ومن الامراض التي كثيرا ما تصيب الايدي داء الجرب، فان حييوينه اذا وصل الى الايدي ولم يطرد عنها بالتنظيف المتوالي ثقب الجلد وأحدث هذا الداء . وأحسن الوسائل المتبعة لوقاية الطعام من كثير من الميكروبات الاكل بالشوكات والملاعق واستعمال السكاكين

ويجب حلق العانة وكذلك الختان منعا لتراكم القمل والصئبان في شعر العانة وتجمع القاذورات تحت القلفة؛ وقمل العانة هذا هو كقمل الابط واللحية وغيرهما فاذا يمكن انتشاره من العانة الى مواضع أخرى من الجسم حتى الحواجب واهداب العين، ولا يخفى ما في ذلك من الضرر العظيم . وفي حلق العانة شيء من تحريك داعية الوقاع لتهيج هذا المكان عند نبات الشعر

ومن مستلزمات نظافة السبيلين الاستنجاء ، وذلك للمحافظة على طهارة الثوب المفروضة ومنع الروائح الكريهة وانتشار الامراض، وقد يقي الانسان أيضا من السيلان والافرنجي . ويكون لاستنجاء باليد اليسرى ، ولا ينبغي الاكل بها. ويتحتم غسل الايدي بعد كل استنجاء غسلا جيدا ، وكذلك يجب بلها بالماء قبله لمنع تشرب اليد للمواد الكريهة وللميكروبات بقدر الامكان

ومن الواجب أيضا نظافة القدمين وتكون بالغسل الجيد المتكرر والتخليل، فان ذلك مانع لتسلخاتهما ولروائحهما الكريهة. فانه اذا تراكمت الاوساخ فيهما فقد يعرض للاخمصين ولما بين الاصابع تسلخات ربما ادت الى التهاب في العقد الأربية ونشأ عنه حمى وخراج في ذلك الموضع ، وتلك التسلخات مؤلمة وتعوق الانسان عن المشي وتعطله عن أعماله

وبعد ذكر هذه النظافة التفصيلية يجب علينا تكرار الحض على تنظيف سائر الجسم ودلكه جيدا بالماء والصابون ، فان نفع ذلك معلوم مما سبق. ويجب علينا تكرار ذكر ما للقمل من المضار — خصوصا قمل الجسم أو الملابس — فانه فضلا عن نقله للحميات المذكورة قد يكون هو وحده سببا في احداث حمى شديدة — كما قلنا — وذلك اما بسبب تهييج اعصاب الجسم بلدغه أو بحقن سموم

في الجسم من افرازه، فقد شوهد ان بعض الناس قد أصابته حمى في منتهى الشدة حتى زادت حرارته عن أربعين، وعند البحث في جسمه لم يوجد به مرض ولم يكن هناك سبب لتلك الحمى سوى وجود قمل كثير، وبعد النظافة التامة زالت عنه الحمى في الحال

زد على ذلك ماللقمل من المضار الاخرى كاقلاق راحة الانسان ومنع النوم عنه واحداث بثور في الجسم من الحك

القاذورات والنجاسات

القاذورات التى نعتبرها ضارة طبا هي عين النجاسات المعروفة شرعا، وأشهرها البول والبراز والدم والقيح أو الصديد والقيء والمني. ولم يعتبر اللعاب والمخاط من الشخص السليم ضارا في الشرع لانه حقيقة لا يوجد فيه ميكروب يضر الانسان ضررا بليغا اللهم الا ميكروب الالتهاب الرئوي والميكروب اللعابي (الذي ذكر في صفحة ٦٩ من هذا الكتاب) ولكن هذين الميكروبين وغيرهما يسكنان عادة في فم كل شخص، ولا يضرانه الا اذا ضعفت بنيته عن مقاومتهما، ولذلك كان الاحتراس من لعاب الشخص السليم ومخاطه لا فائدة كبيرة فيه

أما البلغم فهو شيء غير المخاط العادي إذ انه يشتمل على شيء من الصديد وغيره كبلغم المسلولين وهو خطر جدا، فيجب اعتباره نجسا لاشتماله على الصديد او الدم كما ثبت ذلك بالبحث المجهري. وقد نص الفقهاء على أن كل مايخرج من الصدر من نخامة وغيرها نجس

وقال فقهاء الحنفية ان مازاد من هذه النجاسات عن قدر الدرهم وجب تطهير الثوب وغيره منه، ولا يخفى أن المصاب بالسل وغيره من الامراض الصدرية يُخرج من فمه كثيرا من الصديد الذي قد يزيد عن قدر الدرهم

فلذا كان الواجب عندهم أن يتطهر الانسان من البلغم اذا أصاب ثوبه بهذا المقدار كما يتطهر من البول والبراز فانه لافرق بينهما وكلاهما ضار ضررا بليغا. على أن الامام الشافعي يرى أن القليل والكثير من النجاسات سواء، فيجب التطهر

حتى من قليل البلغم الذي يخرج من الصدر

نظافة البيوت وشروطها الصحية

من مقتضى الطهارة في الاسلام ان يكون مكان الشخص نظيفا طاهرا لئلا يتنجس ثوبه فطهارة البيوت — فضلا عن كونها واجبة طبا — هي واجبة شرعا

ومن أكثر الاسباب نشرا للامراض أن يدوس الانسان في الطريق على مايلقى فيه من القاذورات وميكروبات الامراض ثم يأتي الى بيته ولا يخلع نعليه فان ذلك مماينشر في البيوت أكثر الامراض كالدفتيريا والسل وكثيراً من الحميات العفنة

فالواجب أن تكون أرض البيت وفرشه وحيطانه وسقفه وكل ماحوى في غاية النظافة بحيث لا تتلوث بشيء من النجاسات المذكورة آنفا. وكذلك يجب أن تنظف من القمل والبق والبعوض (الناموس) والذباب والفيران والبراغيث وغير ذلك بأن تسد جميع شقوقها ويتكرر تنظيفها خصوصا بالجير أو نحوه وتغسل أرضها ويصب في مراحيضها شيء من البترول [1] لقتل العلق (صغارالناموس) وبيضه

وينبغي ان تكون المساكن طلقة الهواء ذات منافذ كثيرة معرضة لاشعة الشمس بعيدة عن الاماكن الرطبة. والافضل أن تكون مراحيضها في الجهة الجنوبية بمصر — أو ما يقابل الجهة التي يكثر الهواء منها في كل بلد — وتكون حيطان هذه المراحيض مصقولة صقلا جيدا بحيث لا تنفذ المياه منها الى أرض المنزل فتملأه بالرطوبات والروائح الكريهة وتفسد هواءه، ويجب ان يكون لمثل هذه المراحيض منافذ كالمداخن تعلو فوق سطح المنزل من الجهة الجنوبية لتصريف الروائح الكريهة. فاذا اتبعت جميع هذه الشروط وكانت الشوارع متسعة كانت المساكن صحية.

ومن الناس من يجمع المواد البرازية وغيرها في أواني مخصوصة ثم تحمل الى خارج المدن، وذلك خير من تلويث أرضها بها. والافضل من ذلك كله أن يعمل لها مجار صقيلة (كقنوات مواسير) الحديد لتحمل هذه المواد الى مستودع بعيد عن المدينة

(١) وذلك بنسبة أوقية من هذا الزيت لكل ١٥ قدما مربعة من سطح ماء المرحاض أوغيره كالمستنقعات

كلها بعدا شاسعا. وينبغي الانتباه الى هذه المواسير جيدا بحيث لا ينفذ منها شيء الى ما يجاورها عادة من قنوات الماء

والسكنى في الاماكن الرطبة العفنة مضعفة للصحة بافسادها الهواء واحداثها البرودة واكثار الميكروبات فيصاب الشخص بالنزلات الشعبية والرئوية ونزلات الانف والحلق والتهاب اللوزتين بل الدفتيريا أيضا والروماتزم وغير ذلك

والواجب أن تكون أفواه المراحيض حيث يتبرز الانسان مسدودة بمثل المنجنيق أو السيفون[1] Siphon المستعملين الآن

وماء السيفون يذيب الغازات ويمنع أكثرها من الدخول في البيت ، وكذلك يعوق خروج البعوض والخنافس والصراصير والفيران. ويجب تجديد ماء السيفون مرارا حتى في اليوم الواحد

وأعظم ضرر للنوع المسمى (Anopheles) من البعوض - الناموس - هو احداث حمى النافض (الملاريا أو الحمى الاجمية) ومن الناموس ما ينقل أيضا الحمى المالطية والجذام - كما سيأتي -

وأما أهم ضرر للجرذان (الفيران الضخمة) فهو أنها تصاب بالطاعون الذي ينتقل منها الى الانسان بواسطة بعض أنواع البراغيث

وأما البق فقد ينقل الطاعون أو الجذام وغيرهما

وأما الخنافس والصراصير والنمل فضررها الاكبر أنها تنقل القاذورات والميكروبات من المراحيض وغيرها الى طعام الانسان وشرابه وملبسه وفرشه وكفى بذلك ضررا عظيما

المطهرات

علم مما سبق أن أصل جل الامراض - ان لم نقل كلها - هو القاذورات بما فيها من الميكروبات[2] وسمومها ، فلذا تجب معرفة بعض الاشياء القاتلة لهذه الاحياء

١ كلمة يونانية معناها الاجوف أو الفارغ (٢) لفظ يوناني معناه حرفيا الاحياء الصغيرة يطلق في الاصطلاح على الاحياء الاولية التي تتركب في الغالب من خلية واحدة. وعبر عنها المنار بالجنة والجن - بالكسر فيهما - لدلالة مادتها على العوالم الخفية

الدنيئة، وهي المسمات بالمطهرات

وأشهر هذه المطهرات وأكثرها استعمالا ما يأتي : —

(١) الشمس فان أشعتها تقتل الميكروبات

(٢) النار وهي أقوى المطهرات وأسهلها وتستعمل كثيرا في غلي الاشياء الملوثة. ولما كان بعض بزور الميكروبات (حبيباتها) قد يقاوم درجة الغليان (أي درجة ١٠٠) لمدة ٥ أو ١٠ دقائق فلذا يجب اطالة مدة الغلي فوق ذلك . فاذا أصيب شخص بمرض معد فللوقاية منه يجب غلي ملابسه وفرشه وجميع ما استعمله في مرضه كالاواني وغيرها . أما الاشياء التي لا يمكن غليها كقطن الفراش ونحوه فهذه تطهر بوضعها في افران مخصوصة يسلط عليها البخار في درجة الغليان مدة ساعة حتى ينفذ الى باطن ما فيها من الاشياء

(٣) الحوامض كحامض الهيدروكلوريك والنيتريك (ماء النار) وهي كلها مطهرة تطهيرا شديدا، ولذلك جعل الله تعالى في عصير المعدة حامض الهيدروكلوريك -بنسبة ٢ في الالف- فان من أعظم فوائده تطهير الطعام والشراب

(٤) الجير ويستعمل لطلاء الحيطان والسقف وغير ذلك . واذا وضع في سطول (جرادل) المواد البرازية نفع نفعا عظيما، ويستعمل لهذا الغرض بنسبة واحد أو اثنين منه الى عشرة من الماء

أما ماء الجير- وهو الذي يتحصل عليه باذابة الجير في الماء المقطر حتى يتشبع به ثم يصفى- فانه مطهر، مانع للقيء والاسهال، مصلح لهضم اللبن في معدة الاطفال مقو لعظامهم، ويمكن مزجه باللبن بنسبة واحد الى واحد أو واحد الى اثنين من اللبن، ويمكن أيضا شربه بدون مزج باللبن بمقدار أربع أواقي . واذا مزج ماء الجير بزيت الزيتون أو بزيت بزر الكتان بنسبة واحد الى واحد من كل منهما كان دهانا نافعا في الحروق — كما سيأتي —

(٥) الغول النقي(الكحول الخالص) مطهر عظيم يسهل الحصول عليه لغسل الايدي كلما مست مريضا

(٦) البوريك بنسبة ٤ في ١٠٠ مطهر لطيف للاعين — كما سبق — واذا وضع في

اللبن بنسبة واحد الى ألف مثلا حفظه من الفساد مدة، ولذلك يستعملونه في حفظ كثير من الاطعمة، ولكن استعماله لمدة طويلة قد يضر بالجسم وينقص وزنه

(٧) الفنيك يستعمل بنسبة واحد الى عشرين لغسل الايدي وغيرها

(٨) الليزول — ولونه وقوامه كالعسل الاسود — يستعمل بنسبة واحد الى المئة عادة

(٩) الايزال — ولونه كالطحينة المضاف إليها شيء من الماء — يستعمل بنسبة واحد الى مئتين أو واحد الى أربع مئة. ويستعمل في الاسهال باضافة ١٥ نقطة منه على كل رطل مصري من اللبن، فانه نافع فيه وكذلك في الدوسنطاريا

وهذه المواد الثلاثة الاخيرة تستخرج من قطران الفحم الحجري

ومن المطهرات أيضا السليماني (وهو مركب زئبقي يستعمل عادة بنسبة ١ الى ٢٠٠٠) واملاح النحاس (كالتوتيا الزرقاء) واليود والغلسرين. وغير ذلك كثير، وكلها مطهرات عظيمة النفع

النظافة والعلاج

كما أن النظافة عليها مدار حفظ الصحة هي أيضا الاصل الاصيل لعلاج جميع الامراض والجروح وسائر العوارض الجراحية فان علاج ذلك كله مبني على النظافة والتطهير، إذ يكفي لعلاج أي جرح وعمل أي عملية جراحيـة أن يكون كل ما تستعمله مطهرا طهارة تامة حتى اذا بقرتَ البطن بآلة طاهرة أمكن درء الموت عن المصاب بكل سهولة بالتزام النظافة، ويكفي في علاج جميع الاصابات والحروق ونحوها أن تنظف نظافة تامة ويتكرر ذلك يوميا حتى يبرأ الجرح. ويكفي في الغالب أيضا لعلاج أي جرح أو سحج أن يغسل بالماء المغلي وأن يضمد بالقطن والاربطة المطهرة - إما بالغلي أو بالبخار الساخن - بدون احتياج الى أي دواء آخر

وفائدة تضميد الجروح هي منع كل ما يوصل الميكروبات الى الجرح كالاتربة والذباب والهواء والايدي والماء غير المغلي، وبالضماد أيضا يقف النزف بسبب الضغط على الجرح، وبه أيضا تحصل راحة المكان المجروح من الحركة. وهذه

الاشياء كلها هي اهم ما يطلبه الجرح من العلاج ، وأسها كلها النظافة التامة

وخلاصة ما تقدم كله أن العاقل يجب عليه أن يكون نظيفا في جسمه وملبسه وفراشه ومسكنه ومأكله ومشربه وفيما يعالج به أمراضه وإصاباته

تذييل للفصول السابقة في الذباب ومضاره

لا يخفى ان من عادة الذباب أن يجتمع على القاذورات والنجاسات ثم ينتقل منها الى طعام الانسان أو يسقط في شرابه أو يقف حول عينيه وبذلك تنتقل جراثيم الامراض الى الانسان وتنتشر بين أفراد هذا النوع، ومن أمثلة ذلك وقوفه على أعين المصابين بالرمد الصديدي ثم انتقاله الى الاعين السليمة فتصاب بهذا الرمد، ومن أسباب انتشار الحمى التيفودية بشكل وبائي وقوف الذباب على البراز مثلا- اذا لم يدفن فى الارض دفنا جيدا- فيتلوث الذباب بميكروب التيفود وبعد ذلك يقف على الخبز مثلا . ومثل التيفود الهيضة (الكوليرا)والدوسنطاريا

ومن الذباب ما يلدغ بعض الحيوانات المصابة بالجمرة الخبيثة ثم يأتي الى الانسان فيلقحه بها، ومنه ماينقل بلدغه مرض النوم وغيره من شخص لآخر. ويقال ان الپلنغرا تنتقل أيضا بلدغ بعض أنواعه — كما سبق — ومن المحقق ان حمى ثلاثة الايام وسبعة الايام والحمى البسيطة المستمرة في الهند كلها تنتقل بلدغه ، وحمى ثلاثة الايام تسمى أيضا باپاتسي وسميت بذلك من اسم الذباب الذي يحدثها [Phlebotomus pappatasii] وميكروب هذه الحميات وراء المجهر على مايظهر

ومن مضار الذباب أيضا انه قد يضع بيضه في الجروح أو في الآذان أو في تجاويف الانف فيفقس هذا البيض ويخرج منه النغف (وهو ما يسمى الآن باليرقات ويشبه الدود) وهذه الديدان تأكل من جسم الانسان وتحدث فيه التهابا شديدا، واذا أصابت جروحه آلمته ايلاما شديدا ويحصل بسببها أيضا التهاب الجرح وحمى ، وتعوق برء الجرح مدة مديدة حتى أن الجرح لا يشفى الا اذا خلص منها . ومن أنواع هذه الديدان ما يأكل جثث الموتى

وقد قرر أطباء الانكليز ان من أعظم أسباب انتشار الحمى التيفودية بين

الجنود في حرب الترنسفال (من سنة ١٨٩٩ — ١٩٠٢) كان الذباب وساعده في ذلك الريح بنقل الاتربة الملوثة بالبراز الى طعام الجنود

فلذا يجب ازالة جميع القاذورات من حول الانسان ودفن المواد البرازية ونحوها دفنا جيدا أو إبادتها بأية طريقة بحيث نأمن وقوف الذباب عليها وانتقاله الينا، وأحسن الطرق حرق القاذورات أووضع الفنيك أو الفورمالين عليها

واذا وقف الذباب على الاعين وجب طرده في الحال، واذا وقف على الطعام أو سقط في الشراب فالاسلم تطهيرهما بالنار . وكلما كثر الذباب وجب السعي في إبادته بقدر الامكان. واعلم أن الذبابة الواحدة تضع نحو ٩٠٠ بيضة، وحياتها لاتتجاوز ثلاثة أسابيع

أما مارواه البخاري عن أبي هريرة من ان النبي (ص) قال « اذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فان في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء » فهذا الحديث مشكل وإن كان سنده صحيحا فكم في الصحيحين من أحاديث اتضح لعلماء الحديث غلط الرواة فيها كحديث « خلق الله التربة يوم السبت » مثلا، وغيره مما ذكره المحققون، وكم فيهما من أحاديث لم يأخذ بها الأئمة في مذاهبهم فليس ورود هذا الحديث في البخاري دليلا قاطعا على أن النبي (ص) قاله بلفظه مع منافاته للعلم وعدم امكان تأويله، على أن مضمونه يناقض حديث أبي هريرة و ميمونة وهو أن النبي سئل عن الفأرة تقع في السمن فقال (إن كان جامدا فاطرحوها وما حولها وكلوا الباقي وإن كان ذائبا فأريقوه أولا تقربوه) فالذي يقول ذلك لايبيح أكل الشيء اذا وقع فيه الذباب فان ضرر كل من الذباب والفيران عظيم . على أن حديث الذباب هذا رواه أبو هريرة وفي حديثه وتحديثه مقال بين الصحابة أنفسهم خصوصا فيما انفرد به كما يعلم ذلك من سيرته.[1] وغاية ماتقتضيه صحة السند

(١) اليك شيئا من تاريخ حياته :—
أسلم رضي الله عنه سنة (٧) هجرية ، فصحب النبي ثلاث سنين ولم يكتب شيئا من الحديث ، وقال عن نفسه إنه كان كثير النسيان فدعى له الرسول ـ كما قال ـ فذهب عنه ذلك . وكان فقيرا أكولا يطعم كل يوم من بيت النبي أو من بيت أحد أصحابه ، فكان يحب أن يتودد الى الناس ويسليهم بكثرة التحديث والاغراب في القول ليشتد ميلهم إليه. وربما كان مصابا بالصرع ـ كما يستفاد =

في أحاديث الآحاد الظن فلا قطع بأن هذا الحديث من كلام النبي (ص) وكانوا يروون الحديث بالمعنى فيجوز ان يكون لفظ الراوي لم يؤد المعني المراد والله أعلم

وهب أن الرسول قال ذلك حقيقة فمن المعلوم أن المسلم لايجب عليه الاخذ بكلام الانبياء في المسائل الدنيوية المحضة التي ليست من التشريع ، بل الواجب عليه أن يمحصها ويعرضها على العلم والتجربة فان اتضح له صحتها أخذبها والاعلم أنها مما قاله الانبياء عليهم السلام بحسب رأيهم ، وهم يجوز عليهم الخطأ في مثل ذلك .

= من بعض الروايات الواردة في ترجمته ـ والصرع مرض مشهور عند الأطباء يورث ضعف العقل أو الجنون

روى بعد وفاة رسول الله (٥٣٨٤) حديثا حتى ضج منه كبار الصحابة رضي الله عنهم وملوا كثرة حديثه ، وقالت له عائشة (إنك لتحدث بشيء ما سمعته) ولما سمع الزبير بعض حديثه قال (صدق كذب لأنه سمع هذا من رسول الله ولكن منه ما وضعه في غير موضعه) ـ راجع تاريخه في كتاب « الاصابة في تمييز الصحابة » لابن حجر ـ

وروى ابن عساكر في تاريخه عن السائب بن يزيد قال سمعت عمر بن الخطاب يقول لابي هريرة (لتتركن الحديث عن رسول الله أو لألحقنك بأرض دوس) ومما روي عنه أنه قال (لقد حدثتكم باحاديث لو حدثت بها زمن عمر بن الخطاب لضربني عمر بالدرة) يعني السوط . وروى الطبراني في الكبير عنه أنه قال قال رسول الله (إذا لم تحلوا حراما ولم تحرموا حلالا وأصبتم المعنى فلا بأس) وقال أيضا إنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول (من حدث عني حديثا هو لله عز وجل رضا فانا قلته وان لم أكن قلته) كما رواه ابن عساكر في تاريخه عنه مع أن المروي بالتواتر عن رسول الله أنه قال (من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده في النار) رواه مئتان من الصحابة وهو ينافي ما قاله ابو هريرة ، وهذا الحديث اضطر عمر لتذكيره به حينما بلغته كثرة حديثه كما في « الاصابة » أيضاً

مات رضي الله عنه بالمدينة سنة ٥٧ هجرية

هذا وإنما نقلنا مانقلناه هنا من تاريخ أبي هريرة ليكون تذكرة وهداية لأهل العقول الراجحة الحرة والنقد الصحيح ، لكيلا يغتر أحد بمثل تلك الأحاديث المنافية للعلوم العصرية المبنية على الحس والمشاهدة والبحث الدقيق . ومن شاء زيادة الايضاح فليقرأ ما كتبته في مجلة الحياة في الجزء الخامس من المجلد الرابع الصادر سنة ١٣٢٥ هجرية

وقد حقق هذه المسألة القاضي عياض في كتابه الشفاء فليراجعه من شاء . ومما رواه فيه عن النبي (ص) قوله « انما أنا بشر فما حدثتكم عن الله فهو حق وما قلت فيه من قبل نفسي فانما أنا بشر أخطئ وأصيب» (*)

(*) المنار : اذا كان حديث الذباب مرويا بلفظه فيحتمل ان يكون مبنيا على رأي كان منقولا فذكر على ظاهره ، ويحتمل أن يظهر بعد ما يزيل ما فيه من الاشكال . وهو على كل حال ليس من عقائد الدين ولا من أحكامه ، بل هو من قبيل مسألة تلقيح النخل فقد رآهم (ص) يلقحون فقال « ما أظن ذلك يغني شيئا» فتركوه ، فأخبر بذلك فقال « ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فاني إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فاني لن أكذب على الله» وفي حديث رافع بن خديج انه (ص) انكر ذلك لما قدم المدينة مهاجرا،أي ولم يكن يعلم من أمر النخل شيئا، وأنه قال لهم« لعلكم لو لم تفعلوا الكان خيرا » فتركوه فنقضت أو فنقصت فذكروا له ذلك فقال « انما أنا بشر ، اذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به، واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما انا بشر» وفي حديث عائشة وأنس أنه قال « لو لم تفعلوا لصلح » فخرج شيصا (اي خرج التمر رديئا) فمر بهم فقال «ما لنخلكم ؟ » قالوا له قلت كذا وكذا. قال «انتم أعلم بأمر دنياكم » روى ذلك كله مسلم في صحيحه

وأما كلام الكاتب في أبي هريرة (رض) فهو كلام من يسيء الظن فجمع من الاقوال ما يؤيد ظنه . وفى نقوله نظر . فاما الصرع أو الاغماء فقد صح أنه كان من الجوع لامن المرض، وأما ماروي عن الطبراني وابن عساكر من أسناده حديثين يدلان على استحلاله ان يقول على النبي (ص) ما لم يقله فنمنع أن يكون قد صح عنه، وقدرووا عنه أنه كان يبدأ تحديثه بحديث «من كذب علي متعمدا» الخ وأما استغراب بعض الصحابة لكثرة حديثه فقد بين هو لهم سببه . وهو ملازمته للنبي (ص) أي مع جودة حفظه وأما عمر فقد أنكر على غيره كما أنكر عليه كثرة التحديث لحكمة ليس هذا محل بيانها

وقد ثبت أنه كان من أجود الناس حفظا . ولايسهل الحكم فيما روي عنه من المشكلات التي انفرد بها الااذا جمعت واحصيت اسانيدها .وكان يروي عن كعب الاحبار مصدر الغرائب الاسرائيلية الكثيرة . وقد كان من أسباب الغلط في الحديث حسبان الموقوف الذي لامجال للرأي فيه من قبيل المرفوع، وقديغلط بعضهم فيسنده الى النبي (ص) وهو من الاسرائيليات لامن الرأي ، فينظر في ذلك وغيره عند تمحيص تلك المشكلات .

الحرق

الحرق يحصل عادة إما بالنار أو بالسوائل المغلية وهو خطر جدا على الحياة، وخطره يختلف بحسب اتساعه وعمقه ومكانه وعمر المصاب؛ فاذا أصاب الشخص حرق بسيط وعم جسمه كان خطرا على الحياة خصوصا في زمن الصغر، وحروق الرأس والصدر والبطن هي أشد الحروق خطرا. والغالب أن الحروق النارية أشد أذى بالجسم من حروق المياه المغلية لان المياه تبرد بسرعة وتسيل من على الجسم. أما السوائل التي كالزيت أو المعادن المصهورة، فلالتصاقها بالجسم تفتك به فتكا ذريعا. ويتميز الحرق الناري عن الحرق المائي بأن الاول يحترق فيه الشعر والملابس بخلاف الثاني

وللحرق أعراض موضعية وأعراض عمومية

أما الاعراض الموضعية فتنقسم الى ست درجات : —

(١) احمرار الجلد بدون اتلافه، والاحمرار يحصل بسبب كثرة ورود الدم اليه

(٢) تكوّن الفقاقيع بالجلد، وذلك بانسكاب بعض السوائل من أوعية الدم تحت الطبقات العليا للبشرة. وعند شفاء مثل هذه الدرجة تتولد طبقات جديدة للبشرة من الطبقات التي تحتها وقد يتلون الجلد بلون يخالف المعتاد

(٣) احتراق البشرة كلها وبعض الأدمة، وهو أشد الحروق ألما

(٤) احتراق الادمة مع البشرة كليهما. وعند شفاء مثل هذا الحرق يحصل انكماش شديد في الجلد مكان الحرق

(٥) احتراق الجلد كله مع بعض الانسجة التي تحته حتى العضلات

(٦) احتراق العضو كله وصيرورته فحما

وقد شوهد أن بعض النساء السمينات المدمنات شرب الخمور يحترقن بسرعة عجيبة بحيث يتعذر اطفاؤهن ولو بالماء الى أن يحترق الجسم كله تقريبا، ويحصل هذا الاحتراق عند وجود أقل سبب له كالاقتراب من فتيلة مشتعلة حتى ظن بعض الاطباء أنه يحصل بلا نار مطلقا، ويسمونه (الاحتراق الذاتي)

وأما اعراض الحرق العامة فهي ثلاث درجات : —

(١) الصدمة العصبية - فيصاب الشخص ببرودة شديدة وذهول حتى إنه قد لا يشعر بشيء من الألم وتضعف ضربات قلبه ونبضه وقد يقع في الغيبوبة ويموت

(٢) رد الفعل والالتهاب — وذلك يحصل بعد مضي يوم أو يومين، فترتفع حرارة الشخص وتصيبه الحمى ويقوى نبضه ويسرع، وقد يحصل له التهاب في الاحشاء كالتهاب الرئتين أو البريتون أو سحايا المخ ، وفي هذه الدرجة قد يصاب أيضا بقرحة ثاقبة اللاثني عشري

(٣) تكوُّن الصديد — وهو اذا طال وكان المكان متسعا أدى الى الاضمحلال فالموت

(المعالجة)

يطفأ المحروق أولا بأن يلف جسمه في الحال بشيء سميك ليمنع وصول الهواء اليه فتطفأ النار ، والاحسن أن يبل هذا الشيء الذي يلف به. ويشترط أن لا يلف الوجه بشيء خوفا من الاختناق. وإن لم يوجد شيء يتلفف به يمرغ الشخص على الارض ، وان وجدت قطعة لا تكفي الاجزاء من الجسم فينبغي التلفف بها مع التمرغ

وبعد اطفاء النار يجب الاحتراس التام من أن يمس جسم المحروق أي شيء غير مطهر ثم تُبط الفقاعات إن وجدت ويصفى السائل منها ، ولكن الاحسن ترك البشرة بدون إزالتها فانها تكون كالوقاية للجسم ثم يدهن الجسم كله بزيت بعد غليه وتبريده ، أو يستعمل مروخ الجير الذي تقدم ذكره

وهناك عدة طرق لتضميد الحروق تذكر في فن الجراحة، ومن أحسنها استعمال حامض البكريك (وهو مادة متبلورة صفراء اللون مركبة من الفنيك مع حامض النيتريك) يذاب في الماء بنسبة ٥ الى ١٠٠٠ أي يكون الماء مشبعا به ثم يدفأ ويغمس فيه الموصلي (الشاش) أو قماش آخر يسمى لنت Lint ويلف به المحروق، ويوضع فوق ذلك ورق زيتي أو حبَرة زيتية فقطن، ويترك هذا الضماد نحو ٣ أو ٤ أيام ثم يجدد ويترك لمدة أسبوع . وفائدة حامض البكريك هذا هي أنه مطهر

مجفف للحرق مسكن للالم وذلك هو كل ماينبغي

ولعلاج حالة المصاب العمومية في الطور الاول (طور الهبوط والرجة العصبية) يجب استعمال المنعشات ، فيلف الشخص بالملابس والاغطية السميكة حتى يدفأ، وتوضع زجاجات الماء الساخن حول رجليه وجنبيه، ويعطى له مثل القهوة أو الشاي الساخنين أو بعض الخمور — اذا لم يوجد ما يغني المسلم عنها — ويمنع عن الاغذية ماعدا اللبن وغيره من السوائل كالمرق ولا بأس من اعطائه جزءامن الافيون — قدر قمحة أو قمحتين — ان كان الألم شديداً. ويجب بعد ذلك أن يتولى باقي علاجه الطبيب حتى يشفى أو يموت

وأسباب الوفاة في الحرق عند حدوثه مباشرة متنوعة منها الاختناق بالدخان والغازات ، أو الفزع الشديد ، أو الرجة العصبية بسبب ألم الحرق

أصناف الاقلام العربية في الاسلام

(نموذج من كتاب انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم الغربي) (*

بقي الخط العربي على حالته القديمة غير بالغ مبلغه من الاحكام والاتقان في زمن الرسول والخلفاء الراشدين لاشتغال المسلمين بالحروب حتى زمن بني أمية فأبتدأ الخط يسمو ويرتقي وكثر عدد المشتغلين به . وفي أواخر ايامهم تفرع الخط الكوفي وكانت تكتب به المصاحف منذ أيام الراشدين الى أربعة أقلام اشتقها بعضها من بعض كاتب اسمه قطبة المحرر كان اكتب أهل زمانه ، ثم اشتهر بعده في أوائل الدولة العباسية رجلان من أهل الشام انتهت اليهما الرئاسة في جودة الخط وهما : الضحاك بن عجلان كان في خلافة السفاح فزاد على قطبة ، واسحاق بن حماد وكان في خلافة المنصور والمهدي فزاد بعد الضحاك وزاد غيره حتى بلغ عدد

*) المنار : تجد تقريظ هذا الكتاب في مكان آخر

الاقلام العربية الى أوائل الدولة العباسية ١٢ قلماً كان لكل قلم عمل خاص وهي: (١) قلم الجليل كان يكتب به في المحاريب وعلى أبواب المساجد وجدران القصور ونحوها وهو ما يسميه العامة الآن بالخط الجلي (٢) قلم السجلات (٣) قلم الديباج (٤) قلم اسطومار الكبير (٥) قلم الثلثين (٦) قلم الزنبور (٧) قلم المفتح (٨) قلم الحرم كان يكتب به الى الاميرات من بيت الملك (٩) قلم المؤامرات، كان لاستشارة الامراء ومناقشتهم (١٠) قلم العهود كان لكتابة العهود والبيعات (١١) قلم القصص (١٢) قلم الخرفاج . ولما ازدان عصر العباسيين بأنوار العلوم والعرفان وخصوصا في أيام المأمون اخذت صناعة الخط تنمو وتنتشر وتتقدم كسائر العلوم التي ضرب فيها المسلمون بسهام نافذة لاحتياجهم اليها فتنافس الكتاب في أيامه في تجويد الخط فحدث القلم المرصع وقلم النساخ وقلم الرياسي [1] نسبة الى مخترعه ذي الرئاستين الوزير الفضل بن سهل . وقلم الرقاع وقلم غبار الحلبة [2] وكان يكتب به بطائق حمام الرسائل، وهكذا كان كل قلم معداً لنوع من الكتابة كما تكتب الآن الانعامات بالرتب بقلم خاص ، والاوراق الديوانية بقلم خاص، وألواح الحجر بخط آخر وكتب التعليم بآخر

فزادت الخطوط العربية على عشرين شكلا وكلها تعد من الخط الكوفي فهو اذ ذاك كان خط الدين والدولة. وقد كان يكتب به القرآن منذ أيام الراشدين كما أسلفنا حتى أواسط العصور الاسلامية (ش ٤) . واما الخط النسخي فقد كان مستعملا بين الناس لغير المخطوطات الرسمية حتى نبغ الوزير أبو علي محمد بن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فادخل في الخط المذكور تحسينا كبيرا بعد ان كان في غاية

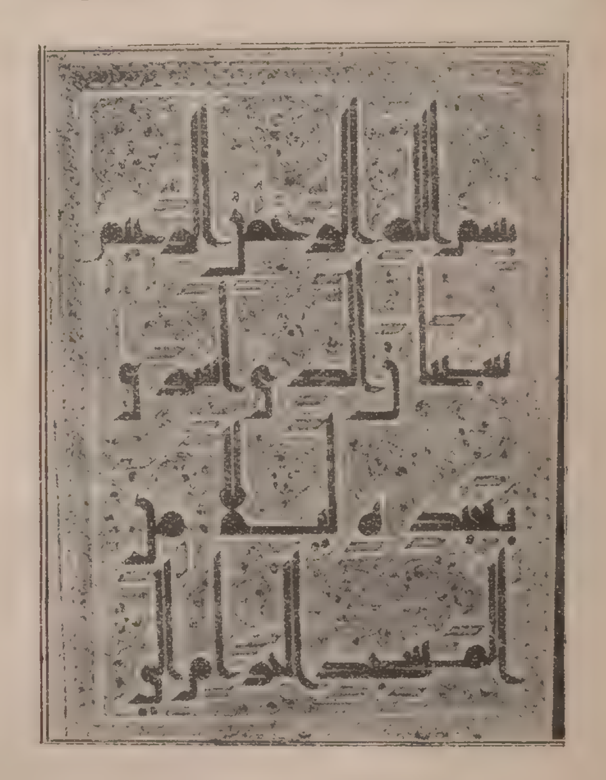
(١) يصح ان يقال ريس في رئيس قال الكميت يمدح محمد بن سليمان الهاشمي

تلقى الأمان عن حياض محمد ثولاء مخرفة وذئب أطلس
لا ذي تخاف ولا لهذا جرأة تهدى الرعية ما استقام الريس

والثولاء النعجة والمخرفة لها خروف يتبعها، ضرب لذلك مثلا لعدله وانصافه حتى انه ليشرب الذئب والشاة من ماء واحد — استشهد به الجوهري والزبيدي (في تاج العروس) وغيره على ما قلناه ان الرئيس يقال فيه ريس

(٢) كشف الظنون ٤٦٦ ج ١

الاختلال، وأدخله في المصاحف وكتابة الدواوين . وقد اشتهر بعد ابن مقلة جماعة كثيرة من الخطاطين هذّبوا طريقته وكسوها حلاوة وطلاوة، أشهرهم علي بن هلال المعروف بابن البواب المتوفي سنة ٤١٣هـ ١٠٣١م وقد اخترع عدة أقلام. وياقوت ابن عبدالله الرومي المستعصمي المتوفى سنة ٦٩٨ هـ وغيرهما كثير، وقد تفرع الخط النسخي المذكور بتوالي الاعوام الى فروع كثيرة وأصبحت الاقلام الرئيسية في الخط العربي اثنين : الكوفي والنسخي، ولكل منهما فروع كثيرة اشتهر منها بعد القرن السابع للهجرة ستة أقلام بين المتأخرين وهي: الثلث والنسخ والتعليق والريحاني



ش ٤ : الخط الكوفي الجميل

آية من مصحف كتبه أبو بكر الغزنوي سنة ٥٦٦ هـ . وتوضيحها : « بسم الله الرحمن الرحيم . سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى . . »

والمحقق والرقاع ، برز في هذه الاقلام جملة من العلماء . وما زال الخط يتفرع الى الآن . فقد ظهر بعد هذه الستة الاقلام القلم الديواني والقلم الدشتي والقلم الفارسي

وغيره ، وبقي الامر تابعا لارتفاع الدولة وانخفاض شأنها (انظر شكل ٥) فانه لما تضعضعت خلافة بغداد وانتقلت الخلافة الى مصر والقاهرة انتقل الخط والكتابة والعلم اليها وسرى منها الى مضافاتها من البلاد التابعة لدولتها والى ماجاورها ، وما زال الخط في جميع هذه الاماكن آخذا في الجودة الى هذا العهد وصار للحروف قوانين في وضعها وأشكالها متعارفة بين الخطاطين ، وقد حفظ لنا القلقشندي بيانات صحيحة عن أواسط عصر المماليك (أواخر القرن الثامن للهجرة) فذكر في الجزء الثالث [1] من كتابه صبح الاعشى أنواع الخطوط المستعملة في الدواوين وعلق عليها معتمدا على نماذج منها نشرت في هذا الكتاب وهي ستة أنواع :

(١) الطومار الكامل ويشتمل على جملة أنواع وكان يكتب به السلطان علاماته على المكاتبات والولايات ومناشير الاقطاع .

(٢) مختصر الطومار وهو على نوعين : الثلث والمحقق وكان يكتب به في عهود الملوك عن الخلفاء والمكاتبة الى القانات العظام من ملوك بلاد الشرق.

(٣) الثلث وهو نوعان الثقيل والخفيف .

(٤) التوقيع وهو على ثلاثة أنواع، وكانت توقع به الخلفاء والوزراء على ظهور القصص.

(٥) الرقاع وهو على ثلاثة أنواع أيضا وكان يكتب به في الرِّقاع جمع رُقعه وهي الورقة الصغيرة التي تكتب فيها المكاتبات اللطيفة والقصص وما في معناها.

(٦) الغبار وهو نوع واحد وكان يكتب به بطائق الحمام والملطّفات وما في معناها . ونرى من الكتابات المنقوشة على الاحجار في أيام المماليك جمال هذا الخط وبهاءه وهو وان كانت حروفه مستطيلة فهي ربما أجمل مما كانت عليه في أيام العباسيين

ولما آلت الخلافة الى الاتراك بعد زوال دولة المماليك بمصر ورثوا بقايا التمدن الاسلامي فكان لهم اعتناء خاص بالخط وقد أخذوا في اتقانه على أيدي الاساتذة

---

(١) ص ٥١ وما بعدها من طبعة المطبعة الاميرية سنة ١٣٣٢ هـ .

الفارسيين الذين اعتمدوا عليهم في الآداب والفنون . وقد حفظ الاتراك عدة قرون في مصالح حكومتهم ودوائرهم الملكية والعسكرية أنواع الخطوط التي كانت مستعملة في القرون الوسطى فكان يعرف عندهم في القرن الحادي عشر للهجرة ٣٠ نوعا تقريبا الا انه أهمل أكثرها أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر ولم يبق مستعملا منها في الوقت الحاضر الا ما سنذكره في الفصل الآتي ، والاتراك هم الذين أحدثوا الخط الرقعة والخط الهمايوني واليهم انتهت الرئاسة في الخط على أنواعه الى عهدنا هذا ، وقد أخذنا عنهم الخط المعروف بالاسلامبولي. ولن يزال الخط يتفرع الى ماشاء الله عملا بسنة الارتقاء

الاقلام المستعملة الآن

(١) الخط النسخي — أما الآن فقد أهمل الخط الكوفي وصار الخط النسخي هو الاكثر استعمالا في كتابة اللغة العربية أينما وجدت وكذلك في كتابة اللغة التركية والترية والافغانية والهندية وغيرها من لغات العالم الاسلامي ، فانه يستعمل فيها الخط النسخي في الكتب العلمية وغيرها وعلى الخصوص في المواضيع الدينية والشرعية كما سيأتي .

(٢) القلم الفارسي — وهو مشتق من الخط القيراموز المتولد من الخط الكوفي في صدر الاسلام وتكتب به الآن اللغة الفارسية ويستعمل غالبا عند الهنود في كتابة لغتهم الهندستانية (الأوردية) . وسيأتي تفصيل تاريخه وفروعه عند الكلام على اللغة الفارسية

(٣) القلم المغربي — المستعمل في مراكش والجزائر وتونس وطرابلس لكتابة العربية والبربرية معا وسيأتي ذكره بالتفصيل عند الكلام على لغات المغرب .

(٤ و٥) القلم الرقعة والقلم الثلث ـ الرقعة هو خط الدواوين في تركيا وغيرها ويغلب استعماله أيضا فى المراسلات الاعتيادية وقد أسلفنا انه والقلم الهمايوني من مستحدثات الاتراك وهما يستعملان عندهم الى الآن . وقد انتشر الرقعة بسلطة الاتراك في جزء من البلدان العربية، ومع انه مكروه من بعض العرب الخلص لانه

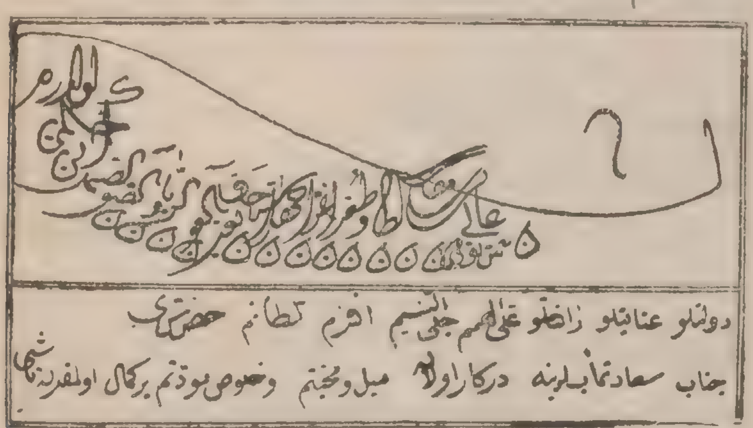
خط تركي [1] فهو مستعمل في مصر والعراق وسوريا مثل القلم الثلث المستعمل عند الجميع ، الا أن الثلث يستعمل في الزخرفة والتزويق أكثر من استعماله في الكتابة العادية .

(٦) قلم التعليق — أو الكتابة الفارسية المحرفة وهو يستعمل في تركيا لكتابة الاوراق والاعمال القضائية الشرعية وكذلك في الكتب وخصوصا في كتب الاشعار والدواوين (ش ٦) كما سترى عند الكلام على الخط الفارسي .

همين چشم دارم زخوانندگان كه نامم به نيكو برند بر زبان

ش ٦ : قلم التعليق
بيت من أشعار الفردوسي الشاعر الفارسي المشهور ويقرأ هكذا :
« همين چشم دارم زخوانندكان كه نامم به نيكو برند برزبان »

(٧) القلم الديواني — الذي اشتق مباشرة من خط التوقيع القديم وهو على



ش ٧ : القلم الديواني الجلي (القسم الاعلى) والقلم الديواني (القسم الاسفل) ويقرأ القسم الاعلى هكذا :
« نشان شريف عاليشان سامي مكان وطغراى غراى جهان ستان خاقانى نفذ بالعون الرباني والصون الصمداني حكمى اولدركه »

نوعين : أحدهما كبير قليلا وهو المستعمل في الدواوين السلطانية بتركيا لكتابة

(1) Encyclopèdie de l'Islam ' art. (Arabie) page : 393

المراسيم والدبلومات Les diplòmes (الفرمانات والبراآت) على جميع أنواعها .
والآخر أصغر منه وهو وان يكن قد قل استخدامه بعض الشيء الا أنه مستعمل كثيرا في المحاكم الدينية والشرعية التي تستعمل أيضا خط التعليق . أما الهمايوني المتقدم ذكره فهو نفسه الخط الديواني الكبير ويسمى عندهم « جلى ديواني » أي القلم الديواني الجلى (ش ٧ و ٨) وهو يستعمل لكتابة الفرمانات السلطانية المتعلقة بالوسامات

وتمتد الحروف النهائية في الخط الديواني وخصوصا الجيم والحاء والخاء والعين والغين اذا جاءت في أواخر الكلم وكذلك أطراف السين والشين والصاد والضاد كما ترى في شكل ٩

(٨) القلم النستعليق — أو الخط الفارسي المنسوخ وهو يستعمل عند الفرس وسيأتي ذكره عند الكلام على الخط الفارسي وفروعه

(٩) قلم الاجازات - وهو يتألف من الخط النسخي والخط الثلث بتصرف مع بعض زيادات لا توجد في غيره وهو يستعمل عند الاتراك أحيانا .

والخط في تركيا لم يزل مشرفا وأعمال الخطاطين الكبار أمثال حمد الله المتوفى سنة (٩٣٦ = ١٥٣٠) وحافظ عثمان المتوفى سنة (١١١٠ = ١٦٩٨ — ١٦٦٩) لم تزل معتبرة كنماذج تقلد ، أما في البلدان العربية وخصوصا في مصر فان الاعتناء بالخط أخذ في الضعف والاهمال بسبب سرعة انتشار المطابع .

حروف الهجاء العربية

وترتيبها

أما ترتيب حروف الهجاء العربية فهو مخالف لترتيب الحروف الاخرى المرتبة على ابجد هوز الخ وهو الترتيب القديم المعروف عند أكثر الأمم السامية . وأما العربية فتبتدئ هكذا : اب ت ث الخ ، مع ان التاء في اللغات الاخرى هي آخر حروفها . وهذا الترتيب حديث في اللغة العربية وضعه نصر ابن عاصم ويحيى ابن يعمر العدواني في زمن عبد الملك بن مروان وهو مبني على مشابهة الحروف في

الشكل فابتدأ بالالف والباء لانهما أول الحروف في ترتيب ابجد وعقبا بالتاء والثاء لمشابهتهما الباء ثم ذكر الجيم من حروف ابجد وعقبا بالحاء والخاء للمشابهة ثم ذكرا الدال وعقبا بالذال، ولكون الهاء تشبه أحرف العلة في الخاء أخراها معها لآخر الحروف، وقبل ان يذكرا الزاي ذكرا الراء المشابهة لها لتكون الزاي مع باقي أحرف الصفير ولذلك ذكرا السين بعد الزاي وعقبا بالشين للمشابهة، ثم ذكرا الصاد وعقبا بالضاد ثم رجعا للطاء من ابجد وعقبا بالظاء وأخرا أحرف « كلمن » حتى يفرغا من الاحرف المتشابهة، وذكرا العين وعقبا بالغين ثم ذكرا الفاء وعقبا بالقاف، ثم ذكرا أحرف كلمن والهاء وأحرف العلة.

ولكون ترتيب أبجد يختلف عند المغاربة [1] عن ترتيبها عند المشارقة كان ترتيب الحروف عند المغاربة بعد ضم كل حرف الى مايشابهه في الشكل هكذا :

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و ى

الاحرف الخاصة بالعربية

واللغات الاخرى

وفي الخط العربي فضلا عن الحروف الشرقية الاخرى ستة أحرف هي: الثاء والخاء والذال والضاد والظاء والغين « ثخذ ضظغ » وقد اقتضتها طبيعة اللغة العربية. وهذه الاحرف لامخرج لها في اللغات الاخرى الا بتركيب مع حرف آخر. والضاد منها خاصة باللغة العربية دون سواها وهذا هو سبب تلقيب العرب أو المتكلمين بالعربية بلقب « الناطقون بالضاد » وتمييزهم بها، وفي الحديث « انا افصح من نطق بالضاد » اشارة الى ذلك.

وهنا ملاحظة ينبغي الاشارة اليها وهي ان هذه الاحرف الستة لاتستعمل غالبا في اللغات الاسلامية الآتية (التي تكتب بالخط العربي) الا لكتابة الكلمات

(١) ترتيب المغاربة في ابجد يختلف قليلا عن ترتيبها عند المشارقة فيقولون : « ابجد هوز حطى كلمن صعفض قرست ثخذ ظغش » وسبب هذا الاختلاف ان المغاربة يرون الترتيب عن الامم القديمة على خلاف مايرويه عنهم المشارقة

العربية الدخيلة في لغاتهم ولذلك فهم لا ينطقون بها تماما اذا قرأوها في نصوص عربية بل يشركونها مع حرف آخر ، فمثلا اذا أرادوا النطق (بالطاء) أو (بالضاد) تكلفوهما ، فالطاء تخرج بين التاء والطاء كالسلطان والطوفان ، والضاد تخرج كالزاي المفخمة في نحو رمضان وهكذا : ولما كانت هذه الاحرف معدومة عندهم فهم يستعملون حروفا[١] أخرى معدومة في العربية تقتضيها طبيعة لغاتهم ولهذا كان من الضروري لنا ان نذكر هذه الاحرف عند ذكر لغاتها لانها تكون بمثابة تكملة لحروف الهجاء العربي عندهم .

النقط والحركات

في الخط العربي

الحركات

لما اقتبس العرب الخط من الانباط والسريان كان خاليا من الحركات والإعجام ، فالحركات فيه حادثة في الاسلام ، والمشهور ان أول من وضعها أبو الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ لما كثر اللحن في الكلام ، لاختلاط العرب بالاعاجم في صدر الاسلام ، فكانت الحركات اذ ذاك نقطا يميزون بها بين الضم والفتح والكسر فكانت النقطة فوق الحرف دليلا على الفتح والى جانبه دليلا على الضم وتحته دليلا على الكسر . ولم تشتهر طريقة أبي الاسود هذه الا في المصاحف حرصا على اعراب القرآن ، أما الكتب العادية فكانوا يفضلون ترك الحركات والنقط فيها لان المكتوب اليهم كانوا يعدون ذلك تجهيلا لهم قال بعضهم :

« شكل الكتاب سوء ظن بالمكتوب اليه »

أما استبدال النقط بالحركات الحديثة فالغالب انه حدث تنويعا للحركات عن

---

(١) هذه الاحرف عربية شكلا لا نطقا وهم يميزونها بالكتابة عن أشباهها بوضع نقط أو علامات فوق الحرف أو تحته كما سترى بعد .

النقط التي يميزون بها الباء عن التاء خوفا من الالتباس ، فالحركات الحديثة وضعت بعد ذلك لتقوم مقام حروف العلة لمشابهة الحركات لها فجعلوا للضمة التي يشبه لفظها الواو علامة تشبه الواو والتي يشبه لفظهـا الالف وهي الفتحة علامة تشبه الالف لكنها مستقيمة ومثلها للكسرة من تحت وهكذا [1]

الاعجام
وضبط الحروف العربية

أما الإعجام أو النقط فيظن انها كانت موجودة في بعض الحروف قبل الاسلام وتنوسيت ، ولكن المشهور ان اختراعها كان في زمن عبد الملك بن مروان ، وذلك لما كثر التصحيف خصوصا في العراق والتبست القراءة على الناس لتكاثر الاعاجم من القراء والعربية ليست لغتهم ، فصعب عليهم التمييز بين الاحرف المتشابهة ففزع الحجاج الى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الاحرف المتشابهة علامات ودعا نصراً ابن عاصم الليثي ويحيى بن يعمر العدواني (تلميذي أبي الاسود) لهذا الامر فوضعا النقط أو الاعجام أزواجاً وأفراداً بعضها فوق الحروف وبعضها تحتها . وسمي الإعجام إعجاماً لأن الاعجام في المعنى الاصلي هو التكلم على طريقة الاعاجم كما ان الاعراب هو التكلم على طريقة العرب . وكان الجمهور يكره كما قلنـا الإعجام والحركات في الكتابة وينفر منهما ولكن الناس رجعوا بعد ذلك على هذا الرأي حتى كانوا يعدون أهمال الإعجام خطأ في الكتابة ، واستمر الامر على اتباع هذا الإعجام الى الآن .

الكتابة
واتجاه السطور فيها

لم يتقرر لاتجاه السطور في الكتابة نظام الا بعد ترقيها ولذلك كانت الكتابة يدوّنها الاولون أنى اتفق لايراعون لها نظاماً في اتجاه سطورها كما كان عند قدماء

(١) راجع محاضرات الاستاذ حفني بك ناصف « تاريخ الادب أو حياة اللغة العربية » ص ٩٦

اليونان فانهم كانوا يكتبون تارة من اليسار الى اليمين وطورا من اليمين الى اليسار وأحيانا يجمعون بينهما .

فلما ترقت الكتابة وتقرر نظامها عند الامم اتخذت كل أمة منها طريقا مخصوصا في كيفية سيرها : فأهل الصين واتباعهم صاروا يكتبون من الأعلى الى الاسفل ومن اليمين الى اليسار على الخط الرأسي ولذلك سميت كتابتهم « بالمشجر » ولهم في ذلك اعتقاد خاص حيث يعتقدون ان الله سبحانه وتعالى موجود في السماء العليا فكل شيء لابد وان يأتيهم من جهته ولذلك صاروا يكتبون من أعلى الى أسفل .

وأهل أوربا صاروا يكتبون من اليسار الى اليمين لكون الدورة الدموية تبتدئ من القلب الموجود في الجهة اليسرى والقلب في بعض الروايات مركز العقل فوجب أن تكون الكتابة من الجهة المقابلة للعقل الذي يستمد منه البنان فلذلك صاروا يكتبون من اليسار الى اليمين .

أما العرب والسريان وغيرهم من الامم السامية فصاروا يكتبون من اليمين الى اليسار بالنسبة لكون الطبيعة قضت بأن كل شيء لايعمله الانسان الا بيده اليمنى كما وانه لاينتقل من جهة الى أخرى الا بالرجل اليمنى فلذلك صاروا يكتبون من اليمين الى اليسار [1]

فالكتابة العربية الحالية متصلة من القديم وتكتب أينما وجدت من اليمين الى الشمال على السطر الافقي وقد روى الدكتور بشاره زلزل في كتابه تنوير الاذهان انه « لم تزل بعض الامم كالصومال تكتب الخط العربي من أعلى الى اسفل (اي على السطر الرأسي) وتقرأه من اليمين الى اليسار » [2] وهذا غريب يحتاج الاثبات .

(١) الكتابة والكتاب للشهيدي وانظر صبح الاعشى (ج ٣ ص ٢١)
(٢) تنوير الاذهان في علم حياة الحيوان والانسان ص ٢٣٨

الدولة والالمان

والسكتان المتضادتان ، الشبيهتان بالجمع بين الكفر والايمان

للسلطان عبد الحميد حسنة عظيمة في البلاد العربية ، لا يصدنا عن الاعتراف بها ، ما قيل من نيته فيها وغرضه منها ، الا وهي سكة الحديد الحجازية . التي كان يظن ويقال انه كان الباعث له على انشائها جعل الحجاز كسائر البلاد العثمانية في الخضوع لحكومته ، والتمكن من سوق الجيوش اليها عند الحاجة ، والمعروف من رأي كثير من رجال الدولة إزالة إمارة الشرفاء من الحجاز منهم احمد مختار باشا الغازي . ولا يكون ذلك سهلا مأمون العاقبة الا باتمام هذه السكة . وهذا هو السبب فيما اشتهر من معارضة شرفاء مكة لمد هذه السكة بين الحرمين الشريفين .

كنا ولا نزال نرى أن هذه السكة من أكبر الحسنات ، على علمنا بما هنالك من الاقوال والظنون والنيات ، ولكن للسلطان عبد الحميد سيئة من جنس هذه الحسنة يزيد وزرها على أجر هذه — ان حسنت النية فيها — اضعافا كثيرة لعلها تزيد على سبع مئة ضعف ، الا وهي سكة الحديد الالمانية بين الاستانة والعراق

من شروط هذه السكة أن الشركة الالمانية تملك عشرين ألف متر (٢٠ كيلو) عن جانبيها ملكا خالصا ، فعشرون الف متر تمتد من أقصى مغرب المملكة الشمالي الى أقصى مشرقها الجنوبي ، يكوّن مملكة كبيرة في قلب المملكة العثمانية ، مساحتها ضعفا مساحة الارض التي تزرع في المملكة المصرية ، وهي منها في أعز مكان ، كالقلب من بدن الانسان ، فكما ان القلب مصدر الحياة للبدن كذلك تكون هذه السكة مصدر الثروة والقوة والعمران في المملكة ، فكيف يعيش من يكون قلبه في قبضة أجنبي عنه . وقد كانت بريطانية العظمى على قوتها تعد وصول هذه السكة الى الكويت أو البصرة خطرا على مصالحها التجارية في العراق وخليج فارس ، بل خطرا على ممالكها الهندية . أفلا تكون هذه السكة في قلب مملكتنا

خطرا عليها؟ بلى انها وهي لغيرنا أعظم الاخطار لو كانت غفلا من ذلك الشرط ، فكيف تكون مع ذلك الشرط ؟

قرأنا في أثناء هذه الحرب أخبارا عن الألمان تدل على ان امتلاكهم القليل من الارض في غير بلادهم أعظم خطرا عليها مما كان لا يستنبطه الا أبعد السياسيين رأيا وأشدهم فطنة وحذرا .

قد امتلك بعض الالمانيين أرضا في فرنسة وبلجيكة فظهر بعد الحرب أنها أعدت في وقت السلم لحرب أهل البلاد التي هي فيها، فكان منها خنادق وسراديب ومواضع لنصب المدافع الضخمة ، حتى قيل إن مكانا أعده رجل ألماني في بلجيكة للعب الكرة في داره ظهر بعد الحرب انه أعد لنصب أثقل المدافع وأقواها، وانه وضع على البعد المناسب بينه وبين الحصون البلجيكية وما كان يمكن دكها وتدميرها الامنه

كنا قرأنا في المقطم ان من شروط التحالف بين ألمانية والدولة العثمانية أن الاولى لا ترضى بعقد صلح الا اذا اشترط فيه سلامة أملاك الثانية ، وأنها تعطيها خمس الغرامة الحربية التي ترجو أن تأخذها ، على كونها هي التي تقدم لها السلاح والذخيرة والمال لاجل الحرب . وقرأنا وسمعنا أنها وعدتها ببلاد القوقاس وغير القوقاس من البلاد الاسلامية . وكنا نفضل على كل هذه العطايا الغيبية لو اشترطت عليها الدولة أن تبطل من شروط سكة الحديد البغدادية امتلاك عشرين ألف متر عن جانبيها. اذا لم يمكن ان تترك لها هذه السكة كلها ، فان كون قلب بلادنا خالصا لنا أهم وأنفع لنا من ضم بلاد أخرى اليها . فلأن أملك مئة فدان من الارض ملكا خالصا أستطيع أن أعمرها كما يجب، أفضل وانفع لي من ألف فدان فيها حقوق للاجانب الذين يستطيعون من عمارتها ما لا أستطيع، ويخشى أن يؤول أمرها كلها اليهم. على ان بلاد الدولة أوسع من بلاد عدة دول من الدول الكبرى، فلو عمرت لكانت غنية بها عن سواها

فنحن نتمنى لو تقترح الدولة على حليفتها القوية ان تعطيها هذه السكة أو تلغي من شروط امتيازها ذلك الشرط لتجعل هذا دليلا على اخلاصها في محالفتها، ورغبتها في بقائها مستقلة قوية بعد انتصارها معها، والا كان الخوف منها أكبر من الرجاء فيها .

تقريظ المطبوعات الجديدة*

(المطبوعات التي باسم دار الكتب الخديوية[1])

١ – صبح الاعشى في كتابة الانشا

هو تأليف الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي المصري . والمراد بكتابة الانشاء الكتابة الرسمية للملوك والسلاطين ، وما يحتاج اليه القائم بها من العلوم والفنون ، فهذا الكتاب تاريخ للسياسة والادارة العامة وجميع العلوم والفنون والآداب ، ولا يمكن بيان كليات فوائده والتعريف بجامع مزاياه الا في مقال طويل لعل المنار يقوم به بعد إتمام طبع الكتاب . وهو يطبع في المطبعة الاميرية بحروفها الجديدة الجميلة على أجود ورق يوجد بمصر . وقد تم من طبعه أربعة أجزاء من القطع الكامل . صفحات (الاول) ٤٨١ والثاني ٤٧٧ والثالث ٥٣٢ والرابع ٤٨٧ وهو يباع في دار الكتب نفسها ، وفي مكتبة المنار وغيرها ، وثمن كل جزء منه ١٥ قرشا

وهو لا يكاد يزيد عن نفقة الطبع الا قليلا ، فنحث كل محب للعلم والأدب والتاريخ الى المبادرة لاقتنائه ومطالعته ، أو الإحاطة بما في كل باب وكل فصل من المباحث النفيسة لاجل الرجوع اليها عند الحاجة لمن لا يتيسر له مطالعة الكتاب كله – أو مطالعة مايرى نفسه أحوج الى معرفته .

ولما كان هذا الكتاب من قبيل الموسوعات التي يطلقون عليها اسم (دائرة المعارف) نقترح على دار الكتب أن تجعل له فهرسا عاما مرتبا على حروف المعجم

---

*) عهدنا بتقريظ المطبوعات الى شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

١) أسست دار الكتب العامة في عهد الخديو اسماعيل باشا بعناية محمود سامي باشا البارودي وسميت الكتبخانة الخديوية ثم سميت المكتبة المصرية ثم دار الكتب الخديوية – ثم دار الكتب السلطانية

٢ - الإحكام في أصول الأحكام

تأليف الشيخ العلامة سيف الدين أبي الحسن علي ابن أبي علي الآمدي المتوفى سنة ٥٥١ للهجرة

طبع في مطبعة المعارف طبعانظيفا على ورق جيد في أربعة أجزاء صفحات الجزء الاول ٤٠٧ والثاني ٤٩٥ والثالث ٤٣٧ والرابع ٣٩٢ وثمنه ٤٨ لكل جزء ١٢

الآمدي رحمه الله من أعلام العلماء وأساطين الحكماء له اليد الطولى في الحديث وعلم النظر والخلاف والفاسفة. قال ابن خلكان: ولم يكن في زمانه احفظ منه لهذه العلوم . وكان العز بن عبد السلام يقول : ماسمعت أحدا يلقي الدرس أحسن منه كأنه يخطب ، وان غير لفظا من (الوسيط) — للغزالي وكان يحفظه — كان لفظه أمس بالمعنى من لفظ صاحبه . وقال العز أيضا : ما علمنا قواعد البحث الا سيف الدين . وقال أيضا : لو ورد على الاسلام متزندق يشكك ماتعين لمناظرته غير الآمدي . وله مؤلفات في غاية الاتقان والتنقيح منها كتابه هذا (الاحكام) في أصول الفقه . وهو من أبسطها عبارة ، وأكثرها تقسيما ، وأحسنها ترتيبا ، وأجمعها لمسائل الخلاف ودلائلها

وهو كالكتابين المذكورين بعده من الكتب التي طبعت بعناية أحمد حشمت باشا في عهد وزارته للمعارف ، وتطلب كلها من دار الكتب السلطانية ومن مكتبة المنار وغيرها

٣ - الطراز ، المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز

تأليف « السيد الامام ، إمام الائمة الكرام ، أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن علي بن ابراهيم العلوي اليمني » المتوفى سنة ٤٥٩ للهجرة طبع في مطبعة المقتطف بمصر طبعا جيدا على ورق أبيض جيد في ثلاثة أجزاء صفحات الجزء الاول ٤٣٥ والثاني ص ٤٠٨ والثالث ٤٦٦ وثمنه ٣٦ قرشا صحيحا لكل جزء ١٢ قرشا

هذا الكتاب من كتب البلاغة الممتعة، التي ينفق مؤلفوها من سعة ، ضم بين

قطرية علوم البيان ، وجمع بين دفتيه دلائل اعجاز القرآن ، والمراد بعلوم البيان علوم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، رتبه مؤلفه رحمه الله أحسن ترتيب وجاء على مسائله بالشواهد والامثلة، حتى سهل ماتناول من مسائل الفن من أقرب السبيل ، ولذلك قال أنه يرجو أن يكون متميزا عن سائر الكتب بأمرين: أحدهما ترتيبه العجيب وتنسيقه الذي يطلع قارئه من أول وهلة على مقاصد هذا الفن، وثانيهما ما فيه من التسهيل والتيسير والايضاح المباحث الدقيقة. فهو يجري في الايضاح والبسط على نسق امام الفن وواضعه الشيخ عبد القاهر الجرجاني، وقد اعترف المصنف رحمه الله تعالى بأن عبد القاهر هو الواضع لهذا الفن وأنه لم يطلع على كتابيه فيه ، ولعله لو اطلع عليهما لكان أحسن بيانا وأغزر فوائد. قال:

« وأول من أسَّس من هذا العلم قواعده . وأوضح براهينهُ وأظهر فوائده، ورتب أفانينه ، الشيخ العالم النحرير عَلَم المحققين عبدُ القاهر الجرجاني . فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد . وهدَّ من سور المشكلات بالتسوير المَشيد . وفتح أزهارهُ من أكمامها ، وفتق أزرارهُ بعد استغلاقها واستبهامها، فجزاهُ الله عن الإسلام، أفضل الجزاء ، وجعل نصيبهُ من ثوابهِ أوفر النصيب والإجزاء . ولهُ من المصنفات فيه كتابان ، أحدهما لقّبهُ « بدلائل الاعجاز » والآخر لقبه « بأسرار البلاغة » ولم أقف على شيء منهما مع شغفي بحبهما ، وشدة إعجابي بهما ، الا ما نقله العلماء في تعاليقهم منهما ». اه

ثم بين موضوع الكتاب وطريقته فيه فقال :

« ولما كان كل علم لاينفك عن مبادئ ومقدمات تكون فاتحة لامره . ومقاصد تكون خلاصة لسره ، وتكملات تكون نهاية لحاله . لاجرمَ اخترت في ترتيب هذا الكتاب أن يكون مرتباً على فنون ثلاثة ، ولعلها تكون وافية بالمطلوب محصلة للبغية بعون الله

فالفن الاول منها مرسوم المقدِّمات السابقة نذكر فيها تفسير علم البيان ، ونشير فيها الى بيان ماهيته وموضوعه ومنزلته من العلوم الادبية ، والطريق الى الوصول اليه وبيان ثمرته وما يتعلق بذلك، من بيان ماهية البلاغة والفصاحة والتفرقة

بينهما . ونشير الى معاني الحقيقة والمجاز و بيان أقسامهما ، الى غير ذلك مما يكون تمهيدا وقاعدة لما نريده من المقاصد

الفن الثاني منها مرسوم المقاصد اللائقة . نذكر منه ونشير فيه الى مايتعلق بالمباحث المتعلقة بالمعاني وعلومها . ونردفه بالمباحث المتعلقة بعلوم البيان وأقسامها . ونشرح فيه مايتعلق به من المباحث بعلم البديع ونذكر فيه خصائصه وأقسامه وأحكامه اللائقة به بمعونة الله تعالى ولطفه

الفن الثالث نذكر فيه ما يكون جارياً مجرى التتمة والتكملة لهذه العلوم الثلاثة، نذكر فيه فصاحة القرآن العظيم وأنه قد وصل الغاية التي لاغاية فوقها ، وأن شيئاً من الكلام وإن عظم دخوله في البلاغة والفصاحة ، فانه لايدانيه ولا يماثله . ونذكر كونه معجزاً للخلق لايأتي أحدٌ بمثله. ونذكر وجه اعجازه ، ونذكر أقاويل العلماء في ذلك ، ونظهر الوجه المختار فيه ، الى غير ذلك من الفوائد الكثيرة ، والنكت الغزيرة ، التي نلحقها على جهة الردف والتكملة لما سبقها من المقاصد

فالفن الثالث للثاني على جهة الإكمال والتتميم . والفن الاول للثاني على جهة التمهيد والتوطئة والسر واللباب . والمقصد لذوي الالباب . ما يكون مودعا في الفن الثاني وهو فن المقاصد . وأنا أسأل الله تعالى بجوده الذي هو غاية مطلب الطلاب . وكرمه الواسع الذي لايحول دونه ستر ولا حجاب . أن يجعله من العلوم النافعة في إصلاح الدين . ورجحانا في ميزاني عند خفة الموازين . إنه خير مأمول ، وأكرم مسؤول .»

٤ — الخصائص

تأليف أبي الفتح عثمان بن جني طبع الجزء الاول منه بمطبعة الهلال سنة ١٣٣٢هـ صفحاته ٥٦٩ ثمنه ١٥ قروش

ابن جني من أساطين أئمة اللغة ونحوها وقد قال فيه الباخرزي في دمية القصر : ليس لاحد من أئمة الادب في فتح المقفلات ، وشرح المشكلات ، ما لأبي الفتح ، ولا سيما في علم الاعراب . ومن قول المتنبي فيه أيضا : هذا رجل لايعرف قدره كثير من الناس. وقال الاستاذ الامام من كتاب يعرض فيه بصاحب له وقع

فيه عندما أخذ بتهمة المسألة العرابية : وأما فلان فقد أكننته كني ، وأدنيته مني ، وجعلته في مكان النحو من ابن جني ، ثم هو يصرح بسبي ولا يكني .

وكتابه هذا [الخصائص] علم وأدب وفقه لغة وفلسفة، لأنه يعطي المطالع علماً باللغة العربية وأساليبها وآدابها ويلهمه بلاغة بأسلوبه الذي هو في أعلا ذروة منها

ومن رأيه في (باب القول على أصل اللغة إلهام أم اصطلاح) ما نصه :

« وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات ، كدَوِيّ الريح . وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب [1] الظبي ونحو ذلك ، ثم وُلدت اللغات عن ذلك فيما بعد ، وهذا عندي وجه صالح ، ومذهب متقبلٌ

« واعلم فيما بعدُ ، انني على تقادم الوقت ، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع ، فأجد الدواعيَ والخوالج قوية التجاذُب لي ، مختلفة جهات التغوّل على فكري ، وذلك انني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة ، الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة ، والإرهاف والرقة ، مايملك عليّ جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر ، فمن ذلك مانبه عليه أصحابنا رحمهم الله ، ومنه ماحذوته على أمثلتهم ، فعرفت بتتابعه وانقياده ، و بعد مراميه وآماده ، صحةَ ماوفقوا لتقديمه منه ، ولطف ما أُسعدوا به ، وفرق لهم عنه ، وانضاف الى ذلك وارد الاخبار المأثورة ، بأنها من عند الله جل وعز ، فقوى في نفسي اعتقاد كونها توقيفاً من الله سبحانه ، وأنها وحي

ثم أقول في ضد هذا كما وقع لاصحابنا ولنا ، وتنبهوا وتنبهنا ، على تأمل هذه الحكمة الرائعة الباهرة . كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق مِن قبلنا ، وان بعد مداه عنا، مَن كان ألطف منا أذهاناً ، وأسرع خواطر وأجرأ جناناً ، فأقف بين تين الخلتين حسيرا ، وأ كاثرهما فانكفئ مكثورا ، وان خطر خاطر فيما بعد ، يعلق الكف باحدى الجهتين ، ويكفها عن صاحبتها ، قلنا به ، وبالله التوفيق » اه

(١) النزيب « صوت تيس الظباء عند السفاد »

أما المذهب الذي تقبله أولافهو الذي يرجحه الباحثون في فلسفة الخلق ولغاتهم، وأما ماتعارض رأيه فيه بعد ذلك فهو موضوع آخر، وهوأن ارتقاء اللغة العربية في أبنية كلمها، وقوانين جملها وأساليبها، هل كان بمواضعة واصطلاح من أناس من الاولين بذّوا من بعدهم في العلم والفلسفة والذوق ؟ أم كان بوحي إلهامي من الله تعالى ؟ ولكل رأي وجه، والمعقول أن الله تعالى ألهم تلك النفوس ذات الذكاء والذوق أن تجري في كلامها على سنن ترتقي فيها بالتدريج الى أن وصلت الى تلك الدرجات العلى التي بين المصنف خصائصها في كتابه

٥ ـ الاعتصام

كتاب الاعتصام للامام أبي اسحق ابراهيم اللخمي الشاطبي ثم الغرناطي الاندلسي المتوفى سنة ٧٩٠

طبع طبعا حسنا على ورق جيد في مطبعة المنار في ثلاثة أجزاء صفحات الاول منها ٣٨٨ ماعدا الفهرس ومقالة التعريف بالكتاب وترجمة مؤلفه . وصفحات الثاني ٣٥٦ ما عدا الفهرس ، وصفحات الثالث ٢٨٠ ماعدا الفهرس وخاتمة الطبع . وثمن كل جزء منها $\frac{ص}{١٠}$ و يطلب من دار الكتب ومن مكتبة المنار

قد سبق تقريظ هذا الكتاب و بيان مزاياه في منار العام الماضي. ونقول الآن اننا لانعلم ان أحدا ألف مثله في بيان حقيقة البدع وأقسامها وأحكامها . فهو ركن من أركان الاصلاح الاسلامي لعله لا يقرؤه مسلم الا ويكره البدع و ينفر منها ، ويحب السنة و يرغب في الاعتصام بها ، على علم و بصيرة تنتفي بهما الشبهات التي راجت والتبست على كثير من المشتغلين بالفقه لا على العوام وحدهم ، فهذا الكتاب أعم مطبوعات دار الكتب نفعا لايستغني عنه عالم ولا عامي من المسلمين

طبعت هذه الكتب للمرة الاولى فهي كنوز علم وأدب قد فتحت للطالبين ورياض فضل أدنيت للناس اجمعين ليجتنوا يانع ثمراتها فجزى الله الساعين بطبعها خير الجزاء ونفع بها آمين

(انتشار الخط العربي)

تأليف عبد الفتاح افندي عباده صاحب كتاب (سفن الاسطول الاسلامي) مزينـا بالرسوم والخرط طبع سنة ١٣٣٣ في مطبعة هندية ص ١٦٨ ويطلب من مكتبة المنار بمصر وثمنه ص/١٢

لعبد الفتاح افندي عباده عناية بالمباحث التاريخية والفنية المبتكرة التي لم تفرد في التأليف في لغتنا من قبل . وقد أتحف أبناء العربية بكتابه (سفن الاسطول الاسلامي) ثم أبرز لهم اليوم هذا المؤلف النفيس الذي أبان فيه منشأ الخط العربي وتطوره بتطور المسلمين وما تفرع منه. وأحصى عدد الذين يكتبون بالخط العربي من البشر فاذا هم ٢٤٣ مليونا، ولعلهم يزيدون فان وثني الهند يكتبون بها كالمسلمين؛ فكتابه هذا كتاب أدب لا تاريخ .

نعم انه قد اعتمد في معظم مباحثه على ما كتبه علماء أوربة وغيرهم ، وربما أخطأ بعض هؤلاء العلماء أو ربما أخطأ هو في بعض النقل كتسمية الخط الديواني الجبلي [الخط الديواني الجلي] (انظر شكل ٧ و ٨) ولكنه خطأ يقع في مثله كثير من الناس . وقد نشر في المنار نموذج من مباحث هذا الكتاب

﴿ تصحيح خطأ ﴾

في ص ٢٣٢ سطر ٤ من الجزء الرابع من آية « وارزقهم الثمرات » والصواب « وارزقهم من الثمرات » وفي الصفحة الاولى من الجزء الخامس غلط في عنوان التفسير صوابه هكذا (علاوة في بيان أن الزيادة على نصوص الشارع) الخ

وفي الصفحة ٣٨٧ منه عبارة لم تؤد المعنى المراد منها وهي قول حسن افندي كامل في السطر الرابع من مقالة « وطبقت قدر استطاعتي بين الكثير من ألفاظه على ما يقابلها » الخ. والمراد انه بين موافقة الكثير من ألفاظ الاثر للغـة العربية . وكلمتي (من حكمه) من ص ٣٨٨ س ٢٥ هما زائدتان أي وربمـا كان فيـه ألفاظ أخرى موافقة للعربية تعلم بمراجعة معاجم هذه اللغة



قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر ٣٠ رمضان ١٣٣٣—١٨ الاسد (ص٢) ١٢٩٣هـ ش ١٢ أغسطس ١٩١٥

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

﴿ بحث في التزام النصوص في العبادات، واعتبار المصالح في المعاملات ﴾

تمهيد في مذهب مالك في ذلك

كان الامام مالك بن أنس من أشد علماء السلف تشديداً في اتباع السنة ، وتدقيقاً في انكار البدع والمحدثات في الدين ، حتى انه أنكر على عبد الرحمن بن مهدي—وناهيك بعلمه وهديه—وضع ردائه في مسجد النبي (ص) من الحر والصلاة عليه، لئلا يُظن انه مشروع — وأنكر على من استشاره في الإحرام من مسجد الرسول (ص) من عند قبره ، ونهاه عن ذلك وأمره بالإحرام من الميقات، فلما ألح الرجل قال له « لاتفعل فاني أخشى عليك الفتنة » فقال الرجل: وأي فتنة في هذا ؟ انما هي أميال أزيدها . قال « وأي فتنة أعظم من أن ترى انك قد سبقت الى

فضيلة قصر عنها رسول الله (ص) ؟ اني سمعت الله يقول (فليحذر الذين يخالفون عن أمره (١) ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) ومن أجل كلامه رضي الله عنه: من أحدث في هذه الامة شيئا لم يكن عليه سلفها فقد زعم ان رسول الله (ص) خان الدين — وفي رواية الرسالة — لأن الله يقول (اليوم أكملت لكم دينكم) فما لم يكن يومئذ دينا لا يكون اليوم دينا . اه

نقل ذلك العلامة الشاطبي في عدة مواضع من كتاب الاعتصام ، وقال في ص ١٢٣ من الجزء الثاني منه في مثل هذا المقام: ولذلك التزم مالك في العبادات عدم الالتفات الى المعاني وان ظهرت لبادي الرأي، وقوفا مع ما فهم من مقصود الشارع فيها من التسليم على ما هي عليه . فلم يلتفت في ازالة الاخباث ورفع الاحداث الى مطلق النظافة التي اعتبرها غيره حتى اشترط في رفع الاحداث النية ، ولم يقم غير الماء مقامه عنده وان حصلت النظافة حتى يكون بالماء المطلق . وامتنع من إقامة التكبير والتسليم والقراءة بالعربية مقامها في التحريم والتحليل والإجزاء (٢) ومنع من اخراج القيم في الزكاة، واختصر في الكفارات على مراعاة العدد وما أشبه ذلك

« ودورانه في ذلك كله على ما حده الشارع دون ما يقتضيه معنى مناسب ان تصور — لقلة ذلك في التعبدات وندوره، بخلاف قسم العادات الذي هو جار على المعنى المناسب الظاهر للعقول. فانه استرسل فيه استرسال المدل العريق في فهم المعاني المصلحية نعم مع مراعاة مقصود الشارع ان لا يخرج عنه ، ولا يناقض أصلا من أصوله » اه

(أقول) ان العلامة الشاطبي قد حرر بحث البدع وأطال في التنفير عنها والحث على التزام السنة في كتابه (الاعتصام) بما لم يسبق الى مثله — بحسب علمه وعلمنا — سابق ، ولم يلحقه فيه — على ما وصل اليه علمنا — لاحق ، ومن ذلك أنه فرق بين البدع و بين المصالح المرسلة تفرقة واضحة بينة ، وأثبت ان مالكا كان يقول بها على تشدده في نصر السنة ، ومبالغته في مقاومة البدع ، حتى قال أحمد بن

(١) أي يخالفونه معرضين عن أمره الديني لا في أمر العادات المباحة، وهو ضد خالفه الى الشيء (٢) لف ونشر أي لا يصح الاحرام بالصلاة بغير التكبير بالعربية ولا التحلل منها بغير التسليم بالعربية ولا تصح قراءة القرآن بالترجمة، وهذا مجمع عليه في حق القادر

حنبل فيه : اذا رأيت الرجل يبغض مالكا فاعلم أنه مبتدع . وقال عبد الرحمن بن مهدي : اذا رأيت الحجازي يحب مالك بن أنس فاعلم انه صاحب سنة .

المشهور ان القول بالمصالح المرسلة مذهب مالك وان الجمهور على خلافه ، وليس هذا القول صحيحا على اطلاقه ، فان بعض علماء الاصول جعل القول بها من مسالك العلة للقياس ، فأدخلوه فيما يسمونه المناسبة او المعنى المناسب . وعدها بعضهم من انواع الاستدلال لا من أصول الاحكام ، فالاكثرون يقولون بها ، ولكن يختلفون في اسمها . قال ابن دقيق العيد: الذي لاشك فيه ان لمالك ترجيحا على غيره من الفقهاء في هذا النوع، ويليه أحمد بن حنبل. ولا يكاد يخلو غيرهما عن اعتباره في الجملة، ولكن لهذين ترجيحا في الاستعمال لها على غيرهما ، وقال القرافي: هي عند التحقيق في جميع المذاهب لانهم يقومون ويقعدون بالمناسبة ، ولا يطلبون شاهدا بالاعتبار ، ولا نعني بالمصلحة المرسلة الا ذلك . وقال إمام الحرمين : ذهب الشافعي ومعظم أصحاب أبي حنيفة الى تعلق الاحكام بالمصالح المرسلة بشرط الملاءمة للمصالح المعتبرة المشهود لها بالاصول

وقد قسم علماء الاصول المناسب الى ما علم اعتبار الشرع له، وما علم إلغاؤه له، وما لا يعلم اعتباره ولا إلغاؤه له ، وهو الذي لا يشهد له أصل معين بالاعتبار بل يؤخذ من مقاصد الشرع العامة فيعد من وسائلها. وهذا القسم هو الذي يسمونه بالمصالح المرسلة . ذكر ذلك كله الشوكاني في ارشاد الفحول ، وقال : وقد اشتهر انفراد المالكية بالقول به — قال الزركشي :وليس كذلك فان العلماء في جميع المذاهب يكتفون بمطلق المناسبة . ولا معنى للمصلحة المرسلة الا ذلك . اه

ماحرره الطوفي في مسألة المصالح

(أقول) لم أر في كلام علماء المشارقة من أطنب في بحث المصالح مثل الامام نجم الدين الطوفي الحنبلي المتوفى سنة ٧١٦ — ولا في كلام علماء المغاربة مثل العلامة أبي اسحق ابراهيم الشاطبي الاندلسي المتوفى ٧٩٠

أما الطوفي فانه وفى الموضوع حقه في شرحه لحديث أبي سعيد الخدري في الاربعين النووية « لاضرر ولا ضرار » (رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما

مسندا ومالك مرسلا وحسنوه) وقد قال هو وغيره انه يقتضي رعاية المصالح إثباتا ونفيا ، والمفاسد نفيا ثم استدل على المسألة بعدة أدلة من الكتاب والسنة تفصيلية وإجمالية، و باجماع ماعدا الجامدين من الظاهرية، وجعل مدار تعليل الاحكام الشرعية على هذه المسألة ، ودعم ذلك بالاستدلال عليها بالنظر العقلي ، ولم يكتف بهذا حتى جعل رعاية المصلحة مقدمة على النص والاجماع عند التعارض فقال : وإن خالفاها وجب تقديم رعاية المصلحة عليهما بطريق التخصيص والبيان لهما، لا بطريق الافتيات عليهما والتعطيل لهما .

وهذا الذي قرره الطوفي في رعاية المصلحة هو أدق وأوسع من القول بالمصالح المرسلة، وأدلته أقوى ، وقد صرح هو بذلك فقال :

« واعلم ان هذه الطريقة التي قررناها مستفيدين لها من الحديث المذكور ليست هي القول بالمصالح المرسلة على ماذهب اليه مالك ، بل هي أبلغ من ذلك. وهي التعويل على النصوص والاجماع في العبادات والمقدرات[1] وعلى اعتبار المصالح في المعاملات وباقي الاحكام » اه ثم قال بعد بيان ذلك :

« وانما اعتبرنا المصلحة في المعاملات ونحوها ، دون العبادات وشبهها، لأن العبادات حق للشارع خاص به ، ولا يمكن معرفة حقه كمًّا وكيفا وزمانا ومكانا الا من جهته ، فيأتي به العبد على مارسم له ، ولأن غلام أحدنا لايعد مطيعا خادما له الا اذا امتثل مارسم سيده وفعل مايعلم انه يرضيه ، فكذلك هاهنا . ولهذا لما تعبدت الفلاسفة بعقولهم ورفضوا الشرائع اسخطوا الله عز وجل وضلوا وأضلوا . وهذا بخلاف حقوق المكلفين فان أحكامها سياسية شرعية وضعت لمصالحهم وكانت هي المعتبرة وعلى تحصيلها المعوّل

« ولا يقال: ان الشرع أعلم بمصالحهم فلتؤخذ من أدلته . — لأنا نقول قد قررنا ان المصلحة من أدلة الشرع وهي أقواها وأخصها فلنقدمها في تحصيل المصالح.

« ثم ان هذا انما يقال في العبادات التي تخفى مصالحها عن مجاري العقول والعادات . اما مصلحة سياسة المكلفين في حقوقهم فهي معلومة لهم بحكم العادة

---

(١) المراد بالمقدرات ماقدره النص بقدر معين كالحدود والكفارات

والعقل . فاذا رأينا الشرع متقاعدا عن إفادتها علمنا أنا أحلنا في تحصيلها على رعايتها » اه المراد منه هنا ومن أراد الاطلاع على سياقه برمته فليرجع الى المجلد التاسع من المنار (ص ٧٤٥ — ٧٧٠)

ماحرره الشاطبي في مسالة المصالح

وأما الشاطبي فانه جعل الباب الثامن من كتابه الاعتصام في التفرقة بين البدع والمصالح المرسلة والاستحسان . — فأما الاستحسان فاذا لم يرجع الى قياس صحيح أو إلى رعاية المصالح ودفع المفاسد فليس بشيء . وأما المصالح المرسلة فقد وافق الشاطبي الاصوليين على عدها مما يسمونه المعنى المناسب ، ووضحها بعشرة أمثلة منها :

(١) اتفاق الصحابة على كتابة القرآن في الصحف التي سمي مجموعها المصحف

(٢) اتفاقهم على حد شارب الخمر ثمانين جلدة — كذا قال —

(٣) قضاء الخلفاء الراشدين بتضمين الصناع ، وقول علي (رض) في ذلك : لايصلح الناس الا ذاك

(٤) ما ذهب اليه بعض العلماء من الضرب في التهم، وما ذهب اليه مالك من السجن في التهم ، مع ان السجن نوع من العذاب

(٥) ماقرره ونقل مثله عن الغزالي وابن العربي من جواز وضع الامام العادل ضرائب وإعانات موقتة عند الضرورة لتكثير الجنود لسد الثغور وحماية الملك ، اذا لم يوجد في بيت المال مايفي بذلك

(٦) اختلاف العلماء في العقاب على بعض الجنايات بأخذ المال

(٧) الزيادة على سد الرمق اذا توالت ضرورة الاكل من المحرم كالميتة في المجاعات ، أو عم الحرام بلدا أو قطرا في جميع الاموال ، فحينئذ لا ينظر الى أصل المال ، بل يؤخذ من الوجه الشرعي كما لو كان أصله حلالا . هذا ملخص معنى ماذكره. وعزى القول به الى ابن العربي وأحال في بسطه على الغزالي في الإحياء ، أي في كتاب الحلال والحرام من الجزء الثاني منه

(٨) قتل الجماعة بالواحد . قال : والمستند فيه المصلحة المرسلة ، اذ لانص

على عين المسألة ، ولكنه منقول عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو مذهب مالك و الشافعي

(٩) إقامة امام للمسلمين (خليفة) غير مجتهد في الشرع اذا فقد المجتهد . قال : « ان العلماء نقلوا الاتفاق على ان الإمامة الكبرى لاتنعقد الا لمن نال رتبة الاجتهاد و الفتوى في علوم الشرع ، كما انهم اتفقوا أيضا أو كادوا يتفقون على ان القضاء بين الناس لايحصل الا لمن رقي في [1] رتبة الاجتهاد . وهذا صحيح على الجملة . ولكن اذا فرض خلو الزمان عن مجتهد يظهر بين الناس وافتقروا الى امام يقدمونه [2] لجريان الاحكام وتسكين ثورة الثائرين والحياطة على دماء المسلمين وأموالهم — فلا بد من اقامة الأمثل ممن ليس بمجتهد »

ثم بين وجه ذلك وصرح بأنه لايتجه الا على فرض خلو الزمان عن مجتهد ، وهذه مسألة فيها بحث ، وقد صرح المحققون بأنه لايجوز خلو الزمان عن مجتهد ، وليس هذا محل بيان هذه المسألة؛ بل هو لا يتسع لتحقيق مسألة المثال المفروضة أيضا

(١٠) بيعة من لم تتوفر فيه شروط الامامة ابتداء أو استدامتها بعد وجود الكفؤ لها كالقرشي المجتهد الخ خوفا من الفتنة وتفرق الكلمة . وقد ذكر من الشواهد على هذا المثال مبايعة ابن عمر ليزيد ولعبد الملك بن مروان على كونهما من أئمة الجور ، وأخذهما الملك بالسيف لا باختيار الامة ، ونهي مالك عن الخروج على أبي جعفر المنصور . وفي هذه المسألة أبحاث من وجوه كثيرة فلا تؤخذ على إطلاقها ، وقد سبق في تفسير آية المحاربين (البغاة) قول وجيز فيها ، واشارة الى بعض مسائلها . منه ان تحريرها لا يمكن الا بمصنف خاص . ومنه ان الرأي الغالب على الامم في هذا العصر ان المصلحة في الخروج على الملوك المستبدين الجائرين ، كما فعلت الامة العثمانية اذ كونت قوة خرجت بها على سلطانها عبد الحميد فسلبت السلطة منه وخلعته بفتوى من شيخ الاسلام فيها .

ومن دقق النظر في الامثلة التي أوردها الشاطبي لمسألة المصالح المرسلة تبين له أن بعضها تدل عليه النصوص أو السنة العملية ، ومنها مايدل عليه القياس . فمن

(١) لعل في زائدة (٢) لعل أصله يقيمه

الاول كتابة القرآن في مصحف يجمعه كله . فان تسمية الله تعالى اياه كتابا يدل على وجوب كتابته ، واتخاذ النبي (ص) الكتاب له يكتبون كل ما نزل في وقته يدل على ذلك . وسبب عدم جمع النبي (ص) له في المصحف ظاهر لايحتاج الى اطالة الفكرة ، وهو احتمال المزيد في كل سورة مادام حيا . ولا يمكن أن يتصور أحد ولا ان يجد شبهة على كون كتابته في صحف متفرقة هو مطلوب الشارع. وانما تلبث أبو بكر (رض) في الامر أولا على عادة أهل الروية في الامور العظيمة، وناهيك بأوائل الاعمال التي تعرض على أصحاب المناصب العليا في مناصبهم . ومن الثاني حد السكر قيل انه قياس على القذف، وقيل انه تعزير لايجب التزام العدد فيه

والحق الجلي الظاهر أن مسائل المعاملات التي يرجع فيها الى الحكام من قضائية وسياسية وحربية ترجع كلها الى الاصل الذي بينه حديث « لاضرر ولا ضرار » أي رفع الضرر الفردي والمشترك، ومنه أخذت قاعدة دفع المفاسد وحفظ المصالح، مع مراعاة ما علم من نصوص الشارع ومقاصده ، وأمثلة هذا في أعمال الخلفاء الراشدين المالية والادارية والحربية كثيرة جدا ، على أن جماهير الفقهاء يصرحون دائما بارجاع جميع الاحكام الى القاعدة المذكورة آنفا ، فقواعد العز بن عبد السلام الشافعي المشهود له بالاجتهاد المطلق أكثرها يدور على هذه القاعدة .

وانما فر أكثر علماء الامة من تقرير هذا الاصل تقريرا صريحا مع اعتبارهم كلهم له ـ كما قال القرافي ـ خوفا من اتخاذ أئمة الجور إياه حجة لاتباع أهوائهم وارضاء استبدادهم في أموال الناس ودمائهم ، فرأوا ان يتقوا ذلك بارجاع جميع الاحكام الى النصوص ولو بضرب من الاقيسة الخفية ، فجعلوا مسألة المصالح المرسلة من أدق مسالك العلة في القياس ، ولم ينوطوها باجتهاد الامراء والحكام ، وهذا الخوف في محله ولكنه لم يق الامة من أهواء الحكام كما ينبغي ، اذ كان يوجد في عهد كل ظالم من علماء السوء من يمهد له الطريق ولو لبعض ما يريد من اتباع الهوى .

والطريقة المثلى لحفظ الحق وإقامة ميزان العدل ، رفع قواعد الحكم على الاساس الذي شرعه الله تعالى للمسلمين بقوله (وأمرهم شورى بينهم) وقوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) كما فصلناه في تفسير هذه الآية في

الجزء الخامس من التفسير – لا بانكار أصل المصالح ، ولا بالتضييق في تفريع الاحكام عليها . فاذا نيط ذلك بأولي الامر (أي أهل الحل والعقد) الذين ينصبون الامام (الخليفة) ويكونون أهل شورى له ويكون هو مقيدا بما يقررونه – فحينئذ لايخشى من جعل مراعاة المصالح ذريعة للمفاسد ما يخشى منه في حال اقرار كل متغلب على الحكم مع التضييق في مسالك استنباط الاحكام ، الذي جرى عليه جماهير الفقهاء ، وانما مثار المفاسد كلها أن يقر على ولاية الامر كل متغلب ، ويرضى بتقليده كل جائر جاهل ، فهذا هو الذي أضاع على المسلمين دينهم ودنياهم

نتيجة ما تقدم

نلخص ماتقدم من المباحث بالنتائج الآتية :-

(١) ان المسائل الدينية المحضة وهي العقائد والعبادات تؤخذ من نصوص القرآن وبيان السنة لها بالقول أو العمل على الوجه الذي كان عليه الصدر الأول من الصحابة، فما أجمعوا عليه فلا عذر لأحد في مخالفته ، وما اختلفوا فيه ينظر في دلائله ويرجح بعضه على بعض ولا يلتفت الى الشذوذ ، ولايجوز بحال من الاحوال احداث عبادة جديدة أو الاتيان بعبادة مأثورة على غير الوجه الذي كان عليه النبي (ص) وجمهور أصحابه (رض) لا بقياس، ولا دعوى اجماع لمن بعدهم، ولا لمصلحة، ولا لغير ذلك من العلل والنظريات، لان الله تعالى قد اكمل الدين أصوله وفروعه بكتابه وبيان رسوله (ص) وأخبرنا ان ما سكت عنه فهو عفو منه سبحانه ، فمن زاد من ذلك شيئا كان مراغما النص القرآن أو طاعنا في بيان الرسول (ص) أو زاعما أنه أكمل منه علما وعملا بالدين) كما قال الامام مالك لمن أراد الاحرام بالحج من المسجد النبوي وقد تقدم (*

*) اذا قيل إن جمهور العلماء يجيزون الاحرام قبل الميقات خلافا لهذه الرواية عن مالك ولقول البخاري في ترجمة ما رواه في تحديد المواقيت من صحيحه (قلنا) أولا هذا مثال لا يبحث فيه ، و- ثانيا - إن دليل الجمهور على هذا ضعيف ومعارض بقوله تعالى (تلك حدود الله فلا تعتدوها) وبالتزام النبي (ص) والصحابة الاحرام من الميقات، وهذه شعائر لايخفى تركها ان وقع ، فمن خالفهم فيها يصدق عليه آية (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) الخ (راجع ص٤٨٢) وحديث عائشة في مسند أحمد وصحيح مسلم مرفوعا . « من عمل عملا ليس =

وأما الأمور الدنيوية من حلال وحرام وسياسة وقضاء وآداب فهي تنقسم بحسب الادلة الى خمسة أقسام

الاول ـ ما فيه نص صحيح صريح في الحكم وارد مورد التكليف الشرعي العام ، فالواجب أن يعمل بذلك النص ما لم يعارضه ماهو أرجح منه من النصوص الخاصة بموضوعه أو العامة كنفي الحرج ونفي الضرر والضرار ، وكون الضرورات تبيح المحظورات بنص قوله تعالى (الا ما اضطررتم اليه) وفي هذه الحال يجب على أئمة المسلمين تنفيذه ومؤاخذة من تركه

الثاني ـ ما يدل عليه نص صحيح بعمومه أو تعليله أو مفهومه دلالة واضحة

= عليه أمرنا فهو رد » وقد أنكر عثمان على من أحرم من خراسان ، فأما حديث أم سلمة في الاهلال من المسجد الاقصى وقد استدل به لقول الجمهور فهو لا يصح . وما روي في تفسير اتمام الحج والعمرة «أن تحرم من دويرة أهلك» فمعناه أن تنوي الحج منها كما يفسره ما روي عن ابن عباس وغيره من قوله «أن تحرم من دويرة أهلك لا تريد الا الحج والعمرة ، وتهل من الميقات ، ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة حتى اذا كنت قريبا من مكة قلت لو حججت أو اعتمرت ! وذلك يجزئ ولكن التمام أن تخرج له لا لغيره » ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره . وبهذا تتفق هذه الرواية مع تفسير الجمهور وظواهر النصوص والسنة العملية . والا لكان نسك النبي (ص) من حج وعمر ونسك أصحابه كلهم ناقصا . لأنه لم ينقل ان أحدا منهم لبس ثياب الاحرام من دويرة أهله بالمدينة أو غيرها ، ولو كان هذا هو المراد باتمام الحج والعمرة لما خالفوه الا قليلا لبيان الجواز كما هو شأنهم في سائر الاعمال ، وبهذا تعرف ضعف قول الشوكاني : وقول صاحب المنار « انه لو كان أفضل لما تركه جميع الصحابة » فكلام على غير قانون الاستدلال ، اه : ويقول صاحب المنار المتأخر في تأييد صاحب المنار المتقدم : بل هو على أصح قوانين الاستدلال وهو الجزم بان النبي (ص) وأصحابه كانوا أكمل المؤمنين إيمانا وأتمهم عبادة فلو صح ما ذكر وكان معناه ما ذكر لما تركوه الا قليلا كما ذكرنا ، ولو عملوا به لتوفرت الدواعي على نقله عنهم لانه من الشعائر التي يشاهدها الجم الغفير

أجمع عليها أهل الصدر الاول أو عمل بها جمهورهم ، وعرف شذوذ من خالف منهم فالواجب في هذا عين الواجب فيما قبله بشرطه ، عند من عرفه

الثالث — ماورد فيه نص تكليفي غير صريح ، أو حديث غير واهٍ ولا صحيح ، فاختلف فيه الصحابة أو غيرهم من علماء السلف وأئمة الفقه ان كان مما وقع في زمنهم — فمثل هذا يعمل فيه كل مكلف باجتهاد نفسه ، ويعذر كل من خالفه فيما ظهر له انه الحق فلا يعيبه ولا ينتقده ، كما اختلف السلف في بعض أحكام الطهارة والنجاسة ولم يعب أحدهم مخالفه فيه ولم يمتنع من الصلاة معه لا إماما ولا مقتديا . وكما فهم بعض الصحابة من آية البقرة في الخمر تحريمها وبعضهم عدم تحريمها فعمل كل بما ظهر له ولم يعترض على غيره (كما تقدم في موضعه)

ومثله مايستنبطه بعض العلماء من الكتاب والسنة في كل زمان ، فمن ظهر له ان ذلك من الدين وان كلام الله تعالى أو سنة رسوله (ص) دالة عليه عمل به ، ومن لم يظهر له ذلك فلا يكلفه تقليدا لمن استنبطه ، وقد نقل عن أشهر المجتهدين من الفقهاء انه لا يجوز لاحد ان يقلدهم وان يأخذ بشيء من أقوالهم الا اذا عرف مأخذه وظهر له صحة دليله ، وعند ذلك يكون متبعا لما أنزل الله لا لآراء الناس ، فلا يكون مخالفا لقوله تعالى (اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء)

وأما مايتعلق بالامور العامة من هذا القسم كالاحكام القضائية والسياسية فينبغي أن ينظر أولو الامر ويتشاوروا فيه من حيث تصحيح النقل ، ومن حيث طريق الدلالة على الحكم ، فاذا ظهر لهم مايقتضي إلحاقه بأحد الاقسام السابقة ألحقوه به فكان له حكمه ، والا كان كالمسكوت عنه

الرابع — ما ورد فيه نص من الكتاب أو السنة غير وارد مورد التكليف كالاحاديث المتعلقة بالعادات من الاكل والشرب والطب ونحو ذلك ، فالأولى والافضل للمسلم أن يعمل بها ما لم يمنع من ذلك مانع من الشرع أو المصلحة والمنفعة العامة أو الخاصة ، لأن المبالغة في الاتباع حتى في العادات مما يقوي الدين ، ويمكن الرابطة والوحدة بين المسلمين ، ولا ينبغي لحكام المسلمين في مثل هذا ان

يجبروا أحدا على فعله ولا على تركه ، وانما يحسن ان يكونوا قدوة صالحة في مثله

الخامس — ما سكت عنه الشارع فلم يرد عنه فيه ما يقتضي فعلا ولا تركا فهو الذى عفا الله تعالى عنه رحمة منه وتخفيفا على عباده ، فليس لأحد من عباد الله تعالى أن يكلف عبدا من عبيده تعالى فعل شيء أو ترك شيء بغير إذن منه سبحانه ، وإن ما امرنا الله تعالى به من طاعة أولي الامر منا خاص بأمر الدنيا ومصالحها ومشروط فيه أن لا يكون في معصية الله تعالى ، كما قال الرسول (ص) فيما رواه الشيخان في الصحيحين وأبو داود والنسائي من حديث علي كرم الله وجهه « لا طاعة لاحد في معصية الله انما الطاعة في المعروف » وأما أمر الدين فقد تم وكمل ، وهو تعالى شارع الدين كما قال (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي أوحينا اليك) وكما قال (ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها) والرسول (ص) هو مبلغ الدين كما قال تعالى (إن عليك الا البلاغ) ومبينه كما قال (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم) فليس لأولي الامر من المسلمين سلطان على أحد في أمر الدين المحض بزيادة على النصوص ولا نقصان منها ، ومن ادعى ذلك أو ادعي له فقد جعل شريكا لله تعالى أو اتخذ ربا من دونه (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله)

وقد مر تفصيل القول في كل مسألة من هذه المسائل حتى ان فيما أثبتناه هنا تكرارا وإعادة لبعض ماتقدم ، « وفي الاعادة إفادة » كما قيل ، ولا سيما اذا اختلف الاسلوب وتنوع التعبير . ثم قال عز وجل :

---

(١٠٦) مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ، وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟

وجه اتصال هذه الآيات بما قبلها انه سبحانه وتعالى نهى في السياق الذي قبلها عن تحريم ما أحله الله وعن الاعتداء فيه — وان كان التحريم تركا يلتزم بالنذر أو بالحلف باسم الله تنسكا وتعبدا ، لاشرعا يدعى اليه ويعتقد وجوبه افتراء عليه تعالى — وبين فيه كفارة الايمان ، وحرم الخمر والميسر والانصاب والازلام ، وصيد البرّ على المحرم بحج أو عمرة ، وبعد أن نهى عن تحريم ما أحله ، نهى ان يكون المؤمن سببا لتحريم الله تعالى شيئا لم يكن حرمه ، أو شرع حكم يكن شرعه ، بأن يسأل الرسول (ص) عن شيء مما سكت الله عنه عفوا وفضلا ، فيكون الجواب عنه ان ورد تكليفا جديدا ، فناسب بعد هذا ان يبين ضلال أهل الجاهلية فيما حرموه على أنفسهم ، وما شرعوه بها بغير اذن من ربهم ، وما قاد بهم بعضهم بعضا على جهلهم مع بيان بطلان التقليد ، وكونه ينافي العلم والدين ، — فقال :

﴿ ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ هذه أربعة نعوت لاربعة أنواع من محرمات الانعام التي حرمتها الجاهلية على أنفسها :

(فالبحيرة) فعيلة بمعنى مفعولة وهي الناقة التي يبحرون أذنها أي يشقونها شقا واسعا ، وكانوا يفعلون بها ذلك اذا نتجت خمسة أبطن وكان الخامس أنثى كما روي عن ابن عباس ، وقيل اذا ولدت عشرة أبطن ، يفعلونه ليكون علامة على تحريم أكلها أو ركبها أو الحمل عليها ، وهو مأخوذ من مادة (بحر) وهو في الاصل — كما قال الراغب — « كل مكان واسع جامع للماء الكثير » ثم اشتقوا منه عدة كلمات فيها معنى السعة .

(والسائبة) الناقة التي تسيب بنذرها لآلهتهم فترعى حيث شاءت ، ولا يحمل عليها شيء ، ولا يجز صوفها ولا يحلب لبنها الا لضيف . فهي اسم فاعل من قولهم : ساب الفرس ونحوه ، أي ذهب على وجهه حيث شاء ، وساب الماء جرى ، فهو سائب . وقال محمد بن اسحق هي الناقة اذا ولدت عشر اناث ليس بينهن ذكر ، وقال مجاهد : هي من الغنم مثل البحيرة من الابل . وعن أبي روق والسدي : كان الرجل منهم اذا قضيت حاجته سيب من ماله ناقة أو غيرها لطواغيتهم وأوثانهم .

(والوصيلة) الشاة التي تصل انثى بانثى في النتاج ، وقيل : هي التي وصلت أخاها ،

قال الراغب: وهو أن أحدهم كان اذا ولدت له شاته ذكرا أو انثى قالوا وصلت أخاها، فلا يذبحون أخاها من أجلها. وعن ابن عباس: هي الشاة اذا نتجت سبعة أبطن فان كان السابع انثى استحيوها وان كان ذكرا أو انثى في بطن واحد استحيوهما وقالوا: وصلته أخته فحرمته علينا

(والحام) اسم فاعل من الحماية، وهو فحل الضراب أي التلقيح، قيل اذا أتم ضراب عشرة أبطن قالوا: حمى ظهره. وتركوه لايحملون عليه شيئا. وروي انهم كانوا يجعلون عليه ريش الطواويس تمييزا له. وقد اختلفت الروايات في تفسير هذه الالفاظ كما ترى، وأقواها ما رواه البخاري ومسلم وغير واحد من رواة التفسير المأثور عن سعيد بن المسيب قال:

البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لايحمل عليها شيء. قال: قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار — كان أول من سيب السوائب» قال ابن المسيب والوصيلة الناقة البكر تبكر في أول نتاج الابل ثم تثني بعد بانثى وكانوا يسيبونها لطواغيتهم ان وصلت احداهما بالاخرى ليس بينهما ذكر، والحامي فحل الابل يضرب الضراب المعدود فاذا قضى ضرابه ودعوه (أي تركوه) للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامي.

وسيأتي في سورة الانعام بقية ما يتعلق بهذا البحث ومن ابتدعه للعرب وغير شريعة ابراهيم صلى الله عليه وسلم

أما معنى الجملة فهو ان الله تعالى لم يشرع لهم تحريم البحائر والسوائب واخواتهما، أي لم يجعله من أحكام الدين ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب﴾ بزعمهم أن هذه الاشياء محرمة سواء أسندوا تحريمها الى الله تعالى ابتداء، أو ادعاء على سبيل الاستدلال — كما حكى عنهم بقوله (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء) أي ولكنه شاء ذلك منا ففعلناه فهو راض به — أم لم يسندوه اليه. أما كون اسناد تحريمه اليه افتراء عليه فظاهر بين، وأما اسناده اليه ادعاء واستدلالا بالمشيئة فهو افتراء أيضا لان دليله باطل، فان الله تعالى

لم يمنع الكفار من الكفر والفساق من الفسق ولا أكرههم عليهما بمحض المشيئة والقدرة، بل جعل لهم اختيار الترجيح في أعمالهم ولم يجعلهم مجبورين عليها ، فعدم اجبارهم على الترك أو الفعل لا يدل على رضائه تعالى بما اختاروه لانفسهم من كفر وفسق، وأما كونه افتراء عليه في حال السكوت عن اسناده اليه، فوجهه أن التحريم والتحليل من شأن رب الناس و إلههم سبحانه فليس لاحد من خلقه ان يحرم عليهم شيئا الا باذنه والتبليغ عنه ، فمن تجرأ على ذلك كان مدعيا بفعله هذا إما الربوبية واما الإذن من الرب تعالى ، وكلاهما افتراء ، والفعل فيه أبلغ من القول ﴿ وأكثرهم لا يعقلون ﴾ أنهم يفترون على الله الكذب بتحريم ماحرموا على أنفسهم ، وان ذلك من أعمال الكفر به ، بل يظنون ان يتقربوا به اليه ولو بالواسطة، لأن آلهتهم التي يسيبون باسمها السوائب ويتركون لها ماحرموه على أنفسهم ، ليست بزعمهم الا وسائط بينهم وبين الله تعالى ، تشفع لهم عنده ، وتقربهم اليه زلفى . وهكذا شأن كل مبتدع في الدين بتحريم طعام أو غيره وسن ورد أو حزب أو غير ذلك من العبادات التي لم تؤثر عن الشارع ، يزعم أنه جاء بما يتقرب به الله تعالى وينال به رضاه عز وجل ، والحق أن الله تعالى لا يعبد الا بما شرعه على لسان رسوله (ص) فلا عبادة ولا تحريم الا بنص عام أو خاص ، وليس لاحد ان يزيد أو ينقص برأي ولا قياس، ولذلك قال عز وجل

﴿ واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ـ قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله تعالى في القرآن من الاحكام المؤيدة بالحجج والبينات ، المبنية على قواعد درء المفاسد وجلب المصالح دون العبث والخرافات، والى الرسول المبلغ لها ، والمبين لمجملها، قالوا حسبنا ويكفينا ماجدنا عليه آباءنا من عقائد وأحكام ، وحلال وحرام ، قال تعالى ردا عليهم ﴿ أَوَلو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾ أي أيكفيهم ذلك ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا من الشرائع الإلهية ، ولا يهتدون سبيلا الى مصالحهم الدينية والدنيوية ؟ وانما يعرف ما يكفي الافراد والامم وما لا يكفي بالعلم الصحيح الذي يميز به بين الحق والباطل،

والاهتداء الى الاعمال الصالحة والفضائل ، وأين من هذا وذاك ، أولئك الاميون الجهلاء ، الذين يتخبطون في وثنية وخرافات، ووأد بنات ، وعدوان مستمر ، وقتال مستحر، وعداوة و بغضاء ، وظلم لليتامى والنساء ، على ماأوتوا من فطنة وذكاء، وعزيمة ودهاء ، وحزم ومضاء وعزة وإباء ، واستقلال أفكار وآراء ، وغير ذلك من المزايا التي تؤهلهم لان يكونوا هم الائمة الوارثين ، والخلفاء العادلين . لولا تقليد الآباء ؟؟

هذه الآية والآية المشابهة لها في سورة البقرة -(٢ : ١٦٨ واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون) - هما أظهر وأوضح ماورد في الكتاب العزيز من الآيات في بطلان التقليد ، ولكن كثيرا من الناس قد ضلوا بالتقليدعن حجة القرآن ، وهدي النبي عليه الصلاة والسلام ، حتى عادوا وهم في حجر الاسلام ، شرا مما كان عليه الجاهلية في حجر الاصنام،

﴿ فصل في بيان بطلان التقليد وشبهات اهله ﴾

الآيات القرآنية الدالة على بطلان التقليد في الدين كثيرة جدا ، وكذلك الاحاديث النبوية وأقوال علماء السلف الصالحين ، وانما تقررت بدعة التقليد في القرن الرابع أي بعد القرون الثلاثة التي وصفها النبي (ص) بأنها خير القرون ، وشر التقليد مافرق الامة شيعا، وجعل الاختلاف في الدين عندها دينا ، بانتساب كل شيعة وطائفة الى رجل يلتزمون أقواله وأقوال من يدعون اتباعه في كل مسألة وان خالفت نصوص الكتاب والسنة وما كان عليه جمهور الصحابة والتابعين ، هذا مع العلم بأن الله تعالى ذم المتفرقين المختلفين في الدين ، وبرأ رسوله منهم وتوعدهم بالعذاب العظيم ، وأمر بأن يرد ماتنازع فيه المؤمنون الى الله ورسوله لا الى أقوال الناس غير المعصومين ، وجعل وظيفة الكتاب الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وبين أنه لايحمل على الاختلاف فيه الا البغي والضلال ،

ثم ان كتاب الله تعالى قد أوجب العلم بالدين ، والتقليد ليس بعلم كما ثبت

بالاجماع والعقل ، وطالب بالدليل ولا سيما في القول على الله عز وجل، كقوله تعالى (هل عندكم من سلطان بهذا ؟ اتقولون على الله مالا تعلمون ؟) السلطان البرهان

وقد بينا بطلان التقليد وتناقض أهله في مواضع من التفسير والمنار واننا نذكر هنا ماحرره الامام الشوكاني في مسألة التقليد في الاحكام من كتابه (ارشاد الفحول، الى تحقيق الحق من علم الاصول) — قال رحمه الله تعالى :

﴿ المسئلة الثالثة ﴾ اختلفوا في المسائل الشرعية الفرعية هل يجوز التقليد فيها أم لا؟ فذهب جماعة من أهل العلم الى أنه لايجوز مطلقا . قال القرافي : و مذهب مالك وجمهور العلماء وجوب الاجتهاد وابطال التقليد . وادعى ابن حزم الاجماع على النهي عن التقليد . قال : ونقل عن مالك انه قال : أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي فما وافق الكتاب والسنة فخذوا به ومالم يوافق فاتركوه . وقال عند موته : وددت أني ضربت بكل مسئلة تكلمت فيها برأيي سوطا على أنه لا صبر لي على السياط . قال ابن حزم : فهنا مالك ينهى عن التقليد وكذلك الشافعي وأبو حنيفة . وقد روى المزني عن الشافعي في أول مختصره انه لم يزل ينهى عن تقليده وتقليد غيره . انتهى

وقد ذكرت نصوص الائمة الاربعة المصرحة بالنهي عن التقليد في الرسالة التي سميتها « القول المفيد في حكم التقليد » فلا نطول المقام بذكر ذلك، وبهذا تعلم ان المنع من التقليد ان لم يكن اجماعا فهومذهب الجمهور. ويؤيد هذا ماسيأتي في المسئلة التي بعد هذه من حكاية الاجماع على عدم جواز تقليد الأموات، وكذلك ماسيأتي من أن عمل المجتهد برأيه انما هو رخصة له عند عدم الدليل ولا يجوز لغيره أن يعمل به بالاجماع . فهذان الاجماعان يجتثان التقليد من أصله فالعجب من كثير من أهل الاصول حيث لم يحكوا هذا القول الا عن بعض المعتزلة . وقابل مذهب القائلين بعدم الجواز بعض الحشوية وقال يجب مطلقا ويحرم النظر، وهؤلاء لم يقنعوا بما هم فيه من الجهل حتى أوجبوه على أنفسهم وعلى غيرهم فان التقليد جهل وليس بعلم

(والمذهب الثالث) التفصيل وهو أنه يجب على العامي ويحرم على المجتهد ، وبهذا قال كثير من أتباع الائمة الاربعة، ولا يخفاك أنه انما يعتبر في الخلاف أقوال

المجتهدين وهؤلاء هم مقلدون فليسوا ممن يعتبر خلافه ، ولا سيما وأئمتهم الاربعة يمنعونهم من تقليدهم وتقليد غيرهم، وقد تعسفوا فحملوا كلام أئمتهم هؤلاء على أنهم أرادوا المجتهدين من الناس لا المقلدين ! فيالله العجب

وأعجب من هذا أن بعض المتأخرين ممن صنف في الاصول نسب هذا القول الى الاكثر، وجعل الحجة لهم الاجماع على عدم الانكار على المقلدين! فان أراد اجماع خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم فتلك دعوى باطلة، فانه لا تقليد فيهم البتة ولا عرفوا التقليد ولا سمعوا به، بل كان المقصر منهم يسأل العالم عن المسألة التي تعرض له فيفتيه بالنصوص التي يعرفها من الكتاب والسنة وهذا ليس من التقليد في شيء ، بل هو من باب طلب حكم الله في المسألة والسؤال عن الحجة الشرعية، وقد عرفت في أول هذا الفصل أن التقليد انما هو العمل بالرأي لا بالرواية

وليس المراد بما احتج به الموجبون للتقليد والمجوزون له من قوله سبحانه (فاسألوا أهل الذكر) الا السؤال عن حكم الله في المسألة لا عن آراء الرجال ، هذا على تسليم أنها واردة في عموم السؤال كما زعموا ، وليس الامر كذلك بل هي واردة في أمر خاص ، وهو السؤال عن كون أنبياء الله رجالا كما يفيده أول الآية وآخرها حيث قال (وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر) وان أراد إجماع الائمة الاربعة فقد عرفت انهم قالوا بالمنع من التقليد ولم يزل في عصرهم من ينكر ذلك، وان أراد اجماع من بعدهم فوجود المنكرين لذلك منذ ذلك الوقت الى هذه الغاية معلوم لكل من يعرف أقوال أهل العلم ، وقد عرفت مما نقلناه سابقا أن المنع قول الجمهور اذا لم يكن اجماعا. وان أراد اجماع المقلدين للأئمة الاربعة خاصة فقد عرفت مما قدمنا في مقصد الاجماع أنه لا اعتبار بأقوال المقلدين في شيء فضلا عن أن ينعقد بهم اجماع

والحاصل انه لم يأت من جوز التقليد فضلا عمن أوجبه بحجة ينبغي الاشتغال بجوابها قط ، ولم نؤمر برد شرائع الله سبحانه الى آراء الرجال. بل أمرنا بما قاله سبحانه (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول) أي كتاب الله وسنة رسوله. وقد كان صلى الله عليه وسلم يأمر من يرسله من أصحابه بالحكم بكتاب الله ، فان لم يجد

فبسنة رسول الله فان لم يجد فيما يظهر له من الرأي كما في حديث معاذ[1]

وأما ما ذكروه من استبعاد أن يفهم المقصرون نصوص الشرع وجعلوا ذلك مسوغا للتقليد فليس الامر كما ذكروه، فهنا واسطة بين الاجتهاد والتقليد وهي سؤال الجاهل للعالم عن الشرع فيما يعرض له ، لا عن رأيه البحت، واجتهاده المحض، وعلى هذا كان عمل المقصرين من الصحابة والتابعين وتابعيهم. ومن لم يسعه ماوسع أهل هذه القرون الثلاثة الذين هم خير قرون هذه الامة على الاطلاق فلا وسع الله عليه.

وقد ذم الله تعالى المقلدين في كتابه العزيز في كثير من [الآيات] (إنا وجدنا آباءنا على أمة) (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) (إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) وأمثال هذه الآيات. ومن أراد استيفاء البحث على التمام فليرجع الى الرسالة التي قدمت الاشارة اليها والى المؤلف الذي سميته «أدب الطلب ومنتهى الارب»

وما أحسن ما حكاه الزركشي في البحر عن المزني أنه قال : يقال لمن حكم بالتقليد : هل لك من حجة ؟ فان قال «نعم» أبطل التقليد لان الحجة أوجبت ذلك عنده لا التقليد . وان قال بغير علم قيل له فلم أرقت الدماء وأبحت الفروج والاموال وقد حرم الله ذلك الا بحجة ؟ فان قال أنا أعلم اني أصبت وان لم أعرف الحجة لأن معلمي من كبار العلماء. قيل له تقليد معلم معلمك أولى من تقليد معلمك، لانه لا يقول الا بحجة خفيت عن معلمك، كما لم يقل معلمك الا بحجة خفيت عنك، فان قال «نعم» ترك تقليد معلمه الى تقليد معلم معلمه ثم كذلك حتى ينتهي الى العالم من الصحابة ، فان أبى ذلك نقض قوله ، وقيل له كيف يجوز تقليد من هو أصغر وأقل علما ولا يجوز تقليد من هو أكبر وأغزر علما، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه حذر من زلة العالم، وعن ابن مسعود انه قال لا يقلدن أحدكم

---

(١) يعني ان الواجب في القضاء الذي يعرض هو النص والا فالاجتهاد لا التقليد. ولا يدل الحديث على الاذن في اجتهاد الرأي في العبادات لأنها لا تثبت الا بالنص ، ولكن قد يحتاج في بعضها الى الاجتهاد في طريقة إيقاعها على الوجه المشروع كالاجتهاد في القبلة، وهو ماسماه علماء الاصول تحقيق المناط ، وللاتفاق عليه أنكر الغزالي عده من القياس للاتفاق عليه والاختلاف في القياس ، حتى ما يسمى منه تنقيح المناط

دينه رجلا ان آمن آمن وان كفر كفر ، فانه لا أسوة في الشر ، انتهى

(قلت) تتميما لهذا الكلام وعند أن ينتهي الى العالم من الصحابة يقال له هذا الصحابي أخذ علمه من أعلم البشر المرسل من الله تعالى الى عباده، المعصوم من الخطأ في أقواله وأفعاله، فتقليده أولى من تقليد الصحابي الذي لم يصل اليه الا شعبة من شعب علومه ، وليس له من العصمة شيء ؛ ولم يجعل الله سبحانه قوله ولا فعله ولا اجتهاده حجة على أحد من الناس

(واعلم) أنه لا خلاف في أن رأي المجتهد عند عدم الدليل انما هو رخصة له يجوز له العمل بها عند فقد الدليل ولا يجوز لغيره العمل بها بحال من الاحوال ، ولهذا نهي كبار الأئمة عن تقليدهم وتقليد غيرهم . وقد عرفت حال المقلد انه انما يأخذ بالرأي لا بالرواية ، ويتمسك بمحض الاجتهاد عن مطالب[1] بحجة ،فمن قال ان رأى المجتهد يجوز لغيره التمسك به ويسوغ له ان يعمل به فيما كلفه الله ، فقد جعل هذا المجتهد صاحب شرع ، ولم يجعل الله ذلك لاحد من هذه الامة بعد نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يتمكن كامل ولا مقصر ان يحتج على هذا بحجة قط . واما مجرد الدعاوي والمجازفات في شرع لله تعالى فليست بشيء ، ولو جازت الامور الشرعية بمجرد الدعاوي لادعى من شاء ما شاء ، وقال من شاء بما شاء اه

هذا ما قاله الشوكاني — واننا سنعود ان شاء الله تعالى الى هذا البحث في مواضع أخرى فنزيده بيانا وتفصيلا .

---

(١٠٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ . إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

بعد أن بين الله تعالى بطلان التقليد — وهو أن يتبع المرء غيره من الناس في فهمه

«١» كذا في الاصل ولعل صوابه غير مطالب فحرف غير بعن والله أعلم

للدين ورأيه فيه بغير علم ولا حجة — أمر المؤمنين بصيغة الاغراء بأن يهتموا باصلاح انفسهم بالعلم الصحيح والعمل الصالح الذي يعد رشدا وهدى، وبين لهم أنهم اذا أصلحوا انفسهم وقاموا بما اوجب الله عليهم من علم وعمل فلا يضرهم من ضل من الناس عن محجة العلم بالجهل والتقليد، وعن صراط العمل الصالح بالفسق والافساد في الارض، فقال ﴿ ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل اذا اهتديتم ﴾ أي الزموا اصلاح أنفسكم، وتزكيتها بما شرعه الله لكم، لايضركم ضلال غيركم اذا اهتديتم، اذ لا تزر وازرة وزر أخرى. ومن أصول الهداية الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاذاً لاتكونون مهتدين الا اذا بلغتم دعوة الحق والخير، وعلمتم الجاهلين ما اعطاكم الله من العلم والدين، وامرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، فلا تكتموا الحق والعلم كما كتمه من كان قبلكم، فلعنهم الله على لسان انبيائهم ولسان نبيكم ﴿ الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي اليه وحده رجوعكم ورجوع من ضل عما اهتديتم اليه، فينبئكم عند الحساب بما كنتم تعملون في الدنيا ويجزيكم به.

وقد اختلفت الرواية عن الصحابة والتابعين في هذه الآية

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : قال الامام أحمد رحمه الله : حدثنا هاشم ابن القاسم، حدثنا زهير يعني ابن معاوية، حدثنا اسماعيل بن أبي خالد، حدثنا قيس، قال قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس انكم تقرؤن هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) — الى آخر الآية — وانكم تضعونها على غير موضعها، واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الناس اذا رأوا المنكر ولم يغيروه[1] يوشك ان الله عز وجل أن يعمهم بعقابه »[2] قال وسمعت أبا بكر يقول : يا أيها الناس اياكم والكذب

(١) في الاصل المطبوع « ولا يغيرونه »

(٢) الرواية المشهورة في كتب المسانيد والسنن « اذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك ان يعمهم الله بعقاب » وتفسير ابن كثير المطبوع كثير الغلط

فان الكذب مجانب الايمان . وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الاربعة وابن حبان في صحيحه وغيرهم من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة عن اسماعيل بن خالد به متصلا مرفوعا، ومنهم من رواه عنه به موقوفا على الصديق، وقد رجح رفعه الدارقطني وغيره، وذكرنا طرقه والكلام عليه مطولا في مسند الصديق رضي الله عنه

وقال أبو عيسى الترمذي: حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا عتبة بن أبي حكيم، حدثنا عمرو بن حارثة اللخمي عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له ماتصنع في هذه الآية؟ قال أية آية؟ قلت قول الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل اذا اهتديتم) قال أما والله لقد سألتَ عنها خبيرا، سألتُ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام ، فان من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم» قال عبد الله بن المبارك وزاد غير عتبة قيل يارسول الله أجر خمسين رجلا منا أو منهم؟ قال «لا بل أجر خمسين منكم» ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب صحيح ، وكذا رواه أبو داود من طريق ابن المبارك ، ورواه ابن ماجه وابن جرير وابن أبي حاتم عن عتبة بن أبي حكيم

وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الحسن رضي الله عنه سأله رجل عن قول الله (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) فقال ان هذا ليس بزمانها انها اليوم مقبولة ، ولكنه قد يوشك أن يأتي زمانها تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا ، أو قال فلا يقبل منكم ، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل

ورواه أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية عن ابن مسعود في قوله (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل) الآية ، قال كانوا عند عبد الله بن مسعود فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس حتى قام كل واحد منهما الى صاحبه فقال رجل من جلساء عبد الله ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر ؟ فقال آخر الى جنبه عليك بنفسك ، فان الله يقول (عليكم

أنفسكم) الآية ، قال فسمعها ابن مسعود فقال : مه لم يجئ تأويل هذه بعد ، ان القرآن أنزل حيث أنزل ومنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه آي قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنه آي قد وقع تأويلهن بعد النبي صلى الله عليه وسلم بيسير، ومنه آي يقع تأويلهن يوم الحساب ، ما ذكر من الحساب والجنة والنار ، فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعا ولم يذق بعضكم بأس بعض فاءمروا وانهوا ، واذا اختلفت القلوب والاهواء ، وألبستم شيعا وذاق بعضكم بأس بعض فاءمر نفسك ، وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية، رواه ابن جرير

وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا شبابة بن سوار حدثنا الربيع بن صبيح عن سفيان بن عقال قال قيل لابن عمر لو جلست في هذه الايام فلم تأمر ولم تنه فان الله قال (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) فقال ابن عمر انها ليست لي ولا لأصحابي، لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ألا ليبلغ الشاهد الغائب» فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب، ولكن هذه الآية لاقوام يجيئون من بعدنا ان قالوا لم يقبل منهم

وقال أيضا حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر وأبو عاصم قالا حدثنا عوف عن سوار بن منبه قال كنت عند ابن عمر اذ أتاه رجل جليد في العين شديد اللسان فقال يا أبا عبد الرحمن نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه ، وكلهم مجتهد لا يألو ، وكلهم بغيض اليه أن يأتي دناءة الا الخير ، وهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك . فقال رجل من القوم وأي دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك ؟ فقال الرجل اني لست اياك أسأل انما أسأل الشيخ ، فأعاد على عبد الله الحديث ، فقال عبد الله : لعلك ترى لا أبا لك أني سآمرك أن تذهب فتقتلهم ! عظهم وانههم فان عصوك فعليك بنفسك فان الله عز وجل يقول (ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) الآية

وقال أيضا حدثني أحمد بن المقدام حدثنا المعتمر بن سليمان سمعت أبي حدثنا قتادة عن أبي مازن قال انطلقت على عهد عثمان الى المدينة فاذا قوم جلوس فقرأ

أحدهم هذه الآية (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل) فقال اكثرهم لم يجئ تأويل هذه اليوم.

وقال حدثنا القاسم حدثنا الحسن حدثنا ابن فضالة عن معاوية بن صالح عن جبير بن نفير قال كنت في حلقة فيها اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واني لأصغر القوم فتذاكروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت انا أليس الله يقول في كتابه (ياأيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لايضركم من ضل اذا اهتديتم) فأقبلوا علي بلسان واحد وقالوا تنزع آية من القرآن لاتعرفها ولا تدري ما تأويلها؟ فتمنيت اني لم اكن تكلمت . وأقبلوا يتحدثون، فلما حضر قيامهم قالوا انك غلام حديث السن، وانك نزعت آية ولا تدري ماهي، وعسى ان تدرك ذلك الزمان : اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك لا يضرك من ضل اذا اهتديت

وقال ابن جرير حدثنا علي بن سهل حدثنا ضمرة بن ربيعة قال تلا الحسن هذه الآية (ياأيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) فقال الحسن الحمد لله بها . والحمد لله عليها . ما كان مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقي الا والى جنبه منافق يكره عمله . وقال سعيد بن المسيب : اذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فلا يضرك من ضل اذا اهتديت . رواه ابن جرير وكذا روى من طريق سفيان الثوري عن ابي العميس عن ابي البختري عن حذيفة مثله، وكذا قال غير واحد من السلف

وقال ابن ابي حاتم حدثنا ابي حدثنا هشام بن خالد الدمشقي حدثنا الوليد حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن ابي حبيب عن كعب في قوله (عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) قال اذا هدمت كنيسة مسجد دمشق فجعلت مسجدا[1] وظهر لبس العصب فحينئذ تأويل هذه الآية اه

---

(١) كنيسة مسجد دمشق هي الكنيسة التي كانت ملاصقة للمسجد، وسبب ذلك ان شطرا من مدينة دمشق فتح صلحا والشطر الآخر فتح عنوة والتقى الفريقان من الصحابة في كنيسة مريم ثم اتفقوا على أن لكل شطر حكمه وبذلك كان شطر الكنيسة للمسلمين =

أقول علم من هذه الروايات أن السلف اتفقوا على ان المؤمن لا يكون مهتديا بمجرد إصلاحه لنفسه اذا لم يهتم باصلاح غيره ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويفهم منه ان هذا فرض لازم دائم ، ولكن بعضهم يقول ان فريضة الامر والنهي تسقط اذا فسد الناس فسادا لايرجى معه تأثير الوعظ والارشاد ، أو فسادا يخشى ان يفضي الى إيذاء الواعظ المرشد . وقد رجح ابن جرير وغيره من المحققين القول الاول لقوة روايته ، وسائر أدلته ، والتحقيق ان من علم أو ظن ظنا قويا انه يناله أذى اذا أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر يسقط عنه الفرض، ويكون الامر والنهي حينئذ فضيلة لافريضة ، اذا رجح ان المنكر يزول بانكاره ، فاذا رجح انه يؤذى ولا يترتب على نصحه فائدة . فحينئذ يكره له أو يحرم عليه اذا كان من الالقاء باليد الى التهلكة ، وقد فصل القول في ذلك أبو حامد الغزالي في كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من الاحياء فليراجعه من شاء

ومن فوائد هذه الروايات تصريح بعض علماء الصحابة (رض) بأن في القرآن أحكام لا يظهر تأويلها الا بعد عصر التنزيل ، أي ان آيات الاحكام في ذلك كآيات الاخبار بالغيب ، وكثيرا ما نبين في تفسيرنا ما يظهر تأويله في عصرنا ، كمن بين من قبلنا ما ظهر لهم من المعاني المتعلقة بعصورهم ، ولا غرو فقد وصف القرآن في الآثار بأنه لا تنتهي عجائبه

= فاتخذوه مسجدا و بقي الشطر الآخر كنيسة فكان عنوانا على عدل الاسلام ، وقد كان المسلمون يبذلون للنصارى الكرائم والنفائس في كنيستهم فلا يقبلون حتى أكرههم بعض الأمويين على ذلك ثم ردها لهم عمر بن عبد العزيز. والمراد من الرواية ان المسلمين اذا فسد أمرهم حتى ظلموا أهل الذمة بمثل أخذ كنيستهم الملاصقة للمسجد وبتأنقهم في الزينة بلبس العصب فعند ذلك لا ينفع فيهم وعظ واعظ. والعصب بالفتح ضرب من برود اليمن لا يجمع وانما يقال العصب، و برد عصب و برود عصب ، بالاضافة. قال في لسان العرب : وفي الحديث « المعتدة لاتلبس المصبغة الاثوب عصب » العصب برود يمنية يعصب غزلها -- أي يجمع و يشد -- ثم يصبغ و ينسج فيأتي موشيا لبقاء ما عصب منه أبيض لم يأخذه صبغ . وقيل هي برود مخططة ، والعصب الفتل . والعصاب الغزال ، فيكون النهي للمعتدة عما صبغ بعد النسج . وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه اراد ان ينهى عن عصب اليمن وقال : نبئت انه يصبغ بالبول ، ثم قال : نهينا عن التعمق اه

البرهان

على

خروج تارك الصلاة ومانع الزكاة من الايمان (*)

جمع أدلته من الكتاب والسنة محمد على أبو زيد
الطالب بكلية دار الدعوة والارشاد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أنعم علينا بالاسلام ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي قام بتبليغ الدين خير قيام

أما بعد فان الصلاة والزكاة أهم أركان الدين، وأعظم الشعائر المسلمين، بهما تزكية النفوس ، وصلاح حال الجمهور

جمع الله تعالى كل الخير فيهما ، لأن من اتصف بهما يتصف بكل فضيلة سواهما

فمن تركهما فلا حظ له في الإسلام ولا الايمان، فهلمّ اسمع في ذلك نصوص القرآن

*) المنار : قرأنا هذه الرسالة كلها ، وانتقدنا على كاتبها مسائل منها ، و بينا له رأينا في تصحيحها واصلاحها ، قولا وكتابة ، على أن يكون مستقلا في ذلك ، يأخذ مايأخذ ويترك مايترك عن بينة ، كما هو شأننا مع تلاميذنا ومريدينا ، لأجل هذا نشير في حواشي الرسالة الى المهم مما بقي من خطإ أوضعف فيها

ولأُقدم لك تعريف الصلاة والزكاة ، ومقصود الشارع الحكيم منهما ، على طريق السؤال والجواب ، عسى أن تأنس به ، وترتاح نفسك الى تدبره ، فارعني سمعك ، واستعمل عقلك

س ما حقيقة الصلاة ؟

ج هي مناجاة الله تعالى وذكره ودعاؤه والخضوع له بالصفة المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم

س لم جاءت الصلاة بالكيفية المخصوصة ، ولم تترك الى اختيار المؤمنين ؟

ج لئلا يتشعب الخلاف بين الناس فيها ، فيفوت غرض الدين من اتحادهم عليها ، المساعد لهم على الاتحاد في غيرها

فالناس كلما كثر ما يشتركون فيه كان اتحادهم عليه أقوى ، وانجذابهم بعضهم الى بعض أقرب وأمتن

س ما دليل وجوبها ، وحكمة مشروعيتها ؟

ج قال الله تعالى في سورة العنكبوت (وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)

س كيف تنهى عن الفحشاء والمنكر ؟

ج أنظر الى نفسك حين تواجه القبلة وتتهيأ لإقامة الصلاة ، فتستفتحها بقولك : الله أكبر ، ألا تراك ملئت خشية لذكرك ربك وكبرياءه ، وغشيتك السكينة لوقوفك بين يدي سيدك ، مستصغرا كل شيء دونه ، وغاضا الطرف عما سواه

فاذا قرأت الفاتحة ذكرتك معانيها بالملك الذي خلقك بقدرته ، وربك الذي رباك على نعمه – رباك لا ليستبد بك ، ولا لينتفع منك ، بل

ليجعلك موضع رحمته ، ومحل فضله واحسانه، وهناك ترى سيداً عظيما ، ومالكا للجزاء وحيدا، جميع الكون في قبضة يده ، وكل العالم تحت تصرفه وقهره ، لا إرادة فوق ارادته ، ولا ينفع أحد أحدا عنده ، فبينما أنت ترجو رحمته، اذا بك تخاف عذابه ، قوته فوق الاسباب ، فلا تجد ملجأ الا اليه ، ولا تستعين الا به ، فهو الذي يهديك طريقه المستقيم ، ويأخذ بيدك فيه ، ما دمت فيه ، مرافقا لاهله الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بعيدا عن طرق المعاندين والحيرانين ، المغضوب عليهم والضالين ، أضف الى ذلك ما في ركوعك وسجودك ، وقيامك طوع أمره وقعودك ، كل هذا يامقيم الصلاة يؤثر فيك تأثيرا ، ويأخذ منك مأخذاً كبيرا ،فلا تلبث أن تتربى في نفسك ملكة المراقبة لله، تثبتك على صراطه ، وتقيك الوقوع في عصيانه ، فاذا مسك طائف من الشيطان،أو دعاك داع من الشهوة الى العصيان، ناداك صوت من ضميرك: اذكر ربك واتقه، واحذر أن يراك، حيث نهاك ! فاذا انت من المبصرين

س يظهر من هذا أن المرء اذا حافظ على اقامة الصلاة تصفو نفسه ، وتحسن أخلاقه ؟

ج من غير شك ، وذلك هو مقصود الدين من تكرار الصلاة كل يوم خمس مرات ، وتدبر القرآن فيها

وقد علمت أن الله لم يسقطها عن المؤمنين وهم في مقاتلة أعدائهم ، ولا عن المرضى وهم في مرض موتهم ، وما ذلك الا لحاجتهم اليها، وعدم استغنائهم عنها، فانها تشجعهم ، وتجعلهم اكثر تحملا للمشاق ، واقوى صبرا على الشدائد ، واقرب الى الرجاء ، وأبعد عن اليأس

س صلينا كثيرا فلماذا لم تنهنا صلاتنا عما نحن فيه من المنكرات ؟

ج سبب ذلك أننا لم نلاحظ المقصود منها ، فغفلنا عن التدبر والخشوع فيها ، فما لنا من الصلاة الآن الا اسمها ، وليس في مساجدنا منها الا صورتها ورسمها .

وان شئت فقل : انها أصبحت عندنا عادة من العادات ، التي يقلد فيها الولد اباه وغيره ممن ينشأ فيهم

وقد وصل الجهل بناس الى أن يتركوا الصلاة طول حياتهم، اعتمادا على أنه يمكن اسقاطها عنهم بعد مماتهم بالطريقة المشهورة باسقاط الصلاة - ذلك بأن يؤتى بمن يسمونهم فقهاء، وهم قراء القبور ، الذين اتخذوا القراءة على القبور ، والصياح في الجنازات بنشيد البردة وغيرها صناعة فيحسبوا ما ترك الميت من الصلوات في سني عمره،ثم يطاف عليهم بصرة فيها عدد من النقود ، فيقبل كل منهم أن يتحمل عددا من تلك الصلوات عن الميت نظير مبلغ يأخذه مما في الصرة ، حتى اذا تحمل الجميع ما على الميت من الصلوات ، فرق عليهم عدد النقود ، وبهذا يزعمون أن الصلاة سقطت عن الميت ، وان الله عفا عمن تحملوها

وفي هذا من العجب ما ترى ، وقد ذكرته ليظهر لك كيف يؤدي الجهل بحكمة الله الى اضاعة شرعه والاستهزاء بدينه ، وكأن هؤلاء لم يعقلوا أن تارك الصلاة قد صدئت نفسه، وتلوثت روحه، فلم يعد يستحق مقام الكرامة، و (أن لا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان الا ما سعى) فهل للقبوريين عهد من الله أن يقبل منهم ما يقبلون، ويحط عنهم ما يتحملون؟ فرحماك اللهم! فان القوم لا يعلمون، وعساهم عن ذلك يرجعون

س عرفنا الصلاة ! فما معنى الزكاة ؟

ج الزكاة جزء من مال الاغنياء ، يصرف في مصالح المسلمين ، كالفقراء والمساكين ، وأبناء السبيل والغارمين ، وغير ذلك من مهمات الدين .

س ما دليل وجوبها ، وحكمة شرعيتها ؟

ج قال الله تعالى في سورة براءة (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)

س ما معنى التطهير والتزكية بها ؟

ج (ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى) فكلما كثر جمعه للمال ، زاد حبه له ، وطمعه فيه ، حتى لا يؤثر شيئاً عليه ، ولا يكون له هم في سواه ، فتنقطع العلائق بينه وبين الله ، فتخبث نفسه ، فيكسب المال من أي وجه حلالا كان أو حراما ، فاذا هو جعل نصيبا من ماله لله على حبه إياه ، استحى أن يكسبه من طريق يبغضه الله ، وكان حب الله في نفسه متغلبا على حب المال ، فهذا ينظف النفس من الأرجاس العالقة بها ، ويزكيها بإنماء الفضائل فيها

وهذه تزكية روحية ، وهناك تزكية أدبية اجتماعية — وهي أن الاغنياء الذين يقبضون أيديهم عن الفقراء يعرضون أموالهم للسلب ، وأعراضهم وأنفسهم للإهانة ، لأن الفقراء يبغضونهم ، ويكيدون لهم ، واذا اشتد الجوع بهم ولم يجدوا وسيلة لسد الرمق الا بالاعتداء على الاموال والأنفس اعتدوا ، ولا يخفى ما في ذلك من اختلال الأمن وتزعزع النظام ، فيمسي الاغنياء ويصبحون لا يهدأ لهم بال ، ولا يرتاح لهم ضمير ، فيموتون أو يموت الفقراء جوعا وذلا ، وكل ذلك — كما تعلم —

سبب في ضعف الأمة وانقراضها ، فاذا هم بذلوا وأنفقوا حفظوا حياتهم، وهدءوا روعهم ، وجعلوا الفقراء إخوانهم ، يهتمون لهم ، ويتعاونون معهم ، فيبسط أيديهم يتبدل ضعفهم قوة ، وتنقلب قلتهم كثرة ، أضف الى ذلك ما يتوفر للامة فيصرف في منافعها العامة ، ومصالحها المدنية ، وما يعود عليها من بسط الامن في ربوعها ، وتوثيق عُرى المحبة بين أفرادها . وحسبك دليلا على ذلك أن المسلمين لما تهاونوا فى إخراج الزكاة انحلت رابطتهم، وتأخرت مدنيتهم

س اذا كان في الزكاة ما ذكرت من رابطة الود بين الافراد ، ومن مصالح جماعة الامة ، وكانت بذلك من أعظم أركان العمران ، فما بالنا نرى الإفرنج وقد استبحر عمرانهم ، وليس عندهم زكاة مثلنا؟

ج لعلك لم تنظر الى ما عندهم من الجمعيات الخيرية ، والملاجئ والمستشفيات المجانية، وغير ذلك مما يقصد به تحسين حال الايتام والفقراء، وغير ذلك من المنافع والمصالح، وهل هذا الا بمعنى الزكاة عندنا؟ وهل تقوم لامة قائمة من غير أن يكون فيها هذا الركن الاقتصادي العمراني الجليل؟

ألا تعجب حينما ترى الافرنج يعرفون قيمة هذا الركن ، وقومنا عنه غافلون ؟ ألا يزيد عجبك عند ما تسمع مقلدة الفقهاء يعلمون الناس إسقاط فرضية الزكاة بما يوحي اليهم الشياطين من الحيل؟ ولعلك شاهدت كثيرا ممن تجب عليهم زكاة المال ، يأتي قبل الحول الذي تجب بحلوله الزكاة فيتنازل لامرأته عن ماله ، ثم بعد أن يفوت الحول يستوهبها إياه ، ويزعم أنه بذلك قد خرج عن دائرة المالكين فلم يكلف ، وأن حيلته صحت عند الله

وأغرب من ذلك أن الرجل يضع زكاة ماله نقودا في داخل كمية من الحبوب، ويأتي ببعض المستحقين فيعرض عليه تلك الكمية من الحبوب من غير أن يريه المال المدفون فيها، فيقول له: هذه زكاة مالي فاقبلها. وبعد قبوله إياها يداعها منه بضعف ثمنها، فيفرح المسكين، ويرجع المكلف بدفع الزكاة زاعما انه قد تخلص منها، ولم يعد يسأل عنه

فياحسرة على هؤلاء الذين فضلا عن تضييعهم للشريعة، وقضائهم على أحكامها، قد هزئوا بربهم، وسخروا بخالقهم، فاكتسبوا جريمتين بعملهم هذا، إحداهما تضييع دينه، والاخرى الاحتيال عليه، (وما الله بغافل عما يعمل الظالمون، انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار) يوم يتقاضاهم الفقراء والمساكين، ويحكم الله بينهم وبين المستحقين، يوم يحمى على أموالهم في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، ويقال لهم: (هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون)

حكم تارك الصلاة والزكاة

س حسبنا ما وقفنا عليه من معنى الصلاة والزكاة، وما وراءهما من المنافع، وما انطوتا عليه من الحكم. فما حكم تارك الصلاة، أو مانع الزكاة؟

ج كلاهما معرض عن الاسلام، هادم لأعظم أركانه، وقد ذهب جماهير العلماء الى وجوب قتله ان لم يتب — قيل كفرا وقيل عقوبة، وقد أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على قتال مانعي الزكاة. والخلاف في كفر تارك الصلاة أقوى

س كيف يعد تارك عبادة من عبادات الاسلام مرتدا عن الدين، تاركا له؟

ج لأن الاسلام ليس له معنى الا الانقياد لله تعالى، فيما يزكي النفوس، ويصلح الاجتماع، وذلك انما يتجلى في الصلاة والزكاة — كما علمت — وغيرهما تابع لهما، بل من أقام الصلاة وحدها، أقام كل أمر بعدها

س هذا صحيح وفهمناه مما سبق، فاين الادلة، على أن تارك الصلاة أو مانع الزكاة خارج عن الملة الاسلامية ؟

ج ذكر الله سبحانه الصلاة والزكاة في أكثر من خمسين موضعا من كتابه، وكلها يدل على الاهتمام بهما، وبناء الاسلام عليهما، غير أننا نكتفي هنا بذكر الصريح من الآيات في موضوعنا فنقول :

ما جاء في الصلاة وحدها

من ذلك قوله تعالى فى سورة الروم (فطرة الله التي فطر الناس عليها، لاتبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لايعلمون * منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم) الآية، وفي قراءة « من الذين فارقوا دينهم » فانظر كيف أراك عز شأنه أنه لايعدل عن اقامة الصلاة الا المشركون[1] ولا يتصف بها الا المتقون، من أقامها صاحب الدين، ومن لم يقمها فارق الدين، فهي الصفة المميزة، والحد الفاصل بين المسلم والمشرك

(لها بقية)

---

(١) المنار: الآية لاتدل على هذا الحصر، ولاهوصحيح في نفسه، ولاتدل على الحصر الذي ذكر بعده وان كان معناه صحيحا

مدرسة

دار الدعوة والارشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

٩

الراحة والتعب

النوم والرياضة الجثمانية

النوم – جميع أعضاء الجسم تحتاج للراحة بعد العمل ، ذلك بأن المواد الضرورية لحياتها تقل شيئا فشيئا بسبب العمل، وكذلك تتراكم فيها فضلات الاحتراق، فبالراحة تجمع من الدم مواد أخرى صالحة لتغذيتها وتخرج اليه تلك الفضلات المؤذية. وأعظم أنواع الراحة واشدها نفعا للجسم النوم ، ففيه يبطل عمل المخ الا فيما ندر (كالاحلام) ويقل ورود الدم اليه وتقل مرات التنفس والنبض فتستريح الرئتان والقلب ، وكذلك يقل افراز جميع الاعضاء الاخرى كالبول مثلا وترتخي جميع العضلات ، وبذلك تحصل الراحة لها ولجميع الاعصاب والاعضاء فتتجدد قوى الجسم وينتعش بسببه

قال بعض العلماء ان المخ في أثناء النوم يكون محتقنا بالدم ، ولكن هذا غير صحيح فأن الدم انما يكثر وروده الى الاعضاء وقت العمل، وأما في زمن النوم فيقل الدم من المخ وغيره ويهرب السائل الذي تحت العنكبوتية الى القناة الفقرية

واذا أريد جلب النوم لشخص مصاب بالارق فأحسن طريقة له أن يجتهد الانسان في تحويل الدم عن المخ بأن يترك الشخص التفكير ويصب الماء البارد على دماغه ويغسل جسمه بالماء الساخن أو يضع قدميه فيه أو يتعب نفسه بمثل

المشي وغيره فان ذلك يجذب الدم الى العضلات والاطراف، ولمثل هـذا السبب يميل الشخص الى النوم عادة بعد الا كل بسبب ذهاب الدم الى المعدة

ومدة النوم تختلف بحسب السن ففي الاطفال المولودين حديثا تستغرق اليوم كله تقريبا ؛ وفي الغلمان قد تمتد الى ١٢ ساعة، وفي الفتيان تكون نحو ٩ ساعات، وفي الشبان من ٧ الى ٨ ساعات،وفي الشيوخ تكون من ٥ الى ٦ ساعات. وأحسن وقت للنوم هو الليل بين ذهاب الشفق وطلوع الفجر أي بعد صلاة العشاء وقبل صلاة الفجر، فان هذا الوقت تكون الظلمة فيه أشد والسكون شاملا للبلاد فلاينبه المخ بمنبه يقلق راحته. ولا يحتاج الانسان للنوم في النهار الا في زمن الصيف وذلك لقصر الليل وطول النهار واشتداد الحر فيه فيتوارد بسبب ذلك الدم الى الجلد، ولذلك يميل الانسان الى النعاس في الحر. ويستحسن أيضا أن يكون هذا النوم بعد الظهر في مكان بعيد عن الضوضاء وأن يوجد الانسان فيه ظلمة بقدر الامكان بارخاء ستائره مثلا. وهذا النوم هو ما يسمى بالقيلولة

وفي التبكير في القيام فوائد عظيمة منها فوائد اقتصادية كمزاولة الاعمال المختلفة قبل فوات الوقت بسبب قصر النهار في الشتاء أو فواته بسبب اشتداد الحر في الصيف وعدم تمكن الانسان من العمل، ومنها فوائد صحية أهمها الخروج من المكان الذي بات فيه الانسان الى هواء أصح فينتعش جسمه بشم نسيم السحر. ومن ذلك تجدون أن فرائض الشريعة الاسلامية في الصلاة موافقة لمصالح الناس الاقتصادية والصحية، على فوائدها الروحية التهذيبية

ويجب أن تكون غرفة النوم خالية من الاثاث بقدر الامكان، وأن تكون أرضها خشبية وطلاؤها بالجير فقط، وتكون بعيدة عن الروائح الكريهة وتتخللها الشمس بالنهار وكذلك الهواء ليلا ونهارا. ولا يصح طلاؤها بغير الجير أونحوه فان المواد الاخرى البيضاء أو ذوات الالوان تشتمل عادة على الرصاص أو الزرنيخ والنحاس، وهذه المواد تنتشر في هواء الغرفة فتسمم جسم الانسان وباستمرار استنشاقها تحدث له أعراض قد تكون خطرة. ويجب أيضا أن تكون الغرفة جافة فان استنشاق هواء الغرف الرطبة يؤدي الى اعتلال الصحة حتى قد تصاب الاطفال

بالدفتيريا اذا سكنت في بيوت حديثة البناء حديثة الطلاء . فيجب اتقاء السكنى في هذه المنازل الا بعد تمام جفافها

هذا ولا يخفى أن الهواء الذي يستعمل في التنفس أو في الاحتراق هو أخف لسخونته من الهواء الذي لم يستعمل فلذا يصعد الى أعلى الحجرات . ولذلك كان من الواجب أن تفتح بعض النوافذ بقرب السقف. والتجربة المشهورة المثبتة لصحة هذه النظرية أن يأتي الانسان بشمعة مشتعلة ويمسكها بيده ويقف على باب الغرفة المسكونة ويضعها عند الباب بقرب الارض فيجد أن الشعلة تندفع الى داخل الغرفة بسبب دخول الهواء من هذا المكان، فاذا أمسك الشمعة في أعلى الباب وجد أن الشعلة تندفع الى الخارج بسبب خروج الهواء من الغرفة ، واذا أمسك بها في منتصف الباب وجد أن الشعلة تثبت في مكانها

ومن ذلك يعلم أن الهواء يدور في الغرف ويخرج من أعلاها — كما قلنا — وينبغي أن لاينام الانسان في تيار الهواء امام النافذة التي يدخل منها فان ذلك يحدث برودة عظيمة في الجسم تؤدي الى بعض الامراض . ويستحسن أن تكون النوافذ التي يدخل منها الهواء أعلى من رأس الانسان أي على علو نحو تسع أقدام، وأن تكون نوافذ التصريف ملاصقة للسقف

وينبغي أن لا يبقى أحد في غرفة النوم نهارا لئلا يفسد هواؤها، وأن تترك نوافذها مفتحة ليدخل منها الهواء والشمس ، ولا يجوز أن يوضع فيها ليلا أزهار ولا أشجار، وكذلك لا يجوز أن تكون محاطة بحدائق غناء ، فان النبات من نجم وشجر — وان كان ينقي الهواء في النهار — يتنفس في الليل تنفس الحيوان فيمتص أكسجين الهواء ويفرز ثاني أكسيد الفحم وبذلك يفسد الهواء . ويجب عدم وضع حيوانات في غرفة النوم فانها أيضا تفسد الهواء بتنفسها وقد تنقل الى الانسان بعض الامراض كالقرَع والارضة الجلدية فانهما يصيبان القطط والكلاب ، والدفتيريا تصيب القطط كثيرا، وفي بعض الكلاب ديدان تخرج بيضا اذا وصل شيء منها الى بطن الانسان أحدث عنده أكياسا عظيمة في الكبد أو غيره

ومن أوجب الواجبات أن يطفأ السراج وقت النوم كما وصى بذلك رسول

الله (ص) فان النار من أشد ما يفسد الهواء بل قد تقتل الشخص بالاختناق ، على أنها قد تحدث الحريق ، وفي ايقادها اسراف وضرر فان مجرد وجود النور في الغرفة مما يقلق راحة المخ

أما النور الكهربائي الصادر من بعض المصابيح — وهي المغلقة اغلاقا تاما — فانه لايحدث أي إفساد للهواء وهو أيضا أبعد عن إحداث الحريق من سائر أنواع النور الا أن في الاستضاءة به اسرافا كبيرا وهو يقلق راحة النائم أيضا

ومن القواعد الصحية أن لا ينام الانسان الا على الاسرة، وحكمة ذلك أن يكون أبعد عن الرطوبة والاقذار وعن الدواب المؤذية كالعقارب وكذا عن استنشاق الهواء الفاسد ، فان غاز ثاني أكسيد الفحم الذي يتولد من الاحتراق والتنفس هو أثقل من الهواء ولذلك يكثر بقرب الارض . وينبغي أن يحيط بالاسرة مايسمى عندنا بالناموسية (الكلة) وذلك لمنع البعوض فانه يذهب النوم عن الانسان وقد ينقل اليه الملاريا — كما سبق — ولا بد أن يكون الفراش نظيفا جدا خاليا من جميع الحشرات لما سبق بيانه في باب النظافة

وللانسان أن ينام على أي جنب شاء بحسب راحته، ولكن التزام جانب واحد قد يؤدي الى ضرر، فاذا التزم الانسان الجانب الايمن مثلا حصل احتقان في أجزاء الجسم اليمنى فتختل الموازنة التي بين جهتيه وتتعب الرئة اليسرى وتكون الجهة اليمنى من الدماغ عرضة للاحتقان وربما أدى ذلك الى الفالج اذا كان الشخص مستعدا له كأن كان كبيرا وشرايينه متصلبة ؛ وكذلك الحال اذا التزم النوم على الجهة اليسرى. فالاحسن ان يتقلب الانسان في الفراش، ولكن يفضل الاكثار من النوم على الجهة اليمنى خصوصا اذا كان في المعدة طعام فان ضغط الكبد والمعدة على الحجاب الحاجز وعلى القلب يعوق حركة التنفس ويضايق الانسان ، ويتعسر أيضا خروج الطعام من المعدة لان البواب في جهتها اليمنى . والنوم على الظهر يسبب الشخير والاحتلام فالأولى تركه الا قليلا ، ولايجوز النوم على الوجه فإن ذلك يسبب ضغطا على الاحشاء يضر الانسان ويضايقه. ولا بد من وضع الرأس على شيء عال كالمخدة بحيث تكون في محاذاة الجسم لمنع احتقان الدماغ

وكذلك ينبغي للانسان أن لاينام على طعام كثير فان النوم يعوق حركة الهضم وافراز العصير المعدي ويتعب المعدة في وقت يجب أن تستريح فيه جميع الاعضاء، هذا فضلا عن كون ضغط المعدة وهي ممتلئة بالطعام على الحجاب الحاجز يحدث ضيقا يتسبب عنه الـكابوس والاحلام المزعجة أو الاستيقاظ فجأة كأن الانسان يخاف من الموت العاجل ولا سيما اذا كان مصابا بالربو (ضـيق النفس) أو بمرض في القلب أو الرئتين . والاحسن أن يكون النوم بعد تمام الهضم في المعدة أي بعد نحو أربع ساعات

وينبغي أن يكون الرأس مغطى بغطاء خفيف لمنع توارد الدم بكثرة الى المخ، ويرى بعض الناس ان الاحسن كشفه . ولا يجوز بحال من الاحوال ان يغطى الوجه . أما الجسم والاقدام فيجب ان تدفأ جيدا فان ذلك يمنع تأثير البرد الضار ويجلب النوم أيضا

واذا عرق النائم وجب عليـه تغيير ملابسه بغـيرها عقب الاستيقاظ مباشرة

ولا بأس من وضع إناء في حجرة النوم للتبول فيه (مِبـوَلة) كما كان يفعل ذلك رسول الله (ص) فان القيام الى مكان بعيـد لاجل البول قد يحدث أرقا ويعرض الانسان لضرر البرد وغيره ، وذلك الضرر — لاشك — أعظم من استنشاق بعض تلك الرائحة التي تنبعث من البول

ومن المستحسن أن يبيت الانسان في فراش وحده لما تقدم بيانه ، وأيضا فإن المبيت مع الزوجة في فراش واحد يحرك الشهوة فيضطر الانسان الى الاسراف في الجماع وفي ذلك ضرر عظيم

هذا ومن الناس من يقوم ويمشي في أثناء نومه ويأتي بأعمال عديدة لايقدر أن يأتيها في اليقظة كالمشي على حائط مرتفع، وهذه الحالة قلما تحدث الا المصابين ببعض الامراض العصبية كالمرض المسمى بالهستـيريا [1] ويسمى هذا النوع من النوم (بالجولان النومي) (Somnambulism)

---

(١) مرض يصيب النساء كثيرا وكان القـدماء يظنون أنه من آثار أمراض جهازهن التناسلي فلذلك سموه بهذا الاسم المشتق من اسم الرحم باليونانية

الاحلام وعلم الغيب

الاحلام معروفة والظاهر من الكتب المقدسة خصوصا القرآن أن ما يراه الانسان في النوم قد يكون مطابقا للواقع أو لما سيقع كما يستفاد من سورة يوسف مثلا، وورد في حديث أن الاحلام ثلاثة (١) هواجس النفس و (٢) وسوسة الشيطان و(٣) الرؤيا الحق، وقال صلى الله عليه وسلم « رؤيا الرجل الصالح جزء من ست وأربعين جزءا من النبوة » أي فهي تشبه أن تكون جزءا من الوحي

وسبب الاحلام الفسيولوجي هو بقاء بعض خلايا المخ يقظة في أثناء النوم

هذا واعلم أن الغيب حقيقي واضافي - فالحقيقي هو ما ليس له وجود في الكون مطلقا ولا يمكن الاستدلال عليه بشيء موجود. وهذا الغيب الحقيقي هو الذي استأثر بعلمه الله تعالى فلا يعلمه أحد الا باعلام من الله. وليس كل ما غاب عنك وهو موجود يعتبر غيبا حقيقيا فإن الانسان خصوصا في الاعصر الاخيرة أمكنه العلم بأشياء غير واقعة تحت حواسه، ومن أمثلة ذلك تلغراف ماركوني[1] (Marconi) أو التلغراف اللاسلكي، وهو مبني على نظرية شهيرة في العلم الطبيعي وهي أن هذا العالم مملوء بالاثير، ولولا وجود هذا الاثير ما أمكن الجسم أن يؤثر في جسم آخر بعيد عنه؛ ففي هذا الاثير تحصل تموجات عديدة ينشأ منها النور والكهرباء والجذب وغير ذلك . فلهذا التلغراف آلتان آلة تحدث التموج الكهربائي والاخرى تتأثر به مهما بعدت عنها. فان هذا التأثير الكهربائي يسري في الاثير

وكذلك عرفت الآن أشياء تخترق حجب المادة الكثيفة وتصل الى باطنها بواسطة الاثير أيضا مثال ذلك أشعة الراديوم وأشعة رونتجن Röntgen وهو عالم ألماني من مدينة وُرزبرج Würzburg اكتشفها في سنة ١٨٩٥م وهي عبارة عن أشعة لم يعرف كنهها تنبعث من القطب السالب اذا مرت الكهرباء في أنبوبة مفرغة وهي لا تضيء فلا ترى ولكنها تخترق كثيرا من الاجسام فترتسم صورها على حائل يوضع خلفها، وهذا الحائل مصنوع من لوح زجاجي مغطى بمادة كيماوية هي بلاتينو - سينور - الباريوم Platino-cyanide of Barium أو البوتاسيوم

(١) عالم إيطالي لا يزال حيا

بدل الباريوم أو غيره، وفوقها غطاء من الورق يوضع عليه الجسم المراد رؤيته. ومن خواص هذه المادة أنها تضيء اذا مرت فيها تلك الاشعة المظلمة ، فاذا وضعت اليد مثلا امام هذه الانبوبة المفرغة خرجت الاشعة منها واخترقت اللحم والشحم وغيره فيرتسم ظل العظم على الوجه الزجاجي للحائل لان العظم يقاوم مرور الاشعة فيه أكثر من غيره من الانسجة الرخوة فيظهر مظلما. ويمكن طبع الظل وحفظه بطريقة التصوير الفوتوغرافي حتى بدون واسطة الحائل المذكور . ومثل هذه الاشعة في تأثيرها أشعة الراديوم وهوعنصر اكتشف حديثا تنبعث منه أشعة متنوعة كالكهرباء والحرارة والنور وأشعة تخترق الحجب كاختراق أشعة رونتجن . ولجهل مكتشف هذه الاشعة الاخيرة بحقيقتها سماها أشعة X أو الاشعة المجهولة كما نقول في اللغة العربية لكمية الحساب المجهولة في بعض المسائل الرياضية الكمية (س)

اذا علم ذلك أمكننا الآن أن نشبه مخ الانسان بآلة كهربائية تنبعث منها في أثناء العمل تموجات مخصوصة كتموجات تلغراف مركوني وهذه التموجات قد تتلقاها مخاخ بعض الناس بعد ان تنفذ الى باطن جماجمهم، ومن المعلوم في علم الفسيولوجيا أن جميع أعمال الجسم الكبيرة والصغيرة ليست الا حركات متنوعة في ذراته وفي جواهره الفردة. ففي أثناء النوم اذا انقطع عن الانسان ما يشغله مما يوجد في هذا العالم واستراح مخه كان حينئذ صالحا لتلقي بعض تموجات أثيرية مما ينشأ من حوادث هذا العالم، فرؤية شخص لشخص يمشي في مكان خطر أو يسقط في البحر مثلا قد تكون مطابقة للواقع ونفس الامر ، هذا في الاشياء الحاصلة في العالم ، وقد يستدل من بعضها المخ على البعض الآخر الذي لم يوجد فيخيل له أنه واقع بالفعل فيراه ، ولكن كل ذلك لا يدل على انه علم الغيب بمقتضى التعريف السابق

أما حوادث العلم في المنام بالغيب الحقيقي فلا يمكن تعليلها بهذا التعليل السابق وانما هي من إلهام الله لبعض النفوس الصافية فان الغيب الحقيقي لا يعلمه الا الله كما نص على ذلك القرآن وهو الذي يطلع من يشاء من عباده على مايشاء فلا يعلمه أحد من ذاته بل باعلام الله ، ومثل ذلك الوحي والنبوة (اقرأ آخر سورة الجن)

والاحلام منها ما يحدث بسبب وداعية ومنها ما يحدث بغير سبب معروف . والسبب اما أن يكون كثرة اشتغال العقل بشيء في اليقظة واما أن يكون شيئا طرأ على الانسان في نومه، كأن توضع شمعة مشتعلة أمام عين النائم فانه ربما يحلم بحريق أو رعد أو برق أو نحو ذلك

ويؤيد ماقلناه في الاحلام وما تنبئ به من الغيب مسألة التنويم المغنطيسي

التنويم المغنطيسي

يحدث هذا التنويم لانواع الحيوانات المختلفة اذا انحصر فكرها في شيء واحد مخصوص وأطاعت النفس شعورها بالميل لهذا النوع من النوم، فاذا حصر الانسان أو غيره فكره في جسم مضيء مثلا حصل له هذا النوم ، وكذلك يمكن تنويم مثل الديكة والخيل وغيرهما ، وينوم الديك برسم خط طويل امام عينيه ويوضع منقاره عليه ويمسك برأسه في هذا الوضع مدة فانه ينام نوما مغنطيسيا . ويمكن أحيانا تنويم الاطفال الرُّضع بإلقائهم على ظهورهم

والنائم هذا النوم يمكن إيذاؤه بأشياء كثيرة وهو لا يشعر بها حتى قد تعمل له بعض العمليات الجراحية وهو لا يدري

وهذا النوم له درجات ست (وقسمها بعضهم الى ثلاث فقط) وآخرها من أغرب مايكون ، فان النائم يرى فيها البعيد كما يرى القريب ويسمي الافرنج تلك الحالة [Clairvoyance] ومعناها الحرفي « الرؤيا الواضحة» وفيها يشعر الانسان أيضا بالاشياء وإن كانت عيناه مغمضتين بل يمكنه القراءة بأي جزء من جسمه فقد حدث في محاكم مصر بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٩١٣ أن نومت فتاة قبطية نوما مغنطيسيا فكانت تقرأ الساعة بمعدتها أمام القضاة وكانت ترى مَن خلفها ورأت ما بيد أحد المحامين وأعينها معصوبة ويد المحامي مقبوضة

ومن فوائد هذا التنويم أنه قد يستعمل لشفاء بعض الامراض، فمثلا اذا أصيب الانسان بمرض جلد عميرة (الاستمناء باليد) حتى إنه لم يقدر على كبح جماح نفسه ونوِّم وأمر أن لا يأتيه فانه يشفى من ذلك شفاء تاما، وكذلك من تعود التدخين أو تعاطي الافيون مثلا

وفي التنويم المغنطيسي يمكن للانسان أن يخاطب غيره اذا كان نائما مثله على بعد شاسع و يسمى ذلك بالتلغراف الانساني أو انتقال الافكار، وتسميه الافرنج [Telepathy] ومعناه الحرفي « الشعور على بعد » وهذا التأثير على البعد قد يحصل حتى للايقاظ، فاذا اتفق شخصان على التخاطب على بعد في وقت ومكان معينين أمكن ذلك بالمزاولة والرياضة الطويلة . وقد يؤثر الشخص في شخص آخر بعيد عنه بدون اتفاق بينهما أيضا ولـكن ذلك نادر جدا

وهذه المسألة تفهمنا تأثير العـين [1] الذي ورد فيه بعض الاحاديث النبوية وتواترت روايات أمم العالمين على حصوله وان أنكره بعض المتأخرين. على ان إنكار تأثير العين مطلقا مكابرة، فمن ذا الذي ينكر تأثير نظرة الرضا والحقد أو المحبة والبغض في النفوس وتأثير النظر الى الجميل والقبيح أو الفرح أو الحزين والى النشيط والـكسلان المتثائب الى غير ذلك مما هو معروف . ولذلك قال(ص) « العين حق » وأما مازاد عن ذلك القدر من الحديث فإما أنه لم يثبت عنه عليه السلام أو أنه يراد به تأكيد ماللعين من التأثير في النفس أو المبالغة فيه

ومثل التأثير على البعـد أيضا بعض أنواع السحر كالنوع المسمى بمصر (بالشبشبة)

ومن النوادر التاريخية التي لاتبعد صحتها ماروي أن عمر رضي الله عنه كان يخطب بالمدينة فصاح في أثناء خطبته (ياساريةُ ، الجبلَ ، ياسارية الجبل ، من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم) ثم عاد الى الخطبة حتى قال فيه بعض الصحابة إنه جن ، ولما سئل رضي الله عنـه عن ذلك أجاب بأنه رأى جيوش المسلمين تكاد تفتك بها الاعاجم على أبواب (نهاوند) فصاح بقائدهم — ولم يتمالك نفسه — ليتحصن بالجبل . و بعد ذلك جاءت الاخبار بأن المسلمين كادوا ينهزمون، لولا أن سارية القائد سمع مع بعضهم هاتفا يرشدهم الى الجبل؛ فدهش الناس لذلك وعلموا

(١) هذا التأثير قاصر على التأثير النفساني أو العصبي فقط، والذي نعتقده أنه لا يحدث مباشرة مرضا جوهريا عضويا فهو كتأثير وسوسة الشياطين

منه مقدار نفس عمر وكبر روحه . وهذه من أعظم مناقبه (رض)

واعلم ان جميع هذه التأثيرات تصل بين النفوس بعضها ببعض بواسطة الاثير – كما سبق – والظاهر أن جميع المخلوقات ليس فيها شيء آخر سوى المادة الكثيفة أو اللطيفة ، وهي التي تأتي بكل مافي هذا العالم من المشاهد العجيبة

أما اعتقاد عامتنا وبعض خاصة المليين بأن في الانسان أو في هذا العالم شيئا آخر مخلوقا يغاير مادة الكون فأرى أنه بعيد عن الصواب بعيد عن القرآن ، فان هذا الكتاب الشريف لم يثبت وجود شيء مّا يغاير مادة الكون سوى الله (٢ : ١١٤) حتى أنه نص على أن بعض ما يسمونه بالارواح كالجن مخلوق من مارج النار، وهو من مادة هذا الكون [١]

---

(١) المنار : مادة الكون مؤلفة من عناصر كثيرة ما أحاط البشر بها علما ، ولما اكتشفوا من سنين قليلة الراديوم بدا لهم من العلم الجديد بها مالم يكونوا يتصورون ولا يصدقون ، فرجعوا به عن كثير ممـا كانوا يظنون . ولا يبعد أن يكون في غير هذه الارض من عوالم الكون ما ليس فيها . ولم أر فائدة لحرص الكاتب على اثبات ان أرواح البشر والملائكة والجن من مادة الكون التي يعد منها الاثير الذي عرف بالعقل لا بالحس . ولم يقل أحد من علمائنا ان هذه الاشياء ليست من مادة الكون ، وكيف يقولون ذلك وهم مجمعون على أن الوجود قسمان : واجب أزلي وهو خالق الكون، وممكن مخلوق وهو الكون . وأكثرهم يعرف الملائكة بانهم أجسام نورانية. فاذا كانوا يعبرون عنهم بالاجسام فهل يمكن ان يقولوا انهم ليسوا من الكون ؟ أما النسبة بين الملائكة والجن فهي العموم والخصوص المطلق ، فكل الملائكة من الجن وليس كل الجن من الملائكة . وليس المراد بكونهم من الجن ان كل مايسمى جنا مخلوق من مادة واحدة ، بل معناه ان كل ذلك من العوالم الخفية المجتنة . واما القرآن فانه يثبت ان العالم قسمان : عالم الغيب وعالم الشهادة ، والملائكة والجنة والجحيم من عالم الغيب الذي لا نعلم من أمره الا ما عرفنا الوحي ، وانما نعرف بكسبنا شيئا قليلا من أحوال عالم الشهادة ، فعلينا ان نجتهد لنزداد علما فيما ينفعنا منه، ونكتفي من أمر عالم الغيب بما صح خبر الوحي به ، ولا نقيس ما نجهل كنهه ، على ما لانعلم الا بعض الشيء عنه

واذا لاحظنا أنه نص على أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم ثم استثنى الشيطان أمكننا الاستدلال بذلك على أن الشيطان كان أحد الملائكة، وقد نص في آية أخرى (١٨: ٥٠) على أنه كان من الجن؛ فيستنتج من ذلك أن لفظ الجن يطلق على جميع ما استتر من هذه العوالم، فان مادته تطلق على كل ماخفي كالجنين مثلا. ومما يؤيد كون الملائكة من الجن قوله تعالى (وجعلوا بينه و بين الجنة نسبا) وقوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) مع أن العرب أشركت بالله الملائكة، فلولا أن لفظ الجن يطلق عليهم أيضا لما صح هذا التعبير في الآيتين السابقتين

ولا ينافي ذلك نسبة الذرية للشيطان مع العلم بأن الملائكة لاتوصف بالذكورة ولا بالانوثة (قر ٤٣ : ١٩) فان الذرية قد تكون بغير اجتماع الذكر بالانثى — كما سيأتي بيانه في علم الميكروبات —

نعم ان لفظ الجن اذا أطلق انصرف غالبا الى عالم مخصوص معروف في الذهن غير الملائكة كما في قوله تعالى عن لسان الملائكة (بل كانوا يعبدون الجن) الآية

أما مسألة استحضار الارواح فكثير من العلماء الى الآن يشكون فيها، وهي اذا صحت لاتنافي ماذهبنا اليه، فان هذه الارواح التي تستحضر لم تخرج عن كونها من عالم الاثير باعتراف مستحضريها أنفسهم، حتى زعم بعضهم امكان تصويرها بالآلة الفوتوغرافية، بل حاولوا ذلك فعلا، وقد رأيت بنفسي هذه الصورة في بعض المجلات العلمية

والارواح التي تستحضر منها ماهو للبشر ومنها ماهو من العوالم الاخرى كالشياطين

ومسألة استحضار الارواح — اذا صحت أيضا — كانت دليلا بينا على صحة ما ورد في القرآن الشريف وصحة الاخبار والآثار عن الكهانة، فان الكاهن العربي أوغيره كان يسعى في إحداث علاقة بينه و بين الشياطين فيخبرونه عن بعض أشياء غيبية أو يعملون له بعض الأعاجيب كأن يحضروا له شيئا بعيدا عنه

ويؤيد ذلك أيضا ماورد في أسفار موسى (ص) كما في سفر التثنية ١٨ : ١١

وكذلك القصة الواردة في سفر صموئيل الاول ٢٨ : ١١ و ١٢ فكل هذه الاشياء تضافرت على القول بامكان الاتصال بذاك العالم الاثيري وليس ثم مانع في العلم الحقيقي منه

واعلم ان الاثير هو مادة العالم الاصلية التي خلقت منها العناصر والاكوان وهي لاشك حادثة كما سيأتي اثباته ان شاء الله تعالى في الجزء الثالث

الرياضة البدنية

من قوانين الكون أن العضو المستعمل ينمو ويحسن حاله ، والعضو الذي يهمل يضمر شيئا فشيئا حتى قد يزول من النسل بعد حين من الدهر ، لذلك كانت الرياضة البدنيـة من أوجب الواجبات لبقاء الجسم في الصحة والعافية ، حتى ان الاطفال يجدون أنفسهم مدفوعين بالهام إلهي الى كثرة اللعب ، لما في ذلك من الرياضة لابدانهم

وتأثير الرياضة أنها تسرع في دورة الدم فيقوى القلب والعروق، وتكثر تغذية جميع الاعضاء ويتم الاحتراق بها وتذهب عنها الفضلات الضارة التي يكثر إفرازها في البول والعرق وفي الهواء الخارج من الرئتين، ولذلك يحتاج الانسان الى الاكثار من الطعام والشراب واستنشاق أكسجين الهواء ، وتقوى جميع عضلات الجسم وتسمن ويزول التشحم الذي قد يتراكم على القلب حتى يضعفه بل قد يكون سببا في الموت الفجائي بالسكتة القلبية

وتمام الاحتراق الذي يحصل بالرياضة يمنع تراكم حامض البوليك في الدم ، وهذا الحامض هو الذي يسبب أعراض المرض المسمى بالنقرس وقد يرسب في بعض الاعضاء كالكليتين فيتكون فيهما حصيات ضارة جدا وكثيرا ماتؤدي الى الهلاك. وبالجملة فان الرياضة تقوي جميع أعضاء الجسم وتذهب عنها المواد الضارة فتصح

ويجب أن تكون الرياضة في الهواء النقي والا لاستنشق الانسان مايضره من العفونات

ولا يصح أن تعمل في وقت الحر الشديد ، فان الحر كثيرا مايقتل الانسان . ولا يجوز أن يتعرض الانسان بعد الرياضة وكثرة العرق للهواء فان ذلك من

أعظم الاسباب لاحداث التهاب الاعضاء والنزلات المتنوعة، كذلك لايجوز شرب الماء البارد عقبها ، فان من الناس من مات بسبب ذلك لحصول سكتة قلبية له

واذا أحس الانسان بتعب منها فالواجب أن لايأكل الا بعد الراحة فان المعدة تشترك مع الجسم في التعب ، فاذا وضع فيها الطعام حينئذ فانها لاتقدر على الهضم، وكثيرا ما يحصل القيئ بسبب ذلك ، وان لم يتقايأ الشخص نزل الطعام الفاسد الى الامعاء فأحدث فيها تهيجا من آثاره المغص والاسهال

ومن الخطأ الكبير الجماع أيضا عقب الرياضة مباشرة فان ذلك يزيد في إنهاك قوى الجسم، فالواجب أن يتبع الرياضة الراحة أو النوم فان ذلك نافع جدا . ولا يجوز عمل الرياضة الشاقة عقب الاكل مباشرة كما سبق بيانه

والاعتدال في الرياضة ضروري جدا — كما في سائر الاشياء — ومدتها للشبان الاصحاء نحو من ساعة في اليوم نصف في أوائل النهار ونصف في آخره ، هذا اذا كانت بالمشي السريع ، أما اذا كان المشي معتدلا فتكون ساعتين . ومن الامراض مالا توافقه الرياضة كامراض صمامات القلب

وأنواع الرياضة عديدة منها المشي ومنها العدو ومنها السباحة وركوب الخيل وغير ذلك ، ولا يتوهم أحد أن المشي لايكفي، وكيف لا يكفي وبه تتحرك جميع العضلات تقريبا ويسرع القلب والتنفس

النبذة الرابعة

في علم الانسجة أو التشريح الدقيق

الهستولوجيا Histology

الهستولوجيا كلمة يونانية ومعناها [علم الانسجة] وبعبارة أخرى علم التشريح الدقيق للجسم ، وقد سبق ذكر أشياء كثيرة منه في النبذة الثالثة

وهذا العلم لايمكن دراسته الا بالمجهر المسمى بالميكروسكوب أي المنظار الدقيق

ليتيسر للانسان الوقوف على جميع دقائق الجسم

أما المجهر فهو مبني على الحقيقة الطبيعية الآتية وهي أن الجسم اذا وضع على بعد مخصوص من العدسة المحدبة تجمعت الاشعة المنبعثة منه ورسم كبيرا في الجهة الأخرى، وهذه الصورة الكبيرة تمكن رؤيتها بالعين المجردة، وقد ترى بعدسة أخرى فتزداد كبرا، لذلك كان الميكروسكوب عبارة عن أنبوبة معدنية في طرفها عدسة محدبة، وكذلك في الطرف الآخر، الأأن الغالب أن تكون العدسة التي في الطرف الاول محدبة من الجانبين وفي الطرف الثاني محدبة من الجهة الداخلية فقط

وتكون العدستان على أبعاد مخصوصة معروفة في علم الطبيعة، فاذا أريد رؤية أي جزء من أجزاء الجسم قطعت منه طبقات رقيقة بآلة كالموسى وتوضع القطعة منها على لوح من الزجاج بعد أن تلون بألوان مخصوصة أو بدون تلوين

ثم يوضع هذا اللوح على حامل في المجهر له ثقب مستدير في وسطه وتحت هذا الثقب مرآة لعكس الاشعة لتنفذ خلال القطعة الرقيقة التي فوق اللوح الزجاجي فتكبر صورتها العدسة الاولى ثم تكبر هذه الصورة العدسة الثانيـة فيراها الانسان كبيرة جدا

وبهذه الآلة أمكن الوقوف على دقائق عالمي الحيوان والنبات وبها اكتشفت الميكروبات، فلها الفضل الاكبر في علم الطب الحديث

فاذا نظر بالمجهر الى أجزاء الجسم المختلفة وجد أنها تتركب من الانسجة الآتية :—

(١) ابيثيليوم [Epithelium] وهذه كلمة يونانية معناها الغطاء لان هذا المنسوج يغطي جميع أجزاء الجسم من الظـاهر والباطن كما في الجلد وفي قنـاة الهضم وغير ذلك

(٢) المنسوج الضام وهو الذي يربط أجزاء الجسم بعضها ببعض

(٣) المنسوج العضلي وهو الذي تحصل به الحركة — كما سبق —

(٤) المنسوج العصبي وهو المخ والنخاع وسائر الاعصاب

وكما أن جميع المنسوجات كالاقمشة مثلا تتركب من أجزاء دقيقة جدا وهي الخيوط كذلك هذه الانسجة تتركب من خيوط تسمى الالياف، ومن كتل صغيرة جدا

تسمى الخلايا، وبينهما مواد تربط الواحد منهما بالآخر. وأصل جميع ما في الجسم من الألياف وغيرها ناشئ من الخلايا . فالخلايا في الحقيقة هي عنصر الاجسام الحية نباتية كانت أو حيوانية. إذ من الثابت أن الانسان يتكون من بيضة واحدة، وهي في الحقيقة خلية حية

ففي بعض أجزاء الجسم نجد أن هذه الخلايا منضودة صفوفا بعضها فوق بعض ويتكون منها الاپيثيليوم المذكور، وفي الاجزاء الاخرى تمتط هذه الخلايا فيتكون منها العضلات أو الاعصاب أو المنسوج الضام بتغيرات مختلفة تحصل فيها ، وقد يتكون في داخلها مواد دهنية فينشأ من ذلك منسوج الشحم

ومن الناس من يعتقد أن ألياف المنسوج الضام كانت خلايا فامتطت — كما قلنا — ومنهم من يرى انها افرازات من الخلايا ترسب فيما بينها كما ترسب بعض الاملاح في السوائل والقول بأنها رواسب هو الراجح الآن عند العلماء

أما الخلية فهي الاصل لجميع الاحياء — كما سبق — وتتركب من البروتپلازم[1] Protoplasm وهو مادة يدخل في تركيبها جميع ماذكرناه سابقا من العناصر التي في جسم الانسان فهي كانسان صغير. ففيها الماء والزلال والدهن والمواد الكربوهيدراتية وأملاح عديدة وغير ذلك. ولها جميع خواص الحياة وهي التنفس والتغذي والافراز والحركة. وجميع هذه الاعمال يمكن لكل جزء من أجزاء جسمها أن يقوم بها على حد سواء، فمثلا التغذي يحصل بجميع جسمها، وفي حركتها ترسل من أي جزء من جسمها أذنابا تتحرك بها كالمجاديف . وكلما ارتقت الحيوانات تخصصت بعض هذه الخلايا بعمل مخصوص كما نرى في الانسان؛ فمثلا نرى أن الحركة في الانسان خصت بها أعضاء ، وكذلك القول في التغذية الا أن الخواص المذكورة للحياة تبقى لكل خلية وإن لم تظهر فيها ظهورا بينا ، بمعنى أن بعض الوظائف قد يبقى كامنا في الخلايا وتظهر بعض الخواص الاخرى ظهورا بينا، كالاحساس مثلا فان جميع الخلايا الحية تحس الا ان الاحساس في المجموع

(١) كلمة يونانية معناها المكون الاول لاعتقاد العلماء انها أول مظهر من مظاهر الحياة في هذا العالم

العصبي أظهر بكثير مما هو في المنسوج الضام مثلا

وأول الاحياء كانت قِطَعاً بروتوبلازمية مجردة من كل شيء آخر، وفي الاحياء التي أرقى من ذلك يتكون في وسط الخلية بقعة قاتمة تسمى «النواة» وهي تغاير في تركيبها بعض التغاير لمواد البروتو بلازم ويصير لهذه النواة التأثير في تغذية الخلايا وفي انقسامها فلا يبتدأ الانقسام في الخلية الا اذا انقسمت نواتها واذا فصل جزء منها عن النواة أصابه الفساد، وفي وسط هذه النواة نواة صغرى تسمى النوية

و يتصاب الجزء الذي على سطح البروتوبلازم حتي يصير كحائط للخلية

والخلايا تتكاثر بالانقسام وهذا الانقسام يبدأ بانقسام النواة ثم ينقسم البروتو بلازم فتصير الخلية الواحدة خليتين ، والخلايا التي لانواة لها لايكون جزء منها مسيطرا على الباقي

ومن الخلايا ما ينقسم داخل الغشاء الكاذب المحيط بالخلية، ومنها ما ينقسم مع نفس هذا الغشاء فمثال الاول جنين الانسان فان البويضة تنقسم بدون انقسام الغلاف، ومثال الثاني الحيوان المسمى (الاميبا[1]) وهو مركب من خلية واحدة تنقسم كلها فيصير الواحد اثنين ثم أكثر فأكثر وهو يوجد في بعض المياه الآسنة

والفرق بين أبسط النباتات وأبسط الحيوانات هو عسر التحديد الا أنه يمكن أن يقال فيه ما يأتي (١) ان خلايا النباتات محاطة بطبقة من مادة السللولوز وهي المادة التي يتركب منها الخشب وتشبه في تركيبها الكيماوي النشاء، ولكن من الحيوانات مافيه هذه المدة أيضا (٢) في خلايا النباتات الراقية مادة خضراء تسمى (الكلوروفيل) وهي كلمة يونانية معناها « خضرة الورق » (٣) ان الخلايا النباتية تُكوّن - بواسطة الكلوروفيل مع تأثير أشعة الشمس — من بعض العناصر البسيطة أجساما عجيبة التركيب مثل السكر الذي تولده النباتات من غاز ثاني أكسيد الفحم الموجود في الهواء، والنباتات تولد أيضا من الاملاح النيتروجينية البسيطة — مثل نترات الصوديوم - مواد زلالية معقدة التركيب . أما الحيوانات فلا يمكنها هذا العمل وهي تعتمد في غذائها بالمواد الزلالية وغيرها كل الاعتماد على

(١) كلمة يونانية معناها المتغير لتغير شكله دائما كما سبق في حاشية ص ٦٨

النباتات التي لولاها لهلكت جميع الحيوانات

هذا وقد سبق ان الجسم الانساني كله مولد من البويضة بانقسام نواتها وپروتوپلازمها كله، ومن الحيوانات كالدجاج مثلا ما يتولد بانقسام النواة مع جزء صغير مما يحيط بها من البروتوپلازم وتتغذى بالباقي منه

والاپثيليوم مركب — كما قلنا — من خلايا مرصوص بعضها بجانب بعض، وقد يتكون منها عدة طبقات أو طبقة واحدة كما في أپثيليوم البريتون، وفي الجلد طبقات عديدة منه، وفي غشاء المثانة تكون الطبقات أقل من طبقات الجلد. وفي بعض أعضاء الجسم يكون لخلايا الطبقة العليا منه أهداب تتحرك بنفسها وهي عبارة عن زوائد ممتدة من نفس البروتوپلازم — كما تقدم —

أما المنسوج الضام فيراد به أشياء كثيرة، منها أربطة المفاصل وأوتار العضلات والعظام والغضاريف والشحم؛ ومن الناس من يعد الدم من المنسوج الضام أيضا. وأعظم مايتميز به العظم عن غيره رسوب مواد جيرية في المادة التي بين خلاياه

وأما المنسوج العضلي — وهو اللحم — والمنسوج العصبي فقد سبق الكلام عليها فلا حاجة الى التكرار . وتبارك الله الذي خلق الخلق في هذه الاطوار

﴿ انتهى الجزء الاول ﴾

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبي الرحمة ، ومعلم الحكمة ، وعلى آله وصحبه هداة الأمة (وبعد) فقد جعلت هذا الجزء الثاني من محاضراتي خاصا بالكلام على الأحياء التسلقية من ميكروبات وديدان وغيرهما ومايئشأ عنها من الأمراض المعدية وأعراضها وعلاجها وطرق إتقائها – الى غير ذلك من المباحث العالية الضرورية لحياة الأفراد والامم

ولما كانت لغتنا العربية في أشد الحاجة الى مثل هذه المباحث الراقية التي قتلها الافرنج بحثا وتمحيصا – لم أقتصر في هذا الجزء على ما ألقي منها على طلبة مدرستنا (دار الدعوة والارشاد) بل توسعت فيها بما سيكون إن شاء الله نافعا حتى للخاصة، ونقلت الى لغتنا الشريفة أهم ما كتبه الافرنج في هذه المسائل راجيا بذلك خدمة اللغة والامة بارشادها الى ما يجب اتباعه لاتقاء شر تلك الامراض المعدية التي تفني كثيرا من الناس في كل يوم، وتضعف الامم التي لم تلتفت إلى سنن الله تعالى فيها وأهملتها إهمالا شنيعا

وقد جريت في هذا الجزء على طريقتي في الجزء الأول من التدقيق في التعريب واختيار أوضح العبارات وأقربها الى تناول جمهور القراء ليسهل على كل مطلع على الكتاب فهم المراد منها ، مراعيا في كل ما أكتب نصوص الشريعة الاسلامية الغراء وأساليبها ممحصا لها ، وموفقا بين تلك النصوص و بين الحقائق العلمية ، والله الهادي الى أقوم طريق

البكتيريولوجيا

Bacteriology

علم الاحياء الدقيقة الخفية

البكتيريولوجيا لفظ يوناني معناه علم البكتيريا . والبكتيريا معناها العصيّ (جمع عصا) ويراد بها غالبا الاحياء الدنيئة النباتية التي أكثرها مركب من خلية واحدة ، وانما سميت بذلك لكون شكل كثير منها مستقيما كالعصا . ولفظ ميكروب معناه الحي الدقيق [1] والذي وضع هذا اللفظ شخص يسمى سيدللوت Sédillot في سنة ١٨٧٨ م ويطلق على جميع الاحياء الدنيئة سواء أكانت نباتية أم حيوانية أم في المنطقة التى بينهما . وجمهور العلماء يطلقون لفظ (البكتيريولوجيا) على علم الميكروبات كلها مع اختلاف أنواعها

أما علم البكتيريولوجيا الحالي فمؤسسه الحقيقي هو العلامة لويس پاستور LouisPasteur الفرنسي عاش بين سنة ١٨٢٢ و ١٨٩٥م واشتغل كثيرا بالبحث في داء الكلب والهيضة (الكوليرا) فهذا العلم تأسس في القرن التاسع عشر ، وأما وما كتب فيه من قبل فلم يكن مما يعول عليه كثيرا

وممن نبغ فيه أيضا الاستاذ روبرت كوخ الالماني Robert Koch وكان من أعلم علماء عصره واكتشف ميكروب الدرن وبحث بحثا دقيقا في الهيضة والطاعون، عاش بين سنة ١٨٤٣ وسنة ١٩١٠

وقد عرف الآن ان الميكروبات هي السبب في أكثر الامراض . والذي هدى الناس الى العلم بهذه الاحياء هو المِجهر (الميكروسكوب) ، ولكن اختراعه الذي كان في سنة ١٥٩٠ قد سبق علم البكتيريولوجيا ببضعة قرون ، ولم يكن فى

(١) المنار : اختار بعض كتاب العصر اسم الجراثيم للميكروبات ، واستحسنا من قبل اطلاق اسم الجن او الجنة عليها لخفائها

ذلك الوقت مرتقيا الى حيث يكشف لنا عن أكثر هذه الاحياء الدنيئة . وأقوى أنواعه الآن ما يكبر الشيء ١٠،٠٠٠ ضعف

كيفية دراسة الميكروبات

لدراسة الميكروبات توضع على لوح من الزجاج ، ثم تثبَّت باحدى الطرق المشهورة في هذا الفن ، ثم تلون بألوان مخصوصة لاظهارها جيدا. وإن كان يمكن رؤيتها حية بدون تلوين. وطريقة ذلك أن يصنع لوح سميك من الزجاج به حفرة صغيرة (تقعير) في وسطه ، ثم يؤتى بلوح آخر رقيق جدا وتوضع نقطة من السائل الذي فيه الميكروب على هذا اللوح ثم تغطى الحفرة بهذا اللوح الرقيق ، بحيث تكون النقطة متجهة الى الاسفل أي تكون في تجويف الحفرة المغطاة باللوح الرقيق. و يسمي علماء هذا الفن هذه الطريقة (بطريقة النقطة المعلقة) وفائدتها أن تحفظ السائل من التبخر وتوجد هواء محيطا به لتنفس الميكروب ، وبهذه الطريقة يمكن مراقبة نمو الميكروب وحركاته — ان كان متحركا — وغير ذلك

أما المادة الملونة فهي تكون غالبا مما يسمى بالانيلين [Aniline] وهي كلمة برتغالية معناها النيلة، وتلك المادة من مستخرجات قطران الفحم الحجري. وسميت بذلك لأنها صنعت في أول الامر من النيلة التي تستخرج من ورق شجرة معروفة وعيدانها .ومادة الانيلين هذه بتأكسدها يستخرج منها ألوان عديدة كالاخضر والاصفر الخ

تعريف الميكروبات

أكثر ميكروبات الامراض أحياء بين عالمي الحيوان والنبات ولكنها أميل الى النباتية منها الى الحيوانية، وهي في الغالب مركبة من خلية واحدة لانواة[1] لها، ومحاطة بغلاف من السللولوز [2] ولكنها خالية من مادة الكلوروفيل مطلقا ، ولذلك اختلفت الميكروبات عن النباتات العالية، فلا يمكنها تحليل غاز ثاني أكسيد

---

(١) يرى الآن بعض العلماء أنها ليست مجردة من النواة خلافا لما كان قد ذهب اليه الجمهور (٢) كون هذا الغلاف من السللولوز فيه نظر ، حتى أنكر ذلك الان بعض العلماء

الفحم الموجود في الهواء فهي في ذلك تشبه المواد الفطرية المركبة من عدة خلايا نباتية . وأيضا بعض الميكروبات يمكنها أن تركب مواد أزوتيـة عضوية من مثل النوشادر وحامض النيتريك وهي مواد غير عضوية ، فأشبهت بذلك النبات شبها عظيما وغايرت الحيوان بذلك و بغلافها السللولوزي ، ومنهـا طائفة تأخـذ الأزوت الضروري لها من الهواء

والمواد العضوية منسوبة الى أعضاء النبات والحيوان لأنهـا تتولد بواسطة هـذه الاعضاء ، مثال ذلك غرقئ (زلال) البيض والسكر وغيره

وأما المواد غير العضوية فهي التي توجـد في الكون بدون واسـطة النبات أو الحيوان كملح الطعام

فترى من هذا أن أهم مميزات النبات عن الحيوان أنه يمكنه توليد المواد العضوية من المواد غيرالعضوية مباشرة ، والحيوان لا يمكنه ذلك البتة. وهو في غذائه مضطر الى أكل النبات . ولتوضيح ذلك نقول : يوجد في الارض أملاح تسمى النيترات أي يوجد فيها النيتروجين (الأزوت) والاكسجين متحدين معا ومع معدن من المعادن كالبوتاسيوم مثلا ، فاذا صب عليها الماء ذابت فيه فيمتصها النبات ويتغذى بها و يحولها الى موادزلالية، و بذلك يمكنها أن تعيش بالاستقلال عن سائر الاحياء الاخرى ؛ و في الهواء آثار من مادة النوشادر وهي مركبة من النيتروجين والهيدروجين وسهلة الذو بان في الماء فتـذوب في ماء المطر وتسقط الى الارض فيتغذى بها النبات أيضا و يولد منها مواد زلالية

وأما الحيوان فاذا منعت عنه المواد الزلالية فانه يهلك بسرعة

وعليه فأصل الوجود الحيواني متوقف على النباتات وهي لاشك خلقت قبله . ولنرجع الى ما كنا فيه :

أشكال الميكروبات

للميكروبات أشكال عديدة أهمها : —

(١) الشكل الباسيلي أي المستطيل، وكلمة باسيل[Bacillus] لاتينية معناها

العصية (تصغير عصا) وذلك لان ميكروبات هذا النوع تحاكي خطوطا مستطيلة صغيرة جدا، فاذا قيل باسيل الدرن فمعناه عصيات الدرن أي ميكروبه الذي شكله مستطيل

(٢) البزور [Cocci] وميكروبات هذا الشكل كنقط صغيرة. وهذه النقط قد يلتصق بعضها بجانب بعض فيتكون منها خيوط تسمى البزور السلسلية [Streptococci] وقد تجتمع مثنى مثل ميكروب الالتهاب الرئوي والروماتزم والالتهاب السحائي الوبائي والسيلان إلا أن هذا الاخير شكل بزوره كلوي (أي كشكل الكلية) وقد تجتمع رباعَ؛ وقد تجتمع على أشكال غير منتظمة فيتكون منها ما يسمى بالبزور العنقودية [Staphylococci]

والبزور المربعة توجد عادة في القيء الناشئ من تمدد المعدة، والبزور الاخرى السلسلية والعنقودية توجد في الالتهابات والخراجات ونحو ذلك، وأشدها خطرا البزور السلسلية فانها هي التي تحدث المرض المعروف بالحمرة، وهو من الامراض المعدية الفتاكة، وتوجد أيضا في بعض التهابات الرحم العفنة عقب الولادة

(٣) الشكل الحلزوني [Spirilla] وميكروبه يكون دقيقا مستطيلا ملتويا على نفسه كالثعبان، ومن هذا الشكل ميكروب الهيضة (الكوليرا) وهذا الميكروب كثيرا ما يشاهد مقسما الى قطع صغيرة كل قطعة منها تشبه الضمة أو الشولة، ولذلك يسمونه بالباسيل الضمي [Comma] فاذا اجتمع من هذا الميكروب اثنان مثلا فقد يتكون منهما شكل يشبه حرف (S)

ومن الشكل الحلزوني أيضا ميكروب الزهري وميكروب الحمى الراجعة. والجمهور يعد الآن بعض الحلزونيات من نوع الحيوان لا من نوع النبات وهو الراجح

وبعض الميكروبات لها أهداب [Flaglla] تتحرك بها، فمثلا ميكروب الحمى التيفودية له أهداب عديدة تبلغ ٨ أو ١٢ وطول كل منها نحو من ضعف طول الميكروب نفسه، وهو يتحرك بهذه الاهداب حركة شديدة، ولضمة الكوليرا هدب أو اثنان في طرف واحد منها، وكذلك الاشكال الاخرى قد يكون لبعضها أهداب

ويقال ان لميكروب الحمى الراجعة أربعة أهداب اثنان في كل طرف. ولا

فرق بين طرف وطرف في هذه الميكروبات بل يمكنها أن تسير بأي شاءت

تربية الميكروبات

والميكروبات يمكن تربيتها تربية صناعية ويسمى ذلك في اصطلاح هذا العلم «زرع الميكروب» أو إنباته لانها نباتات — كما قلنا —

ومن السوائل المستعملة في تربية الميكروب المرق واللبن والبول ومصل الدم

وأما المياه الجيدة فقد شوهد أن الميكروبات لاتعيش فيها أكثر من ١٤ الى ٤٠ يوما ، وربما كان ذلك لقلة المواد المغذية لها فيها

ويمكن تربيتها أيضا على الجلاتين وهو مادة تستخرج بغلي العظام والانسجة الضامة كالاربطة وغيرها . وكلمة جلاتين إيطاليـة معناها الفالوذج ، ويمكن تسمية هذه المادة في لغتنا (بالودك)وهي مادة تشبه المواد الزلالية في تركيبها أي انها تشتمل على النيتروجين

ومن المواد الصلبة أيضا التي تربى عليها الميكروبات مايسمى (بالأجار أجار) [Agar - agar]وهو صمغ يستخرج من نباتات بحرية تنبت في الشرق كاليابان وجاوة . ومن هذه المواد أيضا البطاطس وغرقئ البيض المسلوق (زلاله)

والميكروبات المرضية تحتاج في نموها الى حرارة مثل حرارة الانسان تقريبا (أي نحو ٣٥ — ٣٩) ولذلك توضع في آلة مخصوصـة تسمى آلة التفـريخ [Incubator] تكون الحرارة فيها مرتفعة الى درجة مخصوصة

ومن الميكروبات مايحتاج لأكسجين خالص أي غير متحـد بشيء كما في الهواء ليستنشقه ومنها مايضره الاكسجين الخالص ويمنع نموه

وهـذه المسألة من أغرب مسائل العلم الطبيعي، فان الناس كانوا يظنون أن الهواء ضروري لجميع الاحياء كضرورة الماء لها وقد ظهر بطلان ذلك ، ومن آيات بيان القرآن للحقائق أنه قال (وجعلنا من الماء كل شيء حي) ولم يقل في موضع مامنه إن الهواء ضروري للاحياء

ومن الميكروبات ما يعيش في الهواء وفي غير الهواء، وهذا النوع هو والنوع الذي يضره الاكسجين يمكن زرعه (تربيته) في الفراغ

ومن أمثلة مالا ينمو في الهواء باسيل التيتانوس ، وهو مرض يحدث من دخول هذا الميكروب في أي جرح في الجسم فيصاب الجسم بالتشنج الذي يبتدئ بتقلص عضلات العنق و بانقباض الفكين حتى لا يمكن للانسان أن يفتح فاه، ولذلك يسمى هذا المرض بالعربية الكزاز ، وميكروبه يعيش في الطين والوحل والاتربة المختبئة في الاماكن المظلمة وتعريض هذا الميكروب للهواء يضعفه و يمنع نموه. أما ميكروب الدفثيريا مثلا (التي منها الخناق) فانه يعيش في الاكسجين وفي غيره

توالد الميكروبات

وأشهر طرائق توالد الميكروبات اثنتان : الطريقة الاولى الانقسام — وهي عامة في الجميع — فتنقسم كل خلية منهـا بالعرض (١) الى اثنتين والاثنتان الى أربع وهلم جرّا

والطريقة الثانية تكون بتوالدحبيبة [Sqore] في داخل كل ميكروب و بعدها ينفلق الميكروب وتبقى هذه الحبيبة قابلة للنمو مرة أخرى

وهذه الطريقة تحصل في بعض الاشكال الباسيلية وفي قليل من الحلزونية. والحبيبات تقاوم درجة الغليان (١٠٠ سنتيجراد) لمدة تختلف من خمس الى عشر دقائق ، وهي تقاوم المواد المطهرة كالسليماني والفنيك مقاومة كبيرة، ولذلك يجب أن تكون نسبة السليماني الى المـاء أكبر من النسب المعتادة لإبادة حبيبات تلك الميكروبات ، وكذلك يجب ابقاء الشيء المراد تطهيره في المحلول مدة طويلة

و طريقة التوالد الاولى تكثر الميكرو بات، والثانية تبقى النوع فقط ولا تكثره

---

(١) هذا في الميكروبات النباتية أما الحيوانية كميكروب الزهري والحمى الراجعة فينقسم بالطول. وفي البيئة الصالحة قد يحدث انقسام الميكروبات مرة في كل عشرين أو ثلاثين دقيقة

أثارة من تاريخ العرب
في الاندلس

تنبئ عن هدي الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله ، وجمعه بين الدين والدنيا ، ومكانة علماء الدين في عهده ، وقبوله منهم الاغلاظ في وعظه ، — وعن سيرة قضاة العدل وعلماء الآخرة ، الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يخافون في الحق صولة حاكم ، على ورع يزينه ظرف ولطف ، ودعابة لا مهانة فيها ولا سخف ، يتمثل ذلك كله في ترجمة الوزير الفتح بن خاقان للقاضي البلوطي في كتابه مطمح الانفس ، ومسرح التأنس ، في ملح أهل الاندلس . قال عفا الله عما تكلف من إبداع ، وما صنعه من اسجاع :

(الفقيه القاضي أبو الحسن منذر بن سعيد البلوطي رحمه الله تعالى)

اية حركة في سكون ، وبركة لم تكن معدة ولا تكون ! واية سفاهة في تحلم ، وجهامة ورع في طي تبسم ! اذا جد تجرد ، واذا هزل نزل ، وفي كلتا الحالتين لم ينزل للورع عن مرقب ، ولا اكتسب إثما ولا احتقب ؛ ولي قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن ، وناهيك من عدل أظهر ، ومن فضل اشتهر ، ومن جور قبض ، ومن حق رفع ، ومن باطل خفض ؛ وكان مهيبا طيبا صارما غير جبان ولا عاجز ولا مراقب لاحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم . واستمر في القضاء الى ان مات الناصر لدين الله ، ثم ولي ابنه الحكم فأقره وفي خلافته توفي ، بعد ان استعفى مرارا فما أعفي ، فلم يحفظ عليه مدة ولايته قضية جور ، ولا عدت عليه في حكومته زلة . وكان غزير العلم كثير الادب ، متكلما بالحق ، متبينا بالصدق ، له كتب مؤلفة في السنة والقرآن والورع ، والرد على أهل الاهواء والبدع ؛ وكان خطيبا بليغا ، وشاعرا محسنا . ولد سنة ثلاث وعشرين (ومائتين) عند ولاية المنذر بن محمد . وتوفي يوم الخميس

لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة

﴿ ومن شعره في الزهد ﴾

كم تصابى وقد علاك المشيب ... وتعامى عمدا وانت اللبيب

كيف تلهو وقد أتاك نذير ... ان يوم الحمام منك قريب

ياسفيها قد حان منه رحيل ... بعد ذاك الرحيل يوم عصيب

ان للموت سكرة فارتقبها ... لا يداويك ان أتتك طبيب

كم تواني[1] حتى تصير رهينا ... ثم تأتيك دعوة فتجيب

بأمور المعاد أنت عليم ... فاعملن جاهدا لها يا رتيب

وتذكر يوما تحاسب فيه ... ان من يدّ كر فسوف ينيب

ليس من ساعة من الدهر الا ... المنايا عليك فيها رقيب

الخطابة في الاحتفالات الرسمية

وذكر ان أول سببه في التعلق في الناصر لدين الله ، ومعرفته به وزلفاه ، ان الناصر لما احتفل لدخول رسول ملك الروم وصاحب القسطنطينية بقصر قرطبة الاحتفال الذي اشتهر ذكره ، وانبهر أمره ، أحب أن تقوم الخطباء والشعراء بين يديه تذكر جلالة مقعده ، ووصف ماتهيأ له من توطد الخلافة ورمي الملوك بآمالها ، وتقدم الى الامير الحكم ابنه باعداد من يقوم لذلك من الخطباء ، ويقدمه امام نشيد الشعراء ،[2] فتقدم الحكم الى أبي علي البغدادي[3] ضيف الخلافة وأمير الكلام ، وبحر اللغة ان يقام ، فقام رحمه الله وأثنى على الله وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم. ثم انقطع ، وبهت فما وصل الا قطع ، ووقف ساكتا متفكرا ، وتشوف لاناسيا ولا متذكرا

---

(١) كذا وربما كان الاصل « كم توانى » (٢) يعلم من هذا أن عادتهم في الاحتفالات كعادة أهل هذا الزمان في الخطابة . وكان منظم هذا الاحتفال الحكم ولي عهد الخليفة (٣) فيه أن وحدة الأمة ماكانت تمنع في ذلك الزمن تقديم الغريب عن البلاد على أمثاله من أهلها اذا كان أهلا وان كان تابعا لحكومة أخرى، ولا يكون مثل هذا في مصر الآن ، لان التعصب للبلاد أضعف وحدة الامة

ارتجال العلماء الخطابة حتى في السياسة

فلما رأى ذلك منذر بن سعيد قام بذاته ، بدرجة من مرقاته ، فوصل افتتاح أبي علي البغدادي بكلام عجيب ، ونادى من الاحسان في ذلك المقام كل مجيب ، وقال: اما بعد فان لكل حادثة مقاما ولكل مقام مقال ، وليس بعد الحق الا الضلال ، واني قد قمت في مقام كريم ، بين يدي ملك عظيم ، فاصغوا لي بأسماعكم ، وامنوا عليّ بأفئدتكم ، معاشر الملأ ! ان من الحق ان يقال للمحق صدقت. وللمبطل كذبت، وان الجليل تعالى في اسمائه وتصدق بصفاته[1] أمر كليمه موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع الانبياء والمرسلين ان يذكر قومه بنعم الله عز وجل عندهم، وأنا أذكركم نعم الله تعالى عليكم، وتلافيه لكم، بخلافة أمير المؤمنين التي امنت سربكم، ورفعت خوفكم، وكنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فقوا كم، ومستذلين فنصركم، ولاه الله رعايتكم ، وأسند اليه امامتكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، واحاطت بكم نشعل النفاق ، حتى صرتم في مثل حدقة البعير، مع ضيق الحال ونكد العيش والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيمن سياسته الى كنف العافية بعد استيطان البلاء ، ناشدتكم يامعشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والاموال منتهبة فأحرزها وحصنها ؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمرها ، وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بامامته ، حتى اذهب عنكم غيظكم، وشفى صدوركم، وصرتم يداعلى عدوكم، بطوية خالصة، وبصيرة ثابتة وافرة، فقد فتح الله عليكم أبواب البركات، وتواترت عليكم أسباب الفتوحات، وصارت وفود الروم وافدة عليكم ، وآمال الاقصين والادنين اليكم ، يأتون من كل فج عميق، وبلد سحيق، ولا أحد يحيل بينه وبينكم ليقضي الله أمرا كان مفعولا. وان يخلف الله وعده ، ولهذا الامر ما بعده ، وتلك أسباب ظاهرة تدل على أمور باطنة، دليلها قائم، وغيبها عالم (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم،

(١) لعل الاصل وتقدس بصفاته

وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا) وليس في تصديق ما وعد الله عز وجل ارتياب ، ولكل نبأ مستقر ولكل أجل كتاب ، فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه ، وسلوه المزيد من نعمائه ، فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين أيده الله تعالى بالعصمة والسداد ، وألهمه بخالص التوفيق سبيل الرشاد ، فاستعينوا على صلاح أحوالكم ، بالمناصحة لامامكم ، والتزام الطاعة لخليفتكم ، وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فان من نزع يده من طاعة ، وسعى في فرقة الجماعة ، وفر من الديانه ، فقد خسر الدنيا والآخرة . الا ذلك هو الخسران المبين . وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف الملحدين ، الساعين في شق عصاكم ، وتفريق ملتكم ، وهتك حرمتكم ، وتوهين دعوة نبيكم صلى الله عليه وسلم وعلى جميع النبيين والمرسلين ؛ أقول قولي هذا والحمد لله رب العالمين . وأنشد يقول

مقال كحد السيف وسط المحافل ... فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكي ترتمي جنباته ... كبارق رعد عند نقش الاناصل
فما دحضت رجلي ولا زل مقولي ... ولا طار عقلي يوم تلك البلابل
بخير امام كان أو هو كائن ... لمقتبل أو في العصور الاوائل
وقد حدقت نحوي عيون إخالها ... كمثل سهام اثبتت في المقاتل
ترى الناس أفواجا يؤمون داره ... وكلهم ما بين راض وآمل
وفود مليك الروم وسط فنائه ... مخافة بأس أو رجاء لسائل
فعش سالما اقصى حياة معمر ... فأنت غياث كل حاف وناعل

فقال العلج: هذا والله كبش الدولة. وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه

خطبة ارتجالية قربت عالما من الخليفة

وكان الخليفة الناصر لدين الله أشد تعجبا منه واقبل على ابنه الحكم ولم يكن يثبت معرفة عينه ، وقد سمع باسمه ، فقال الحكم : هذا منذر بن سعيد البلوطي ؛ فقال والله لقد أحسن ما أنشأ ، [1] ولئن ابقاني الله تعالى لأرفعن من ذكره ، فضع

(١) لعل الاصل : أحسن ما شاء

يدك ياحاكم واستخلصه وذكرني بشأنه، فما للصنيعة مذهب عنه، فلما انتهى الناصر الى الجامع بالزهراء ولاه الصلاة فيها والخطبة . ثم توفي محمد بن عيسى القاضي فولاه قضاء الجماعة بقرطبة وأقره على الصلاة بالزهراء

جهر القاضي بانكار اسراف الخليفة

وكان الخليفة الناصر كلفا بعمارة الارض، واقامة معالمها، وتكثير مياهها، واستجلابها من أبعد بقاعها، وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه، وعزة سلطانه وعلو همته، فافضى به الاغراق في ذلك الى ابتناء مدينة الزهراء الشائع ذكره ، الذائع خبره ، المنتشر في الارض أثره ، واستفرغ وسعه في تنجيدها واتقان قصورها وزخرفة مصانعها ؛ فانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتخذه ، فاراد القاضي منذر بن سعيد رحمه الله وجه الله في أن يعظه ويقرعه في التأنيب، ويقص منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطابة ، والتذكير بالانابة

فابتدأ أول خطبته بقوله تعالى (أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * واذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون * اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ووصل ذلك بكلام جزل، وقول فصل ، جاش به صدره، وقذف به على لسانه بحره، وأفضى في ذلك الى ذم المشيد والاستغراق في زخرفته، والسرف في الانفاق عليه، فجرى في ذلك طلقا ، وتلا في ذلك قوله تعالى (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين * لايزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) وأتى بما شاكل المعنى من التخويف للموت والتحذير منه، والدعاء الى الله عز وجل في الزهد في هذه الدنيا الفانية والحض على اعتزالها، والتبيين لظاهر معانيها ، والترغيب في الآخرة وباقيها ، والتقصير عن طلب الدنيا، ونهي النفس عن اتباع الشهوات، وتلا من القرآن العظيم مايوافقه ، وجلب من الحديث والأثر مايشاكله ويطابقه ،حتى بكى الناس وخشعوا، وضجوا وتضرعوا ، وأعلنوا الدعاء الى الله تعالى

فعلم الخليفة أنه المقصود به، والمتعمد بسببه، فاستجدى وبكى، وندم على ماسلف منه من فوطه، واستعاذ بالله من سخطه، واستعصمه برحمته؛ الا أنه وجد على منذر بن سعيد للفظه الذي قرعه به، فشكاذلك الى والده الحكم بعد انصرافه، وقال: والله لقد تعمدني منذر بخطبته، وأسرف في ترويعي، وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي وصياني عن توبيخه، ثم استشاط، وأقسم أن لا يصلي خلفه الجمعة ابدا، فقال له الحكم: وما الذي يمنعك عن عزل منذر بن سعيد والاستبدال به؟ فزجره وانتهره، وقال: أمثل منذر بن سعيد في فضله وورعه وعلمه وحلمه لا أم لك يعزل في ارضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لايكون، واني لاستحيي من الله تعالى أن لا أجعل بيني وبينه شفيعا في صلاة الجمعة مثل منذر بن سعيد، ولكنه وقذ نفسي وكاد يذهبها والله لوددت أن أجد سبيلا الى كفارة يميني بملكي، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا فما أظننا نعتاض منه أبدا .

وعذله قوم من اخوانه لتكنيته لرجل كان يسبه فقال:

لا تعجبوا من أني كنيته	من بعد ما قد سبنا وهجانا
فالله قد كنى أبا لهب وما	كناه الا خزية وهوانا

﴿ ومن قوله في الزهد ﴾

ثلاث وستون قد حزتها	فماذا تؤمل أو تنتظر
وحل عليك نذير المشيب	فما ترعوى بل وماتزدجر
تمر لياليك مرًا حثيثا	وأنت على ماأرى مستمر
فلو كنت تعقل ماينقضى	من العمر مااعتضت خيرا بشر
فمالك لاتستعد اذاً	لدار المقام ودار المقر
أترغب في فجأة المنون(؟)	وتعلم ان ليس منها وزر
فاما الى جنة أزلفت	واما الى سقر يستعر

استسقاء القاضي بالناس مع الخليفة

وقحط الناس في بعض السنين آخر مدة الناصر لدين الله أمير المؤمنين فأمر

القاضي منذر بن سعيد بالبروز الى الاستسقاء، فتأهب لذلك وصام بين يديه ثلاثة أيام تنفلا وانابة واستجداء ورهبة، واجتمع الناس له في مصلى بقرطبة بارزين الى الله تعالى في جمع عظيم، وصعد الخليفة الناصر في أعلى مصانع القصر المشرفة ليشرك الناس في الدعاء الى الله تعالى والضراعة – فلما سرح طرفه في ملاء الناس وقد شخصوا اليه بأبصارهم قال:

ياأيها الناس — وكررها مشيرا بيده في نواحيهم — ثم قال (سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم — أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد * ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز) فضج الناس بالدعاء وارتفعت الاصوات بالاستغفار والتضرع الى الله تعالى بالسؤال والرغبة في ارسال الغيث، ووصل الحال[1] ومضى على تمام خطبته، فافزع النفوس بوعظه، وانبعث الاخلاص بتذكيره، فما أتم خطبته حتى بللهم الغيث

وذكروا ان الخليفة الناصر لدين الله جاء غداة ذلك اليوم، فحركه للخروج وذكر له عزمه عليه، والسابقون متسابقون الى المصلى، فقال للرسول – وكان من خواص حلفاء الصفاء اليه: ياليت شعري! ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا؟ فقال له مارأينا قط أخشع منه في يومنا هذا، انه لمنتبذ حائر منفرد بنفسه لابس أخشن الثياب، مفترش التراب، قد رمى به على رأسه وعلى لحيته، وبكى واعترف بذنوبه وهو يقول: هذه ناصيتي بيدك، أتراك تعذب الرعية وأنت أحكم الحاكمين لن يفوتك شيء مني؟[2] قال فتهلل وجه القاضي منذر بن سعيد عند ماسمع من قوله، وقال ياغلام! احمل الممطر[3] معك فقد أذن الله تعالى بالسقيا، اذا خشع جبار الارض فقد رحم جبار السماء، وكان كما قال فلم ننصرف الا عن السقيا

---

(١) لعل الاصل: ووصل الكلام (٢) إنما لم يقل وانت أرحم الراحمين مع كونه المناسب لمقام الاستسقاء، لأن مراده اتعذب الرعية بذنبي اذ انا حاكمهم، وانت الحاكم علي وعليهم، لو شئت ان تعاقبني على ذنوبي فيهم لفعلت، واذ عاملتني بالرحمة والفضل فالرعية أولى بذلك. هذا مراده قطعا

(٣) الممطر الثوب الذي يتقى به المطر

☆

استقلال القضاء وإيثار القاضي مصلحة اليتيم على رغبة الخليفة

قال وكان القاضي منذر بن سعيد من ذوي الصلابة في احكامه والمهابة في أقضيته، وقوة القلب في القيام بالحق في جميع مايجرى على يديه، لا يهاب في ذلك الامير الاعظم فمن دونه. ومن مشهور ماجرى له في ذلك قصته المشهورة في ايتام أخي نجدة، حدثني بها جماعة من أهل العلم والرواية. وهي ان الخليفة الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد احتاج الى شراء دار بقرطبة لحظية من نسائه تكرم عليه، فوقع استحسانه على دار كانت لاولاد زكريا أخي نجدة كانت بقرب النشارين في الربض الشرقي منفصلة عن دور يتصل بها حمام العامة له غلة واسعة، وكان أولاد زكريا أيتاما في حجر القاضي، فارسل الخليفة له من قيمتها بعدد ماطابت به نفسه، وأرسل ناسا وأمرهم بمداخلة وصي الايتام في بيعها عليهم، فذكر انه لايجوز الا بامر القاضي، اذ لم يجز بيع الاصل الا عن رأيه ومشورته، فارسل الخليفة الى القاضي منذر في بيع هذه الدار، فقال لرسوله البيع على الايتام لا يصح الا لوجوه — منها الحاجة، ومنها الوهي الشديد[1] ومنها الغبطة[2] فأما الحاجة فلا حاجة بهؤلاء الايتام الى البيع، واما الوهي فليس فيها، وأما الغبطة فهذا مكانها، فان أعطاهم أمير المؤمنين فيها مايستبين به الغبطة، أمرت وصيهم بالبيع والافلا. فنقل جوابه هذا الى الخليفة فاظهر الزهد في شراء الدار طمعا أن تتراخى رغبته فيها، وخاف القاضي أن تنبعث منه عزيمة تلحق الاولاد سورتها، فامر وصي الايتام بنقض الدار وبيع أنقاضها ففعل ذلك، وباع الانقاض وكانت لها قيمة باكثر مما قومت به للسلطان، فاتصل الخبر به فعز عليه خرابها، وأمر بتوقيف الوصي على ماأحدثه فيها، فأحال الوصي على القاضي انه أمره بذلك، فارسل عند ذلك للقاضي وقال له: أنت أمرت بنقض دار أخي نجدة؟ فقال له نعم، قال له وما دعاك الى ذلك؟ قال أخذت فيها بقول الله تبارك وتعالى (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم

(١) الضعف كأن تكون الدار متداعية (٢) الغبطة تحقق بما فيه مصلحة الايتام وهو الزيادة على ثمن المثل

ملك يأخذ كل سفينة غصبا) فمقوّمك لم يقدرها الا بكذا و بذلك تعلق وهمك فقد نص في أنقاضها أكثر من ذلك (١) و بقيت الدار والحمام فضلا . ونظر الله تعالى للايتام . فصبر الخليفة على ماأتى من ذلك، وقال نحن أول من انقاد الى الحق فجزاك الله تعالى عنا وعن اماتك خيرا

الوقار والديانة، مع الظرف والدعابة

قال وكان على متانته وجزالته حسن الخلق كثير الدعابة فربما ساء ظن من لايعرفه حتى اذا رام أن يصيب من دينه شعرة ثار عليه ثورة الاسد الضاري

فمن ذلك ماحدث به سعيد ابنه قال قعدنا ليلة من ليالي شهر رمضان المعظم مع أبينا للافطار بداره البرانية فاذا بسائل يقول ياأهل هذه الدار الصالحين أطعمونا من عشائكم أطعمكم الله تعالى من ثمار الجنة هذه الليلة ،وأ كثر من ذلك . فقال القاضي ان استجيب لهذا السائل فيكم فليس يصبح منا واحد

وحكى عنه قاسم بن أحمد الجهني انه ركب يوما الحيازة أرض محبسة في ركب من وجوه الفقهاء وأهل العدالة فيهم أبو ابراهيم اللؤلؤي، قال فسرنا نقفوه وهو أمامنا وامامه امامه يحملون خرائطه (٢) وعلى ذويه السكينة والوقار ، وكانت القضاة حينئذ لاتراكب ولا تماشى (٣) فعرض له في بعض الطريق كلاب مستوحمة وهي تلعق منها وتدور حوله، فوقف وصرف وجهه الينا وقال : ترون يا أصحابنا ما أبر الكلاب بالهن الذي تلعقه وتكرمه ونحن لا نفعل ذلك !! ثم لوى عنان دابته وقد أضحكنا وبقينا متعجبين من هزله

وحضر عند الحكم المستنصر بالله يوما في خلوة له في بستان الزهراء على بركة

---

(١) يريد ان الذي قوم الدار للخليفة حاباه وهو يتوهم أنه قومها بما تساوي مع أن ثمن انقاضها وحده قد زاد على ذلك ، وهو يريد أكثر مما تساوي لمصلحة الايتام
(٢) لعل أصله: وأمامه خدمه الخ والخرائط أوعية من الجلد أو غيره لها عرى تشد وتربط على مايوضع فيه من المتاع واحدها خريطة
(٣) أي كانوا يتقدمون الناس فلا يركب ولا يمشي معهم أحد مساويا لهم

ماء طافحة ، وسط روضة نافحة ، في يوم شديد الوهج، وذلك إثر منصرفه من صلاة الجمعة، فشكا الى الخليفة من وهج الحر الجهد ، وبث منه ماتجاوز الحد ، فامره بخلع ثيابه والتخفف من جسمه، ففعل ولم يطفئ ذلك مابه، فقال له : الصواب ان تنغمس في وسط الصهريج انغماسة يبرد بها جسمك ، ولم يكن مع الخليفة الا الحاجب جعفر الخادم الصقلبي أمينه والحكم لارابع لهم ، فكانه استحيا من ذلك ، وانقبض عنه وقارا ، واقصر عنه إقصارا ، فأمر الخليفة حاجبه جعفرا بسبقه بالنزول في الصهريج ليسهل الأمر فيه على القاضي ، فبادر جعفر لذلك وألقى بنفسه في الصهريج وكان يحسن السباحة ، فجعل يجول يمينا وشمالا، فلم يسع القاضي الا انفاذ أمر الخليفة، فقام وألقى بنفسه خلف جعفر، ولاذ بالقعود في درج الصهريج ، وتدرج فيه بعض تدريج ، ولم ينبسط في السباحة ، وجعفر يمر مصعدا ومصوبا، فدسه الحكم على القاضي وحمله على مساجلته في العوم — فهو يعجزه في إخلاده الى القعود، ويعاتبه بإلقاء الماء عليه ، والاشارة بالجذب اليه ، وهو لاينبعث معه، ولا يفارق موضعه ، الى ان كلمه الحكم وقال له مالك لاتساعد الحاجب في فعله وتقفز معه ، وتتقيل صنعه ، فمن أجلك نزل ، وبسببك تبذل ؟ فقال له يا سيدي ياأمير المؤمنين الحاجب سلمه الله لا هوجل[1] معه وانا بهذا الهوجل الذي معي يعقلني ويمنعني من أن أجول معه مجاله. فاستفرغ الحكم ضحكا من نادرته ولطيف تعريضه لجعفر، وخجل جعفر من قوله وسبه سب الاشراف . وخرجا من الماء وأمر لهما الخليفة بخلع ووصلهما بصلات سنية تشا كل كل واحد منهما

وذكر ان الخليفة الحكم قال له يوما لقد بلغني انك لاتجتهد للايتام وانك تقدم لهم أوصياء سوء يأ كلون أموالهم. قال نعم وان أمكنهم . . .أمهاتهم لم يعففوا عنهن؟

(١) الهوجل الانجر الثقيل الذي ترسى به السفينة ، وفي العبارة من حسن الاستعارة ونزاهة التعريض ما ترى ، هذا وقد خجل منه الحاجب وغضب حتى انه لم يملك لسانه أن سب القاضي والاشراف على مسمع من الخليفة ! وناهيك بهذا برهانا على نزاهة حاشية الخليفة وبعدهم عن المجون والخلاعة ، وعلى دقة ذلك الاعجمي الاصل في فهم اللغة العربية .

قال وكيف تقدم مثل هؤلاء قال لست أجد غيرهم ولكن احاني على اللؤلؤي وأبي ابراهيم ومثل هؤلاء فان أبوا جبرتهم بالسوط والسجن ثم لاتسمع الا خيرا

انكار القاضي على الخليفة وانصاف الناصر وقوة دينه

ومن اخبار منذر بن سعيد المحفوظة مع الخليفة عبد الرحمن في انكاره عليه الاسراف في البناء — ان عبد الرحمن كان قد اتخذ الى السطح العتبة الصغرى التي كانت مائلة الى الصرح الممرد المعروف بقصر الزهراء المشهور بان له قرامد ذهب وفضة أنفق عليها مالا جسيما وجعل سقفها صفراء فاقعة ، الى بيضاء ناصعة ، تسلب الابصار بمطارح أنوارها المشعشعة ، وجعل فيها إثر إتمامها لاهل مملكته مشهدا فقال لقرابته ومن حضره من الوزراء وأهل الخدمة مفتخرا عليهم بما صنعه من ذلك مع مايتصل به من البدائع الفتانة : هل رأيتم قبلي أو سمعتم من فعل مثل فعلي هذا أو قدر عليه ؟ فقالوا لا والله ياأمير المؤمنين ، انك لأوحد في شأنك كله، ولا سبقك في مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ولا انتهى الينا خبره ، فابهجه قولهم

وبينا هو كذلك سارٌّ ضاحك اذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد واجما ناكسا ذقنه، فلما أخذ محله قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف واقتداره على ابداعه ، فجرت دموع القاضي تنحدر على لحيته ، وقال والله يا أمير المؤمنين ما ظننت ان الشيطان أخزاه الله يبلغ بك هذا المبلغ ولا ان تمكنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك الله وفضلك على العالمين ، حتى أنزلك منازل الكافرين !! قال فاقشعر عبد الرحمن من قوله ، وقال انظر ما تقول! كيف أنزلني منازلهم ؟ قال نعم أليس الله تبارك وتعالى يقول (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون) قال فوجم الخليفة ونكس رأسه مليا ودموعه تجري على لحيته خشوعا لله تبارك وتعالى ، وندما اليه ، ثم أقبل على منذر وقال له : جزاك الله تعالى يا قاضي خيرا عنا وعن المسلمين والدين ، وكثر في الناس أمثالك ، فالذي قلت هو والله الحق. وقام من مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى، وأمر بنقض سقف القبة وأعاد قرامدها ترابا اه

المقارنة بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية (*)

ء

الكلمات المبدوءة بهذا الحرف 𓄿 وهو نسر يقرأ ألفا أو كسرة أو همزة أو واوا وهذا الاخير نادر

ابَّ — أبًّا وأبابَةً وأباباً : اشتاق الى الشيء. قالوا « أبَّ لُبِّي لمثك » أي اشتاق قلبي الى رؤيتك (قرطاس رند لوحة ١٢ سطر ٢٢) ومنها

ابابة — قصد

ابَخَ — يقابلها في العربية عَبَقَ لأن الخاء تنوب عن القاف والكاف ، فيقولون خَبٌّ وكَبٌّ لكف اليد : عبق المكان بالطيب انتشرت رائحته فيه ، فيقال في المصرية «أبَخَ شمَّاماتها» أي عبق وانتشر كل مايشم من الروائح الطيبة . عبق به : لزق، وقالوا «عبق المعبود منتو في حذتك» أي لحك . و «عبقت المشاة بالمشاة» أي التصقت والتحمت (عن حجر الملك يعنخي الزنجي) وعبق بالمكان : أقام ، نحو قولهم «عبق الأرضان في عيشة الملك السليمة» أي بقي القطران وهما الوجه القبلي والبحري في عيشة راضية

أَبَخَ — يقابلها في العربية أَبَقَ : هرب ، قالوا «تاأَبَقُ مُطَوِّل الرَّتوَة» أي تأبق حال كونك مطولا الخطوة في سيرك (عن نقوش الملك تيتى)

آبدة — ج أوابد وهي الطير المقيمة بأرض شتاها وصيفها ، يكثر

(*) مختارات من معجم أحمد كمال بك الأثري المصري للغة المصرية القديمة فيما وافقت فيه اللغة العربية بالنص أو بضرب من القلب والابدال، فالكلمة الأولى من هذه الكلم المرتبة على حروف المعجم هي المستعملة في النصوص المصرية القديمة مما هو عربي فان كان فيه قلب أو إبدال يذكر بعده الأصل العربي ، وما بعد النقطتين هكذا : تفسير لما قبلهما

ذكرها في النصوص المصرية ولا سيما فيما كان على صفائح القبور. ومنه قولهم «آبدة دئيصة» أي سمينة، و «آبدة مائية» والاثريون يصرفونها إلى جماعة الطير اذ وجد بجانبها رسم طيور متنوعة اتباعا لقاعدة الخط عندهم، لأن كل اسم جنس يرسم بعده بعض أنواعه للدلالة عليه، مثال ذلك كلمة حَمْس ـ وأصلها في المصرية حمت لأن التاء تنوب عن السين ـ واحدته حَمْسة اسم لدواب البحر، فتراهم يرسمون بعده ثلاث سمكات متنوعة، كما أنهم يرسمون بعد كلمة «أعضاء» بعض أجزاء الجسم. وبعد كلمة «كراع» — وهو السلاح في اللغتين — بعض أنواع الاسلحة وهلم جرّا

آبيّ — قيل عنه في كتب اللغة العربية انه اسم للأسد، وصوابه النمر لوجود صورة هذا الحيوان مرسومة بعد الكلمة في النصوص المصرية

اتا — عتا عتوا : استكبر وجاوز الحد

اتّ — وبالعربية أثّ اثاثا وأثوثا وأثاثة : التفّ وكثر . ويقال لها بالقبطية أثا

اِتفّ — وبالعربية عطاف ج عُطُف وأعطِفَة : السيف (عن العدد ١٣٧٧ من الجزء الأول من كتاب الجغرافية)

اجاب — وبالقبطية أجبْ — وجب وجوبا : سقط ومات ، وأصل الوجوب السقوط والوقوع . والوجبة السقطة

اجاب — اجابة وجاب جوابا : رد الجواب (عن لوح قبر موجود فى متحف مدينة متّرنيخ)

اجر — وأجراء وأجرية واحده جروٌ — وهو ولد الكلب

إجّانة — ج أجاجين هو مركن من خشب ، ومنه قولهم « إجّانة

ماءِ تخمد اللوبَ » أي الظمأ (عن قرطاس بريس اللوحة ١ والسطر ٥)

آخَ .أش — مقلوبة ومحرفة عن شيء بالعربية (عن قاموس بروكش الجزء ١١ والصفحة ١١٧ والجزء الخامس الصفحة ١٢) وفي الغالب يقولون : خ — أو — ش بالامالة بمعنى شيء

اخَ — وفي العربية آق عليهم أوقاً : أتاهم بالشؤم فيقولون « معَتْ (أي العدل) يؤخ عليك لو مشى عن سأوه »[١] والمعنى: لو حاد العدل عن وطنه لآق عليك أي لأتاك بالشؤم (عن شكاية الفلاح الصحيفة ٩٢)

اخط — وفي العربية خطا خطوا واختطى (عن قرطاس في متحف فينّا)

أخط — ويقابله في العربية خطّ خطا : رسم . وخط : كتب ويقال بالمصرية خطَّ أيضا وهو الأكثر في آثارهم[٢]

أخُف — قفية : طعام، ومثلها كفية ج كفى

أدأبهُ — لغة في أتابهُ : أغضبه (عن ورقة بريس اللوحة ٦ والسطر ١)

أدّ — الرجل في الارض أدّا : ذهب وسار سيرا شديدا (عن رحلة أسنوهيت الصحيفة ٤٤)

أذا — ايذاء : أضرّ (عن ورقة بريس اللوحة ٦ والسطر ١)

أرُ — ألُو: البعيدة المرعى . ويقال انها عين واحد العِلّيين وهو اسم لأعلى الجنة، وفي المصرية تكتب بالراء وباللام (عن نقوش هرم أُناس السطر ٥٨٨)

---

(١) المنار: في هذ الجملة المصرية ثلاث كلمات عربية وهي يؤخ المحرف عن يؤق ومشى والساو وهو الوطن (٢) علم من هذه الأمثلة ومما سيأتي ان معتل العين أو اللام وكذا الفاء أو المضاعف بالعربية يقلب حرف العلة أو المضاعفة فيه بالمصرية همزة وينقل الى الفاء ان لم يكن هو الفاء

ارجا — أرجاء جمع رجا وهو الجانب والناحية، وبالقبطية أفريجو (راجع قاموس بيره الصحيفة ٣ نقلا عن كتاب پريس)

أرض — ج أرضون وأروض وأراض

أرّف — (وتكتب عند المصريين بالعين أيضا لأن الالف عندهم تنوب عن العين) عَرّف يقال أرّف الحبل أي عقده. ويقرب منها في العربية أرّب العقدة: شدها لان الباء تنوب عن الفاء. ويقابلها في القبطية أرفْ. أرْبْ (عن نقوش منتوحُيتِبْ

اراق — وريّق: أسال وأهرق

اسد — ويقابلها في العربية زأد — فهي مقلوبة وسينها زاي — زأداً وزؤدا: أفزع (عن نقوش هرم اُناس السطر ٣٧٩) ويقابلها في اللغتين شَئف وجأف: خاف. وهاد في الشيء هيدا أفزع وأكرب. وحذر: أرهب. كلها ألفاظ عربية ومصرية

أسْ — هي مقلوب ساء سأوا: عدا. وسأي يسأي سَأْيا: عدا في المشي (عن نقوشن هرم بيبي السطر ٢٩٦)

أسّ — أسًّا: سلح (عن قرطاس برلين الطبي ١٩، ٢) وساحَ أيضا كلمة مصرية وعربية كالفاظ أخرى بمعناها

أيسّ — : خرْثي الدار أي متاعه (عن نقوش إدفو)

آشى — أوشى المكان: ظهر فيه وشيٌ من النبات

أشى — وبالعربية عشا وعسى الليل: أظلم واغشى يغشي: اظلم

أصِبَ — وبالعربية عَصِبَ عصبًا: احمرّ في النار (عن كتاب الموتى)

اطاب — للضيف إطابة : قدم له طعاما طيبا (قاموس ليفى الجزء ٨ ص ١٢)

إطلٌ — وإطالٌ . وايطَلٌ : الخاصرة ، الجنب . قال امرؤ القيس في وصف ناقته * لها أيطلا ظبي وساقا نعامة *

افا — مقصور . وبالعربية فاء فيئا : اخذ الغنيمة واغتنمها (عن جريدة السيتشرفت لسنة ١٨٧٢ ص ٢٥)

أفت — أبت الشمس وآفت لغة في غابت (عن قاموس بروكش الجزء ١ ص ٧)

أف — أوفاً : اضرّ وافسد

أفيَهٌ — كثير الاكل ، وبالعربية فَيِّهٌ وفُيَّهَةٌ . والفوه النهم الذي لا يشبع ، واستفاه الرجل اشتد اكله بعد قلة يستفيه في الطعام والشراب (راجع قرطاس بريس اللوح ١ ص ٨)

أقح — وبالعربية اوكح : حفر (عن قرطاس ايرس الطبي عدد ٢

اكهى — حجر لاصدع فيه

اقس — عكس . قلبت عينه همزة ونخمت كافه فصارت قافاً . يقال بالعربية عكس البعير اذا شد حبلا في خطمه الى رسغ يده ليـنزل . وعكس الخيل اقدعها (عن تابوت سيتى المحفوظ بمتحف لندرة)

أقّ — عجّ . يقال : عجت المراة صبيها عجا لغة في عجته عجواء اي اسقته اللبن . ورسم بعد الـكلمة امراة ترضع ابنها

اكَنَّ — الشيء — وكنه كناً وكنُونا وكنَّنه : ستره في كنه وغطاه وأخفاه وصانه . واكتني : استتر (عن نقوش الملك بيبي الأول السطر

١٤٦) ومنها الكنّ وجمعه أكنان واكنّة

ألكَّ - : ضاق صدره ، ومنه قولهم « ألكَّ لبّه وخسّ حزّه » أي ضاق صدره ونقص لحمه (عن ورقة پريس اللوحة ٨ والسطر ١٢)

ألب - ولبّ لبًّا أقام (عن ص ٤٣ من رحلة سنوهيت لماسپرو)

ألّقَ - وتألق : لمع وفي المصرية تكتب بالراء أيضا (عن جريدة مجموعة أعمال العاديات جزء ٥ صحيفة ٩٤)

ألِكةَ - وبالقبطية أليكو وبالعربية علّيق عُلّيقى : نبت يتعلق بالشجر (عن القرطاس الثاني السحري)

ألّ - ألّهُ ألاًّ : طعنه بالإِلّةِ اي الحربة (عن قرطاس اسوريس بمتحف فينا)

أمَأَ - (بين القوم) : أفسد ، مقلوب مأى مأياً ومأواً (واوي يائي بالعربية) (عن رحلة سنوهيت السطر ١ من الصفحة ٢ لماسپرو)

امرّ - الشيء: شده بالمِرار وهو الحبل . وبالقبطية مُوز

أماه - ماه الشيء وأماهه : خلطه، كلمة تذكر كثيرا في قراطيس الطب القديمة فيقولون : « يُنحَز ويماه في المروخ » أي يُصحن في الهاون[1]

أمِي - عمي يعمى : ذهب بصره كله من عينيه ، قلبت العين همزة

أنأى - إناءً أبعد (عن القرطاس السحري السطر ٧ من ظهره)

أناى ونأى وانتأى - حفر أو عمل النؤيا أي الحفرة (عن نقوش مقبرة في الكاب)

---

(١) نحز الشيء دقه بالمنحاز وهو الهاون، والمروخ (كصبور) مايمرخ به البدن من دهن وغيره

أهَد - وفي العربية هود تهويدا: رجع الصوت في لين. وغنّى (عن تتمة قاموس ليفي ج ٢)

أهَد - وفي العربية هدّ البناء هدًّا وهدوداً هدمه: ويقال هدته المصيبة أي أوهنت ركنه (عن كتاب نافيل في ابادة الجنس البشري بالشمس)

اهط - وهط وفي العربية وَهط: الارض المطمئنة التي تزرع. (عن نقوش معبد دندره)

أهّ - أهًّا وآهَةً: توجّع (عن نقوش دندرة وقرطاس بريس — السطر ١ من اللوح ١٥)

اوقم - وقم الرجل ووكمه: قهره وأذله، وحزنه أشد الحزن فهو موقوم. ووكم له: اغتم وجزع (عن جريدة السيشرفت لسنة ١٨٧٨ الصفحة ٤٩) ومنه قولهم «أقوال موكمة لاختلال سخت»[1]

آوى - (المنزل أو الى المنزل) وغيره أويًّا نزل به ولجأ اليه. وتأوّي: اجتمع (عن قرطاس برلين اللوح ١ $\frac{١٥}{١٦}$)

إي - حرف جواب بمعنى نعم (يقع قبل القسم في العربية) ويقابله في اللغة العامية (إيوَ)

أَيا - تأيّا (المتعدى بعلى): انصرف في تُؤَدة (عن نقوش الملك مرنرع السطر ٧٤٨)

أيّل - وأيّل: الايّل (وبالقبطية إيول) وهو الحيوان المعروف الذي يشبه الوعل

(١) سخت معبودة من معبوداتهم

الخطب الدينية

اشتغالنا بانتقادها واصلاحها

قد كان مما وفقنا الله تعالى له في أثناء الاشتغال بطلب العلم انتقاد خطباء المساجد ودواوينهم التي يحفظون خطبها ويقرؤنها على المنابر غيباً أو في الاوراق المخطوطة او المطبوعة، فان كل هذه الخطب أو جلها في ذم الدنيا والتزهيد فيها والتذكير بالموت ومدح الشهور والمواسم حتى المبتدعة منها، واكثر مافيها من الاحاديث ضعيف أو موضوع ، وقد عقدت في كتاب (الحكمة الشرعية) الذي ألفته في ذلك العهد فصلا طويلا في الخطابة بينت فيه حكمتها ومنفعتها وكيفية تحصيل ملكة الارتجال فيها ، وما ينبغي أن تشتمل عليه الخطب الدينية في المساجد ، وأنشأت عدة خطب خرجت فيها من المضيق الذي حبس خطباؤنا فيه أنفسهم ، واخترت لاحد الخطباء أحاديث صحيحة وحسنة لديوان أنشأه عزوتها الى مخرجيها فكان أول خطيب سمعناه فى بلادنا يلتزم الاحاديث الصحيحة والحسنة فى خطبه معزوة الى مخرجيها ، على ان التزام الاحاديث في آخر الخطبة غير واجب ولا مسنون ، بل هو عادة ينبغي تركها احياناً لئلا يظن أنها مشروعة فيكون الالتزام من البدع التي سماها صاحب الاعتصام البدع الاضافية

ثم اننا بعد انشاء المنار نوهنا فيه بهذه المسألة مرارا ، واتفق لنا أن خطبنا في بعض المساجد خطبا مرتجلة مناسبة لحال عصرنا موافقة لما كان عليه سلفنا الصالح فكان هذا وذاك باعثاً لكثير من محبي الاصلاح

على مطالبتنا بانشاء خطب اصلاحية تنشر في المنار عسى أن يقتبسها أو يقتبس منها الخطباء، فلم نجبهم الى ذلك لاعتقادنا ان الغرض منه لا يتم الا اذا جاء من جانب السلطة الرسمية

مثال ذلك أننا أنشأنا خطبة فى الاقتصاد في المال وقضاء الدين اقترحها علينا الشيخ علي يوسف وأخذها منا . ثم علمنا انها نشرت في القطر بأمر الحكومة بعد استحسان شيخ الازهر وإجازته .

وكنا قد مهدنا السبيل الى مثل ذلك في ديوان الاوقاف ولكن علمنا أنه لا ينفذ الا اذا اقتنع به الامير واحب تنفيذه ، فكنا ننتظر الفرصة لعرض ذلك عليه واقناعه به ولم تسنح لنا ، ثم شرعنا فيما هو خير من ذلك اصلاحاً وهو مدرسة الدعوة والارشاد التي يتربى فيها الخطباء المرتجلون ، ولا نزال نعاني في هذه السبيل من تمهيد العقبات ، ومكافحة الحساد واعداء الاصلاح ، ما نرجو أن ينتصر فيه الحق على الباطل . والاخلاص على النفاق

ديوان خطب المصلح القاسمي

اطلعنا فى هذه الايام على ديوان خطب عالم الشام صديقنا المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي تغمده الله تعالى برحمته ، وكان أهدي الينا مطبوعاً منذ اعوام فلم يتح لنا التأمل فيه ، فرأيناه أفضل ما نشر من دواوين الخطب، بخلوه من البدع والخرافات ، ومن الاحاديث الواهية والموضوعات ، واشتماله على الموعظة الحسنة التي يحتاج الناس اليها في جميع الاوقات ، ولو كان للخطابة والتأليف حرية في بلاد الشام ايام انشائه رحمه الله تعالى لتلك الخطب لأودعها كثيرا من المسائل الاجتماعية والادبية

التي اشتدت الحاجة اليها فى هـذا العصر ، وقد رأينا أن نقتبس بعض مقدمات هذا الديوان النفيس وخطبه فيما يلي فهاكها بنصها :

« المقدمة الاولى في الهدي النبوي في الخطبة »

قال الامام ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد في هدي خير العباد في هديه صلى الله عليه وسلم في خطبه : كان صلوات الله عليه اذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كانه منذر جيش . وكان يقصر الخطبة و يطيل الصلاة و يكثر ويقصد الكلمات الجوامع . وكان يعلم أصحابه في خطبته قواعد الاسلام وشرائعه. ويأمرهم و ينهاهم في خطبته اذا عرض له أمر أو نهي . وكان يأمرهم بمقتضى الحال في خطبته، فاذا رأى منهم ذا فاقة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها . وكان يمهل يوم الجمعة حتى يجتمع الناس، فاذا اجتمعوا خرج اليهم . فاذا دخل المسجد سلم عليهم . فاذا صعد المنبر استقبل الناس بوجهه وسلم عليهم،ثم يجلس و يأخذ بلال رضي الله عنه في الاذان، فاذا فرغ منه قام النبي صلى الله عليه وسلم فخطب، وكان في الجمعة يعتمد على عصا أو قوس . وكان منبره صلوات الله عليه ثلاث درجات. وكان يأمر الناس بالدنو منه ويأمرهم بالانصات . وكان صلى الله عليه وسلم اذا صلى الجمعة دخل الى منزله فصلى ركعتين، وفي رواية كان اذا صلى في المسجد صلى أربعا وان صلى في بيته صلى ركعتين. انتهى ملخصا

« الثانية في سنن الخطبة »

قال الامام النووي في الروضة في سنن الخطبة : منها أن تكون على منبر. والسنة أن يكون المنبر على يمين الموضع الذي يصلي فيه الامام . ويكره المنبر الكبير الذي يضيق على المصلين اذا لم يكن المسجد متسع الخطة، فان لم يكن منبر خطب على موضع مرتفع، ومنها أن يسلم على من عند المنبر اذا انتهى اليه. ومنها اذا بلغ في صعوده الدرجة التي تلي موضع القعود أقبل على الناس بوجهه وسلم عليهم . ومنها أن يجلس بعد السلام . ومنها انه اذا جلس اشتغل المؤذن بالاذان، ويديم الجلوس الى فراغ المؤذن. ومنها أن تكون الخطبة بليغة غير مؤلفة من الكلمات المبتذلة ولا من الكلمات

الوحشية بل قريبة من الافهام . ومنها أن لا يطولها ولا يحقها بل تكون متوسطة . ومنها أن يستدبر القبلة ويستقبل الناس في خطبتيه ولا يلتفت يمينا ولا شمالا . ومنها انه يستحب أن يكون جلوسه بين الخطبتين قدر سورة الاخلاص . ومنها أن يعتمد على عصا أو نحوه . ومنها أنه ينبغي للقوم أن يقبلوا على الخطيب مستمعين لا يشتغلون بشيء آخر، حتى يكره الشرب للتلذذ ولا بأس به للعطش لا للخطيب ولا للقوم . ومنها أن يأخذ في النزول بعد الفراغ ويأخذ المؤذن في الاقامة ويبتدر ليبلغ المحراب مع فراغ المقيم. اه

« الثالثة فيما يكره في الخطبة وفروع أخرى »

قال الامام النووي رحمه الله في الروضة . يكره في الخطبة أمور ابتدعها الجهلة منها التفاتهم في الخطبة الثانية . والدق على درج المنبر في صعوده . والدعاء اذا انتهى صعوده قبل أن يجلس ، ومنها مبالغتهم في الاسراع في الخطبة الثانية . ويستحب اذا كان المنبر واسعا أن يقوم على يمينه ، ويكره للخطيب أن يشير بيده . ويستحب أن يختم الخطبة بقوله : أستغفر الله لي ولكم . وذكر بعضهم انه يستحب للخطيب اذا وصل المنبر أن يصلي تحية المسجد ثم يصعد ، وهو قول غريب وشاذ مردود . فانه خلاف ظاهر المنقول عن فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين فمن بعدهم، ولو أغمي على الخطيب فهل يبني غيره على خطبته أو يستأنفها؟ قولان . اه ملخصا

ويكره أن يتخطى المصلي رقاب الناس لما فيه من سوء الادب والاذى . ويحرم الكلام في الخطبتين والامام يخطب . وله الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم اذا سمعها، ويسن سرا ، ويجوز تأمينه على الدعاء. ورفع الصوت قدام بعض الخطباء مكروه اتفاقا . كذا في الاقناع (1)

(١) المنار : لأهل هذا العصر بدع ومنكرات أخرى كثيرة قبل الخطبة وبعدها وفي أثنائها ، بعضها من البدع الحقيقية وبعضها من الاضافية ، فمنها التزام ذكر الخطباء الملوك والسلاطين في الخطبة الثانية بالتعظيم ورفع المؤذنين أصواتهم بالدعاء لهم وإطالتهم في ذلك والخطيب مسترسل فى خطبته وفي ذلك عدة منكرات =

الرابعة (حكم تعدد الجمعة)

الحاجة في هذه البلاد في هذه الاوقات تدعو الى أكثر من جمعة اذ ليس للناس جامع واحد يسعهم ولا يمكنهم جمعة واحدة أصلا الا أن خروجها الى حد أن لافرق بينها وبين بقية الصلوات في كثير من المساجد الصغيرة التي لم تشيد لمثلها قد هوّل فيه السبكي في فتاويه لانه مما تأباه مشروعيتها وما مضى عليه عمل القرون الثلاثة بل وتسميتها جمعة فان صيغة فُعُلة فى اللغة للمبالغة و بالجملة فالجوامع الكبار التي تؤمها الافواج يوم الجمعة، ويحتاج لاقامتها فيها حاجة بينة لمجاوريها ، هي التي لاخلاف في جوازها مهما تعددت ، والتى لانعاد الظهر بعدها ، كما أشار له العلامة البجيرمي رحمه الله تعالى. وقد بسطناه في كتابنا [اصلاح المساجد من البدع والعوائد]

الخامسة مايسن يوم الجمعة

يسن تنظيفٌ يوم الجمعة وتطيب ولبس أحسن الثياب وا كثار الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ليذكر الرحمة ببعثته ، والفضل بهدايته ، والمنة باقتفاء هديه وسنته ، والصلاح الاعظم برسالته ، والجهاد للحق بسيرته ، ومكارم الاخلاق بحكمته ، وسعادة الدارين بدعوته ، صلى الله عليه وعلى آله ما ذاق عارف سر شريعته ، وأشرق ضياء الحق على بصيرته ، فسعد في دنياه وآخرته ، آمين

﴿ طلائع الخطب النبوية ﴾

١

انّ الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله — رواه الامام أحمد ومسلم عن ابن عباس

= مبتدعة، ومنها ان بعض الحاضرين يقومون في أثناء الخطبة الثانية فيصلون ، ومنها الدعاء برفع الايدي بين الخطبتين والاستمرار على ذلك بعد شروع الخطيب في الخطبة الثانية ، ومنها صياح بعضهم في أثناء الخطبة باسم الله أو أسماء بعض الصالحين ، ومنها المصافحة عقب السلام من الصلاة — الى غير ذلك

٢

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونستهديه ونستنصره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى حتى يفيء الى أمر الله — رواه الشافعي والبيهقي عن ابن عباس —

٣

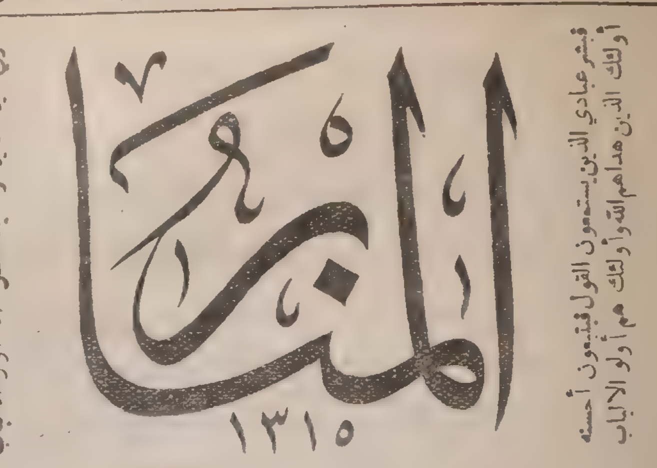
انّ الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، ياأيها الذين آمنوا (اتقوا الله الذي تساءلون به والارحام، ان الله كان عليكم رقيبا ـ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنّ الا وأنتم مسلمون ـ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما)ـ رواه الامام أحمد والترمذي عن ابن مسعود —

السيد محمد شفيع آل رضا

في ضحوة يوم الاثنين أول أيام العشر الاخير من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٣٣ هجرية قمرية ـ وأواخر العشر الأول من شهر الصيف الاول (الدرجة التاسعة من برج الاسد) سنة ١٢٩٢ هجرية شمسية ـ الموافق لليوم الثاني من شهر يوليو (تموز) ١٩١٥ مسيحية ـ وهب الله تعالى لصاحب هذه المجلة غلاما سويا أطلق عليه اسم (محمد شفيع)

ولد محمد شفيع تام البنية، ممتلئ الجسم، أبيض اللون مشوبا بصفرة كما هي العادة، أحمر الشعر، اسود العينين الى زرقة بارز الجبهة ، طويل الغرة ، رافعا أصبعه السبابة، ولم يلبث أن رضعها ، ولم ينقض الاسبوع الاول الا وقد تبدلت الصفرة حمرة فصار أزهر اللون ،

فالله أسأل أن ينبته نباتا حسنا ، ويوفقنا لتربيته تربية صالحة ، ويجعله قرة عين لوالديه وآل بيته وأمته ، ويستجيب لنا به وبغيره ، ما دعوناه وندعوه به من أدعية كتابه (ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة اعين واجعلنا للمتقين إماما)



قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و« منارا» كمنار الطريق

مصر ٣٠ شوال ١٣٣٣ — ١٧ السنبلة (ص٣) ١٢٩٣ هـ ش ١٠ سبتمبر ١٩١٥

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(١٠٩) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ، أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ — إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ — تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ — إِنِ ارْتَبْتُمْ — : لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ (١١٠) فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ،

فَيُقْسِمَنِ بِاللهِ : لَشَهَـٰدَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّـٰلِمِينَ (١١١) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَـٰسِقِينَ

جاء في أسباب نزول هذه الآيات ومعناها في الدر المنثور ما نصه :

أخرج الترمذي وضعفه وابن جرير وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة من طريق أبي النضر وهو الكلبي عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية (ياايها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر احدكم الموت) قال برئ الناس منها غيري وغير عدي بن بداء وكانا نصرانيين يختلفان الى الشام قبل الاسلام فاتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك وهو أعظم تجارته فمرض فأوصى اليهما وأمرهما أن يبلغا ماترك أهله، قال تميم فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بداء، فلما قدمنا الى أهله دفعنا اليهم ما كان معنا وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا ماترك غير هذا وما دفع الينا غيره. قال تميم فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم تأثمت من ذلك فأتيت أهله فاخبرتهم الخبر وأديت اليهم خمس مئة درهم وأخبرتهم ان عند صاحبي مثلها .فاتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم البينة فلم يجدوا، فامرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف، فانزل الله (ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم — الى قوله — ان ترد ايمان بعد ايمانهم) فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا فنزعت الخمس مئة من عدي بن بداء

وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والنحاس والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء فمات السهمي بارض ليس

فيها مسلم فاوصى اليهما فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخوصا بالذهب فأحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله ما كتمتماها ولا اطلعتما. ثم وجدوا الجام بمكة فقيل اشتريناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله: لشهادتنا أحق من شهادتهما وان الجام لصاحبهم، وأخذا الجام وفيه نزلت (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال كان تميم الداري وعدي بن بداء رجلين نصرانيين يتجران الى مكة في الجاهلية ويطيلان الاقامة بها فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم حوّلا متجرهما الى المدينة فخرج بديل بن أبي مارية مولى عمرو بن العاصي تاجرا حتى قدم المدينة فخرجوا جميعا تجارا الى الشام حتى اذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل فكتب وصيته بيده ثم دسها في متاعه وأوصى اليهما فلما مات فتحا متاعه فاخذا منه شيأ ثم حجراه كما كان وقدما المدينة على أهله فدفعا متاعه، ففتح أهله متاعه فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به، وفقدوا شيأ فسألوهما عنه فقالوا هذا الذى قبضنا له ودفع الينا، فقالوا لهما هذا كتابه بيده، قالوا ما كتمنا له شيأ، فترافعوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية (ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت — الى قوله — انا اذا لمن الآثمين) فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستحلفوهما في دبر صلاة العصر بالله الذى لااله الا هو ماقبضنا له غيرذها ولا كتمناه. فمكثا ماشاء الله أن يمكثا، ثم ظُهر معهما على اناء من فضة منقوش مموه بذهب، فقال اهله هذا من متاعه، قالا نعم ولكنا اشتريناه منه ونسينا ان نذكره حين حلفنا فكرهنا ان نكذب نفوسنا، فترافعوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية الاخرى (فان عثر على انهما استحقا اثما) فامر النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من اهل الميت ان يحلفا على ما كتما وغيبا ويستحقانه، ثم ان تميما الداري أسلم وبايع النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يقول صدق الله ورسوله أناأخذت الاناء. ثم قال يارسول الله ان الله يظهرك على أهل الارض كلها فهب لي قريتين من بيت لحم وهي القرية التي ولد فيها عيسى فكتب له بها كتابا، فلما قدم عمر الشام أتاه تميم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر أنا حاضر ذلك فدفعها اليه

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ (شهادة بينكم) مضاف برفع شهادة بغير نون وبخفض بينكم

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس من طريق علي عن أبي طلحة عن ابن عباس (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم) هذا لمن مات وعنده المسلمون أمره الله أن يشهد على وصيته عدلين من المسلمين ثم قال (أو آخران من غيركم ان أنتم ضربتم في الارض) فهذا لمن مات وليس عنده أحد من المسلمين أمره الله بشهادة رجلين من غير المسلمين فان ارتيب بشهادتهما استحلفا بالله بعد الصلاة ما اشترينا بشهادتنا ثمنا قليلا ، فان اطلع الاولياء على ان الكافرين كذبا في شهادتهما قام رجلان من الاولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة، فذلك قوله تعالى (فان عثر على أنهما استحقا اثما) يقول ان اطلع على ان الكافرين كذبا قام الاولياء فحلفا انهما كذبا ، ذلك أدنى أن يأتي الكافران بالشهادة على وجهها أو يخافوا ان ترد ايمان بعد ايمانهم، فتترك شهادة الكافرين ويحكم بشهادة الاولياء، فليس على شهود المسلمين أقسام انما الاقسام اذا كانا كافرين

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (اثنان ذوا عدل منكم) قال من أهل الاسلام(أو آخران من غيركم) قال من غير أهل الاسلام وفي قوله (فيقسمان بالله) يقول يحلفان بالله بعد الصلاة وفي قوله (فآخران يقومان مقامهما) قال من أولياء الميت (فيحلفان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما) يقول فيحلفان بالله ما كان صاحبنا ليوصي بهذا انهما لكاذبان، وفي قوله (ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا ان ترد ايمان بعد ايمانهم) يعني أولياء الميت فيستحقون ماله بأيمانهم ثم يوضع ميراثه كما أمر الله وتبطل شهادة الكافرين وهي منسوخة

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود انه سئل عن هذه الآية (اثنان ذوا عدل منكم) قال ما من الكتاب الا قد جاء على شيء جاء على ادلاله غير هذه الآية ولئن أنا لم أخبركم بها لأنا أجهل من الذي يترك الغسل يوم الجمعة:

هذا رجل خرج مسافرا ومعه مال فأدركه قدره فان وجد رجلين من المسلمين دفع اليهما تركته وأشهد عليهما عدلين من المسلمين، فان لم يجد عدلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب، فان أدى فسبيل ما أدى، وان هو جحد استحلف بالله الذي لا اله الا هو دبر صلاة ان هذا الذي وقع الي وما غيبت شيئا، فاذا حلف برئ، فاذا أتى بعد ذلك صاحبا الكتاب فشهدا عليه ثم ادعى القوم عليه من تسميتهم مالهم جعلت أيمان الورثة مع شهادتهم ثم اقتطعوا حقه، فذلك الذي يقول الله (ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم)

هذا ما ورد في سبب نزول هذه الآيات وتفسير بعضها

وأما وجه اتصالها بما قبلها مباشرة فقد قال الرازي فيه انه تعالى لما أمر بحفظ النفس في قوله (عليكم أنفسكم) أمر بحفظ المال في قوله (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) اه وهذا قول غير ظاهر بل لا يصح على المعنى المعروف عند العلماء لحفظ النفس والمال إلا أن يحمل الكلام على لازم معناه. وأظهر منه ان يقال انه تعالى لما ذكرنا في آخر الآية السابقة بأن مرجعنا اليه بعد الموت وانه يحاسبنا و يجازينا ناسب ان يرشدنا في إثر ذلك الى الوصية قبل الموت والى العناية بالاشهاد عليها لئلا تضيع

واما مفرداتها التي يحسن التذكير بمعناها قبل تفسير النظم الكريم فمنها (الشهادة) وهي كالشهود حضور الشيء مع مشاهدته بالبصر أو البصيرة أو مطلقا — كما قال الراغب — قال: لكن الشهود بالحضور المجرد أولى، والشهادة مع المشاهدة أولى . . . والشهادة قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر . . . و «شهدت» يقال على ضربين أحدهما جار مجرى العلم و بلفظه تقام الشهادة ويقال «أشهد بكذا» ولا يرضى من الشاهد أن يقول «أعلمُ» بل يحتاج أن يقول «أشهد» والثاني يجري مجرى القسم فيقول «أشهد بالله أن زيدا منطلق» فيكون قسما، ومنهم من يقول: ان قال «أشهد» ولم يقل «بالله» يكون قسما، ويجرى «علمت» مجراه في القسم فيجاب بجواب القسم، نحو قول الشاعر * ولقد علمت لتأتينّ منيتي * اه ملخصا. وقد ترد بمعنى الاقرار بالشيء

(والبين) أمر اعتباري يصل أحد الشيئين بالآخر أو الاشياء من زمان أو

مكان أو حال أو عمل ، وقالوا انه يطلق على الوصل والفرقة ، ومن الثاني قولهم « ذات البين » للعداوة والبغضاء ، قال تعالى (وأصلحوا ذات بينكم) أي ما بينكم من عداوة أو فساد ، وهو أمر معنوي متصل بين الافراد .

ومنها (ضربتم في الارض) أي سافرتم وتقدم في سورة النساء . ومنها (تحبسونهما) وهو من الحبس بمعنى امساك الشيء ومنعه من الانبعاث . والحبس مصنع الماء التي يمنع فيه من الجريان . ومنها (عثر) وهو من العثور على الشيء بمعنى الاطلاع عليه بالاتفاق من غير سبق طلب له ، ويقال : أعثره عليه — بمعنى أوقفه عليه وأعلمه به من حيث لم يكن يتوقع ذلك . وأصله من عثر (كقعد) عثارا وعثورا اذا سقط

وأما معنى الآيات وتفسير نظمها فنبينه بما يلي :

﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم ﴾ أي حكم ما يقع بينكم من الشهادة أو كيفيته اذا نزلت بأحدكم أسباب الموت ومقدماته وأراد حينئذ أن يوصي هو أن يشهد اثنان الخ أو الشهادة المشروعة بينكم في ذلك هي شهادة اثنين من رجالكم ذوي العدل والاستقامة ، وذلك بأن يشهدهما الموصي على وصيته سواء ائتمنهما على ما يوصي به كما في واقعة سبب النزول أم لا ، ويترتب على اشهاده اياهما أن يشهدا بذلك ، ومن ايجاز الآية ان عبارتها تدل على الاشهاد والشهادة جميعا والمراد بقوله « منكم » من المؤمنين وهو قول الجمهور، وقيل من أقاربكم وروي عن الحسن والزهري وأخذ به كثير من الفقهاء ﴿ أو آخران من غيركم ان أنتم ضربتم في الارض فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ أي أو شهادة شهيدين آخرين من غير المسلمين أو من الاجانب ان كنتم مسافرين ونزلت بكم مقدمات الموت وأردتم الايصاء . وفي الكلام تأكيد شديد للوصية وللاشهاد عليها ﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة ﴾ استئناف بياني كأن السامع لما تقدم يقول وكيف يشهدان؟ فأجيب بهذا الجواب أي تمسكون الشهيدين اللذين أشهدا وحضرا على الوصية من بعد الصلاة . قال الاكثرون المراد صلاة العصر — لان النبي (ص) حلف عديا وتميما فيه، ولأن العمل جرى عليه فكان التحليف

فيه هو المعتاد المعروف، ولانه الوقت الذي يقعد فيه الحكام للقضاء والفصل في المظالم والدعاوى لاعتداله واجتماع الناس فيه إذ يكونون قد فرغوا من معظم أعمال النهار — أو لأن هذا الوقت وقت صلاة عند غير المسلمين أيضا فهو وقت ذكر الله الذي يرجى فيه اتقاء الكذب والخيانة — أو لأن صلاة العصر هي الصلاة الوسطى ، أو لانها تحضرها ملائكة الليل والنهار فيتحرى المؤمن ان يكون بعدها متصفا بالكمال . وقيل ان المراد جنس الصلاة المفروضة لانها تنهى عن الفحشاء والمنكر فيكون جديرا بالصدق من يكون قريب عهد بها ، وقال الحسن البصري المراد الظهر أو العصر لان أهل الحجاز كانوا يقعدون للحكومة بعدهما ، ورري عن ابن عباس ان الشهيدين اذا كانا غير مسلمين فالمراد بالصلاة صلاة أهل دينهما ، أي لما ذكرنا من علة ذلك آنفا ﴿ فيقسمان بالله ان ارتبتم ﴾ أي فيقسم الشاهدان على الوصية ان شككتم في صدقهما فيما يقران به ، أي وتستقسمونهما فيقسمان، والامين يصدق باليمين . وقال بعضهم : الفاء للجزاء أي تحبسونهما فيقدمان لاجل ذلك على القسم . قيل هذا خاص بالشهود من الكفار اذا اتهموا أي لانه لم يشترط فيهم ان يكونوا عدولا . وقيل عام وقد نسخ ، والصواب انه لا نسخ في الآيات . قال الرازي : وعن علي عليه السلام ، انه كان يحلف الشاهد والرواي عند التهمة . ويجب ان يصرحا في قسمهما بقولهما ﴿ لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ﴾ أي لا نشتري بيمين الله ثمنا . أي لا نجعل يمين الله كالسلعة التي تبذل لأجل ثمن ينتفع به في الدنيا ولو كان المقسم له من أقاربنا ، وصح ارجاع الضمير الى المقسم لاجله للعلم به من فحوى الكلام كقوله تعالى (واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى)وهذا موافق لقوله تعالى (٤ : ١٣٤ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين) والمراد ان يقول المقسم انه يشهد لله بالقسط ولا يصده عن ذلك ثمن يبتغيه لنفسه ، ولا مراعاة قريب له ان فرض ان له نفعا في اقراره وقسمه ، أي ولو اجتمعت المنفعتان كلتاهما ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ ويقولان في قسمهما أيضا : ولا نكتم الشهادة التي أوجبها الله تعالى وأمر بأن نقام له في قوله (وأقيموا الشهادة لله)

﴿ إنا اذاً لمن الآثمين ﴾ أي إنا إذا اشترينا بالقسم ثمنا أو راعينا به قريبا بأن كذبنا فيه لمنفعة أنفسنا او قرابة لنا ، أو كتمنا شهادة الله كلها أو بعضها بأن ذكرنا بعض الحق وكتمنا بعضا — نكون من المتحملين للاثم ، المتمكنين فيه المستحقين لجزائه . والاثم في الاصل مايقعد بصاحبه عن عمل الخير والبر من معصية وغيرها . وهذا التعبير أبلغ من « إنا إذاً لآثمون »

﴿ فان عثر على انهما استحقا إثما فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الاوليان ﴾ قرأ الجمهور « استحق » بضم التاء على البناء للمفعول ، وحفص عن عاصم بفتح التاء بالبناء للفاعل وهي مروية عن عليّ وابن عباس وأبيّ ، وقرأ يعقوب وخلف وحمزة وعاصم في رواية أبي بكر عنه (الاولين) جمع الاول الذي يقابله الآخر ، مع قراءتهم استحق بالبناء للمفعول ، وقرأه الباقون (الاوليان) مثنى الاولى سواء منهم من قرأ استحق بالبناء للمفعول ومن قرأه بالبناء للفاعل ، ورسم الاوليان والاولين في المصحف الامام واحد وهو هكذا (الاولىں). والمعنى فان اتفق الاطلاع على ان الشهيدين المقسمين استحقا إثما بالكذب أو الكتمان في الشهادة أو بالخيانة وكتمان شيء من التركة في حالة ائتمانهما عليها — كما ظهر في الواقعة التي كانت سبب النزول — فالواجب أو فالذي يعمل لإحقاق الحق هو ان يرد اليمين الى الورثة بأن يقوم رجلان آخران مقامهما من أولياء الميت الوارثين له الذين استحق الإثم بالاجرام عليهما والخيانة لهما ، وهؤلاء الرجلان الوارثان ينبغي ان يكونا هما الاوليين بالميت أي الاقربين اليه الاحقين بارثه ان لم يمنع من ذلك مانع، — كما تفيده قراءة الجمهور — أو غيرهما منهم كما تفيده قراءة من قرأ (الاولين) وهو صفة للذين استحق عليهم أو منصوب على الاختصاص . وتحمل القراءة الاولى على طلب الاكمل وهو ان يشهد أقرب الورثة الى الميت. والقراءة الثانية على ما اذا منع مانع من إقسام أقرب الورثة أوكانت المصلحة في حلف غيره لامتيازه بالسن أو الفضيلة ، هذا اذا أريد بالاوليين الاوليين الميت الموصي ، ويجوز ان يراد الاوليان بالقسم أي من يرى الامام أو نائبه انهما أجدر الورثة باليمين لقربهما أو لفضلهما .

وأما قراءة حفص عن عاصم - وبها يقرأ أهل بلادنا - فقال أكثر المفسرين في توجيهها: ان «الاوليان» فيها فاعل «استحق» والمفعول محذوف والتقدير: من الورثة الذين استحق عليهم الاوليان بأمر الميت منهم لقربهما أو معرفتهما أن يندبا للشهادة واليمين من يظهر كذب الكاذبين. وذهب الامام الرازي الى أن الاولين في هذه القراءة هما الوصيان قال: ووجهه ان الوصيين اللذين ظهرت خيانتهما هما أولى من غيرهما - بسبب ان الميت عينهما للوصاية ولما خانا في مال الورثة صح ان يقال ان الورثة قد استحق عليهم الاوليان أي خان في مالهم الاوليان، وقرأ الحسن الاولان ووجهه ظاهر مما تقدم اه

أقول: الوجه عندي في هذا أن يقال إنهما الاوليان باليمين في الاصل لانهما منكران واليمين على من أنكر، وكان المقام مقام الاضمار - بأن يقال: من الذين استحقا عليهم الاثم - فوضع المظهر وهو الاوليان موضع الضمير لافادة أن الاصل في الشرع أن تكون اليمين عليهما ولكن استحقاقهما الاثم بما ظهر من حنثهما اقتضى ردها أي اليمين الى الورثة

﴿ فيقسمان بالله : لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا ﴾ أي يحلفان على ان ما شهدا به من خيانة الشهيدين اللذين شهدا أولا على وصية ميتهما أحق وأصدق من شهادتهما بما كانا شهدا به، وانهما ما اعتديا عليهما بتهمة باطلة أو ما اعتديا الحق فيما اتهموهما به ﴿ انا اذا لمن الظالمين ﴾ أي ويقولان في قسمهما إنا اذا اعتدينا الحق وقلنا الباطل لداخلون في عداد الظالمين لانفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وانتقامه، والظالمين لمن ائتمنه ميتهم، وظلمهما محرم عليهم

ثم بين تعالى حكمة شرعه لهذه الشهادة وهذه الايمان، في هذا الامر المبني على الثقة والائتمان، فقال ﴿ ذلك أدنى ان يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا ان ترد أيمان بعد أيمانهم ﴾ أي ذلك الذي ذكر من تكليف المؤتمن على الوصية القيام على مشهد من الناس بعد الصلاة وإقسامه تلك اليمين المغلظة أقرب الوسائل الى ان يؤدي الشهداء الشهادة على وجهها بلا تغيير ولا تبديل، تعظيما لله ورهبة من عذابه ورغبة في ثوابه، أو خوفا من الفضيحة التي تعقب استحقاقهما الاثم في الشهادة برد

أيمان الى الورثة بعد أيمانهم تكون مبطلة لها ، فمن لم يمنعه خوف الله وتعظيمه ان يكذب أو يخون لضعف دينه يمنعه خوف الفضيحة على أعين الناس

﴿ واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ أي واتقوا الله أيها المؤمنون في الشهادة والامانة وفي كل شيء واسمعوا سمع اجابة وقبول هذه الاحكام وسائر ما شرعه الله تعالى لكم ، فان لم تتقوا وتسمعوا كنتم فاسقين عن أمر الله تعالى محرومين من هدايته مستحقين لعقابه

﴿ إيضاح لتفسير الآيات وبلاغتها وما يستنبط منها ﴾

قال الرازي بعد تفسير الآية الثانية: اتفق المفسرون على أنها في غاية الصعوبة إعرابا ونظما وحكما ، وروى الواحدي رحمه الله في البسيط عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال: هذه الآية أعضل مافي هذه السورة من الاحكام . اه

وأورد الآلوسي في روح المعاني عبارة الرازي عن المفسرين دون رواية الواحدي عن عمر ، ثم نقل مثلها عن السعد التفتازاني وعن الطبرسي في الآيتين — لا الثانية فقط — وقال: ان الطبرسي افتخر بما أتى فيه ولم يأت بشيء .

(أقول) لعل أول من قال ذلك الزجاج النحوي ، ونحن لا يروعنا ما يراه المفسرون من الصعوبة في إعراب بعض الآيات أو في حكمها لان لهم مذاهب في النحو والفقه يزنون بها القرآن فلا يفهمونه إلا منها ، والقرآن فوق النحو والفقه والمذاهب كلها ، فهو أصل الاصول ، ما وافقه فهو مقبول ، وما خالفه فهو مردود مرذول ، وانما يهمنا ما يقوله علماء الصحابة والتابعين فيه ، فهو العون الاكبر لنا على فهمه ، ولم يرو عن أحد منهم ما يدل على وجدان شيء من الصعوبة في عبارة الآيتين أو أحكامهما . وما نقله الواحدي عن عمر (رض) في آية « فان عثر على أنهما استحقا إثما » فليس مما يؤيد ما نقل عن المفسرين من استصعابها ، بل معناه أن أحكامها أشد من سائر أحكام السورة ، ولعله يعني بذلك ما فيها من التضييق في رد ايمان بعد ايمان ، واظهار فضائح مَن كذب وخان . قال في حقيقة الاساس: عضلت على فلان — ضيقت عليه أمره وحلت بينه وبين ما يريد .

ومنه النهي عن عضل النساء أي منعهن من الزواج

ولكن أصحاب المذاهب الفقهية اضطربوا في عدة أحكام من أحكامها لمجيئها مخالفة لأقيستهم ولما عليه العمل في سائر الاحكام — منها حلف الشاهد اليمين، ومنها شهادة غير المسلم فيما هو خاص بالمسلمين، ومنها العمل بيمين المدعي، وقد اجتهدوا في تخريج كل مسألة من تلك المسائل على الثابت عندهم كما تراه قريبا. حتى ادعوا في بعضها النسخ، ورووه عن بعض الصحابة بسند لم يصح، فلهذا رأينا بعد تفسير الآيتين بما يفهم من ظاهر اللفظ بالاختصار أن نفصل ما اشتملتا عليه من الفوائد والاحكام، ليظهر حتى للضعيف في علم العربية مافيهما من إعجاز الايجاز، وما جنته عليه المذاهب النحوية والفقهية على كثير من العلماء، حتى قال ما قال في الآيتين أشهرهم بسعة الاطلاع أو بالدقة والذكاء.

أما دعوى النسخ فقد علمت مما سلف ماعليه المحققون من انه ليس في سورة المائدة منسوخ، وقد حرر المسألة الحافظ ابن كثير في تفسيره فقال:

«ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضا ما رواه أبو جعفر ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا هشيم قال أخبرنا زكريا عن الشعبي أن رجلا من المسلمين حضرته الصلاة بدقوقا قال فحضرته الوفاة ولم يجد أحدا من المسلمين يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب — قال — فقدما الكوفة فأتيا الاشعري يعني أبا موسى الاشعري رضي الله عنه فأخبراه وقدما الكوفة بتركته ووصيته، فقال الاشعري هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال — فأحلفهما بعد العصر بالله ماخانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيرا، وانها لوصية الرجل وتركته، — قال — فأمضى شهادتهما. ثم رواه عن عمرو بن علي الفلاس عن أبي داود الطيالسي عن شعبة عن مغيرة الازرق عن الشعبي أن أبا موسى قضى به. وهذان اسنادان صحيحان الى الشعبي عن أبي موسى الاشعري. فقوله: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الظاهر — والله أعلم — انه انما أراد بذلك قصة تميم وعدي بن بداء، وقد ذكروا ان اسلام تميم بن أوس الداري رضي الله عنه كان سنة تسع من الهجرة، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخرا يحتاج مدعي نسخه الى

دليل فاصل في هذا المقام والله أعلم »

ثم قال الحافظ ابن كثير بعد ان أورد قول السدي في الآية الاولى :

« قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه كأني أنظر الى العلجين حين انتهي بهما الى أبي موسى الاشعري في داره ففتح الصحيفة فأنكر أهل الميت وخوفوهما فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر ، فقلت انهما لا يباليان صلاة العصر ، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما ، فيوقف الرجلان بعد صلاتهما في دينهما فيحلفان بالله (لا نشتري به ثمنا قليلا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله انا اذا لمن الآثمين) ان صاحبهم لبهذا أوصى وان هذه لتركته ، فيقول لهما الامام (أي الحاكم) قبل أن يحلفا انكما ان كتمتما أو خنتما فضحتكما في قومكما ولم تجز لكما شهادة وعاقبتكما . فاذا قال لهما ذلك فان (ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها) رواه ابن جرير اه المراد من كلام ابن كثير وتأمل قوله « ولم تجز لكما شهادة » فالظاهر انه من كلام ابن عباس (رض) وسيأتي لبحث دعوى النسخ واستشكال الفقهاء مزيد بيان قريبا

وأما الفوائد والاحكام التي اشتملت عليها الآيتان بايجازها ، فهاك ما يتبادر الى الذهن منها

(١) الحث على الوصية وتأكيد أمرها وعدم التهاون فيها بشواغل السفر وان قصرت فيه الصلاة وأبيح فيه الافطار في رمضان

(٢) الاشهاد على الوصية في الحضر والسفر ، ليكون أمرها أثبت ، والرجاء في تنفيذها أقوى ، وان كثيرا من الناس ليكتبون وصيتهم ولا يشهدون أحدا عليها فيكون ذلك في بعض الاحيان سببا لضياعها

(٣) ان الاصل في الاشهاد على الوصية أن يختار الشاهدان من المؤمنين الموثوق بعدالتهم كما ثبت في آيات أخرى أيضا ، وحكمته ظاهرة من وجوه لا حاجة الى شرحها

(٤) ان اشهاد غير المسلمين على الوصية جائز مشروع . فان وجبت الوصية وجب بشرطه والا فهو مندوب ، لان مقصد الشارع من اثبات الوصية لا يترك

البتة اذا لم يتيسر اقامتـه على وجـه الكمال ، اذ الميسور لا يسقط بالمعسور ، والمقام هنا مقام اثبات الحقوق، لامقام التعبد الذي يشترط فيه الايمان. ولامقام التشريف والتكريم للاديان وأهل الاديان

(٥) ان الشهادة تشمل ما يقوله كل من الخصمين من إقرار في القضية أو إنكار، ونفي للمدعى به أو إثبات

(٦) شرعية اختيار الأوقات التي تؤثر في قلوب الشهود ومقسمي الايمان ويرجى أن يصدقوا ويبروا فيها كما بيناه في تعليل القسم بعد الصلاة ، ومثله في ذلك اختيار المكان، وهو مشروع أيضا . ومما ورد في السنة في ذلك ما رواه مالك وأحمد وأبو داود والنسائي وصححه وابن ماجه بسند رجاله ثقات وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححوه عن جابر مرفوعا « لايحلف أحد عند منبري كاذبا الا تبوأ مقعده من النار » وعن أبي هريرة حديث بمعناه عند أحمد وابن ماجه . وروى النسائي باسناد رجاله ثقات عن أبي أمامة بن ثعلبة رفعه « من حلف عند منبري هذا بيمين كاذبة يستحل بها مال امرئ مسلم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » واستدل بالآية وبهـذه الاحاديث جماهير الفقهاء على جواز التغليظ على الحالف بمكان معين ثبتت حرمته شرعا كالمسجد الحرام ، وخاصة ما بين الركن ومقام ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، والمسجد النبوي وخاصة ما كان منه عند منبره صلى الله عليه وسلم ، وبالزمان كيوم الجمعة وبعد صلاة العصر ، وقال بعضهم — ومنهم الحنفية — ان ما ذكر من النصوص لا يدل على ذلك . ولعله لا ينكر أحد التغليظ بما ورد فيها ، وانما الخلاف في القياس عليها أو الأخذ بفحواها

وقال الرازي في تفسير الآية : قال الشافعي رحمه الله الايمان تغلظ في الدماء والطلاق والعتاق والمال اذا بلغ مئتي درهم — في الزمان والمكان ، فيحلف بمكة بين الركن والمقام ، وبالمدينة عند المنبر ، وفي بيت المقدس عنـد الصخرة ، وفي سائر البلدان في أشرف المساجد ، وقال أبو حنيفة رحمه الله يحلف من غير ان يختص الحلف بزمان ومكان، وهذا على خلاف الآية، ولان المقصود منه التهويل والتعظيم ، ولا شك ان الذي قاله الشافعي رضي الله عنه أقوى اه

هذه العبارة تشهد على نفسها بالتعصب فلا يقال أن أبا حنيفة خالف الآية الا اذا أجاز ترك العمل بمنطوقها في هذا الموضوع نفسه

(٧) التغليظ على الحالف بصيغة اليمين بأن يقول فيه ما يرجى ان يكون رادعا للحالف عن الكذب كالالفاظ التي وردت في الآية ، وأشد منها ماورد في شهادة اللعان ، وقد جرى على هذا أصحاب الجمعيات السياسية في الاسلام وغيره فاخترعوا أيمانا وأقساما قد يتحامى أفسق الناس وأجرأهم على الاجرام أن يحنث بها . وقد بينا ما يجب البر به وما يجب الحنث به من الايمان وسائر مهمات أحكامها في تفسير آية كفارتها من هذه السورة

(٨) ان الاصل في أخبار الناس وشهاداتهم التي هي أخبار مؤكدة صادرة عن علم صحيح أن تكون مقبولة مصدقة. ولهذا شرط في حكم تحليف الشاهدين الارتياب في خبرهما ، وصدر هذا الشرط بإن التي لاتدل على تحقق الوقوع ، اشارة الى أن الاصل في وقوعها أن يكون شاذا

(٩) ان الاصل في الناس أن يكونوا أمناء ، وفي المؤتمن أن يكون أمينا ، وأن يكون مايقوله في أمر الامانة مقبولا . ولذلك قال « فان عثر على انهما استحقا اثما» فأفادت أداة الشرط ان الاصل في هذا أن لايقع ، وانه ان وقع كان شاذا . وأفاد فعل « عثر » المبني للمفعول ان هذا الشذوذ ان وقع فشأنه أن يطلع عليه بالمصادفة والاتفاق ، لابالبحث وتتبع العثرات

(١٠) شرعية تحليف الشهود اذا ارتاب الحكام أو الخصوم في شهادتهم ، وهو الذي عليه العمل الآن في اكثر الامم ، بل تحتمه قوانينها الوضعية باطراد لكثرة ما يقع من شهادة الزور ، وسيأتي بحث الفقهاء في ذلك

(١١) شرعية تحليف المؤتمن والعمل بيمينه

(١٢) شرعية ردّ اليمين الى من قام الدليل على ضياع حق له بيمين صار حالفها خصما له . ومن هذا القبيل شهادة المتلاعنين وأقسامهما، فاذا شهد الرجل على امرأته بالزنا تلك الشهادة المشروعة في سورة النور المتضمنة للقسم المغلظ — ترد الشهادة مع اليمين الى زوجه التي رماها بذلك، فاذا شهدت بالله مثل شهادته سقط عنها الحد

وبرئت من التهمة في شرع الله ، و بالنسبة الى غيره من عباد الله. ومنه أيمان القسامة في الدماء، وقد اختلف الفقهاء فيمن يبدأ باليمين — آلمدعون ذوو القتيل ؟ أم المدعى عليهم ذوو المتهم بالقتل ، وأيا ما كان البادؤن فان الايمان ترد الى الآخرين

(١٣) اذا احتيج الى قيام بعض الورثة لميت بأمر يتعلق بالتركة فالذي يجب تقديمه منهم للقيام به من كان أولاهم به . ومن بلاغة الايجاز إبهام الاوليين بالقسم في الآية لاختلاف الاولوية باختلاف الاحوال والوقائع كما أشرنا اليه . فاذا تعين أصحاب الاولوية بلا نزاع فذاك والا فالحاكم هو الذي يقدم من يراه الاولى .

كل هذه الاحكام مفهومة من الآيتين فتأمل جمعهما لهذه المعاني الكثيرة على ايجازهما وايضاحهما للمعنى المقصود بهما بالذات

فصل في حكم شهادة غير المسلمين على المسلمين

هذا بحث شرعي يجب أن نعطيه حقه من الاستقلال في الاستدلال

اعلم أن آيات القرآن في الشهادة منها المطلق ومنها المقيد . قال تعالى في اللاتي يأتين الفاحشة من المسلمات (٤: ١٤ فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) الآية وقال تعالى في شأن المطلقة المعتدة من سورة الطلاق (٦٥: ٢ فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) وقال تعالى في آية التداين (٢: ٢٨٢ واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونوا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء — ثم قال فيها — وأشهدوا اذا تبايعتم) ولم يقل هنا « ذوي عدل منكم » ومثله في الاطلاق قوله تعالى في الايتام (٤: ٥ فاذا دفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم)

فاذا تأملنا في هذه الآيات مع آيتي المائدة اللتين نحن في صدد تفسيرهما و بحثنا عن حكمة الاطلاق والتقييد فيهن كلهن نرى انه جل وعز اشترط في الاستشهاد أو الإشهاد في الوقائع المتعلقة بامور المؤمنات الشخصية ان يكون الشهداء من المؤمنين، ولم يذكر هذا القيد في الاشهاد على دفع اموال اليتامى اليهم، ولا في الاشهاد على البيع، والفرق بين الاحكام المالية المحضة وأحكام النساء المؤمنات جلي واضح، واما

قوله في آية الدين وهي في الاحكام المالية (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) فظاهر اللفظ ان المراد به الرجال المؤمنون لانهم المخاطبون، وهو الذي عليه الجماهير، ويحتمل ان يكون هذا الوصف لاجل بيان تقديم صنف الرجال في الشهادة على مايقابله من شهادة الصنفين ، وان الاضافة فيه روعي فيها الواقع أو الغالب بقرينة وصف المقابل بقوله (ممن ترضون من الشهداء) اذ لم يقل « من شهدائكم » او « من رجالكم ونسائكم » ثم بقرينة اطلاق الامر بالاشهاد على الدين في الآية نفسها

فلقائل ان يقول لو اراد الله تعالى ان يبين لنا انه لايجوز لنا ان نُشهد في الاعمال المالية غير المؤمنين لجاء في كل نص من تلك النصوص بما يدل على ذلك وان تقاربت على حد قوله في الأمور العامة (٤: ٨٢ ولو ردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) وانما يدل مجموع الآيات على أن الاصل أو الكمال في الاشهاد أن يكون الشهود من عدول المؤمنين للثقة بشهادتهم، والاحتراز من الكذب والزور والخيانة التي يكثر وقوعها ممن لاثقة بايمانهم وعدالتهم ، وان يلتزم هذا هذا الاصل في الاشهاد على الامور الخاصة بنساء المسلمين وبيوتهم اذ لايحتاج فيها الى غيرهم، ولوجوب الاحتياط فيها ، ومن هذا الاحتياط ورود نص القرآن فيمن يقذف امرأة بأن يجلد ثمانين جلدة وأن لا تقبل له شهادة أبدا

وبناء على هذا يقال في آية المائدة ان الله تعالى قدم اشهاد عدول المؤمنين على الوصية لانه الاصل الذي يحصل به المقصود على الوجه الكامل ، وأجاز اشهاد غيرهم في الحال التي لايتيسر فيها ذلك ، وان الشرط في قوله « ان أنتم ضربتم في الارض » جاء لبيان هذه الحال فمفهومه غير مراد ، كقوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا) ومن يرى رأي الحنفية في عدم الاحتجاج بمفهوم الشرط ومفهوم اللقب يمكنه أن يرجح هذا القول أي ترجيح ، والكلام فيما تدل عليه آيات القرآن ، دون مايدعى فيه غير ذلك من قياس أو إجماع فقهاء

ودونك ماورد في ذلك عن علماء السلف وأئمة الفقه كما لخصه الحافظ ابن حجر في شرح البخاري — ونقله الشوكاني عنه في (نيل الأوطار) في شرح حديث

ابن عباس في قصة السهمي المتقدمة الذي رواه البخاري وأبو داود[1] قال :

«واستدل بهذا الحديث على جواز شهادة الكفار بناء على ان المراد بالغير في الآية الكريمة الكفار ، والمعنى (منكم) أي من أهل دينكم (أو آخران من غيركم) أي من غير أهل دينكم . و بذلك قال أبو حنيفة ومن تبعه. وتعقب بأنه لا يقول بظاهرها فلا يجيز شهادة الكفار على المسلمين وانما يجيز شهادة بعض الكفار على بعض. وأجيب بأن الآية دلت بمنطوقها على قبول شهادة الكافر على المسلم، و بإيمائها على قبول شهادة الكافر على الكافر بطريق الاولى. ثم دل الدليل على ان شهادة الكافر على المسلم غير مقبولة ، فبقيت شهادة الكافر على الكافر على حالها . وهذا الجواب على التعقب في غير محله لان التعقب هو باعتبار ما يقوله أبو حنيفة لا باعتبار استدلاله

« وخص جماعة القبول بأهل الكتاب و بالوصية و بفقد المسلم حينئذ، ومنهم ابن عباس وابو موسى الاشعري وسعيد بن المسيب وشريح وابن سيرين والاوزاعي والثوري وأبو عبيدة وأحمد وأخذوا بظاهر الآية وحديث الباب ، فان سياقه مطابق لظاهر الآية

«وقيل المراد بالغير غير العشيرة والمعنى (منكم) أي من عشيرتكم (أو آخران من

---

(١) رواه البخاري في آخر كتاب الوصايا من طريق محمد بن أبي القاسم عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن ابن عباس معبرا عن سماعه بقوله : وقال لي على ابن عبد الله : حدثنا يحيي بن آدم الخ قال الحافظ في الفتح : انه يعبر بقوله « وقال لي » في الاحاديث التي سمعها لكن حيث يكون في اسنادها عنده نظر أو حيث تكون موقوفة. وقال في محمد بن أبي القاسم : وثقه يحيي بن معين وأبو حاتم وتوقف فيه البخاري مع كونه روى حديثه هذا هنا فروى النسفي عن البخاري قال لا أعرف محمد بن أبي القاسم هذا كما ينبغي. ثم قال الحافظ عند ذكر تميم الداري أحد أصحاب الواقعة : وذلك قبل أن يسلم وعلى هذا فهو من مرسل الصحابي لان ابن عباس لم يحضر هذه القصة اه . وقد علم بهذا محل النظر عنده فيه ، وهو لا ينافي صحته. ورواه أبو داود من هذه الطريق أيضا . وصرح البخاري بأنه لم يرو من غيرها

غيركم) أي من غير عشيرتكم، وهو قول الحسن البصري. واستدل له النحاس بأن لفظ آخر لا بد ان يشارك الذي قبله في الصفة حتى لا يسوغ ان يقول مررت برجل كريم ولئيم آخر، فعلى هذا فقد وصف الاثنان بالعدالة فتعين أن يكون الآخران كذلك. وتعقب بأن هذا وان ساغ في الآية لكن الحديث دل على خلاف ذلك والصحابي اذا حكى سبب النزول كان ذلك في حكم الحديث المرفوع — اتفاقا — وأيضا ففيما قال رد المختلف فيه بالمختلف فيه، لان اتصاف الكافر بالعدالة مختلف فيه وهو فرع قبول شهادته، فمن قبلها وصفه بها ومن لا فلا

« واعترض أبو حيان على المثال الذي ذكره النحاس بأنه غير مطابق، فلو قلت جاءني رجل مسلم وآخر كافر صح، بخلاف ما لو قلت جاءني رجل مسلم وكافر آخر، والآية من قبيل الاول لا الثاني، لأن قوله آخران من جنس قوله اثنان لان كلا منهما صفة رجلان فكأنه قال فرجلان اثنان ورجلان آخران

« وذهب جماعة من الأئمة الى ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (ممن ترضون من الشهداء) واحتجوا بالاجماع على رد شهادة الفاسق، والكافر شر من الفاسق. وأجاب الاولون ان النسخ لا يثبت بالاحتمال، وان الجمع بين الدليلين أولى من إلغاء أحدهما، و بأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن، حتى صح عن ابن عباس وعائشة وعمرو بن شرحبيل وجمع من السلف ان سورة المائدة محكمة

وعن ابن عباس ان الآية نزلت فيمن مات مسافرا وليس عنده أحد من المسلمين فان اتهما استحلفا. أخرجه الطبري باسناد رجاله ثقات، وأنكر أحمد على من قال ان هذه الآية منسوخة، وقد صح عن أبي موسى الاشعري انه عمل بذلك بعد النبي صلى الله عليه وسلم (وساق الحافظ الحديث وقال ان حكمه لم ينكره أحد من الصحابة فكان حجة. وذكر رد الطبري والرازي لقول من قال انها في الاقارب والاجانب وقد تقدم ذلك كله ثم قال)

« وذهب الكرابيسي والطبري وآخرون الى ان المراد بالشهادة في الآية اليمين، قالوا وقد سمى الله اليمين شهادة في آية اللعان، وأيدوا ذلك بالاجماع على ان الشاهد لا يلزمه ان يقول أشهد بالله، وان الشاهد لا يمين عليه انه شهد بالحق، قالوا فالمراد

بالشهادة اليمين لقوله (فيقسمان بالله) أي يحلفان فان عرف انهما حلفا على الاثم رجعت اليمين على الاولياء. وتعقب بأن اليمين لا يشترط فيه عدد ولا عدالة بخلاف الشهادة، وقد اشترطا في هذه القصة فقوي حملها على انها شهادة

« وأما اعتلال من اعتل في ردها بأن الآية تخالف القياس والاصول لما فيها من قبول شهادة الكافر وحبس الشاهد وتحليفه، وشهادة المدعي لنفسه، واستحقاقه بمجرد اليمين، فقد أجاب من قال به بأنه حكم بنفسه مستغن عن نظيره، وقد قبلت شهادة الكافر في بعض المواضع كما في الطب. وليس المراد بالحبس السجن وانما المراد الامساك لليمين ليحلف بعد الصلاة. وأما تحليف الشاهد فهو مخصوص بهذه الصورة عند قيام الريبة. وأما شهادة المدعي لنفسه واستحقاقه بمجرد اليمين فان الآية تضمنت نقل الأيمان اليهم عند ظهور اللوث بخيانة الوصيين، فيشرع لهما أن يحلفا ويستحقا، كما يشرع لمدعي القسامة أن يحلف ويستحق، فليس هو من شهادة المدعي لنفسه بل من باب الحكم له بيمينه القائمة مقام الشهادة لقوة جانبه. وأي فرق بين ظهور اللوث في صحة الدعوى بالدم وظهوره في صحة الدعوى بالمال ؟ وحكى الطبري ان بعضهم قال المراد بقوله (اثنان ذوا عدل منكم) الوصيان قال والمراد بقوله (شهادة بينكم) معنى الحضور لما يوصيهما به الوصي . ثم زيف ذلك » اه

قال الشوكاني بعد نقل ما تقدم عن الفتح : وهذا الحكم يختص بالكافر الذمي، وأما الكافر الذي ليس بذمي فقد حكى في البحر الاجماع على عدم قبول شهادته على المسلم مطلقا . اه

وأقول: ما أورده الشوكاني من دعوى صاحب البحر من أئمة الزيدية الاجماع على عدم قبول شهادة الكافر غير الذمي مطلقا مردود بما نقله السيوطي في الدر المنثور

سعة أحكام الكتاب والسنة وتضييق الفقهاء

وبقي ههنا بحث مهم وهو ان أحكام القرآن في هذه المسألة وفي غيرها أوسع مما جرى عليه الفقهاء، وكذلك أحكام السنة، وكل ما في الفقه من التشديد والتقييد فهو من اجتهاد الفقهاء، ولاسيما المصنفين منهم الذين جاءوا بعد الصحابة والتابعين .

وأولى الاحكام الاجتهادية بالنظر والاعتبار ما اتفق عليه كبار المجتهدين ، وجرى عليه عمل حكام العصور الاولى من المسلمين ، ومنه عدم قبول شهادة الكافر على المسلم في القضايا الشخصية والمدنية والجنائية على حد سواء، فما سبب ذلك ؟ ولماذا لم يأخذوا بظاهر آية المائدة — وهي من آخر ما نزل من القرآن — فيعدوها شارعة لقبول شهادة غير المسلم عند الحاجة مطلقاً ، أو في غير ما ورد النص باشهاد المسلمين المعدول عليه لحكمة تقتضي ذلك كما تقدم آنفا في بيان المقابلة بين آيات الشهادة ؟ أو ليس الغرض من الشهادة أن تكون بينة يعرف بها الحق، وقد يتوقف بيانه على شهادة شهداء من غير المسلمين يثق الحاكم بصدقهم وصحة شهادتهم ؟

الجواب عن هذا السؤال يعلم بالنظر فيما استدلوا به على منع شهادة الكافر وبمعرفة حال المسلمين مع الكفار في عصر التنزيل وعصر وضع الفقه والتصنيف فيه وعمل الحكام بأقوال علمائه

فأما الاستدلال فقد علم مما تقدم أن له من القرآن مأخذين (الاول) جعل قوله تعالى (واستشهدوا ذوي عدل منكم) مقيدا للاطلاق في قوله تعالى (وأشهدوا اذا تبايعتم) وفي هذا الاستدلال ابحاث (أحدها) انه من مسائل الاصول التي اختلف فيها المتفقون على منع شهادة غير المسلم على المسلم ، وقد اتفقوا على ان المطلق والمقيد اذا اختلفا في السبب والحكم لا يحمل أحدهما على الآخر ، واذا اتفقا فالخلاف في عدم الحمل ضعيف والجمهور على الحمل ، وأما اذا اختلفا في السبب دون الحكم كمسائل الاشهاد على النساء واليتامى والبيع والوصية وكذا عتق الرقبة في كفارات القتل والظهار واليمين ، فالخلاف في الحمل وعدمه قوي والاقوال فيه متعددة فلم اتفق المختلفون فيها على منع شهادة غير المسلم مطلقا أو فيما عدا الوصية أو الطب ؟

(ثانيها) ان الاشهاد الاختياري غير الشهادة ، فالامر باختيار أفضل الناس ايمانا وعدالة للاشهاد لا يستلزم عدم الاعتداد بشهادة من دونهم في الفضيلة . فان الشهادة بينة ، والبينة كل ما يتبين به الحق كما يدل عليه استعمال الكتاب والسنة ، وقد أطال العلامة ابن القيم في اثبات هذا وايضاحه في كتابه (أعلام الموقعين)

(ثالثها) ان قوله تعالى (ممن ترضون من الشهداء) فيه توسعة عظيمة في

الاشهاد ، ونحن الى التوسعة في الشهادة نفسها أحوج ، فان كثيرا من الجنايات والعقود والاقرار قد تقع من بعض المسلمين على مرأى ومسمع من غيرهم ، وقد يكون هؤلاء الذين سمعوا ورأوا من أهل الصدق والامانة، لان دينهم يحرم الكذب والخيانة ، فلماذا نضيع أمثال هذه الحقوق التي يمكن اثباتها بشهادتهم اذا تجرأ الذين أنكروها على اليمين كما تجرؤا على الكذب بالانكار ؟

(المأخذ الثاني) ان الله تعالى قد أمرنا أن نشهد ذوي عدل منا معشر المؤمنين وعلة ذلك بديهية وهي ان المؤمن العدل ؛ يتحرى الصدق الذي يثبت به الحق ، ونحن نشترط في قبول الشهادة الامرين ؛ ونرى ان غير المؤمن المسلم لا يكون صادقا عدلا ، واذا كان فقد العدالة يوجب رد الشهادة عندنا ففقد الايمان أولى بذلك

وفي هذا الاستدلال نظر من وجهين (أحدهما) أن الايمان بالله و بشرع له يحرم الكذب كاف لتحقيق المقصد الذي نتوخونه من الشهادة . وهذا مما يوجد في غير الاسلام من الملل . وقولكم إن غير المسلم لا يكون صادقا ولا عدلا لا دليل عليه من النقل ، ولا من سيرة البشر المعلومة بالاختبار والعقل

أما النقل فقد جاء على خلافه فان الله تعالى يقول (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون) فان حمل هذا على من كان قبل بعثة خاتم النبيين فلا يمكن أن يحمل عليهم قوله تعالى (ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك) فهذه شهادة لهم بالامانة ، وقد استشهد الرسول (ص) بعض اليهود على آية الرجم في التوراة فاعترف بها بعضهم لما أقسم عليه بالله الذي أنزل التوراة على موسى (راجع ٣٨٦ ج ٦ من التفسير) وقد بينا في التفسير مرارا عدل القرآن ودقته في الحكم بالفساد على الامم اذ يحكم على الاكثر أو يستثني بعد اطلاق الحكم العام . وما روي من قبول النبي (ص) ثم أبي موسى الاشعري (رض) لشهادتهم في الوصية عملا بالقرآن مبني على ان الاصل في خبر الانسان الصدق وان كان كافرا ، وانه لا يعدل عن هذا الاصل الا عند وجود التهمة ، وعليه جمهور السلف ، وهو يستلزم إثبات عدالتهم كما تقدم عن الحافظ ابن حجر (ص ٥٧٨) و بهذا يسقط قياس الكافر على الفاسق، وقد قبل المحدثون رواية المبتدع الذي يحرم الكذب مطلقا أو فيما عدا تأييد بدعته

وأما سيرة البشر المعلومة بنقل المؤرخين و بسنن الله في أخلاق البشر وطباعهم التي هي القانون العقلي لمن يريد الحكم الصحيح عليهم—فهي مؤيدة لحكم القرآن العادل على المشركين والكفار من العرب والعجم بمثل قوله (وما وجدنا لاكثرهم من عهد وان وجدنا اكثرهم لفاسقين) وقوله في عدة آيات (ولكن اكثرهم لايعلمون — ولكن اكثرهم لا يشكرون — ولكن أكثرهم يجهلون — ولكن أكثرهم للحق كارهون — وأكثرهم فاسقون — أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون) ومثل هذا كثير. وهو خاص بأحوال الامم في طور الفساد وضعف الدين والاخلاق، الذي كان عليه جميع أهل الملل عند ظهور الاسلام، فننتقل اذا الى بيان المسألة الثانية التي نراها هي السبب الحقيقي لعدم قبول شهادة غير المسلم فنقول :

حال المسلمين مع غيرهم في العصر الاول

ان حالة الامم الاجتماعية والسياسية والادبية لها شأن كبير في تطبيق الاحكام على الوقائع وهو ما يسميه علماء الاصول « تحقيق المناط » ومن عرف التاريخ وفقه قواعد علم الاجتماع منه فانه هو الذي يفقه سبب اعراض الفقهاء والحكام عن قبول شهادة غير المسلمين عليهم . وأحق ما يجب فقهه من تلك القواعد أربع ينبغي التأمل فيها بعين العقل والانصاف

(أحدها) ما كان عليه المسلمون في القرون الاولى للاسلام من الاستمساك بعروة الحق، وإقامة ميزان العدل، وعدم المحاباة والتفرقة في ذلك بين مؤمن وكافر، وقريب و بعيد، وصديق وعدو،

(ثانيها) ما كانت عليه جميع الامم التي فتحوا بلادها، وأقاموا شريعتهم فيها، من ضعف وازع الدين، وفساد الاخلاق والآداب، وقد قرر ذلك مؤرخو الإفرنج وغيرهم وجعلوه أول الاسباب الاجتماعية لسرعة الفتح الاسلامي في الخافقين

(ثالثها) ما جرى عليه الفاتحون من المسلمين من المبالغة في التوسعة على أهل ذمتهم في الاستقلال الديني والمدني، اذ كانوا يسمحون لهم بأن يتحاكموا الى رؤسائهم في الامور الشخصية وغيرها — فكان من المعقول مع هذا أن لايشهدوهم على قضايا

أنفسهم الخاصة ، وان يمنعهم نظرهم الى ما بينهما من التفاوت في الاحوال الدينية والادبية التي أشرنا اليها آنفاً من قبول شهادتهم على أنفسهم ، مع عدم ثقتهم بتدينهم وعدالتهم

(رابعها) تأثير عزة السلطان وعهد الفتح الذي كانت الاحكام فيه أشبه بما يسمونه الآن بالاحكام العسكرية . واعتبر ذلك بأحكام دول الافرنج في أيام الحرب ، بل في المستعمرات التي طال عليها عهد الفتح أو ما يشبه الفتح ، يتبين لك ان أشد أحكام فقهاء المسلمين وحكامهم على غيرهم هي أقرب الى العدل والرحمة من أحكام أرقى أمم المدنية من دونهم

وقد علم من حال البشر ان الغالب قلما يرى شيئاً من فضائل المغلوب وان كثرت ، فكيف يرجى إن يرى قليلها الضئيل الخفي ؟ والجماعات الكبيرة والصغيرة كالافراد في نظر كل الى نفسه والى أبناء جنسه بعين الرضا والى مخالفه بعين السخط . مثال ذلك ان امرأة من فضليات نساء سويسرة دينا وأدبا وعلما راقبت أحوال الاستاذ الامام وسيرته مدة طويلة اذ كان يختلف الى مدرسة (جنيف) لتلقي آداب اللغة الفرنسية ، وكلمته مرارا في مسائل من علم الاخلاق والتربية — وكانت بارعة ومصنفة فيهما — فأعجبها رأيه ، كما أعجبها فضله وهديه ، ثم قالت له بعد ذلك : إنني لم أكن أظن قبل ان عرفتك ان القداسة توجد في غير المسيحيين

فمن تأمل ما ذكر تجلت له الاسباب المعنوية والاجتماعية التي صدت الحكام والفقهاء عن قبول شهادة غير المسلم على المسلم . وتعجب من سعة أحكام القرآن ، التي يتوهم الجاهلون انها ضد ما هي عليه من الاطلاق وموافقة كل زمان ومكان ، فتراهم ينسبون الى القرآن كل ما ينكرونه على المسلمين من آرائهم وأعمالهم وأحكامهم بالحق أو بالباطل ، ولو كان المسلمون عاملين بالقرآن كما يجب لما أنكر عليهم أحد ، بل لاتبعهم الناس في هديهم ، كما اتبعوا سلفهم من قبلهم ، بل لكانوا أشد اتباعا لهم ، بما يظهر لهم من موافقة هدايته لهذا الزمان ، وموافقتها لأرقى ما وصل اليه من نظام وأحكام ، وهذا من أجل معجزاته التي تتجدد بتجدد الازمان .

﴿ إعراب الآية الثانية الذي اضطرب فيه النحاة ﴾

قد تبين مما فصلناه ان الذين عدوا الآيتين في غاية الصعوبة لمخالفة مذاهبهم لهما مخطئون ، وان الواجب رد المذاهب اليهما لا تأويلهما لتوافقا المذاهب ، وأما الذين استشكلوا اعراب جملة من الآية الثانية ، وعدوا لاجلها الآية أو الآيات في غاية الصعوبة — فانما أوقعهم في ذلك احتمال التركيب لعدة وجوه من الاعراب ، بما فيها من تعدد القراءات ، مع اعتيادهم تقديم الاعراب على المعنى وجعله هو المبين له ، وقد استحسنا بعد ايضاح تفسير الآيات بما تقدم ان نذكر ملخص ما قيل في إعراب تلك الجملة نقلا عن (روح البيان) الذي يلتزم تحقيق المباحث النحوية في جميع الآيات ، عسى ان يستغني القارئ به عن مراجعة تفسير آخر . ونبدأ بجواب الشرط لانه مبدأ ما استشكلوه من الاعراب . قال المؤلف رحمه الله تعالى :

(فآخران) أي فرجلان آخران وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (يقومان مقامهما) والفاء جزائية وهي احدى مسوغات الابتداء بالنكرة ولا محذور في الفصل بالخبر بين المبتدأ وصفته وهو قوله سبحانه (من الذين استحق عليهما الاوليان) وقيل هو خبر مبتدإ محذوف أي فالشاهدان آخران ، وجملة يقومان صفته والجار والمجرور صفة أخرى. وجوز أبو البقاء أن يكون حالا من ضمير يقومان وقيل هو فاعل فعل محذوف أي : فليشهد آخران . وما بعده صفة له . وقيل مبتدأ خبره الجار والمجرور والجملة الفعلية صفته وضمير مقامهما في جميع هذه الاوجه مستحق للذين استحقا ، وليس المراد بمقامهما مقام اداء الشهادة التي توليـاها ولم يؤدياها كما هي بل هو مقام الحبس والتحليف. واستحق بالبناء للفاعل على قراءة عاصم في رواية حفص عنه وبها قرأ علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس وأبي رضي الله تعالى عنهم ، وفاعله «الاوليان» والمراد من الموصول أهل الميت ، ومن الاولين الاقربان اليه الوارثان له الاحقان بالشهادة لقربهما واطلاعهما ، وهما في الحقيقة الآخران القائمان مقام اللذين استحقا اثما ، الا أنه أقيم المظهر مقام ضميرهما للتنبيه على وصفهما بهذا الوصف ، ومفعول استحق محذوف

واختلفوا في تقديره فقدره الزمخشري أن يجردوهما للقيام بالشهادة ليظهروا بهما كذب الكاذبين، وقدره أبو البقاء وصيتهما . وقدره ابن عطية مالهم وتركتهم، وقال الامام : ان المراد بالاوليان الوصيان اللذان ظهرت خيانتهما وسبب أولويتهما أن الميت عينهما للوصية. فمعنى «استحق عليهم الاوليان» خان في مالهم وجنى عليهم الوصيان اللذان عثر على خيانتهما، وعلى هذا لاضرورة الى القول بحذف المفعول، وقرأ الجمهور «استحق عليهم الاوليان» ببناء استحق للمفعول واختلفوا في مرجع ضميره والاكثرون انه الاثم والمراد من الموصول الورثة لان استحقاق الاثم عليهم كناية عن الجناية عليهم، ولا شك ان الذين جُني عليهم وارتكب الذنب بالقياس اليهم هم الورثة، وقيل انه الايصاء،وقيل الوصية لتأويلها بما ذكر . وقيل المال . وقيل ان الفعل مسند الى الجار والمجرور، وكذا اختلفوا في توجيه رفع الاوليان فقيل انه مبتدأ خبره «آخران» أي الاوليان بأمر الميت آخران ، وقيل بالعكس ، واعترض بأن فيه الإخبار عن النكرة بالمعرفة وهو مما اتفق على منعه في مثله، وقيل خبر مبتدإ مقدر أي هما الآخران على الاستئناف البياني، وقيل بدل من آخران، وقيل عطف بيان عليه، و يلزمه عدم اتفاق البيان والمبين في التعريف والتنكير مع انهم شرطوه فيه حتى من جوز تنكيره، نعم نقل عن نزر عدم الاشتراط، وقيل هو بدل من فاعل يقومان وكون المبدل منه في حكم الطرح ليس من كل الوجوه حتى يلزم خلوّ تلك الجملة الواقعة خبرا أو صفة عن الضمير على انه لو طرح وقام هذا مقامه كان من وضع الظاهر موضع الضمير فيكون رابطا، وقيل هو صفة آخران، وفيه وصف النكرة بالمعرفة والاخفش أجازه هنا لأن النكرة بالوصف قربت من المعرفة ، قيل وهذا على عكس * ولقد أمر على اللئيم يسبني * فانه يؤول فيه المعرفة بالنكرة . وهذا أول فيه النكرة بالمعرفة أو جعلت في حكمها للوصف، ويمكن — كما قال بعض المحققين — أن يكون منه بأن يجعل الاوليان لعدم تعينهما كالنكرة، وعن أبي علي الفارسي انه نائب فاعل «استحق» والمراد على هذا استحق عليهم انتداب الاوليين منهم للشهادة كما قال الزمخشري، أو اثم الاوليين كما قيل . وهو تثنية الاولى قلبت ألفه ياء عندها، وفي على في «عليهم» أوجه الاول انها على بابها، والثاني انها بمعنى في ، والثالث انها بمعنى من . وفسر استحق بطلب الحق

وبحق وغلب . وقرأ يعقوب وخلف وحمزة وعاصم في رواية أبي بكر عنه «استحق عليهم الاولين» ببناء استحق للمفعول والاولين جمع أول المقابل للآخر وهو مجرور على انه صفة الذين أو بدل منه أو من ضمير عليهم أو منصوب على المدح . ومعنى الاولية التقدم على الاجانب في الشهادة وقيل التقدم في الذكر لدخولهم في (ياأيها الذين آمنوا) وقرأ الحسن «الاولان» بالرفع وهو كما قدمنا في الاوليان، وقرئ «الاولين» بالتثنية والنصب ، وقرأ ابن سيرين « الاوليين» بياءين تثنية أولى منصوبا وقرأ «الاولين» بسكون الواو وفتح اللام جمع أولى كأعلين واعراب ذلك ظاهر

البرهان

على

خروج تارك الصلاة ومانع الزكاة من الايمان

جمع أدلته من الكتاب والسنة محمد على أبو زيد
الطالب بكلية دار الدعوة والارشاد



يزيدك بيانا لهذه الآية قول النبي صلى الله عليه وسلم « بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة» خرجه مسلم [1] ولا تحتاج بعده الى شرح وبيان،

---

(١) المنار : رواه مسلم عن جابر بن عبد الله من طريق أبي الزبير محمد بن مسلم بن تدرس وهو ثقة عند الجمهور رووا له الا البخاري فانه لم يرو له الا متابعة . وكان ابن حزم يرد من حديثه ما يقول فيه : عن جابر ، لأنه مدلس . وههنا صرح بسماعه منه . وطعن فيه شعبة ونهى عن الكتابة عنه قال لانه لا يحسن يصلي ، ولكونه سيء صلاته . بل قال انه كذب على رجل واعتذر عن ذلك بأنه أغضبه . واحتج =

ومنه قوله تعالى في سورة البقرة (واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم اليه راجعون) تراه في هذه الآية جعل الصلاة يستعان بها ، ولم يذكر ما يستعان عليه ، ليشمل كل الامور الدينية والدنيوية ، وذلك — كما بينا قريبا — أنها تشغل النفس بذكر الله تعالى فتصقلها كصقل الجلاء للمرآة ، فيرى صاحبها بقربه من ربه ما لا يراه صديء النفس ، فتقوى فيه الروحانية ، والمرء

= على الشافعي بحديثه فغضب وقال : أبو الزبير يحتاج الى دعامة . وقال أبو زرعة وأبو حاتم لا يحتج به . ورواه أيضا من طريق أبي سفيان طلحة بن نافع وقد روى له الجماعة الا أن البخاري لم يرو له في الصحيح الا مقرونا بغيره ، وقال سفيان بن عيينة : حديثه عن جابر إنما هو صحيفة . أي لم يسمع منه مع أنه صرح بالسماع في رواية مسلم . وقال ابن معين فيه : لا شيء . وقال ابن المديني . كانوا يضعفونه .

أما لفظ الحديث من الطريق الاول فهو « ان بين الرجل و بين الشرك والكفر ترك الصلاة » ومن الطريق الثاني « بين الرجل و بين الشرك والكفر ترك الصلاة » قال النووي في شرحه : هكذا هو في جميع الاصول من صحيح مسلم ـ الشرك والكفر بالواو ـ وفي مخرج أبي عوانة الاسفرايني وأبي نعيم الاصبهاني — أو الكفر باو . ولكل منهما وجه . ومعنى بينه و بين الشرك ترك الصلاة ـ ان الذي يمنع من كفره كونه لم يترك الصلاة فاذا تركها لم يبق بينه و بين الشرك حائل . ثم ان الشرك والكفر قد يطلقان بمعنى واحد وهو الكفر بالله تعالى ، وقد يفرق بينهما فيخص الشرك بعبدة الاوثان وغيرها من المخلوقات مع اعترافهم بالله تعالى ككفار قريش ، فيكون الكفر أعم من الشرك والله أعلم . وذكر قبل ذلك أن الجمهور من السلف والخلف لا يقولون بكفر تارك الصلاة الا اذا جحد وجوبها ، وحملوا مثل هذا الحديث على ما رأيت في تفسيره له من كون تركها قد يفضي الى الكفر أو اذا كان جاحدا . وقال بعض السلف بكفره وروي ذلك عن علي كرم الله وجهه وعن عبد الله بن المبارك واسحق بن راهويه ، قال النووي : وهو رواية عن أحمد ، ووجه لبعض أصحاب الشافعي ، وسياتي جمعنا بين الاقوال

متى قويت روحه ، قويت إرادته واشتدت عزيمته ، فتسهل أمامه كل صعوبة، ويفوز في كل عمل تطلبه الحياة، وهذا كله هو حظ الشارع الحكيم، ممن يخضع لأمره ، ويؤمن بثوابه وعقابه

وقد أفاد جل شأنه بقوله (وانها لكبيرة الا على الخاشعين الذين يظنون انهم ملاقو ربهم) الآية ان الصلاة إنما تكبر وتثقل على من لم يؤمن بالآخرة ، ومن لم يصدق بملاقاة ربه وجزائه ، (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله) وحده

وهاهنا نكتة بليغة في قوله (يظنون) فإنه لم يقل « يوقنون » ليفيد أن الظن — وإن كان لا يغني من الحق شيئا — يكفي حاملا للمرء على العمل احتياطا، ما دام يترجح عنده أنه سيرجع الى الله فيحاسبه ويجازيه. فكأنه تعالى يقول : إن من يعتقد اعتقاد ظن ورجحان[1] لم يصل فيه الى درجة اليقين بالبرهان ، انه سيلاقي ربه فيحاسبه ويجازيه، لم تثقل عليه الصلاة ولا تشق ، بل يقيمها بنشاط على خشوع وراحة

وهذا مبني على سنة الله تعالى في النفس ، متى ترجح عندها الاجر والمنفعة في العمل نشطت اليه ، وهشت له ، وإن كان سخرة أو ضرا ، كبر عليها ، وجزعت منه . واذا كان ذلك حال الظان — لا يترك الصلاة ولا تثقل عليه اقامتها ، بل يحافظ عليها ، ويرتاح بها - فما بالك بالموقن هل يترك الصلاة ، أو يثقل عليه شيء منها ؟ أم ينتظر أوقاتها ، ويقول كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أرحنا بها يا بلال » ؟

ومنه قوله تعالى في سورة الانعام (وهذا كتاب أنزلناه مبارك

(١) الظن الاعتقاد الراجح ، ولا يشترط فيه تصور مقابل مرجوح

مصدق الذي بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾

جعل سبحانه المحافظة على الصلوات شأنا من شؤون أهل الايمان بالآخرة وبالقرآن ، وجعل هذا الإيمان داعيا اليها ، وباعثا عليها ، وذلك أن قوله « وهم على صلاتهم يحافظون » يفيد أن الذي يؤمن باليوم الآخر ويصدق بأن فيه الجزاء الأوفى — الطيب للطيب ، والخبيث للخبيث ، لا بد أن يصدق بالقرآن ، ولا بد أن يكون على تلك الحالة ، ومتصفا بتلك الصفة — المحافظة على الصلاة

واختيار التعبير بالفعل « يحافظون » على الوصف « محافظون » يدل على الدوام والاستمرار . أي أنه لا ينفك عنها في وقت من الأوقات . والآية وما قبلها نص في أن الإيمان بالآخرة يستلزم الإيمان بالقرآن ، والإيمان به يستلزم اقامة الصلاة، ومفهومه أن من لم يحافظ عليها كافر، وعلى هذا يكون القرآن قد بين ان الصلاة هي الفارق بين المؤمن والكافر. ويجلي لك هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم « بين الكفر والإيمان ترك الصلاة» رواه مسلم وابو داود والترمذي ، وفي رواية « بين العبد و بين الكفر ترك الصلاة» وقوله (ص) « العهد الذي بيننا و بينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» رواه الترمذي والنسائي وصححه، فتأمل هذه التصريحات في هذه الاحاديث، وانظر التحقيق من النبي (ص) بلفظة « فقد كفر» وكلها في معنى الآيات التي سمعت

وأزيدك أن النبي (ص) قال « من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله» رواه البخاري والنسائي، ومن المعلوم في الشرع أن الذي يحبط

عمله هو الكافر، قال تعالى في سورة المائدة (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله) فاذا كان تارك العصر كافرا ، فما ظنك بتارك جميع الصلوات ؟ ولما جاء وفد ثقيف الى النبي صلى الله عليه وسلم ليسلموا ، قالوا : اسمح لنا في أن ندع الصلاة ، وألا نكسر أصنامنا بأيدينا . فقال صلى الله عليه وسلم « أما كسر أصنامكم بأيديكم فقد عفوناكم منه ، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه » وأبى صلى الله عليه وسلم أن يقبل منهم الاسلام الا بالصلاة ، وأنت ترى أن في قوله « لا خير في دين لا صلاة فيه » ان تارك الصلاة لا يعتد بتدينه — وعلى هذا قد درج الصحابة رضوان الله عليهم. فقد روى الترمذي عن عبد الله بن شقيق [1] أنه قال : كان أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم لا يرون شيئا من الاعمال تركه كفرا الا الصلاة ، وذلك لما قدمنا من أن الصلاة أصل ، فالمحافظة عليها تستلزم المحافظة على كل الدين

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب الى عماله: ان أهم أمركم عندي الصلاة ، من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها كان لما سواها أشد إضاعة . رواه مالك وغيره

س ان ما تقدم من الأدلة كله صريح في أن تارك الصلاة غير مسلم مطلقا ، ولا أراني أشك بعدُ في ذلك ، اذاً ما معنى قول بعضهم : من

---

(١) المنار: قد كان عبد الله هذا ناصبيا يبغض عليا عليه السلام وقد صح الحديث عن مسلم أنه لا يحبه الا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق. فاخذ الكاتب بظواهر مثل هذا الحديث يقتضي ألا يحتج بما يرويه عبد الله بن شقيق ولا يعتد بإيمانه ، وما تقدم عن النووي يفيد أن جمهور الصحابة لا يعدون مجرد ترك الصلاة كفرا بمعنى الردة عن الاسلام، وحسب التارك لها انهم اختلفوا في ايمانه، وسيأتي الجمع بين الاقوال في ذلك

تركها كسلا لا يكفر . وما معنى التفريق بين من يتركها بكسل أو غيره؟

ج لا معنى لذلك الا مخالفة النصوص الصريحة ، وعدم تدبر القرآن والسنة الصحيحة[1] وما دمنا نقول كما قال القرآن : ان المحافظة على الصلوات من شأن المؤمن ، ومن صفاته الملازمة له ، فالمجرد منها ، المتخلي عنها ، غير مؤمن ضرورة ، لكونه عري من صفة الإيمان الفعلية. على أن الله سبحانه قد صرح بأن الكسل في الصلاة من شأن المنافقين وصفاتهم، فقال عز شأنه في سورة النساء (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى)

وليس المنافقون بأقل من الكافرين ، قال تعالى في سورة براءة (ان المنافقين هم الفاسقون —أي الخارجون عن الدين — وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم)

قرن الله تعالى في هذه الآية المنافقين مع الكافرين ، ووعد الجميع معاً الخلود في جهنم والعذاب الدائم ، بل قد حطهم عنهم فقال في سورة النساء (ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا)

الى هنا انتهينا من أدلة الصلاة وحدها

فاليك ما جاء في الزكاة أختها

قال الله تعالى في سورة فصلت (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى اليّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه، وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) فتأمل كيف جعل منع الزكاة من صفات

(١) المنار: هذا تهور عظيم والصواب أن سببه تعارض النصوص كما سنبينه بعد

المشركين وشأنهم ، وانما كان منعها من شأن المشرك بربه لأنه يؤثر المال على حبه، وقد قرن منع الزكاة بالكفر بالآخرة، لانهم لو كانوا واثقين بخبر الله ، ومؤمنين بجزائه ، لأنفقوا من مالهم رغبة في ثوابه ، وخوفا من الكيّ بناره . قال تعالى (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون)

(وقال) جل ثناؤه في سورة آل عمران (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) علّق نيل البر على الانفاق مما يحب ، فمن لم ينفق مما يحب ، لا حظ له من البر ، والبر نعيم الله ورضوانه . فمانع الزكاة — وهي أول مقصود بالإنفاق — محروم من نعيم الله ورضوانه كافر (١)

ولعلك تلاحظ الحكمة في تقييده الإنفاق بأن يكون المنفَق منه محبوبا عند المنفِق، إذ المرء لو أنفق لله ما يكره ، لا يكون انفاقه له بسبب حبه إياه ، بل يعتبر غرما ومظلمة ، أو شيئا كريها رغب الخلاص منه بهذه الطريقة رياء ، أما لو أنفق من شيء محبوب له ، يكون حبه الله قد رجح في نفسه على حبه المال ، فدعاه الى بذل المال على حبه إياه ، وهناك يظهر الفضل بالتوحيد والاخلاص

(وقال) تعالى في سورة الأعراف (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة) بين أن رحمته واسعة، ولكنها لا تكتب لكل الناس ، بل كتابها وايجابها خاص بالاتقياء المعطين الزكاة ، فالذي يمنع الزكاة، تمنع كتابة الرحمة له، فلا يكون له حظ فيها ، بل يكون بعيداً عنها ، ومحروما منها (لها بقية)

(١) المنار: الآية لا تدل على ذلك فالعمل بها يتم بما دون الزكاة الشرعية

مدرسة دار الدعوة والارشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

١٠

سموم الميكروبات

تحدث بنمو كل نوع من الميكروبات مواد عديدة في السائل الذي تربى فيه. ومن أضرها مواد زلالية ومواد آزوتية تشبه المواد الآزوتية النباتيـة المسماة [Alkaloids] أي الشبيهة بالقلوية كمادة الاستركنين، وهي مواد تفتك بالاحياء فتكا ذريعا مهما تكن قليلة. وهذه المواد تتولد بطريقتين: الاولى أنها تتولد في نفس جسم الميكروب ثم تخرج منه شيئا فشيئا، والثانية أنها تتولد في السائل نفسه وذلك بافراز الميكروب مادة (خميرة) تشبه الخمائر - المذكورة في الجزء الاول- وهذه الخميرة لها تأثير كيماوي مخصوص في المواد المحيطة بها، فتحدث فيها تركيبا وتحليلا ينشأ منه مواد متنوعة

ومن الميكروبات ما يبقى جل سمه في جسمه ولا يخرج الا اذا استخلص منه ببعض الطرق العلمية، وذلك مثل ميكروب الطاعون والكوليرا والحمى التيفودية، ويسمى مثل هذا السم « بالسم الكامن » [Endotoxin] وفي الجسم المريض تنحل بعض هذه الميكروبات فتخرج منها سمومها وتسري فيه فتحدث المرض

ومن المواد التي تتولد في السائل الذي يربى فيه الميكروب مايقتل الميكروب نفسه، فانها قد تولد حامض الفنيك أو الغول (الكحول) أو الخل الى غير ذلك من المواد التي تستعمل مطهرات لقتل الميكروبات

الميكروبات والبيئة

تنقسم الميكروبات — باعتبار ما تعيش فيه — الى ثلاثة أقسام : فمنها ما لا ينمو عادة الا في الحي [1] ومنها ما لا ينمو الا في الميت، ومنها ما يمكنه أن ينمو في الاثنين

[1]) هذا لا ينافي أن ا كثرها يمكن تربيته تربية صناعية على أشياء غير حية كالمرق - كما تقدم -

معاء، فمثال الاول ميكروب الحمى الراجعة ، ومثال الثاني بعض ميكروبات الحمى النفاسية وهي التي تعيش في الدم والسوائل المتعفنة التي تتخلف أحيانا في الرحم عقب الولادة

ومن هذا النوع الميكروبات التي تحدث تحليل جثث الموتى والتي تفسد اللبن فيخثر ، ومنها ما يحول البولينا الى كربونات النوشاد والخمر الى خل . ولهذه الميكروبات فائدة كبرى في العالم فانها تحول الاجسام المركبة الى بسائط فتعود الى عالمي الحيوان والنبات فينتفعان بها. ولذلك وجد العلماء طريقة عظيمة لتحليل المواد البرازية ، فانها تلقى في مستودعات مخصوصة فيتسلط عليها في أولاها الميكروبات التي لا تنمو في الاكسجين، وفي الثانية الميكروبات التي تنمو فيه ، فبذلك تتحلل جميع المواد البرازية وتستحيل الى ماء وغاز ثاني أكسيد الفحم وأملاح النيترات

وهذه الاشياء كلها صالحة للنبات فيسقى بها الزرع وفيه تتحول مرة أخرى الى مواد مضاعفة التركيب ضرورية للحيوان والنبات، فكأن نظام هذا العالم موقوف على عمل الميكروبات والنبات ، ولولاهما لفسد وبطل

فالنباتات الدنيئة (البكتيريا) تركب قليلا وتحلل كثيرا ، والنباتات الكبيرة تركب كثيرا وتحلل قليلا كتحليلها بعض غازات الهواء، فعلى النبات مدار الحياة

ومثال الميكروب الذي يعيش عادة في الحي والميت باسيل التيتانوس، وكذلك باسيل الدفثيريا (والتي منها الخناق) فان هذين الميكروبين يعيشان كثيرا في الطين،وقد ينتقلان منه الى الانسان ، الا ان ميكروب التيتانوس لايعيش في جسم الانسان بعد ظهور أعراض هذا المرض الا قليلا . ومن طرق وصول ميكروب الدفثيريا الى الانسان أنه يكون مختلطا بالطين فاذا زادت المياه التي في جوف الارض كما يحصل عند فيضان الانهار ضغطت على الهواء الموجود خلال الطين فيندفع منها الى جوّ المدن حاملا لهذا الميكروب الخبيث فيصاب كثيرون بهذا المرض

والميكروبات لا تموت مالم يقتلها شيء ، وأكثرها مقاومة للطوارئ ما كان له حبيبات ، وهذه الحبيبات نفسها تعيش مدة طويلة من الشهور أو السنين حتى في الاحوال غير المناسبة للحياة كالجفاف والبرد . ولاعجب في ذلك ، فقد عرف

أن بعض حبوب النباتات الكبيرة عاش نحو مئة سنة

ولا يعلم بالتحقيق أن الحبوب يمكنها أن تعيش (أعني تبقى حية) اكثر من ذلك وما قيل من أن حبوب بعض الهياكل أو القبور القديمة نبت بعد ألوف من السنين فهو كذب محض، وقد ثبت أن حبوب القمح تعيش نحو سبع سنين على الاكثر، وعليه فالقمح الذي خزنه المصريون في زمن يوسف عليه السلام كان يمكن انباته في نهاية السنة السابعة. وأكثر الميكروبات التي لا حبيبات لها تقتل عادة بحرارة ٦٥ سنتغراد في نحو نصف ساعة

وميكروبات التعفن تقتل الميكروبات المرضية عادة، وهذه الميكروبات التعفنية تكون في الغالب من النوع الباسيلي (المستطيل) فاذا أصيب انسان بالتسمم الصديدي الناشئ على الاكثر من البذور السلسلية ومات فأراد طبيب أن يشرح جسمه عقب الوفاة مباشرة كان من أشد الخطر على هذا الطبيب أن يُجرح ويتلقح جسمه بشيء من الجثة، وأما اذا تركت هذه الجثة زمنا حتى تتعفن فان ميكروبات المرض التي فيها تقتلها ميكروبات التعفن شيئا فشيئا حتى تزول من الجثة، وحينئذ لا يكون في تشريحها خطر على حياة الطبيب

أبواب دخول الميكروبات الى الجسم

لدخول الميكروبات في الجسم أبواب عديدة، وهي الرئتان (لمثل ميكروب الحمى القرمزية) والجهاز الهضمي (لمثل ميكروب الحمى التيفودية) والجلد (لمثل الزهري) والاغشية المخاطية كاغشية اعضاء التناسل أو العين وغيرها (لمثل السيلان والدفثيريا)

ولا يشترط أن يكون سطح الجسم أو الأغشية المخاطية مجروحة، فقد يدخل الميكروب من الاماكن ذات الجلدة الرقيقة أو من مسامها، ولكن الجرح أو السحج مما يسهل دخوله كثيرا كما هو ظاهر

فاذا دخل الميكروب الجسم من هذه المنافذ فمنه مايبقى في مكان دخوله، ومنه مايصل الى الدم أو المادة اللمفاوية ويدور معها حيث دارت. وفي كلتا الحالتين يولد الميكروب سما زعافا وهو الذي يقتل الحيوانات ويحدث فيها جميع الحميات،

الان بعض هذه الميكروبات يحدث أمراضا ليست الحمى شرطا فيها، مثل مرض (الكُزاز)

فمثال ما يدور في الدم ميكروب (التسمم الصديدي وميكروب الحمى الراجعة)

ومثال الذي لا يدور في الدم (التيتانوس والدفتيريا) فان ميكروبهما يبقى على الاكثر في مكان التلقيح الا انه بعد الموت قد ينفذ الى جميع أجزاء الجثة ، واذا نفذ الى الدم في أثناء الحياة التهمته كريات الدم البيضاء أو بقي في بعض الاعضاء التي تعتقله فيها وتقتله غالبا بخلاياها ، كالكبد والطحال

زمن التفريخ

اذا دخل الجسم أي نوع من الميكروبات لا يحدث المرض فيه في الحال ، بل لا بد من أن يمكث زمنا يتراوح بين يوم أو عدة أسابيع أو عدة سنين (كما في داء الكَلَب والجذام) فانهما أطول الامراض مدة[1] وفي هذا الزمن يتكاثر الميكروب في الجسم ويحمل عليه بسمومه فاذا بلغت درجة مخصوصة ابتدأ المرض في الظهور . فمن الناس من يختلط مثلا بمصاب بالجدري ولا يظهر فيه المرض إلا بعد نحو ١٢ يوما عادة . وهذا الزمن يختلف باختلاف الامراض فان لكل منها زمنا مخصوصا ، ويسمى هذا الزمن بزمن التفريخ أو الحضانة

وقد عرفت ميكروبات كثير من الامراض ، ولبعضها ميكروبات لم تعرف الى الآن (كالحصبة) فان الدلائل تدل على أن لها ميكروبا لم يكتشف الى الآن

وهذه الامراض التي عرفت ميكروباتها منها ماله ميكروب مخصوص كمرض الدرن ومرض الحمى التيفودية . ومنها ما يشترك فيه عدة ميكروبات كمرض (التهاب الغشاء المبطن للقلب) و (الخراجات) فإنهما يحدثان من ميكروبات مختلفة

امارات اختصاص الميكروب المعين بالمرض المعين

يدل على اختصاص بعض الميكروبات ببعض الامراض أمور كثيرة منها :

(١) وجود الميكروب دائما في هذا المرض (٢) اذا حقن حيوان بهذا الميكروب وكان مستعدا للمرض حصل له ، ووجد هذا الميكروب المخصوص في جسمه

---

(١) قد تمتد مدة التفريخ في الجذام الى عشر سنين وفي الكلب الى عشرين سنة

(٣) عدم وجود هذا الميكروب في الجسم السليم ، أو المريض بغير هذا المرض ؛ ويستثنى من ذلك بعض الميكروبات كالبزور المزدوجة المسببة للالتهاب الرئوي ، فانها توجد في فم الصحيح وأنفه ، وتوجد أيضا في غير الالتهاب الرئوي كما في التهاب الشغاف (الغشاء المحيط بالقلب الذي يسمونه الآن بالتامور) وكذلك تستثنى مسألة حاملي الامراض التي سنفصلها

مصادر الميكروبات

تتصل الميكروبات بالانسان من عدة جهات (١) الهواء (٢) الشراب (٣) الطعام (٤) التراب (٥) سائر أجسام الاحياء والجمادات كالملابس مثلا ، وسيأتي ان شاء الله في باب الحميات بيان طرق وصول الامراض المختلفة الى الانسان تفصيلا

شرط تأثير الميكروبات والوقاية منها

ما كل أحد يتصل به ميكروب مرض يصاب بذلك المرض ، بل هناك وقاية للحيوانات من فتك هذه الميكروبات بها دفعة واحدة ، ولولا ذلك لهلكت الاحياء في زمن قصير

وهذه الوقاية (وتسمى أيضا المناعة) منها ما هو فطري (أي يولد بها الانسان) ومنها ما هو مكتسب. أما المناعة الفطرية فقد تكون خاصة بالجنس أو النوع كبعض الامراض فالجذام مثلا خاص بالانسان لا يصيب أي حيوان آخر، وبعض الامراض يصيب بعض الانواع دون بعض، كالحمى الصفراء فانها لا تصيب السود الا قليلا، وبعض الامراض تصيب بعض البيوت (الاسر) أو الافراد دون البعض الآخر، وكل ذلك لاسباب لا نعلمها على وجه التحقيق . وخير الوقاية ما كان فطريا:

وقاية الله أغنت عن مضاعفة * من الدروع وعن عال من الأُطُم

ومما يهيئ الجسم للعدوى التعب والجوع والبرد وكل ما ينهك القوى والادمان على الخمور، الا أن بعض الاشخاص قد يكونون سليمين من كل عيب ومع ذلك يصابون ببعض الامراض، فمثلا قد نجد أن أسمن الاطفال وأحسنهم صحة يصابون بالقرمزية وتفتك بهم كثيرا بينما الاطفال الآخرون الضعاف لا يصابون بها أو اذا أصيبوا كانت اصابتهم خفيفة

أما المناعة المكتسبة وما في معناها كالعارضة بسبب يشبه الكسبي فتكون بما يأتي:

(١) من الامراض ما اذا أصيب به الانسان مرة واحدة حمى جسمه من الاصابة بهـذا المرض مرة أخرى كالزهري والحصبة والجدري مثلا

(٢) من الامراض ما اذا أصيب به الانسان حمى جسمه من أمراض أخرى تغايره بعض المغايرة ، فمنها جُـدَري البقر إذا أصاب الانسان أو لُقح به حماه من الجدري الانساني، ومنها الحمى الراجعة اذا أصيب بها شخص حمته غالبا من التيفوس ولكنها لاتحميه من نفسها

(٣) بحقن سم الميكروب أو مصل يستخرج من الحيوانات بطريقة مخصوصة كما في مرض الدفثيريا مثلا . وبيان ذلك أن يزرع ميكروب الدفثيريا في سائل (كالمرق) ثم يصفى هذا السائل من الميكروب ويحقن حصان بجزء صغير من هذا السائل المصفى ، ونظرا لوجود سم ميكروب الدفثيريا في السائل المحقون به يصاب الحصان ببعض أعراض مرضية خفيفة تزول سريعا كالحمى وورم في مكان الحقن ، ثم يحقن هذا الحصان بمقدار من السائل أكبر فأكبر حتى يصل الحصان الى حالة لايتأثر معها بهـذا السم المحقون فيـه ؛ وعنـدئذ يتولد في دمه مادة مضادة لسم الدفثيريا . فاذا أخذ دم هذا الحصان واستخرج مصله كان هذا المصل نافعا لإفساد سم الدفثيريا، وإذا حقن به الانسان وقت انتشار هذا المرض حفظه منه لمدة ثلاثة أسابيع عادة؛ وكذلك اذا حقن به المصاب بالدفثيريا نفعه نفعا عظيما وأدى الى شفائه

(٤) حقن ميكروب المرض نفسه ميتا أو بعد اضعاف تأثيره بطرق سيأتي الكلام عليها في داء الكلب ، وتسمى المادة المحقونة « باللقاح » ومن ذلك حقن ميكروب التيفود بعد قتله وحقن ميكروب الكلب بعد إضعافه ، وان كان ميكروب الكلب الى الآن لم يكتشف بمعنى أنه لم يره أحد ولكننا موقنون بوجوده ، فاذا لقح الشخص تولدت في جسمه مادة مضادة لهذا الميكروب المحقون، وبذلك لايكون له تأثير في احداث المرض .وقد يحقن الميكروب بدون اضعافه ولكن بمقادير قليلة جدا تزاد تدريجا

والميكروبات التي تزرع بقصد الحقن منها مايفرز سما في السائل المزروع فيه،

ومنها ما يكون سمه كامنا في جسمه — كما تقدم — وذلك مثل سم ميكروب الطاعون ولا بد من ملاحظة هذه المسألة قبل الحقن، فاذا أريد حقن حصان لاستخراج مصل منه نافع للطاعون فلا يجوز حقنه بالسائل الذي يربى فيه الميكروب فانه يكاد يكون خاليا من السم اذ لا يخرج منه شيء يذكر من جسم الميكروب ، ولذلك يجب أن تستعمل طريقة أخرى للوقاية من الطاعون كأن يحقن الشخص المراد وقايته بنفس السائل بدون تصفيته بعد قتل ميكروب الطاعون الذي فيه، وذلك بتعريضه مدة ساعة لحرارة درجتها ٦٥° بالمقياس المئيني ، ولا يصح قتل الميكروب بالغلي فان ذلك يفسد سمه أو يغيره تغييرا يجعله غير صالح لما نريد

وقد ذهب علماء هذا العلم في تفسير مسألة الوقاية مذاهب عديدة، نذكر هنا أشهرها : —

(١) مذهب القائلين (بنفاد السَّماد) ومعنى ذلك أنهم يقولون ان في جسم الانسان بعض مواد لازمة لحياة الميكروبات تكون كالسماد لها فاذا أصيب الانسان بمرض مّا كالجدري مثلا نفد هذا السماد الضروري لحياة ميكروبه من جسم الانسان ولذلك لايصاب به عادة مرة أخرى . وهذا التفسير أصبح الآن مردودا عند جمهور العلماء

(٢) مذهب القائلين باحتباس سم الميكروب في جسم الانسان، وذلك أن الانسان اذا أصيب بمرض مّا تولد من الميكروب سم يهلك نفس هذا الميكروب ويفسرون بذلك سبب شفائه من المرض ، ويقولون ان هذا السم يبقى في جسمه بعد ذلك ويقتل هذا الميكروب الخاص اذا دخل في جسمه مرة أخرى

(٣) مذهب الفرنسويين، وهم يقولون ان الكريات البيضاء في دم الانسان تقتل الميكروبات لا سيما اذا تعودت أكل نوع مخصوص منها فانها تلتهمه بشراهة قوية

(٤) مذهب الألمانيين ، وهم يقولون : ان الانسان أو الحيوان اذا أصيب بمرض مّا أفرزت منسوجات الجسم المختلفة مواد تجري في دمه، وهذه المواد منها مايهلك الميكروب ومنها مايفسد سمه، كالمادة المتولدة في مصل الحصان التي ذكرت سابقا للوقاية من الدفتيريا أو لشفائها

والحق شائع بين مذهبي الفرنسويين والالمانيين . وأحسن المذاهب مذهب من يجمع بينهما كمذهب بعض علماء الانكليز وغيرهم بأن يقول : ان الانسان اذا أصيب بمرض تولدت في جسمه تلك المواد التي قال بها الألمانيون، وهذه المواد تفسد سم الميكروب أولا وتضعف نفس الميكروب أو تقتله ثانيا حتى تقوى عليه كريات الدم البيضاء فيسهل عليها أن تلتهمه وتهضمه هضما

وقد عرف من عهد قريب أنه يوجد في دم الانسان في الحالة الطبيعية مواد تسمى المواد الإدامية [opsonins] وهذه المواد تؤثر في الميكروبات تأثيرا مخصوصا حتى تجعلها كأنها طعام لذيذ للكريات البيضاء، ولذلك سميت بهذا الاسم تشبيها لها بالادام

ومقدار هذه المواد يختلف باختلاف الاشخاص والاحوال، وكلما كثرت كانت البنية أشد مقاومة للميكروبات . وهي تزيد بالحقن باللقاح وبالمرض اذا قاومته البنية أو غلبته

ومدة الوقاية من الامراض تختلف كثيرا ، فاذا أصيب الانسان بالزهري أو الجدري فقل أن يعود اليه هذا المرض طول حياته واذا أصيب بالدفتيريا أو الالتهاب الرئوي فقد يعاوده المرض

ومن الناس من يجتمع في جسمه مرضان أو أكثر كاجتماع الدفتيريا مع الحمى القرمزية. وكانوا يظنون سابقا ان ذلك غير ممكن ولكن الحقيقة ان الجسم اذا أصيب بمرض كان أكثر تعرضا للامراض الاخرى مما اذا كان سليما وذلك لضعف قوة المقاومة

ومن الامراض ما تورث إما بنفسها كالزهري وإما بالاستعداد لها كالسل، فاذا كان أب الانسان مثلا مصابا بالزهري ولد ابنه مصابا به أيضا ، واذا كان مصابا بالدرن الرئوي (السل) كان ابنه غالبا خاليا من ميكروب هذا الداء ولكن جسمه يكون مستعدا له كل الاستعداد فيصاب به عادة عاجلا أو آجلا

حاملو الامراض

اذا أصيب المرء بمرض كالحمى التيفودية أو كان جسمه ممتنعا عليه لسبب ما

ودخلت الميكروبات في أمعائه فمن الجائز أن تعيش في جوفه أشهرا عديدة أو سنين كثيرة وربما بلغت الخمسين بدون أن يشعر بمرض منها ؛ ولكنه يكون خطر على غيره من المستعدين لهذا الداء، وذلك لان الميكروب يتكاثر في بعض أحشائه كالأمعاء أوالمرارة أو الـكلى والمثانة ويخرج في برازه أو بوله فيصل الى طعام الآخرين أو شرابهم ويوردوهم موارد الهلاك . ويسمي العلماء أمثال هؤلاء الناس [حاملي الامراض] ومنهم من يتكون عنـده حصيات في المرارة بسبب هـذه الميكروبات. ولبعض الامراض الاخرى حاملون كالدفثيريا والـكوليرا وغيرهما

ومن ذلك يعلم أن الحاملين نوعان : (١) الحاملون الاصحاء، وهم الذين لم يصابوا بالمرض مطلقـا وإنما كمن فيهم ميكروبه من غير أذى و(٢) الحاملون الناقهون، وهم الذين يوجد فيهـم الميكروب في أثناء النقاهة من المرض أو بعدها بمدة مديدة ، ويسمون حينئذ بالحاملين المزمنين

الفطر

نوع من الميـكروب له خلايا عديدة وهو أيضا من فصيلة النبات الا نه خال من الـكلوروفيل، ويتركب من خيوط دقيقة جدا مشتبك بعضها بالبعض الآخر بغير نظام ـ وهو الاكثر ـ كميكروب القرع ، أو ببعض نظام ـ كما في الفطر الشعاعي [Ray - fungus]

وبين هذه الخيوط أو عند مركزها توجد حبيبات كالتي ذكرت في الميكروبات السابقة وهي بزور الفطر ومن الفطر ما يصيب الجلد فيحدث فيه أمراضا متنوعة كالقرع ومنه ما يصبب الفم أو الرئتين وغير ذلك مما سيأتي بيانه في باب الامراض المعدية

ولخلو الفطر من الكلوروفيل لا يمكنه تحليل غاز ثاني أكسيد الفحم فهو بذلك يشبه البكتيريا

ضرورة الـكلوروفيل والشمس للحياة

إعلم أن الـكلوروفيل من أوجب ضروريات الحياة في هذا العالم اذ بوجوده في

النبات يمكنه تركيب النشاء الضروري لتكوين مواد أخرى كثيرة مما في النبات وهي ضرورية للحيوانات أيضا ، وذلك بتأثير أشعة الشمس معه في الأجسام . ويحتاج الكلوروفيل لوجود مادة الحديد في الارض وان كانت لا تدخل في تركيبه، بخلاف حمرة الدم فإن الحديد داخل فيها

واذا تأمل الانسان في هذا العالم وجد أن الحياة تفاعل في قوى المادة كتفاعل النار تبعا لسنن مخصوصة، ومن الصعب أن يضع الانسان تعريفا لها جامعا مانعا لدخول مثل النار فيه فانها تشبه الاحياء في احتياجها الى غذاء (وقود) وتخرج منها أجسام كما تخرج إفرازات الاحياء وتنقسم كانقسامها وتتحرك كحركتها الى غير ذلك من الصفات المشتركة إلا أن حركتها لاتدل على شيء من الارادة كحركة بعض الاحياء (راجع صفحة ٤٢ و٤٣ من الجزء الاول)

هذا — وكان المتقدمون يرون أن الشمس ضرورية لتكوّن الكلوروفيل في النبات ولكن وجد أنه قد يتكون بحرارة عالية في الظلام التام ، ومن هذا نرى أن الحرارة أو النار سواء أكانت من الشمس أم من غيرها هي الاصل الاصيل للاحياء قاطبة ويصعب فصل مفهوم أحداهما (الاحياء والنار) عن الاخرى بالدلائل المقنعة

الملائكة

كان القدماء لصغر عقولهم لا يقدرون على الاعتقاد بأن إلهـا واحدا يمكنه تدبير هذا الكون العظيم كله فلهذا أشركوا به تعالى غيره فجعلوا لكل شيء إلهـا وكذلك لكل قوة من قوى هذا الوجود حتى جعلوا لبعض أعمال الانسان آلهة. ومن ذلك مانراه من أساطير اليونان مثلا فان لهم إلها للرياح وآخر للحرب وثالثا للنوم ورابعا للنار وخامسا للزواج الى غير ذلك من الآلهة التي تكاد لا تعد . ولكل من هذه الآلهة اسم باليونانية يعرفه العالمون بتلك اللغة

ولما جاءت الرسل الى الناس كان من أكبر مقاصدهم أن يردوهم عن الشرك الى التوحيد فأبى أكثرهم ترك ماهم عليه، ومن آمن منهم صعب عليه أن يترك جميع هذه الآلهة مرة واحدة، فأخذوا يسمونها بأسماء أخرى ولكنهم بقوا معتقدين بوجودها

وتدبيرها لهذا الكون العظيم ، ومن ذلك مانراه في اسرائيليات اليهود فانهم ذهبوا الى أن لكل شيء في هذا العالم ملكا قائما بتدبيره فقالوا ان للمرض ملكا وكذلك للنار وللماء وللوحوش وللطيور ولسائر الحيوانات وللريح وللرعد وللشجر لكل منها ملك، وللموت ملكان واحد يقبض أرواح القاطنين بأرض اسرائيل وآخر يقبض أرواح غيرهم من الساكنين في سائر البقاع الاخرى. ولم يكفهم ذلك بل زعموا أن الوباء (الطاعون) اذا انتشر فيهم كان بسبب ملاك يرسله الله تعالى اليهم؛ ومن ذلك ماروي في سفر صموئيل الثاني (اصحاح ٢٤ : ١٥ — ١٧) ان داود رأى الملاك الذي ضرب بني اسرائيل بالوباء فمات منهم ٧٠ ألف رجل

وقد دخلت هذه الاسرائيليات في الاسلام مع من دخلوا فيه من أهل الكتاب، وقال المسلمون بملائكة كملائكة اليهود مع أن القرآن الشريف لم يثبت الا وجود القليل منها كما هو معلوم . على أن انا في فهم معنى كلمة «ملك» وجها آخر غير مايفهمه أكثر الناس، وذلك أن هذا اللفظ مشتق من (مألك) بضم اللام وفتحها ، وهو اسم الرسالة ، وقيل مأخوذ من لفظ (لأك) اذا أرسل، وعليه فكلمة ملك تطلق على كل رسول [1]

(١) المنار: ماقاله الكاتب في هذا البحث ضعيف لغة وشرعا ، الا انه مذهب له واصطلاح خالف فيه الناس كما قال ، ولكن له فائدة لأجلها اجزنا نشره ، وهي ان المغرورين بما أصابوا من علم البشر القليل بشؤون الكون يتوهمون أنهم بذلك القليل من القليل قد أحاطوا علما بهذا العالم العظيم وبخالقه أيضا، وان مالا ينطبق على علمهم لايكون صحيحا وان كان ممكنا في نفسه. فمثل هذه التأويلات تقطع ألسنة هؤلاء الواهمين المغرورين دون الاعتراض على النصوص ، أو تزيل شبهاتهم فلا يصعب عليهم الجمع بين علمهم و بين الدين ، ولأن يكون أحدهم متدينا مؤولا ، خير من ان يكون زنديقا معطلا

أما بيان ضعف ماذكر لغة فلان الألفاظ التي صارت حقيقة شرعية أو عرفية لايجوز أن يدخل في مفهومها كل مايناسب الاصل الذي اشتقت منه ، وأما ضعفه شرعا فهو أظهر ، والملائكة من عالم الغيب الذي يجب على كل مؤمن الايمان به كما ورد في خبر الوحي من غير تأويل ولا تحريف ، ويكفي في ذلك كونه ممكنا عقلا ، والايمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الايمان والأول هو الايمان بالله =

فما يرسله الله تعالى الى هذا العالم من المادة أو قواها يصح لغة أن يسمى ملكا بلا نزاع ، فالريح يسمى ملكا أو رسولا من الله ، ولذلك قال تعالى في الرياح (والمرسلات عرفا) والرعد كذلك ملك لانه يرسله الله تعالى لتخويف عباده وهكذا مما في هذا الكون من قوى المادة العظيمة كالمغنطيس والكهرباء ، والى هذا الرأي يشير قوله تعالى (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) فان الواجب أن تكون بين المعطوفات مناسبة فعطف الملائكة على الرعد يشير الى ان المراد منها بعض القوى الطبيعية كالكهرباء التي تحدث الرعد والبرق ولعدم فهم المفسرين هذه المناسبة في هذا العطف زعموا أن للرعد ملكا بالمعنى الذي يفهمونه[1]

ونحن اذا سمعنا قوله تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم) لا يتعين عندنا ان نفهم منه مايفهمون فعزرايل[2] لم يرد ذكر اسمه في القرآن ولا في سنة صحيحة، وانما هو اسم مشهور عند اليهود كانوا يسمون به بعض الناس وله عندهم عدة صيغ أخرى ولذلك لانؤمن بوجوده

والذي أراه أن الميكروبات هي من رسل الله في هذا العالم فيجوز أن تسمى ملائكة ، ومنها مايحدث الامراض المختلفة ، ولا تتحلل جثث جميع الموتى الا

= تعالى ، فهل يدخل في مفهومه هذه الميكروبات التي يصفها الكاتب بالدنيئة الحقيرة ؟ كلا ، وأما ادخالها في مفهوم كلمة الجن فليس ببعيد لغة ولا ممنوع شرعا فقد ورد في الآثار ان الجن أنواع ومنه ماهو من خشاش الارض . ولا مانع في العقل ولا العلم من كون بعض عوالم الغيب من الملائكة موكلا ببعض شؤون الكون وسببا له . وتفصيل هذا البحث لاتتسع له هذه الحاشية

(١) ان قول بعض المفسرين بان الرعد ملك لم يكن مخترعا ومستنبطا بسبب عدم فهم مافهمه الكاتب بل هي رواية نقلها أهل التفسير المأثور الذين ينقلون كل مابلغهم وتلك منة لهم علينا وهم لم يصححوها . وتسبيح الرعد من قبيل تسبيح الجبال في سورة ص وتسبيح كل شيء في سورة بني اسرائيل

(٢) معناه في العبرية من يعينه (يهوه) أي الله

الميكروبات، فاذا انحلت الجثث خرجت منها غازات وعناصر وأجسام متنوعة؛ واذا ذهبنا الى أن الروح عبارة عن جزء من مادة الأثير متحد بالجسم لا نستبعد خروج الروح عند انحلال الجسم بسبب عمل الميكروبات فيه ، وعلى ذلك يحمل قوله تعالى (ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون) الآية

فغمرات الموت من (غمر) ومعناها وجود الجسم في أشد دركات الموت التي تغمره وهو وقت انحلال الجثة، و بسط اليد كناية عما تفعله الميكروبات بها من التحليل والافساد ، وقد ورد مثل هذه العبارة كناية أو مجازا حتى في حق من هو منزه عن الاعضاء والجوارح فقال تعالى (بل يداه مبسوطتان) (وراجع ١٧ : ٣٠) وقوله (اخرجوا أنفسكم) هو ماتقوله الميكروبات بلسان حالها كما قالت السموات والارض (أتينا طائعين) والتعبير عن الميكروبات بضمير العاقل هو سنة القرآن من أوله الى آخره فانه يعبر غالبا عن كل مايعمل عملا من أعمال العقلاء بضميرهم، ومن ذلك قوله تعالى في الكواكب وهي أجرام جامدة (وكل في فلك يسبحون) وقوله في الاصنام (فراغ عليهم ضربا باليمين) لان المشركين كانوا يعتقدون أنها عاقلة مدبرة

ولرفع التناقض الظاهري بين قوله تعالى (ملك الموت) بالافراد و بين قوله تعالى (توفته رسلنا) بالجمع نقول إن المفرد المضاف يعم كقوله تعالى (أحل لكم ليلة الصيام) أي لياليه فكذلك يصح أن يكون المراد من ملك الموت ملائكته أو رسله أي ميكروباته، وهي عادة من النوع الباسيلي — كما تقدم —

ومن أمثلة ذلك قولهم « حلت دودة القطن بأرض فلان » أي دوده فالمراد الجنس لا الفرد

ولا يتوهم أحد مما ذكر أننا ننكر وجود بعض أنواع أخرى من جنود الله التي لا يعلمها الا هو، كلا! ثم كلا! فان الايمان بالملائكة بالمعنى المشهور فرض على المسلم. ومما يجب علينا الايمان به أن للوحي ملكا (جبريل) وهو ليس من قبيل ماذكرناه ، وانما مرادنا أن الميكروبات مما يدخل تحت لفظ الملائكة وليسوا هم كل الملائكة

وآية فاطر التي ورد فيها ذكر الاجنحة للملائكة يمكننا أيضا تطبيقها على

الميكروبات، فقد سبق أن لبعض الميكروبات أهدابا مثنى (كما في ميكروبات الكوليرا) فان لها هدبين أحيانا في طرف منها واذا اجتمع اثنان منها والتصقا معا جاز أن يكون لهما ثلاثة أهداب، ولميكروب الحمى الراجعة أربعة أهداب، وللتيفود أهداب عديدة، يزيد في الخلق ما يشاء، ولا شك أن الجناح يطلق على الجنب واليد والعضد والابط ومنه قوله تعالى (واضمم يدك الى جناحك) فلا مانع من اطلاقها على هذه الاهداب التي هي بمثابة الايدي للميكروبات . على أننا لسنا في حاجة الى تطبيق هذه الآية على الميكروبات ، فانه ليس المراد من كون الميكروبات من الملائكة أن كل ما يسمى ملكا يكون له أجنحة ويكون عاقلا مكرما عند الله بل المراد أن كل ما هو خاضع لأمر الله يرسله متى شاء فهو من ملائكته أي رسله

هذا — ولا يتوهم من قوله تعالى في سورة العنكبوت مثلا عن لسان الملائكة (إنا مهلكو أهل هذه القرية — ونحن أعلم بمن فيها — إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا) الآيات أن القرآن — ككتب الامم الاخرى — ينسب الى الملائكة الاعمال التي تجري في هذا العالم حسب السنن الالهية المعتادة كنسف القرى وقلب الارض بالثورات البركانية ، فان هؤلاء الملائكة كانت وظيفتهم قاصرة على اخبار ابراهيم ولوط بما قدره الله لقوم لوط ولزوجه وعلى ارشاده الى ما يجب عمله حتى ينجو مما سيحل بهم ، وإنما عبروا بتلك العبارات التي يفهم منها أنهم أنفسهم هم الفاعلون لكيت وكيت لانهم رسل الله أرسلوا بأمره وارشاده ليكونوا نائبين عنه تعالى في تبليغ ما أراد للوط فهم متكلمون عن الله وبلسانه جل شأنه، فالمهلك والعالم بحال الناس والمنزل الرجز هو الله الذي أمرهم أن يقولوا عنه ذلك، وقد تقدم لهذه المسألة نظير في قصة مريم وجبريل عليهما السلام (راجع صفحة ١١٨ من الجزء الاول) ولذلك قالت الملائكة للوط (الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين) كما في سورة الحجر مع العلم بأن الله تعالى وحده هو الذي قدر كل شيء وانما هم مبلغون بأمره عن قدره

وعليه فالتقدير في سورة العنكبوت هو هكذا : (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا) تبليغا عنا (إنا مهلكوا أهل هذه القرية . . . . قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها) أي قالوا عنا اننا نعلم بمن فيها (وقالوا لا تخف ولا تحزن انا

منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون* ولقد تركنا فيها آية بينة لقوم يعقلون) فالمتكلم الحقيقي في كل هذه الآيات هو الله تعالى كما هو ظاهر من آخرها ، والملائكة انما يرددون هذه العبارات لتبليغها الى لوط بالنيابة عن الله تعالى ، فافهم ذلك ولا تكن من الجاهلين

الجن

هذا اللفظ مشتق من مادة الجيم والنون، وهذه المادة تفيد معنى الستر ومن ذلك قوله تعالى (فلما جن عليه الليل) أي ستره ، وأجن الشيء في صدره أي أكنه ، والجنين المخلوق مادام في البطن ؛ والجنة السترة والجنان القلب لاستتاره واستجن أي استتر بسترة ، والمجن الترس وكلها تفيد معنى الخفاء والاستتار، فلفظ الجن يطلق أيضا على الميكروباب لاستتارها فهي ملائكة مرسلة من الله ومستترة عن أعين البشر

ومن ذلك حديث (الطاعون وخز أعدائكم من الجن) وفيه إشعار بأن للانسان أعداء من غيرالجن وهو صحيح

ونقول في خلقها إننا اذا لاحظنا أن الميكروبات نباتات والنباتات سابقة لجميع الحيوانات فهي مخلوقة من الارض بعد أن أخذت في البرودة

واذا لاحظنا أن القرآن الشريف نص على أن الله تعالى جعل من الماء كل شيء حي أمكننا أن نقول إنها خلقت باتحاد بعض العناصر مع الماء أو بخاره في وقت كانت الارض فيه شديدة الحرارة أو آخذة في البرودة

ولا يخفى على المطلعين على العلوم الطبيعية أن الراجح أن الارض كانت شعلة من النار مشتقة من الشمس، فاذا قلنا ان هذه النباتات هي أول ما كوّن من الاحياء في الارض فهمنا معنى أنها مخلوقة من النار اذ ليس معنى هذا الخلق أنها خلقت مباشرة منها بل خلقت أطوارا كما أن الانسان لم يخلق مباشرة من التراب بل خلق منه طورا بعد طور . فالحق أن جميع الاحياء مخلوقة من الارض والارض مخلوقة من النار ،

ولما كانت النباتات أول المخلوقات كانت أسبق منا الى طور النار وأقرب بها عهدا منا ، على أنه ليس المراد بكون الميكروبات أو غيرها من الجن أن كل ما يسمى جنا مخلوق من مادة واحدة بل معناه أن كل ذلك من العوالم الخفية المجتنة

العدوى

قبل الكلام في هـذا الموضوع يجب أن نذكر ما ورد من الاحاديث المثبتة للعدوى والنافية لها ثم نجمع بينهما بمـا يفتح الله به علينا

فمن الاحاديث المثبتة للعـدوى :- (قوله ص) « كلم المجذوم وبينك وبينه قدر رمح أو رمحين »[1] وقوله (ص) « ان كان شيء من الداء يعدي فهو هذا » يعني الجذام (وقوله ص) « اتقوا المجذوم كما يتقى الاسـد » وقوله (ص) لرجل مجذوم كان في وفد ثقيف « ارجع فقد بايعناك » وقوله (ص) « إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوا عليه واذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها فرارا منـه » وهذا الحديث يصح أن يعتبر مبدأ يجرى عليه الناس في مسألة الحجر الصحي المسمى باللاتينية (Quarantine) ومعناه الاصلي « أربعون » لان السفن الآتية من البلاد الموبوءة كانت تمنع من الاقتراب من شاطئ البلاد السليمة مدة أربعـين يوما. فالرسول (ص) يريد بهذا الحديث أن يعمل المسلمون أيضا مثل هـذا الحجر على البـلاد الموبوءة فلا يدخلوا فيها لئلا يصابوا ، ولا يخرج الناس منهـا لئلا ينشروا العدوى بين الآخرين

وورد أن أبا عبيدة قال لعمر حينما خاف من طاعون الشام : أفرارا من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم فرارا من قدر الله الى قدر الله. وورد أن النبي (ص) قال « لا يُوَرِدَنّ مُمرض على مُصح » وفي لفظ « لا يوردن ذو عاهة على مصح »

---

(١) يقول الاطباء إن ميكروب السل يندر وجوده في الهواء حول المصاب بعد متر ونصف منه ، وربما كان الامر كذلك في الجذام

ومن الاحاديث النافية للعدوى: — قوله (ص) « لايعدي شيء شيئا فمن أجرب الاول ؟ لا عدوى ولا صفر ، خلق الله كل نفس فكتب حياتها ورزقها ومصائبها » وفي حديث آخر « فمن أعدى الاول؟ » وقوله (ص) « لا عدوى ولا هامة ولا صفر، ولا يحل الممرض على المصح، وليحل المصح حيث شاء — قيل: ولم ذاك ؟ قال — لانه أذى » وقوله «لاعدوى ولا طيرة ولا هامة — قيل: يا رسول الله ! أرأيت البعير يكون به الجرب فيجرب الابل كلها ؟ قال — ذلكم القدر ، فمن أجرب الاول ؟ »

هذا شيء مما ورد في هذه المسألة ؛ وقبل الخوض فيها يجب أن نتذكر ماروي عن أنس أن الرسول قال « أنتم أعلم بأمر دنياكم » فعلى فرض أننا لا يمكننا تأويل الاحاديث النافية للعدوى فالمسلم لا يتحتم عليه أن يأخذ بها — كما سبق في صفحة ١٦٥ من الجزء الاول — فانه أدرى بامور دنياه يأخذ منها ماثبت عنده بالبرهان ، على أننا اذا راجعنا جميع هذه الاحاديث ظهر لنا أن النبي (ص) وأصحابه (رض) كانوا يعتقدون بالعدوى كما هو صريح ماذكرناه منها

أما نفي العدوى فيقال فيه مايأتي : —

العدوى لغة هي انتقال المرض من شخص الى آخر ، وكانت العرب تعتقد أن المرض لا يأتي الا من مريض ولذلك قال (ص) لهم « فمن أعدى الاول ؟ » ولا يخفى أن المرض عرض لا يمكن أن يقوم بذاته وعليه فيستحيل أن ينتقل المرض من شخص الى آخر ، وهذا مما يفهم من قوله (ص) « لاعدوى » أي لاينتقل المرض ، وهذا حق

أما انتقال جراثيمه فهو أمر كانت تجهله العرب فلم يكن حديثهم ولا حديث الرسل فيه . وأيضا قد ينتقل الميكروب ولا يحدث المرض كما سبق في باب الوقاية ، فليس انتقال الميكروب شرطا لحدوث المرض . ومن الميكروبات ما يكون منتشرا في الهواء أو الطين أو غيرهما وهي التي أصابت الاول المذكور في الحديث [1] والميكروبات التي تصل الى الانسان لا تحدث فيه المرض الا اذا كان

(١) المنار : ان من يمرض بوصول الميكروب اليه من الهواء أو الطين =

مستعدا له ، والاستعداد يكون بأسباب وأحوال أرادها الله تعالى وجعل السبب فيها على قدر المسبب وذلك مايسمى بالقدر في الاحاديث ، فالاساس الاصيل في حدوث الامراض هو القدر ولولاه لما فعلت الميكروبات بالجسم شيئا مطلقا . وحكمة ذكر هذه الاحاديث بعد نصه (ص) على وجوب الابتعاد عن المرضى وتعليله ذلك بأنه أذى أي ضرر — هي أن الانسان يجب عليه أن لا يتغالى في أمر العدوى بمجرد اقترابه من المريض فان ذلك يحدث في الجسم وهما ووسوسة قد يؤديان الى ضعف حقيقي في الجسم أو العقل ، ويؤدي الناس الى الامتناع عن تمريض المريض أو معالجته لمجرد الوهم وفي ذلك ما فيه من الضرر

ولذلك تجد الاطباء لا يبالون بالوسوسة في أمر العدوى ويقابلون كل مريض ويقتربون منه أشد القرب بل ويمسكون بأيديهم مافيه الميكروبات ولا يجبنون فان العاقل يجب أن لا يكون جبانا ولولا ذلك لما تقدمت الابحاث العلمية كل هذا التقدم

والخلاصة أن الخوف من العدوى يجب أن يكون في دائرة العقل فلا يجوز أن يفرّط الانسان فيها ولا يجوز أن يُفرط من الرعب منها فان ما قدر الله للانسان من حيث قوة بنيته أو ضعفها ومقاومتها للامراض لا بد أن يكون وإذا فرض أن امرأ كان مستعدا لمرض مّا أتاه المرض من حيث لا يحتسب، فلذا كان الواجب الاعتدال في العدوى كما هو واجب في كل شيء

وعبارة عمر (رض) السابقة في القدر صريحة في وجوب العناية بأوامر الطب وعدم مخالفتها اعتمادا على القدر وهي من أعلى الحكم الفلسفية

ومن مضار شدة الوسوسة في مسألة العدوى ان الموسوَس يمتنع عن ملامسة كل شيء مما في هذا العالم الا بشروط مخصوصة توجب الاعياء والاعنات ، فمثلا

= لا ينطبق عليه تعريف العدوى السابق

فان قيل: ان الميكروب الذي كان في الهواء أو الطين قد انتقل اليهما من شخص مصاب ـ نقول : ومن أعدى أول من أصيب بذلك المرض من البشر أو من الحيوان ؟ لا يمكن الجواب عن هذ السؤال الا بنفي حصر المرض بالعدوى المعروفة وإثبات أن من المرض ما حدث بأسباب أخرى، الا إن امكن اثبات أن أول البشر مثلا كان مصابا بجميع الامراض المعدية ولن يثبت هذا أبدا

يتجنب لمس النقود ونحوها كالاوراق المالية ، ويتجنب محادثة الناس واستنشاق الهواء خوفا من أن يكون مرّ على مرضى أو موتى ، ويتجنب الاكل أو الشرب أو النوم أو الركوب في الحضر والسفر حيث يفعل الناس كل ذلك ، وفيه من الضرر البليغ ما لا يخفى على المفكر

أما الصَّفَر (بفتحتين) فهو ما كانت تزعمه العرب من أن في البطن حية تعض الانسان اذا جاع، واللذع الذي يجده عند الجوع من عضها . وهذه الحية لا وجود لها في الانسان السليم وإنما قد يوجد في البطن أنواع كثيرة من الديدان ، منها نوع يشبه الثعبان الصغير ولكنه غير موجود في جميع أفراد الانسان كما توهموا، وليس هو السبب في الاحساس بالجوع كما كانت تزعم العرب ، وقيل: ان معنى (لا صفر) ان الامور الرديئة لا تقع في صفر دون غيره من الشهور بل هو كغيره ، ولاعتقاد العرب ان هذا الشهر مشؤوم كانوا يحرمونه ويستحلون المحرم بدله

فأنت ترى من كلا التفسيرين أن ليس المراد نفي (صَفَر) مطلقا بل نفي ما كان تعتقده العرب فيه، سواء أكان اعتقادهم أنه دودة في بطن كل امرئ تحدث عنده الجوع أم كان شهرا مشؤما دون الشهور، فكذلك ليس المراد من نفي العدوى نفيها مطلقا بل نفي ما كانت تعتقده العرب فيها من أن الامراض تنتقل بنفسها وأنه يتحتم حصول المرض بمجرد الاقتراب من المريض وأنه لا مرض يحصل الا من مريض سابق، وكلها أوهام باطلة نفاها رسول الله (ص) وهو محق في ذلك كل الحق كما نفى الصفر وكما نفى الهامة

وأما الهامة فهي لغة الرأس وطير من طيور الليل يسمى الصدى وهو ذكر البوم وهو المراد في الحديث، وكانت تزعم العرب أن روح القتيل الذي لا يدرك بثأره تصير هامة وتصيح على قبره — : اسقوني ! اسقوني ! فاذا أدرك بثأره طارت ، وهذا أيضا من الخرافات التي جاء الاسلام بتطهير العقول منها

(استدراك على حياة الميكروبات)

ظهر مما سبق أن العلماء يعتقدون أن الميكروبات خالدة — كما يعبرون — وهم كذلك يعتقدون أن المادة وقواها خالدة . أفليس من أعجب العجب بعد ذلك

أن يعتقدوا أن الانسان غير خالد مع أنه أرقاها ولم تعتن الطبيعة[1] بمخلوق اعتناءها به؟ - كما يقولون - أليس في محافظة الميكروبات على نوعها بالحبيبات (Spores) اشارة لنا الى أن روح الانسان هي كحبيبة الميكروب ؟ وكما أن الميكروب ينتقل بذلك من طور الى طور فكذلك الانسان ينتقل بروحه من طور الى آخر

فهل بعد ذلك يكون في عقيدة البعث شيء من الغرابة أو المنافاة لسنن الكون حتى ينكرها المنكرون ؟ !

الاحياء الطفيلية أو التسلقية

هي التي تتسلق غيرها (أي تعلوه) وتتطفل عليه فتتغذى منه، وهي نباتية وحيوانية ، والنباتية أكثرها فتكا بالانسان وغيره واشدها خطرا

النباتيـة

تشمل بعض أنواع البكتيريا التي يتركب أكثرها من خلية واحدة - كما سبق - والفطر الذي يتركب من خلايا متعددة - وقد تقدم البيان الشافي عنهما - ويلاحظ في هـذه الاحياء النباتية والحيوانية أنها كلما دقت وصغرت كانت أشد خطرا من الكبيرة، ولله في خلقه شؤون فكأنه تعالى قد وضع سره في أصغر خلقه (كما تقول العامة)

الحيوانية ، واشهر انواعها : -

(١) ذوات الخلية الواحدة وتسمى بالافرنجية [Protozoa] وهو لفظ يوناني معناه الحرفي « الحيوانات الاولى » وأشهر أمثلتها جرثومة (الملاريا) - وتسمى بالعربية [النافض] أي ذات الرعدة - وأحد نوعي (الدوسنطاريا) - وتسمى بالعربية [الزحار] أي التي تحدث الزحير - و بعض الحلزونيات كحلزوني الزهري والحمى الراجعة وهذه هي التي تنقسم بالطول - كما قلنا - بخلاف البكتيريا فانها تنقسم بالعرض ، وذلك من أهم مايميز الواحد منهما عن الآخر

(٢) حشرات صغيرة مركبة من خلايا عديدة ، تكوّن حيوانا صغيرا

---

(١) قلنا هنا الطبيعة لان الـكلام مع من لا يعتقد إلا بها

مثل أكروس الجرب والقردان كما في بلاد السودان [Ticks] وهو جمع قُراد وكلاهما من الفصيلة العنكبوتية

(٣) حشرات كبيرة كالقمل والبراغيث والبق

(٤) النَّغف وهو الذي يسميه الاطباء المحدثون [اليرَقات] وهي الدود الذي يخرج من بيض بعض أنواع الذباب ويعيش في جلد الانسان أو أذنيه أو أنفه

(٥) الديدان بأنواعها والاكياس الدودية، ومن أشهر أنواع الديدان : —

(أ) المعوية كالدودة الشريطية

(ب) الدموية كالبلهارزية وهي دودة اكتشفها في مصر الباحث الشهير ثيودور بلهارز [Theodor Bilharz] سنة ١٨٥١ وهي توجد في بعض أوردة الانسان (كالوريد الباب) وهي السبب في مايصيب أكثر المصريين من البول الدموي أو البراز الدموي أيضا

(ج) اللمفاوية كالفلاريا [Filaria] وهي كلمة مأخوذة من اللاتينية ومعناها الخيط، وهذه الدودة هي السبب في البول اللبني وداء الفيل

(د) الصفراوية كالدودة الورقية [Distoma Hepaticum] التي توجد في مرارة البهائم ومجاري المرّة (الصفراء) فيها، وقد توجد في الانسان نادرا، وهي تشبه الورقة الصغيرة شبها تاما وطولها نحو ٢٥ مليمترا وعرضها ١٢ مليمترا وتكون مطوية على نفسها وقد تسد مجرى الصفراء في الانسان فتحدث عنده اليرقان وتنزل الصفراء في بوله

(ه) الجلدية كالعرق المدني وهو نوع من الفلاريا يسكن تحت جلد الانسان خصوصا في أرجله، وهي كثيرة الوجود في سكان المدينة المنورة و بلاد الهند وغينيا (بأفريقية) والسودان

(و) العضلية كدودة الشعرة الحلزونية [Trichina Spiralis] طول الذكر منها ٥ و١ مليمتر وطول الانثى نحو ٣ مليمترات وهذه الدودة تسكن كبارها في أمعاء الانسان وصغارها في عضلاته. وانما ذكرت على حدة لان وجودها في الامعاء لاينشأ عنه ضرر يذكر وكل الضرر من وجود صغارها في العضلات فانها تحدث

ألما شديدا وحمى تشبه الحمى التيفودية، والمرض الناشئ منها شديد الخطر على الحياة. وصغار هذه الدودة التي تسكن العضلات ترى فيها بالعين المجردة كنقط مبيضة صغيرة جدا طولها جزء من ثمانية وسبعين جزءا من البوصة، وهذه النقط هي الديدان وما أحاط بها من الغلف. وتصل هذه الدودة الى الناس من أكل لحم الخنزير . ويكثر وجودها بعض الكثرة في بلاد ألمانية لكثرة أكل أهلها لحم الخنزير. وتصاب الفيران بهذه الدودة أيضا فتنتشر في عضلاتها، والفيران يأكل بعضها البعض الميت فتنتشر الدودة بينها ، وهي تأوى الى زرائب الخنازير وتموت فيها، والخنازير مولعة بأكلها أيضا فينتشر فيها المرض لذلك، ومنها يصل الى الانسان، وسيأتي ان شاء الله البيان الشافي عن جميع هذه الديدان وتواريخ حياتها والامراض التي تنشأ عنها تفصيلا

الامراض التي تنشأ من الاحياء الطفيلية

﴿ مقدمة في الحمى ﴾

ذكرنا في الجزء الاول (صفحة ١١ و١٢) حقيقة الحمى ومنشأها وغير ذلك مما يتعلق بها اجمالا ونريد الآن أن نفصل القول فيها تفصيلا فنقول : —

الحمى هي ارتفاع حرارة الانسان عن الدرجة الطبيعية ، وتكون مصحوبة بأعراض كثيرة تصيب أجزاء الجسم المختلفة واليك تفصيلها :

الجلد — يكون ساخنا وجافا غالبا وقد يندى بالعرق وفي بعض الحميات يكون العرق غزيرا ولون الوجه محمرا . وفي بعضها يظهر في الجلد ما يسمى « بالطفح » وهو أنواع كثيرة ، منها نقط حمراء تزول بالضغط عليها أو نقط ناشئة من نزف تحت الجلد وهذه لاتزول بالضغط ومنها بثور كما في الجدري . والظاهر أن سموم الميكروبات تحدث شللا في الاوعية الدموية للجلد أثناء محاولتها الخروج من البنية أو تحدث تهيجا أو التهابا في الجلد فينشأ من ذلك الشلل أو ذلك التهيج أو الالتهاب أنواع من الطفح تختلف باختلاف كل مرض وسيأتي بيانها . وفي بعض الحميات التي يكثر فيها العرق كالحمى التيفودية والرثية (الروماتزم) تشاهد

حبوب صغيرة جدا فى الجلد ممتلئة بسائل رائق وهي تتكون من ارتفاع الطبقات العليا للبشرة بتراكم العرق تحتها

الجهاز الهضمي — يكون اللسان مغطى في أول الامر بطبقة بيضاء ثم يجف وتزول هذه الطبقة من مقدم اللسان وحوافيه فيرى لونه أحمر، ثم يشتد الجفاف ويسمر لون اللسان ويتشقق وتجتمع عليه وعلى الاسنان والشفتين أوساخ مسودة . ويفقد المصاب شهوة الطعام، وقد يصيبه القيء ويكون الهضم ضعيفا جدا ويمسك البطن ويعظم حجم الطحال

الدورة الدموية — يسرع القلب في ضرباته في أول الامر ثم يضعف، ويصل النبض الى ٨٠ أو ١٢٠ فأكثر في الدقيقة، وتتمدد عضلة القلب بسبب الضعف

التنفس — يسرع أيضا التنفس فيصل الى ٣٠ أو ٤٠ مرة في الدقيقة واذا طالت مدة الحمى تحتقن قاعدتا الرئتين وتكثر النزلات الشعبية أو الرئوية

البول — يقل مقداره ويشتد لونه وترسب فيه أملاح حمراء من حامض البوليك وتكثر البولينا وتكون أملاح الكلوريد (كملح الطعام) قليلة عادة خصوصا في التهاب الرئة، أما في الملاريا فتزيد هذه الاملاح عند ارتفاع الحرارة فيها

الجهاز العصبي — يكثر الصداع في أول الحمى ويشعر الانسان بتكسر في جميع الجسم ويسأم كل عمل جثماني أو عقلي وبعد قليل يصيبه ضعف في قواه العقلية ويميل الى النعاس واذا نام ابتدأ يهذي، وبعد ذلك يكثر الهيجان ويزول النوم ويشتد الهذيان فيكثر المريض من اللغو ويصاب بما يشبه الجنون، وقد يقوم من فراشه ويتشاجر مع ممرضيه أو أطبائه وقد يحاول أن يلقي بنفسه من نافذة المكان، ثم تهمد قواه ويصاب بالغيبوبة فيفقد كل شعوره وقبل تمام الغيبوبة يصاب بارتعاش في حركاته وتقلص في العضلات (يسمى بالاهتزاز الوتري) ويلتقط أشياء وهمية يراها امامه في الهواء . وينتهي الامر به الى أن يتبرز بدون شعوره، ولعدم احساس المثانة بما فيها يتراكم البول حتى تفعم به

(اختلاف الحراة اليومي)

كما أن الحرارة الطبيعية تختلف في المساء عن الصباح[١] كذلك حرارة المحموم تكون غالبا في المساء أعلى منها في الصباح ، وفي بعض الامراض تكون بالعكس فترتفع صباحا وتنخفض مساء . ويسمى ذلك (بالطراز المقلوب) [Typus Inversus] كما في الدرن العام المسمى بالدرن الدخني

ومن الحرارة مايكون دائم الارتفاع بكثير عن الدرجة الطبيعية ومنها مايقرب في الصباح من الدرجة الطبيعية ، ومنها ما تصل في الصباح الى الدرجة الطبيعية أو تحتها ولكن ترتفع في المساء كثيرا . وعند ارتفاعها يزداد التنفس والنبض كما سبق ، وقد تحصل للمحموم قشعريرة لإحساسه بالبرد وان كانت درجة الحرارة في الحقيقة عالية، ولكن لانقباض أوعية الدم التي في الجلد يحصل له هذا الاحساس بالبرد

ومن الحميات ما يزول بالتدريج فتأخذ الحرارة في النقص يوما بعد يوم حتى تصير طبيعية، ومنها ما يزول دفعة واحدة فيشفى الانسان في ظرف ١٢ ساعة أو ٣٦ ساعة ، وعندئذ قد يصاب الانسان بالاسهال أو بالعرق الغزير أو يحصل له الرعاف ويسمى انخفاض الحرارة الفجائي (بالبحران) و بعد انخفاض الحرارة قد تبقى بضعة أيام أقل قليلا من الدرجة الطبيعية

(درجات الحرارة المختلفة)

درجة الهمود أو الهبوط	٥ و ٣٥° أو أقل
الدرجة التي تحت الطبيعية	٤ و ٣٦°
الطبيعية	٥ و ٣٦° الى ٢ و ٣٧°

(١) سبب ذلك أن عمل جميع أعضاء الجسم في هذا الوقت يكون أقل بكثير من عملها في سائر الاوقات . واذا عكس الحال بان اشتغل الناس ليلا تصير الحرارة مرتفعة صباحا منخفضة مساء . ويبتدئ الارتفاع عادة من الساعة السابعة صباحاً الى الثانية بعد الظهر وتبقى على حالتها الى السابعة أو الثامنة مساء ثم تنخفض الى الثانية بعد نصف الليل وتبقى كذلك الى الساعة السابعة صباحا

الحمى الخفيفة ما كانت فوق ٣٧،٥° بقليل
الحمى الشديدة ٣٩° الى ٤٠°
الحمى الأشد ٤٠° الى ٤٣° وفي النادر جدا ٤٤°

فاذا زادت الحرارة على ٤٤ درجة فلا أمل في الحياة غالبا ما لم تستعمل أشد العلاجات الفعالة وهي التبريد السريع بالماء والثلج

(الموت بالحميات)

يحصل الموت — إما من نهك الحمى للقوى بسمها مع طول المرض أو بشدة تسمم الدم في أيام قليلة — أو من زيادة الحرارة زيادة فاحشة كأن تصل الى ٤٤ مثلا، واعلم أن طول التعرض لحرارة فوق ٤٠° سنتجراد يقتل (البروتوبلازم) ويجمده، ويسمى ذلك بتيبس الحرارة [Heat Rigor] (أنظر ص ١٥ من كتاب فسيولوجيا هليبرتون) [Halliburton] — أو من شلل القلب — أو من المضاعفات الرئوية، أو غيرها

ويكون الدم بعد الوفاة رقيقا مسودا، وتقل كرياته الحمراء وتكثر البيضاء، وتشاهد أنزفة نقطية كلدغ البراغيث [Petechiae] أو أكبر في الأغشية المصلية كالبليورا أو الشغاف . أما الاحشاء (الكبد والطحال والكليتان) فتكون كبيرة رخوة ويحصل في خلاياها استحالات[1] حبيبية أو دهنية وكذلك تصاب العضلات بتلف في منسوجها سنتكلم عليه في بحث الحمى التيفودية

(المضاعفات والعواقب)

كثيرا مَّا يطرأ على الانسان في أثناء الحمى بعض أعراض أخرى مرضية تزيد المرض شدة فوق شدة، وقد يصاب الانسان أيضا بعدها ببعض أمراض تكون كالنتيجة لها . ويسمى النوع الاول بالمضاعفات، ومثاله التهاب البريتون في الحمى

(١) وذلك بتحول بروتوبلازم الخلايا الى حبيبات دقيقة جدا، وهي خطوة فى سبيل الاستحالة الى شحم و بذلك يبطل عمل هذه الخلايا

التيفودية. ويسمى النوع الثاني بالعواقب أو العقابيل، كالشلل عقب الدفثيريا فانه يصيب المريض بعد شفائه منها ببضعة أيام أو أسابيع

(معالجة الحمى)

يوضع المريض على فراشه ليستريح راحة تامة في مكان صحي طلق الهواء وتخفف عنه أغطيته وملابسه – بعكس ما يتوهم الجاهلون – نعم ينبغي أن تدفأ الاطراف السفلى خصوصا اذا ضعفت قوى المريض وأصابتها البرودة

والغذاء يكون من السوائل المغذية السهلة الهضم مثل اللبن والمرق[1] وماء الشعير، ولا بأس من طبخها بقليل من دقيق بعض الحبوب أو بمسحوق ناعم من الخبز الاسفنجي الهش. ويحسن تحلية اللبن بالسكر أو عسل النحل المصفى . ويعطى المريض أيضا المياه الغازية فانها نافعة للمعدة . ومن المستحسن أيضا إعطاؤه بعض الاشربة الحلوة كشراب التمر الهندي والسكر مع الليمون وعصير البرتقال المصفى . ويشترط في هذه السوائل الحامضة أن يفصل بينها وبين تعاطي اللبن بنحو ساعتين لئلا يتجبن فيتقايأه المريض. وليشرب من الماء مايريد فانه منعش مغذ غاسل للسموم . واللبن الخاثر (لبن الزبادي) نافع جدا. ومن أسهل الاغذية هضما وأنفعها أن يمزج بياض بيضتين بنحو ربع لتر من ماء راشح ويحلى بعسل النحل النقي ويضاف عليه جزء من عصير الليمون ثم يثلج ويشرب منه المريض . ويجب أن تعطى هذه السوائل المغذية بمقادير صغيرة في فترات قصيرة متعددة كأن يعطى له اللبن قدر ملء خمسة فناجين كل ساعتين مرة، ويكون مقداره في اليوم نحو ثلاثة أرطال (مصرية) أو أربعة . وتبريده بالثلج محمود كثيرا

ولا يتوهمن أحد انه يوجد لأكثر هذه الحميات الآن دواء قاطع لسيرها في

---

(١) يقال أن المرق قد يزيد الاسهال في بعض أحوال الحمى التيفودية. وانما تستعمل السوائل السهلة المغذية في الحميات لضعف المريض عن المضغ والبلع ، ولجفاف الاعضاء وضعفها وقلة العصارات الهاضمة

الحال[1] بل لا بد أن تتم أطوارها ، وانما يمكننا تخفيف وطأتها وإضعاف شدتها لكيلا تفسد الاحشاء ، وكذلك يمكننا ملافاة كثير من أعراضها الخطرة كالتهاب الرئة أو ضعف القلب أو ما ينشأ من بعضها من الانزفة كالنزف المعوي في الحمى التيفودية

ومن الادوية ما يخفض الحرارة مؤقتا بعد استعماله بساعتين أو ثلاث ككبريتات الكينين (من ٢٠ الى ٣٠ قمحة) ولكن استعمال الماء البارد أفضل من جميع هذه الادوية . وطريقة ذلك أن تؤخذ حرارة المريض كل ٣ ساعات مرة وكلما وجدت ٣٩° فأ كثر يوضع في الماء البارد مدة ١٠ دقائق أو ١٥ دقيقة ، ثم يرفع منها و ينشف جيدا و يوضع على فراشه بالراحة . فنجد أن الحرارة صارت طبيعية أو أقل ولكنها لاتلبث الا قليلا وترتفع وكلما عادت عدنا . و يجوز أن يلف المريض مدة ربع ساعة بمثل مُلاءة بعد غمسها في الماء المثلوج .ولا يخيفنا من استعمال الماء البارد الا أشياء قليلة جدا وهي الهمود الشديد والنزف المعوي والمضاعفات الرئوية البالغة ، وظاهر أنه في حال الهمود أو النزف الشديد تكون الحرارة منخفضة واذاً يكون استعمال الماء البارد لا مسوغ له من أول الامر . وفائدة هذا التبريد تحسين الاعراض عموما وتقليل حدوث المضاعفات والاستحالة الحبيبية للاعضاء

واذا أصاب المريض همود في قواه يتعين استعمال المنعشات ، وأقربها الينا القهوة والشاي والخمر ، ولكن يشترط في استعمال الخمر أن لا تعطى بمقادير كبيرة لايام كثيرة والا حدث منها سرعة في النبض وشدة في الهذيان ، ومقدارها المعتاد من ٢ — ٨ أواقي (أو فناجين قهوة) في اليوم

ومن الادوية التي يستعملها الطبيب النافعة في الهمود الديجيتالا[2] والنوشادر والاثير

---

(١) ولكن في مثل الحمى الراجعة تقطع سيرها حقنة ٦٠٦ في ٧ — ٢٠ ساعة، والكينين يزيل حمى الملاريا في الغالب

(٢) هي كلمة لاتينية معناها الاصبع لأن أزهار هذا النبات كالاصابع

والاستركنين، ويستحسن اعطاء شيء من الپپسين مع حامض الهيدروكلوريك[١] لتقوية هضم المعدة لقلة إفراز هذين الجوهرين في الحميات . ويجب عند ابتداء المرض في جميع الحميات أن يعطى مسهلا كالملح الانكليزي أو زيت الخروع لتنظيف القناة الهضمية والجسم

واذا تعذر تغذية المريض في أثناء الغيبوبة غذي بالحقن الشرجية المغذية، وحُقن بالمنبهات وبمحلول ملح الطعام الطبيعي فانه منعش مدر للبول مزيل لبعض سموم الميكروبات . وغرقئ (بياض) البيضة اذا حقن في الشرج مع جرام ملح امتص منه ونفع المريض

(تنبيهان)

(الاول) في جميع الحميات يجب عزل المريض في مكان خاص بحيث لايختلط به أحد من الناس مطلقا الا القائمون بتمريضه أو مداواته ، ولا يسمح لأحد بزيارته ، وذلك واجب طبا وقانونا منعا لانتشار العدوى بين الناس ، وليس فيه مخالفة لآداب الاسلام في عيادة المريض . فقد ذكرنا من الاحاديث ومن أقوال الصحابة كعمر (رض) ما يدل صريحا على أن الانسان اذا خشي العدوى وجب عليه أن يتقي القرب من المريض . على أن الحميات اذا اشتدت أحدثت ذهولا عند المريض بحيث لايقدر على تمييز زائريه أو محادثتهم بالعقل والحكمة . وأيضا فمن آداب عيادة المريض في الاسلام أن لا يطيل العائد المكث عنده حتى لو كان مرضه غير معد لان ذلك قد يكون سببا في مضايقة المريض . وفي الحديث أن قوما شكوا اليه صلى الله عليه وسلم وباء أرضهم فقال «تحولوا فان من القرف التلف»

(١) لذلك كان اللبن الخاثر (اللبن الزبادي) من أفضل الاغذية للمحموم لوجود حامض اللبنيك فيه فيسهل هضمه لذلك ولقلة مائه فلا يضعف العصير المعدي ، وهو مطهر بحموضته ونافع لنزلات المثانة. والميكروبات التي تحدث حموضته مطهرة للامعاء نافعة في أمراضها خصوصا في التهاب الامعاء الغليظة فتمنع نمو الميكروبات فيها . وما تحدثه من حامض اللبنيك بتأثيرها في سكر اللبن أو العنب قاتل للمكروبات أيضا . وسكر العنب هذا يوجد في الامعاء بعدأ كل النشاء أو سكر القصب (راجع صفحة ٨٢ من الجزء الاول)

والقرف مداناة المريض فصريح هذا الحديث يدل على وجوب البعد عن المرضى لاجتناب التلف

(الثاني) الواجب أن يطهر الطعام الذي يعطى للمرضى بالغلي جيدا ثم يبرد بسرعة فان من الميكروبات ما يسمى «محب الحرارة» [Thermophilic] وذلك لانها تتكاثر في حرارة ٦٠° الى ٧٠° سنتجراد فاذا لم يطهر اللبن مثلا بالغلي ولم يبرد سريعا انتهزت هذه الميكروبات فرصة سخونة اللبن اذا ترك يبرد بنفسه فتتكاثر فيه وتحدث مواد تؤذي الصحة . وهذه الميكروبات توجد في الطين والماء وغيرهما ومنهما تصل الى اللبن . فلذا يجب قتلها بالغلي

الخطب الدينية

٢

﴿ شذرة من الخطب النبوية ﴾

مقتبس من مقدمة ديوان خطب القاسمي، والحواشي له الا مازدناه بعد اسم «المنار»

١

أما بعد فان أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة ابراهيم ، وخير السنن سنة محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله تعالى، وأحسن القَصص هذا القرآن ، وخير الامور عوازمها ، وشر الامور محدثاتها ، وأحسن الهدي هدي الانبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير العلم ما نفع ، وخير الهدي ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب . واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتي الصلاة الا دَبرا [1] ومنهم من لا يذكر الله الا هجرا [2] وأعظم الخطايا اللسان الكذوب ،

---

(١) بفتحتين وتسكن الباء وضمها لحن كما في القاموس. أي في آخر وقتها

(٢) بضم فسكون وهو القبيح من الكلام (المنار: ضبطوه بفتح الهاء وفسروه بالترك) والاستثناء منقطع

وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله تعالى ، وخير ماوقر في القلوب اليقين ، والارتيابُ من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والغُلول من جثاء جهنم [١] والكنز كي من النار ، والشعر من مزامير ابليس [٢] والخمر جماع الاثم ، والنساء حبائل الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر المآكل مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقي من شقي في بطن أمه ، وانما يصير أحدكم الى موضع أربع أذرع ، والامر بآخره ، ومِلاك العمل خواتمه ، وشر الروايا روايا الكذب [٣] وكل ماهو آت قريب ، وسباب المؤمن فسوق ، وقتال المؤمن كفر ، واكل لحمه من معصية الله ، [٤] وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتألَّ على الله يكذبه [٥] ومن يغفر يغفر الله له ، ومن يعفُ يعف الله عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ، ومن يتبع السمعة يسمع الله به [٦] ومن يصبر يضعف الله له ، ومن يعص الله يعذبه الله . اللهم اغفر لي ولأمتي ، اللهم اغفر لي ولأمتي ، اللهم اغفر لي ولامتي ، أستغفر الله لي ولكم . — رواه البيهقي عن عقبة بن عامر والسجزي عن أبي الدرداء ، وابن أبي شيبة عن ابن مسعود

٢

أما بعد فان الدنيا خضرة حُلوة وان الله تعالى مستخلفكم فيها فناظر كيف

---

(١) الجثا بضم الجيم وكسرها ثم مثلثة ، ما اجتمع من الحجارة والجذوة (المنار : الجثى الاكوام والمعنى ان مايؤخذ من الغلول وهو الخيانة في الغنيمة إنما هو أكوام من النار أي ليس ربحا بل خسارة لانه سبب لدخول النار ، كقوله تعالى « انما يأكلون في بطونهم نارا » (٢) يعني بالشعر معهودا من أفراده وهو مايتغنى به في محرم أو عليه أو مايدفع اليه (٣) جمع راوية مبالغة في راو ، وهو من يروي الحديث (المنار : رجح ابن الاثير أن الروايا جمع روية وهي التروي والتفكر في الامر . واذا كان الكذب عن روية كان أشد إثما وأشد ضررا) « ٤ » كناية عن اغتيابه وذكره بما يكره وفي تصوير الاغتياب بأكل لحمه ابراز له على أفحش وجه وأشنعه طبعا وعقلا وشرعاً « ٥ » تألى أي أقسم بانه يفعل كذا البتة « ٦ » السمعة الشهرة ونشر الذكر

تعملون . فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فان أول فتنة بني اسرائيل كانت في النساء ؛ الا ان الغضب جمرة توقد في جوف ابن آدم ، ألا ترون الى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه؟ فاذا وجد أحدكم شيئا من ذلك فالارض الارض. ألا ان خير الرجال من كان بطيء الغضب سريع الرضا . وشر الرجال من كان سريع الغضب بطيء الرضا ، فاذا كان الرجل بطيء الغضب بطيء الفيء وسريع الغضب سريع الفيء فانها بها[1] ألا ان خير التجار من كان حسن القضاء حسن الطلب ، وشر التجار من كان سيئ القضاء سيئ الطلب ، فاذا كان الرجل حسن القضاء سيئ الطلب أو كان سيئ القضاء حسن الطلب فانها بها . ألا ان لكل غادر لواءً يوم القيامة بقدر غدرته . ألا واكبر الغدر غدر أمير عامة . ألا لا يمنعن رجلا مهابة الناس أن يتكلم بالحق اذا علمه ، ألا ان أفضل الجهاد كلمة حق عند أمير جائر - رواه الامام أحمد والترمذي عن أبي سعيد -

٣

انما هما اثنتان: الكلام والهدي، فأحسن الكلام كلام الله وأحسن الهدي[2] هدي محمد . ألا وايا كم ومحدثات الامور فان شر الامور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة . ألا لايطولن عليكم الامد فتقسوَ قلوبكم ، ألا ان كل ماهو آت قريب وإنما البعيد ماليس بآت . انما الشقي من شقي في بطن أمه . وانما السعيد من وعظ بغيره . ألا ان قتال المؤمن كفر وسبابه فسوق . ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة . ألا وايا كم والكذب، فان الكذب لا يصلح لا بالجد ولا بالهزل . ولا يعدِ الرجل صبيه ولا يفي له . وان الكذب يهدي الى الفجور وان الفجور يهدي الى النار . وان الصدق يهدي الى البر وان البر يهدي الى الجنة ، وانه ليقال للصادق: صدق و بر. ويقال للكاذب: كذب وفجر. ألا وان العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا - رواه ابن ماجه عن ابن مسعود -

---

(١) المنار : أي واحدة بواحدة جزاء فخير الخصلتين يكفر شرهما

(٢) المنار : الهدي بفتح فسكون السيرة والطريقة

٤

يا أيها الناس كأن الموت على غيرنا فيها كتب ، وكأن الحق على غيرنا وجب، وكأن الذي نشيع من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون ، نأويهم أجداثهم ونأكل تراثهم كأنا مخلدون ، قد نسينا كل واعظة ، وأمنا كل جائحة . طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس . طوبى لمن طاب كسبه ، وصلحت سريرته ، وحسنت علانيته ، واستقامت طريقته . طوبى لمن تواضع لله من غير منقصة ، وأنفق مالا جمعه من غير معصية ، وخالط أهل الفقه والحكمة ، ورحم أهل الذل والمسكنة ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السنة، ولم يعدُ عنها الى البدعة ـ رواه أبو نعيم عن علي —

٥

ان الحمد لله أحمده وأستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له ، ان أحسن الحديث كتاب الله، قد أفلح من زينه الله في قلبه، وأدخله في الاسلام بعد الكفر ، واختاره على من سواه من أحاديث الناس ، انه لأحسن الحديث وأبلغه . أحبوا من أحب الله . أحبوا الله تعالى من قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقسى قلوبكم ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، واتقوه حق تقاته ، واصدقوا الله صالح ماتقولون بأفواهكم،وتحابوا بروح الله عز وجل بينكم، ان الله يغضب أن ينكث عهده، فالسلام عليكم ورحمة الله ـ رواه هناد عن أبي سلمة مرسلا —

﴿ نخب من الخطب النبوية في يوم الجمعة ﴾

كان صلى الله عليه وسلم كثيرا مايخطب فيغير يوم الجمعة لمصلحة تعرض، أو منكر يظهر، أو أمر بصدقة أو اصلاح ، كما هو معروف فيدواوين السنة وخدمتها (؟) فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم

«أما بعد فوالله اني لأُعطي الرجل وادع الرجل. والذي أدع أحب الي من

الذي أعطي . ولكن أعطي أقواما لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع ، وأكل أقواما الى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير ، منهم عمرو بن تغلب » — رواه الامام أحمد والبخاري وغيرهما —

وقوله صلى الله عليه وسلم

« أما بعد فما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله ، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ، وان كان مائة شرط ، قضاء الله أحق ، وشرط الله أوثق ، وانما الولاء لمن أعتق » — رواه الشيخان في صحيحيهما —

وقوله صلى الله عليه وسلم

« أما بعد فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول هذا من عملكم وهذا أهدي لي ، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فينظر هل يهدى له أم لا ؟ فوالذي نفس محمد بيده لا يغل أحدكم منها (أي الزكاة) شيئا الا جاء يوم القيامة يحمله على عنقه » الحديث (رواه الشيخان)

وقوله صلى الله عليه وسلم

« أيها الناس اتقوا الله فوالله لا يظلم مؤمن مؤمنا الا انتقم الله تعالى منه يوم القيامة » — رواه ابن حميد في مسنده —

من خطب الصديق رضي الله عنه

الحمد لله رب العالمين أحمده واستعينه . ونسأله الكرامة فيما بعد الموت . وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله . أرسله بالحق بشيرا ونذيرا ، وسراجا منيرا ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد ضل ضلالا مبينا . أوصيكم بتقوى الله والاعتصام بأمر الله الذي شرع لكم وهداكم به ، فانه جوامع هدى الاسلام بعد كلمة الاخلاص . السمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم فانه من يطع والي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أفلح وأدى الذي عليه من الحق ، واياكم واتباع الهوى . فقد أفلح من حفظ من الهوى والطمع والغضب . واياكم والفخر . وما فخر من خلق من تراب ثم الى التراب يعود ، ثم يأكله الدود ، ثم هو اليوم حي وغدا ميت فاعملوا

يوما بيوم وساعة بساعة . وتوقوا دعاء المظلوم، وعدُّوا أنفسكم في الموتى . واصبروا فان العمل كله بالصبر، واحذروا فالحذر ينفع . واعملوا فالعمل يقبل ، واحذروا ماحذركم الله من عذابه . وسارعوا فيما وعدكم الله من رحمته ، وافهموا تفهموا ، واتقوا توقوا ، وان الله قد بين لكم ما أهلك به من كان قبلكم وما نجا به من نجا قبلكم ، قد بين لكم في كتابه حلاله وحرامه وما يحب من الاعمال وما يكره ، فاني لا آلوكم ونفسي، والله المستعان ولاحول ولا قوة الا بالله . واعلموا انكم ما أخلصتم لله من أعمالكم فربكم اطعتم، وحظكم حفظتم واغتبطتم، وما تطوعتم به فاجعلوه نوافل بين أيديكم، تستوفوا بسلفكم ، وتعطوا جزاءكم حين فقركم وحاجتكم اليها . ثم تفكروا عباد الله في اخوانكم وصحابتكم الذين مضوا قد وردوا على ماقدموا فأقاموا عليه . وأحلوا في الشقاء والسعادة فيما بعد الموت . ان الله ليس له شريك . وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيرا ، ولا يصرف عنه سوءاً، الا بطاعته واتباع أمره . فانه لاخير في خير بعده النار، ولا شر في شر بعده الجنة. أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم وصلوا على نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ورحمة الله و بركاته — رواه ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن موسى بن عقبة —

من خطب الفاروق رضي الله عنه (١)

أما بعد فاني أوصيكم بتقوى الله . الذي يبقى ويفنى ماسواه . الذي بطاعته يكرم أولياءه وبمعصيته يضل أعداءه . فليس لهالك معذرة في فعل ضلالة حسبها هدى ولا في ترك حق حسبه ضلالة. تعلموا القرآن تعرفوا به واعملوا به تكونوا من أهله، فانه لم تبلغ منزلة ذي حق ان يطاع في معصية الله . واعلموا ان بين العبد و بين رزقه حجاباً فان صبر أتاه رزقه ، وان اقتحم هتك الحجاب ولم يدرك فوق رزقه ، فادبوا الخيل وانتضلوا وانتعلوا وتسوكوا وتمعددوا(٢) واياكم واخلاق العجم ومجاورة

(١) خطبها في الجابية قاعدة بلاد حوران في عهده رضي الله عنه واليها ينسب باب الجابية أحد أبواب مدينة دمشق الشام لان المسافر الى الجابية يخرج منه وقد خربت وانتقل عمرانها الى ماجاورها من قرية نوى والشيخ سعد

(٢) المنار : في حاشية الاصل «أي تزيوا بزي معد في تخوشنهم وتقشفهم» والمراد كونوا مثل معدّ بن عدنان فيماذكر فاستعمل التزيي في التشبه والزي في الشبه

الجبارين وأن تجلسوا على مائدة يشرب عليها الخمر وتدخلوا الحمام بغير مئزر . وإياكم والصّغار ان تجعلوه في رقابكم . واعلموا أن سباب المسلم فسوق وقتاله كفر [١] ولا يحل لك أن تهجر أخاك فوق ثلاثة أيام . ومن أتى ساحراً أو كاهناً أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم . لايخلون رجل بامرأة فان الشيطان ثالثهما . ومن ساءته سيئته وسرته حسنته فهو امارة المسلم المؤمن . وشر الامور مبتدعاتها . وإن الاقتصاد في سنة خير من الاجتهاد في بدعة . وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا فانه أهون لحسابكم . وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا . وتزينوا للعرض الاكبر يوم تعرضون لاتخفى منكم خافية . عليكم بهذا القرآن فان فيه نوراً وشفاء . وغيره الشقاء . وقد قضيت الذي عليّ فيما ولاّني الله عز وجل من أموركم ووعظتكم نصحاً لكم . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم — رواه الحاكم وابن عساكر —

من خطب ذي النورين رضي الله عنه

أيها الناس اتقوا الله فان تقوى الله غنم . وان أكيس الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت [٢] واكتسب من نور الله نوراً لظلمة القبر . وليخش عبد أن يحشره الله أعمى وقد كان بصيراً . وقد يكفي الحكيم من جوامع الكلم . والاصم ينادي من مكان بعيد . واعلم ان من كان الله معه لم يخف شيئاً ومن كان الله عليه فمن يرجو بعده — رواه ابن عساكر —

من خطب الامام أبي الحسن علي كرم الله وجهه

أما بعد فان المضمار اليوم وغدا السباق . الا وانكم في أيام عمل . من ورائه أجل . فمن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خيب عمله . الا فاعملوا لله في الرغبة كما تعملون له في الرهبة . ألاَ واني لم أرَ كالجنة نام طالبها . ولم أرَ كالنار نام هاربها . الا وان من لم ينفعه الحق ضره الباطل . ومن لم يستقم به الهدى

(١) المنار : هذا ومابعده بضعة جمل مقتبسة من الاحاديث المرفوعة الى النبي (ص)

(٢) المنار : مقتبس من حديث مرفوع رواه احمد والترمذي وابن ماجه

جار به الضلال . الا وانكم قد أمرتم بالظعن ودُللتم على الزاد . الا أيها الناس انما الدنيا عرض حاضر، يأ كل منها البر والفاجر. وان الآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قادر . الا ان الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء . والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم . أيها الناس أحسنوا في عمركم تحفظوا في عقبكم ، فان الله تبارك وتعالى وعد جنته من أطاعه وأوعد ناره من عصاه . انها نار لايهدأ زفيرها . ولا يفك أسيرها . حرها شديد . وقعرها بعيد . وماؤها صديد . وان اخوف ماأخاف عليكم اتباع الهوى وطول الامل . الا لايستحي الرجل ان يتعلم ومن يُسئل عما لايعلم ان يقول لااعلم — رواه ابن عساكر —

ومن خطبه كرم الله وجهه

حمدت وعظمت من عظمت منته . وسبغت نعمته . وسبقت غضبه رحمته . وتمت كلمته . ونفذت مشيئته . حمد عبد مقرّ بربوبيته . متخضع لعبوديته . ويستعينه ويسترشده ويستهديه ويؤمن به ويتوكل عليه. وشهدت له تشهد مخلص موقن . وبعزته مؤمن . ووحدت له توحيد عبد مذعن. ليس له شريك في ملكه . ولم يكن له وليّ في صنعه . جلّ عن مشير ووزير . وعن عون معين ونظير . وشهدت ببعث محمد عبده ورسوله . وصفيه ونبيه وحبيبه وخليله . صلى الله عليه صلاة تحظيه . وتزلفه وتعليه . وتقر به وتدنيه . بعثه في خير عصر . وحين فترة وكفر . رحمة منه لعبيده . ومنة لمزيده . ختم به نبوته . ووضح به حجته . فوعظ ونصح . وبلغ وكدح . عليه رحمة وتسليم . وبركة وتكريم .

وصيتكم معشر من حضرني بوصية ربكم . وذكرتكم سنة نبيكم . فعليكم برهبة تسكن قلوبكم . وخشية تذري دموعكم . وتقاة تنجيكم . قبل يوم يذهلكم ويبليكم . يوم يفوز فيه من ثقل وزن حسنته . وخف وزن سيئته . ولتكن مسئلتكم وتملقكم مسئلة ذل وخضوع ، وشكر وخشوع . وتوبة ونزوع . وندم ورجوع . وليغتنم كل مغتنم منكم صحته قبل سقمه . وشبيبته قبل هرمه وكبره . وسعته قبل فقره . وفرغته قبل شغله . قبل أن تجذب نفسه . ويحفر رمسه . وينفخ في الصور . ويدعى للنشور . في موقف مهيل . ومشهد جليل . بين يدي ملك

عظيم . بكل صغيرة وكبيرة عليم . حينئذ يلجمه عرقه فعبرته غير مرحومه . وضرعته غير مسموعه . وحجته غيرمقبوله . فورد جهنم بكرب وشدة . ندم حيث لم ينفعه ندمه . نعوذ برب قدير من شر كل مصير ، ونسأله عفو من رضي عنه . ومغفرة من قبل منه . فمن زحزح عن تعذيب ربه جعل في جنة بقربه . وخلد في قصور مشيدة . وملك حور عين وحفدة . وطيف عليه بكؤس . وسكن حظيرة قدس في فردوس . وتقلب فى نعيم . وسقي من تسنيم . هذه منزلة من خشي ربه . وحذر نفسه ، وتلك عقوبة من عصى منشئه . وسولت له نفسه معصيته . لهو قول فصل . وحكم عدل . خير قصص قص . ووعد نص . تنزيل من حكيم حميد . نزل به روح قدس على قلب نبي مهتد رشيد . صلت عليه سفرة . مكرمون بررة . يتضرع متضرعكم . ويبتهل مبتهلكم . واستغفر رب كل مربوب لي ولكم . ثم قرأ (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) — رواه الخفاف فى مشيخته[1]

مختارات من خطب القاسمي

﴿ خطبة في الحذر من التطير والتشاؤم يخطب بها اول صفر ﴾

الحمد لله الذي بسط لنا موائد كرمه وافضاله ، وعمنا بجوده وغمرنا بنواله ، فسبحانه من إله تاهت العقول في سبحات جلاله . أحمده وأشكره ، وأتوب اليه وأستغفره ، وأسأله أن يجعلنا ممن وفقه لصالح أعماله ، وأشهد أن لااله الا الله وحده لاشريك له شهادة موحد له في غده وآصاله ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله نبي ميز حرام الشرع من حلاله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة تمنح قائلها الفوز في مآله ، وسلم تسليما .

أما بعد أيها الناس فاتقوا الله واعلموا أن جميع ما يتقلب فيه الانسان طول

(١) المنار : الظاهر ان هذه الخطبة موضوعة على أمير المؤمنين كرم الله وجهه فأين هذا السجع المتكلف من خطبه التي تعد في أعلى مراتب البلاغة بعد كلام الله ورسوله

عمره، انما هو بمحض قضاء الله وقدره. ألا وانه قد دخل عليكم شهر مباركة أوقاته، ميمونة ساعاته، لا ينسب اليه شر ولا ضير، بل هو صفر الخير، وقد كانت الجاهلية يتشاءمون به وهو مبارك، ويتطيرون منه وليس الله جل جلاله في مشيئته وتقديره بمشارك، وانما هو من شركهم وشرهم، وسخافة عقولهم ومحض كفرهم، وكيف ينسب فعل الى شهر أو زمان، والله خالق الزمان والمكان، وقد بطل التطير والتشاؤم ولم يبق له أثر، بما رواه البخاري في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد البشر، انه قال « لاعدوى ولا طيرة ولا صفر » وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « اذا ظننتم فلا تحققوا، واذا حسدتم فلا تبغوا، واذا تطيرتم فامضوا، وعلى الله فتوكلوا » وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ان سبعين الفاً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب ـ فسئل صلى الله عليه وسلم عنهم فقال ـ هم الذين لايكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون »[1] وقال صلى الله عليه وسلم « الطيرة شرك » فمن اعتقد ما يتشاءم به سببا مؤثرا في حصول المكروه فقد أشرك، ولعقيدة التوحيد والموحدين ترك، اذ لافاعل الا الله، ولا مؤثر في الكائنات سواه، وانما الزمان ليال وأيام، تختلف بتقدير العزيز العلام، فلا شؤم لصفر ولا جمود لجمادى ولا بلاء، ولا نحس ليوم أربعاء، بل ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، قال تعالى (ماأصاب من مصيبة فباذن الله) وقال جل جلاله (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون)

﴿ خطبة لاول ربيع في وجوب تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وعلائم محبته ﴾

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره

(١) الخطبة من أولها الى هنا من ديوان جد جدتي لابي الامام الكبير والولي الشهير السيد محمد الدسوقي نسبا الدمشقي امام جامع حسان وخطيبه المتوفى ١٢٤١ بمنزلة هدية قبيل المدينة المنورة ذهابا الى الحجاز وقد بسطت ترجمته في تاريخي « تعطير المشام في مآثر دمشق الشام »

المشركون، ومنَّ على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين. وأشهد أن لا إله الا الله وحده لاشريك له في جلال إلهيته، ولا مثيل له في عز ربوبيته، ولا كفوء له في أحديته، ولا كيف له في صفات مجده وصمديته، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي دعا الى ثوابه وبشر، وحذر من عقابه وأنذر، وأوضح سبيل الرشاد، وجاهد فيه حق الجهاد، حتى ظهر دين الله وعلت كلمته، وشملت رحمته وتمت نعمته، صلى الله عليه وعلى آله الابرار، وصحبه الاخيار، وسلم تسليما

أما بعد فياعباد الله اتقوا الله واعلموا ان الله تعالى اكمل المنة على المؤمنين، وأتم نعمته عليهم بارسال خاتم الانبياء رحمة للعالمين، فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه(؟) من الجهالة، وفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا منة وطولا، وأرشد به السبيل، وأقام به معالم البرهان والدليل، نعمة وفضلا، ورفع به للتوحيد أعلاما، ومحا به من الشرك ظلاما، ثم جعل محبته مشروطة بمحبته، وطاعته منوطة بطاعته، وذكره مقرونا بذكره، وبيعته مقرونة ببيعته، فقال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وقال تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال تعالى (ورفعنا لك ذكرك) وقال تعالى (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) ثم بين جل جلاله ان مخالفة أمر نبيه ضلال وخسران، وأوعد عليه بالعذاب والخسران[1] فقال تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) وقال سبحانه (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) فحذر سبحانه وأوعد، وأقسم واكد، ليعلموا أن من شعب الايمان، وكمال الاسلام والايقان، اتباع سنته، والتسليم لقضيته، وتوقيره وتعظيمه، واجلاله وتكريمه، كما قال تعالى (يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه) قال ابن عباس وغيره: أي تبالغوا في تعظيمه. ألا وان من تعظيمه وتوقيره المطلوب، ايثار حبه

(١) المنار: لعله أراد ان يقول «وافتتان» فسبق القلم، اوقاله فحرف في الطبع

على كل محبوب ، فقد قال صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين) ومن توقيره وحبه ذكر شمائله التي تهز أعطاف المحبين ، ونشر فضائله التي تزيد في ايمان المؤمنين ، وايراد سيرته وما كان عليه من الاخلاق تسليكا للمتبعين ، ثم هل تدرون من المحبُّ للنبي صلى الله عليه وسلم . والصادق في محبته واجلال قدره المعظم ؟ المحب للنبي صلى الله عليه وسلم هو القائم بامتثال أوامره ونشر هديه الاكمل، والاعتصام بسنته والحض عليها واحيائها بالطلب والعمل . المحب للنبي صلى الله عليه وسلم هو المتخلق بأخلاقه الجليلة ، والمتحقق بآدابه الجميلة . المحب للنبي صلى الله عليه وسلم هو من تظهر علامات الحب على أحواله ، من الاقتداء به واتباع أقواله وأفعاله ، فليتخلق بأخلاقه الطاهرة من كان صادق الحب، مخلص اليقين سليم القلب، ولكن ما اكثر المدعين وما أقل المخلصين، عجبا لابن آدم يفهم ما يضره مما ينفعه ، ويسمع ولكن قلما يعمل بما يسمعه ، ويحضره العزم في مجلس الذكر الا انه يقوم ويدعه. فالى كم تهزه العبر وهو كالطفل كلما حرك نام ، ويقتحم المعاصي الكبَر ويقول ان الله ذو مغفرة وينسى انه ذو انتقام ، فواخجل المقصرين من التوبيخ في محفل القيامة ، وياسوء منقلب الظالمين عند حلول الندامة، وياحسرات الهالكين اذا عاينوا اهل السلامة، وياهوان المتكبرين اذا حرموا دار الكرامة ، فرحم الله امرأ رجع الى ربه سريعا ، قبل ان يقع لجنبه صريعا، وألقى الى الموعظة قلبا واعيا وسمعاً سميعا ، قبل أن لا يسمع في مقام السؤال الا توبيخا وتقريعا . اللهم تداركنا برحمتك انك أرحم الراحمين ، وجد علينا بمغفرتك انك خير الغافرين

﴿ خطبة فى شمائل رسول الله صلى الله عليه وسلم واخلاقه المأثورة ﴾

الحمد لله الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه وترتيبه . وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله . نبي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وزكى أوصافه وأخلاقه ثم اتخذه صفيه وحبيبه . ووفق للاقتداء به من أراد تهذيبه . وحرم عن التخلق بأخلاقه من أراد تخييبه . فصلى الله عليه وآله الطيبين

الطاهرين وسلم تسليما . أما بعد فياعباد الله اتقوا الله واعلموا أن آداب الظواهر، عنوان آداب البواطن ، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والاعمال نتيجة الاخلاق، ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه ، ومن لم يكن صدره مشكاة الانوار الالهية ، لم يفض على ظاهره جمال الآداب النبوية ، وقد أدّب صلوات الله عليه بالقرآن وأدب الخلق به ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « بعثت لأتمم مكارم الاخلاق» ثم رغب الخلق في محاسن الاخلاق ، ولما أكمل تعالى خلقه اثنى عليه فقال تعالى (وانك لعلى خلق عظيم) فكان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس وأعف الناس ، لم تمس يده قط امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه . وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم ، ولا يأخذ مما آتاه الله الا قوت عامه ويضع سائر ذلك في سبيل الله ، ولا يسأل شيئا الا أعطاه ، وكان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويخدم في مهنة أهله ، وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد ، ويجيب دعوة العبد والحر . يغضب لربه ولا يغضب لنفسه . يأكل ماحضر ولا يرد ماوجد . يركب ما أمكنه ويردف خلفه . يحب الطيب ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين . ويكرم أهل الفضل ويتألف أهل الشرف بالبر لهم . يصل رحمه . لا يجفو على أحد . يقبل معذرة المعتذر اليه . ولا يقول الا حقا . يضحك من غير قهقهة ، يخرج الى بساتين أصحابه ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم ، ما لعن خادماً ولا امرأة . ولا ضرب بيده أحدا الا في سبيل الله . يبدأ من لقيه بالسلام والمصافحة . يكرم من يدخل عليه . حتى ربما بسط له ثوبه يجلسه عليه · وكان أفصح الناس منطقا وأحلاهم كلاما . يتكلم بجوامع الكلم · ولا يتكلم في غير حاجة . اذا سكت تكلم جلساؤه . وكان أحسن الناس نغمة . يعظ بالجد والنصيحة . وكان اذا لبس ثوباً جديدا أعطى خَلق ثيابه مسكيناً . وكان أرغب الناس في العفو مع القدرة . أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضاء . يمر على الصبيان فيسلم عليهم ، وكان أزهر اللون ليس بالطويل ولا بالقصير . بين كتفيه خاتم النبوة . وكان لا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لا بد منه من صلاح نفسه . وبالجملة فأخلاقه الكاملة لا تحصى ، وشمائله الحسنى لا تستقصى . وكل

من أصغى اليهـا علم علو منصبه وعظم مكانته . وقد ظهر من آياته ومعجزاته ما استفاضت به الاخبار ، وكان أعظمها معجزة القرآن الـكريم والذكر الحكيم . أعجز البلغاء عن مماثلته في عبارته . وأفحم الحـكماء عن محاكاته في عظته وهدايته . وتشريعه للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم مادامت الدنيا . وانتظام السعادة بالمحافظة عليها في الاولى والأخرى ، ولما لم يدع قاعدة من أصول الفضائل الا جلاها . ولا اما من أمهات الصالحات الا أحياها . ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت الرسالات برسالته . قال الله تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالـكم ولـكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما) وقال تعالى (لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) (للخطب بقية)

المقارنة بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية (*)

٥

وصفتان طبيتان مصريتان

(الاولى) ورد في القرطاس الطبي ـ الذي نقلت عنه الوصفـة الطبية التي نشرت في الجزء السادس من المنار ـ وصفة أخرى بمعناها ، وهي الثالثة والتسعون بعد المئة وهذا نصها ويليه تفسيره :

تميزست تمشأ عن ست لا تمشأ

بطيكا (١) ينت (٢) ويخمط (٣) على إرُد (٤) التي مشأت ذكرا

(*) لعلامة الآثار المصرية احمد بك كمال (١) بطيخ (٢) أي يلت ، فاؤها لام ، من لت الشيء اذا دقه أو سحقه (٣) خمط يقابله في العربية شمط بمعنى خلط (٤) إرد مقلوب در وهو اللبن جعل أحد حرفي المضاعفة همزة في أول الكلمة كما مر نظيره في الجزء السابع

يؤري [١] مثل سعم [٢] تسعم الست ، ان كرأت [٣] مشأت وان زعت [٤] (؟) لا تمشأ الى نح [٥]

(المعنى)

لتميز المرأة التي تلد عن المرأة التي لا تلد — يدهق البطيخ ويخلط على لبن امرأة ولدت ذكرا ويجعل طعاما تأكله المرأة المراد اختبارها فان قاءت ولدت ، وان حصل لها رياح في المعدة لا تلد البتة

(الثانية) وورد فيه أيضا وصفة أخرى وهي الرابعة والتسعون بعد المئة وهذا نصها ويليه تفسيره :

بطيكا يخمط على إرُد التي مشأت ذكرا ويوتح [٦] في قطاتها [٧] فان جشأت مشأت وان قاست [٨] لا تمشأ

(المعنى)

بطيخ يخلط على در (أي لبن) امرأة ولدت ذكرا ويوتح في فرجها أي يحقن فيه فان غاثت وتقايأت والدت وان وجدت في جوفها رياح لا تلد

---

(١) أرى : جمع الطعام (٢) سعمه : غذاه وسعمه تسعيما : غذاؤه والمسعم حسن الغذاء والغين المعجمة لغة فيه والعين فى المصرية تنوب عن الغين فيقال عنى بمعنى غنى غناء (٣) كرأت يقابلها في العربية كرعت بمعنى أمطرت « السماء » وهنا تفيد القيء (٤) زع فعل يقصد به خروج الريح الذي يوجد في المعدة ومنه في العربية الزعزاع وهي الريح الشديدة (٥) نح مقلوب حان يحين حينا : والى حين ، اي الى دهر مديد (٦) وتح : أعطى قليلا اي شيئا فشيئا (٧) قطاة : ما بين الوركين والعجز ومقعد الرديف من الدابة وتدل هنا على الفرج (٨) قاس اي غاث وغثى وجاش او جشأ لان القاف تقلب غينا او جيما كما ان السين تقلب تاء او شينا فيقال في العربية الديس « عراقية » مقلوب الثدي فالسين فيها بدل الثاء وبالمصرية الشدي بالشين المعجمة ومن هنا يعلم ان الثاء والشين والسين ينوب بعضها عن بعض

عدل الاسلام

مقالة لانكليزية مسلمة ترجمت للمؤيد عن مجلة (اسلاميك ريفيو - اي المجلة الاسلامية) التي تصدر في وكنج بانكلترة فنشرناها مع تصحيح لبعض الالفاظ وهي :

اذا أخلص قلب الانسان (ضميره) في مطالعة تعاليم الدين الاسلامي وجدها أشد الاديان عدلا وصدقا ، وقد قضت تعاليم هذا الدين بأن العبد يخلق مجردا من كل خطيئة . فهو لايرث ذنوب والديه ، ولا خبث أجداده

الاسلام يعلم أهله الاستقلال الشخصي (الاعتماد على النفس) ويجرد من نفس الانسان حكما عليها ، فهو يمكنه خلاص نفسه أو اهلاكها بأعماله ، فاذا عمل الخير وتحرى الصواب جنى ثمار الجزاء الحق ، واذا عمل سوءاً يجزى به

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز (كل نفس بما كسبت رهينة) وينطوي في معنى هذه الآية كل ما يقتضيه العدل ، لان من الظلم أن يتحمل الانسان أوزار غيره ويسئل عما ارتكب سواه . وقد قررت جميع الشرائع العادلة الجديرة بهذا الوصف أن من الظلم أن يعد أحد مجرما بجريمة غيره . وهذا من أصول الشريعة المحمدية أيضا ، ولا يزال هذا المظهر مظهر السيد المسيح الذي ينظر اليه المسيحيون باعتباره المخلص للعالم

واذا ولد الشخص من غير ارادة خاصة فيه ، وعجز عن تعرّف مواطن الصواب ، ومقاومة الخطإ ، كان في عقابه أو إثابته كل مايتصوره الخيال من الظلم ، وكان من العبث نفخ روح العقل والضمير فيه . ولكن تعاليم الاسلام صريحة في أن خالق العالم -- وهو ربهم الحق -- خلق للانسان ارادة واختيارا (وهديناه النجدين) وسيسئل عن نتائج الطريق الذي فضله وسار فيه . فاذا اهتدى صفا ضميره وصفت سعادته ، واذا شقي وسار في الطريق المعوج كانت عاقبة أمره خُسرا ، ولكن الحكم على طفل صغير لايفرق بين الغث والسمين لايمكن أن يقال انه عدل . نعم انه ليس من العدل ولا من الشجاعة أن يحمَّل أحد أوزار غيره ثم يسئل عنها . ومتى وكل الانسان بأمر نفسه تعلم وجوب الاعتماد عليها ، ومن المحتمل أن العبد اذا علم بأن

غيره سيسئل عما اقترفه هو أطاع هواه ولم يحترم نفسه ، فكيف يكون فخورا بمولده وحياته ؟

والجواب على هذا انه يوجد نوعان من الفخر - الفخر الوهمي الخاطئ والفخر الصحيح ، والاول منهما هو فخر الغطرسة وغش النفس ، وهو مقبول الطعم يجعل صاحبه أو صاحبته ينظر الى الناس بغير العين التي ينظر بها الى نفسه ؛ ثم يحتقر الجار والفقير ، وهي خطيئة فظيعة طالما حض النبي صلى الله عليه وسلم على اجتنابها

أضف الى هذا ان الفخر الخاطئ ، يكون مجلبة للغيرة والطمع الكاذب . ويملأ أوداج صاحبه بالفخفخة الخارجة عن الحد

والفرق بين هـذا الفخر و بين الفخر الصحيح هو أن الذي يبذل مجهوده في أداء الواجب بارضاء الله ومساعدة النوع البشري يثبت في قلبه حب السلام الذي لا يعطيه الله الا للمجتهدين من عباده ، واذا عمل العبد نهاية الخير لم يسأله الله أكثر من ذلك ، ولم يؤاخذه اذا قصر طوقه عما ليس في مقدور أمثاله من البشر ، وهو القائل على لسان نبيه (وما جعل عليكم في الدين من حرج)

الاسلام دين حق يعلم الناس العدل ، وأسست مبادئه على العدل ، فهو يحرم الخمر والمقامرة والزنا

تاريخ ميلاد ولدنا محمد شفيع

﴿ لصديقي الوفيّ شيخ الخطباء والمحامين (وكلاء الدعاوي) اسماعيل بك عاصم ﴾

تاريخ ميلاد محمد شفيع نجل حضرة صديقي العزيز الاستاذ العلامة السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الزهراء

سر يا بشير التهاني للرشيد وقل　　(بشرى فقد أنجز الاقبال ما وعدا)
قد لاح نور ابنه نعم الشفيع به　　(وكوكب السعد في أفق العلا صعدا)
فرع نما عن أصول طاب عنصرها　　أنعم بمولده أكرم بمن وَلَدا
وكان في رمضان يمن طالعه　　كليلة القدر فيها للنفوس هُدى
محمدٌ دام يسمو للفضائل عن　　أبٍ يَقَرُّ به عينا وقد حَمِدَا

عساه يأتي بنفع مثل والده وأنه يتحرّى مثله رشدَا
وعاصمٌ عن رضاءٍ عنه أرَّخهُ رشيدُ بشراك في نجل سناه بدا
سنة ١٣٣٣ ٥١٤ ٥٢٣ ٩٠ ٨٣ ١١٦ ٧

الشطران اللذان كل منهما بين قوسين هما مطلع أحسن قصيدة قيلت تهنئة لأحد الخلفاء بميلاد ولده كما قال صاحب كتاب خزانة الادب وقد ضمنتهما هنا أحسن تضمين

اسماعيل عاصم

تقريظ المطبوعات الجديدة (*)

كتاب كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة

تأليف الشيخ الامام العالم الزاهد أبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي وهو شرح لحديث « بدأ الاسلام غريبا — » وقد قام بطبعه واعتنى بتصحيحه الشيخ أحمد محمد شاكر فطبعه بمطبعة (النهضة) طبعا نظيفاً على ورق متوسط صفحاته ٣٠ وثمنه قرش واحد و يطلب من مكتبة المنار خاصة

كتاب المبادئ النافعة ، فى تصحيح المطالعة

ألفه الاستاذ الشيخ هارون عبد الرزاق شيخ رواق الصعايدة بالازهر عند ما كان مدرسا للعلوم العربية بالمدارس الاميرية . وقد قرر المجلس العالي في اللائحة الداخلية للمعاهد الدينية تدريسه لطلبة السنة الاولى

طبع في المطبعة المصرية في الاسكندرية وصفحاته ٤٠ وثمنه قرشان

عنوان الظرف فى فن الصرف

للاستاذ الشيخ هارون عبد الرازق المذكور ثمنه نصف قرش

الدروس الاولية في العقائد الدينية

طبع للمرة الثانية في المطبعة السابقة الذكر سنة ١٣٢٦ هجرية وصفحاته ٤٦ بالقطع الصغير وثمنه قرش واحد

*) عهدنا بتقريظ المطبوعات الى شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

ومباحثه هي : ـ ١ ـ في حقوق الاستاذ والوالدين ـ ٢ ـ في حقوق الله تعالى ـ٣ـ في حدوث العالم ـ٤ـ في الوحدانية ـ٥ـ اجمال الصفات ـ٦ـ أول ما يجب على الخلق لخالقهم ـ٧ـ في الوجود والقدم والبقاء الى آخر مباحث الصفات ـ١٤ـ في الصفات والاسماء الحسنى... ـ٧ـ في معرفة الله وطاعته وفي بعثة الرسل وصفاتهم الى آخر المباحث التوحيدية المشهورة

الدروس الاولية في السيرة النبوية

طبع للمرة الثانية بمطبعة الجمالية بمصر صفحاته ٤٧ بالقطع الصغير ومباحثه هي : نسب النبي (ص) ونشأته و بعثته وخروجه من الشعب الى دخول الانصار في الاسلام و بيعتي العقبة الى الهجرة والهجرة والغزوات وصلح الحديبة ومرضه (ص) وموته والاهتداء بهديه وخلافة الصديق وعمر وعثمان وعلي ثم دول الاسلام الكبرى وفي ولاية مصر من فتحها الى الآن

الدروس الاولية في الاخلاق المرضية

طبع للمرة الاولى بمطبعة جاليتي بالاسكندرية صفحاته ٤٨ بالقطع الصغير ومباحثه هي : نصيحة الاستاذ لتلميذه ، الوصية بتقوى الله ، حقوق الله ورسوله ، حقوق الوالدين ، حقوق الاخوان ، آداب طلب العلم ، آداب المطالعة والمذاكرة ، آداب الرياضة والمشي في الطرقات ، آداب المجالس والحديث آداب الطعام والشراب ، آداب العبادة والمساجد وفضيلة الصدق والامانة والعفة ، والمروءة والشهامة وعزة النفس الخ

هذه الرسائل تأليف الاستاذ الشيخ محمد شاكر الذي كان شيخ علماء الاسكندرية ثم وكيل مشيخة الازهر وثمن كل منها $\frac{ }{1}$ وتطلب من مكتبة المنار وغيرها

ديوان غصن النقا

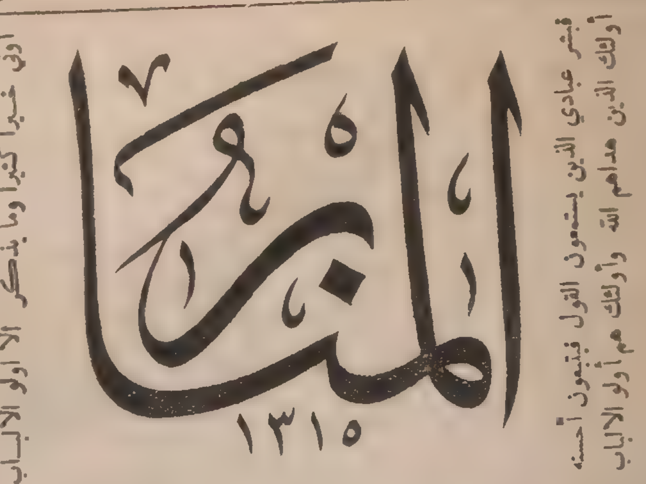
من نظم الشاعر الذكي اللوذعي ، الشيخ رشيد مصوبع اللبناني ، طبع بمطبعة المقتطف سنة ١٩١٥ على ورق جيد صفحاته ٨٨ بالقطع الوسط و يطلب من مكاتب مصر ومن ناظمه

عرفنا الناظم من أذكى شعراء العصر، وباريس من أجمل مدن العالم كما هو معلوم بالتواتر، وناهيك بشاعر ذكي عربي أمّ هذه العاصمة الزاهرة فجمع في مخيلته جمال التصوير المعنوي والحسي، فنظم هنالك ديوانًا فاق ما نظم قبله من الدواوين

جعل الناظم ديوانه هذا هدية الى الموسيو دلكاسيه نابغة ساسة فرنسة ووزير خارجيتها وقد نظم معظمه في باريس، فمن قصائده ما مدح به الموسيو بيشون والموسيو دلكاسيه ومنها ما عنوانه « باريس والجمال » و « وداع باريس » و « وصف باريس وانتقادها » و « المحل وباريس » و « باريس ووقتها » و « في مفتون في باريس » و « موحش باريس » وغير ذلك

وحسبنا نموذجا من الديوان هذه الابيات التي مدح بها صاحبه الموسيو دلكاسه ناظر الخارجية الفرنسية فانها على كونها تعد من المقاطيع لا القصائد تمثل ذوق الناظم في الغزل والرثاء والمدح والفخر — قال :

تحكي الامام اليازجيّ بطلعة	تزهو و بالقد الرشيق العادلِ
فاذا حزنتُ عليه قمتَ مقامه	فأعدت لي فرحي بذاك الراحل
ياطرفَ ابراهيمَ أذبلك الثرى	أسفي على طرف الحبيب الذابل
قم وانظر اليوم الرشيدَ فانه	يختال مثل السمهري المائل
يختال في أكناف دلكاسه الذي	هز الحسامَ بوجه ذاك العاهل
هذا بفضلك ياحبيب ولم أصل	لولا التفاتك للوزير الفاضل
قلدتني سيف البيان فكان لي	يوم المنى أمضى جميع وسائلي
ان كان بدر الوجه عني آفلا	فبدور علمك في غير أوافل
حاكاك في الشكل الوزير ودونه	في ود قلبك كان خير مشاكل
فرنا الي بأعين مملوءة	عطفا علي وكان أكرم باذل
وأجل منزلتي وأُعجب بي كما	أُعجبت بي وأشدت بي بمحافل
ان كان ركن العلم مال فلاهوى	ركن السياسة والعلى والنائل



قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و« منارا » كمنار الطريق

مصر ٢٩ ذي القعدة ١٣٣٣ — ١٥ الميزان (خ ١) ١٢٩٤ هـ ش ٩ اكتوبر ١٩١٥

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(١١٢) يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ؟ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّـٰمُ الْغُيُوبِ (١١٣) إِذْ قَالَ اللهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَىٰةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ

عنكَ إذ جئتَهم بالبيِّنتِ فقالَ الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحرٌ مبينٌ (١١٤) وإذ أوحيتُ إلى الحواريّين(*) أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنّا واشهد بأنّنا مسلمون (١١٥) إذ قالَ الحواريّون يعيسى ابنَ مريمَ هل يستطيعُ ربُّك أن ينزّلَ علينا مائدةً منَ السّماءِ؟ قالَ اتّقوا اللهَ إن كنتم مؤمنينَ (١١٦) قالوا نريدُ أن نأكلَ منها وتطمئنَّ قلوبُنا ونعلمَ أن قد صدقتنا ونكونَ عليها منَ الشّهدينَ (١١٧) قالَ عيسى ابنُ مريمَ اللّهمَّ ربّنا أنزل علينا مائدةً منَ السّماء تكونُ لنا عيدًا لأوّلنا وآخرنا وآيةً منكَ وارزقنا وأنتَ خيرُ الرّزقينَ (١١٨) قالَ اللهُ إنّي منزّلها عليكم فمن يكفر بعدُ منكم فإنّي أعذّبه عذابًا لا أعذّبه أحدًا منَ العلمينَ

بينا في أول تفسير الآيتين ٩٠ و٩١ من هذه السورة وجه الاتصال والترتيب بين مجموع آياتها وطوائفها من أولها الى هذا السياق الاخير منها[1] وهو يتعلق بمحاجة أهل الكتاب عامة، والنصارى منهم خاصة، وفيه ذكر المعاد والحساب والجزاء الذي ينتهي اليه أمر المختلفين في الدين، وأمر المؤمنين المخاطبين بالاحكام التي سبق بيانها، وهذا هو وجه المناسبة والاتصال بين هذه الآيات وما قبلها مباشرة من آيات الاحكام، ويرى بعض المفسرين ان كلمة (يوم) في أولها من متعلقات الآية أو الجملة التي قبلها كما ترى فيما يلي:

﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ﴾ قيل ان هذا متعلق بالفعل من آخر

---

*) هي في المصحف الامام بياء واحدة (١) راجع ص ١٧ ج ٧ تفسير

جملة مما قبله ، والتقدير : والله لا يهدي القوم الفاسقين الى طريق النجاة يوم يجمع الرسل في الآخرة ويسألهم عن تبليغ الرسالة وما أجابتهم به أقوامهم — أو لا يهديهم يومئذ طريقا الا طريق جهنم ، وقيل انه متعلق بقوله « واتقوا الله » أو بقوله « واسمعوا » أي واتقوا عقاب الله يوم جمعه الرسل ، — أو — واسمعوا يوم يجمع الله الرسل ، أي خبره وما يكون فيه .

وذهب آخرون الى أن الآية منقطعة عما قبلها — والمعنى : يوم يجمع الله الرسل و يسألهم يكون من الاهوال ما لا يفي ببيانه مقال — أو المعنى واذكر أيها الرسول يوم يجمع الله الرسل فيقول ما ذا أجبتم ، وهذا التقدير أظهر وله في التنزيل نظائر . والمراد من السؤال توبيخ أممهم ، وإقامة الحجة على الكافرين منهم ، والمعنى أي إجابة أجبتم ؟ أإجابة إيمان و إقرار ، أم إجابة كفر واستكبار ؟ فهو سؤال عن نوع الاجابة لا عن الجواب ماذا كان ، والا لقرن بالباء ، وقيل الباء محذوفة والتقدير بماذا أجبتم . وهذا السؤال للرسل من قبيل سؤال الموءودة في قوله تعالى (واذا الموءودة سئلت * بأي ذنب قتلت) في ان كلا منهما وجه الى الشاهد دون المتهم لما ذكر آنفا من الحكمة ، وهو يكون في بعض مواقف القيامة و يشهدون على الامم بعد التفويض الآتي أو عقب سؤال غير هذا ، و يسأل الله تعالى الامم في موقف آخر أو في وقت آخر . كما هو شأن قضاة التحقيق في سؤال الخصم والشهود ، لتحقق شرائط الحكم الصحيح كما هو المعهود ، قال تعالى (فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين * فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين)

ولما كان تعالى يسأل كلا من الفريقين عما هو أعلم به منه ، وكان الرسل عليهم الصلاة والسلام على علم يقيني بذلك — يكون جوابهم في أول العهد بالسؤال التبرؤ من العلم وتفويضه الى الله تعالى — إما لنقصان علمهم بالنسبة الى علمه تعالى كما نقل عن ابن عباس ، وإما لما يفاجئهم من فزع ذلك اليوم أو هوله وذهوله كما نقل عن الحسن ومجاهد والسدي . وذلك قوله تعالى

﴿ قالوا لا علم لنا انك أنت علام الغيوب ﴾ جاء الجواب مفصلا كسائر ما يأتي من أقوال المراجعة على طريقة الاستئناف البياني ، وعبر بالماضي عن المستقبل لتحقق

وقوعه حتى كأنه وقع ، قال ابن عباس : يقولون للرب : لا علم لنا الا علم أنت أعلم به منا . يعني انه ليس بنفي لعلمهم باطلاق وانما هو نفي لعلم الإحاطة الذي هو خاص بالخلاق العليم ، اذ الرسل كانوا يعلمون ظاهر ما أجيبوا به من مخاطبيهم ولا يعلمون بواطنهم ، ولا حال من لم يروه من أممهم ، الا ما يوحيه تعالى اليهم من ذلك وهو قليل من كثير ، ولذلك قرنوا نفي العلم عنهم باثبات المبالغة في علم الغيب له تعالى ، فان صيغة علاّم معناها كثير العلم أي بكثرة المعلومات، والا فعلمه واحد محيط بكل شيء إحاطة كاملة ، ولا يوصف تعالى بالعلاّمة ، ولعله لما فيه من تاء التأنيث. قال تعالى لنوح عليه السلام لما سأل ربه ان ينجي ولده من الطوفان (فلا تسألنِ ما ليس لك به علم) وقال لخاتم رسله عليه الصلاة والسلام (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم)

وقال الفخر الرازي ما معناه: ان الرسل أرادوا انه لم يكن لهم من حقيقة حال أممهم الا الظن الذي هو ظاهر حالهم لا العلم القطعي الذي يتوقف على معرفة الظاهر والباطن بدليل ماورد في الحديث من الحكم بالظاهر (قال) «فالانبياء قالوا : لا علم لنا البتة بأحوالهم انما الحاصل عندنا من أحوالهم هو الظن ، والظن كان معتبرا في الدنيا لان الاحكام في الدنيا كانت مبنية على الظن ، وأما الآخرة فلا التفات فيها الى الظن لان الاحكام في الآخرة مبنية على حقائق الاشياء وبواطن الامور . فلهذا السبب قالوا (لا علم لنا الا ما علمتنا) ولم يذكروا البتة ما معهم من الظن لأن الظن لا عبرة به في القيامة . اه

ونقول: ان هذا رأي ضعيف وان بني على اصطلاح أهل الكلام والاصول في تفسير الظن والعلم ، والصواب ما بيناه قبله . وذلك ان الرسل يعلمون كثيرا من الحقائق علما يقينيا، كاستكبار المجرمين عن إجابة دعوتهم واصرارهم على كفرهم. ومن علمهم بذلك ما شهد به التنزيل اذ أخبرهم الله أن أولئك المعاندين لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ، وانه قد ختم على قلوبهم وحق القول عليهم ، ومنهم من يكاشف النبي بحالهم ويمثلون له في النار ، كما كان يعلم أن بعض المؤمنين صادقون في ايمانهم و بشرهم بالجنة، وأن بعضهم ضعفاء الايمان ولكن إيمانهم صحيح مقبول

عند الله تعالى . وقد أخبرنا الله تعالى انهم يشهدون على أممهم ، فلو كان كل ما يعرفون من أحوال أممهم ظنا لا عبرة به في القيامة ، لما كان لشهادتهم فائدة (فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا)

ذكر الله سؤال الرسل وجوابهم بالاجمال ثم بين بالتفصيل سؤال واحد منهم عن التبليغ وجوابه عن السؤال لإقامة الحجة على من يدعون اتباعه وهم الذين حاجتهم هذه السورة فيما يقولون في رسولهم أوسع الاحتجاج، وأقامت عليهم البرهان في إثر البرهان ، وقدم عز وجل على هذا السؤال والجواب ما خاطب به هذا الرسول من بيان نعمته عليه وآياته له التي كانت منشأ افتتان الناس به فقال :

﴿ إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا ﴾ قال البيضاوي في قوله تعالى «اذ قال»: بدل من « يوم يجمع » وهو على طريقة « ونادى أصحابُ الجنة» — أي في التعبير عن المستقبل بالماضي — والمعنى انه تعالى يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن اجابتهم وتعديد ما ظهر عليهم من الآيات ، فكذبتهم طائفة وسموهم سحرة ، وغلا آخرون واتخذوهم آلهة . أو نصب باضمار «اذكر» اه والنعمة تستعمل مصدرا واسما لما حصل بالمصدر ، والمفرد المضاف يفيد التعدد . والمعنى انعامي عليك وعلى والدتك وقت تأييدي اياك بروح القدس الخ أو اذكر نعمي حال كونها واقعة عليك وعلى والدتك اذ أيدتك أي قويتك شيئا فشيئا بروح القدس الذي تقوم به حجتك. وتبرأ من تهمة الفاحشة والدتك ، حال كونك تكلم الناس في المهد بما يبرئها من قول الآثمين الذين أنكروا عليها أن يكون لها غلام من غير زوج يكون أبا له — وكهلا حين بعثت فيهم رسولا تقيم عليهم الحجة ، بما ضلوا به عن المحجة . فكلامه في المهد هو قوله (١٩ : ٢٩ اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا) الخ ماذكر في سورة مريم

وروح القدس هو ملك الوحي الذي يؤيد الله به الرسل بالتعليم الالهي والتثبيت في المواطن التي من شأن البشر أن يضعفوا فيها ، قال تعالى في شأن القرآن (١٦ : ١٠٢ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى

وبشرى للمسلمين) . وقد تقدم في موضعين من سورة البقرة ، وقال تعالى (إذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا)

﴿ واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ﴾ أي ونعمتي عليك اذ علمتك قراءة الكتاب أي ما يكتب — أو الكتابة بالقلم — أي وفقتك لتعلمها ، والحكمة وهي العلم الصحيح الذي يبعث الارادة الى العمل النافع بما فيه من الاقناع والعبرة والبصيرة وفقه الاحكام ، والتوراة — وهي الشريعة الموسوية ، والانجيل — وهو ما أوحاه تعالى اليه من الحكم والاحكام ، والبشارة بخاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وقد سبق لنا تفصيل القول في حقيقة التوراة والانجيل في تفسير أول سورة آل عمران (ص ١٥٥ — الى ١٥٩ ج ٣ تفسير) وفي تفسير هذه السورة (ص ٢٨٣ — ٣٠٢ ج ٦ تفسير)

﴿ واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني ، فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني ﴾ قرأ نافع هنا وفي آية آل عمران « فتكون طائرا » والطائر واحد الطير - كراكب وركب - والجمهور « فتكون طيرا » قيل هو جمع وقيل اسم جمع ، وأجاز أبو عبيدة وقطرب إطلاق طير على الواحد ولعله مبني على أن أصله المصدر كما وجهه ابن سيده . ولفظ الطير مؤنث بمعنى جماعة . والخلق في أصل اللغة التقدير أي جعل الشيء بمقدار معين . يقال خلق الاسكافي النعل ثم فراه ، أي عين شكله ومقداره ثم قطعه قال الشاعر :

ولأنت تفري ما خلقت وبعـــــض القوم يخلق ثم لا يفري

ومنه خلق الكذب والافك قال تعالى (وتخلقون افكا) أي تقدرون وتزورون كلاما يأفك سامعه أي يصرفه عن الحق . ويستعمل في ايجاد الله تعالى الاشياء بتقدير معين في علمه . والمعنى : واذكر نعمتي عليك إذ تجعل قطعة من الطين مثل هيئة الطير في شكلها ومقادير أعضائها فتنفخ فيها بعد ذلك فتكون طيرا باذن الله ومشيئته ، أو بتسهيله أو تكوينه ، اذ يجعل جلت قدرته نفختك سببا لحلول الحياة في تلك الصورة من الطين ، فأنت تفعل التقدير والنفخ ، والله هو الذي يكوّن الطير . وقد تقدم في تفسير نظير هذه الآية من سورة آل عمران كلام عن شيخنا الاستاذ

الامام مضمونه ان عيسى عليه السلام أعطي هذه الآية أي مكنه الله منها ولم يفعلها . واستدركنا على ذلك بالاشارة الى دلالة آية المائدة هذه على وقوعها من غير جزم بذلك ، و بينا سر ذلك وحكمته عند الصوفية وهو قوة روحانية عيسى عليه السلام ، ولا يمد كتمان اليهود لهذه الآية اذا كان رآها بعضهم مرة واحدة وعدها من السحر اعتقادا أو مكابرة وخاف أن تجذب قومه الى المسيح ، ولكن قوله تعالى — باذني باذني — يدل على أن المسيح لم يعط هذه القوة دائما بحيث جعل السبب الروحي فيها كالاسباب الجسمانية المطردة ، بل كانت هذه الآية كغيرها لا تقع الا باذن من الله وتأييد من لدنه ، ونكتة التعبير بالمضارع عن فعل مضى هي تصوير ذلك الماضي وتمثيله حاضرا في الذهن كأنه حاضر في الخارج ، لا لإفادة الاستمرار فانه فعل مضى ولا يقع في الآخرة

﴿ وتبرئ الاكمه والابرص باذني واذ تخرج الموتى باذني ﴾ عطف التذكير بابراء الاكمه والابرص على ماقبله مباشرة فلم يُبدأ بإذ ، و بدئ بها التذكير باخراج الموتى ، فكان عطفا على قوله « اذ أيدتك بروح القدس » ولعل نكتة ذلك أن ابراء الاكمه والابرص من جنس شفاء المرض الذي قد يقع بعض أفراده على أيدي غير الانبياء المرسلين ، ولا سيما من يظن المرضى فيهم الصلاح والولاية ، فلما كان كذلك ذكر بالتبع لإحياء الصورة من الطير ، ولما كان احياء الموتى أعظم جعل نعمة مستقلة فقرن باذ . والمراد بالاكمه والابرص والموتى الجنس — والاكمه من ولد أعمى ، و يطلق على من عمي بعد الولادة أيضا . وفي كتب العهد الجديد أنه أبرأ كثيرا من العمي والبرص وأحيا ثلاثة أموات (الاول) ابن أرملة وحيد في (نايين) كانوا يحملونه على النعش فلمس النعش وأمر الميت ان يقوم منه فقام فقال الشعب « قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه » أي شعب اسرائيل اه (من انجيل لوقا ٧ : ١١ — ١٧) (الثاني) ابنة رئيس ماتت ودعاه لاحيائها فجاء بيته وقال للجمع « تنحوا فان الصبية لم تمت لكنها نائمة فضحكوا عليه فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية » (انجيل متى ٩ : ١٨ — ٢٦) ونفيه لموتها ثم إثباته لنومها ينافي ان

يكون أراد بالنوم الموت مجازا على ما نقل عنه في غير هذا الموضع. وعليه يقال يحتمل ان يكون أغمي عليها فظنوا انها ماتت فعلم بالكشف أو الوحي انها لم تمت . والمسلمون لا يثقون بنقول القوم ولا بدقتهم في الترجمة ومراعاة ما يدل عليه الاثبات بعد النفي (الثالث) ليعازر الذي كان يحبه جدا ويحب اختيه مريم ومرثا كما يحبونه ، معنى الفصل الحادي عشر من انجيل يوحنا انه كان مات في بيت عنيا ووضع في مغارة فجاء المسيح وكان له أربعة أيام فرفع عينيه الى فوق وقال (أيها الآب أشكرك لانك سمعت لي ، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي . ولكن لاجل هذا الجمع الواقف قلت . ليؤمنوا انك أرسلتني ، ولما قال هذا : صرخ بصوت عظيم « لعازر هلمّ خارجا » فخرج الميت) الخ وملاحدة أوربة يزعمون أن لعازر تماوت باذن المسيح . . . وقد كذبوا أخزاهم الله تعالى . ولم ينقل النصارى عنه انه أحيا أمواتا كانوا تحت التراب بعد البلى كما نقل عن دانيال عليهما السلام

وتكرار كلمة الاذن بتقييد كل فعل من تلك الافعال بها يفيد انه ما وقع شيء منها الا بمشيئة الله الخاصة وقدرته. والاذن يطلق على الاعلام باجازة الشيء والرخصة فيه وعلى الامر به و كذا على المشيئة . كقوله تعالى (وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله) ومحال أن يكون معناه باجازته أو أمره ، ومثله بل أظهر منه قوله (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله)

﴿ واذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا الا سحر مبين ﴾ أي واذكر نعمتي عليك حين كففت بني اسرائيل عنك فلم أمكنهم من قتلك وصلبك وقد أرادوا ذلك وقت تكذيب كفارهم إياك وزعمهم ان ماجئت به من البينات لم يكن الا سحرا ظاهرا ، لا من جنس الآيات التي جاء بها موسى ، على انها مثلها أو أظهر منها. قرأ الجمهور (سحر) وقرأ حمزة والكسائي (ساحر) بالالف ، ورسمها في المصحف الامام بغير ألف ككلمة (ملك) في الفاتحة وتقرأ (مالك) وكلمة (الكتب) في عدة سور تقرأ فيها (الكتاب) بالافراد كما تقرأ في بعضها بصيغة الجمع ، ولو كتبت هذه الكلمات بالالف لما احتملت الا قراءة المد وحدها .

وظاهر ان قراءة الجمهور (سحر) يراد بها ان تلك البينات التي جاء بها من السحر وهو التمويه والتخييل الذي يري الانسان الشيء على غير حقيقته، أو ما له سبب خفي عن غير فاعله، —وان قراءة (ساحر) يراد بها ان من أتى بتلك البينات ساحر، اذ جاء بأمر صناعي أو بتخييل باطل. والمراد من القراءتين كلتيهما ان الذين كفروا بعيسى عليه السلام طعنوا في تلك الآيات بأنها سحر، وفيمن جاء بها بأنه من جنس السحرة، أي فلا يعتد بشيء مما يظهر على يديه من خوارق العادات، فأفاد أنهم لا يؤمنون وان جاءهم بآيات أخرى، اذ لم يكن الطعن فيما كان قد جاء به لشبهات تتعلق بها، وانما كان عن عناد ومكابرة ادعوا بهما ان السحر صنعة له يجب ان يوصف به كل شيء غريب يجيء به.

﴿ واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنو بي و برسولي، قالوا آمنا وآشهد بأننا مسلمون ﴾ أي واذكر نعمتي عليك حين ألهمت الحواريين أن يؤمنوا بك - وقد كذبك جمهور بني اسرائيل — فجعلتهم أنصارا لك يؤيدون حجتك، وينشرون دعوتك. والوحي في أصل اللغة الاشارة السريعة الخفية، أو الاعلام بالشيء بسرعة وخفاء، كما بيناه من قبل. ولو وجد هذا التلغراف في عهد العرب الخلّص لسموا خبره وحيا، والمصريون يسمونه حتى في الرسميات إشارة. وأطلق الوحي في القرآن على ما يلقيه الله تعالى في نفوس الاحياء من الالهام كقوله تعالى (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا) وقوله (وأوحينا الى امّ موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليمّ) وهكذا ألقى الله تعالى في قلوب الحواريين الايمان به وبرسوله عيسى عليه السلام، وقيل الوحي اليهم هو ما أنزل على أنبيائهم

والحواريون جمع حواريّ وهو من خلص لك وأخلص سرا وجهرا في مودتك، ومعناه في أصل اللغة الابيض النقي اللون، والحواريات من النساء النقيات الالوان والجلود لبياضهن، قال في اللسان: والاعراب تسمي نساء الامصار حواريات لبياضهن وتباعدهن من قشف الاعراب بنظافتهن، قال:

فقلت إن الحواريات معطبةٌ　　اذا تَفتلن من تحت الجلابيب

وأما الحور العين فهي جمع حوراء وعيناء، من الحور (بالتحريك) وهو شدة بياض العين مع شدة سوادها ، فالحوراء مؤنث الاحور، والحوارية مؤنث الحواري . ثم استعمل الحواريّ بمعنى النقي الخالص في غير اللون ، قال في اللسان : وقال بعضهم : الحواريون صفوة الانبياء الذين خلصوا لهم ، قال الزجاج : الحواريون خلصان الانبياء عليهم السلام وصفوتهم ، قال : والدليل على ذلك قول النبي (ص) « الزبير ابن عمتي ، وحواريّ من أمتي » أي خاصتي من أصحابي وناصري — قال — وأصحاب النبي (ص) حواريون . وتأويل الحواريين في اللغة الذين أخلصوا ونقوا من كل عيب . اه[1] واللغة لاتدل على النقاء من كل عيب بهذا التحديد ، وانما تدل على النقاء والخلوص مطلقا ، فيكفي في صحة الاطلاق أن يكونوا قد خلصوا لنصره ، أو خلصوا ونقوا من الكفر والنفاق . وقد حكى الله عنهم هنا انهم قالوا : آمنا . أي بالله ورسوله عيسى عليه السلام . وأشهدوا الله على أنفسهم انهم مسلمون، أي مخلصون في ايمانهم مذعنين لما يترتب عليه من الامر والنهي ، وحكى عنهم في في سورتي [آل عمران] و [الصف] أنهم حين قال المسيح (من أنصاري الى الله) قالوا (نحن أنصار الله)

﴿ اذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ ﴾ قال أبو السعود العمادي في تفسير « اذ قال الحواريون » مانصه : كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ماجرى بينه عليه السلام و بين قومه منقطع عما قبله كما ينبئ عنه الاظهار في موقع الاضمار ، و « اذ » منصوب بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام ، بطريق تلوين الخطاب والالتفات ، لكن

(١) زعم بعض كتاب النصارى المعاصرين أن كلمة « الحواري » محرفة عن كلمة الخوري اليونانية، وهو زعم شبهته ضعيفة والبراهين على بطلانه قوية ، فالكلمة لم تستعمل في القرآن الا بصيغة جمع المذكر السالم وهو منقول بالتواتر اللفظي والخطي ومعروف معناه في اللغة ، وجمع الخوري خوارنة لاخواريون ولو أخذ اللفظ المفرد (حواري) فرد أو افراد من كتاب العرب عن كتابة لنصارى الروم أو غيرهم لامكن حينئذ ان يقال انهم حرفوه إن ثبت أن الروم أو غيرهم كانوا يطلقون لقب الخوري على تلاميذ المسيح ، كيف ومعنى الخوري الكاهن المدبر للقرية ؟

لا لأن الخطاب السابق لعيسى عليه السلام فانه ليس بخطاب وانما هو حكاية خطاب، بل لأن الخطاب لمن خوطب بقوله تعالى (واتقوا الله) — الآية — فتأمل، كأنه قيل للنبي (ص) عقيب حكاية ما صدر عن الحواريين من المقالة المعدودة من نعم الله تعالى الفائضة على عيسي عليه السلام: أذكر للناس وقت قولهم الخ وقيل هو ظرف لقالوا أريد به التنبيه على ان ادعاءهم الايمان والاخلاص، لم يكن عن تحقيق وايقان، ولا يساعده النظم الكريم . اه

أقول في متعلق الظرف قولان للمفسرين رجح أبو السعود المشهور منهما وهو الاول ورد الثاني الذي جرى عليه الزمخشري في الكشاف وهو انه متعلق بقوله تعالى (قالوا آمنا) أي ادعوا الايمان وأشهدوا الله على أنفسهم انهم مسلمون مخلصون في ايمانهم في الوقت الذي قالوا فيه ما ينافي ذلك وهو قولهم « ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء » ويقول الزمخشري ان الله تعالى ماوصفهم بالايمان والاسلام وانما حكى قولهم حكاية ووصله بما يدل على كذبهم فيه وهو سؤالهم هذا وجوابه عليه السلام لهم اذ أمرهم بتقوى الله ان كانوا مؤمنين حقاء واصرارهم على السؤال بعد ذلك، ووجه رد هذا القول أنه لو كان هو المراد لقيل « اذ قالوا ياعيسى بن مريم » ولم يقل « اذ قال الحواريون » ولما صح أن تكون دعوى الايمان من الحواريين نعمة من الله على عيسى — وهي كاذبة — ولا أن تكون عن وحي من الله تعالى . ولكن هذا الاخير لايرد على الزمخشري لانه فسر الوحي الى الحواريين بالايمان بأنه أمر الله اياهم بذلك على ألسنة الرسل، أي أمره إياهم مع غيرهم اذ كلف الناس كافة بأن يؤمنوا بما تجيئهم به الرسل . ولكن يرد قوله أيضا تسميتهم بالحواريين وما في سورتي آل عمران والصف من اجابتهم عيسى الى نصره . ولعله يرى ان هذا شأنهم في أول الدعوة ثم آمنوا بعد ذلك وصاروا أنصار الله ورسوله عيسى عليه السلام

وقد حكى أبو السعود بعد ما ذكرناه عنه الخلاف في ايمانهم . ومنشأ هذا الخلاف كلمة «يستطيع» وقد قرأ الكسائي « هل تستطيع ربَّك » قالوا أي سؤال ربك، وهذه القراءة مروية عن علي وعائشة وابن عباس ومعاذ من علماء الصحابة

(رض) وقد صحح الحاكم عن معاذ أن النبي (ص) أقرأه « تستطيع ربك » ومثله في ذلك غيره لان تلقين القرآن لايتوقف على تصريح الصحابي برفعه ، وقرأ الجمهور (يستطيع ربك) وهذا الذي استشكل بأنه لا يصدر عن مؤمن صحيح الايمان . وأجاب عنه القائلون بصحةايمانهم من وجوه (١) ان هذا السؤال لاجل اطمئنان القلب بايمان العيان لا للشك في قدرة الله تعالى على ذلك ، فهو على حد سؤال ابراهيم صلى الله عليه وعلى آله وسلم رؤية كيفية احياء الموتى ليطمئن قلبه بايمان الشهادة والمعاينة مع اقراره بايمانه بذلك بالغيب (٢) انه سؤال عن الفعل دون القدرة عليه فعبر عنه بلازمه (٣) ان السؤال عن الاستطاعة بحسب الحكمة الالهية لابحسب القدرة ، أي هل ينافي حكمة ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء أم لا ، فان ماينافي الحكمة لايقع وان كان مما تتعلق به القدرة ، كعقاب المحسن على احسانه، واثابة الظالم المسيء على ظلمه (٤) ان في الكلام حذفا تقديره : هل تستطيع سؤال ربك . ويدل عليه قراءة : هل تستطيع ربك ، والمعنى هل تستطيع أن تسأله من غيرصارف يصرفك عن ذلك (٥) ان الاستطاعة هنا بمعنى الاطاعة، والمعنى هل يطيعك ويجيب دعاءك ربك اذا سألته ذلك .

وأقول ربما يظن الاكثرون ان هذا الوجه الاخيرتكلف بعيد وليس كذلك. فالاستطاعة استفعال من الطوع وهو ضد الكره. قال تعالى (فقال لها وللارض ائتيا طوعا أوكرها) وفي لسان العرب: الطوع نقيض الكره، طاعه يطوعه وطاوعه، والاسم الطواعة والطواعية (ثم قال) ويقال طعت له وأنا أطيع طاعة ، ولتفعلنه طوعا أو كرها، وطائعا أوكارها ، وجاء فلان طائعاً غير مكره... قال ابن سيده: وطاع يطاع وأطاع — لان وانقاد ، وأطاعه اطاعة وانطاع له كذلك . وفي التهذيب : وقد طاع له يطوع اذا انقاد له بغير الف ، فاذا مضى لامره فقد أطاعه . فاذا وافقه فقد طاوعه . اه فيفهم من هذا أن اطاعة الامر فعله عن اختيار ورضى ولذلك عبر به عن امتثال أوامر الدين لانها لاتكون دينا الا اذا كانت عن اذعان ووازع نفسي . والذي أفهمه ان الاستفعال في هذه المادة كالاستفعال في مادة الاجابة ، فاذا كان « استجاب له » بمعني أجاب دعاءه أو سؤاله — فمعنى استطاعه أطاعه، أي انقاد له وصار في طوعه

أو طوعاً له . والسين والتاء في المادتين على أشهر معانيهما وهو الطلب ، ولكنه طلب دخل على فعل محذوف دل عليه المذكور المترتب على المحذوف . فأصل استطاع الشيء —طلب وحاول أن يكون ذلك الشيء طوعا له فأطاعه وانقاد له، ومعنى استجاب — سئل شيئا وطلب منه أن يجيب اليه فأجاب. فبهذا الشرح الدقيق تفهم صحة قول من قال من المفسرين ان يستطيع هنا بمعنى يطيع، وان معنى يطيع يفعل مختارا راضيا غير كاره، فصار حاصل معنى الجملة «هل يرضى ربك ويختار أن ينزل علينا مائدة من السماء اذا نحن سألناه أو سألته لنا ذلك؟» والمائدة في اللغة الخوان الذي عليه الطعام، فاذا لم يكن عليه طعام لا يسمى مائدة ، وقد يطلق لفظ المائدة على الطعام نفسه حقيقة أو مجازا من اطلاق اسم المحل على الحال ، وهو اسم فاعل من ماد بمعنى تحرك أو من ماد أهله بمعنى نعشهم كما في الاساس أي أعاشهم وسد فقرهم ، كأنها هي تميد من يجلس اليها ويأكل منها . وقيل انها بمعنى اسم المفعول على حد : عيشة راضية

﴿ قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين ﴾ أي قال عيسى لهم اتقوا الله أن تقترحوا عليه أمثال هذه الاقتراحات التي كان سلفكم يقترحها على موسى لئلا تكون فتنة لكم فان من شأن المؤمن الصادق الايمان أن لا يجرب ربه— أو أن يعمل ويكسب ولا يطلب من ربه أن يعيش بخوارق العادات ، وعلى غير السنن التي جرت عليها معايش الناس .أو المعنى اتقوا الله وقوموا بما يوجبه الايمان من العمل والتوكل عسى أن يعطيكم ذلك ، من باب قوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب)

﴿ قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ﴾ أي نطلبها لثلاث فوائد (احداها) اننا نريد أن نأكل منها لاننا في حاجة الى الطعام ولا نجد ما يسد حاجتنا ، وقيل المراد أكل التبرك (الثانية) نريد أن تطمئن قلوبنا بما نؤمن به من قدرة الله بمشاهدة خرقه للعادة،أي بضم علم المشاهدة واللمس والذوق والشم الى علم السمع منك وعلم النظر والاستدلال (الثالثة) أن نعلم هذا النوع من العلم— أي علم المشاهدة — أن الحال والشان معك هو انك

قد صدقتنا ما وعدتنا من ثمرات الايمان، كاستجابة الدعاء ولو بخوارق العادات (الرابعة) أن نكون من الشاهدين على هذه الآية عند بني اسرائيل فيؤمن المستعد للايمان ويزداد الذين آمنوا ايمانا. — فهذا مانراه في توجيه أقوالهم، على المختار من صحة ايمانهم

﴿ قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لاولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾ أي لما علم عيسى عليه السلام صحة قصدهم وأنهم لا يريدون تعجيزا ولا تجربة دعا الله تعالى بهذا الدعاء، فناداه باسم الذات الجامع لمعنى الالوهية والقدرة والحكمة والرحمة وغير ذلك فقال « اللهم » ومعناه يا الله، ثم باسم الرب الدال على معنى الملك والتدبير والتربية والاحسان خاصة، فقال « ربنا » أي يار بنا ومالكنا كلنا ومتولي أمورنا ومربينا، أنزل علينا مائدة سماوية، جثمانية أو ملكوتية، يراها هؤلاء المقترحون بأبصارهم، ويأكلون منها بأفواههم أو بأرواحهم، ولو لم يقل من السماء لشمل الطلب اعطاءهم مائدة من الارض ولو بطريقة عادية، فان كل مايعطى من الله تعالى يسمى انزالا لتحقق معنى العلو المطلق غير المقيد بجهة من الجهات لله سبحانه فانه هو العلي القاهر فوق عباده

ثم وصف عيسى عليه السلام هذه المائدة بما أحب أن يستفاد من انزالها فقال في وصفها « تكون لنا عيدا » أي عيدا خاصا بنا معشر المؤمنين من دون غيرنا، أو تكون كرامة لنا في عيدنا. ثم قال « لاولنا وآخرنا » وهو بدل من قوله « لنا » الذي ذكر أولا لافادة الحصر والاختصاص، أي عيدا لاول من آمن منا وآخر من آمن، والمتبادر انه أراد بأولهم من كان آمن عند ذلك الدعاء وبآخرهم من يؤمن بعد نزول المائدة ممن يشهد لهم من شهدها وغيرهم، ويحتمل على بعد أن يراد أول جماعته الحاضرين معه ايمانا وآخرهم، وروي أن المعنى يأكل منها آخر القوم كما يأكل أولهم أو كافية للفريقين

وكلمة العيد تستعمل بمعنى الفرح والسرور، وبمعنى الموسم الديني أو المدني الذي يجتمع له الناس في يوم معين أو أيام معينة من السنة للعبادة أو لشيء آخر من أمور الدنيا، ولذلك قال السدي في تفسير العبارة: أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيدا نعظمه نحن ومن بعدنا، وقال سفيان الثوري: يعني يوما نصلي فيه.

وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم. وقال سلمان الفارسي (رض) عظة لنا ولمن بعدنا

وقوله « وآية منك » معناه وتكون آية وعلامة منك على صحة نبوتي ودعوتي، ولعل المراد بنص قوله «منك» – مع العلم بأن كل شيء منه تعالى ولاسيما الآيات – النص على ان الآيات انما تكون من الله وحده، أو أن تكون المائدة من لدنه تعالى بغير واسطة منه عليه السلام تشبه السبب كالآيات السابقة. ومما نقل عنه وعن نبينا عليهما الصلاة والسلام إطعام العدد الكثير من الطعام القليل بخلق الله الزيادة فيه، وروي عن نبينا أيضا إسقاء العدد الكثير من الماء القليل اذ وضع يده فيه فصار يزيد ويفور من بين أصابعه. فأمثال هذه الآيات – وان كانت من الله ككل شيء – تحصل بما يشبه الاسباب، وفيها مجال لاشتباه المرتاب، لان كل من يأخذ من ذلك الطعام أو الماء فانما يأخذ من شيء كان موجودا وهو لم يشاهد حدوث الزيادة فيه. وينقل الناس مثل هذا عن غير الانبياء من الصالحين، كالسحرة والمشعوذين، وقد كان معروفا في بني اسرائيل، ولذلك وصف الحواريون المائدة بما وصفوها به، وقال هو « وآية منك » لتوافق مطلوبهم فلا يقترحوا شيئا آخر، وانني أذكر حكايتين عن بعض المعاصرين توضح ما أريد:

حدثني الثقة أن بعض رجال العلم والدين عاد مريضا من الرجال المعتقدين المشهورين بالكرامات فأقام عنده في حجرة النوم ساعة وكان قد نقه، ثم أراد الانصراف فآلى عليه أن يتعشى معه، ثم دعى بالخوان فنصب ولم يوضع عليه شيء من الطعام، فجلس اليه الشيخان وصار المزور يقترح على الزائر أن يذكر ما يشتهي من ألوان الطعام وكلما ذكر شيئا مد المزور صاحب الدار يده فأخرج صحنا من تحت كرسي أو أريكة بجانبه مملوء بذلك اللون وهو سخن يتصاعد بخاره، حتى ذكر عدة ألوان لاتناسب بينها ولم تجر عادة البلد بالجمع بينها، وأبعد من ذلك ان تكون طبخت ووضعت تحت ذلك الكرسي. فأمثال هذه الحكاية يعدها بعض من ثبتت روايتها عنده من الخوارق، ويعدها بعضهم من الشعوذة والحيل التي اكتشف مثلها وهو موضوع الحكاية الثانية:

حدثني شيخ من كبار شيوخ الطريق والمناصب العلمية بواقعة وقعت لوالده — وكان معتقدا محترما — مع رجل غريب جاء مدينتهم وظهر على يديه عدة غرائب عدت من الكرامات، وقال: ان والده أخذ هذا الرجل مرة وطاف به في ضواحي البلد مدة طويلة انتهوا في آخرها الى المقبرة التي دفن فيها أجدادهم فزاروا قبورهم واستراحوا هنالك وشكوا ماعرض لهم من الجوع بطول المشي، فأظهر والد محدثي للشيخ الغريب انه يمكنهم أن يستضيفوا أجداده السادة الكرام، ثم نادى أحدهم واستجداه ودس يده في تراب قبره فأخرج منه صحفة فيها كروش غنم مطبوخة وهي محشوة بالرز واللحم والصنوبر، فأكلوا منها فاذا هي حارة، وقد استطابها الرجل الغريب جدا حتى توهم انها ليست من طعام الدنيا ولا أذكر أكان اختيار هذه الأكلة وإخراجها باقتراح الرجل أم باقتراح غيره وانما أظن ظنا قويا انها اقترحت

قال محدثي: وسر هذه المسألة ان والدي أمر قبل خروجه بأن تطبخ عندنا هذه الكروش ويأخذها أحد الخدم أو المريدين (الشك مني) فيدفنها في ذلك القبر في صحفة مغطاة بحيث تبقى سخنة ولا يصيبها تراب، وانما فعل ذلك لاختبار الرجل وحمله اياه على مكاشفته بحقيقة ما يعمله من الغرائب في مقابلة اخباره إياه بسر هذه المسألة، ولا أتذكر ماكان من أمرهما بعد ذلك فانني سمعت هذه القصة في أوائل العهد بطلب العلم.

فأمثال هذه الوقائع التي يعهدها الناس في كل زمان ويعلمون أن منها ماهو حيل أو صناعة تتلقى بالتعليم والتمرين — هي التي حملت بعض الناس على الشك والارتياب في آيات الانبياء، وبعضهم على تسميتها سحرا مبينا، وبعضهم على التثبت فيها للتفرقة بين الحق والباطل، وهو ماطلبه الحواريون لاجل تحصيل العلم اليقيني الذي تطمئن به قلوبهم وتقوم به حجتهم على غيرهم، على ما اخترناه مع الجمهور من صحة ايمانهم قبل طلب المائدة، أو لاجل تحصيل اليقين في الايمان بعد التسليم في الظاهر كما اختار الزمخشري وغيره. ولهذه الحكمة جعل الله تعالى الآية الكبرى لرسالة خاتم رسله (ص) علمية حتى لايبقى مجال لارتياب أحد من طلاب الحق المخلصين فيها. وهي اتيان رجل أمي عاش بين الاميين الى سن الكهولة بكتاب فيه أعلى العلوم الالهية

والادبية والاجتماعية والشرعية وأخبار الامم والانبياء السابقين الذين لم يقرأ هو ولا قومه عنهم شيئا، وغير ذلك من أخبار الغيب التي ظهر صدقها في زمنه و بعد زمنه الخ الخ

وأما قوله عليه السلام «وارزقنا وأنت خير الرازقين» فمعناه وارزقنا منها أو من غيرها ماتتغذى به أجسامنا أيضا وأنت خير الرازقين ترزق من تشاء بحساب، وترزق من تشاء بغير حساب. ومن محاسنه أنه أخر ذكر فائدة المائدة المادية عن ذكر فائدتها الدينية الروحية، أو معناه وارزقنا الشكر عليها ، وربما يقويه إنذار الله من يكفر بعد إنزالها اذ قال :

﴿قال إني منزلها عليكم﴾ قرأ ابن عامر وعاصم ونافع منزلها بالتشديد من التنزيل المفيد للتكثير أو التدريج ، والباقون منزلها بالتخفيف من الانزال ، وقيل انهما هنا بمعنى واحد. أي وعد الله عيسى بتنزيلها عليهم مرة أو مرارا ، ولكنه رتب على هذا الوعد شرطا أي شرط ،فقال ﴿ فمن يكفر بعد منكم فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، مثل «انا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر» والمعنى ان من يكفر منهم بعد هذه الآية التي اقترحوها على الوجه الذي لا يحتمل الاشتباه ولا التأويل فان الله تعالى يعذبه عذابا شديدا لا يعذب مثله أحدا من سائر كفار العالمين كلهم أو عالمي أمتهم الذين لم يعطوا مثل هذه الآية . وانما يعاقب الخاطئ والكافر بقدر تأثير الخطيئة أو الكفر ، والبعد فيه عن الشبهة والعذر، وقدر ما أعطي الذي يكفر من موجبات الشكر، وأي شبهة أو عذر لمن يرى الآيات من رسوله ثم يقترح آية بينة على وجه مخصوص تشترك في العلم بها جميع حواسه، و ينتفع بها في دنياه قبل آخرته ، فيعطى ما طلب أو خيرا منه ثم ينكص بعد ذلك كله على عقبيه ويكون من الكافرين ؟ ؟

وقد اختلف مفسرو السلف في المائدة أنزلت بالفعل أم لا؟ فروي عن بعضهم انها نزلت ، واختلف هؤلاء في الطعام الذي نزل — أي أعطي على وجه المعجزة من الله — فأبهمه بعضهم ، وقيل هو خبز وسمك ، وصرح بعضهم بأن الخبز من الشعير ، وقيل خبز ولحم ، وقيل من ثمار من الجنة ، وقيل كل شيء الا اللحم . وقيل كان ينزل عليهم طعام أينما ذهبوا كما كان ينزل المن على بني اسرائيل . ولا يصح من أسانيد هذه الروايات شيء، ولذلك رجح ابن جرير نزولها انجازا للوعد

وانه كان عليها مأكول لا نعينه ، بل قال غير جائز أن يكون سمكا وخبزا ، وقال ان العلم به لاينفع والجهل به لايضر . ونقول اذاً انه يصدق بمثل ما كان ينزل على بني اسرائيل في التيه من المن الذي يجمعونه عن الحجارة وورق الشجر ، وعبارة ابن عباس عند ابن جرير وابن الانباري في كتاب الاضداد من طريق عكرمة : كان طعاما ينزل عليهم من السماء حيثما نزلوا ، ويصدق بما يأتي عن انجيل يوحنا من إطعام الألوف في عيد الفصح من خمسة أرغفة وسمكتين أكل منها أول ذلك الجمع كآخره

وقال آخرون انها لم تنزل البتة قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : وقال قائلون انها لم تنزل ، فروى ليث بن أبي سليم عن مجاهد في قوله « أنزل علينا مائدة من السماء » قال هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير . قال ابن جرير : حدثنا القاسم — هو ابن سلام — حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال : مائدة عليها طعام ، وعنه قال : أبوها حين عرض عليهم العذاب ان كفروا فأبوا أن تنزل عليهم . وقال أيضا : حدثنا ابن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن منصور بن زاذان عن الحسن انه قال في المائدة : انها لم تنزل . وحدثنا بشر حدثنا يزيد وحدثنا سعيد عن قتادة قال : كان الحسن يقول لما قيل لهم « فمن يكفر بعد منكم فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين » قالوا لاحاجة لنا فيها فلم تنزل . وهذه أسانيد صحيحة الى مجاهد والحسن . وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله وكان يكون موجودا في كتابهم بالتواتر ولا أقل من الآحاد والله أعلم . اه ثم ذكر الحافظ رأي الجمهور وترجيح ابن جرير له

وذكر الرازي أن الذين قالوا بنفي نزولها احتجوا عليه بوجهين ذكرهما وأجاب عنهما فقال (أحدهما) ان القوم لما سمعوا قوله (أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) استغفروا وقالوا لانريدها (والثاني) انه وصف المائدة بكونها عيدا لاولهم وآخرهم فلو نزلت لبقي ذلك العيد الى يوم القيامة . وبعد ذكر قول الجمهور بنزولها لوجوب إنجاز الوعد الجازم غير المعلق قال — « والجواب عن الاول ان قوله « فمن يكفر بعد منكم فاني أعذبه » شرط وجزاء لا تعلق له بقوله « اني منزلها عليكم »

والجواب عن الثاني أن يوم نزولها كان عيدا لهم ولمن بعدهم ممن كان على شرعهم اه

أقول: أما جوابه عن الحجة الاولى ففي غير محله لوجهين (أحدهما) أنها عبارة عن خبر ان صح لا ترد صحته بكون جملة الوعيد الشرطية غير متعلقة بجملة الوعد، الا اذا قاله هؤلاء التابعيون الاجلاء من قبيل التفسير بالرأي، والاقرب ان له عندهما (؟) أصلا مرفوعا، فالاولى ان يحمل على وجه يتفق مع صدق الوعد، وهو (الوجه الثاني) وذلك بأن يقال ان جملة الوعيد مرتبة على جملة الوعد لعطفها عليها بالفاء كما بيناه آنفا، وهذا الترتيب كاف لحمل الحواريين على ترك طلبها بل طلب الاستقالة من انزالها. وما كان مثل الحسن ومجاهد وقتادة من أئمة التفسير ليخفى عليهم ان الوعد غير معلق بشرط وأنه انما جعل الوعيد مرتبا عليه ترتيبا، ولكنهم رأوا ان هذا سبب كاف في عدم معارضة الوعد لما رووه من تنصل القوم واستقالتهم من ذلك الطلب واقالة الله اياهم منه. وحينئذ لا يكون عدم انزالها إخلافا للوعد، فان من وعد غيره بشيء وأراد أن ينجزه له مرتبا عليه تكليفاً أو تخويفاً حمل الموعود على عدم القبول لا يسمى مخلفا

وأما جوابه عن الحجة الثانية فله وجه وان أمكن أن يقال جدلا إنه دعوى تحتاج الى اثبات إذ لا يثبت انه كان عند أتباع المسيح عيد للمائدة إلا بنص عن المعصوم أو نقل يعتد به من تاريخهم. وسيأتي ما عند النصارى من ذلك والظاهر ان الرازي لم يطلع عليه، ومنه يعلم ما في قول الحافظ ابن كثير: ان النصارى لا تعرف خبر المائدة وانه ليس في كتابهم المقدس عندهم، نعم ان كتابهم أو كتبهم ليس لها أسانيد متصلة لا بالتواتر ولا بالآحاد. ولكن يقال مع ذلك انه لو كان لسلفهم عيد عام للمائدة لكان من الشعائر التي تتوفر الدواعي على نقلها بالقول والعمل. و يجاب بأنه يجوز ان يكون المراد بالعيد اجتماع الحواريين وأمثالهم لصلاة ونحوها كما قيل، فان هذا يجوز أن ينسى لإخفائهم اياه في زمن الاضطهاد، أو بأن الذين أظهروا النصرانية بعد استخفاء أهلها بالاضطهاد لا يدخلون في عموم قوله (وآخرنا) لانهم بدلوا وهو الذي أجاب به الرازي، أو بان المراد بالعيد الذكرى والموعظة لمؤمنيهم المتبعين له عليه السلام كما تقدم عن سلمان (رض)

ويجوز أيضا ان يكون العيد بغير اسم المائدة، وان يكون معنى قوله « تكون

لنا عيدا » — تكون طعاما للعيد . وهو يصدق باطعامه العدد الكثير من الخبز والسمك القليل في عيد الفصح كما يأتي قريبا .

ثم ان كتب النصارى من الاناجيل وغيرها قسمان أحدهما قانوني وهو ماأقرته الكنيسة واعتمدته ، والثاني غير قانوني وهو مارفضته الكنيسة ولم تعتمده، ومنه انجيل برنابا الذي صرح فيه بالتوحيد الخالص والبشارة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وانجيل الطفولية الذي ذكر فيه مسألة جعله هيئة من الطين كهيئة الطير نفخ فيها فطارت ، فيجوز ان يكون خبر هذه القصة في بعض الاناجيل التي رفضتها الكنيسة وفقدت بعد ذلك ، وقد صرح يوحنا في انجيله بأن الآيات التي عملها المسيح كثيرة لو كتبت كلها لا يسع العالمُ الكتب المكتوبة — واننا نرى بعض أصحاب الاناجيل الاربعة المعتمدة كتب منها ما لم يكتبه الآخرون

وقد صرحوا بأن أكثر كلام المسيح كان أمثالا ورموزا ، و يعدون من هذه الرموز كل ما ورد من خبر الاكل والشرب في الملكوت وكذلك بعض النصوص في الاكل والشرب في الدنيا . فما يدرينا أنهم أشاروا الى هذه القصة ببعض التأويلات حسب فهمهم واعتقادهم اذ كانوا ينقلون ذلك بالمعنى ثم نقل عنهم بالترجمة وقد فقدت الاصول ولا يعلم عنها شيء يقيني كما بينا ذلك من قبل بالنقول عنهم

وأنا أذكر هنا ما في هذه الاناجيل بمعنى قصة المائدة : جاء في أول الفصل السادس من انجيل يوحنا أن المسيح عليه السلام ذهب الى بحر الجليل (بحير طبرية) وتبعه خلق كثير لانهم رأوا آياته ، فصعد الى جبل وجلس هناك مع تلاميذه — وهم الحواريون — قال يوحنا (٤ وكان الفصح عيد اليهود قريبا ٥ فرفع يسوع عينيه ونظر ان جمعا كثيرا مقبل اليه فقال لفيلبس من أين نبتاع خبزا ليأكل هؤلاء ٦ وانما قال هذا ليمتحنه لانه هو علم ما هو مزمع أن يفعل ٧ أجابه فيلبس لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئا يسيرا ٨ قال له واحد من تلاميذه وهو اندراوس أخو سمعان بطرس ٩ هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان ولكن ما هذا لمثل هؤلاء ١٠ فقال يسوع اجعلوا الناس يتكئون ، وكان في المكان عشب كثير فاتكأ الرجال وعددهم خمسة آلاف ١١ وأخذ يسوع الارغفة وشكر ووزع على التلاميذ

والتلاميذ على المتكئين ، وكذلك كل من السمكتين بقدر ما شاؤا)

ثم بين أن المسيح عاتب التلاميذ على الشبع من ذلك الخبز وقال (٢٧ اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي ، للحياة الابدية التي يعطيكم ابن الانسان لان هذا الله الآب قد ختمه ٢٨ فقالوا له ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله ٢٩ أجاب يسوع وقال لهم هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله ٣٠ فقالوا له فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك،ماذا تعمل ٣١ آباؤنا أكلوا المنّ في البرية كما هو مكتوب انه أعطاهم خبزا من السماء ليأكلوا ٣٢ فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء ٣٣ لان خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم ٣٤ فقالوا أعطنا في كل حين هذا الخبز ٣٥ فقال لهم يسوع انا هو خبز الحياة من يقبل الي فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبدا ٣٦ ولكنني قلت لكم انكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون » الخ القصة وفيها تكرار انه هو خبز الحياة النازل من السماء لا المن الذي نزل على أجدادهم ، وان من يأكل جسده و يشرب دمه فله الحياة الابدية لانه يثبت فيه

فهذه القصة أولها يشير الى المائدة الجسدية ، وآخرها يشير الى المائدة الروحية ،وهي قد وقعت في عيد الفصح المتفق عليه عند اليهود والنصارى الى اليوم ،ولا يزال النصارى يحتفلون به ويأكلون فيه خبزا و يشربون خمرا باسم المسيح و يسمونه العشاء الرباني. فهذا دليل على أن لهذه الآية أصلا عندهم ، ونحن نعتقد أن القرآن مهيمن على كتبهم فما حكاه عن أنبيائهم فهو الحق اليقين ، وما نفاه فهو المنفي الذي لا يقبل الثبوت ، ومن الغريب أن يوحنا يثبت هنا ان التلاميذ قالوا للمسيح بعد ما رأوا إطعامه العدد الكثير من الطعام القليل : أية آية تصنع لنرى ونؤمن بك ، وانه قال لهم : انكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون . فهذا يوافق قول من قال انهم سألوا المائدة امتحانا ولم يكونوا مؤمنين حقا كما ادعوا وهو ظاهر الآيتين هنا ، وانما استدللنا على صحة ايمانهم بتسميتهم حواريين ، وبما في آل عمران والصف ، على انه حكاية عنهم أيضا. والله أعلم بالسرائر

---o---

البرهان

على
خروج تارك الصلاة ومانع الزكاة من الايمان

جمع أدلته من الكتاب والسنة محمد على أبو زيد
الطالب بكلية دار الدعوة والارشاد

٣

فها أنت ذا قد سمعت من الآيات ما يدلك على أن مانع الزكاة مشرك بالله ، لانه آثر المال على الله[1] وكافر بيوم المعاد ، لانه لو كان عنده جزم بل ظن به لحمله على الانفاق، فلا إخالك تشك في أنه محروم من الجنة ، وان (مأواه جهنم وبئس المصير)

وهاك أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الدالة على ما قلنا ، المؤيدة لما ذكرنا

أخرج ابن عساكر عن رسول الله (ص) أنه قال « أقسم الله تعالى ألا يدخل الجنة بخيل » وفي رواية للخطيب « يحلف الله بعزته وجلاله ألا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل »

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد والنسائي والحاكم والبيهقي عنه (ص) « لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا » وفي رواية لابن عدي : « لا يجتمع الإيمان والبخل في قلب رجل مؤمن أبدا »

---

(١) المنار : مثل هذا القول لا يمكن حمله على الشرك في الاعتقاد وانما هو من باب حديث « تعس عبد الدينار » وباب (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)

فهذا رسول الله (ص) المبين للدين، الناطق عن الله ، أراك أن البخيل لا يدخل الجنة ، ولم يأت بالخبر الا مؤكدا بالقسم عن الله تعالى

ولا يخفى أن البخل خلق في النفس يمنع صاحبه من بذل فضله لمن يحتاج اليه . والشح أشد من البخل، فهو أكثر منعا منه لصاحبه، وكلاهما ضد للايمان الذي يحمل صاحبه على بذل روحه في سبيل ربه ، فضلا عن بذل ماله وفضله ، فكيف يكون المانع للزكاة مؤمنا وهو لم يمنع الزكاة الا حرصا على المال ، وايثارا له ، وشحا به على الله ؟ فلا شك في كفره وحرمانه من الجنة كما أخبر الله ورسوله

وهنا ربما تقول: أتيتنا بآيات في الصلاة وصفت تاركها بالشرك والكفر والنفاق ، ولم تصف آيات الزكاة مانعها الا بالشرك والكفر فقط . فأقول لك : قد جاء في القرآن أيضا وصف المنافقين بمنع الزكاة . قال عز شأنه في سورة التوبة (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم) فقبض اليد هو امساكها عن الانفاق الواجب من زكاة وغيرها ، وقد علمت حال المنافقين ودرجتهم مما سبق ، فلا حاجة الى الاعادة ، والى هنا ننتهي من أدلة الزكاة وحدها

واني أتلو عليك آيات في الصلاة والزكاة معا

(قال) الله تعالى في سورة البقرة (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر الى ان قال : وأقام الصلاة وآتى الزكاة، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) فانظر كيف جعل البر الإيمان بالله واليوم الآخر ، وإقام الصلاة وايتاء الزكاة والوفاء

بالعهد ، والصبر في الشدائد . وتراه قد ابتدأ بالايمان وعقبه باقامة الصلاة وايتاء الزكاة لانهما تابعان له ، لا ينفكان عنه ، ثم ذكر بعدهما الوفاء بالعهد والصبر في الشدائد، وهما من الاخلاق التي تدعو اليها الصلاة ، وتثبتها في النفس، وقد عرفت ذلك فيما تقدم من الحكمة

ولما كان الإيمان يستلزم إقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وما يتبعهما من الاعمال والاخلاق، وكان محالا — بحسب سنة الله تعالى — أن يوجد الايمان في قلب المرء ويستقر من غير أن يحرك الجوارح لتلك الاعمال، ذيل الآية بقوله « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » أي أولئك الذين أقاموا الصلاة فأتوا بها معدلة مقومة ، وآتوا الزكاة لمستحقيها بنفس طيبة، واتصفوا بهذه الاخلاق الفاضلة ، هم الذين صدقوا في إيمانهم، وهم الذين فعلوا ما يقيهم عذاب ربهم ، دون غيرهم .وهذا نص صريح في أن من يدعي الإيمان من غير أن يكون مصليا لله مزكيا ، تكون دعواه باطلة كاذبة ، اذ لم يأت عليها من أعماله بشاهد أو بينة [1]

وقد قضت حكمة الله تعالى أن يكون الإيمان حياة الروح ، كما أن الدم حياة للجسم ، وكلاهما يحتاج الى ما يمده ويقويه، فكما أن الدم يطلب بطبيعته أن تأتي له الاعضاء بمواد تجهزها له ، وتمده بها ليقوى ويزداد صلاحا لتقوية الجسم على حاجاته ، كذلك الايمان يطلب عملا صحيحا تقوم به الجوارح من الصلاة والزكاة وغيرهما ليغذيه ويزيده قوة فتقوى بقوته

(١) المنار : الاستدلال بعدم الاتيان بالبينة وباستلزام الايمان للعمل يجادل فيه المشتغلون بالعلم بقولهم ان عدم الاتيان بالدليل لا يقتضي عدم المدلول وعدم البينة لا يقتضي كذب الدعوى ، وعدم الملزوم يقتضي عدم اللازم دون العكس ، ويعدون هذا الاستدلال من الخطابيات . وستعلم ان له وجها صحيحا

الروح ، وتستعد بزيادته النفس لأن تكون ملكية صالحة لجوار الله تعالى، وأهلا للتمتع بجناته ورضوانه

وهذا هو السرّ في أن الايمان متى قام بالنفس صرّف الجوارح في العمل حتما ، وأن الايمان لا يوجد في قلب امرئ لا يصلي أو لا يزكي ، كما سمعت من الآيات التي تقرن الايمان بالعمل على الدوام ، وتكذب من يدعي الايمان ولا يعمل ، لانه لو كان صادقا لاتى بالصلاة والزكاة التي تصدقه وتشهد له ، وقد علمت أن غير الصلاة والزكاة من الفضائل هو تابع لهما بالضرورة، ولذلك تجد الآيات تقرنهما بالايمان، وتذكر غيرهما بعدهما ، وفي كثير من الآيات يستغني بذكرهما بعد الايمان ، للاشارة الى ذلك

(قال) تعالى في وصف المؤمنين في سورة النساء (والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما)

س　لم قال (والمقيمين) فأتي بها منصوبة على غير المألوف لنا من قواعد النحو في العطف؟

ج　لتنبيه الذهن، فهو تخصيص يظهر لك به قيمة المقيم للصلاة ، وتأكيد للعناية بها، اذ هي الاصل للفضائل كما أسلفنا، والناهية عن الفحشاء والمنكر، وقد أردفها بأختها الزكاة ، وجعلهما معا وسطا بين الإيمان بالكتب المنزلة من السماء ، وبين الايمان بالله وبالجزاء ، ليفيد أنهما مظهر الايمانين ،وأن المؤمن لابد أن يتصف بالصفتين

وكأنه يقول : ان من لم يتحل بالصلاة والزكاة ، لا يكون مؤمنا بالله ، ولا خائفا من عذاب الله . اسمع قوله تعالى في سورة النور (في

بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار * ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله) الآية

تجد أنه جعل خوف هؤلاء الرجال من يوم القيامة وهوله ، وما يلاقيهم هناك من حسابه ، سببا في ذكرهم ربهم، وإقامة صلاتهم ، وايتاء زكاتهم ، كما أن فعلهم الصلاة والزكاة نتيجة ثقتهم بأن الله يشكرهم على فعلهم ، ويمتعهم بثمرة أعمالهم ، فالآيات تنادي بأن من لم يقم الصلاة ولم يؤت الزكاة لايخاف ذلك اليوم - يوم الدين، ولا يثق بثواب رب العالمين، اذ النفس مفطورة على فعل الشيء متى ترجح لها فيه الخير ، والابتعاد عنه إذا علمت منه الضرر ، وهذه قاعدة نفسية ، تجري عليها جميع الاعمال البشرية ، فمن ادعى خلافها فهو كاذب . ألا تراك حين تعلم أنك اذا وضعت يدك في جحر الثعبان فانه يلدغك ، أو أكلت طعاما فيه سم فانه يقتلك ، لاتستطيع بحسب فطرتك أن تقدم عليه البتة ، اللهم الا اذا زال من نفسك هذا العلم بالضرر ، أو أصابك شيء في العقل فترجح لك النفع في الموت، ولكن مادام العقل سليما ، والضرر مرجحا ، فانك لن يمكنك الإقدام عليه ، فارجع الى وجدانك ، وحقق منه ذلك، فانك لاتشك في أن تارك الصلاة ومانع الزكاة ، لم يمنعه من أدائهما ، الا ما قام بنفسه من ترجيح الخير في تركهما ، وعدم يقينه بأن سيعذب على عدم المبالاة بهما، ولو قرأت قوله تعالى عقب هذه الآية مباشرة (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) الآية — لرأيت انه يقابل الآية التي قبلها ،

ومن المعلوم في سنة القرآن أن يذكر الكافرين ، في مقابل المؤمنين ، فيريك أن من يتخلى عن تلك الصفات انما هم الكفار ، ولا بد للمؤمنين من الاتصاف بها ، فبها يعرفون ، وبها يميزون

(قال) تعالى في سورة المؤمنين (قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون) جعل الفلاح للمؤمنين الخاشعين في صلاتهم، الفاعلين لزكاتهم، فأفهم ألاّ فلاح لغير المؤمن ، كما أنه لا ايمان لمن لا يصلي خاشعا ، ويزكي محبا

س عهدنا من القرآن أن يذكر الزكاة بعد الصلاة من غير فصل ، فلماذا فصل بينهما هنا بقوله « والذين هم عن اللغو معرضون » ؟

ج لينبهك الى نكتة جميلة ، وحكمة جليلة ، وهي ان الصلاة التي ليس فيها خشوع لا يعبأ بها ، وأنها لغو يتنزه المؤمنون عنها ، فليكن لك من كلام الله عبرة ، ترجع فيما تطالبك به نفسك اليه ، وتقيس أخلاقك وما تأتي به من الاعمال عليه ، فمالك من قسطاس مستقيم يزن الاعمال بالضبط غيره ، ولا مقياس صحيح يحدد الصفات بالحق سواه (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق — ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون)

(وقال) تعالى في سورة النمل (طس * تلك آيات القرآن وكتاب مبين * هدى وبشرى للمؤمنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون)

(وقال) في سورة لقمان (الم تلك آيات الكتاب الحكيم * هدى ورحمة للمحسنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)

تراه هنا قد حصر الفلاح فيهم، وأفادك أمراً آخر وهو أن الصلاة والزكاة مع ملازمتهما للايمان بالآخرة، قد يأتي بهما المرء عن غير داعية الايمان، إما للرياء أو الاكراه. وحينئذ لايكون له حظ في هداية القرآن، ولا البشرى بالجنة والرضوان، ومن كان هذا حاله، لاتنفعه صلاته، ولا تقبل منه نفقاته

(قال) تعالى في سورة براءة (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم ألا أنهم كفروا بالله وبرسوله، ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون * فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون)

أنزل الله ذلك في شأن المنافقين الذين لم تكن صلاتهم عن ايمان فينشطوا اليها، ويرتاحوا بها، ولم تكن نفقاتهم عن اخلاص فينفقوا عن طيب نفس ورغبة في القبول، فبذلك كفروا، وجعل الله أموالهم وأولادهم فتنة لهم، ووبالا عليهم، وسينتقم منهم (يوم لاينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم) من عيوب الشرك والنفاق

هذا وقد تضافرت الآيات الناطقة بأن الصلاة والزكاة هما علامتا الايمان بالله، ودليلا الاخلاص له، وأنه لايصح ايمان بدونهما، كما أنهما لا تقبلان من غير أن يكون الايمان باعثا عليهما، وها أنا ذا أزيدك على ما تقدم منها ما تقطع بعد تدبره بان تارك الصلاة ومانع الزكاة لم يمس الايمان قلبه

قال العزيز الحكيم في سورة السجدة الم (انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون * تتجافى

جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون)

(وقال) تعالى في سورة الانفال (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون* الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون* أولئك هم المؤمنون حقا) وقد أتى في الآيتين بلفظ «انما» الذي يدل على الحصر، كأنه يقول سبحانه إنه لايوجد الايمان الصحيح الا فيمن يكون هذا شأنهم، وتلك صفاتهم، فمن لم يهتز قلبه لذكر الله ، ولا يخضع ويذعن لاوامره ، فيرجو ثوابه، ويخاف عقابه ، فليس بمؤمن وإن سمى نفسه مؤمنا ، لان المؤمن يدور دائما بين خوف ورجاء، فخوفه عذابَ ربه يزجره عن المنكرات ، ورجاؤه ثوابه يدعوه الى المسارعة في الخيرات ، فمن لم يك كذلك فاعتقد كذبه في دعوى الإيمان ، وحسبك شهادة الله لمن يقيم الصلاة ويعطي الزكاة بعد ما تقدم بقوله (أولئك هم المؤمنون حقا) بالحصر المؤكد بالحق . فهل بعد هذه أدلة ، تشفي من الغلة ،أو ينتظر برهان ، أرقى من القرآن؟

ولنختم الموضوع بآيات أخرى ودلائل، لاتدع بعدها قولا لقائل فنتلو قول الله الكريم (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين) الآيات ، ففيها يقول الله للمسلمين (فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد، فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم) وفيها يقول (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم — الى أن قال — لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة وأولئك هم المعتدون* فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين)

أمرهم بألا يعتدوا بتوبتهم من الشرك والاعتداء الا اذا اتبعوا التوحيد باقامة هذين الركنين للدين ، لأنهم بهما يصيرون مسلمين متآخين ، وعلى هذا سار الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم ، وقتال الخليفة أبي بكر باجماع الصحابة لمانعي الزكاة ، وعده إياهم خارجين بتركها مشهور ، وبه علم أن الاسلام أركانه متضامنة ، لا يقام الا باقامتها جميعها ، وينهدم بهدم أي ركن منها، وقد عزز ذلك النبي صلى الله عليه وسلم أيضا بالحديث الذي خرجه الامام أحمد[1] « أربع فرضهن الله في الاسلام فمن جاء بثلاثة لم تغنين عنه شيئا حتى يأتي بهن جميعا : الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت » وقد علمت مما تقدم أن من يقيم الصلاة بالخشوع، ويؤتي الزكاة بالاخلاص ،لا يسعه أن يترك غيرهما من الفروض، ولا يمتنع عن تقوى الله ما استطاع، ولذلك اختصرنا عليهما اذ يوشك أن تضيع كل فضيلة بضياعهما ، وعدم المبالاة بهما

فاتقوا الله يا معشر المسلمين ، واعلموا أنكم لستم بمأجورين ، حتى تحذوا حذو سلفكم الصالحين ، فتكونوا بالصلاة والزكاة آمرين مؤتمرين وعلى يد التاركين لهما ضاربين ، (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين) تتعاونون على نشره ، وتتكاتفون في احياء شعائره ، فتعلون كلمته ، وتجنون ثمرته

هذه نصيحتي أقدمها اليكم ، عسى أن تكون وسيلة لديكم ، فتطلبوا الحق من القرآن ، ولا تستبدلوا التقليد بالبرهان

هداني الله واياكم ؟ محمد على أبو زيد

(١) المنار : رواه عن زياد بن ربيعة بن نعيم مرسلا

[المنار] عنوان هذه الرسالة والكثير من عباراتها مخالف في ظاهره لمذهب أهل السنة في عدم تكفير المسلم بترك فريضة أو فعل معصية، وموافق لمذهب الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة كترك أحد أركان الاسلام أو اقتراف القتل أو الزنا أو شرب الخمر، وقد تعارضت ظواهر نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب فأطلق اسم الكفر في بعض أحاديث صحيح مسلم على ترك الصلاة وعلى الطعن في النسب والنياحة على الميت وفي حديث الصحيحين «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر (وفيهما) اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» وقال تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) فسماهما مؤمنين . وقال تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فجمع أهل السنة بين هذه النصوص وأشباهها بأن لفظ الكفر — ومثله الفسق والظلم — ورد في الكتاب والسنة بالمعنى اللغوي فأطلق على كفر النعمة وعلى الشرك وما في معناه من منافيات الايمان بالله ورسوله وتصديق ما جاء به الرسول (ص) عن الله تعالى . وكذلك الفسق والظلم — قال تعالى (ان الشرك لظلم عظيم * والكافرون هم الظالمون * كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون) وقال (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) فهذا الفسق دون ماقبله . وكذلك لفظ الشرك وهو أقبحها أطلق على مادون اتخاذ إله مع الله فسمي الرياء شركا

وجملة القول ان أهل السنة لا يكفرون أحدا من المسلمين بمعصية يرتكبها فعلا كانت أو تركا وان كانت من الكبائر ، الا أن بعض أئمة أهل السنة من الصحابة والتابعين قالوا بكفر تارك الصلاة كما تقدم في تعليقنا على حديث مسلم في أول هذه الرسالة، وأطلق جمهورهم كلمة «المرتدين» على مانعي الزكاة بعد وفاة الرسول (ص) كما أطلقوه على من رجعوا عن الاسلام الى الشرك أو الايمان بنبوة الكذّابين مسيلمة والاسود العنسي ، ولكن قال علماء السنة ان الذين منعوا الزكاة تأولا بأن أخذها خاص بالنبي (ص) لم يسموا مرتدين الا بالتبع لغيرهم أو بمعنى الارتداد اللغوي . وان الاجماع انعقد في عهد الصحابة بأن من منع الزكاة متأوّلا — ومثله من جحد مافي معناها وحكمها — تقام عليهم الحجة أولا فان اعترفوا بوجوبها ولم يؤدوها لا يحكم بكفرهم بل يقاتلون قتال البغاة لا الكفار، كما قاتل الصحابة الخوارج ولم يكفروهم ولا عاملوهم معاملة الكفار في القتال

هذا — وان وراء هذه المسألة بحثاً آخر وهو : انه لا يعقل أن يكون المرء مؤمنا بالله تعالى و برسوله و باليوم الآخر على الوجه الحق الذي دعا اليه القرآن ، ومسلما مذعنا في ظاهره و باطنه لما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، وهو يترك الصلاة التي هي عماد الاسلام وركنه الاعظم للعبادات الشخصية ، والزكاة وهي ركنه الاعظم الذي تقوم عليه حياته الاجتماعية ، غير مبال بنصوص الكتاب والسنة التي قرنتهما بالايمان، وعدتهما أعظم أركان الاسلام ، وقد عد السلف العمل بما أمر الله ورسوله داخلا في مفهوم الايمان ، والاذعان شرط لصحة الايمان بالاتفاق . وكيف يكون مذعنا من لا سلطان للامر والنهي على قلبه ، ولا يظهر لهما أثر في عمله ؟

لقد أحسن من عبر عن المسألة بقوله «لا نكفر أحدا من أهل القبلة» أي من ثبت إسلامه باذعانه لما جاء به نبينا ، بأن كان يصلي معنا الى قبلتنا ، ويلتزم أحكامنا وشعائرنا، فاننا لا نحكم بكفره لذنب يقترفه بجهالة كثورة غضب، أو نزوة شهوة، أو فريضة يتركها بشغل عارض ، أو بردقارس، ثم يتوب من قريب، إذعانا لمقتضى الوعد والوعيد (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم * والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله؟ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) لا إيمان لمن لا اذعان له، ولا إذعان لمن لا اسلام له، ولا اسلام لمن لا عمل له، وأعمال الاسلام قسمان أركان كأركان البيت يتوقف عليها وجوده، وواجبات ومندوبات يتوقف عليها كماله، فهذا هو الاسلام الديني

وهناك اسلام آخر هو عبارة عن جنسية سياسية أو اجتماعية تنال بالوراثة أو بالانتماء الى قوم يسمون مسلمين ، وهذا الاسلام لا يشترط فيه العلم بعقائد الاسلام الديني و لا القيام بأركانه وشعائره الظاهرة، ولا ترك محرماته المجمع عليها ولا استقباحها، ولا ينافيه إنكار شيء من القرآن ولا استتباح شيء من شرعه كتحريم تبرج النساء والخمر والقمار، وانما يعرف بالاسم و بمشاركة المسلمين في بعض احتفالات أعيادهم ومواسمهم المشروعة والمبتدعة ، و بعدم التزام شعائر دين آخر . واننا نرى بعض الملاحدة من هذا الجنس يريدون هدم الاسلام الديني بالاسلام الاصطلاحي الجنسي، حتى انهم يبيحون جحد المجمع عليه المعلوم منه بالضرورة وأولئك هم المرتدون المنافقون

مدرسة

دار الدعوة والارشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

١١

أنواع أمراض الاحياء الطفيلية الميكروبية

هذه الامراض نوعان : منها ما عرف ميكروبه باليقين ، ومنها ما لم يعرف الى الآن. ومن أسباب ذلك أن جميع المجاهر أو النظارات المكبرة (الميكروسكوبات) الحالية لا تكشف الا ما بلغ طول قطره ١٦و٠ من الميكرومليمتر أو أكثر . أما ما قل عن ذلك فلا يمكن رؤيته الى الآن مطلقا ويسمى [بما وراء المجهر] (Ultra-microscopic) وهذه الميكروبات تمر خلال أحكم النواضح (المرشحات) مثل ميكروب الكَلَب وجدري البقر

أما الميكروميليمتر المذكورهنا — ويسمى أيضا [الميكرون] — فهوجزء من الف من المليمتر، ويرمز اليه بهذه العلامة (μ) في الافرنجية وبحرفي (مك) في العربية والميكروبات المعروفة اما نباتية أو حيوانية — كما سبق —

الامراض التى تنشأ من الميكروبات النباتية

الحمى التيفودية Typhoid Fever

لفظ التيفود يوناني معناه [شبه التيفوس] ومعنى كلمة [تيفوس] الصاعقة، سميت بذلك الحمى المعروفة لانها تصعق المريض

هذه الحمى من الحميات الشهيرة المعدية وتمكث عادة نحو ثلاثة أسابيع ، وقد يُنكَس فيها المريض مرة أو اكثر . وأهم مميزاتها طفح قرنفلي واسهال مع التهاب وتقرح في بقع (پايير) وفي الغدد المنعزلة للامعاء . ولاصابة الامعاء فيها بالتقرح اسمى أيضا بالحمى المعوية

الاسباب – هذه الحمى لاتميز الا قليلا بين الذكر والانثى، ولكن للعمر تأثيرا كبيرا فيها فهي تكثر في سن الشباب الى ٣٠ سنة و بعد ذلك تقل كثيرا، غير انها قليلا مـًا تصيب الاطفال والشيوخ ، واذا أصابت الاطفال كانت الاصابة خفيفة ومدتها قصيرة ، واضرارها بالامعاء أقل مما في الشبان

تكثر هذه الحمى بين شهري أغسطس ونوفمبر، أو في فصل الحر والجفاف. واذا أصيب بها المرء مرة وقته من الاصابة بها مرة أخرى . وميكروبها من الشكل الباسيلي، كثير الحركة باهدابه ، طوله ميكرونان أو ثلاثة ، ويتكاثر بالانقسام ، ولا حبيبات له . ويوجد بكثرة في البراز وفي البول[1] وفي اللعاب أيضا (في المضاعفات الرئوية) وفي العرق ، ويوجد كذلك في قيح الخراجات التي تنشأ من هذه الحمى . وقد ينتقل من الام الى جنينها

فاذا وصل هذا الميكروب الى أي شيء مما يأكله الانسان أو يشرب به انتشر المرض بين الناس . والذي اكتشفه هو [ايبرت Eberth] سنة ١٨٨٠ وهذا الميكروب يعيش حتى في الثلج ولا يقتله عصير المعدة الحامض ويقاوم درجة ٤٤ الى ٤٥ سنتيجراد مدة طويلة جدا، ولذلك قد يصل الى الانسان من مثل القشدة المثلوجة وغيرها، ويدخل هذا الميكروب كثيرا في الاسماك الصدفية أي المحار (كأم الخلول) التي تؤكل عادة بلا طبخ ويعيش فيها الميكروب وهي حية لغاية ١٨ يوما بدون أن يظهر عليها عرض مـًا . واذا جف الطين وصار بحيث تثيره الريح عاش الميكروب فيه ٢٥ يوما فينتقل بذلك الى طعام الانسان وشرابه . وكذلك الذباب ينقله أيضا . وقد يعلق هذا الميكروب بالخضروات كالفجل والجرجير ونحوهما مما يؤكل

(١) وجوده فى البول كثير خصوصا فى الاسبوع الثالث وفي طور النقاهة بل بعدها بسنين

غضا ، فكل هذي الاشياء هي مما ينقل المرض من شخص الى آخر . وكثيرا ما تتلوث الآبار أو الانهار أو أنابيب المياه من المراحيض التي يلقى فيها إفراز المرضى . وقد ثبت انه يعيش في قذارة المراحيض من ٣ الى ٥ أيام ولكن يوجد في هذه المواد القذرة من الميكروبات ما يقتله بعد ذلك

واذا عرض هذا الميكروب لنور الشمس مات بعد ٤ ساعات وقد يبقى الى ٨ ساعات ، واذا وجد في الارض مختبئا عاش شهرين كاملين

ومن الناس من يحمل هذا الميكروب في جسمه عدة أشهر بل عدة سنوات بعد الشفاء من الحمى ويكون سببا في عدوى الكثيرين ببوله وبرازه [1] ومن المحقق ان المرارة هي غالبا مسكن الميكروب في هؤلاء الحملة (خصوصا من النساء) وفيها يتكاثر بعد الشفاء (راجع صفحة ١٦ و ١٧ من هذا الجزء)

والطريق الوحيد للعدوى بهذا المرض هو الجهاز الهضمي فاذا وصل الى أي جزء منه — كالفم مثلا — اذا ذرته الرياح فدخل غباره في جوف الانسان فمن الجائز أن يصاب بهذا المرض ، وان كان الغالب في العدوى ان يزدرده الانسان في الطعام أو الشراب

الاعراض — مدة التفريخ تكون في أكثر الاحوال نحو أسبوعين وقد تكون ٥ أيام فقط أو ٢٢ يوما . ويبتدئ المرض بإحساس المريض تدريجيا بضعف وتكسر في الجسم ويسأم العمل ويشعر بصداع وآلام في الاطراف والظهر وبالاقهاء (فقد شهوة الطعام) وقد يحصل له غثيان أو قيء . وفي أغلب الاحوال لا يمكن للمريض أن يعين بالضبط مبدأ لهذه الاعراض — بخلاف بعض الحميات الاخرى التي تبتدئ فجأة — ويكون الصداع شديدا (وأكثر شكوى المريض منه) وفي كثير من الاحوال يحصل له إسهال . وقد يحاول المريض في أول الامر أن لا ينقطع عن عمله الا أنه في أواخر الاسبوع الاول يضطر الى ذلك ويلجأ الى الفراش . وكذلك تبتدئ الحرارة بالتدريج حتى تصير بعد أيام قلائل نحو ٤٠° ويسرع النبض وتزداد مرات التنفس . وفي نحو اليوم السابع أو العاشر يكون عند المريض

(١) خروج الميكروب مع البراز ليس متتابعا بل متقطعا فاذا وقف زمنا ما فقد يعود ثانية ، ولذلك فمن المتعذر القطع بطهارة الحامل منه وعدم عدواه لغيره

ذهول وضعف شديد و يحتقن خداه ويجف اللسان ولا يزال يشتكي من الصداع. ويحصل له أحيانا عرق غزير أو رعاف . ومن اليوم السادس الى اليوم الثاني عشر يظهر الطفح القرنفلي المخصوص وهو نقط أو بقع صغيرة وردية مستديرة مرتفعة قليلا عن سطح الجلد تزول بالضغط عليها ولا يحصل فيها نزف كما في التيفوس ، وتشاهد هذه النقط على البطن والصدر وقد ترى أيضا على الجنبين والظهر أو العضدين والفخذين ؛ و يتراوح عددها بين ٦ الى ٢٠ أو ٣٠ وقد تزيد على ذلك بكثير . وفي بعض الاحوال لا يكون لهذا الطفح وجود — خصوصا في مصر — وهو لا يظهر دفعة واحدة بل تدريجيا ، وتمكث كل نقطة ٣ أو ٤ أيام ثم تزول و يخلفها غيرها حتى نهاية الاسبوع الثالث أو بعده . و بعد الموت تزول هذه النقط

وفي الاسبوع الثاني يكون البطن منتفخا و به آلام ، و بالضغط على الحفرة الحرقفية اليمنى يشعر المريض بالألم القليل، وقد يحس الطبيب بقراقر مخصوصة. و يشتد الاسهال ، ولكن في بعض الاحوال — خصوصا في مصر — يكون البطن معتقلا من أول المرض الى آخره ، وللبراز في هذا المرض رائحة كريهة مخصوصة ولون أصفر يشبه حَساء (شوربا) العدس المصري . وقد يحصل نزف من البطن يكون سببا في الموت أحيانا . و يكثر الطحال و يقل البول

أما الصداع فانه لا يمكث عادة بعد اليوم العاشر وقد يصاب المريض بالصمم الوقتي . وفي أواخر الاسبوع الثاني تبتدئ الحرارة في النزول تدريجيا حتى تصير طبيعية . هذا في الاحوال الحسنة

أما في الاحوال السيئة فيشتد الهذيان والنعاس الذي تعقبه الغيبوبة ، و يحصل الاهتزاز الوتري ، وتجتمع الاوساخ على الاسنان والشفتين وغيرهما و يضعف القلب و يكثر السعال و يعسر الشفاء

وقد ينكس الانسان بعد الشفاء من هذا المرض ، فانه لوحظ أن نحوا من ١١ مريضا في المئة ينكسون ، وقد تكون الفترة بين المرة الاولى والثانيـة ١١ يوما. وفي الغالب تكون مدة النكس مثل المدة الاولى في طولها ولكنها أخف منها ، وقد ينكس ثانية وثالثة ورابعة

وأهم تغيير يحصل في الجسم بهذا المرض هو التهاب بقع (پايير) المذكورة والغدد المنعزلة. وفي اليوم العاشر أو بعده بقليل تتقرح هذه الاجزاء وقد ينثقب البريتون فتخرق الامعاء ويحصل التهاب بريتوني شديد يعقبه الموت . أما التغيرات في بقية الاعضاء فهي كما ذكر سابقا في المقدمة ، وكثيرا مًّا يشاهد في التيفود اذا طالت مدته تغير العضلات الذي ذكره [زنكر Zenker] فتستحيل اليافها الى مادة شفافة كالشمع ثم تتفتت وتصير حبيبات صغيرة و بذلك تفسد العضلات وقد يتولد فيها خراج

المضاعفات والاشكال المختلفة — مضاعفات هذا المرض كثيرة منها النزلة الشعبية والالتهاب الرئوي أو البليوراوي أو البريتوني أو السحائي، وغير ذلك كثير

ومن أنوعها مالا يمكث الا عشرة أيام و يسمى بالنوع المجهض [Abortive] أو يطول الى ٦ أسابيع. ومن الناس من لايشعر بالمرض لشدة خفتـه ولكنه قد تثقب أمعاؤه فجأة فيموت . واذا شفي المريض لاتعود اليه قواه العقليـة والجسمية الا تدريجا فيحتاج في الاحوال البسيطة الى ثلاثة أشهر من مبدإ المرض الى تمام نقاهته ، أما في الحالات الشديدة أو المتضاعفة أو ذات النكس فيحتاج الى ٥ أو ٦ أشهر من مبدإ المرض

الانذار(١)— عدد الوفيات بهذا المرض هو من خمس الى عشرين في المئة . ومن أشد الاشياء خطرا على الحياة ثقب الامعاء والنزف

المعـالجة — هي كما سبق في باب الحميات، انما نُذكّر هنا بعدة مسائل (١) أن لايعطى المريض مسهلا الا في أول المرض، وأفضل المسهلات عندئذ زيت الخروع ، ولا يجوز بحال من الاحوال اعطاء مسهل شديد البتة (٢)يجب التزام الراحة التامة على الظهر حتى يتبرز المريض في اناء مفرطح منعا لكل حركة ويجب بقاء المريض على الغذاء السائل مدة ١٠ أيام على الاقل بعـد نهاية المرض . والغرض من ذلك كله منع الانثقاب والنزف(٣) من الاطباء من يعطي أدوية مطهرة للامعاء

(١) لفظ اصطلاحي يراد به الانباء بمصير المرض، وذلك مبني على مايذكر في الكتب الطبية — تحت هذا العنوان — من الاحصائيات والمشاهدات ونحوها

(كالسالول) والزئبق الحلو بمقادير صغيرة ، ولكن نفع هذه الاشياء قليل ، وغاية الامر انها قد تقلل الاسهال والرائحة الكريهة للبراز (٤) اذا زاد الاسهال عن أربع مرات يوميا وجب العلاج والا فلا (٥) لا بأس من شرب الماء بكثرة فانه منعش ويغسل سموم الجسم في العرق والبول . وماء الجير نافع جدا اذا مزج باللبن فانه يسهل هضمه ويمنع الغثيان والقيء ويمسك البطن ويقوي خلايا الجسم ، فان الجير لازم لحياة جميع الخلايا (٦) يعالج الصداع بوضع الماء المثلوج على الرأس أو بتعاطي الفيناستين (بقدر ٥ — ١٠ قمحات) أو غيره

للوقاية — (١) تطهر جميع مواد البراز والبول وغيرهما بوضع مثل الفنيك عليها بنسبة ٥ في المئة لمدة ساعتين على الاقل قبل القائها في المراحيض

(٢) يغلى كل ما يستعمله المريض من ملبس وفرش وأواني وغيرها مدة نصف ساعة على الاقل

(٣) يجتنب إلقاء أي شيء مما يخرج من المريض أو يمسه في مجاري ماء الشرب أو تركه مكشوفا بحيث ينقله الذباب أو الريح ، بل يجب تغطية أواني البراز أو البول بخرقة مغمسة بمحلول الفنيك — بنسبة ٥ في المئة أيضا — منعا لانتقال الميكروب بواسطة الذباب الى أهل المنزل

(٤) يجب غسل يدي كل من خالط هذا المريض بالماء والصابون ثم بمحلول السليماني ١ في ١٠٠٠ أو بمحلول الفنيك أو بالغول (الكحول) النقي بوضعهما فيه خمس دقائق قبل أن يمس أي شيء من طعامه

(٥) في وقت انتشار هذا الوباء يجب غلي كل طعام وشراب . وأحسن طريقة لتطهير الخبز ونحوه امراره في لهب الكحول أو وضعه على الفحم الملتهب ، وينبغي أيضا الامتناع عن أكل الخُضَر كالفجل والجرجير والفاكهة الا اذا غسلت جيدا بالماء الغالي وأزيلت قشورها وكذلك يجب اجتناب أكل الحيوانات البحرية المذكورة سابقا واللبن المثلوج

(٦) يلقح السليم بالحقن تحت الجلد بميكروب الحمى التيفودية بعد قتله ، وذلك بأن يربى ميكروب التيفود لمدة ٤٢ ساعة ثم يوضع في محلول ملح الطعام ١ في ١٠٠

ويقتل بعد ذلك بحرارة درجتها ٥٣ سنتيجراد لمدة ساعة وليحترس من رفع الحرارة اكثر من ذلك لانها تفسد مادة التطعيم، ويحقن المريض مرتين بينهما فترة عشرة أيام . وعدد الميكروبات التي يجب أن تحقن في المرة الاولى نحو ٥٠٠ مليون وفي الثانية نحو ١٠٠٠ مليون، ويوصي بعضهم بحقنة ثالثة من ٢٠٠٠ مليون . وللحقن في زمن انتشار الوباء عيب وهو ان القابلية للمرض تزداد بعد الحقن لمدة قصيرة فيكون الانسان فيها عرضة للاصابة . وأحسن الاوقات للحقن ما كان قبل قيام المسافر ونحوه الى مكان الوباء ببضعة أيام

(٧) تطهر الاواني اذا تعسر غليها بمحلول حامض الكبريتيك — بنسبة ٢ في المئة — ومزيته أن الآثار التي تبقى منه لاتضر صحة الانسان مطلقا بل ان طعمه الحمضي مما يحرض شهوة الطعام ويعين على الهضم

(٨) لايجوز للناقهين التبول أو التغوط في الطرقات، ولذا يجب تقصير الثياب وخلع المرء نعليه عند دخوله حجرات منزله . ولا يخفى أن من آداب الاسلام تقصير الثياب فان في اطالتها اسرافا وخيلاء وضررا صحيا عظيما

(٩) تتقى مخالطة الناقهين مدة ثلاثة أشهر على الاقل أو الى أن يظهر البحث البكتيريولوجي طهارتهم من الميكروبات تماما بعد عمله عدة مرات متباعدة والا وجب منعهم عن مس أي طعام أو شراب وتطهير أيديهم وملابسهم وفرشهم أو مفرزاتهم دائما وغلي كل طعام أو شراب مسوه قبل تناوله

طريقة فيدال لتشخيص الحميات

Widal's Test

هذه الطريقة مبنية على أن مصل دم المرضى بالتيفود يبطل حركة ميكروباته في بضع دقائق ثم يتراكم بعضها على بعض فيتكون منها أكوام وذلك ما يسمى بالافرنجية [Agglutination] وهي كلمة لاتينية معناها الحرفي (التغرية) لان الميكروبات في اجتماعها تكون كانها غريت بعضها ببعض بعد أن بطلت حركتها، والاحسن أن نسمي ذلك (بالارتكام) والميكروبات في هذه الحالة لاتكون

ميتة كما يتوهم بعض الناس . وملخص هذه الطريقة عملا أن يؤخذ جزء من دم المريض في أنبوبة دقيقة مطهرة ، ثم تمزج نقطة من مصله بجزء أكبر من السائل الذي ربي فيه الميكروب بنسب مخصوصة أفضلها ما كان (من ١ الى ٣٠) و ينظر اليه بالميكروسكوپ بطريقة (النقطة المعلقة) فبعد نصف ساعة أو ساعة لا يشاهد غالبا ميكروب واحد منفردا ، وقد فسر العلماء ذلك بعدة تفاسير لا حاجة لذكرها لان الحقيقة مجهولة ، وهذه الطريقة لا تنجح الا بعد مضي بضعة أيام من المرض ، والاحسن أن يؤخذ الدم بعد الاسبوع الاول ، وفي بعض الاحوال لا تنجح مطلقا وتكون الحمى حينئذ شديدة ومميتة ، وفي البعض الآخر يستمر نجاحها لعدة أشهر بعد انتهاء المرض . وهي تستعمل في الحميات الاخرى التي عرف ميكروبها باليقين كالحمى المالطية ، ويؤخذ الدم من شحمة الاذن أو الاصبع بالوخز بابرة أو نحوها

ولا يتعين استعمال المصل في طريقة فيدال هذه ، بل يجوز أن تعمل بدم متجمد فيذاب بقليل من الماء المقطر و يستعمل كالمصل ، ويجوز أيضا استعمال الميكروب الميت فانه يتراكم أيضا وكذلك الميكروبات غير المتحركة

الحمى الپاراتيفودية Para_typhoid

كلمة [پارا] يونانية معناها « قريبة » لان هذه الحمى تقرب جدا من التيفودية في أعراضها وسيرها بل في جميع مميزاتها تقريبا غير أنها تكون عادة أخف وطأة وأقصر مدة ، والبطن يكون — في النوع الاول منها — غالبا معتقلا ، وهي غير مميتة إلا نادرا . وتنتشر أحيانا بشكل وبائي ، وقد تحصل في جميع بقاع الارض . وأهم الاسباب في انتشارها الماء الملوث وميكروبها كميكروب الحمى التيفودية الا في بعض أشياء قليلة من الوجهة البكتيريولوجية . أما في الشكل والحركة فهما سيان . وهذا الميكروب لايتراكم بمصل دم الحمى التيفودية . وهو نوعان: النوع الاول يسمى (أ) والثاني (ب) أما (أ) فانه أشد شبها بميكروب التيفود ، وأما (ب) فانه أضر . واذا مات الشخص بسبب هذه الحمى كان غالبا مصابا بميكروب (ب) وقد تخرق أمعاء المصاب بسبب تقرح اللفائف ولكن تكون بقع پايير سليمة وفي بعض

الحالات لا يوجد شيء في الامعاء ، وفي اصابة واحدة شوهدت ضخامة غدد المساريقا ، وفي كثير من الاصابات يكبر الطحال

أما المعالجة والوقاية فهي كالتيفودية سواء بسواء . وهذه الحمى تقي من أصيب بها من مثلها ولا تقي من التيفود

الحمى المالطية Malta Fever

تسمى هذه الحمى أيضا بحمى البحر الابيض المتوسط لانها كثيرة الحصول في شواطئه وفي جزائره ولكنها توجد أيضا في جنوب أفريقيـة والهند والصـين وغير ذلك

الاعراض — طور التفريخ يتراوح بين بضعة أيام و٣ أو ٤ أسابيع . وتبتدئ الاعراض تدريجيا كما في الحمى التيفودية ولكن لا يظهر فيها طفح ويكون البطن ممسكا، ولا تتقرح فيه بقع (پايير) ولا تضخم . والوفيات فيها قليلة (نحو ٢ في المئة) ولكنها تطول جدا فقد تمتد الى ٩ أشهر، ويشفى منها المريض بالتدريج ويصير ضعيفا أصفر اللون وقد تلتهب مفاصله أو خصيتاه

أسبابها — لهذه الحمى ميكروب من النوع البزري وهو لا حركة له ولا أهداب (وان ادعى بعض الباحثين أن له أهدابا) أما ما يشاهد فيه من الحركة فهي حركة برون [Brown] وهو اسم امرئ نباتي يسمى (روبرت برون) شاهدها في قطرات الندى ولكنها ظاهرة طبيعية يمكن مشاهدتها في كل سائل فيه ذرات دقيقة فتهتز هذه الذرات مع حركة رحوية قليلة حول نقطة معينة، وسببها اختلاف درجة الحرارة في السائل بالتبخر القليل الذي يحصل من سطحه

وأعظم ما ينقل ميكروب هذه الحمى الى الانسان هو لبن المعز، فان المعز تصاب كثيرا بهذا الميكروب في جزائر البحر الأبيض وفي جنوب أفريقية وغيرها بدون أن يظهر فيها عرض مَّا لهذا المرض (إلا ضعفا في بعضها أو التهابا في ضروعها) ولكنها تفرز في لبنها كثيرا من هذا الميكروب

وللوقاية منه يجب اجتناب أكل أو شرب هذا اللبن أو ما يصنع منه كالزبدة أو

الجبن الحالوم الا اذا كان اللبن غلي قبل صنع الجبن منه. ويجوز أن يدخل الميكروب من جرح بالجلد اذا مسه هذا اللبن أو ينتقل بواسطة الحشرات الماصة للدم كالبعوض مثلا فان الميكروب يعيش في جسمه أربعة أيام أو خمسة

وهذه الحمى تصيب الذكر والانثى على السواء تقريبا وهي أكثر حدوثا في سن الشباب منها في الكبر ويكثر حصولها في أيام الحر

الدفثيريا Diphtheria

الدفثيريا كلمة يونانية معناها الغشاء، وهي عبارة عن مرض معد رديء، أهم مميزاته أنه يصيب الأغشية المخاطية للفم أو الحلق أو الأنف أو الحنجرة أو غير ذلك فيتكون غشاء أبيض فوق هذه الاجزاء الملتهبة، وقد يصيب هذا الغشاء أيضا سحجات الجلد أو جروحه

واذا أصاب الملتحمة (غشاء العين) أتلفها في ٢٤ ساعة

الاسباب — هذا المرض يصيب الاطفال خصوصا بين السنة الثانية والعاشرة أو الثانية عشرة و يندر حصوله لغيرهم. وهو ينتشر بالهواء لمسافات قصيرة. ويخرج الميكروب في افرازات المصاب أثناء عطاسه أو سعاله مثلا، أما نفسه الهادىء فلا يضر. ويعيش ميكروب الدفثيريا مدة طويلة اذا سكن في طيات الثياب وهي مما ينقله الى مسافات أبعد من مسافة انتقاله في الهواء. ويعدي هذا المرض حتى في مبدئه قبل أن تظهر جميع أعراضه. ورطوبة المنازل والأهوية الفاسدة مهيئات له، وكذلك أمراض الحلق كالتهاب اللوزتين. وقد ينتقل الميكروب بالطعام أيضا الى مسافات بعيدة. وتصاب بعض الحيوانات به خصوصا القطط والبقر فيعدي لبنها حينئذ اذا لم يغل؛ و يصاب الحمام والدجاج والخيل والغنم بمرض يشبهه. والقول الراجح عند العلماء الآن ان مرض هذه الحيوانات المذكورة أخيرا لاعلاقة له بمرض الانسان ولا ينتقل اليه، ولكن لاخلاف بينهم في اصابة القطط والبقر به فتظهر بثور وقروح دفثيرية في ضروعها. والفيران لا تصاب به، أما تلك الحيوانات الداجنة التي لا تصاب به فقد تتلوث بميكروب دفثيريا الانسان وتكون كحاملي الامراض فتنقله من مكان الى آخر ومن انسان الى انسان

ويرى بعض العلماء ان ميكروبها يعيش مدة طويلة في الطين، والهواء المحتبس في جوف الارض يخرجه منها اذا ارتفعت مياهها -- كما سبق — ويكثر هذا المرض في فصلي الخريف والشتاء وهو الزمن الذي تكثر فيه القرمزية والتهاب الحلق أو الحنجرة أو اللوزتين

ويجوز أن يعود المرض للمرء بعد شفائه . وميكروب هـذا المرض يوجد في الطبقات العليا للاغشية المذكورة،واذا طال المرض وجد في الرئة والطحال والكليتين بل ربما وجد في الدم أيضا . وهو من الشكل الباسيلي اكتشفه كل من [كابز Klebs] سنة ١٨٨٣ [ولفلر Loeffler] سنة ١٨٨٤ وهما عالمان من علماء الالمان . وطول هذا الميكروب يختلف من ٣ الى ٤ ميكرون ، وهو غير متحرك ولا حبيبات له بل يتكاثر بالانقسام، و يعيش في الهواء ولكنه يمكنه أن يعيش في غير الهواء حتى في الفراغ ، و يبقى في السوائل المغذية وغيرها من المزارع مدة شهر واذا جفف عاش ٣ أو ٤ أسابيع و يقف نموه اذا زادت الحرارة عن ٤٠° أو نقصت عن ٢٠° سنتجراد

واذا شفي المصاب وجد الميكروب في حلقه في نصف عدد الناقهين لمدة ٣ أيام وفي أحوال قليلة يبقى ٣ أسابيع وقد يستمر الى ٥ أشهر بل ١٥ شهرا . ومن ذلك يعلم خطر الاسراع في خلط المصاب بغيره من الاطفال قبل مضي مدة طويلة . والافضل أن يفحص حلق الطفل أو أي موضع آخر للاصابة مرتين أو ثلاثا فحصا بكتيريولوجيا بأخذ جزء من افرازاته فاذا لم يوجد الميكروب بعد الفحص مرتين أو ثلاث مرات متفرقة يؤذن للطفل بأن يختلط بغيره

وممن يختلط بالمصاب أناس (٨—٣٠ ٪) أصحاء يحملون الميكروب في حلوقهم وأفواههم [1] لغيرهم و يبقون أصحاء ولكن بعد زمن يصبح ميكروبهم غير خطر غالبا على غيرهم لفقده قواه السامة ، و يسمي الاطباء مثل هؤلاء الناس بالحمَلة الاصحاء . ويرى بعض العلماء أن باسيل هوفمان [Hofmann] الكاذب الذي يوجد أحيانا في حلوق الاصحاء وأنوفهم قد ينقلب فيصير صادقا أي محدثا للدفتيريا الحقيقية

---

(١) خصوصا في أسنانهم لاسيما اذا كانت مصابة بداء ربح (راجع ص ٦٨ من الجزء الاول) وهو الذي يحدث سيلان قيح من السِّنخ (الحفرة التي فيها السن)

الاعراض — مدة التفريخ تختلف من يومين الى ستة أيام، وقد تكون يوماً أو ثمانية. ويبتدئ المرض بالإِقهاء و بسآمة وصداع أو بغثيان وقيء ورعدة ثم لا يلبث المريض أن يشتكي من ألم في الحلق. فاذا نظر الى حلقه في هذا الوقت شوهد احمرار فيه وفي اللهاة وانتفاخ ، أو احمرار والتهاب في اللوزتين . و بعد وقت قصير يرى الغشاء يتكون على سطح الاغشية الملتهبة وقد يظهر في وقت واحد على اللوزتين معا ، وقد يبدأ بواحدة منهما قبل الأخرى ، ومن الجائز أن يظهر على غيرهما من أجزاء الحلق . و بسبب هذا الالتهاب تلتهب بعض الغدد اللمفاوية التي في العنق[1] وقد يحدث من ذلك خراج فيها أو تموت الغدد وتسقط

وحرارة الدفتيريا لانظام لها فقد تزيد عن ٤٠° ولكن الأغلب أنها تكون أقل من ذلك ، وهذا الارتفاع تصحبه الأعراض الاخرى للحمى . وفي كثير من الاصابات يشتمل البول على زلال في وقت اشتداد المرض . أما اذا أصابت الانف فيعسر التنفس منه وينتفخ غشاؤه المخاطي و يسيل منه مخاط وقيح أو دم وصديد فيتقرح بذلك جانبا الانف وما جاورهما من الشفة . وخطر الالتهاب الأنفي الغشائي نادر جدا ولا عواقب له ، ويندر أن يعدي الآخرين ولو أن الميكروبات تكون فيه كثيرة كغيره

واذا أصابت الدفتيريا الحنجرة (وهذا ما يسمى بالخُناق) كثر السعال وصار له صوت مخصوص وعسر التنفس وبح الصوت وكثيرا ما يشتد الضيق حتى يختنق المريض

وفي الاحوال الحنجرية يكون هذا الضيق غالبا هو السبب في الموت. واذا عمل للمريض فتح في القصبة الهوائية فقد يموت بسبب المضاعفات الرئوية أو الضعف العام مع شلل القلب

أما في الاحوال الحلقية فالموت فيها يكون بشلل القلب وهو يحصل بسرعة عجيبة

المضاعفات — كثيرة منها التهابات الرئة والبليورا والالتهاب الكلوي و الشلل

(١) اذا أصابت الحنجرة أو الحلق أو اللوزتين أو الحفر الانفية التهبت لها الغدد العنقية العليا الغائرة، واذا أصابت لثة الاسنان السفلى مثلا أو مقدم اللسان (وذلك نادر) التهبت الغدد التي تحت الفك

الدفثيري ، وأهم أعراضه شلل في سقف الحلق الرخو فيرجع الماء وغيره من السوائل من الأنف ويصاب المريض بالخنة أو الغُنة — وهي خروج صوته من أنفه — وتضعف رجلاه فلا يقوى على المشي طويلا ولا القيام ويصاب بالحوَل لشلل بعض عضلات العين الى غير ذلك من الاعراض التي تصيبه بسبب تأثير سم المرض في الاعصاب . وهذه الاعراض تبتدئ بعد الشفاء الظاهري بأيام أو أسابيع

المعالجة — يعزل المريض وتعطى له السوائل المغذية والمنعشات المنبهة للقلب فانه عرضة لان تحصل فيه استحالة شحمية . وتجب المبادرة الى حقن المريض بمصل الدفثيريا وذلك من اختصاص الطبيب الذي يقدر الكمية المناسبة لحالة المريض ويجري عمل الحقن طبق الاصول الطبية

والمبادرة الى حقن المريض من أوجب الواجبات لان التأخير يفسد خلايا الأعضاء وخصوصا القلب حتى اذا عمل المريض الحقن بعد ذلك لا ينفعه شيئا . والمصل يبقى نافعاً مدة سنة على الاقل اذا لم تفتح زجاجاته وحفظ في مكان مظلم بارد

ويطهر الحلق بطرق كثيرة ، ومن أحسنها استعمال أقراص (الفرمامنت) [Formamint] لسهولة تعاطيها عند الاطفال واذا احتيج الى تطهير أقوى ونزع لتلك الاغشية من الحلق فالاولى أن يخدر الطفل بالكلوروفورم لينظف حلقه تنظيفا تاما بغير اجهاد له

أما الشلل الذي يعقب المرض فانه يزول من نفسه في شهرين أو أربعة أشهر ، ومما يعجل في شفائه الراحة والمقويات والكهرباء والاغذية الجيدة والهواء النقي

الوقاية — تعرف من الكلام على أسباب هذا المرض ، واذا حقن الطفل الذي اختلط بمريض وقته الحقنة لمدة ٣ أسابيع تقريباً . والكمية اللازمة للوقاية هي ٥٠٠ الى ١٠٠٠ وحدة . أما الوَحدة وتسمى وحدة [ارليخ[1] Ehrlich] — وهو عالم ألماني يهودي — فهي الكمية التي اذا مزجت بمائة ضعف للكمية الكافية لقتل خنزير الهند البالغ وزنه ٢٥٠ جراما في ٤ أيام وقته من الموت اذا حقنت تحت جلده

(١) توفي هذه السنة (١٩١٥ م) فجاة بينما هو يعمل في معمله

سوء استعمال الحقن الواقي من الدفثيريا وغيرها

سبق قولنا انه اذا أصيب طفل بهذا المرض بقي الميكروب في حلقه مدة مختلفة بعد شفائه قد تمتد الى عدة شهور ، فقد روى العلامة هيولت الانكليزي [Hewlett] حادثة وجود الميكروب في أحد المصابين بعد شفائه بخمسة عشر شهراً

فالواجب اذاً عزل المصاب عن غيره عزلاً تاماً وتطهير كل مالامسه أو خرج منه تطهيراً تاماً وعدم السماح له بالاختلاط بغيره الا بعد فحص حلقه فحصاً بكتيريولوجياً دقيقاً نحو ثلاث مرات متفرقات والتيقن من عدم وجود الميكروب

أما الحقن بمصل الدفثيريا للوقاية فله عيب كبير . ذلك ان الوقاية به لاتتجاوز ثلاثة أسابيع ، فاذا أصيب الطفل الذي عمل له هذا الحقن بمرض الدفثيريا بعد نهاية الثلاثة الاسابيع مثلاً وعالجناه من مرضه بالحقن فقد يصاب الطفل فوق مرضه بمرض آخر يسمى « مرض المصل » [Serum disease] أو « زيادة التأثر بالحقن » [Supersensitiveness] وهذا المرض كثيراً مايكون خطراً ولعله أحد أسباب كثرة المتوفين من الاطفال حتى بعد الحقن بمصل الدفثيريا

وأعراضه هي : غثيان وقيء وضعف في النبض مع سرعته وإحساس بالضجر والاختناق وسرعة في التنفس مع ضيقه وهمود (هبوط) وتشنجات بل وغيبوبة . وهذه الاعراض تزول عادة بعد ساعة أو ساعتين ولكنها قد تميت الشخص خصوصاً بالاختناق لانقباض الشعب الرئوية الصغيرة . هذا ولو كان الشخص المحقون مرتين سليماً فما بالك اذا كان مصابا مع هذه الاعراض بالدفثيريا فان الوفاة تكاد تكون محققة

والمراد بهذا المرض المذكور هنا هو غير مايحدث من الحقن (لنحو ٧٪)في نهاية الاسبوع الاول أو بعده مثل ظهور طفح متنوع الشكل وألم في المفاصل مع تورم فيها وحمى خفيفة فان هذه الاعراض لااهمية لها وتزول في نحو ثلاثة أيام ولا خطر منها عادة

أما المرض الذي نحن بصدده فيحدث اذا حقن شخص مرة للوقاية مثلاً من الدفثيريا ثم مضت مدة بعد حقنه نحو ١٢ يوماً أو أكثر ثم عدنا الى الحقن مرة

ثانية. وقد يحدث هذا المرض حتى اذا كانت الفترة بين الحقنين أربع سنوات أو اكثر

وهذا المرض لا ينشأ عن سم في المصل بل عن نفس المصل بحيث اذا حقن مصل أي حيوان سليم مرتين متفرقتين بتلك الفترة فقد يحدث هذا المرض . لذلك ولغيره لا يجوز معالجة النزف بالحقن بالمصل أو بالدم كما سبق في صفحة ٤٩ من الجزء الأول

ومن طرائق اتقاء المرض المذكور أن يحقن نوعان مختلفان من المصل أعني أن يحقن للوقاية مصل مستخرج من الثور مثلا وللعلاج مصل آخر مستخرج من الحصان كما هو المعتاد . وكذلك استعمال لبنات الكالسيوم قبيل الحقن أو في أيام استعماله فان هذا الملح كثيراً مايمنع هذه الاعراض الخطرة أو يخفف من وطأتها بل قد يمنع الاعراض الاخرى المذكورة كالطفح وألم المفاصل وغيرهما أيضا . ومقدار هذا الملح في كل جرعة من ١٠ الى ٣٠ قمحة أي يختلف باختلاف السن وهو يذوب في الماء ويسهل امتصاصه في البنية واذا تعسر اعطاؤهُ من طريق الفم كما في الدفتيريا أذيب في الماء وحقن في الشرج أو أعطي مع اللبن فان المريض لا يشعر به

ومن الطرق أيضا لاتقاء تلك الاعراض التخدير العام بالاثير مثلاً وقت الحقن الثاني، ولكنها طريقة رديئة جداً وغير ميسورة في أكثر اصابات الاطفال خصوصاً اذا أصابت الدفتيريا حناجرهم

ويقال ان الحقن بالمصل الذي أزيل منه بعض المواد الزلالية الأولية [Proteins] يقلل التعرض للاصابة بتلك الاعراض. وعلم أن المصل الرقيق الذي لم يتكاثف بالتبخر أسهل امتصاصا من الغليظ . هذا ولا يتوهم القارئ أني أنفر الناس من الحقن في الدفتيريا لعلاجها كلا ! ثم كلا ! بل الواجب المبادرة الى الحقن بالمصل المشتمل على وحدات كثيرة بحسب مايراه الطبيب في الحالة[1] وانما كلامي السابق هو لبيان مضار الحقن للوقاية لا للعلاج

(١) في أحوال الدفتيريا الشديدة أو التي تأخر علاجها يجب البدء بحقن ١٠٠٠٠ إلى ٣٠٠٠٠ وحدة (Units) ويتكرر الحقن كل ٦ أو ١٢ ساعة بحسب حالة المريض وسرعة انفصال الاغشية ، ولا يراعى في ذلك سن الطفل

وكذلك يجب حقن مُصُول أخرى كالمصـل المضاد لسم البزور السلسلية اذا وجدت في الحلق بالبحث الميكروسكوبي أو عرفت بمثل الأعراض الآتية

وهذه الميكروبات تصاحب ميكروب الدفثيريا في بعض الاحوال فتكون الحمى فيها شديدة ورائحة الحلق كريهة جداً . فان لم يعمل هذا الحقن أيضاً كان مصل الدفثيريا وحده غير واف بالغرض

الطاعون Plague

الطاعون — وقانا الله منه — داء اشتهر كثيرا حتى بين الامم الغابرة ، وكانوا يخشونه أشد خشية لشدة فتكه بهم وسرعة انتشاره بينهم . ومن أشهر أوبئته التي حدثت في أوربة ماحدث في عصر يوستنيانوس الروماني في القرن السادس بعد الميلاد

الاسباب — هذا المرض ينشأ من ميكروب باسيلي اكتشفه (كيتاساتو) (Kitasato) الياباني سنة ١٨٩٤ وهو يوجد أثناء حيـاة المريض في الدم وفي الغدد الملتهبة وفي البراز والبول وفي اللعاب اذا التهبت الرئة ، وبعد الموت يوجد في جميع أعضاء الجسم تقريبا . طول هذا الميكروب من ١ الى ١,٥ ميكرون وهو لاحبيبات له ولا حركة وان زعم بعضهم ان له أهدابا

ينتقل هذا الميكروب من شخص الى آخر بسرعة عظيمة ، خصوصا اذا ساءت الاحوال الصحية بالازدحام ونقص التهوية وزيادة القاذورات في الاماكن والملابس وغيرها . وهو يصيب الناس في جميع الاعمار الى سن الخمسين وبعد ذلك يقل كثيرا. والاصابة به مرة تحمى عادة من الاصابة ثانية . وشدة الحر تعوق سيره أكثر من البرد

هذا المرض يصيب كثيرا من الحيوانات مثل القردة والقطط والجِرْذان (جمع جُرَذ وهو الفأر الكبير) أما الخيل والانعام فهي لاتصاب به الاقليلا وكذلك الطيور

أهم مدخل لميكروب هذا المرض في الجسم طريقان : وهما طريق الرئة وطريق الجلد ، أما طريق المعدة أو الامعاء فهو من الندرة بمكان بحيث لا يستحق الذكر

وكيفية وصوله من طريق الرئة أن يستنشقه الانسان مع الهواء الملوث به من نفثات المصاب بالطاعون الرئوي . أما طريق الجلد فهو من أعظم الطرق لنشر هذا

المرض ، ولايضاح ذلك نقول : ان الفيران كثيرا ما تصاب به فتموت. والفيران يأكل بعضها بعضا - كما سبق - فينتشر المرض بينها لهذا السبب ولغيره. وللفيران براغيث تنتقل منها الى الانسان فتلقحه بها وكذلك تلقح الفيران الاخرى ، وقد تلقح شخصا من شخص ولكنه نادر. واسم هذا النوع من البراغيث بالافرنجية [Pulex Cheopis] وهو أشهر أنواع البراغيث التي تعيش بدم الفيران في البلاد الحارة. ويتكاثر الميكروب في معدة البرغوث وأمعائه ويخرج في برازه فقط، فاذا علق بخرطومه ، ووخز به الانسان لقحه بالمرض ، وقد يتلوث مكان الوخز من الانسان ببراز البرغوث الذي فيه كثير من ميكروبات الطاعون . ويبقى البرغوث قادرا على التلقيح لمدة تتراوح بين سبعة أيام و ١٥ يوما . وقد ينقل البق أيضا ميكروب الطاعون . ويحتمل أيضا أن يدخل الميكروب من بعض الجروح والسحجات كما في الاقدام الحافية فان لم توقف الغدد اللمفاوية الميكروبات وصلت الى الدم وأحدثت تسمما عاما كما سيأتي

الاعراض — مدة التفريخ من يومين الى خمسة

ولهذا المرض ثلاثة أشكال شهيرة وهي : الطاعون الدملي والطاعون الدموي والطاعون الرئوي

أما أعراض الشكل الاول — وهو أكثر حدوثا — فهي الاحساس بالضعف العام والكلل والصداع والدوار والرعدة التي يعقبها ارتفاع في الحرارة ، وفي بعض الاحوال يصاب المريض في هذا الطور بشيء من الذهول مع مشية كمشية النشوان وارتعاش في حديثه وقد يصاب بتهيج ورعب لا يعرف سببه أو يصاب بالغثيان والقيء أو الاسهال

وتكون الحمى في هذا المرض عالية ويصاحبها باقي أعراض الحمى كجفاف اللسان واسوداده ، ثم يصير المرء في حالة تشبه المصاب بالتيفوس فيهذي كثيرا ثم تصيبه الغيبوبة وتكثر الاوساخ على الشفتين والاسنان ويضعف النبض وتبرد الاطراف ويقل البول بل قد لايفرز مطلقا في بعض الاحوال المميتة ، وبعد يومين أو ثلاثة تضخم الغدد اللمفاوية في الاربية أو الابط أو العنق

والغالب أن تصاب الغدد في جهة واحدة وهي الأربية، وحجم الورم الناشئ من ذلك يكون كحجم بيضة الدجاجة ويصحبه ألم شديد . واذا طالت حياة المرء حصل له خراج في تلك الغدد في اليوم السابع عادة، وفي هذا الوقت قد تظهر دمامل في الجلد أو جمرات خصوصا في الاطراف السفلى أو الاليتين أو القفا. وفي الاحوال الشديدة جدا يحصل نزف تحت الجلد قبيل الموت أو يكون النزف كنقط صغيرة كلدغ البراغيث وكلاهما قد يعم الجسم كله أو يكون ظاهرا حول الغدد الملتهبة . وقد يصاب المرء أيضا بالرعاف أو النزف الرئوي أو المعدي أو المعوي

والموت يحصل عادة قبل اليوم السادس . والشفاء يبتدئ من اليوم السادس الى العاشر ولكن اذا تقيحت الغدد قد تطول مدة المرض بسبب المِدَّة التي فيها

أما أعراض الشكل الدموي فيصاب المرء فجأة بأعراض الحمى البالغة ، وقد يموت في ظرف ٢٤ ساعة لتسمم دمه . وفي هذا الشكل قد ترم الغدد قليلا ولكن لا تصل الى حجم النوع الاول مطلقا . ويسمى هذا النوع بالطاعون الصاعق فان المريض يصعق به فجأة فيغيب عن الوجود وترتفع حرارته فيموت سريعا

أما أعراض الشكل الثالث فتبتدئ كالشكل الاول ولكن بعد يوم أو يومين تظهر الاعراض الرئوية فيسرع التنفس ويكثر السعال مع النفث الكثير المشوب بالدم ويزول النوم ويكثر الهيجان والهذيان ، ويموت المريض في ظرف ثلاثة أيام وتكون الرئة في هذا النوع مصابة بالتهابات متعددة في فصيصاتها

ولا توجد الخيرجلات (وهي التهاب الغدد اللمفاوية) عادة في هذا الشكل، وفيه يوجد الميكروب في القطع الملتهبة من الرئة وفي البصاق

وهناك نوع آخر لا يهمنا كثيرا لقلته وفيه تكون الحمى قليلة والأعراض خفيفة بحيث يمكن للمريض أن يغدو ويروح مدة من أيام مرضه . ويسمى هذا الضرب بالطاعون الجولاني

<u>الانذار</u> — عدد الوفيات في هذا المرض كثير جدا فقد تصل الى ٥٠ ٪ بل الى ٨٠ ٪ والموت بين الجنس الابيض في الظروف الصحية الجيدة أقل منه في غير ذلك

المعالجة — تعالج الاعراض كل بما يناسبه حسب الاصول الطبية . وللطاعون مصل كمصل الدفتيريا[١] يحقن منه في اليوم الاول ثلاثة مقادير كل منها خمسون سنتي مترا مكعبا تحت الجلد أو في الاوردة — وهو الافضل في الاحوال الشديدة — ويتكرر بعد ذلك حقن مقادير صغيرة بضعة أيام . ومن أحسن أنواع هذا المصل مصل [يرسن Yersin] ولكن فائدته ليست بكبيرة

الوقاية — تكون بأشياء كثيرة أهمها مايأتي :

(١) عزل المصاب

(٢) النظافة التامة في كل شيء

(٣) ابادة الفيران وأحسن طريقة لذلك أن تصطاد بالاشراك أو تسم بالزرنيخ أو الفسفور ، أما اصطيادها بالقطط فعيبه أنها هي نفسها قد تصاب بالطاعون فتكون من العوامل الناشرة للمرض بدل المقللة له

(٤) تنظيف الملابس ليتقي وجود البراغيث فيها

(٥) ابادة الحشرات الاخرى بقدر الامكان كالبق فانه قد ينقل الميكروب من شخص الى آخر

(٦) يحقن الاصحاء مرتين اذا حصل الوباء بلقاح الطاعون وهو ميكروبه المقتول بالحرارة فتحصل المناعة بسرعة حتى لا يخشى كثيرا من حصول المرض قبلها

(٧) يطهر كل مايوجد في غرفة المريض بالغلي أو الحرق أو غيرهما ، وقتل الميكروب الذي يوجد في افرازاته بالأدوية المطهرة و بالحرق

(٨) لا يختلط المريض بالاصحاء الا بعد شهر من شفائه، لان الميكروب قد وجد في دم المطعون بعد النقاهة بثلاثة أسابيع

(٩) على الممرّض للمطعون بالنوع الرئوي أن يتكمم بالقطن المنفوش ليحول دون وصول الميكروب الى رئته ثم يحرق القطن

(١٠) تسد شقوق وفروج المنازل لكيلا تأوي اليها الجرذان

---

(١) وانما يختلف عنه بانه يستخرج من الحصان بعد حقنه بالميكروب المقتول لا بسم منه مصفى

الخطب الدينية

٣

﴿ خطبة من خطب القاسمي في النهي عن الحلف بالله والطلاق ﴾

الحمد لله الذي خلق الخلق على الاطلاق . فاطر السموات والارض و باسط الارزاق . فسبحانه هو العلي الرزاق . لا تنفد خزائنه بكثرة الانفاق . أحمده واشكره . وأتوب اليه وأستغفره . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الخلاق، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله سيد العالمين بالاتفاق . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة وسلاما دائمين الى يوم التلاق . وسلم تسليما . أما بعد أيها الناس عليكم بالتقوى فانها ترضي الملك الخلاق . واحذروا من ان تجعلوا الله عرضة لايمانكم . فان ايمان الحنث تمحق بركة الارزاق ، واحذروا من الحلف بالطلاق . فانه يمين الفساق ، فمن حلف بغير الله فقد عظمه ، ومن عظم غير الله صار من أهل النفاق ، وخالف الكتاب والسنة ومن خالفهما فليس له في الآخرة من خلاق . فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « ألا ان الله ينهاكم ان تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تحلفوا الا بالله ولا تحلفوا الا وأنتم صادقون » وقال صلى الله عليه وسلم « من حلف بغير الله فقد أشرك » وقال صلى الله عليه وسلم « اذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منهـا فكفر عن يمينك وآت الذي هو خير » واعلموا ان من حنث في يمينه فعليه أداء الكفارة وهي عتق رقبة أو اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ، فان عجز فصوم ثلاثة أيام ، ولا يجب التتابع في الصيام ، ويكفي في الكسوة ثوب أوسراويل أو قميص ، يوزع من كلّ عشرة على المساكين الذين ورد فيهم التنصيص ، ومن طلق زوجته ثلاث تطليقات شرعيات غير بدعيات فلا تحل له الا بنكاح جديد ، ومن أمسكها بعد الثلاث فقد خالف أمر الله المجيد ، وتعرض للوعيد الشديد ، ومن لعب

بالطلاق ، أو طلق امرأته من غير ما باس فقد نقض الميثاق ، فقد روى ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبر عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضبان ثم قال اتلعبون بكتاب الله وانا بين أظهركم ، وقال صلى الله عليه وسلم « ابغض الحلال الى الله الطلاق » وقال صلى الله عليه وسلم « ايما امرأة سألت زوجها طلاقها في غير ما باس فحرام عليها رائحة الجنة » وقال تعالى (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) وقال تعالى (فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) أي بالفراق ، فاتقوا الله عباد الله في النساء وحقوق الزوجية ، وقوموا من مكارم الاخلاق مع الاهل بالسنة النبوية ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « خيركم خيركم لاهله وانا خيركم لأهلي » واشكروا نعمة الله في الازواج أيها المؤمنون ، فقد قال تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

﴿ خطبة أخرى له في آداب الكسب والمعاش ﴾

الحمد لله الذي رفع السماء لعباده سقفا مبنيا ومهد الارض بساطا لهم وفراشا . وكور الليل على النهار فجعل الليل لباساً وجعل النهار معاشا . لينتشروا في ابتغاء فضله وينتعشوا به عن ضراعة الحاجات انتعاشا . وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي يصدر المؤمنون عن حوضه رواء بعد ورودهم عليه عطاشا. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين لم يدعوا (؟) في نصرة دينه تشمرا وانكماشا . أما بعد فياعباد الله اتقوا الله . واعلموا ان رب الارباب ، ومسبب الاسباب ، جعل الآخرة دار الثواب والعقاب . والدنيا دار التمحل والاضطراب . والتشمر والاكتساب . وليس التشمر في الدنيا مقصورا على المعاد دون المعاش . بل المعاش ذريعة الى المعاد ومعين عليه ، فالدنيا مزرعة الآخرة ، ومدرجة اليها ، والناس ثلاثة : رجل شغله معاشه عن معاده فهو من الهالكين ، ورجل شغله معاده عن معاشه فهو من الفائزين . والاقرب الى الاعتدال هو الثالث الذي شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين . ولن ينال رتبة الاقتصاد ، من لم يلازم في طلب المعيشة

منهج السداد ، ولم ينتهض من طلب الدنيا وسيلة الى الآخرة وذريعة ، ما لم يتأدب في طلبها بآداب الشريعة ، وقد ورد في فضل الكسب والحث عليه آيات وأخبار ، قال الله تعالى (ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم) وقال تعالى (فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله) وقال صلى الله عليه وسلم « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء » وقال صلى الله عليه وسلم « من كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسئلة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله، ومن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله ، ومن كان يسعى تفاخرا وتكاثرا فهو في سبيل الشيطان » وقال عمر رضي الله عنه لايقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، ويجب على التاجر أن ينصح في المعاملة ، ويحب لاخيه ما يحب لنفسه ، ولا يحل له ان يثني على السلعة بما ليس فيها ، ولا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئا ، ولا يكتم في وزنها ومقدارها شيئا . ومن خالف ذلك كان ظالما غاشا ، والغش حرام قال صلى الله عليه وسلم « من غشنا فليس منا » وقال تعالى (ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون * واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) وقال تعالى (وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا) وعلى التاجر الرفق في التعامل والاحسان فيه ، قال صلى الله عليه وسلم « رحم الله امرأ سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء » وقال صلى الله عليه وسلم « من انظر معسرا أو ترك له اظله الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل الا ظله » وقال تعالى (ان رحمة الله قريب من المحسنين)

﴿ خطبة له في فضل الاخوّة والصحبة والالفة ﴾

الحمد لله الذي غمر صفوة عباده بلطائف التخصيص طولا وامتنانا ، والف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته اخوانا ، ونزع الغل من صدورهم فظلوا في الدنيا أصدقاء وأخدانا ، وفي الآخرة رفقاء وخلانا ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المصطفي ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه واقتدوا به قولا وفعلا وعدلا واحسانا . أما بعد فياعباد الله اتقوا الله

واعلموا أن التحاب في الله تعالى والاخوة في دينه من أفضل القربات ، وألطف مايستفاد من الطاعات في مجاري العادات، وقد ورد في فضل الاخوة آيات كريمات وأخبار عاليات. قال الله تعالى (انما المؤمنون إخوة) وقال تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمن آلفٌ مألوف ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف » وعنه صلى الله عليه وسلم «من أراد الله به خيرا رزقه خليلا صالحا ان نسي ذكره ، وان ذكر أعانه » وعنه صلى الله عليه وسلم «مازار رجل رجلا في الله شوقا اليه ورغبة في لقائه الا ناداه ملك من خلفه طبت وطاب ممشاك وطابت لك الجنة » واعلم أن لاخيك عليك في اخوته وصحبته حقوقاً يجب الوفاء بها . فمنها حق في المال بأن تقوم بحاجته من فضل مالك ، أو تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك ، وهذه رتبة الصديقين ، وحق فى الاعانة بالنفس في قضاء الحاجات مع البشاشة واظهار الفرح ، وحق على اللسان في السكوت عن عيو به وفي ترك مماراته ، وفي النطق بالمحاب توددا اليه وتفقدا لاحواله ، وحق في العفو عن الزلات والهفوات، وحق في الدعاء له في حياته ومماته كما يدعو لنفسه ، وحق في الوفاء والاخلاص ، وذلك بالثبات على الحب وادامته الى الموت معه ، و بعد الموت مع أولاده وأصدقائه ، وحق في التخفيف، وترك التكلف والتكليف ، فلا يكلف أخاه مايشق عليه ، بل يروح سره من مهماته وحاجاته ، وجملة حقوق المسلم أن تسلم عليه اذا لقيته ، وتجيبه اذا دعاك ، وتشمته اذا عطس، وتعوده اذا مرض، وتشهد جنازته اذا مات ، وتبر قسمه اذا أقسم عليك، وتنصح له اذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب اذا غاب عنك، وتحب له ماتحب لنفسك. وقال صلى الله عليه وسلم « لاتحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخواناً كما أمركم الله» فاتركوا الضغائن من قلوبكم والاحقاد ، وتصافحوا على المحبة وسلامة الصدر والايثار وصدق الوداد ، وليعتذر كل منكم لاخيه عما فرط منه ، ليفوز برضاء الله عنه. وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم «رأس العقل بعد الدين التودد الى الناس واصطناع المعروف الى كل بر وفاجر» وقال صلوات الله عليه لمعاذ «أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد، وأداء الامانة وترك الخيانة، وحفظ الجار ورحمة اليتيم، ولين الكلام و بذل السلام وخفض الجناح»

المعرفة بالله تعالى

بيّن ابن القيم في باب المعرفة من الجزء الثالث من (مدارج السالكين) الفرق بين المعرفة والعلم لغة وشرعا من خمسة وجوه ، ثم بين معناها في اصطلاح الصوفية وكلام أئمتهم فيها ، ثم شرح ما قاله شيخ الاسلام ابو اسماعيل الهروي فيها ، ونحن ننقل ما هو خاص بالتصوف ، أي ما بعد الفروق الخمسة وهذا نصه :

والفرق بين العلم والمعرفة عند أهل هذا الشأن ان المعرفة عندهم هو العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه ، فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده ، بل لا يصفون بالمعرفة الا من كان عالما بالله و بالطريق الموصل اليه و بآفاتها وقواطعها ، وله حال مع الله ، فتشهد له بالمعرفة ، فالعارف عندهم من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ثم صدق الله في معاملته ، ثم أخلص له في قصوده ونياته ، ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم تطهر من أوساخه وأدرانه ومخالفاته ، ثم صبر على أحكام الله في نعمه و بلياته ، ثم دعا اليه على بصيرة بدينه وآياته ، ثم جرد الدعوة اليه وحده بما جاء به رسوله ، ولم يشبها بآراء الرجال وأذواقهم ، ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم ، ولم يزن بها ما جاء به الرسول عليه من الله أفضل صلواته . فهذا الذي يستحق اسم العارف على الحقيقة ، اذا سمي به غيره على الدعوى والاستعارة[1]

وقد تكلموا على المعرفة بآثارها وشواهدها فقال بعضهم : من امارات المعرفة بالله حصول الهيبة منه ، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته — وقال أيضا — المعرفة توجب السكون فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته . وقال لي بعض أصحابنا : ما علامة المعرفة التي يشيرون اليها ؟ فقلت له : أنس القلب بالله . قال لي : علامتها ان يحسن بقرب قلبه من الله فيجده قريبا منه . وقال الشبلي : ليس لعارف علاقة[2] ولا لمحب شكوى ، ولا لعبد دعوى ، ولا لخائف قرار ، ولا لاحد من الله فرار . وهذا كلام جيد ، فان المعرفة الصحيحة تقطع من القلب العلائق كلها ، وتعلقه

(١) في ب « فاذا سمي به غيره فعلى الدعوى والاستعارة » (٢) في ب « علامة »

بمعروفه فلا يبقى فيه علاقة بغيره ، ولا تمر به العلائق الا وهي مجتازة ، لا تمر مرور استيطان . وقال أحمد بن عاصم : من كان بالله أعرف ، كان له أخوف . ويدل على هذا قوله تعالى (انما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ) وقول النبي صلى الله عليه وسلم « أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية » وقال آخر : من عرف الله تعالى ضاقت عليه الدنيا بسعتها . وقال غيره : من عرف الله تعالى اتسع عليه كل ضيق . ولا تنافي بين هذين الامرين ، فانه يضيق عليه كل مكان لا يساعد فيه على شأنه ومطلوبه ، ويتسع عليه ما ضاق على غيره ، لانه ليس فيه ولا هو مساكن له بقلبه ، فقلبه غير محبوس فيه ، والاول في بداية المعرفة ، والثاني في نهايتها التي يصل اليها العبد . وقال آخر : من عرف الله تعالى صفا له العيش فطابت له الحياة وهابه كل شيء وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله . وقال غيره : من عرف الله قرت عينه بالله وقرت به كل عين ، ومن لم يعرف الله تقطع قلبه على الدنيا حسرات ، ومن عرف الله لم يبق له رغبة في سواه ، ومن ادعى معرفة الله وهو راغب في غيره كذبت رغبته معرفته ، ومن عرف الله أحبه على قدر معرفته به وخافه ورجاه ، وتوكل عليه وأناب اليه ولهج بذكره ، واشتاق الى لقائه واستحيا منه ، وأجله وعظمه على قدر معرفته به ، وعلامة العارف أن يكون قلبه مرآة اذا نظر فيها رأى فيها الغيب الذي دعي الى الايمان به ، فعلى قدر جلاء تلك المرآة يتراءى له فيها الله سبحانه والدار الآخرة والجنة والنار والملائكة والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كما قيل :

اذا سكن الغديرُ على صفاء   وجُنب أن يحركه النسيم
بدت فيه السماء بلا امتراء   كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلي   يرى في صفوها الله العظيم

وهذه رؤية المثل[1] الأعلى كما تقدم ، ومن علامات المعرفة أن يبدو لك الشاهد ، وتفنى الشواهد ، وتنحل العلائق ، وتنقطع العوائق ، وتجلس بين يدي الرب تعالى وتقوم وتضطجع على التأهب للقائه ، كما يجلس الذي شد أحماله وأزمع

(١) في ن « المثال »

السفر على التأهب له ويقوم على ذلك ويضطجع عليه ، كما ينزل المسافر في المنزل فهو قائم وجالس ومضطجع على التأهب ، وقيل للجنيد : ان أقواما يدعون المعرفة يقولون أنهم يصلون بترك الحركات من باب البر والتقوى . فقال الجنيد : هذا قول أقوام تكلموا بإسقاط الاعمال ، وهو عندي عظيم ؛ والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا ، ان العارفين بالله أخذوا الاعمال عن الله والى الله رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة الا أن يحال بيني وبينها

ومن علامات العارف انه لا يطالب ولا يخاصم ولا يعاتب ولا يرى له على أحد فضلا ولا يرى له على أحد حقا ، ومن علاماته انه لا يأسف على فائت ولا يفرح بآت ، لانه ينظر الى الاشياء بعين الفناء والزوال . لانها في الحقيقة كالظلال والخيال . وقال الجنيد : لا يكون العارف عارفا حتى يكون كالارض يطأها البر والفاجر ، وكالسحاب يُظل كل شيء ، وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب وقال يحيى ابن معاذ : يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين : بكاؤ على نفسه ، وثناؤ على ربه . وهذا من أحسن الكلام فانه يدل على معرفته بنفسه وعيوبه وآفاته ، وعلى معرفته بربه وكماله وجلاله ، فهو شديد الازراء على نفسه ، لهج بالثناء على ربه . وقال أبو يزيد : انما نالوا المعرفة بتضييع ما لهم والوقوف مع ما له . يريد تضييع حظوظهم والوقوف مع حقوق الله سبحانه وتعالى فتغنيهم حقوقه عن حظوظهم

وقال آخر : لا يكون العارف عارفا حتى لو أعطي ملك سليمان لم يشغله عن الله طرفة عين . وهذا يحتاج الى شرح ، فان ما هو دون ذلك يشغل القلب لكن يكون اشتغاله بغير الله لله ، فذلك اشتغال به سبحانه لانه اذا اشتغل بغيره لاجله لم يشتغل عنه ، قال ابن عطاء المعرفة على ثلاثة أركان : الهيبة والحياء والانس . وقيل لذي النون : بم عرفت الله ربك ؟ قال : عرفت ربي بربي ، ولولا ربي لما عرفت ربي . وقيل لعبد الله ابن المبارك : بماذا نعرف ربنا ؟ قال بانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه . فاتى عبد الله باصل المعرفة التي لا يصح لأحد معرفة ولا إقرار بالله سبحانه الا به ، وهو المباينة والعلو على العرش

ومن علامات العارف أن يعتزل الخلق بينه وبين الله حتى كأنهم أموات لا يملكون له ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياتا ولا نشورا ، ويعتزل نفسه بينه وبين الخلق حتى يكون بينهم بلا نفس ، وهذا معنى قول من قال : العارف يقطع الطريق بخطوتين : خطوة عن نفسه وخطوة عن الخلق ؛ وقيل : العارف ابن وقته . وهذا من أحسن الكلام وأخصره ، فهو مشغول بوظيفة وقته عما مضى وصار في العدم وعما لم يدخل بعدُ في الوجود ، فهمه عمارة وقته الذي هو مادة حياته الباقية . ومن علاماته انه مستأنس بربه مستوحش ممن يقطعه عنه ، ولهذا قيل : العارف من أنس بالله فأوحشه من الخلق وافتقر الى الله فأغناه عنهم ، وذل لله فاعزه فيهم ، وتواضع لله فرفعه بينهم ، واستغنى بالله فأحوجهم اليه . وقيل : العارف فوق مايقول ، والعالم دون مايقول . يعني ان العالم علمه أوسع من حاله وصفته، والعارف حاله وصفته فوق كلامه وخبره ؛ وقال أبو سليمان الداراني : ان الله تعالى يفتح للعارف على فراشه مالم يفتح له وهو قائم يصلي . وقال غيره : العارف تنطق المعرفة على قلبه وحاله وهو ساكت . وقال ذو النون : لكل شيء عقوبة وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله

وقال بعضهم : رياء العارفين أفضل من اخلاص المريدين . وهذا كلام ظاهره منكر جدا يحتاج الى شرح ، فالعارف لا يرائي المخلوق طلبا للمنزلة في قلبه ، وانما يكون رياؤه نصيحة وارشاداً وتعليما ليقتدى به، فهو يدعو الى الله بعلمه كما يدعو اليه بقوله ، فهو ينتفع بعمله وينفع به غيره ؛ واخلاص المريد مقصور على نفسه ، فالعارف جمع بين الاخلاص والدعوة الى الله ، فاخلاصه في قلبه ، وهو يُظهر عمله وحاله ليقتدى به ، والعارف ينفع بسكوته والعالم انما ينفع بكلامه * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق *

وقال ذو النون : الزهاد ملوك الآخرة وهم فقراء العارفين . وسئل الجنيد عن العارف فقال : لون الماء لون إنائه . وهذه كلمة رمز بها الى حقيقة العبودية ، وهو أن يتلون بتلون أقسام العبودية، فبينا تراه مصليا اذ رأيته ذاكراً أو قارئا أو معلما أو متعلما أو مجاهداً أوحاجّاً أو مساعدا للضعيف أو مغيثا للملهوف، فيضرب في كل غنيمة من

الغنائم بسهم ، فهو مع المتسببين متسبب ، ومع المتعلمين متعلم ، ومع الغزاة غاز ، ومع المصلين مصل ، ومع المتصدقين متصدق ؛ فهو يتنقل في منازل العبودية من عبودية الى عبودية . وهو مقيم على معبود واحد لاينتقل عنه الى غيره

وقال يحيي بن معاذ : العارف كائن بائن . وهذا يفسر على وجوه (منها) انه كائن مع الخلق بظاهره بائن عنهم بسره وقلبه و(منها) انه كائن بر به بائن عن نفسه و(منها) انه كائن مع أبناء الآخرة بائن عن أبناء لدنيا و(منها) انه كائن مع الله بموافقته بائن عن الناس في مخالفته و(منها) انه داخل في الاشياء خارج منها . فان من الناس من هو داخل فيها لا يقدر على الخروج منها ، ومنهم من هو خارج عنها لا يقدر على الدخول فيها ، والعارف داخل فيها خارج منها . ولعل هذا أحسن الوجوه

وقال ذو النون : « علامة العارف ثلاثة : لايطفئ نورُ معرفته نورَ ورعه ، ولا يعتقد باطنا من العلم ينقضه عليه ظاهر من الحكم ، ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك أستار محارم الله » وهذا من أحسن الكلام الذي قيل في المعرفة وهو محتاج الى شرح ، فان كثيرا من الناس يرى أن التورع عن الاشياء من قلة المعرفة ، فان المعرفة متسعة الاكناف واسعة الارجاء ، فالعارف واسع موسع ، والسعة تطفئ نورالورع ، فالعارف لاتنقص معرفته ورعه ، ولايخالف ورعه معرفته . كما قال بعضهم[1] العارف لا ينكر منكرا ، لاستبصاره بسر الله في القدر ، فعنده ان مشاهدة القدر والحقيقة الكونية هو غاية المعرفة ، واذا شاهد الحقيقة عذر الخليقة ، لأنهم مأسورون في قبضة القدر . فمن يعذر أصحاب الكبائر والجرائم ، بل أرباب الكفر فهو أبعد خلق الله عن الورع ، بل ظلام معرفته قد أطفأ نور ايمانه

قوله : [2] باطن العلم الذي ينقضه ظاهر الحكم — فانه يشير به الى ماعليه المنحرفون ممن ينسب الى السلوك ، فانهم يقع لهم أذواق ومواجيد وواردات تخالف الحكم الشرعي ، وتكون تلك معلومة لهم لايمكنهم جحدها فيعتقدونها و يتركون

---

(١) كتب في هامش الاصل « قوله بعضهم أي الملاحدة القائلين بوحدة الوجود أعاذنا الله من الزيغ والضلال» (٢) أي ذو النون

ظاهر الحكم ، وهذا كثير جدا ، وهو الذي نفاه أئمة الطريق على هؤلاء وصاحوا بهم من كل ناحية ، وبدعوهم وضللوهم به ، قوله[1] « ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك محارم الله » كثرة النعم تطغي العبد وتحمله على أن يصرفها في وجوهها وغير وجوهها ، وهي تدعو الى أن يتناول العبد بها ماحل وما لا يحل ، وأكثر المنعم عليهم لا يقتصرون في صرف النعمة على القدر الحلال بل يتعداه[1] الى غيره وتسول له نفسه ان معرفته بالله ترد عليه ما انتهبته منه أيدي الشهوات والمخالفات ، ويقول : العارف لا تضره الذنوب كما تضر الجاهل . وربما يسول له أن ذنوبه خير من طاعات الجهال ، وهذا من أعظم المكر . والامر بضد ذلك ، فيُحتمل من الجاهل مالا يحتمل من العارف ، واذا عوقب الجاهل ضعفا عوقب العارف ضعفين ، وقد دل على هذا شرع الله وقدره ، ولهذا كانت عقوبة الحر في الحدود مثلي عقوبة العبد ، وقال تعالى في نساء النبي صلى الله عليه وسلم (يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) فاذا كملت النعمة على العبد فقابلها بالاساءة والعصيان كانت عقوبته أعظم فدرجته أعلى وعقوبته أشد

وقال أيضا[1] ليس بعارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة فكيف عند أبناء الدنيا ؟ يريد انه ليس من المعرفة وصف المعرفة لغير أهلها سواء كانوا عباداً أو من أبناء الدنيا

وقال أبو سعيد : المعرفة تأتي من عين الوجود[2] و بذل المجهود . وهذا كلام حسن يشير الى أن المعرفة ثمرة بذل المجهود في الاعمال ، وتحقق الوجود في الأحوال ، فهي ثمرة عمل الجوارح ، وحال القلب لا ينال بمجرد العلم والبحث ، فمن ليس له عمل ولا حال فلا معرفة له ، وسئل ذو النون عن العارف فقال : كان هاهنا فذهب . فسئل الجنيد عما أراد بكلامه هذا فقال : لا يحصره حال عن حال ، ولا يحجبه منزل عن التنقل في المنازل ، فهو مع كل أهل منزل بمثل الذي هم فيه ، يجد مثل الذي يجدون ، وينطق بمعالمها لينتفعوا ، وقال محمد بن الفضل : المعرفة حياة القلب مع الله . وسئل ابو سعيد : هل يصل العارف الى حال يجفو عليه البكاء ؟ فقال : نعم ! انما البكاء

(١) مقتضى ما قبله ان يقول : يتعدونه — أو : يتعداه أحدهم الخ اي ذو النون

(٢) كتب في هامش الاصل « لعله الجود »

في أوقات سيرهم الى الله فاذا نزلوا بحقائق القرب وذاقوا طعم الوصول من بره زال عنهم ذلك ، وقال بعض السلف : نوم العارف يقظة ، وأنفاسه تسبيح ، ونوم العارف أفضل من صلاة الغافل . انما كان نوم العارف يقظة لان قلبه حي فعيناه تنامان وروحه ساجدة تحت العرش بين يدي ربها وفاطرها ، جسده في الفرش ؛ وقلبه حول العرش ، وانما كان نومه أفضل من صلاة الغافل لأن بدن الغافل واقف في الصلاة وقلبه يسبح في حشوش الدنيا والاماني ، ولذلك كانت يقظته نوم لان قلبه موات ، وقيل : مجالسة العارف تدعوك من ست الى ست : من الشك الى اليقين ، ومن الرياء الى الاخلاص ، ومن الغفلة الى الذكر ، ومن الرغبة في الدنيا الى الرغبة في الآخرة ، ومن الكبر الى التواضع ، ومن سوء الطوية الى النصيحة

فصل

قال صاحب المنازل « المعرفة على ثلاث درجات ، والخلق فيها على ثلاث فرق : الدرجة الأولى معرفة الصفات والنعوت ، وقد وردت أساميها بالرسالة ، وظهرت شواهدها في الصنعة ، بتبصر[1] النور القائم في السر ، وطيب حياة العقل لزرع الفكر ، وحياة القلب بحسن النظر بين التعظيم وحسن الاعتبار ، وهي معرفة العامة التي لاتنعقد شرائط اليقين الا بها ، وهي على ثلاثة أركان : اثبات الصفات باسمها من غير تشبيه ، ونفي التشبيه عنها من غير تعطيل ، والإياس من إدراك كنهها وابتغاء تأويلها »

قلت : الفرق بين الصفة والنعت من وجوه ثلاثة (أحدها) ان النعت يكون بالأفعال التي تتجدد كقوله تعالى (ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار — وقوله — الذي جعل لكم الارض مهدًا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون * والذي نزّل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون * والذي خلق الازواج كلها وجعل لكم

(١) في المتن « بتبصير »

من الفلك والانعام ماتركبون) ونظائر ذلك . والصفة هي الأمور الثابتة اللازمة للذات كقوله تعالى (هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر) ونظائر ذلك

(الفرق الثاني) ان الصفات الذاتية لايطلق عليها اسم النعوت كالوجه واليدين والقدم والاصابع وتسمى صفات ، وقد أطلق عليها السلف هذا الاسم، وكذلك متكلمو أهل الاثبات سموها صفات ،وأنكر بعضهم هذه التسمية كابي الوفاء ابن عقيل وغيره ، وقال: لاينبغي أن يقال نصوص الصفات . بل: آيات الاضافات ،لان الحي لايوصف بيده ولا بوجهه، فان ذلك هو الموصوف ، فكيف تسمى صفة ؟ وأيضا فالصفة معنى يعم الموصوف فلا يكون الوجه واليد صفة . والتحقيق ان هذا نزاع لفظي في تسميته ، فالمقصود إطلاق هذه الاضافات عليه سبحانه ونسبتها اليه والاخبار عنه بها منزهة عن التمثيل والتعطيل ،سواء سميت صفات أو لم تسم

(الفرق الثالث) ان النعوت مايظهر من الصفات ويشتهر ويعرفه الخاص والعام ، والصفات أعم ، فالفرق بين النعت والصفة فرق مابين الخاص والعام ، ومنه قولهم في تحلية الشيء : نعته كذا وكذا — لما يظهر من صفاته ، وقيل : هما لغتان لا فرق بينهما . ولهذا يقول نحاة البصرة « باب الصفة » ويقول نحاة الكوفة « باب النعت » والمراد واحد والامر قريب ونحن في غير هذا

فلنرجع الى المقصود وهو انه لايستقر للعبد قدم في المعرفة بل ولا في الايمان حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله ويعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه ، فالايمان بالصفات وتعرّفها هو أساس الاسلام وقاعدة الايمان وشجرة ثمرة الاحسان، فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الاسلام والايمان وثمرة شجرة الاحسان ، فضلا عن أن يكون من أهل العرفان . وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيء الظن به ، وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر فقال تعالى (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم ان الله لايعلم كثيرا مما تعملون *وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فاصبحتم

من الخاسرين) فاخبر سبحانه ان إنكارهم هذه الصفة من صفاته من سوء ظنهم به ، وأنه هو الذي أهلكهم، وقد قال في الظانين به ظن السوء (عليهم دائرة السَّوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيرا) ولم يجئ مثل هذا الوعيد فى غير من ظن السوء به سبحانه . وجحدُ صفاته وانكار حقائق أسمائه من أعظم ظن السوء به

ولما كان أحب الاشياء اليه حمده ومدحه والثناء عليه باسمائه وصفاته وأفعاله كان انكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر به وهو شر من الشرك ، فالمعطل شر من المشرك ، فانه لا يستوي جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والطعن في أوصافه هو والتشريك بينه و بين غيره في الملك ، فالمعطلون أعداء الرسل بالذات، بل كل شرك في العالم فأصله التعطيل ، فانه لولا تعطيل كماله أو بعضه وظن السوء به لما أشرك به، كما قال امام الحنفاء وأهل التوحيد لقومه (أإفكا آلهة دون الله تريدون ؟ * فما ظنكم برب العالمين ؟) أي فما ظنكم به أن يجازيكم وقد عبدتم معه غيره ؟ وما[1] الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء ؟ أظننتم انه محتاج الى الشركاء والاعوان ؟ أم ظننتم انه يخفى عليه أحوال عباده حتى يحتاج الى شركاء تعرفه بها كالملوك ؟ أم لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم ؟ أم هو قاس فيحتاج الى شفعاء يستعطفونه على عباده ؟ أم ذليل فيحتاج الى وليّ يتكثر به من القلة ، و يتعزز به من الذلة ؟ أم يحتاج الى الولد فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه ؟ تعالى الله عن ذلك كله علوًّا كبيراً . والمقصود ان التعطيل مبدأ الشرك وأساسه ، فلا تجد معطلا الا وشركه على حسب تعطيله ، فمستقل ومستكثر

فصل

والرسل من أولهم الى خاتمهم — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - أرسلوا بالدعوة الى الله و بيان الطريق الموصل اليه و بيان حال المدعوين بعد وصولهم اليه ، فهذه القواعد الثلاث ضرورية في كل ملة على لسان كل رسول فعرفوا الرب المدعو اليه باسمائه وصفاته وأفعاله تعريفا مفصلا ، حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه

(١) لعل الاصل « أو ما » لأنه وجه آخر في تفسير الآية

وينظرون اليه فوق سماواته على عرشه يكلم ملائكته ويدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه ويرى أفعالهم وحركاتهم ويشاهد بواطنهم كما يشاهد ظواهرهم، يأمر وينهى، ويرضى ويغضب، ويحب ويسخط، ويضحك من قنوطهم وقرب غيره، ويجيب دعوة مضطرهم، ويغيث ملهوفهم ويعين محتاجهم، ويجبر كسيرهم، ويغني فقيرهم، ويميت ويحيي، ويمنع ويعطي، يؤتي الحكمة من يشاء[1] وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كل يوم هو في شان، يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويفك عانيا، وينصر مظلوما، ويقصم ظالما، ويرحم مسكينا، ويغيث ملهوفا، ويسوق الاقدار الى مواقيتها، ويجريها على نظامها، ويقدم مايشاء تقديمه، ويؤخر ما يشاء تأخيره، فأزمة الامور كلها بيده، ومدار تدبير الممالك كلها عليه. وهذا مقصود الدعوة وزبدة الرسالة

(القاعدة الثانية) تعريفهم بالطريق الموصل اليه، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه لرسله وأتباعهم، وهو امتثال أمره واجتناب نهيه والايمان بوعده ووعيده

(القاعدة الثالثة) تعريف الحال بعد الوصول، وهو ماتضمنه اليوم الآخر من الجنة والنار، وما قبل ذلك من الحساب والحوض والميزان والصراط

فقعدت المعطلة والجهمية على رأس القاعدة الاولى فحالوا بين القلوب وبين معرفة ربها، وسموا اثبات صفاته وعلوه فوق خلقه واستوائه على عرشه — تشبيها وتجسيما وحشوا، فنفروا عنه صبيان العقول، وسموا نزوله الى سماء الدنيا، وتكلمه بمشيئته، ورضاه بعد غضبه وغضبه بعد رضاه، وسمعه الحاضر لاصوات العباد، ورؤيته المقارنة لافعالهم ونحو ذلك — حوادث، وسموا وجهه الاعلى ويديه المبسوطتين وأصابعه التي يضع عليها الخلائق يوم القيامة — جوارح وأعضاء، مكرا منهم كُبارا بالناس، كمن يريد التنفير عن العسل فيمكر في العبارة ويقول: مائع أصفر يشبه العذرة المائعة. أو ينفر عن شيء مستحسن فيسميه بأقبح الاسماء فعل الماكر المخادع، فليس مع مخالف الرسل سوى المكر في القول والعمل

فلما تم للمعطلة مكرهم وسلك في القلوب المظلمة الجاهلة بحقائق الايمان وما جاء

(١) لعله سقط من هنا: ويؤتي الملك من يشاء

به الرسول — ترتب عليه الإعراض عن الله وعن ذكره ومحبته والثناء عليه باوصاف كماله ونعوت جلاله ، فانصرفت قوى حبها وشوقها وأنسها إلى سواه

وجاء أهل الآراء الفاسدة ، والسياسات الباطلة ، والاذواق المنحرفة، والعوائد المستمرة ، فقعدوا على رأس هذا الصراط وحالوا بين القلوب و بين الوصول الى نبيها وما كان عليه وأصحابه ، وعابوا من خالفهم في قعودهم عن ذلك ورغب عما اختاروه لانفسهم ، ورموه بما هم أولى به منه كما قيل : رمتني بدائها وانسلت

وجاء أصحاب الشهوات المعتنون بها الذين يعدون حصولها كيف كان الظفر في هذه الحياة والبغية فقعدوا على رأس طريق المعاد والاستعداد للجنة ولقاء الله ، وقالوا : اليوم خمر ، وغدا أمر ، اليوم لك ولا تدري غدا لك أو عليك . وقالوا : لانبيع ذرة منقودة ، بدرة موعودة

خذ ماتراه ودع شيأ سمعت به في طلعة الشمس مايغنيك عن زحل

وقالوا للناس : خلوا لنا الدنيا ونحن قد خلينا لكم الآخرة ، فان طلبتم منا ما بأيدينا أحلناكم على الآخرة

أناس[1] يُقضّون عيش النعيم ونحن نحال على الآخره
فان لم تكن مثلما يزعمون فتلك اذاً كرة خاسره

فالايمان بالصفات ومعرفتها واثبات حقائقها وتعلق القلب بها وشهوده لها هو مبدأ الطريق ووسطه ، وغايته ، وهو روح السالكين ، وحاديهم الى الوصول، ومحرك عزماتهم اذا فتروا ، ومثير هممهم اذا قصروا، فان سيرهم انما هو على الشواهد، فمن كان لاشاهد له فلا سير ولا طلب ولا سلوك له ، وأعظم الشواهد صفات محبوبهم ونهاية مطلوبهم ، وذلك هو العَلَمُ الذي رفع لهم في السير فشمروا اليه ، كما قالت عائشة رضي الله عنها «من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا رائحا لم يضع لبنة على لبنة ، ولكن رفع له علم فشمر اليه » ولا يزال العبد في التواني والفتور والكسل حتى يرفع الله عز وجل له بفضله ومنه علَما يشاهده بقلبه فيشير اليه و يعمل عليه، فان عطلت شواهد الصفات ووضعت أعلامها عن القلوب ، وطمست آثارها

(١) في ب « أناس » وفي سائر النسخ الناس

وضربت بسياط البعد ، وأسبل دونها حجاب الطرد ، وتخلفت مع المتخلفين ،وأوحى اليها القدر أن اقعدي مع القاعدين ، فان أوصاف المدعو اليه ونعوت كماله وحقائق أسمائه هي الجاذبة للقلوب الى محبته وطلب الوصول اليه ، لان القلوب انما تحب من تعرفه وتخافه وترجوه وتشتاق اليه وتلتذ بقربه وتطمئن الى ذكره ، بحسب معرفتها بصفاته، فاذا ضرب دونها حجاب معرفة الصفات والإقرار بها ، امتنع منها بعد ذلك ما هو مشروط بالمعرفة وملزوم لها ، اذ وجود الملزوم بدون لازمه والمشروط بدون شرطه ممتنع

فحقيقة المحبة والانابة والتوكل ومقام الاحسان ممتنع على المعطل امتناع حصول المغل من معطل البذر بل أعظم امتناعا . كيف تصمد القلوب الى من ليس داخلَ العالم ولا خارجه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه ولا مباينا له ولا محايثا ، بل حظ العرش منه كحظ الآبار والوهاد والاماكن التي يرغب عن ذكرها ؟ وكيف تأله القلوب من لا يسمع كلامها ولا يرى مكانها ولا يُحِب ولا يُحَب ولا يقوم به فعل البتة ، ولا يتكلم ولا يكلم ولا يقرب من شيء ولا يقرب منه شيء ولا يقوم به رأفة ولا رحمة ولا حنان، ولاله حكمة ولا غاية يفعل ويأمر لاجلها ؟ فكيف يتصور التوكل على ذلك ، ومحبته والانابة اليه والشوق الى لقائه ورؤية وجهه الكريم في جنان النعيم وهو مستو على عرشه فوق جميع خلقه ؟ أم كيف تأله القلوب من لا يحب ولا يحب ولا يرضى ولا يغضب ولا يفرح ولا يضحك ؟ فسبحان من حال بين المعطلة وبين محبته ومعرفته والسرور والفرح به والشوق الى لقائه وانتظار لذة النظر الى وجهه الكريم والتمتع بخطابه في محل كرامته ودار ثوابه ! فلو رآها أهلاً لذلك لمنّ عليها به وأكرمها به اذ ذاك أعظم كرامة يكرم بها عبده ، والله أعلم حيث يجعل كرامته ، ويضع نعمته (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله باعلم بالشاكرين * واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ماأوتي رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته — أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون) وليس جحودهم صفاته سبحانه وحقائق أسمائه في الحقيقة تنزيها ،

وانما هو حجاب ضرب عليهم فظنوه تنزيها ، كما ضرب حجاب الشرك والبدع المضلة والشهوات المردية على قلوب أصحابها وزين لهم سوء أعمالهم فرأوها حسنة

عدنا الى شرح كلامه . قوله «وقد وردت أساميها بالرسالة» الى آخره، ذكر ان اثبات الصفات دل عليها الوحي الذي جاء من عند الله على لسان رسوله ، والحس الذي شاهد به البصير آثار الصنعة فاستدل بها على صفات صانعها ، والعقل الذي طابت حياته بزرع الفكر ، والقلب الذي حيي بحسن النظر بين التعظيم والاعتبار ؛ فاما الرسالة فانها جاءت باثبات الصفات اثباتا مفصلا على وجه أزال الشبهة وكشف الغطاء وحصل العلم اليقيني ورفع الشك والريب ، فثلجت له الصدور واطمأنت به القلوب ، واستقر به الايمان في نصابه ، ففصلت الرسالة الصفات والنعوت والافعال أعظم من تفصيل الامر والنهي ، وقررت إثباتها أكمل تقرير في أبلغ لفظ وأبعده من الاجمال والاحتمال وأمنعه من قبول التأويل ، وكذلك كان تأويل آيات الصفات وأحاديثها بما يخرجها عن حقائقها من جنس تأويل آيات المعاد وأخباره ، بل أبعد منه لوجوه كثيرة ذكرتها في كتاب [الصواعق المرسلة ، على الجهمية والمعطلة] بل تأويل آيات الصفات بما يخرجها عن حقائقها كتأويل آيات الامر والنهي . فالباب كله باب واحد ومصدره واحد ومقصوده واحد ، وهو اثبات حقائقه والايمان بها

ولذلك سطا على تأويل آيات المعاد قوم وقالوا : فعلنا فيها كفعل المتكلمين في آيات الصفات ، بل نحن أعذر ، فان اشتمال الكتب الالهية على الصفات والعلو وقيام الافعال أعظم من نصوص المعاد للابدان بكثير ، فاذا ساغ لكم تأويلها فكيف يحرم علينا نحن تأويل آيات المعاد ؟ وكذلك سطا قوم آخرون على تأويل آيات الامر والنهي وقالوا : فعلنا فيها كفعل أولئك في آيات الصفات مع كثرتها وتنوعها . وآيات الاحكام لاتبلغ زيادة على خمسمائة آية — قالوا — وما يظن انه معارض من العقليات لنصوص الصفات فعندنا معارض عقلي لنصوص المعاد من جنسه أو أقوى منه ، وقالوا[1] متأولو آيات الاحكام على خلاف حقائقها وظواهرها[2] التي سوغ لنا[3]

---

(١) لعل الاصل «قال» وما بعده فاعله (٢) وفي ب «فظواهرها» وهو غير ظاهر
(٣) هذا مقول المقول، وصوابه: الذي سوغ لنا هذا القول القواعد الخ أي هو القواعد

هذا التأويل القواعد التي اصطلحتموها لنا وجعلتموها أصلا نرجع اليها فلما طردناها كان طردنا ان الله ماتكلم بشيء قط ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهي ولا له صفة تقوم به ولا يفعل شيئا، وطرد هذا الاصل لزوم تأويل آيات الامر والنهي والوعد والوعيد والثواب والعقاب

وقد ذكرنا في كتاب [الصواعق] ان تأويل آيات الصفات وأخبارها بما يخرجها عن حقائقها هو أصل فساد الدنيا والدين . وزوال الممالك وتسليط أعداء الاسلام عليه انما كانت بسبب التأويل ، ويعرف هذا من له اطلاع وخبرة بما جرى في العالم ، ولهذا يحرم عقلاء الفلاسفة التأويل مع اعتقادهم لصحته ، لانه سبب لفساد العالم وتعطيل الشرائع ، ومن تأمل كيفية ورود آيات الصفات فى القرآن والسنة علم قطعا بطلان تأويلها بما يخرجها عن حقائقها ، فانها وردت على وجه لايحتمل معه[1] التأويل بوجه ، فانظر الى قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك) هل يحتمل هذا التقسيم والتنويع تأويل إتيان الرب جل جلاله باتيان ملائكته أو آياته ؟وهل يبقى مع هذا السياق شبهة أصلا أنه إتيانه بنفسه ؟ وكذلك قوله (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده — الى أن قال — وكلم الله موسى تكليما) ففرق بين الايحاء العام والتكليم الخاص ، وجعلهما نوعين ، ثم أكد فعل التكليم بالمصدر الرافع لتوهم مايقوله المحرفون، وكذلك قوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) فنوع تكليمه الى تكليم بواسطة وتكليم بغير واسطة ، وكذلك قوله لموسى عليه السلام (اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) ففرق بين الرسالة والكلام ، والرسالة انما هي بكلامه ، وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم « انكم ترون ربكم عيانا كما ترون القمر ليلة البدر في الصحو ليس دونه سحاب، وكما ترون الشمس في الظهيرة صحواً ليس دونها سحاب »[2] ومعلوم ان هذا البيان والكشف والاحتراز

(١) في ن وح « منه » (٢) ليس من التأويل ما قالوه في شرح الحديث من أن التشبيه فيه للرؤية لا للمرئي الذي لايشبهه قمر ولا شمس ولا غيرهما (ليس كمثله شيء) ولا قولهم ان كيفية هذه الرؤية لا تعرف في الدنيا بل ما دونها من أمر الآخرة لا يمكن أن يعرف في الدنيا أيضا

تنافي ارادة التأويل قطعا ولا يرتاب في هذا من له عقل ودين

قوله « وظهرت شواهدها في الصنعة » هذا هو الطريق الثاني من طرق اثبات الصفات، وهو دلالة الصنعة عليها، فان المخلوق يدل على وجود خالقه وعلى حياته وعلى قدرته وعلى علمه ومشيئته، فان الفعل الاختياري يستلزم ذلك استلزاما ضروريا. وما فيه من الاتقان والإحكام ووقوعه على أكمل الوجوه ما يدل [1] على حكمة فاعله وعنايته، وما فيه من الاحسان والنفع ووصول المنافع العظيمة الى المخلوق — يدل على رحمة خالقه واحسانه وجوده. وما فيه من آثار الكمال يدل على ان خالقه أكمل منه. فمعطي الكمال أحق بالكمال، وخالق الاسماع والابصار والنطق أحق بان يكون سميعا بصيرا متكلما، وخالق الحياة والعلوم والقدر والارادات أحق بان يكون هو كذلك في نفسه، فما في المخلوقات شيء [2] من أنواع التخصيصات من أدل شيء [3] على ارادة الرب سبحانه ومشيئته وحكمته التي اقتضت التخصيص، وحصول الاجابة عقيب سؤال المطلوب على الوجه المطلوب دليل على علم الرب تعالى بالجزئيات وعلى سمعه لسؤال عبيده وعلى قدرته على قضاء حوائجهم وعلى رأفته ورحمته بهم، والاحسان الى المطيعين والتقرب اليهم والاكرام واعلاء درجاتهم — يدل على محبته ورضاه، وعقوبته للعصاة والظلمة وأعداء رسله بأنواع العقوبات المشهودة تدل على صفة الغضب والسخط والإبعاد، والطرد والإقصاء يدل على المقت والبغض، فهذه الدلالات من جنس واحد عند التأمل، ولهذا دعا سبحانه في كتابه عباده الى الاستدلال بذلك على صفاته، فهو يثبت العلم بربوبيته ووحدانيته، وصفات كماله بآثار صنعته المشهودة

والقرآن مملوء بذلك، فيظهر شاهد اسم الخالق من نفس المخلوق، وشاهد اسم الرازق من وجود الرزق والمرزوق. وشاهد اسم الرحيم من شهود الرحمة المبثوثة في العالم، واسم المعطي من وجود العطاء الذي هو مدرار لا ينقطع لحظة واحدة، واسم الحليم من حلمه عن الجناة والعصاة وعدم معاجلتهم، واسم الغفور والتواب من مغفرة الذنوب وقبول التوبة، ويظهر شاهد اسمه الحكيم من العلم بما في خلقه وأمره

(١) « ما » زائدة إما هنا وإما في أول الجملة (٢) لعل كلمة شيء زائدة
(٣) لعل الاصل: أدل شيء — أو — من أدل الاشياء

من الحكم والمصالح ووجوه المنافع، وهكذا كل اسم من أسمائه الحسنى له شاهد في خلقه وأمره يعرفه من عرفه ويجهله من جهله، فالخلق والأمر من أعظم شواهد أسمائه وصفاته، وكل سليم العقل والفطرة يعرف قدر الصانع وحذقه وتبريزه على غيره وتفرده بكمال لم يشاركه فيه غيره من مشاهدة صنعته، فكيف لا تعرف صفات من هذا العالم العلوي والسفلي وهذه المخلوقات من بعض صنعه

واذا اعتبرت المخلوقات والمأمورات وجدتها باسرها كلها دالة على النعوت والصفات وحقائق الاسماء الحسنى، وعلمت أن المعطلة من أعظم الناس عمىً بمكابرة، ويكفي ظهور شاهد الصنع فيك خاصة كما قال تعالى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فالموجودات بأسرها شواهد صفات الرب جل جلاله ونعوته وأسمائه، فهي كلها تشير الى الاسماء الحسنى وحقائقها وتنادي عليها وتدل عليها وتخبر بها بلسان النطق والحال كما قيل:

تأمل سطور الكائنات فانها ... من الملك الأعلى اليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ماخلا الله باطل
تشير باثبات الصفات لربها ... فصامتها يهدي ومن هو قائل

فلست ترى شيئا أدل على شيء من دلالة المخلوقات على صفات خالقها ونعوت كماله وحقائق أسمائه، وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها، فهي تدل عقلا وحسا وفطرة ونظرا واعتباراً (١)

قوله «بتبصير النور القائم في السر» يعني ان النور الإلهي الذي جعله الله لعبده ويلقيه اليه ويودعه في سره هو الذي يبصره بشواهد صفاته، فكلما قوي هذا النور في قلب العبد كان بصره بالصفات أتم وأكمل، وكلما قل نصيبه من هذا النور وطفئ مصباحه فى قلبه طفئ نور التصديق بالصفات واثباتها في قلبه. فانه إنما يشاهدها بذلك النور، فاذا فقده لم يشاهدها وجاءت الشبه الباطلة مع تلك الظلمة فلم يكن له نصيب منها سوى الانكار

---

(١) هذه الجملة من قوله «من دلالة المخلوقات» الى هنا سقطت من ن وح فنقلناها من ب

قوله « وطيب حياة العقل لزرع الفكر » أي يدرك الصفات بذلك النور القائم في سره وطيب حياة عقله التي طيبها زرع الفكر الصحيح المتعلق بما دعا الله سبحانه عباده الى الفكر فيه بقوله (ويتفكرون في خلق السماوات والارض - وقوله أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والارض ومابينهما الا بالحق - وقوله - كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) (١) فيتفكرون في الآيات التي بينها لهم فيستدلون بها على توحيده وصفات كماله وصدق رسله والعلم بلقائه ، ويتفكرون في الدنيا وانقضائها واضمحلالها وآفاتها، والآخرة ودوامها وبقائها وشرفها، وقوله (ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فالفكر الصحيح المؤيد بحياة القلب ونور البصيرة يدل على اثبات صفات الكمال ونعوت الجلال ، وأما فكر مصحوب بموت القلب وعمى البصيرة فانما يعطي صاحبه نفيها وتعطيلها

قوله « وحياة القلب بحسن النظر بين التعظيم وحسن الاعتبار » يعني انه ينضاف الى نور البصيرة وطيب حياة العقل حياة القلب بحسن النظر الدائر بين تعظيم الخالق جل جلاله وحسن الاعتبار بمصنوعاته الدالة عليه ، فلا بد من الامرين فانه ان غفل بالتعظيم عن حسن الاعتبار لم يحصل له الاستدلال على الصفات ، وان حصل له الاعتبار من غير تعظيم الخالق سبحانه لم يستفد به اثبات الصفات ، فاذا اجتمع له تعظيم الخالق وحسن النظر في صنعه أثمر له اثبات صفات كماله ولا بد ، والاعتبار هو أن يعبر نظره من الأثر الى المؤثر ومن الصنعة الى الصانع ومن الدليل الى المدلول ، فينتقل اليه بسرعة لطف دركه ، فينتقل ذهنه من الملزم الى لازمه ؛ قال الله تعالى (فاعتبروا يا أولي الابصار) والاعتبار افتعال من العبور وهو عبور القلب من الملزوم الى لازمه ومن النظير الى نظيره ، وهذا الاعتبار يضعف ويقوى حتى يستدل صاحبه بصفات الله تعالى وكماله على مايفعله لحسن اعتباره وصحة نظره، وهو اعتبار الخواص واستدلالهم ، فانهم يستدلون بأسماء الله وصفاته وأفعاله ، وانه يفعل كذا ولا يفعل كذا ، فيفعل ماهو موجب حكمته وعلمه وغناه وحمده ، ولا يفعل

(١) كذلك حذفت هذه الآيات منهما فنقلت من ب

ماينافض ذلك ؛ وقد ذكر سبحانه هذين الطريقين في كتابه فقال تعالى في الطريق الاول (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق — ثم قال فى الطريق الثانية[1] — أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد) فمخلوقاته دالة على ذاته وأسمائه وصفاته ، وأسماؤه وصفاته دالة على مايفعله ويأمر به وما لا يفعله ولا يأمر به

مثال ذلك ان اسمه الحميد — سبحانه — يدل على انه لا يأمر بالفحشاء والمنكر ، واسمه الحكيم يدل على انه لا يخلق شيئا عبثا ، واسمه الغني يدل على انه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، واسمه الملك يدل على مايستلزم حقيقة ملكه من قدرته وتدبيره وعطائه ومنعه وثوابه وعقابه ، وبث رسله في اقطار مملكته ، وإعلام عبيده بمراسيمه وعهوده اليهم ، واستوائه على سرير مملكته الذي هو عرشه المجيد ؛ فمتى قام بالعبد تعظيم الحق جل جلاله وحسن النظر في الشواهد والتبصر والاعتبار بها صارت الصفات والنعوت مشهودة لقلبه قبلة له

قوله « وهي معرفة العامة التي لاتنعقد شرائط اليقين الا بها » لايريد بالعامة الجهال الذين هم عوام الناس ، وانما يريد ان هذه هي المعرفة التي وقف عندها العموم ولم يتعدوها ، وأما معرفة أهل الذوق والمحبة الخاصة فأخص من هذا كما سيأتي

قوله « وهي على ثلاثة أركان اثبات الصفة من غير تشبيه » الى آخره — هذه ثلاثة أشياء

(أحدها) اثبات تلك الصفة فلا يعاملها بالنفي والانكار

(الثاني) انه لا يتعدى بها اسمها الخاص الذي سماها الله به بل يحترم الاسم كما يحترم الصفة فلا يعطل الصفة ولا يغير اسمها ويعيرها اسما آخر ، كما تسمي الجهمية والمعطلة سمعه وبصره وقدرته وحياته وكلامه أعراضا ، ويسمون وجهه ويديه وقدمه سبحانه جوارح وأبعاضا ، ويسمون حكمته وغاية فعله المطلوبة عللا وأغراضا ، ويسمون أفعاله القائمة به حوادث ، ويسمون علوّه على خلقه واستواءه على عرشه تحيزا ، ويتوصلون بهذا المكر الكبار الى نفي ما دل عليه الوحي والعقل والفطرة وآثار الصنعة من صفاته ، فيسطون بهذه الاسماء التي سموها هم وآباؤهم على نفي صفاته وحقائق أسمائه

(١) الطريق يذكر ويؤنث وما أرى التانيث هنا والتذكير قبله الا من النساخ

(الثالث) عدم تشبيهها بما للمخلوق، فان الله سبحانه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فالعارفون به المصدقون لرسله المقرون بكماله يثبتون له الأسماء والصفات، وينفون عنه مشابهة المخلوقات، فيجمعون بين الاثبات ونفي التشبيه، وبين التنزيه وعدم التعطيل، فمذهبهم حسنة بين سيئتين، وهدى بين ضلالتين، فصراطهم صراط المنعم عليهم، وصراط غيرهم صراط المغضوب عليهم والضالين، قال الامام أحمد رحمه الله: لا نزيل عن الله صفة من صفاته لاجل شناعة المشنعين — وقال — التشبيه أن تقول: يد كيدي. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

قوله «والإياس من ادراك كنهها وابتغاء تأويلها» يعني ان العقل قد يئس من تعرفه كنه الصفة وكيفيتها فانه لا يعلم كيف الله الا الله، وهذا معنى قول السلف [بلا كيف] أي بلا كيف يعقله البشر، فان من لا يعلم حقيقة ذاته وماهيته كيف يعرف كيفية نعوته وصفاته؟ ولا يقدح ذلك في الايمان بها ومعرفة معانيها، فالكيفية وراء ذلك، كما انا نعرف معاني ماأخبر الله به من حقائق مافي اليوم الآخر ولا نعرف حقيقة كيفيته مع قرب مابين المخلوق والمخلوق، فعجزنا عن معرفة كيفية الخالق وصفاته أعظم وأعظم، فكيف يطمع العقل المخلوق المحصور المحدود في معرفة كيفية من له الكمال كله والجمال كله والعلم كله والقدرة كلها والعظمة كلها والكبرياء كلها، من لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته السموات والارض وما فيهما وما بينهما وما وراء ذلك، الذي يقبض سمواته بيده فتغيب كما تغيب الخردلة في كف أحدنا، الذي نسبة علوم الخلائق كلها الى علمه أقل من نسبة نقرة عصفور من بحار العالم، الذي لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر مداد، وأشجار الارض من حين خلقت الى قيام الساعة أقلام، فني المداد وفنيت الأقلام ولم تنفد كلماته، الذي لو أن الخلق من أول الدنيا الى آخرها إنسهم وجنهم وناطقهم وأعجمهم جعلوا صفا واحدا ماأحاطوا به سبحانه، الذي يضع السموات على اصبع من أصابعه والارض على إصبع والجبال على إصبع والاشجار على إصبع ثم يهزهن ثم يقول: أنا الملك.

فقاتل الله الجهمية والمعطلة! أين التشبيه هاهنا وأين التمثيل؟ لقد اضمحل هاهنا كل موجود سواه فضلا عن أن يكون له مايماثله في ذلك الكمال ويشابهه فيه.

فسبحان من حجب عقول هؤلاء عن معرفته وولاها ماتولت من وقوفها مع الالفاظ التي لا حرمة لها والمعاني التي لا حقائق لها ، ولما فهمت هذه الطائفة من الصفات الالهية ماتفهمه من صفات المخلوقين فرت الى إنكار حقائقها وابتغاء تحريفها وسمته تأويلاً ، فشبهت أولا وعطلت ثانيا ، وأساءت الظن بربها وبكتابه وبنبيه وبأتباعه ، أما إساءة الظن بالرب فانها عطلت صفات كماله ونسبته الى انه أنزل كتابا مشتملا على ما ظاهره كفر وباطل ، وان ظاهره وحقائقه غير مرادة ، وأما اساءة ظنها بالرسول فلانه تكلم بذلك وقرره وأكده ولم يبين للامة ان الحق في خلافه وتأويله ، وأما اساءة ظنها بأتباعه فنسبتهم لهم الى التشبيه والتمثيل والجهل والحشو، وهم عند أتباعه أجهل من أن يكفروهم الا من عاند الرسول وقصد نفي ماجاء به . والقوم عندهم في خفارة جهلهم قد حجبت قلوبهم عن معرفة الله وإثبات حقائق أسمائه وأوصاف كماله (له بقية)

تقريظ المطبوعات الجديدة (*)

الخلق — مباحث علمية في النفس والعقل وقواها وكنه الاخلاق والعوامل المغيرة لها وتأثير العقل والبيئة والوراثة فيها . وماهية الفضيلة وتنوع درجاتها في أدوار الحياة وأنواعها وحدودها ، والرذيلة ونشأتها وأقسامها ودرئها

تأليف حسن افندي فتوح بنظارة (وزارة) المعارف ، طبع بمطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٠ طبعا نظيفا على ورق متوسط بحرف بنط ٢٤ صفحاته ١٤٤ بالقطع الصغير وثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المنار بمصر

عظة الناشئين — كتاب أخلاق وآداب واجتماع . تأليف الشيخ مصطفى الغلاييني أستاذ اللغة العربية في المدرسة السلطانية في بيروت ، طبع بمطبعة الثبات في بيروت سنة ١٣٣٠ صفحاته ٦٦ بالقطع الصغير

ومن مباحثه : الاقدام ـ الصبر ـ الإخلاص ـ الشجاعة ، الشرف ـ الهجمة واليقظة ، الثورة الادبية ، الامة والحكومة ، الغرور ، التجدد ـ الدين ، المدنية ، الحرية ـ الزعامة والرئاسة ـ السعادة ، القيام بالواجب ، الثقة ـ التعاون ـ التعصب ، ورثاء الارض الخ

(*) عهدنا بتقريظ المطبوعات الى شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

كتاب الارشاد الى تربية العقل — تأليف الدكتور محمود علي السركي طبيب مستشفى المنيا الاميري ، طبع سنة ١٩١٣ بمطبعة (الآداب الشرقية) بالمنيا على ورق متوسط صفحاته ١٤٨ بالقطع الوسط وثمنه ١٢ قرشا

من مباحث هذا الكتاب : الفهم والمعرفة، كيفية تحصيل الاعمال ، كيفية الملاحظة، كيفية الحكم ، كيفية الاحساس ، كيفية العمل ، الارادة ، كيف تكون علاقة الانسان مع غيره ، كيف يجب أن يكون الانسان ، كيف يتجنب الضرر ، معنى الحياة

جمال الزوجة - تأليف الاستاذ الشيخ مهدي أحمد خليل. طبع بمطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٣ صفحاته ١٥٢ بالقطع الصغير ثمنه $\frac{ص}{٣}$ ويطلب من مكتبة المنار بمصر

جدير بالطلبة والشبان والشابات مطالعة هذا الكتاب فانه من أفيد ما كتب في هذا الموضوع ، وقد توخى كاتبه فيه استعمال المفردات العربية لحلل النساء وحليهن وغير ذلك وشرح هذه المفردات ، كما هو دأبه في تصانيفه التعليمية المفيدة

فصول الكتاب : نصائح للامهات ، ما يلزم للمولود المنتظر ، الاعتناء بصحة الأولاد ، التسنين ، غذاء الطفل، الارضاع المختلط، الارضاع الصناعي، تخفيف اللبن، غلي اللبن وتعقيمه ، الفطام ، الاعتناء بثدي الام عند الفطام. وفي كل فصل من هذه بيان وايضاح وشرح لا يستغنى عنه من يعلم ما يجب عليه لأولاده وأمته ونوعه

قبل الزواج و بعده — تأليف الدكتور ا . دنيسون لايت ، الانكليزي وترجه بالعربية محمد افندي عبد العزيز الصدر وطبع بالمطبعة الحميدية المصرية بمصر طبعا نظيفا ، صفحاته ٧٠ بالقطع الصغير وثمنه $\frac{ص}{٣}$

مباحث هذا الكتاب : مستقبل الطفل ، متى أتزوج ، الميل الشهواني — فوائده ومضاره ، التشريح الجنسي ، الولادة ، قانون الزوج ، قانون الزوجة . وفي الكتاب جدول لاوقات إرضاع الطفل ومقدار كل رضعة من الماء واللبن من أول عمره الى الشهر الثاني عشر فنحث الامهات والآباء على اقتنائه

تدبير حياة الرضيع الصحية من يوم ولادته الى يوم الفطام — تأليف الدكتور نجيب افندي قناوي طبيب عيادة اللادي كرومر للاطفال بالاسكندرية. طبع بمطبعة

محمد الكلازه بالاسكندرية سنة ١٣٢٩ طبعا نظيفا على ورق جيد وثمنه ثلاثة قروش، وهو من أنفع الكتب في هذا الباب

جرجي زيدان — كتاب فيه ترجمة حياة جرجي بك زيدان صاحب الهلال ومراثي الشعراء والكتاب وحفلات التأبين وأقوال الكتاب والمجلات والجرائد في الفقيد وآثاره ومكانته العلمية الادبية وفي الكتاب رسوم الفقيد شابا وكهلا طبع بمطبعة الهلال بمصر على ورق جيد سنة ١٩١٥ وصفحاته ١٤٧

تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان — الجزء الرابع — طبع بمطبعة الهلال على ورق متوسط سنة ١٩١٤ صفحاته ٣٢٨ بقطع المنار وثمنه ٢٠ ويطلب من مكتبة الهلال ومكتبة المنار بمصر

هذا الجزء هو تتمة أجزاء الكتاب ، وبه تمت حياة المؤلف المملوءة جدا ونشاطا وعملا

يشتمل هذا الجزء على تاريخ آداب اللغة العربية وعلومها وتراجم العلماء والادباء والشعراء ووصف مؤلفاتهم وأماكن وجودها ، من عهد دخول الفرنسيين الى مصر سنة ١٢١٣ هـ الى هذه الايام ، وقد قرظ المنار أجزاء هذا الكتاب الثلاثة ونشر انتقاد الاستاذ الاسكندري له ، وأنصف مؤلفه فيما كتبه عن مؤلفاته

ألحق المصنف بهذا الجزء جدولا استغرق ٦ صفحات في تصحيح الاغلاط التي استفادها من المنتقدين على الاجزاء التي قبله ، وذكر منهم الاب لويس شيخو والاب انستاس الكرملي والشيخ احمد عمر الاسكندري واحد آل كاشف الغطاء وعيسى افندي المعلوف . وهؤلاء نشرت انتقاداتهم في مجلات المشرق ولغة العرب والمنار والعرفان ، وذكر من المنتقدين الذين كاتبوه احمد بك تيمور . ولكنه لم يذكر الشيخ شبلي النعماني فانه كاتبه وكتب انتقاداً على تاريخ التمدن الاسلامي في المنار ، غير انه كان في انتقاده شدة وغلظة ضاق بها صدر جرجي بك زيدان على سعته

وفي هذا الجدول استدراكات استفادها المؤلف من المطالعة وفي ذيله ترجمة حياته وذكر جميع مؤلفاته وفيه فهرس للاجزاء الاربعة

كتاب أصول علم الاقتصاد — تأليف الاستاذ ووكر الامريكي وتعريب محمد حمدي بك السيد من قضاة المحاكم الاهلية يطبع بمطبعة المنار طبعا نظيفا على ورق جيد وقد صدر الجزء الاول منه في أواخر سنة ١٣٣٣ وصفحاته ٢٥٨ وثمنه ٢٠ قرشا ولتلاميذ المدارس العليا ١٥ قرشا ويطلب من مكتبة المنار بمصر

ان الحالة المالية والاقتصادية بمصر جعلت الحاجة ماسة الى وجود كتب في علم الاقتصاد والى مدرسين يدرسونه في المدارس ولا سيما في هذه البلاد التي كثرت فيها الشركات الزراعية والتجارية والصناعية واتسعت دائرة الاعمال المالية . وان بلادا كالبلاد المصرية في حالتها المدنيـة وتغلغل الافرنج فيها وادارتهم للمصارف والشركات فيها لايمكن أن يحفظ أهلها ثروتهم أو أرضهم فضلا عن أن ينموها الا اذا كثر فيهم العارفون بهذا العلم و بنوا أعمالهم المالية كلها على أصوله التي بنى عليها غيرهم ، فوجب على المصريين خاصة والعرب عامة تناول هذا الفن لان مصر اليوم هي أرقى بلاد العرب ثروة فاذا ارتقى هذا العلم فيها يكون ذلك مقـدمة لارتقائه في غيرها

يظن كثير من الناس ان الاقتصاد كل الاقتصاد أن لاتنفق كثيرا ، أو ان تدخر من كسبك شيئا لوقت حاجتك ، وهذا وهم منشأه الجهل فان متناول علم الاقتصاد أوسع من ذلك واكبر من أن ينحصر بالتقتير والتضييق على من وسع عليهم في الرزق

وأقل مايقال فيه انه علم يبحث في (ايجاد الثروة) وهذه الكلمة تتضمن معرفة طبيعة الارض واستعدادها وكيفية توزيع محصولاتها، وتكون الصناعة وارتقائها وتأثير العوامل الطبيعية والسياسية والادارية والمركز السياسي في ذلك . ثم هو يبحث في (انماء الثروة) وما يلزم لذلك من تأثير الصناعة واتقانها وتصرف مديري المصانع وعمل الصناع ورأس المـال والقيمة الاعتبارية للنقدين أو ما يقوم مقامهـا والمبادلة والارباح والاقوات وقيمة الايجار والتوزيع والاشـتراك ومعاملة الدول وتبادل بعضها مع بعض . ثم ما لاعتصاب العمال وتأثير القوانين الادارية والسياسية في ذلك

فالاقتصاد هو مايوجد ثروة لامة والفرد وينميهما أي أن تعلم كيفيـة كسب المال وكيفية انفاقه بما يعود عليك وعلى أمتك بالثراء ونعمة العيش

ولما أحس الناس بالحاجة الى هذا العلم في السنين الاخيرة كتب فيه بعض الكاتبين مقالات في الجرائد والمجلات، وترجم آخرون بعض المختصرات، وكان آخر ما ارتقت العناية اليه أن انبرى محمد حمدي بك السيد القاضي بالمحاكم الاهلية الى ترجمة (أصول علم الاقتصاد السياسي) فأفرغ جهد المستطاع في نقله الى العربية مع مايلزم لذلك من تعريب الاصطلاحات الفنية فأنجزه ترجمة وأتم طبع الجزء الاول منها وقد أوشك أن يتم طبع الجزء الثاني . ومن مميزات هذا الكتاب ان المؤلف قد وفى المسائل حقها، وأعطاها من الايضاح قسطها، وأبرزها في لغة العرب بعبارة سهلة المتناول صحيحة التعبير واضحة المعنى غير متنطع ولا متقعر

كتاب دروس سنن الكائنات

في مدرسة دار الدعوة والارشاد

دروس علمية طبية اسلامية في الكيمياء والطبيعة والتشريح ووظائف الاعضاء وقانون الصحة وعلم الانسجة للدكتور محمد توفيق صدقي نشرتها مجلة المنار وطبعتها على نفقتها بمطبعتها على ورق جيد وقد تم طبع الجزء الاول فبلغت صفحاته ١٨٦ بقطع المنار وثمنه ٥ قروش ويطلب من مكتبة المنار وادارته بمصر

الدكتور محمد توفيق صدقي بحاثة منقب، مؤلف محقق، عرفه قراء المنار بآثاره من أول عهده بالكتابة العلمية لانه قلما كتب شيئاً في غير المنار. ودروسه هذه مبنية على البحث والاطلاع والتحقيق والجمع بين العلم والعمل فهي كتاب علمي طبي جدير بأن يدرس في المدارس العربية ولاسيما الدينية منها، لانه يقرب هذه العلوم من ذهن التلميذ بعبارة عربية سلسة ، التزم فيها تعريب الاصطلاحات العلمية والتوفيق بين مسائل العلم المحققة ونصوص القرآن والحديث عند الحاجة الى ذلك ، لالأن المراد مزج العلم بالدين في التعليم كما يتوهم من يرى أن الفصل بينهما بتعليم كل منهما وحده أولى ، بل لان الغرض الاول من هذه الدروس أن يكون لرجال الدين الذين يعدون للارشاد والتعليم إلمام صحيح بالعلوم التي يحتاجون اليها في التربية والارشاد من وجهين (أحدهما) تقوية الايمان بما ترشد اليه هذه العلوم من الآيات على

قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته ووحدانيته (وثانيهما) العلم بأن الا تقاء بها مطلوب شرعاً لاممنوع كما يتوهمه الجاهلون. مثال هذا ان توقي ميكروبات الامراض والآفات التي تصيب الانسان والحيوان والنبات لا ينافي الايمان بالله ولا التوكل عليه ولا مانقل في كتب الدين من نفي العدوى الجاهلية، فاذا لم يكن رجال الدين على بصيرة في ذلك لا يسهل عليهم القيام بوظيفة الارشاد الاسلامي الذي يجب أن يكون جامعاً بين حقوق الارواح والاجساد، ومصلحتي المعاش والمعاد

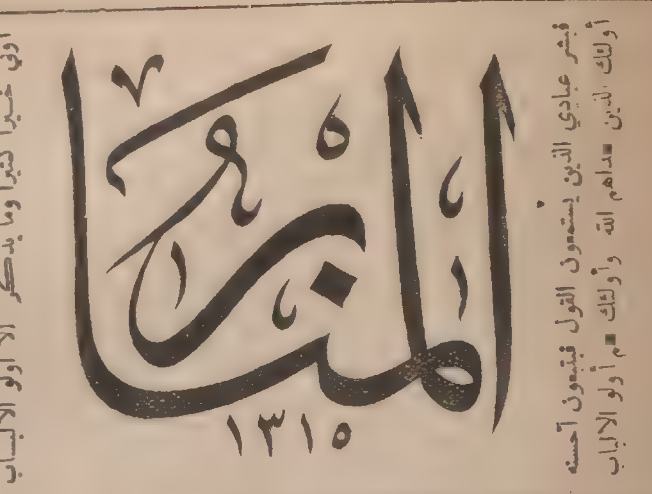
الالفاظ الكتابية: لعبد الرحمن بن عيسى بن حماد الهمذاني — هذا الكتاب غني عن التعريف والتقريظ وهو أشهر من نار على علم، وقد طبع مرات بأشكال مختلفة، ولعل آخر طبعة طُبعها هي هذه التي طبعها محمد امين ومحمود توفيق بمطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٢٩ على ورق أبيض بقطع رسالة التوحيد وجعلا ثمنه أربعة قروش ويطلب منهما ومن مكتبة المنار بمصر

أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه — رسالة مقتبسة من كتاب يتيمة الدهر الشهير تأليف أبي منصور الثعالبي، طبعه علي عطية بمطبعة الجمالية بمصر على ورق ابيض صفحاته ١١٢ بقطع الاسلام والنصرانية وثمنه ١ ½ ص ويطلب من مكتبة المنار بمصر

موضوع الرسالة ما قيل في شعر المتنبي انتقادا وتقريظا وهو ما كتبه الثعالبي في اليتيمة عند الكلام على ابي الطيب وقال في آخره انه يصلح ان يكون كتابا مستقلا وهو القائل في المتنبي : إنه نادرة الفلك وواسطة عقد الدهر في صناعة الشعر .

ديوان عبد الرحمن شكري — طبع الجزء الثالث من هذا الديوان في مطبعة غرزوزي بالاسكندرية سنة ١٩١٥ فبلغت صفحاته ٧٤ فيها من القصائد والمقاطيع ٥٥ ثمنه ٥ ص ويطلب من مكتبة المنار بمصر

شعر عبد الرحمن شكري معروف لقراء العربية فهو يطرق أبوابا لم يطرقها غيره لانه يقول الشعر للشعر لا للسعر فاذا كان الكون في نظر الشاعر قصيدة — كما يقول شكري — فان قصائده أبيات من تلك القصيدة كما يعلم من عناوين هذا الجزء ومنها : الربيع والصبا ، بين الحقيقة ، الخيال ، الشعر والطبيعة، سحر الربيع ، الحسن مرآة الطبيعة ، وغير ذلك ومن قصائده الاخلاقية قصيدة تحت عنوان « صوت النذير » تمثل غيرته وشاعريته



﴿ قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق ﴾

مصر ٣٠ ذي الحجة ١٣٣٣ — ١٥ العقرب (خ ٢) ١٢٩٤ هـ ش ٨ نوفمبر ١٩١٥

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(١١٩) وَإِذْ قَالَ ٱللهُ يٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَانتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللهِ ؟ قَالَ سُبْحٰنَكَ ! مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ انتَ عَلّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١٢٠) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ : أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٢١) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ

عِبَادُكَ، وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٢) قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢٣) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (*)

اتصال هذه الآيات بما قبلها جلي ظاهر، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقوله تعالى ﴿وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ معطوف على قوله تعالى « اذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك » الخ والمعنى اذكر أيها الرسول للناس يوم يجمع الله الرسل فيسألهم جميعا عما أجابتهم به أممهم إذ يقول لعيسى اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك الخ واذ يقول له بعد ذلك : أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله أي يسأله : أقالوا هذا القول بأمر منك أم هم افتروه وابتدعوه من عند أنفسهم ؟

ومعنى قوله «من دون الله» كائنين من دون الله — أو حال كونكم متجاوزين بذلك توحيد الله وإفراده بالعبادة . فهذا التعبير يصدق باتخاذ إله أو أكثر مع الله تعالى وهو الشرك ، فان عبادة الشريك المتخذ ، غير عبادة الله خالق السموات والارض، سواء اعتقد المشرك ان هذا المتخذ ينفع و يضر بالاستقلال — وهو نادر — أو اعتقد أنه ينفع و يضر بإقدار الله إياه وتفويضه بعض الامر اليه فيما وراء الاسباب، أو بالوساطة عند الله أي بحمله تعالى بما له من التأثير والكرامة على النفع والضر، وهو الاكثر الذي كان عليه مشركو العرب عند البعثة كما حكى الله عنهم في قوله (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقوله (والذين اتخذوا من دونه أولياء : ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) الخ —

---

*) وافق عدد السورة عندنا ما اعتمده البصريون كما تقدم بيانه في أول تفسيرها

وقلما يوجد في البشر المتدينين من يتخذ إلها غير الله متجاوزا بعبادته الايمان بالله الذي هو خالق الكون ومدبره ، فان الايمان الفطري المغروس في غرائز البشر هو أن تدبير الكون كله صادر عن قوة غيبية لا يدرك أحد كنهها ، فالموحدون أتباع الرسل يتوجهون بعباداتهم القولية والفعلية الى صاحب هذه القوة الغيبية وحده ، معتقدين انه هو الفاعل المطلق وحده ، وان كل فعل ينسب الى غيره فانما ينسب اليه كذبا أو على انه فعله باقدار الله اياه عليه وتسخيره له بمقتضى سننه في خلقه ، التي قام بها نظام الاسباب والمسببات بمشيئته وحكمته ، والمشركون يتوجهون تارة اليه وتارة الى بعض ما يستكبرون خصائصه من خلقه ، كالشمس والنجم ، وبعض مواليد الارض ، وتارة يتوجهون اليهما معا فيجعلون الثاني وسيلة الى الاول. ومن يشعر بسلطة غيبية تتجلى له في بعض الخلق فهو يخشى ضرها ويرجو نفعها ، ولا يمتد نظر عقله ولا شعور قلبه الى سلطة فوقها ، ولا يتفكر في خلق هذه الاكوان ، فهو أقرب الى الحيوان منه الى الانسان ، فلا يعد من العقلاء المستعدين لفهم الشرائع وحقائق الدين، على أنه يصدق عليه انه اتخذ إلهًا من دون الله، ولكن هذا النوع من الاتخاذ غير مراد هنا لان الذين شرعوا للناس عبادة المسيح وأمه كانوا من شعوب مرتقية حتى في وثنيتها ، ولها فلسفة دقيقة فيها، وهم اليونان والرومان ، وبعض اليهود المطلعين على تلك الفلسفة جد الاطلاع . وجملة القول ان اتخاذ إله من دون الله يراد به عبادة غيره سواء كانت خالصة لغيره أو شركة بينه وبين غيره ، ولو بدعاء غيره والتوجه اليه ليكون واسطة عنده (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء)

أما اتخاذهم المسيح إلها فقد تقدم بيانه في مواضع من تفسير هذه السورة ، وأما أمه فعبادتها كانت متفقا عليها في الكنائس الشرقية والغربية بعد قسطنطين، ثم أنكرت عبادتها فرقة البروتستانت التي حدثت بعد الاسلام بعدة قرون

ان هذه العبادة التي توجهها النصارى الى مريم والدة المسيح (عليهما السلام) منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء، واستغاثة واستشفاع ، ومنها صيام ينسب اليها ، ويسمى باسمها ، وكل ذلك يقرن بالخضوع والخشوع لذكرها ولصورها وتماثيلها ، واعتقاد السلطة الغيبية لها ، التي يمكنها بها في اعتقادهم أن تنفع وتضر في الدنيا والآخرة

بنفسها أو بواسطة ابنها ، وقد صرحوا بوجوب العبادة لها ، ولكن لا نعرف عن فرقة من فرقهم اطلاق كلمة (إله) عليها ، بل يسمونها (والدة الإله) ويصرح بعض فرقهم بأن ذلك حقيقة لامجاز ، والقرآن يقول هنا انهم اتخذوها وابنها إلهين ، والاتخاذ غير التسمية، فهو يصدق بالعبادة وهي واقعة قطعاً،و بين في آية أخرى انهم قالوا (ان الله هوالمسيح عيسى بن مريم) وذلك معنى آخر.وقد فسر النبي (ص) قوله تعالى في أهل الكتاب (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) انهم اتبعوهم فيما يحلون ويحرمون لا انهم سموهم أربابا

وأول نص صريح رأيته في عبادة النصارى لمريم عبادة حقيقية ما في كتاب (السواعي) من كتب الروم الارثوذكس ،وقد اطلعت على هذا الكتاب في دير يسمى (دير البلمند) وأنا في أول العهد بمعاهد التعليم .وطوائف الكاثوليك يصرحون بذلك و يفاخرون به. وقد زين الجزويت في بيروت العدد التاسع من السنة السابعة لمجلتهم (المشرق) إذ جعلوه تذكارا لمرور خمسين سنة على اعلان البابا بيوس التاسع ان مريم البتول « حُبل بها بلا دنس الخطية » وأثبتوا في هذا العدد عبادة الكنائس الشرقية لمريم كالكنائس الغربية، ومنه قول (الاب لويس شيخو) في مقالة له فيه عن الكنائس الشرقية « ان تعبد الكنيسة الارمنية للبتول الطاهرة أم الله لأمر مشهور » وقوله « قد امتازت الكنيسة القبطية بعبادتها للبتول المغبوطة أم الله »(*)

---

*) اذا أردت نصا من نصوص بعض فرقهم على هذه العبادة وما يستدلون به على أصلها وحقيقتها عندهم على طريقتهم في الاستدلال من العهد العتيق على عقائدهم فتامل ما نشر في العدد الرابع عشر من مجلد السنة الخامسة من مجلة المشرق الكاثوليكية البيروتية بقلم « الاب انستاس الكرملي » وهو مقال موضوعه (أصل رهبانية الكرمل) فقد صرح فيه بان لعبادة مريم العذراء أصلا في العهد العتيق، وجعل عنوان اول فصل من هذا المقال «قدم التعبد للعذراء » وذكر في اوله عبارة سفر التكوين في عداوة الحية للمرأة ونسلها وفسر المرأة بالعذراء ثم قال :

« ألا ترى انك لا ترى من هذا النص شيئا ينوه بالعذراء تنويها جليا الى ان جاء ذلك النبي العظيم ايليا الحي فابرز عبادة العذراء من حيز الرمز والابهام ، الى عالم الصراحة والتبيان » ثم فسر هذه الصراحة وهذا التبيان بما في سفر الملوك الثالث =

من يسمع أو يقرأ سؤال الله تعالى لعيسى عن عبادة الله له ولأمه تتوق نفسه الى معرفة جوابه عليه السلام، وتتوجه الى السؤال والاستفهام، فلذلك جاء كأمثاله بأسلوب الاستئناف ﴿ قال سبحانك ﴾ بدأ عليه السلام جوابه بتنزيهه إلهه وربه عز وجل عن أن يكون معه إله، خلافا لمن قال ان التنزيه هنا انما هو عن ذلك القول المسؤل عنه، فذهب الى أن معنى الجملة: أنزهك تنزيها لائقا من أن أقول ذلك، أو من أن يقال ذلك في حقك، وظن ان هذا هو الذي يقتضيه سياق النظم، وستعلم مافيه من الضعف، وان ما اخترناه هو الحق.

وكلمة « سبحان » قيل انها علم للتسبيح، وقيل انها مصدر لسبح الثلاثي كالغفران، واستعملت مضافة بالمراد الا ماشذ في الشعر، والتسبيح تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، وهو من مادة السبح والسباحة وهي الذهاب السريع البعيد في البحر أو البر، ومن الثاني سبح الخيل وقالوا فرس سَبوح (كصبور) ومثله التقديس من القدس وهو الذهاب البعيد في الارض، ثم استعمل التسبيح والتقديس في التنزيه. قالوا: ان التسبيح يدل على الإبعاد ولكن عن كل شر وسوء، ولذا خص بتنزيه الله تعالى، ويقابله اللعن فهو يدل على الإبعاد ولكن عن كل خير، وكذلك لفظ الإبعاد والبعد غلب استعماله في مقام الشر؛ (ألا بعداً لعاد قوم هود * أولئك في ضلال بعيد) قال الراغب: والتسبيح تنزيه الله تعالى، وأصله المر السريع في عبادة الله تعالى، وجعل ذلك في فعل الخير، كما جعل الابعاد في الشر، فقيل أبعده الله،

= (بحسب تقسيم الكاثوليك) من امر إيليا لغلامه حين كانا فى راس الكرمل ان يتطلع نحو البحر سبع مرات، واخبار الغلام إياه بعد تطلعه المرة السابعة انه راى سحابة قدر راحة الرجل طالعة من البحر. وقال (اي الكاتب للمقال) في تلك القزعة من السحاب: « فمن ذلك النشيء (اول ما ينشا من السحاب)؟ قلت ان هو الاصورة مريم على ما احقه المفسرون بل وصورة الحبل بلا دنس اصلي » الخ ثم قال « هذا هو اصل عبادة العذراء فى الشرق العزيز، وهو يرتقي الى المئة العاشرة قبل المسيح، والفضل فى ذلك عائد الى هذا النبي ايليا العظيم » ثم قال « ولذلك كان اجداد الكرمليين اول من آمن ايضا بالاله يسوع بعد الرسل والتلامذة واول من اقام للعذراء معبدا بعد انتقالها الى السماء بالنفس والجسد »

وجعل التسبيح عاما في العبادات قولا كان أو فعلا أو نيـة . اه ثم أورد الشواهد من الآيات على اطلاق التسبيح بمعنى الصلاة و بمعنى الدلالة على التنزيه كتسبيح السموات والارض وما فيهما . والمراد بتسبيح النية العـلم والاعتقاد . وفي كلمـة « سبحانك » — ومثلها سبحان الله — مبالغة في هذا التنزيه أيُ مبالغـة ، إذ تدل على المبالغة بمادتها الدالة بمأخذها الاشتقاقي على البعد والايغال والسبح الطويل في هذا البحر المديد الطويل ، و بصيغتها الاصلية وهي التسبيح — التي هي مسمى اسم المصدر (سبحان) ومدلولهُ — فان التفعيل يدل على التكثير، ثم بالعدول عن هذه الصيغة التي هي مصدر الى الاسم الذي جعل علما عليها — على قول ابن جني — فان اسم المصـدر يدل على تأكيد معنى المصـدر وثباته وحقيقته ، لان مدلوله هو لفظ المصدر ، فانتقال الذهن منه الى المصدر ومن المصـدر الى المعنى بمنزلة تكرار لفظ المصدر ، بل هو أبلغ وأدل على ارادة الحقيقة دون التجوز ، ولم أر أحدا سبقني الى بيان هذا على كونه في غاية الظهور عند من تأمله [ومن شدة الظهور الخفاء]

قلنا ان عيسى عليه السلام بدأ جوابه بتنزيه الله عز وجل عن أن يكون معـه إله ، فأثبت بهذا أنه على علم يقيني ضروري بأن الله تعالى منزه في ذاته وصفاته عن ان يشارك في ألوهيته ، وانتقل من هذا الى تبرئة نفسه العالمة بالحق، عن قول ما ليس له بحق ، فقال :

﴿ ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ أي ليس من شأني ولا مما يصح وقوعه مني أن أقول قولا ليس لي أدنى حق أن أقوله، لانك أيدتني بالعصمة من مثل هذا الباطل . ولا يخفى ان هذا أبلغ في البراءة من نفي ذلك القول وانكاره انكارًا مجردًا ، لان نفي الشأن يستلزم نفي الفعل نفيا مؤيدًا بالدليل ، فهو بتـنزيه الله تعالى أولا أثبت ان ذلك القول الذي سئل عنه - تمهيدًا لاقامة الحجة على من اتخذوه وأمه إلهـين — قول باطل ليس فيه شائبة من الحق، ثم قفى على ذلك بأنه ليس من شأنه ولا مما يقع من مثله أن يقول ما ليس له بحق ، فنتيجة المقدمتين الثابتتين انه لم يقل ذلك القول

ثم أكد هذه النتيجة بحجة أخرى قاطعة على سبيل الترقي من البرهان الادنى

الراجع الى نفسه وهو عصمته عليه السلام، الى البرهان الاعلى الراجع الى ربه العلام، فقال ﴿ ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ أي ان كان ذلك القول قد وقع مني فرضا فقد علمته، لان علمك محيط بكل شيء، تعلم ما أسره وأخفيه في نفسي، فكيف لا تعلم ما أظهرته ودعوت اليه فعلمه مني غيري؟ ولا أعلم ما تخفيه من علومك الذاتية التي لا تهديني اليها بنظر واستدلال كسبي، إلا ما تظهرني عليه بوحي وهبي. قيل ان اضافة كلمة نفس الى الله تعالى من باب المشاكلة، على أنها وردت بغير مقابل يسوغ ذلك كقوله تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة — ويحذركم الله نفسه) وقيل انها بمعنى الذات، والمهم فهم المعنى من هذا الاطلاق. وتنزيه الله تعالى عن مشابهة نفسه لأنفس خلقه معروف بالنقل والعقل، فاستشكال إطلاق الوحي للاسماء مع هذا ضرب من الجهل ﴿ انك أنت علام الغيوب ﴾ أي انك أنت المحيط بالعلوم الغيبية وحدك، لان علمك المحيط بكل ماكان وما يكون وما هو كائن علم ذاتي لا منتزع من صور المعلومات، ولا مستفاد بتلقين ولا بنظر واستدلال، وانما علم غيرك منك لا من ذاته، فاما أن يناله بما آتيته من المشاعر أو العقل، واما أن يتلقاه مما تهبه من الالهام والوحي، أي وقد علمت أني لم أقل ذلك القول. وشرط «ان» لا يقتضي الوقوع

ثم انه بعد تنزيه ربه، وتبرئة نفسه، واقامة البرهانين على براءته، بين حقيقة ما قاله لقومه، لان الشهادة عليهم لا تكون تامة كاملة، بحيث تظهر لهم هنالك حجة الله البالغة، الا باثبات ما كان يجب أن يكونوا عليه من أمر الدين والتوحيد بعد نفي ضده، فكان من شأن السامع لما سبق من النفي أن يسأل عما قاله في موضوعه، ولذلك قال ﴿ ما قلت لهم الا ما أمرتني به — أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ فهذا قول يتضمن انكار أن يكون أمرهم باتخاذه وأمه إلهين واثبات ضده، أي ما قلت لهم في شأن الايمان وأصل الدين وأساسه الذي يبنى عليه غيره ولا يعتد بغيره دونه، الا ما أمرتني بالتزامه اعتقادا وتبليغا وهو الامر بعبادتك وحدك، مع التصريح بأنك ربي وربهم، وانني عبد من عبادك مثلهم، أي الا أنك خصصتني بالرسالة اليهم. فقوله «أن اعبدوا الله» تفسير للمأمور به، وانما قال: ماقلت لهم

الا ما أمرتنى به ، ولم يقل ما أمرتهم الا بما أمرتني به، أدبا مع الله تعالى ومراعاة لما ورد فى السؤال « أأنت قلت »

﴿ وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ﴾ أي وكنت قائما عليهم أراقبهم وأشهد على ما يقولون و يفعلون فأقر الحق وأنكر الباطل مدة دوام وجودي بينهم ﴿ فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ أي فلما توفيتني اليك كنت أنت المراقب لهم وحدك اذ انتهت مدة رسالتي فيهم ومراقبتي لهم وشهادتي عليهم ، فلا أشهد على ماوقع منهم وأنا لست فيهم، وأنت شهيد عليهم وشهيد بيني و بينهم ، بما انك شهيد على كل شيء في ملكك ، وأنت ا كبر شهادة ممن تجعلهم شهداء من خلقك ، (قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني و بينكم)

وقد مر فى هذه السورة ما يزكي تبرئة عيسى عليه السلام لنفسه و يؤيد قوله هنا ، وذلك قوله تعالى (٧٥ لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح عيسى بن مريم — وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم، انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) فجملة « وقال المسيح يا بني اسرائيل» الخ حالية أي قالوا قولهم ذلك والحال ان المسيح أمرهم بضده ، وهو أن يعبدوا الله وحده

وفي أناجيلهم من بقايا التوحيد الذي أمرهم به مارواه يوحنا في انجيله عنه وهو قوله عليه السلام (٧ :٣ وهذه هي الحياة الابدية ان يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك . و يسوع المسيح الذي أرسلته) وفي انجيل برنابا من تجريد التوحيد والاستدلال عليه بالآيات البينات ما هو جدير بأن يكون وحيا صحيحا من الله تعالى الى رسوله عيسى عليه الصلاة والسلام

ولما كان المراد من السؤال الذي أجيب عنه بهذا الجواب هو إقامة الحجة التي يظهر بها عدل الله تعالى يوم القيامة فيما يجزي به من اتخذ عيسى وأمه إلهين وغيرهم من قومه فوض عليه السلام أمر الجزاء اليه تعالى بحسب ما تقتضيه شهادته تعالى وصفاته فقال ﴿ إن تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي ان تعذب أولئك الناس الذين أرسلتني اليهم فبلغتهم ما أمرتني به من توحيدك وعبادتك

وحدك ، فضلّ من ضل منهم ، وقالوا ما لم أقله لهم ، واهتدى من اهتدى منهم فلم يعبدوا معك أحدا من دونك ، فانهم عبادك وأنت ربهم الاولى والاحق بأمرهم ، ولست أنا ولا غيري من الخلق بأرحم بهم ، ولا بأعلم بحالهم ، وانما تجزيهم بحسب علمك بظواهرهم و بواطنهم ، فأنت أعلم بالمؤمن الموحد ، والمشرك المثلث ، والطائع الصالح ، والعاصي الفاسق ، والمقر للكفر والفسق والمنكر لهما ، وأنت عالم الغيب والشهادة تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون * ولا تظلم أحدا مثقال ذرة . فالمراد اذاً إن تعذب فانما تعذب من يستحق التعذيب منهم . ولا يمنع ارادة هذا المعنى إطلاق الضمير الراجع الى جملتهم فانه ضمير الجنس الذي يصدق ببعض الافراد ، وهو لم يَرِد بصيغة من صيغ العموم . ولذلك أطلقه في المقابل . وهو قوله : وان تغفرلهم الخ أي وان تغفر فانما تغفر لمن يستحق المغفرة منهم ، فانك أنت العزيز أي القوي الغالب على أمره ، الحكيم في جميع تصرفه وصنعه ، فيضع كل حكم وجزاء وفعل في موضعه . وهو أعلم بموضع العدل ، وموضع الرحمة والفضل

وهذا التوجيه أظهر من قول بعضهم ان تعذب من أشرك منهم فانهم عبادك ، وان تعذب من آمن منهم فانك أنت العزيز الحكيم . فان هذا تعيين لمن يعذبه ومن يغفر له ، ينافيه إطلاق ضمير الجنس في مقام التفويض الذي مهد له بالبراءة مما قالوه فيه وفي أمه ، مخالفا لما بلغهم عن ربه ، واثبات أن الله تعالى هو الرقيب عليهم ، والشهيد على كل شيء يقع منهم ومن غيرهم . فكأنه قال لربه : إنك أنت العليم بما كان منهم مدة وجودي بينهم و بعد وفاتي ، وأنت الشهيد عليهم ولا شهادة أكبر ولا أصدق من شهادتك ، فمهما توقعه فيهم من عذاب فلا دافع له من دونك ، إذ لا يوجد أحد أرحم منك بعبادك فيرحمهم أو يسألك ان ترحمهم ، ومهما تمنحهم من مغفرة فلا يستطيع أحد حرمانهم منها بحوله وقوته ، لانك أنت العزيز الذي يَغلب ولا يُغلب ، و يمنع من شاء ما شاء ولا يُمنع ، ولا بتحويلك عن ارادتك فانك أنت الحكيم الذي تضع كل شيء موضعه ، فلا يمكن لاحد غيرك ان يرجعك عنه ، بناء على ان غيره أولى منه .. فمن ذا الذي يستطيع الاستدراك أو الافتيات عليك؟

فهذا بيان ما يقتضيه التفويض المطلق الى الله تعالى وحده ، بل أقول إن في

جزاء الشرط الاول اشارة الى ان تعذيب من يظن المخلوقون أنهم يستحقون المغفرة ان وقع من الله فلا يكون الا عدلا ، لانهم عباد الله المضافون اليه ، ومن شأن هذه الاضافة ان تفيدهم مغفرة منه ورحمة ، يدل على ذلك قوله تعالى (ياعبادي لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون * ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم) وأمثالها من الآيات التي أضيف فيها لفظ عباد الى الله ، فاذا وقع عليهم العذاب فلا بد ان يكون سببه الذي خفي عن المخلوقين عظيما ، فالأدب التفويض — وفي جزاء الشرط الثاني اشارة الى ان المغفرة ان أصابت من يظن المخلوقون انه يستحق العذاب فلا تكون من الله اماهى الا لغاية اقتضتها عزة الالوهية ، وحكمة الربوبية، فلا عبرة بالظواهر التي تبدو للمخلوقين بالنسبة الى علم علام الغيوب وحكمته ولا سيما في ذلك اليوم ، فالواجب ان يفوض اليه الامر كله ، يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء . وبهذا تنجلي نكتة اختيار «العزيز الحكيم» هنا على «الغفور الرحيم» على خلاف المعروف من أسلوب القرآن في مراعاة مناسبة المقام في قرن الاسماء الالهية بالافعال والاحكام، كما تقدم بيانه في تفسير (٥: ٤١ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ٤٢ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه ، ان الله غفور رحيم) فذكر عيسى عليه السلام لاسمي الله «العزيز الحكيم» في جزاء شرطية المغفرة كذكره لكلمة « عبادك » في جزاء شرطية التعذيب ، كل منهما وقع في محله الذي تقتضيه البلاغة في مقام التفويض فكان حجة له، ولو أراد بكلامه الشفاعة والاسترحام لعكس ولكل مقام مقال، ولولا هذا لكان كل منهما اعتراضا على الرب، أو تعريضا بحكمه جل وعز ،وحاشا لعيسى عليه الصلاة والسلام من ذلك

ولما غفل من غفل من المفسرين عن هذا مع تصريح بعضهم بأن الكلام في تفويض الامر الى الله تعالى استشكلوا العبارة ، وحاروا فيما فهموه من دلالتها على جواز غفران الشرك ، وطفقوا يتلمسون النكتة لترتيب الغفران على صفتي العزة والحكمة ، دون ما يتبادر من ترتيبه على صفتي المغفرة والرحمة ، واستنجدوا مذاهبهم الكلامية في ذلك فانجدت مفسري الاشعرية ، بما استطالوا به على

مفسري المعتزلة ، فقالوا ان المعنى ان تعذبهم فانهم عبيدك والمالك يتصرف بعبيده كما يشاء فلا يسئل ولا يعترض عليه وان عذب أكملهم ايمانا واسلاما واحسانا، وقال بعضهم ان المراد فانهم عبيدك الارقاء في أسر ملكك ، الضعفاء العاجزون عن الامتناع من عقابك ، وان تغفر لهم ما كان من شركهم وكفرهم وما يتبعه من سوء أعمالهم فانك أنت القوي القادر على ذلك الحكيم فيه من حيث إن المغفرة مستحسنة لكل مجرم . قاله أبو السعود . وقال الآلوسي : والمغفرة للكافر لم يعدم فيها وجه حكمة ، لان المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول ، بل متى كان المجرم أعظم جرماً كان العفو عنه أحسن لانه أدخل في الكرم ، وان كانت العقوبة أحسن فى حكم الشرع من جهات أخر ، اه وظاهر هذا ان حكم الشرع في هذا الاصل من أصول الدين على خلاف المعقول ، وليس كذلك

وأجاب الرازي عن الاشكال الموهوم بأربعة وجوه (أحدها) ان ما ذكر في سؤال الله لعيسى يعلم منه ان قوما من النصارى حكوا عنه ما هو كفر — وحاكي الكفر ليس بكافر بل مذنب بكذبه في هذه الحكاية فلهذا المعنى طلب المغفرة له

وهذا وجه أملاه عليه ما اعتاد من الجدل في الالفاظ وهو غافل عن حال من حكى الله عنهم ذلك القول، وهو انهم يدعون ألوهية المسيح ويعبدونه ويعبدون أمه، وعن حال من حكوه هم عنه، وهو انه رسول الله اليهم،وحكاية الشرك والكفر عن الرسول كفر في نفسه، ويستلزم اما الكفر بالرسول واما الاخذ بما حكي عنه من الكفر !!

(الثاني) قوله «انه يجوز — على مذهبنا — من الله تعالى أن يدخل الكفار الجنة وأن يدخل الزهاد والعباد النار ، لان الملك ملكه ولا اعتراض لأحد عليه . فذكر عيسى هذا الكلام ومقصوده منه تفويض الامور كلها الى الله وترك التعرض والاعتراض بالكلية ، ولذا ختم الكلام بقوله (فإنك أنت العزيز الحكيم) يعني أنت قادر على ما تريد، حكيم في كل ما تفعل لا اعتراض لأحد عليك ، فمن أنا والخوض في أحوال الربوبية . وقوله ان الله لا يغفر الشرك (* فنقول : ان غفرانه

*) كذا فى نسختنا المطبوعة ولعل الاصل : وقوله (ان الله لا يغفر ان يشرك به) والا فهو حكايه لقول الله تعالى بمعناه

جائز عندنا وعند جمهور البصريين من المعتزلة، قالوا لان العقاب حق الله على المذنب وفي اسقاطه منفعة للمذنب وليس في اسقاطه على الله مضرة فوجب أن يكون حسنا، بل دل الدليل السمعي في شرعنا على أنه لا يقع، فلعل هذا الدليل السمعي ماكان موجودا في شرع عيسى عليه السلام اه بحروفه

وهذا الوجه مخالف للمعقول والمنقول من نصوص القرآن وصحاح الاحاديث من عدة وجوه لا حاجة في هذا الموضع الى تفصيلها [١] وترجيح مذهب السلف وأهل الاثر بها على مذهب الاشاعرة في موضوع اثبات العدل والحكمة لله تعالى — لا عليه — وتنزيهه عن ضدهما، ولا الى بيان كون العدل والحكمة لا يعقل أن يتحققا فيمن لافرق في أفعاله بين الاضداد، بحيث يكون الضدان عنده في الحسن والعدل والحكمة سواء، ولكننا نقول: ان حاصل هذا الوجه ان عيسى عليه السلام يجيز ويستحسن الغفران للمشركين من قومه، بناء على انه حسن معقول في نفسه، وأنه لا يوجد مانع يمنع منه في شرعه. وهذا يخالف نص قوله تعالى المتقدم في هذه السورة (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم -- وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) ثم ان هذا الوجه يقتضي اختلاف دين الله الواحد، في هذا الاصل من أصول العقائد، وأن تكون ملة محمد (ص) أبعد من ملة عيسى عن رحمة الله ومغفرته، والنصوص تدل على انها أجدر من غيرها بهذه السعة، ومنها مسألة غفران الشرك لو كانت مما يشرعه الله ويرضاه، لان من جاء بها هو الذي خاطبه الله تعالى بقوله (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) وقال فيه انه يرفع عن اليهود والنصارى اصرهم والاغلال التي كانت عليهم

وأما الوجه الثالث من أجوبته فمبني على جواز توبة من قالوا ذلك الكفر، وهو بديهي البطلان، ولو صح لقيل: ان المعهود في القرآن: أن تقرن المغفرة للتائبين بذكر المغفرة والرحمة لا بذكر العزة والحكمة.

وأما الوجه الرابع فهو مبني على ماروي عن السدي مخالفا للجمهور من أن هذا السؤال

---

(١) تقدم شيء من ذلك في ص ٣٨٣ ج ٦ تفسير

والجواب في الآيات كانا بعد رفع عيسى الى السماء (قال في تصويره) : يعني ان توفيتهم على الكفر وعذبتهم فانهم عبادك فلك ذاك ، وان أخرجتهم بتوفيقك من ظلمة الكفر الى نور الايمان وغفرت لهم ما سلف منهم فلك أيضا ذاك ، وعلى هذا التقدير فلا اشكال اه

وأقول: إن هذا لوجه أضعف من الوجه الذي قبله فجميع ما أورده الرازي ضعيف . وما كان ليخفى ضعفها بل سقوطها و بطلان كثير من مسائلها على ذكائه النادر ، واطلاعه الواسع ، لولا عصبية المذاهب . ولكن قوله في أثناء شرح الوجه الثاني: ان مقصد عيسى عليه السلام من كلامه تفويض الامر الى الله عز وجل هو الحق المبين ، وقد هدانا الله تعالى الى تفسيره وشرح نكتة البلاغة فيه بأوضح تبيين ،

وقد علم مما بيناه أن كلام عيسى عليه السلام لا يتضمن شيئا من الشفاعة لقومه ، ويؤيد هذا عدة أحاديث (منها) حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في صحيح مسلم أن النبي (ص) تلا قول الله تعالى في ابراهيم (ص) [رب انهن أضللن كثيرا فمن تبعني فانه مني] — الآية، وقول عيسي عليه السلام [ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم] فرفع يديه وقال « اللهم أمتي أمتي » وبكى فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب الى محمد — وربك أعلم — فسله: ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله (ص) بما قال — وهو أعلم — فقال الله «ياجبريل اذهب الى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك» (ومنها) حديث ابن عباس في صحيح البخاري قال فيه :«ألا وانه يجاء برجال من أمتي يوم القيامة فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابي ، فيقال : انك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم — الى قوله — الحكيم) قال فيقال : انهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم » وفي حديث أبي هريرة عند البخاري وغيره بهذا المعنى زيادة « فأقول بعدا لهم وسحقا » وقد ورد هذا المعنى في عدة أحاديث في الصحاح والسنن في ألفاظها بعض اختلاف لا يغير المعنى . منها ان هؤلاء الذين أحدثوا بعده (ص) يذادون أي يطردون عن الحوض. واختلف العلماء فيهم فقيل هم الذين ارتدوا بعده عن الاسلام وقاتلهم أبو بكر وقيل

هم المنافقون وقيل هم المبتدعة. (ومنها) حديث أبي ذر عند أحمد والنسائي وابن مردويه انه (ص) قام بهذه الآية (ان تعذبهم فانهم عبادك) الخ حتى أصبح يركع بها ويسجد فسأله أبو ذر عن ذلك فقال « اني سألت ربي سبحانه الشفاعة فأعطانيها وهي نائلة ان شاء الله تعالى من لا يشرك بالله شيئا »

فهذه الاحاديث تدل على أن مقام التفويض غير مقام الشفاعة وان الشفاعة لاتنال أحدًا يشرك بالله تعالى شيئا . وفقا لما جاء به الوحي على لسان عيسى (ص) كما تقدم في هذه السورة ولسان محمد (ص) كما تقدم في آيتين من سورة النساء . ووفقا للآيات التي تنفي الشفاعة في الآخرة باطلاق أو تنفي قبولها ، أو تقيدها على تقدير حصولها بمثل قوله تعالى (ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون)

بعد ما تقدم من تفويض عيسى أمر قومه الى ربه عز وجل بتلك العبارة البليغة ، في إثر تلك الاجوبة السديدة، تتوجه النفس الى معرفة ما يقوله الرب في ذلك اليوم العظيم وتسأل عنه بلسان الحال أو المقال ان لم تسمعه وذلك قوله عز وجل

﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ قرأ الجمهور « يومُ » بالرفع وهو خبر هذا، أي قال الله تعالى : ان هذا اليوم هو اليوم الذي ينفع فيه الصادقين صدقهم في إيمانهم وشهاداتهم ، وفي سائر أقوالهم وأحوالهم . وقرأه نافع بالنصب — وقيل بالبناء على الفتح — أي قال الله : هذا أي الذي قاله عيسى واقع أو كائن يوم ينفع الصادقين صدقهم . ثم بين هذا النفع بيانا مستأنفا فقال

﴿ لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبدًا رضي الله عنهم ورضوا عنه . ذلك الفوز العظيم ﴾ الجملة الاولى تقدم تفسيرها مرارا. وأما الجملة الثانية فهي بيان للنعيم الروحاني بعد ذكر النعيم الجثماني ، فان رضاء الله تعالى عنهم ورضاهم عنه هو غاية السعادة الابدية في نفسه، وفيما يترتب عليه من عطاياه تعالى واكرامه، ومن كونهم يكونون ناعمين بذلك الإكرام مغتبطين به ، اذ لا مطلب لهم أعلى منه فتمتد أعناقهم اليه، وتستشرف قلوبهم له حتى يتوقف رضاهم عليه ، وأما كونه سعادة في نفسه فيعلم من حال كل من كان في كنف انسان والد أو أستاذ أو قائد أو رئيس أو سلطان فان علمه برضاه عنه يجعله في غبطة وهناء وطمأنينة قلب ، ويكون سروره وزهوه

بذلك على قدر مقام رئيسه الراضي عنه ، على حد البيت الذي يتمثل به الصوفية:

قوم تخالجهم زَهوٌ بسيدهم　　والعبد يُزهى على مقدار مولاه

على ان رضاء رؤساء الدنيا لا يستلزم رضاء المرءوسين دائما ، لان منهم الظالمين الذين لا يوفون أحداحقه وان كانوا راضين عنه، ورضاء أكرم الاكرمين يستلزم رضاء من رضي هو عنه لانه يعطيه أضعاف ما يستحق ، وفوق ما يؤمل ويرجو ، كما قال تعالى في سورة الم السجدة (فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون) ورضوانه تعالى فوق كل شيء كما قال في سورة التوبة بمعنى ما هنا (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوانٌ من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم)

والفوز الظفر بالمطلوب مع النجاة من ضده أو مما يحول دونه . — و قال الراغب: الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامة . — فمعناه مركب من سلب وايجاب ، كما يدل عليه قوله تعالى (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) واطلاقه على الظفر بالمطلوب وحده — كما في الآية التي نفسرها وآية التوبة التي بمعناها وما يشابهها — مراعى فيه المعنى السلبي بالقرائن الحالية ، كما يقال في الجيش الذي يغلب عدوه ويظفر بالغنائم منه : انه فاز ، وهو اذا نال مراده من هدم قلعة ودك حصن فهلك تحت أنقاضه فلا يقال انه قد فاز. واذا كان المهم في الفوز المعنى الايجابي يعدى بالباء فيقال: فاز بكذا، واذا كان المهم بيان المعنى السلبي يعدى بمن فيقال: فاز من الهلاك، قال تعالى (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) وانما سميت الفلاة مفازة على سبيل التفاؤل لانها مظنة الهلاك

والاشارة في قوله تعالى « ذلك الفوز العظيم » الى كل من النعيمين الجثماني والروحاني اللذين يحصلان بعد النجاة من أهوال يوم القيامة ، وقيل انه للثاني فقط، والاول أصح لانه الاكمل ، ولان مثل هذا الاطلاق ورد في إثر إطلاق الجزاء بالجنة وحدها في آيتين من سورة التوبة غير الآية التي أوردناها آنفاً ، وفي إثر إطلاق الجزاء بالجنة مع النجاة من عذاب النار كما تراه في آخر سورة الدخان، وفي معناه ما في سورة المؤمن والحديد والصف والتغابن ، فان ذكر المغفرة فيها يتضمن

معنى النجاة من عذاب النار. فنسأل الله الكريم الرحمن الرحيم ، أن يجعلنا من أهل هذا الفوز العظيم ، بفضله واحسانه ، وتوفيقنا لاسباب مرضاته .

ثم ختم جل جلاله هذه السورة بقوله ﴿ لله ملك السموات والارض وما فيهن وهو على كل شيء قدير ﴾ وهو مناسب لما قبله مباشرة ومناسب لأن يكون ختاما لمجموع ما في هذه السورة . أما الاول فلما بين ما لأهل الصدق عنده من الجزاء الحق في مقعد الصدق ، بين عقبه سعة ملكه و بيان قدرته الدالين على كون ذلك الجزاء لا يقدر عليه غيره . وأما الثاني فلما كان أكثر آيات هذه السورة في محاجة أهل الكتاب عامة ، و بسط الحجج على بطلان أقوال النصارى في نبيهم خاصة ، وسائرها في بيان أحكام الحلال والحرام ، مع النص على إكمال الدين بالقرآن ، وعلى وحدة الدين الإلهي واختلاف الشرائع والمناهج للامم ، — ولما كان كل من ذينك القسمين في الاصول والفروع قد تكرر فيه الوعد والوعيد ، وقفّي عليهما بذكر جمع الله تعالى للرسل يوم القيامة وسؤالهم عن التبليغ ، وجواب أحدهم الدال على شهادتهم على أقوامهم بالحق ، وتفويض أمرهم الى الله عز وجل —

لما كان ما ذكر كما ذكر ناسب أن تختم هذه السورة ببيان كون الملك كله والقدرة كلها لله وحده ، وان ملك السموات والارض وما فيهن لله وحده ، كما يدل عليه تقديم الظرف — وهو خبر المبتدإ — وقد اختيرت كلمة « ما » في قوله « وما فيهن » على « من » الخاصة بمن يعقل ، وهو الذي من شأنه أن يملك ، لأن مدلولها أعم وأشمل ، وللاشارة الى أن يوم الجزاء الحق يستوي فيه من يعقل ومن لا يعقل ، فلا يملك معه أحد شيئا ، لا حقيقة ولا مجازا ، و يدخل في ذلك المسيح وأمه اللذين عُبدا من دون الله ، فيتضمن الحصرُ التعريض بعبادتهما ، و بالاتكال على شفاعتهما ، اذ الملك والقدرة لله وحده (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) وغاية الامر انه من عباد الله المكرمين (وقالوا : اتخذ الرحمن ولدًا — سبحانه ، بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم : اني آله من دونه — فذلك نجزيه جهنم . كذلك نجزي الظالمين) صدق الله العلي [illegible]

خلاصة سورة المائدة

انفردت هذه السورة بعدة مسائل في أصول الدين وفروعه و بتفصيل عدة أحكام اجملت في غيرها اجمالا ، وأ كثرها في بيان شؤون أهل الكتاب ومحاجتهم . ونحن نذكر قارئ تفسيرنا بخلاصتها مراعين مناسبة بعض المسائل لبعض لا ترتيب ورودها في السورة ، وجعلنا ذلك على قسمين :

﴿ القسم الاول ماهو من قبيل الاصول والقواعد الاعتقادية أو العملية ﴾

(١) أهم الاصول التي انفردت بها السورة ، بيان إكمال الله تعالى للمؤمنين دينهم الذي ارتضى لهم بالقرآن ، وإتمام نعمته عليهم بالاسلام . (راجع ص ١٥٤ — ١٦٧ ج ٦) (*)

(٢) النهي عن سؤال النبي (ص) عن أشياء من شأنها أن تسوء المؤمنين اذا أبديت لهم لما فيها من زيادة التكاليف مثلا (راجع ص ١٢٥ — ٢٠٩ ج ٧)

وقد علم من الآيات التي نزلت في هاتين المسألتين المتلازمتين ان كل حكم ديني من اعتقاد أو عبادة أو حلال أو حرام لم يدل عليه النص دلالة صريحة ولم تمض به السنة العملية من عهد النبي (ص) فليس من الدين الذي هو حجة الله على كل من بلغتهم دعوة الرسول بحيث يطالبون به في الدنيا ويسئلون عنه في الآخرة، كما فصلنا ذلك في تفسيرهما مع بيان الفرق بين الاحكام الدينية والدنيوية. وأما مادل عليه الكتاب أو السنة دلالة غير صريحة — ومنه أكثر ما اختلف أئمة العلم في دلالته — فهو حجة على من فهم منه الحكم لا على كل أحد كما بيناه في تفسير آية تحريم الخمر

(٣) بيان ان هذا الدين مبني على العلم اليقيني في الاعتقاد والهداية في الاخلاق والاعمال ، وان التقليد باطل لا يقبله الله تعالى، كما هو صريح الآية ١٠٧ (راجع ص ٢٠٥ ج ٧) وتقدم مثلها في سورة البقرة

(٤) بيان ان أصول الدين الإلهي على ألسنة الرسل كلهم هي الايمان بالله

(*) الاشارة بحرف ج لأجزاء التفسير المطبوع على حدته لا لأجزاء المنار

واليوم الآخر والعمل الصالح فمن اقامها كما أمرت الرسل من اية ملة — من ملل الرسل كاليهود والنصارى والصابئين — فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون (ص٤٧٦ ج ٦) وتقدم مثل ذلك في سورة البقرة

(٥) وحدة الدين واختلاف شرائع الانبياء ومناهجهم فيه

(٦) هيمنة القرآن على الكتب الالهية (ص ٤١٠ ج ٦)

(٧) بيان عموم بعثة النبي (ص) وأمره بالتبليغ العام وكونه لا يكلف من حيث كونه رسولا الا التبليغ ، وان من حجج رسالته انه بين لأهل الكتاب كثيرا مما كانوا يخفون من كتبهم وهو قسمان (أحدهما) ماضاع منه قبل بعثة النبي (ص) بناء على الاصل المبين في هذه السورة وهو أنهم نسوا حظا عظيما مما ذكرهم الله به بانزاله فيها (وثانيهما) ما كانوا يكتمونه من الاحكام اتباعا لاهوائهم مع وجوده في الكتاب كحكم رجم الزاني ، وقد بينا كلا من القسمين في موضعه من هذه السورة. ولولا ان محمدا الامي مرسل من عند الله لما علم شيئا من هذا ولا ذاك

(٨) عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم من الناس أن يضروه أو يقدروا على صده عن تبليغ رسالة ربه. وهذا من دلائل نبوته (ص) أيضا فكم حاولوا قتله فأعياهم وأعجزهم (ص٤٧٣ ج ٦)

(٩) بيان ان الله أوجب على المؤمنين اصلاح أنفسهم أفرادها وجماعتها ، وانه لا يضرهم من ضل من الناس اذا هم استقاموا على صراط الهداية ، أي لا يضرهم ضلاله في دنياهم لان الله تعالى لا يجعل له سبيلا عليهم ، ولا يضرهم في أمر دينهم وآخرتهم لأن الله تعالى لم يكلفهم إكراه الناس على الهدى والحق ، ولا ان يخلقوا لهم الهداية خلقا ، وانما كلفهم ان يكونوا مهتدين في أنفسهم باقامة دين الله تعالى في الاعمال الفردية والمصالح الاجتماعية ، ومنها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

(١٠) تأكيد وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بما بينه الله تعالى من لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم وتعليله ذلك بأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه

(١١) نفي الحرج من دين الاسلام (ص ٢٥٨ و ٢٦٩ ج ٦)

(١٢) تحريم الغلو في الدين والتشدد فيه ولو بتحريم الطيبات وترك التمتع بها، وتحريم الخبائث والاعتداء والاسراف في الطيبات (ص٤٨٨ ج٦ و١٧ — ٣٢ ج ٧)

(١٣) قاعدة إباحة الاضطرار للمحرَّم لذاته فيما يضطر اليه كالطعام، ومنه أخذ الفقهاء قولهم : الضرورات تبيح المحظورات (راجع ص ١٦٧ ج ٦)

(١٤) قاعدة التفاوت بين الخبيث والطيب وكونهما لا يستويان في الحكم كما انهما لا يستويان في أنفسهما وفيما يترتب عليهما . وهذا أصل عظيم من أصول التحليل والتحريم في الطعام وغيره يدل على تعليل الاحكام الشرعية بالحكم والمصالح، وعلى عدم استواء جزاء الخبيث والطيب من الناس عند الله عز وجل (ص١٢٢ ج٧) وما كان تعليل الاحكام وبيان حكمتها وفائدتها الا لاجل توخيها — كاحكام الطهارة وتحريم الخمر والميسر و بعض الطعام وأحكام الوصية والشهادة وإقسام الشهداء اليمين — وانك لتجد الذين يجهلون ذلك لاعراضهم عن حكم القرآن وأسرار السنة قد جعلوا أمر الوضوء والغسل تعبديا محضا لايستلزم النظافة فعلا ولا قصدا ، وزعموا ان تحريم الخمر تعبدي لايدل على تحريم كل مسكر بناء على رأيهم ان الخمر ما كان من عصير العنب خاصة، فما القول في فهمهم لسائر الاحكام

(١٥) تحريم الاعتداء على قوم بسبب بغضهم وعداوتهم ، لانه يجب على المؤمنين أن يلتزموا الحق والعدل ولا يكونوا كأهل السياسة المدنية (ص ١٢٨ و ٢٧٤ ج ٦)

(١٦) وجوب الشهادة بالقسط والحكم بالعدل والمساواة بين غير المسلمين كالمسلمين ولو للاعداء على الاصدقاء وتأكيد وجوب العدل فيها وفي سائر الاحكام والاعمال (ص ٢٧٦ و ٢٧٣ و ٣٩٤ و ٤١٢ و ٤٢٠ ج ٦)

(١٧) الامر المطلق العام في أول السورة بالوفاء بالعقود التي يتعاقد الناس عليها في جميع معاملاتهم الدنيوية من شخصية ومدنية ، وهذه قاعدة عظيمة من قواعد الشريعة الاسلامية ، وهي ان الله تعالى وكل أمر العقود التي يتعاملون بها الى عرفهم ومواضعاتهم لانها من مصالحهم التي تختلف باختلاف الاحوال ، فلم يقيدهم في أحكامها وشروطها بقيود دائمة الا ما أوجبه الشرع مما لا يختلف باختلاف

الاحوال والعرف كتحريم أكل أموال الناس بالباطل كالربا والقمار ، فكل عقد يتعاقد عليه الناس لم يحل حراما ولم يحرم حلالا مما ثبت بالنص فهو جائز

(١٨) ايجاب التعاون على البر والتقوى ومنه تأليف الجماعات الخيرية والعلمية وتحريم التعاون على الاثم والعدوان

(١٩) بيان ان الله تعالى جعل الكعبة البيت الحرام قياما للناس في أمر دينهم ودنياهم، فهو جعل تكويني باعتبار وشرعي باعتبار آخر ، وهو يدل على علمه الواسع ، المحيط بالاشياء والحكم والمصالح والمنافع

(٢٠) مسألة موالاة المؤمنين للكافرين وبيان أن من آيات النفاق ومرض القلب المسارعة في موالاتهم من دون المؤمنين خوفا ان تدور الدائرة على المؤمنين فتكون لهم يد عند أعدائهم يستفيدون بها منهم (ص٤٢٣ ج ٦)

(٢١) تفصيل أحكام الوضوء والغسل والتيمم مع بيان ان الله تعالى يريد ان يطهر الناس ويزكيهم بما شرعه لهم من أحكام الطهارة وغيرها ، وشمول الطهارة في آية الوضوء لطهارة الظاهر والباطن . وهذا يدل على أن أحكام الطهارة كلها معقولة المعنى كما أشرنا اليه في المسألة الرابعة عشرة ، فيجب ان يتحرى بأداء ما ورد به الشرع ما تتحقق به الحكمة منه ، ويدل على أن الوسوسة في الطهارة مذمومة مخالفة لنص الشرع ومقصده

(٢٢) تفصيل أحكام حلال الطعام وحرامه وما حرم منه لكونه خبيثا في ذاته كالميتة وما في معناها والخنزير وما حرم لسبب ديني كالذي يذبح للاصنام

(٢٣) تحريم الخمر وهو كل مسكر والميسر وهو القمار ومنه مايسمى في عرف الناس اليوم بالمضاربات

(٢٤) أحكام محرمات الاحرام

(٢٥) تفصيل أحكام الصيد للحل والحرم في أوائل السورة وأواخرها

(٢٦) حدود المحاربين الذين يفسدون في الارض ، ويخرجون على أئمة العدل ، وحد السرقة ، وما يتعلق بالحد كسقوطه بالتوبة بشرطه

(٢٧) أحكام الايمان وكفارتها وايمان الامناء والشهود

(٢٨) تأكيد أمر الوصية قبل الموت وأحكام الشهادة على الوصية وفي قضاياها وشهادة غير المسلم على المسلم، والفرق بين الشهادة والاشهاد. وإننا بعد الاطالة في تفسير الآيات في الوصية والشهادة فيها لخصنا مسائلها في ١٥ مسألة

(٢٩) الامر بالتقوى في عدة آيات من هذه السورة تدخل في جمع الكثرة، لان صلاح أمور الدنيا والدين يتوقف على التزامها، وإنما يرجى بتكرار الامر بها في كل سياق بحسبه

(٣٠) بيان تفويض أمر الجزاء في الآخرة الى الله تعالى وحده كما حكاه سبحانه من قول المسيح في ذلك اليوم مقرونا بتعليله ودليله، وكون النافع في ذلك اليوم هو الصدق في الظاهر والباطن، جعلنا الله من أهله

﴿ القسم الثاني ما ورد من الاخبار والحجاج والاحكام ﴾
(في شان أهل الكتاب)

من الآيات في هذا القسم ما نزل في شأن أهل الكتاب عامة، ومنه ما هو في أحد الفريقين خاصة. فمن المشترك وصفهم بالغلو في دينهم المستلزم للتعصب الضار، وباتباعهم أهواء من ضل قبلهم من الوثنيين وغيرهم، وبالغرور في دينهم وزعمهم انهم أبناء الله وأحباؤه، وبأنهم مع ذلك نقضوا ميثاق ربهم، ونسوا حظا عظيما مما ذكرهم الله به على ألسنة أنبيائهم، ولم يقيموا التوراة والانجيل كما أوجب الله عليهم، وقد فند دعواهم أنهم أبناؤه وأحباؤه بما يأتي ذكره قريبا وبين الله لهم حقيقة الامر وهي أنهم بشر ممن خلق الله، لامزية لهم على سائر البشر في انفسهم وذواتهم، لان البشر انما يمتاز بعضهم على بعض بالعلوم الصحيحة والاخلاق الكريمة والاعمال الصالحة، لا بالنسب والانتماء الى الانبياء والصالحين وان كانوا مخالفين لهم في هدايتهم

وذكر من جزائهم على سوء أعمالهم في الدنيا إلقاء العداوة والبغضاء بينهم، وأنه يعذبهم في الدنيا بذنوبهم الشخصية والقومية كغيرهم، وان ذلك يدحض دعواهم أنهم ابناء الله وأحباؤه، ودعاهم كافة الى الاسلام، والايمان بخاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، الذي بين لهم حقيقة دينهم الذي كان عليه سلفهم، ودحض ما زادوا فيه

بالبرهان، و بين بعض ما كانوا يخفون أو يجهلون منه أحسن بيان

ووصف التوراة والانجيل أحسن وصف . وذكر من أخبار التوراة قصة ابني آدم بالحق ، ومن أحكامها عقوبات القتل واتلاف الاعضاء والجروح، ومن أخبار الانجيل والمسيح ماهو حجة على الفريقين ، و بين ان الكتابين أنزلا نورا وهدى للناس ، وانهم لو كانوا أقاموهما لكانوا في أحسن حال ، ولسارعوا الى الايمان بما أنزله الله على خاتم رسله مصدقا لأصلهما ، ومبينا لما طرأ عليهما ، ومكملا لدين الانبياء جميعا ، على سنة الله في النشوء والارتقاء ، التي هي أظهر في البشر منها في سائر الاشياء ، ولكنهم اتخذوا الاسلام هزؤا ولعبا في جملته وفي صلاته . ووالوا عليه المناصبين له من أعدائه ، فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم لذلك

ومما جاء في اليهود خاصة نعيا عليهم و بيانا لسوء حالهم — انهم نقضوا ميثاق الله الذي أخذه عليهم في كتابهم ونسوا حظا عظيما مما ذكروا به ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، وتركوا الحكم بالتوراة وأخفوا بعض أحكامها ، وحكموا الرسول ولم يرضوا بحكمه الموافق لها ، وان من صفاتهم الغالبة عليهم قساوة القلب ، والخيانة والمكر ، والكذب وقول الاثم ، والمبالغة في سماع الكذب وأكل السحت ، والسعي بالفساد في الارض ، وفي ايقاد نار الفتن والحرب ، وانهم كانوا يقتلون الانبياء والرسل بغير حق ، وتمردوا على موسى اذ أمرهم بدخول الارض المقدسة وقتال الجبارين فعاقبهم الله بالتيه في الارض ، وانهم كانوا أشد الناس عداوة للمؤمنين ، حتى انهم يوالون عليهم المشركين ، بسبب ما ورثوه من تلك الصفات عن الغابرين . وذكر انه عاقبهم على ذلك كله باللعن على ألسنة الرسل ، و بالغضب والمسخ ، وهذه الصفات التي غلبت عليهم في زمن البعثة وقبله تثبتها تواريخهم وتواريخ غيرهم ، ومن المعلوم انها لم تكن عاملة فيهم ولا شاملة لجميع أفرادهم ، فقد أنصفهم الحكم العدل في هذه السورة وغيرها بالحكم على الكثير منهم أو أكثرهم ، ومنه قوله في هذه السورة (منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) و بينا في الموضوع ما كان بعد النبي (ص) من مساعدة اليهود للمسلمين في الشام والاندلس

ومما جاء في النصارى خاصة أنهم نسوا — كاليهود — حظا مما ذكروا به ،

وانهم قالوا ان الله هو المسيح بن مريم ، وقالوا ان الله ثالث ثلاثة ؛ ورد عليهم هذه العقيدة بالادلة العقلية، و ببراءة المسيح منها ومن منتحليها يوم القيامة، و بين لهم حقيقة المسيح وانه عبد الله ورسوله وروح منه ، وما أيده به من الآيات ، وحال حواريه وتلاميذه في الايمان . وبين انهم أقرب الناس مودة للمؤمنين ، (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لايستكبرون) فليراجع تفسير ذلك في أول الجزء السابع

وجملة الآيات الواردة في أهل الكتاب تشهد لنفسها أنها من عند الله تعالى لا من عند محمد بن عبدالله العربي الامي الذي لم يقرأ شيئا من تلك الكتب ، على ان تلك الآيات ليست موافقة لها ولهم موافقة الناقل للمنقول عنه ، وانما هي فوق ذلك تحكم لهم وعليهم وفيهم وفي كتبهم حكم المهيمن السميع العليم

أحكام السورة الخاصة بأهل الكتاب

لو كان هذا القرآن من وضع البشر لشرع معاملة أهل الكتاب الموصوفين بما ذكر — ولاسيما الذين ناصبوا الاسلام العداء عند ظهوره — بأشد الاحكام وأقساها. ولكنه تنزيل من حكيم حميد، أمر في هذه السورة بمعاملتهم بالعدل، والحكم بينهم بالقسط، وحكم بحل مؤاكلتهم، وتزوج نسائهم، وقبول شهادتهم، والعفو والصفح عنهم، وهذه الاحكام التي شرعت هذه المعاملة الفضلى لهم نزلت بعد إظهار اليهود للنبي (ص) والمؤمنين منتهى العداوة والغدر ، وبعد أن ناصبوه مع المشركين الحرب ، وهي تتضمن تأليف قلوبهم ، واكتساب مودتهم ، (راجع ص ١٩٥ ج ٦)

وقد ختم الله تعالى السورة بذكر الجزاء في الآخرة بما يناسب أحكامها كلها ، كما بيناه في تفسير آخر آية منها .

روى أحمد والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي في سننه و بعض رواة التفسير عن جبير بن نفير قال : حججت فدخلت على عائشة فقالت لي ياجبير تقرأ المائدة ؟ فقلت نعم . فقالت أما انها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه ، وروى احمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن عبدالله بن عمرو قال : آخر سورة نزلت سورة المائدة

والفتح . وقد تقدم في آخر تفسير سورة النساء بعض ماورد في آخر مانزل من القرآن من السور برمتها ومن الآيات ؛ وكان كل يروي ما وصل اليه علمه، والله أعلم

﴿ تم تفسير سورة المائدة ﴾

﴿ يقول محمد رشيد مؤلف هذا التفسير قد وفقني الله تعالى لاتمام تفسير هذه السورة في أوائل شهر ربيع الآخر سنة ١٣٣٤ وكنت بدأت بتفسيرها في مثل هذا الشهر من سنة ١٣٣١ وسبب هذا البطء انني أكتب التفسير لينشر في مجلة المنار فتارة أفسر في الجزء منه بضع آيات ، وتارة أفسر آية واحدة في عدة أجزاء . وقد يمر شهر أو أكثر ولا أكتب في التفسير شيئا ، واسأل الله تعالى ان يوفقني لإتمام هذا التفسير بمنع العوائق والمباركة في الوقت وان يؤيدني فيه بروح من عنده ﴾

مكان الاسباب من الدين

﴿ فصل من مدارج السالكين في رد ما قاله صاحب المنازل في باب التلبيس ﴾

قد عرفت ان هذا الباب مبناه على محو الاسباب وعدم الالتفات اليها والوقوف معها ، ولهذا سمى المصنف نصبها تلبيسا ،ونحن نقول : ان الدين هو إثبات الاسباب والوقوف معها والنظر اليها والالتفات اليها ، وانه لا دين الا بذلك كما لا حقيقة الا به . فالحقيقة والشريعة مبناهما على اثباتها لا على محوها ، ولا ننكر الوقوف معها فان الوقوف معها فرض على كل مسلم لايتم اسلامه وايمانه الا بذلك ، والله تعالى أمرنا بالوقوف معها بمعنى انا نثبت الحكم اذا وجدت وننفيه اذا عدمت ، ونستدل بها على حكمه الكوني ، فوقوفنا معها بهذا الاعتبار هو مقتضى الحقيقة والشريعة ، وهل يمكن حيوانا ان يعيش في هـذه الدنيا الا بوقوفه مع الاسباب ؟ فينتجع مساقط غيثها وموقع قطرها ، ويرعى في خصبها دون جدبها ، ويسالمها ولا يحاربها ، فكيف وتنفسه في الهواء بها وتحركه بهـا وسمعه وبصره بها وغذاؤه بها ودواؤه بها وهداه بها وسعادته وفلاحه بها ، وضلاله وشقاؤه بالاعراض عنها وإلغائها ، فأسعد الناس في

الدارين أقومهم بالاسباب الموصلة الى مصالحهما ، وأشقاهم في الدارين أشدهم تعطيلا لاسبابهما ، فالاسباب محل الامر والنهي والثواب والعقاب والنجاح والخسران ، وبالاسباب عرف الله ، وبها عبد الله ، وبها اطيع الله، وبها تقرب اليه المتقربون ، وبها نال أولياؤه رضاه وجواره في جنته، وبها نصروا حزبه ودينه ، وأقاموا دعوته ، وبها أرسل رسله وشرع شرائعه ، وبها انقسم الناس الى سعيد وشقي، ومهتد وغوي ، فالوقوف معها والالتفات اليها والنظر اليها هو الواجب شرعا كما هو الواقع قدرا ،

ولا تكن ممن غلظ حجابه وكثف طبعه فيقول : لا تقف معها وقوف من يعتقد انها مستقلة بالاحدث والتأثير وانها أرباب من دون الله . فان وجدت أحدا يزعم ذلك أو يظن انها أرباب وإله مع الله مستقلة بالايجاد، أو انها عون لله يحتاج في فعله اليها، أو انها شركاء له فشأنك به ، فمزق أديمه وتقرب الى الله بعداوته ما استطعت ، والا فما هذا النفي لما أثبته الله ! والالغاء لما اعتبره ! والإهدار لما حققه ! والحط والوضع لما نصبه ! والمحو لما كتبه ! والعزل لما ولاه !! فان زعمت انك تعزلها عن رتبة الإلهية فسبحان الله! من ولاها هذه الرتبة حتى تجعل سعيك في عزلها عنها

ويالله ما أجهل كثيراً من أهل الكلام والتصوف حيث لم يكن عندهم تحقيق التوحيد الا إلغاءها ومحوها واهدارها بالكلية ، وانه لم يجعل الله في المخلوقات قوى ولا طبائع ولا غرائز لها تأثير موجبة ما، ولا في النار حرارة ولا احراق، ولا في الدواء قوة مذهبة للداء، ولا في الخبز قوة مشبعة ، ولا في الماء قوة مروية ، ولا في العين قوة باصرة، ولا في الانف قوة شامة ، ولا في السم قوة قاتلة، ولا في الحديد قوة قاطعة ؟ وان الله لم يفعل شيئا بشيء ولا فعل شيئا لاجل شيء ، فهذا غاية توحيدهم الذي يحومون حوله ويبالغون في تقريره ، فلعمر الله لقد أضحكوا عليهم العقلاء ، وأشمتوا بهم الاعداء ، ونهجوا لأعداء الرسل طريق اساءة الظن بهم ، وجنوا على الاسلام والقرآن أعظم جناية ، وقالوا نحن أنصار الله ورسوله الموكلون بكسر أعداء الاسلام وأعداء الرسل ، ولعمر الله لقد كسروا الدين وسلطوا عليه المبطلين . وقد قيل « إياك ومصاحبة الجاهل فانه يريد ان ينفعك فيضرك » فقف مع الاسباب حيث أمرت بالوقوف معها ، وفارقها حيث أمرت بمفارقتها ، كما فارقها الخليل وهو في

تلك السفرة من المنجنيق (الى النار) حيث عرض له جبريل أقوى الاسباب، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما اليك فلا. ودُر معها حيث دارت ناظرا الى من أزمتها بيديه، والتفت اليها التفات العبد المأمور الى تنفيذ ما أمر به والتحديق نحوه، وارعها حق رعايتها، ولا تغب عنها ولا تفن عنها، بل انظر اليها وهي في رتبتها التي أنزلها الله إياها، واعلم ان غيبتك بسببها عنها نقص في عبوديتك، بل الكمال ان تشهد المعبود وتشهد قيامك بعبوديته وتشهد ان قيامك به لا بك ومنه لا منك وبحوله وقوته لا بحولك وقوتك، ومتى خرجت عن ذلك وقعت في انحرافين لا بد لك من أحدهما: إما أن تغيب بها عن المقصود لذاته لضعف نظرك وغفلتك وقصور علمك ومعرفتك، واما أن تغيب بالمقصود عنها بحيث لا تلتفت اليها. والكمال أن يسلمك الله من الانحرافين فتبقى عبدا ملاحظا للعبودية ناظرا الى المعبود، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة الا بالله

حرب أمم المدنية لا الملل الدينية

تسمي الجرائد العربية والاوربية هذه الحرب المشتعلة في أوربة حرب الامم، ولا نرى لها مخالفا في صحة هذه التسمية، فقد أجمع الناس على ان جميع الامم الاوربية المتحاربة موافقة لدولها على الاستمرار على هذه الحرب الى أن يفنى آخر رجل يقدر على استعمال السلاح فيها، وينفق آخر دينار في صناديقها، أو تقهر عدوها قهرا يخضع به لحكمها، ويذعن صاغرا لشروط الصلح التي تضعها حكومتها، و ينقلون لنا أن النساء موافقات للرجال في هذا الامر، وأن القسيسين والرهبان والاشتراكيين أيضا متفقون فيه مع رجال الحرب، الا ما تنقله الجرائد آنا بعد آن عن بعض النساء والاشتراكيين في ألمانية من الرغبة في عقد الصلح كراهة للحرب وأطيطا من أوزارها، وأنينا من أهوالها وسوء آثارها، ولعل هذا من قبيل ما كانت تنقله في أول الحرب من كراهة الشعب الالماني كله لها ورغبته عنها، وكون عاهله هو الذي ساقه اليها سوقا، بل دعّه اليها دعا، وكنا أول من خالفهم في ذلك

على أن المعقول الذي لا يعقل غيره هو أنه يوجد في كل أمة محاربة كثير حتى

من أهل الرأي يكرهون الحرب لذاتها ويتمنون الصلح على علاته، والمعقول أن يكون أكثر هؤلاء الناس من أفراد الحكماء الراسخين، ومن النساء والاشتراكيين، ومن المتدينين الذين يفهمون ان الديانة المسيحية ديانة سلم وتواضع وزهد في المال والجاه والرياسة والملك — وما أكثر المنتمين اليها على هذا الفهم — فحيث يكثر هؤلاء يكثر الميل الى الصلح، والجنوح الى السلم، وان لم تعن الجرائد بنقل أخبار هؤلاء في بلادها و بلاد أحلافها، لئلا يغتر أعداؤها و يظنون أن أممهم غير متفقة على تأييد حكوماتها، وهي انما تنقل عن شعوب أعدائها الميل الى الصلح في سياق ذمها بالعجز والضعف، لا في سياق مدحها بكراهة القسوة والوحشية والافساد في الارض، واستقباح الطمع المفضي الى اهلاك الحرث والنسل، ولذلك كانت تقول في أول الحرب ان الشعوب الجرمانية كارهة له مكرهة عليه، و يوشك أن تخرج على حكومتها وتثور عليها، ثم رجعوا عن ذلك ووصفوها بضده، فالجرائد السياسية لا تكتب الا ما يمليه عليها الهوى، فهي تابعة لمهابّ أهوائه تميل معها كيفما أمالتها

الا أنها صادقة في قولها ان السواد الاعظم من الامم الاوربية مؤيد لدولها بمالها ورجالها واجماعها على الاستمرار في الحرب، الى أن تنال ما ترجوه من النصر، وتكون كلمتها هي العليا، وكلمة أعدائها هي السفلى، فان من يوجد في كل منها من محبي السلم بباعث الدين أو حب الانسانية والميل الى التواضع والقناعة مغلوبون على أمرهم، ووجودهم لا ينافي ما أجمع عليه الكتاب من أن هذه الحرب هي حرب الامم لا الدول، فان العبرة بالغالب والنادر لاحكم له، وقد جرت عادة الناس أن يطلقوا على جملة الامة مافشا فيها وثبت لا كثرها من الاعمال، أو اتصفت به من الصفات والاخلاق، ولن تستطيع دولة من دول أوربة الاستمرار على الحرب اذا كان الرأي الغالب في الامة لا يؤيدها، الا أن تكون الدولة الروسية التي ليس لأمتها رأي غالب

ومن أعجب مانقل الينا عن الحكومة الانكليزية — ويحسن عده في هذا المقام من فضائلها التي تجري فيها على عرق — أنها حكمت أخيرا بوجوب التجنيد الاجباري على العزّاب الا من يرى ذلك مخالفا لوجدانه واعتقاده، وقد سبق لسلفها مثل ذلك فى قانون وجوب التلقيح للوقاية من الجدري، وهذه الفضيلة مما امتاز به الانكليز

على غيرهم، وهم موافقون فيه لقاعدة من قواعد الاسلام تركها حكام المسلمين منذ قرون

ان ما أجمع عليه الناس من تسمية هذه الحرب حرب الامم قد استثنوا منه الامة العثمانية بالنقل ، كما استثنينا منه بعض الافراد من كل أمة بحكم العقل ، فقد نقلت الينا بلاغات دول الخلفاء الرسمية، والبرقيات العامة والجرائد الغربية والشرقية، أن الشعب العثماني كاره لهذه الحرب ، بل قالوا مرارا ان السلطان وولي عهده وسائر أهل بيته واكثر رجال دولته كانوا معارضين فيها ، وما زالوا كارهين لها ، بل قالوا أيضا ان بعض زعماء جمعية الاتحاد والترقي كانوا وما زالوا كذلك ، وان السبب المباشر لإيذان دول الاحلاف الدولة بالحرب — وهو اعتداء البارجتين الالمانيتين (غوبن وبرسلو) على ثغور روسية — لم يكن بإذن من السلطان ولا الصدر الاعظم، بل لم يعلما به الا بعد وقوعه ، وقد وعدا سفراء دول الاحلاف بعدم العود الى مثله ، وان أنور باشا ناظر الحربية هو الذي اتفق مع ألمانية على ضم الدولة اليها في هذه الحرب، فغلب نفوذه على نفوذ غيره من زعماء جمعيته بمساعدة الالمان، الذين كان قد وُكل اليهم أمر اصلاح الجيش العثماني بعد حرب البلقان . ولا تزال الجرائد تتخوّلنا بأخبار كراهة العثمانيين لهذه الحرب في عاصمة الدولة وولاياتها ، وما يأتمرون به لاسقاط الحكومة الاتحادية وانشاء حكومة جديدة تصالح الاحلاف وتتفق معهم ، وبسعي صباح الدين أفندي ابن أخت السلطان الى ذلك واتفاق حزبه أخيرا مع حزب المشير شريف باشا وبعض رجال حزب الحرية والائتلاف على ذلك

أنا لم أصدق كل ما نشرته الجرائد في هذا الموضوع وان كان بعضه رسميا، ولا أكذبه كله وان كان سنده ضعيفا واهيا ، واعتقد ان أهل الحلّ والعقد من زعماء جمعية الاتحاد والترقي كانوا وما زالوا متفقين مع الالمان، وان السواد الاعظم من العثمانيين كاره لهذه الحرب في كل مكان، فهي حرب الدولة التي يتولى ادارتها الاتحاديون، لا حرب الامة العثمانية وان أقرها المبعوثون، فان المبعوثين في هذا العهد لا يمثلون الشعوب العثمانية ولا يعبرون عن رأيها ، بل أكثرهم ألسنة لجمعية الاتحاد والترقي ومظهر لارادتها

اذا تمهد هذا فاعلم أيها القارئ أنني لم أقصد به المدح أو الذم للامم المتفقة على الحرب أو المختلفة فيها، ولا التخطئة أو التصويب لموقدي نارها ، وانما أريد ان أثبت

انها حرب المدنية الاوربية الحديثة ، لا حرب دينية ولا مذهبية ، وهذه المدنية مادية لا روحية ، دنيوية لا دينية، وغاية اصحابها ومقصدهم منها هو التمتع بالشهوات البدنية، والعلو والعظمة في الارض، والتكاثر في الاموال وضروب الزينة، فهي لا تتفق مع شرعة المسيح (عليه السلام) في ورد ولا صدر، ولا تسير في منهاجه في مبدإ ولا غاية ، ولو كان روح المسيحية الحق له سلطان غالب في أوربة لما وقعت هذه الحرب البتة ، كلا ان روح المسيحية مغلوب على أمره لسلطان المدنية المادية ، فموقدو نار الحرب إما من خلص الماديين ، وإما من متبعي أهوائهم في فهم الدين ، ولكن أهوال الحرب قد أيقظت في جمهور كل أمة منهم شعور الدين، وكثر فيهم من يصلون ويدعون الله ان ينصرهم على أعدائهم ، كما هو شأن البشر في حال الكروب والخطوب (فاذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون * فاذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون)

فهل يعتبر بهذه الحرب أولئك الخادعون المخدوعون الذين كانوا يعيبون الاديان، بزعمهم أنها مثار البغي والعدوان ، ومسعر نيران الحرب بين الانسان وأخيه الانسان، وانه لولاها لآخت المدنية بين الناس ، وجمعت بين ما تفرق من الاجناس ؟ كلا إن الحياة المدنية هي التي تولد في النفوس المطامع التي لا حد لها ، وتقرن التنافس بالتحاسد ، وتسوق الحسد الى البغي والتقاتل ، وان الدين ينهى عن ذلك كله ، ولكن الناس كثيرا ما يخطئون في فهمه ، وكثيرا ما يتعمدون تحريف كلمه عن مواضعه، فهم يسيئون استعماله كما يسيئون استعمال الحواس والعقل وغير ذلك من نعم الله تعالى، فمن مقاصد الدين إزالة الخلاف من بين الناس فاتخذوه سببا من أسباب الخلاف (وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) فالحرب سنة من سنن الاجتماع قد يخفف الدين شرورها بقدر ارتقائه واستمساك أهله به كما بيناه في مقالة نشرناها في الجزء الثالث عنوانها (حرب المدنية الاوربية ، والمقارنة بينها و بين المدنية الاسلامية والفتوحات العربية)

وليس للمدنية المادية مثل هذا التأثير في نفسها ، فان وجد في أمم المدنية من

يقبح الحرب أو يقبح ارتكاب القسوة فيها غيرة على العمران ومحافظة على حقوق البشر غير مهتد في ذلك بتربية الدين ولا متأثر بفضائله فهو لا يكون الا كالتاجر الخوّان لا يحجم عن صفقة الا خوفا من الخسارة، فمتى غلب على ظنه انه يربح فيها لا يبالي ما يفعل . اللهم الا الافراد من الحكماء ، الذين رجح العقل والفضيلة في نفوسهم على الاهواء، كالفيلسوف هربرت سبنسر الانكليزي الذي اهدى اليه عاهل الألمان وساما علميا فلم يقبله منه لانه قيصر حرب وهو عدوّ للحرب ، وإياك ان تظن في هذا الحكيم الكبير انه كان يبغض الالمان بغضا سياسيا لمناظرتهم لقومه فلبس عليهم وعلى الناس بما ادعاه من سبب رفض الوسام ، فكان ذلك من الرياء الفرّيسيّ الذي يغمز به الانكليز منتقدوهم كما صرحوا به في هذه الايام[1] ، فان هذا الحكيم الكبير قد نصح لليابانيين بأن لا يولوا قومه الانكليز شيئا من شؤون بلادهم ، لان ذلك يكون ذريعة لعبثهم باستقلالهم ، فأي استقلال في الرأي واخلاص في النصح أدلّ على الحكمة والفضيلة من هذا ؟

على ان هذا الفيلسوف لم يكن ماديا بل كان يشكو من انتصار المطامع المادية في البلاد الاوربية — حتى في بلاده — على الفضيلة كما حدثنا عنه شيخنا الاستاذ الإمام. واننا نذكر في هذا المقام بعض ما دار بين حكيمي الشرق والغرب في زيارة الاول للثاني بداره في ١٠ اغسطس سنة ١٩٠٣ : بدأ المزور الزائر بسؤاله عما رأى من تغير الافكار في انكلترة وعما دخل الشرق من الافكار الاوربية ، وشكا اليه من سريان الافكار المادية الى قومه وما يخشى من إضعافها للفضيلة، ثم دار بينهما ما يأتي

قال الفيلسوف : الحق عند أوربة للقوة . قال الاستاذ الامام : هكذا يعتقد الشرقيون ، ومظاهر القوة هي التي حملت الشرقيين على تقليد الاوربيين فيما لا يفيد من غير تدقيق في معرفة منابعها . قال الفيلسوف : محي الحق بالمرة من عقول أهل أوربة وسترى الامم يختبط بعضها ببعض ليتبين من هو الاقوى فيكون سلطان العالم.

---

(١) من الشواهد على هذا ما في مقالة (آراء الاميركيين في الحرب) المنشورة في جزء يناير سنة ١٩١٥ من المقتطف ، وأوضح منه مقالة لكاتب قصصي انكليزي كتبها لصديق له فرنسي ونشرت في المقطم

قال الاستاذ : عندي أمل ان همم الفلاسفة واجتهادهم في تقرير مبادئ الحق يحول دون ذلك . فقال الفيلسوف كلاما يدل على يأسه من ذلك . وقد كتب الاستاذ في مذكرته بعد الاشارة الى هذه المذاكرة مانصه :

« ماذا حركت مني كلمة الفيلسوف « الحق للقوة » الخ ؟ جاءت منه مصحوبة بشعاع الدليل فأثارت حرارة وهاجت فكرا ، لو جاءت من ثرثار غيره كانت تأتي مقتولة ببرد التقليد، فكانت (تكون) جيفة تعافها النفس فلاتحرك الاشمئزازا وغثيانا

« هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيرا مما يفيد في راحة الانسان وتوفير راحته وتعزيز نعمته (أعجزهم) ان يكتشفوا طبيعة الانسان ويعرضوها على الانسان حتى يعرفها فيعود اليها ، هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كان من الحديد اللامعُ المضيء ، افلا يتيسر لهم ان يجلوا ذلك الصدأ الذي غشي الفطرة الانسانية و يصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحاني ؟ حار الفيلسوف في حال أوربا وأظهر عجزه مع قوة العلم فأين الدواء؟ الرجوع الى الدين الخ الدين هو الذي كشف الطبيعة الانسانية وعرفها الى أربابها في كل زمان لكنهم يعودون فيجهلونها » اه

الظاهر ان الاستاذ كان يريد ان يتوسع في هذا الموضوع كما يشير الى ذلك قوله في مذكرته « الخ » ولعله كان ينتظر فرصة مناسبة للمقام سواء كانت عملية كهذه الحرب أو قولية كمقال ينشر في الصحف في تفضيل المدنية المادية على المدنية الدينية فيكتب مقالا يبين فيه الحق ويزيل فيه الالتباس مؤيدا بالحكمة الصحيحة وشواهد التاريخ ، وقد بينا شيئا من المقابلة بينها وبين المدنية الاسلامية في المقالة التي أشرنا اليها آنفا

ان أصحاب النظر والاستقلال من هؤلاء العشاق للمدنية المادية — وقليل ماهم — كانوا يغرقون في حسن الظن بالمدنية المادية و بأهلها إغراقا بعثهم على الجزم بأن فكرة الحرب قد قضي عليها في أوربة قضاء مبرما فلن توقد لها هنالك نار، وكانوا يقولون : ان وجد من الملوك والرؤساء من يسعى لهاسعيها ، ويحاول ان يقدح لها زندها، فان شعبه هو الذي يضرب على يده ، ويفت في عضده ، وقد كنا نخالف هؤلاء في الرأي ، ومنهم من هو أعلم منا بحال القوم ، ولكن رأيهم في ذلك خالف رأي من هو أعلم منا ومنهم بحال أوربة وفلسفتها . الا وهو شيخ فلاسفتها الاكبر، هربرت سبنسر

كان أولئك المحسنون للظن ، من ذوي الاستقلال في الرأي ، لا ينكرون كالمقلدين سيئات هذه المدنية المادية ، ولكنهم يقولون إنها اذا قيست بسيئات المدنية الدينية كانت أقل منها وأخف ضررا ، ونحن نخالفهم في هذا أيضا ، ونقول ما كل سيئات المدنية القديمة صادرة عن الدين والفلسفة الروحية، وما كل حسنات المدنية الحديثة صادرة عن الالحاد والفلسفة المادية . ولا تضاد بين العلوم والاعمال المادية، و بين العقائد والاعمال الدينية، وانما نعني بالمدنية المادية المذمومة ما كان مبنيا على جحود حياة بعد هذه الحياة الدنيا، وحصر ثمرات أعمال البشر في التمتع باللذات الدنيوية من طعام وشراب وفراش وزينة ورياسة — ونعني بالمدنية الدينية ما كان مبنيا على أن للانسان حياتين يجب عليه أن يأخذ حظه من أولاهما الدنيا بالمعروف و يستعد فيها للاخرى بالعمل الصالح ، على حد قوله تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين) فان أصول الدين التي دعا اليها الرسل هي الثلاثة المنصوصة في قوله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

من البديهي ان من لم يكن له حظ من وجوده الا التمتع بلذات الدنيا وزينتها لا يكون لهم من حياته الا تحصيل المال والجاه الموصل اليها بحق أو بغير حق، وان الحق يكون عنده تابعا للقوة دون العكس، فان وجد في أهل هذه المدنية المادية من يعترف بحق لضعيف فانما يعترف به لمنفعة يراعيها، أو لمفسدة يتقيها، ولو تنازع أقوياء هؤلاء على الضعفاء، لما سلم ضعيف من الايذاء، وقد كان من المصالح جعل بعض الدول الصغيرة في أوربة حاجزا بين الكبيرة المتعادية منها، وتعاهدوا على ان تكون حرما آمنا لا يجنى عليها ، ولكنهم لم يرعوا هذه العهود ولا غيرها عند حاجتهم الى نقضها في هذه الحرب، والدين لا يبيح ذلك. قال تعالى في العهود بين المسلمين والمشركين (الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين) وقال في المؤمنين الذين لم يهاجروا الى النبي (ص) (وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم و بينهم ميثاق والله بما تعملون بصير)

الألقاب

بحث لغوي تاريخي في الالقاب الرسمية وغير الرسمية

منقول من الفصل الثاني من الباب الاول من المقالة الثالثة من الجزء الخامس من كتاب صبح الاعشي وللكلام فيه طرفان - قال :

الطرف الاول في أصول الالقاب وفيه جملتان

(الجملة الاولى في معنى اللقب والنعت، وما يجوز منه و يمتنع)

أما اللقب فأصله في اللغة النبز — بفتح الباء، قال ابن حاجب النعمان في «ذخيرة الكتاب» : والنبز ما يخاطب به الرجلُ الرجلَ من ذكر عيوبه وما ستره عنده أحب اليه من كشفه، وليس من باب الشتم والقذف

***

وأما النعت فأصله في اللغة الصفة . يقال : نعته ينعته نعتا اذا وصفه . قال في «ذخيرة الكتاب» : وهو متفق على أنه ما يختاره الرجل ويؤثره ويزيد في اجلاله ونباهته ، بخلاف اللقب . قال : لكن العامة استعملت اللقب في موضع النعت الحسن ، وأوقعوه موقعه لكثرة استعمالهم اياه ، حتى وقع الاتفاق والاصطلاح على استعماله في التشريف والاجلال والتعظيم والزيادة في النباهة والتكرمة

قلت : والتحقيق في ذلك أن اللقب والنعت يستعملان في المدح والذم جميعا فمن الالقاب والنعوت ماهو صفة مدح ومنها ماهو صفة ذم . وقد عرّفت النحاة اللقب بأنه ما أدى الى مدح أو ذم ، فالمؤدي الى المدح كأمير المؤمنين ، وزين العابدين ؛ والمؤدي الى الذم كأنف الناقة وسعيد كرز وما أشبه ذلك ؛ والنعت تارة يكون صفة مدح ، وتارة يكون صفة ذم ، ولا شك أن المراد هنا من اللقب والنعت ما أدى الى المدح دون الذم . وقد اصطلح الكتاب على أن سموا صفات المدح التي يوردونها في صدور المكاتبات ونحوها بصيغة الافراد كالامير والاميري

والاجل والاجلي والكبير والكبيري ونحو ذلك ألقابا . وصفات المدح التي يوردونها على صورة التركيب، كسيف أمير المؤمنين وظهير الملوك والسلاطين ، ونحو ذلك نعوتا . ولا معنى لتخصيص كل واحد منهما بالاسم الذي سموه به الا مجرد الاصطلاح ، ولا نزاع في اطلاق اللقب والنعت عليهما باعتبارين : فمن حيث انها صفات مؤدية الى المدح يطلق عليها اسم اللقب ، ومن حيث انها صفات لذوات قائمة بها يطلق عليها اسم النعت

***

وأما ما يجوز من ذلك ويمتنع ، فالجائز منه ما أدى الى المدح مما يحبه صاحبه ويؤثره ، بل ربما استحب ، كما صرح به النووي في « الاذكار » للاطباق على استعماله قديما وحديثا . والممتنع منه ما أدى الى الذم والنقيصة مما يكرهه الانسان ولا يحب نسبته اليه ، قال النووي : وهو حرام بالاتفاق ، سواء كان صفة له ، كالاعمش ، والاجلح ، والاعمى ، والاحول ، والابرص ، والاشج ، والاصفر ، والاحدب ، والاصم ، والازرق ، والاشتر ، والاثرم ، والاقطع ، والزمن ، والمقعد ، والاشل ، وما أشبه ذلك ؛ أو كان صفة لأبيه : كابن الاعمى ، أو لأمه : كابن الصوراء ونحو ذلك مما يكرهه قال تعالى (ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) قال : واتفقوا على جواز ذكره بذلك على جهة التعريف لمن لا يعرفه الا بذلك ، ودلائل ذكره كثيرة مشهورة ، وهو أحد المواضع التي تجوز فيها الغيبة

الجملة الثانية في أصل وضع الالقاب والنعوت المؤدية الى المدح

واعلم أن القاب المدح ونعوته لم تزل واقعة على أشراف الناس وجلة الخلق في القديم والحديث ، فقد ثبت تلقيب ابراهيم عليه السلام بـ«الخليل» وتلقيب موسى عليه السلام بـ«الكليم» وتلقيب عيسى عليه السلام بـ«المسيح» وتلقيب يونس عليه السلام بـ«ذي النون» وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلقب قبل البعثة بـ«الامين» ووردت التواريخ بذكر ألقاب جماعة من العرب في الجاهلية : كذي يزن، وذي المنار، وذي نواس، وذي رعين، وذي جدن، وغيرهم مما هو مشهور شائع.

وكذلك وقعت ألقاب المدح على كثير من عظماء الاسلام واشرافه كالصحابة رضوان الله عليهم فمن بعدهم من الخلفاء والوزراء وغيرهم؛ فكان لقب أبي بكر «عتيقا» ثم لقب بـ«الصديق» بعد ذلك، ولقب عمر «الفاروق» ولقب عثمان «ذا النورين» ولقب علي «حيدرة» ولقب حمزة بن عبد المطلب «أسد الله» ولقب خالد بن الوليد «سيف الله» ولقب عمرو[1] بن عمرو «ذا اليدين» ولقب مالك بن التيهان الانصاري «ذا السيفين» ولقب خزيمة بن ثابت الانصاري «ذا الشهادتين» ولقب جعفر بن أبي طالب بعد استشهاده «ذا الجناحين»

وأما الخلفاء، فخلفاء بني أمية لم يتلقب أحد منهم، فلما صارت الخلافة الى بني العباس وأخذت البيعة لابراهيم بن محمد لقب بـ«الامام» ثم تلقب مَن بعده من خلفائهم: فتلقب محمد بن علي بـ«السفاح» لكثرة ماسفح من دماء بني أمية. واختلف في لقبه بالخلافة، فقيل «القائم» وقيل «المهتدي» وقيل «المرتضى» وألقاب الخلفاء بعده والى زماننا معروفة مشهورة على مامر ذكره في المقالة الثانية. وعلى ذلك كانت القاب خلفاء بني أمية بالاندلس الى حين انقراضهم على ما هو مذكور في مكاتبة صاحب الاندلس، على ما سيأتي في المكاتبات في المقالة الرابعة ان شاء الله تعالى

ثم تعدت ألقاب الخلافة الى كثير من ملوك الغرب بعد ذلك، وتلا الخلفاء في الالقاب الوزراء لاستقبال الدولة العباسية وما بعد ذلك، فلقب أبو سلمة الخلال وزير السفاح بـ«وزير آل محمد» ولقب المهدي وزيره يعقوب بن داود بن طهمان «الاخ في الله» ولقب المأمون الفضل بن سهل حين استوزره «ذا الكفايتين» ولقب أخاه الحسن بن سهل «ذا الرياستين» ولقب المعتمد على الله وزيره صاعد ابن مخلد «ذا الوزارتين» اشارة الى وزارة المعتمد والموفق، وكان لقب اسماعيل ابن بلبل الشكور «الناصر لدين الله» كألقاب الخلفاء

وكذلك وقع التلقيب لجماعة من أرباب السيوف وقواد الجيوش، فتلقب أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة بـ«أمير آل محمد»، وقيل «سيف آل محمد» وتلقب أبو الطيب طاهر بن الحسين بـ«ذي اليمنين» ولقب المعتصمُ بالله حيدرَ

(١) في كتب اللغة والحديث ان اسمه الخرباق فلعل فيه خلافا

ابن كاووس بـ«الافشين» لانه أشروسني ، والافشين لقب على الملك بأشروسنة .
ولقب اسحاق بن كيداج أيام المعتمد بـ«ذي السيفين» ولقب مؤنس في أيام المقتدر بـ«المظفر» ولقب سلامة أخو نجح أيام القاهر بـ«المؤتمن» ولقب أبو بكر ابن محمد بن طغج[1] الراضي بالله بـ«الاخشيد» والاخشيد لقب على الملك بفرغانة

ثم وقع التلقيب بالاضافة الى الدولة في أيام المكتفي بالله ، فلقب المكتفي أبا الحسين[2] بن القاسم بن عبيد الله « ولي الدولة » وهو أول من لقب بالاضافة الى الدولة، ولقب المقتدر بالله علي بن أبي الحسين[2] المتقدم ذكره « عميد الدولة »

ووافت الدولة البويهية أيام المطيع لله والامر جار على التلقيب بالاضافة للدولة فافتتحت ألقاب الملوك بالاضافة الى الدولة ، فكان أول من لقب بذلك من الملوك بنو بويه الثلاثة : فلقب أبو الحسن علي بن بويه بـ« عماد الدولة » ولقب أخوه أبو علي الحسن بـ« ركن الدولة » وأخوهما أبو الحسين بـ« معز الدولة » ثم وافى [عضد الدولة] من بعدهم فاقترح أن يلقب بـ« تاج الدولة » فلم يجب اليه وعدل به الى « عضد الدولة » فلما بذل نفسه للمعاونة على الاتراك ، اختار له أبو اسحق الصابي صاحب ديوان الانشاء « تاج الملة » مضافا الى عضد الدولة ، فكان يقال « عضد الدولة وتاج الملة » ولقب أبو محمد الحسن بن حمدان أيام المتقي لله « ناصر الدولة » ولقب أخوه أبو الحسن علي بن حمدان « سيف الدولة »

وبقي الامر على التلقيب بالاضافة الى الدولة الى أيام القادر بالله فافتتح التلقيب بالاضافة الى الدين . وكان أول من لقب بالاضافة اليه أبو نصر بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه ، زيد على لقبه بهاء الدولة « نظام الدين » فكان يقال « بهاء الدولة ونظام الدين » قال ابن حاجب النعمان : ثم تزايد التلقيب به وأفرط، حتى دخل فيه الكتاب والجند والاعراب والاكراد ، وسائر من طلب وأراد ، وكره (؟) حتى صار لقبا على الاصل . ولا شك أنه في زماننا قد خرج عن الحد حتى تعاطاه أهل الاسواق ومن في معناهم ، ولم تصر به ميزة الكبير على صغيره، حتى قال قائلهم

(١) معنى طغج عبد الرحمن كما في ابن خلكان (٢) لم يذكر في الضوء لفظ الاب في المحلين

طلع الدين مستغيثا الى اللـــــه وقال : العبادُ قد ظلموني !
يتسمون بي ، وحقك لا أعـــــرف منهم شخصا ولا يعرفوني !

أما الديار المصرية فكان جريهم في الالقاب على ما ينتهي اليهم خبره من ألقاب الدولة العباسية ببغداد ، فتلقب خلفاء الفاطميين بها بنحو القاب خلفاء بني العباس ببغداد ، فكان لقب أول خلفائهم بها «المعز لدين الله» وثانيهم بها «العزيز بالله» وعلى ذلك الى أن كان لقب آخرهم « العاضد لدين الله » على ما تقدم في المقالة الثانية في الكلام على ملوك الديار المصرية

وتلقب وزراؤهم وكتابهم بالاضافة الى الدولة ، وممن لقب بذلك في دولتهم [ولي الدولة] بن أبي كدينة وزير المستنصر ، وأيضا [ولي الدولة] بن خيران كاتب الانشاء المشهور . ولما صارت الوزارة لبدر الجمالي تلقب بـ«أمير الجيوش» . ثم تلقب الوزراء بعده بنحو [الافضل] و[المأمون] . ثم تلقبوا بالملك الفلاني ، كـ«الملك الافضل» و« الملك الصالح » ونحو ذلك على ما سيأتي بيانه ان شاء الله تعالى

وكان الكتاب في أواخر الدولة الفاطمية الى أثناء الدولة الايوبيـة يلقبون بـ«الفاضل والرشيد والعماد » وما أشبه ذلك . ثم دخلوا في عموم التلقيب بالاضافة الى الدين ، واختص التلقيب بالاضافة الى الدولة كولي الدولة بكتاب النصارى ، والامر على ذلك الى الآن

الطرف الثاني فى بيان معاني الالقاب وفيه تسع جمل

الجملة الاولى في الالقاب الخاصة بارباب الوظائف المعتبرة التي بها انتظام أمور المملكة وقوامها ، وهي قسمان (القسم الاول) الالقاب الاسلامية وهي نوعان : (النوع الاول) الالقاب القديمة المتداولة الحكم الى زماننا ، وهي صنفان :

الصنف الاول ألقاب أرباب السيوف ، وهي سبعة ألقاب

الاول — الخليفة . وهو لقب على الزعيم الاعظم القائم بأمور الأمة، وقد اختلف في معناه ، فقيل : انه فعيل بمعنى مفعول، كجريح بمعنى مجروح ، وقتيل بمعنى مقتول ويكون المعنى انه يخلفه مَن بعده ، وعليه حمل قوله تعالى (اني جاعل في الارض

خليفة) على قول من قال: ان آدم عليه السلام أول من عمر الارض وخلفه بنوه من بعده . وقيل : فعيل بمعنى فاعل ، ويكون المراد أن يخلف من بعده [1] وعليه حمل الآية من قال انه كان قبله في الارض الجن وانه خلفهم فيها ، واختاره النحاس في [صناعة الكتاب] وعليه اقتصر البغوي في [شرح السنة] والماوردي في «الاحكام السلطانية» قال النحاس: وعليه خوطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه بخليفة رسول الله

وقد أجازوا أن يقال في الخليفة : خليفة رسول الله ، لانه خلفه في أمته . واختلفوا هل يجوز أن يقال فيه خليفة الله ؟ فجوز بعضهم ذلك لقيامه بحقوقه في خلقه محتجين بقوله تعالى (وهو الذي جعلكم خلائف الارض) وامتنع جمهور الفقهاء من ذلك محتجين بأنه انما يستخلف من يغيب أو يموت والله تعالى باق موجود الى الابد لا يغيب ولا يموت ، ويؤيد ما نقل عن الجمهور بما روي أنه قيل لابي بكر رضي الله عنه : يا خليفة الله . فقال : لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله ، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : ياخليفة الله — فقال : ويلك ! لقد تناولت متناولا بعيدا ! ان أمي سمتني عمر ، فلو دعوتني بهذا الاسم قبلت ، ثم كبرت فكنيت أبا حفص ، فلو دعوتني به قبلت ؛ ثم وليتموني أموركم فسميتموني أمير المؤمنين، فلو دعوتني به كفاك. وخص البغوي جواز اطلاق ذلك بآدم وداود عليهما السلام ، محتجا بقوله تعالى في حق آدم (اني جاعل في الارض خليفة) وقوله في حق داود (ياداود انا جعلناك خليفة في الارض) ثم قال: ولا يسمى أحد خليفة الله بعدهما. قال في [شرح السنة] و يسمى خليفة وان كان مخالفا لسيرة أئمة العدل

ثم قد كره جماعة من الفقهاء منهم أحمد بن حنبل اطلاق اسم الخليفة على ما بعد خلافة الحسن بن علي رضي الله عنهما فيما حكاه النحاس وغيره ، محتجين بحديث « الخلافة بعدي ثلاثون » يعني ثلاثين سنة، وكان انقضاء الثلاثين بانقضاء خلافة الحسن ، ولما انقضت الخلافة صارت ملكا . قال المعافى بن اسماعيل في تفسيره : وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل طلحة والزبير وكعبا وسلمان عن الفرق بين الخليفة والملك — فقال طلحة والزبير : لا ندري . فقال

(١) كذا في الضوء أيضا وفي نسخة أخرى والا ظهر من قبله

سلمان: الخليفة الذي يعدل في الرعية، ويقسم بينهم بالسوية، ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله والوالد على ولده؛ ويقضي بينهم بكتاب الله تعالى. فقال كعب: ماكنت أحسب أن في هذا المجلس من يفرق بين الخليفة والملك، ولكن الله ألهم سلمان حكما وعلما

واختلف في الهاء في آخره: فقيل أدخلت فيه للمبالغة كما أدخلت في رجل داهية وراوية وعلامة ونسابة وهو قول الفراء، واستحسنه النحاس ناقلا له عن اكثر النحويين، وخطأه علي بن سليمان محتجا بأنه لو كان كذلك لكان التأنيث فيه حقيقيا. وقيل: الهاء فيه لتأنيث الصيغة. قال النحاس: وربما أسقطوا الهاء منه وأضافوه فقالوا « فلان خليف فلان » يعنون خليفته

ثم الاصل فيه التذكير نظرا للمعنى لان المراد بالخليفة رجل وهو مذكر، فيقال أمر الخليفة بكذا على التذكير. وأجاز الكوفيون فيه التأنيث على لفظ خليفة فيقال أمرت الخليفة بكذا، وأنشد الفراء: * أبوك خليفة ولدته أخرى *

ومنعه البصريون محتجين بأنه لو جاز ذلك لجاز [قالت طلحة] في رجل اسمه طلحة وهو ممتنع. فان ظهر اسم الخليفة تعين التذكير باتفاق فتقول قال أبو جعفر الخليفة أو: قال الراضي الخليفة ونحو ذلك. ويجمع على خلفاء ككريم وكرماء، وعليه ورد قوله تعالى (واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) وعلى خلائف كصحيفة وصحائف، وعليه جاء قوله تعالى (وهو الذي جعلكم خلائف الارض) والنسبة اليه خلفي كما ينسب الى حنيفة حنفي. وقول العامة درهم خليفتي ونحوه خطأ، اذ قاعدة النسب أن يحذف من المنسوب اليه الياء وهاء التأنيث على ما هو مقرر في علم النحو. وممن وهم في ذلك المقر الشهابي بن فضل الله رحمه الله في كتابه [التعريف] حيث قال: وأول ما نبدأ بالمكاتبة الى الابواب الشريفة الخليفتية، ولعله سبق قلم منه، والا فالمسألة أظهر من أن يجهلها أو تخفى عليه

الثاني — الملك. وهو الزعيم الاعظم ممن لم يطلق عليه اسم الخلافة، وقد نطق القرآن بذكره في غير موضع كما في قوله تعالى (ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا) (وقال الملك ائتوني به) الى غير ذلك من الآيات، ويقال فيه ملك بكسر اللام

وملاك باسكانها ومليك بزيادة ياء ، ومنه قوله تعالى (عند مليك مقتدر) قال الجوهري : والملك مقصور من مالك أو مليك ، ويجمع على ملوك وأملاك . ويقال لموضع الملك المملكة

الثالث — السلطان . وهو اسم خاص في العرف العام بالملوك . ويقال : ان أول من لقب به [خالد بن برمك] وزير الرشيد ، لقبه به الرشيد تعظيما له ، ثم انقطع التلقيب به الى أيام بني بويه فتلقب به ملوكهم فمن بعدهم من الملوك السلاجقة وغيرهم وهلم جرا الى زماننا

وأصله في اللغة الحجة قال تعالى (وما كان له عليهم من سلطان) يعني من حجة. وسمي السلطان بذلك لانه حجة على الرعية يجب عليهم الانقياد اليه

واختلف في اشتقاقه : فقيل انه مشتق من السلاطة وهي القهر والغلبة ، لقهره الرعية وانقيادهم له ، وقيل مشتق من السليط ، وهو الشيرج في لغة أهل اليمن لانه يستضاء به في خلاص الحقوق ، وقيل من قولهم لسان سليط أي حاد ماض لمضي أمره ونفوذه . وقال محمد بن يزيد البصري : السلطان جمع واحده سليط كقفيز وقفزان ، وبعير وبعران

وحكى صاحب [ذخيرة الكتاب] أنه يكون واحدا ويكون جمعا ، ثم هو يذكر على معنى الرجل ، ويؤنث على معنى الحجة . وحكى الكسائي والفراء على التأنيث عن بعض العرب : قضت به عليك السلطان. قال العسكري في كتابه [الفروق] في اللغة : والفرق بينه وبين الملك أن الملك يختص بالزعيم الاعظم ، والسلطان يطلق عليه وعلى غيره. وعلى ما ذكره العسكري عرف الفقهاء في كتبهم ، اذ يطلقونه على الحاكم من حيث هو حتى على القاضي فيقولون فيمن ليس لها وليّ خاص يزوجها السلطان ونحو ذلك . ومن حيث ان السلطان أعم من الملك يقدم عليه في قولهم السلطان الملك الفلاني ، ليقع السلطان أولا على الملك وعلى غيره ثم يخرج غير الملك بعد ذلك بذكر الملك

الرابع — الوزير . وهو المتحدث للملك في أمر مملكته . واختلف في اشتقاقه: فقيل مشتق من الوَزَر بفتح الواو والزاي وهو الملجأ، ومنه قوله تعالى (كلا لا وزر)

سمي بذلك لان الرعية يلجئون اليه في حوائجهم ، وقيـل مشتق من الاوزار وهي الامتعة ، ومنه قوله تعالى (ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم) سمي بذلك لانه متقلد بخزائن الملك وأمتعته ، وقيل مشتق من الوزر بكسر الواو واسكان الزاي وهو الثقل ، ومنه قوله تعـالى (حتى تضع الحرب أوزارها) سمي بذلك لانه يتحمل أثقال الملك ، وقيل مشتق من الازر : وهو الظهر ، سـمي بذلك لان الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر . وتكون الواو فيه على هذا التقدير منقلبة عن همزة . وقد أوضحت القول في ذلك في [النفحات النشرية في الوزارة البدرية] قال القضاعي في [عيون المعارف في أخبار الخلائف] وأول من لقب بالوزارة في الاسلام أبو سلمة حفص بن سلمان الخلال وزير السفاح . قال : وانما كانوا قبل ذلك يقولون كاتب . ثم هو إما وزير تفويض : وهو الذي يفوض الامام اليه تدبير الامور برأيه وامضاءها على اجتهاده كما كانت الوزراء بالديار المصرية من لدن وزارة بدر الجمالي والى حين انقراضها ، واما وزير تنفيذ : وهو الذي يكون وسيطا بين الامام والرعايا معتمدا على رأي الامام وتدبيره . وهذه هي التي كان أهل الدولة الفاطمية يعبرون عنها بالوساطة . أما الوزارة في زماننا فقد تقاصرت عن ذلك كله حتى لم يبق منها الا الاسم دون الرسم . ولم تزل الوزارة في الدول تتردد بين أرباب السيوف والاقلام تارة وتارة الا أنها في زماننا في أرباب الاقلام

الخامس — الامير . وهو زعيم الجيش أو الناحية ونحو ذلك ممن يوليه الامام وأصله في اللغة ذو الامر وهو فعيل بمعنى فاعل فيكون أمير بمعنى آمر ، سمي بذلك لامتثال قومه أمره . يقال : أمر فلان . اذا صار أميرا ، والمصـدر الامرة والامارة بالكسر فيهما ، والتأمير تولية الامير ، وهي وظيفة قديمة

السادس — الحاجب . وهو في أصـل الوضع عبارة عمن يبلغ الاخبار من الرعية الى الامام ويأخذ لهم الاذن منه ، وهي وظيفة قديمة الوضع كانت لابتـداء الخلافة فقد ذكر القضاعي في [عيون المعارف] لكل خليفة حاجبا من ابتداء الامر والى زمانه : فذكر أنه كان حاجب أبي بكر الصديق رضي الله عنـه « شديدا »

مولاه ، وحاجب عمر « يرفأ » مولاه، وحاجب عثمان « حمران » مولاه، وحاجب علي « قنبرا » مولاه، وعلى ذلك في كل خليفة ، ماعدا الحسن بن علي رضي الله عنهما فانه لم يذكر له حاجبا . وسمي الحاجب بذلك لانه يحجب الخليفة أو الملك عمن يدخل اليه بغير اذن . قال زياد لحاجبه « وليتك حجابي وعزلتك عن أربع : هذا المنادي الى الله في الصلاة والفلاح فلا تعوجنه عني ولا سلطان لك عليه ، وطارق الليل فلا تحجبه فشر ما جاء به ولو كان خيرا ما جاء في تلك الساعة ، ورسول الثغر فانه ان أبطأ ساعة أفسد عمل سنة، فأدخله عليّ وان كنت في لحافي، وصاحب الطعام فان الطعام اذا أعيد تسخينه فسد »

ثم تصرف الناس في هذا اللقب ووضعوه في غير موضعه ، حتى كان في أعقاب خلافة بني أمية بالاندلس ربما أطلق على من قام مقام الخليفة في الامر ، وكانوا في الدولة الفاطمية بالديار المصرية يعبرون عنه بصاحب الباب كما سبق بيانه في المقالة الثانية في الكلام على ترتيب دولتهم . أما في زماننا فانه عبارة عمن يقف بين يدي السلطان ونحوه في المواكب ، ليبلغ ضرورات الرعية اليه ، ويركب أمامه بعصا في يده، ويتصدى لفصل المظالم بين المتداعين خصوصا فيما لاتسوغ الدعوى فيه من الامور الديوانية ونحوها . وله ببلاد المغرب والاندلس أوضاع تخصه في القديم والحديث ، على ما سيأتي ذكره في الكلام على مكاتباتهم في المقالة الرابعة ان شاء الله تعالى

السابع — صاحب الشرطة . بضم الشين المعجمة واسكان الراء : وهو المعبر عنه في زماننا بالوالي ، وتجمع الشرطة على شرط بضم الشين المعجمة وفتح الراء . وفي اشتقاقه قولان : أحدهما انه مشتق من الشرط بفتح الشين والراء وهي العلامة، لانهم يجعلون لانفسهم علامات يعرفون بها ؛ ومنه أشراط الساعة يعني علاماتها ، وقيل من الشرط بالفتح أيضا : وهو رُذَال المال ، لانهم يتحدثون في أراذل الناس وسفلتهم ممن لا مال له من اللصوص ونحوهم .

مدرسة
دار الدعوة والإرشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

١٢

الهيضة - أو الكوليرا Cholera

داء وبيل، سريع الانتشار، وأوبئته تفتك بالامم فتكا ذريعا

وكلمة كوليرا من كلمة يونانية معناها المِرّة (وهي افراز الكبد المعروف الآن بالصفراء) لان القيء والبراز يشتملان في أول الامر على الصفراء، ويسمى هذا المرض باللغة العربية [الهيضة] ويسميه المتأخرون من العرب ب[الهواء الأصفر] لانهم توهموا أنه ينشأ من تغير في الجو أو الهواء

ومنبع هذا الداء بلاد الهند بآسية ولذلك يسمى بالهيضة الآسيوية ومنها انتشر في أقطار المسكونة، وقد دخل مصر عدة مرات

الاسباب — لهذا المرض ميكروب خاص يشبه الضمة اكتشفه (كوخ) سنة ١٨٨٣ وهو لا يصيب عادة غير الانسان. طول هذا الميكروب [ميكرون] واحد أو اثنان. وقد يجتمع منه اثنان فأكثر فيتألف منهما حلزون، وهو متحرك وله هدب واحد غالبا في أحد طرفيه ولا حبيبات له وانما يتوالد بالانقسام

يوجد هذا الميكروب في براز المصابين وقد يوجد أحيانا في القيء أيضا ولا يوجد في الدم ولا في الاعضاء ولا الانسجة وقد يستمر خروجه مع البراز حتى بعد الشفاء بمدة، وهو يسكن في الامعاء وأغشيتها المخاطية. و بعد الوفاة قد يوجد في جميع أجزاء الجسم لانه ينفذ من الامعاء اليها

يعيش هـذا الميكروب في الهواء وفي غيره ، والجفاف التام يقتله . وقد يعيش في الطين الرطب الى ٦٨ يوما ، وفي ماء الشرب عدة أشهر ، وفي البراز عدة أسابيع

وحامض العصير المعدي يقتله ، ولكن هذا العصير لا يفرز إلا مع وجود الطعام فاذا شرب الانسان ماءً على الجوع خيف عليه العدوى لعدم وجود هذا الحامض حينئذ فيصل الميكروب الى الامعاء . وأمراض الجهاز الهضمي أو اضطراباته تهيئ المرء لقبول العدوى به

ولا يميز هذا الداء بين الذكر والأنثى ويصيب الناس في جميع الأعمار . والفاقة والضعف والادمان على الخمر مما يهيئ له وكذلك الافراط في الطعام الكثير. ويكثر انتشاره في فصلي الخريف والصيف ، ولكن البرد يوقف سيره

والاصابة به مرة تحمي غالبا من الاصابة به ثانية

ولا يصل هذا الداء الى الانسان الا بطريق القناة الهضمية فهو في ذلك كالحمى التيفودية سواءً بسواء .ومما ينقله الى الطعام أو الشراب الذباب والنمل وغيرهما

الاعراض — مدة التفريخ هي يومان عادة أو ثلاثة أيام ، وقد تكون أكثر من ذلك أو أقل

وقد يسبق جميع الاعراض إسهال أو يصاب المرء بخمول وصداع ودوار وطنين وغير ذلك ، وتستمر هذه الحالة يوما أو اثنين أو ثلاثة ثم يشتد الاسهال دفعة واحدة وتزول الصفراء من البراز فيصير لونه كحَسَاء الارز (أي مرق الارز المغلي) وتسمع في بطن المصاب قراقر كثيرة قلما يكون معها ألم.و بعد الاسهال بساعة أو أكثر يبتدئ القيء فلا يبقى في المعـدة شيء ويصير لونه كلون البراز أي كحساء الارز أيضا ، ويشتد العطش ويجف اللسان ويبيض ويتألم المريض من جس معدته ويصاب بتقلص مؤلم جدا في عضلات الساقين والقدمين أو الايدي والجذع (أي باقي الجسم) ثم يصاب المرء بالهمود (الهبوط) فيبرد الجسم ويزرق ، وتغور العينان ، ويبرد النفس وتنخفض الحرارة ويسرع النبض ويضعف جدا ولا يقدر المريض على الكلام ويزول الاسهال غالبا ولكن القيء يستمر، ويقل افراز البول أو ينقطع مطلقا لشدة ضعف الدورة الدموية ولنقص مائية الجسم بالقيء والاسهال. وكثيرا ما يموت المصاب في هذا الطور

فاذا جاوزه ترتفع الحرارة تدريجيا و يعود لون الجلد الى أصله وترتفع العينان بعد الغؤور و يتحسن النبض و يفرز البول و يزول الخطر شيئا فشيئا حتى يشفى المريض

المضاعفات والعواقب كثيرة — منها : الالتهاب الرئوي أو البليوراوي وموت بعض الاجزاء (غنغرينا) وسقوطها كالصفن والقضيب أو الأنف، وظلمة القرنية وتقرحها

الانذار — تختلف الوفيات من ٤٠ -- ٦٠ في المئة . والمرض شديد الخطر على الصغار والشيوخ ومن كان ضعيف البنية أو سكيرا

المعالجة — عند ظهور أعراض المرض الأولى تعطى الادوية القابضة وأحسنها الأفيون

فاذا اشتد الاسهال والقيء وألم الساقين حقن المريض بالمورفين [1] تحت الجلد وأعطيَ قطعا صغيرة من الثلج لمصها

أما في طور الهبوط فيعطى المنعشات المنبهات وما يملأ العروق مما سبق ذكره في باب النزف (صفحة ٥٥ من الجزء الاول) إما حقنا تحت الجلد أو في الشرج أو في الاوردة وإما شربا ، ويدفأ تدفئة جيدة بزجاجات الماء الساخن والاغطية الثقيلة وبالدلك للاطراف

وقد وجد الماجور [ليونارد روجس Leonard Rogers] أن الحقن بمحلول ملحي في الاوردة واعطاء البرمنجنات من الفم قد قلل الوفيات الى ٢٣ في المئة. وفائدة هذا الحقن أن يزيل الهمود ويقوى القلب ويعوض الجسم ما فقده من الاملاح. وأما البرمنجنات فيظن أنها تؤكسد سموم ميكروب الكوليرا وبذلك تبطل عملها . وتركيب هذا المحلول الملحي هو ١٢٠ قمحة من ملح الطعام و ٦ قمحات من كلوريد البوتاسيوم و٤ قمحات من كلوريد الكلسيوم، تذاب كلها في نصف لتر من الماء العقيم ثم يحقن منهـا نحو لترين في أحد أوردة الذراع (أعني عرق الباسليق الاوسط وهو الاكحل بالعربية) وتكفي عادة حقنة واحدة. فاذا عاد الهمود عدنا باخرى، ولكن اذا كان الهمود قليلا فالاولى الحقن تحت الجلد. وتكون حرارة الحقنة

(١) هو أهم الاصول الفعالة في الافيون ، سمي بذلك من كلمة يونانية معناها « إله الاحلام » لانه يحدث نوما مريحا ، وأحلاما لذيذة

أعلى بقليل جدا من حرارة الجسم الطبيعية

أما طريقة إعطاء البرمنجنات فهي أن يشرب المريض مقادير قليلة من محلول برمنجات الكلسيوم بنسبة نصف قمحة في كل ٥٠٠ جرام ماء وتزاد هذه النسبة تدريجا الى ٤ أو ٦ قمحات

الوقاية — خير من العلاج ، وتكون بأمور :

(١) عزل المرضى وتطهير مواد قيئهم وبرازهم وسائر ما يستعملونه من ملبس وآنية وفراش الخ، وإلقاء تلك المواد حيث نأمن تلويثها لأي شيء آخر

(٢) غسل الايدي قبل مس أي طعام وتطهير جميع ما يأكله الأصحاء أو يشربونه أو يستعملونه في ذلك كله من أواني وغيرها بالغلي وخصوصا ماء الشرب فيجب غليه دائما ، ويجب تجنب التخم وكل ما يفسد الهضم

(٣) ابادة الذباب والنمل ومنعهما من الوصول الى مفرزات المرضى ثم الى طعام الاصحاء وشرابهم

(٤) عدم أكل شيء غير مطبوخ في زمن الوباء

(٥) عدم الإذن للناقهين بالاختلاط بغيرهم الا بعد خلو مفرزاتهم من الميكروب بأن يعلم ذلك بالبحث البكتيريولوجي الدقيق ، و بعد ذلك يستحمون وتغلى ملابسهم ويلبسون غيرها جديدا . وكذلك يبحث عن [الحملة الاصحاء] وهم الذين خالطوا بعض المرضى فوصل الميكروب الى أمعائهم ولم يصابوا بالمرض ، فهؤلاء يعزلون وتطهر مفرزاتهم حتى تخلو من الميكروب

(٦) أن تدفن الموتى بعيداً جداً عن الاماكن المسكونة بشرط أن لا يتلوث بجثثهم ماء الشرب أو غيره ، ويغتسل [المغسّل] ويطهر يديه بالمحاليل المطهرة، وكذلك تطهر ملابسه بالغلي

هذا ويرى بعض أئمة الدين وجوب الغسل بعد تغسيل الميت لما روي عن النبي (ص) أنه قال «من غسل ميتا فليغتسل ومن حمله فليتوضأ» ولعل المراد بالوضوء هنا غسل اليدين كما في قوله (ص) «الوضوء قبل الطعام حسنة و بعد الطعام حسنتان» وهذا كله مما يوافق قواعد الصحة كل الموافقة . ومثل [المغسل] كل من قام بدفن

الميت أو بتمريضه قبل الوفاة فيجب عليه غسل يديه خصوصا قبل أكله

(٧) يعمل التلقيح الواقي لمن شاء بميكروبات الكوليرا حسب طريقة هافكين [Haffkine] فيحقن أولا سنتيمتر مكعب وبعد أربعة أيام أو خمسة يحقن غيره أقوى منه . ويصاب الانسان بعد الحقن بصداع وحمى وانحطاط مدة ثلاثة أيام أو أربعة عقب كل حقنة منهما . وما قيل في عيب الحقن الواقي من التيفود يقال مثله هنا أيضا

الكُزاز — التيتانوس Tetanus

التيتانوس كلمة يونانية معناها التشنج أو التقلص وهو اسم داء يسمى بالعربية [الكزاز]

ينشأ هذا الداء من باسيل مخصوص يوجد في الطين وغيره كأوساخ الحدائق والاسطبلات ، طوله ٤ الى ٥ ميكرونات وثخنه ٤ و ٠ من الميكرون وله أهداب ، غير أنه قليل الحركة . ولا ينمي في جوّ فيه أثر من الاكسجين الخالص . ويتكون في داخله حبيبات عند أحد طرفيه وهي كروية الشكل وأغلظ منه حتى شبه العلماء هذا الميكروب عند تكون الحبيبة بمطرقة الطبل

الاسباب — يصيب هذا المرض الانسان في جميع الاعمار حتى الاطفال الرضع عقب ولادتهم بقليل . وهو كثير الحصول في البلاد الحارة . والجنس الأسود أو الأسمر أكثر عرضة له من غيرهما . وأهم سبب لدخول الميكروب في الجسم انما هو الجرح أو السحج صغيرا كان أو كبيرا حتى ولو كان كوخز الابرة

أما إصابة الاطفال الرضع به فسببها الغالب قذارة ما يقطع به الحبل السري، أو تعرض السرة لشيء قذر

وقد يصيب بعض الناس بدون أن نشاهد في أجسامهم اصابة ، ولعل السبب في ذلك دخول الميكروب من سحج بسيط جدا لم يلتفت اليه أحد أو دخوله من بعض الاغشية المخاطية فقد شاهد بعض الباحثين حبيباته في رجيع الانسان وفي رجيع الانعام والخيل وغيرها . والانسان والخيل أكثر الحيوانات إصابة به

واذا دخل الميكروب من الجرح عاش حيث دخل مدة قصيرة ومات بعد بضعة أيام. وهو لا ينتشر في البنية البتة ، وغاية مايمكنه الوصول اليه هو بعض الغدد اللمفاوية القريبة من الجرح .وجميع الاعراض انما تنشأ من امتصاص سمومه. وحبيبات هذا الميكروب تعيش عدة سنين ولو جفت وتقاوم درجة ٨٠° سنتجراد مدة ساعة ولكن درجة الغليان تقتلها بعد خمس دقائق وحامض الفنيك بنسبة ١/٢٠ لايهلك هذه الحبيبات في أقل من ١٥ ساعة ولذلك يجب تطهير الآلات الجراحية بالغلي مدة طويلة حتى يؤمن شره ، فقد شوهد كثرة الاصابة بهذا الداء بعد عمل الحزام أو عقب الحقن تحت الجلد أو في العضلات خصوصا بمادة الكينين لتأثير هذه المادة في كريات الدم البيضاء واعاقتها عن قتل هذا الميكروب فيجد بيئة صالحة لنموه لا سيما وان الاكسجين الخالص غير موجود في تلك البيئة

وسكان جزائر سليمان في المحيط الاعظم في الشمال الشرقي من استرالية قد عرفوا شيئا من هذه الحقائق ، فلذلك يصنعون سهاما و يغمسون طرفها في مادة لزجة ثم يلوثونها بقذارة المستنقعات و يجففونها فتوجد فيها بذور هذا الميكروب اللعين فاذا أصابت شخصا كانت السبب في موته غالبا

الاعراض -- بعد دخول هذا الميكروب في الجرح ببضعة أيام يشعر المريض بيبس في قفاه وفي فكيه بحيث يتعسر عليه المضغ أو أن يفتح فاه وقد تستمر هذه الحال يوما أو يومين ، وقد ينتقل الى الطور الثاني بأسرع من ذلك ، فتيبس عضلات الجذع يبسا شديدا وتيبس عضلات الاطراف يبساً قليلا ثم يشتد تيبس الظهر وانقباض عضلاته حتى يتقوس ويكون تقعيره الى الخلف ، وتيبس كذلك عضلات البطن والصدر -- حتى يتعسر التنفس -- وعضلات الاطراف السفلى، وأما الاطراف العليا فيكون تيبسها حول الكتفين والمرفقين وتبقى حركة الاصابع ميسورة. وفي هذا الوقت يشتد تقلص الفكين حتى لا يمكن فتحهما الا بشق الانفس ، ومع ذلك لا يمكن الفصل بينهما بأكثر من ¼ بوصة . وتتقلص كذلك عضلات الوجه حتى ينشأ من تقلصها ما يشبه الضحك، و يسمى هذا الضحك المؤلم عند الاطباء [ضحك سردينية] وهي تلك الجزيرة المشهورة في البحر الابيض المتوسط لوجود

عشب سام فيها يذهب العقل ويحدث تشنجا في عضلات الفم يشبه الضحك

فاذا وصل المرض الى هذا الحد صار المريض عرضة لاشتداد تقلص العضلات كلما مسه أي شيء ولو أطراف الاصابع أو كلما هز سريره . ومدة اشتداد هذا التقلص لحظات يتعسر عدها بالثواني وفيها يخشى عليه من الاختناق . والفترات بين هذه النوب تكون من نصف ساعة الى ساعة أو اكثر وكلما طال المرض نقصت وازدادت شدة التقلصات . ويكون المريض في تلك الفترات متألما جدا من انقباض عضلاته، ويكون تنفسه عسيرا ، وصوته ضعيفاً ، ونبضه صغيرا سريعا، ولكن حرارته تكون عادة طبيعية غير انها قد ترتفع ارتفاعا فاحشا قبيل الوفاة ، وتستمر في الارتفاع حتى بعد الوفاة فتصل الى اكثر من ٤٣ درجة ويحتبس البول أيضا. ويكون احساس المريض طول مدة المرض على أتمه وكذلك عقله الا قبيل الوفاة فقد يعتريه الهذيان، وأكثر اصابات الكزاز (التيتانوس) تنتهي بالوفاة بعد يوم أو ١٢ يوما . وسبب الموت اما نهاكة قوى المريض أو اختناقه لتشنج عضلات التنفس أو الحنجرة أو طروء بعض المضاعفات عليه كالالتهاب الرئوي أو الشعبي . وقد تطول الحياة الى ٣ أو ٤ أسابيع ، وقد يشفى المريض

الانذار — عدد الوفيات في الاحوال ذوات الجرح نحو من ٩٠ ٪ وفي الاحوال التي لم يشاهد فيها جرح نحو من ٥٠ ٪ والكزاز من الامراض القتالة جدا خصوصا عقب الاجهاض أو الوضع . وكلما كان الجروح شديدا أو متسعا كان الامل في الحياة ضعيفاً جدا

المعالجة — يوضع المريض في الفراش في مكان مظلم لاحركة فيه ولا صوت، ويغذى بالسوائل وإن اضطررنا الى تغذيته بأنبوبة من أنفه أو بالحقن الشرجية، والاحسن أن تدخل الانبوبة من بين أسنانه اذا كان بعضها مفقودا . ومن الاطباء من يقلع بعضها من أجل ذلك ولكنه عمل غير محمود

ومن الواجب تنظيف الجرح قبل كل شيء وتطهيره طهارة تامة لكي نقتل أو نزيل بقدر الامكان تلك الميكروبات منه ؛ ولكن مما يوجب الاسف أن ظهور الاعراض دليل كاف على أن السم قد وصل الى المراكز العصبية واتحد بها

وتعطى المسكنات بمقادير كبيرة ومن أحسنها بروميد البوتاسيوم والافيون أو المورفين . ومن الاطباء من ينشق المريض الكلوروفورم مرة أو مرتين في اليوم لتخديره حتى ترتخي عضلات الفكين وحينئذ يمكن تغذيته

وللكزاز مصل يستخرج بطريقة استخراج مصل الدفتيريا . وتجب المبادرة بحقنه بمقادير كبيرة جدا فيحقن منه ١٠ آلاف الى ٢٠ ألف وَحْدَة في الاوردة أو ١٠ آلاف الى ٥٠ ألف تحت الجلد . و يتكرر الحقن يوميا حتى تتحسن الحالة. ومن الناس من يحقن هذا المصل في النخاع أو في المخ بإحداث ثقب في عظام الجمجمة يسمى عند الجراحين بالتربنة [Trephining] ولكنه عمل عسير مشكوك في نفعه

والسبب في عسر شفاء هذا المرض أن سم الميكروب يسرى في الاعصاب الحركة ويلتصق بالمراكز العصبية التصاقا شديدا بحيث يتعذر ازالته منها بعد تمكنه، زد على هذا ان بعضه يدور في الدم ويصل معه الى المراكز العصبية أيضا

الوقاية — عقب إصابة أي شخص بأي جرح يجب تنظيفه جيدا ثم تطهيره بكل الوسائل الممكنة واذا ظن أن الجرح تلوث بشيء قذر مما يحتمل وجود الميكروب فيه وجبت المبادرة الى الحقن قبل أن تبتدئ الاعراض فيحقن ١٥٠٠ وحدة تحت الجلد ، ولذلك بادرت الحكومة الانكليزية باتباع هذه القاعدة مع جنودها ، فترى الاطباء الانكليز يحقنون كل جريح اشتبه في جرحه في أقرب وقت ممكن في ميدان القتال

وتطهير الجرح بالكي بالنار عقب حدوثه مباشرة كما تفعل العرب عمل محمود

الحمرة

اسم لداء يسمى باللغات الافرنجية [Erysipelas] وهو لفظ يوناني معناه الحرفي (الجلد الاحمر) ويسمي الانكليز هذا المرض أيضا بنار القديس أنطونيوس [Anthony] لتوهم عامتهم أنه قادر على شفائها . وهو من الامراض المعدية الشديدة ، وينشأ من ميكروب من الشكل المسمى : « البزور السلسلية » [Streptococcus erysipelatis]

الاسباب — أعظم الاسباب المهيئة لهذا المرض وجود أي جرح بالجسم يدخل

منه هذا الميكروب الخبيث مهما صغر الجرح . وفي أحوال قليلة جدا يحدث هذا المرض بدون جرح ظاهر ، ولكن اذا دقق في البحث فلا بد من وجود أي منفذ الى الجسم ولو سحج بسيط جدا أو دمل صغير أو خدش كخدش الدبوس. والعدوى لا تنتقل إلا الى المسافات القصيرة

وهو يصيب الاطفال الرضع والكبار فوق الاربعين اكثر من غيرهم ولكنه لا يميز بين الذكر والانثى

ومما يجعل الشخص أكثر تعرضا له من غيره إدمان الخمر وأمراض الكبد والكلى المزمنة والضعف أو الفاقة وكذلك البرد والرطوبة وكثرة الازدحام خصوصا اذا كان المكان ردئ الهواء أو قذرا . ومن الاسباب أيضا استعداد مخصوص في الشخص نجهل حقيقته فان هذا المرض كثيرا مايعاود شخصا عدة مرات ، فالوقاية منه لا تطول مدتها

أما ميكروبه هذا البزري فهو عديم الحركة ،وقطر كل بزرة نحو ميكرون واحد. ويحصل الانقسام فيه في جهة واحدة فقط ولذلك تتكون منه السلاسل المذكورة . وهو يموت اذا بلغت الحرارة ٥٣° الى ٥٥° سنتجراد وعرض لها ١٠ دقائق

الاعراض — في الاحوال التي يتعسر فيها مشاهدة الجرح أو السحج نرى أن هذا المرض يصيب الوجه على الاكثر ولذلك كان وصفنا الآتي قاصرا على وصف هذا العضو اذا أصيب به

ومدة التفريخ أيام معدودة فهي في أكثر الاحوال من ٣ الى ٦ وان كانت تطول في بعضها . ويبتدئ المرض عادة بقشعريرة أو رعدة وصداع وغثيان ويبيض اللسان ويحس المريض بآلام عامة في جسمه، وبعد بضع ساعات تظهر على الوجه بقعة حمراء مؤلمة خصوصا حيث يلتقى الجلد بالغشاء المخاطي كفتحة الفم أو الأذن أو الأنف . ثم تكبر هذه البقعة وترم ويشتد احمرارها وألمها واذا ضغط عليها انبعجت، ثم يمتد الورم بسرعة متفاوتة فترى أن السطح العالي الأحمر كأنه يسير في باقي الجلد. وفي بضعة أيام قد يتغطى الوجه كله فتراه منتفخا جدا وكذلك الجفون حتى تتدلى . وترم الاذنان والشّواة (فروة الرأس) وتتكون غالبا فقاعات أو نفاخات ممتلئة بسائل

مصلي صديدي على الخدين أو الجفون ، وقد تنفجر فتزيد المصاب تشويها حتى تتعذر معرفته . وتضخم الغدد اللمفاوية القريبة من المكان الملتهب وتكون مؤلمة، ويقال انها تلتهب حتى قبل ظهور التهاب الجلد

وتكون الحمى عالية جدا حتى تزيد عن الاربعين في اليوم الثالث والرابع . وفي السادس تميل للانخفاض فجأة مالم يستمر التهاب الجلد أو يظهر التهاب جديد، فهي تابعة لحالة الالتهاب . وتكون الحمى مصحوبة بباقي أعراضها المعروفة

وهـذا الالتهاب يمتد أيضا الى الاغشية المخاطية كاغشية الحلق أو اللوزتين وأحيانا الى أغشية الحنجرة حتى يتعسر التنفس والازدراد . و يعتري المريض الهذيان، وقد تطرأ عليه الغيبوبة . و بينما نرى الالتهاب يمتد في جهة قد نشاهده يشفى حيث ابتدأ

وسبب الموت نهاكة القوى مع الهذيان والغيبوبة خصوصا في الشيوخ ومدمني الخمر وغيرهم ممن ذكرنا من قبل

واذا شفي المريض تقشرت البشرة مكان الالتهاب و يستمر التقشر بضعة أيام، وكثيرا ما نشاهد سقوط شعر الشواة

المضاعفات والعواقب — منها : الخراجات وموت الجلد وسقوطه وضخامة الغدد اللمفاوية أو تقيحها — في النادر — والاختناق من تورم الحنجرة والالتهاب الرئوي او البليوراوي في بعض الاحوال وكذلك الالتهاب السحائي

و يقال إن امتداد هذا المرض في الجلد تابع لسير الاوعية اللمفاوية ، و يقف الالتهاب في الغالب حيث يلتصق الجلد التصاقا شديدا بالانسجة التي تحته كما يحصل في الاربية عند رباط [بوبارت Poupart]

والانذار هذا المرض في أكثر الاحوال حميد ، ولكن يختلف خطره باختلاف امتداد الالتهاب . وهو قاتل غالبا للشيوخ والسكيرين وغيرهم ممن ذكرنا

المعالجة — المبدأ العام في معالجة هذا المرض هو استعمال المنعشات والمقويات للمريض، فيعطى كثيرا من اللبن والمرق وغيرهما من السوائل المغذية، و بعض المنعشات كالخمر — اذا لم يوجد ما يغني المسلم عنها — والنوشادر والاثير والاستركنين وغيره . وصبغة فوق كلوريد الحديد نافعة جدا في هذا المرض حتى كانوا يعدونها شفاء

قطعيا له ، فيعطى منها من ٣٠ — ٤٠ نقطة للشبان والكهول كل ٣ أو ٤ ساعات . وقد وصى بعضهم أيضا باستعمال الكنين . وظهرت نتائج حسنة من استعمال المصل المضاد لبزور هذا المرض [Anti - streptococcus Serum] فيحقن منه تحت الجلد مرة أو مرتين يوميا ١٥ أو ٢٠ سنتيمترا مكعبا . وهذا المصل يستخرج من الحصان بطريقة تشبه استخراج مصل الدفثيريا ، غير أنها تختلف عنها في أنه في مصل الدفثيريا يحقن الحصان بسم الميكروب ولكن هنا يحقن الحصان بنفس الميكروب حيا ، لان ميكروب الدفثيريا يفرز سما في السائل الذي يربى فيه وأما ميكروب هذا المرض فسمه كامن في جسمه فاذا حقن السائل الذي يربى فيه لا يفيد . وطريقة ذلك أن يقوى ميكروب الحمرة بحقنه في عدة أرانب فيكون ما حقن في الاخير أقوى مما حقن في الاول ويزرع من كل منها جزء من الميكروب فتكون قوته متفاوتة ، ثم يحقن الحصان بأضعف هذه الميكروبات سما ، ونترقى منه تدريجا الى أقواه . وفي نهاية سنة الحقن يؤخذ مصل هذا الحصان فيكون فيه سم قاتل لميكروب الحمرة ، فاذا حقن المريض به أفاده فائدة عظيمة

واذا اشتدت الحمى كان استعمال الماء البارد أو الفاتر نافعا فيها أيضا

وعلاج مكان الحمرة نفسه قليل الجدوى ، وغاية ما يعمل له أنه يدهن ببعض المراهم أو نحوها كمرهم البوريك واذا اشتد توتر الجلد جاز تشريطه قليلا

النزلة الوافدة — الانفليونزا Influenza

الانفليونزا اسم ايطالي أو لاتيني لمرض كانوا يظنون أنه من تأثير الكواكب في الانسان ، فلذا سموه بهذا الاسم الذي معناه (التأثير) ويسمي الاطباء المحدثون من العرب هذا المرض بالنزلة الوافدة

الاسباب — هذا المرض كثيرا ما ينتشر في البلاد بشكل وبائي سريع خصوصا اذا كانت القرى مزدحمة فيصاب به في وقت واحد مئات من الناس

وميكروب هذا المرض من النوع الباسيلي (المستطيل) اكتشفه [بفيفر Pfeiffer] في سنة ١٨٩٢ م وهو يوجد في بصاق المصابين وأنوفهم وقل أن يوجد في دمهم ، وهو

من أدق الميكروبات وأصغرها حجما فان طوله ٠٫٥ الى ١٫٥ ميكرون وهو ساكن لاحركة له ولا حبيبات ، ولا يعيش الا في الاكسجين . وكثيرا ما يصاحبه ميكروبات أخرى في هذا المرض . واذا شفي المريض زالت منه الميكروبات بسرعة فلا يعدي بعد النقاهة كالدفتيريا مثلا ، وهو ينتقل من شخص الى آخر اذا اقترب منه بحيث يصل اليه بعض افرازات الانف أو الفم . والاستعداد لهذا المرض يختلف باختلاف الاشخاص فمنهم من يعاوده مرارا ومنهم من لا يمسهم مرة واحدة في حياتهم

وكثير من الناس يطلقون اسم (انفليونزا) على كل النزلات التي تعقب البرد كالزكام أو السعال ، ولكنه خطأ

الاعراض — مدة التفريخ ساعات معدودة . ويبتدئ هذا المرض فجأة بألم شديد في الجبهة ومؤخر العينين وألم في عضلات القطن والفخذين وغيرهما ، وقل أن تحدث فيه رعدة . والحرارة ترتفع في ساعات قليلة الى ٣٩° أو ٤٠° وتكون مصحوبة بباقي اعراض الحمى ، ويلتهب الحلق واللوزتان وتصير رائحة النفس كريهة ، وقد يكثر العرق ولكن الغالب أن يكون الجلد جافا ، وتضعف قوى المريض ويشتد به الارق والتألم . وقد يقتصر المرض على هذه الاعراض وتزول الحرارة فجأة بعد يوم أو يومين غير أن آلام الاطراف تستمر بعدها مدة وكذلك الضعف . وقد تطول مدة الحمى بضعة أيام ، أو ينكس المريض . ومن الناس من يصابون فوق ذلك بالنزلات الشعبية أو الرئوية ، ومنهم — وهم الاقل — من يصابون باضطراب في الجهاز الهضمي فيعتريهم مغص وقيء واسهال وأحيانا اليرقان ، ومنهم أيضا من يصابون في جهازهم العصبي فيعتريهم النعاس في أول الامر والهذيان ثم يزول عنهم النوم ويحل محله الارق ، وتشتد عندهم الآلام العصبية والعضلية

وقد يحصل في هذا المرض طفح في الجلد

والانذار هذا المرض في الغالب حميد

والعلاج كعلاج باقي الحميات سواء بسواء

أما الزكام والسعال العاديان فينشآن غالبا من ميكروب آخر من الشكل البزري يسمى « البزور الصغيرة النزلية » [Micrococcus catarrhalis] وهو يوجد

كثيرا في الانف والحلق في اصابات البرد وفي البصاق بعد السعال الناشئ من النزلات الشعبية وقد يوجد في الاشخاص الاصحاء ويوجد أيضا في الاطفال اذا أصيبوا بالنزلات الشعبية الرئوية

الحمى المخية الشوكية أو الالتهاب السحائي الوبائي

هذا المرض عرف أولا في [جنيفا Geneva] سنة ١٨٠٥ ومنذ سنة ١٨٦٠ صار منتشرا في الولايات المتحدة وألمانية وغيرها · وهو كثيرا مايشاهد أيضا في مصر خصوصا في الاماكن التي يكثر فيها الازدحام كالسجون والمعاهد العلمية

ينشأ هذا المرض من [بزور مزدوجة Diploccus] تسمى البزور السحائية [Meningococci] تشاهد في الكريات البيضاء التي توجد في السائل المستخرج من النخاع في هذا المرض ، وقد توجد هذه البزور أيضا خارج الكريات في السائل نفسه، وأحيانا في دم المصاب وفي مفاصله اذا التهبت وكذلك في الرئتين اذا التهبتا وفي الانف والحلقوم والاذن الوسطى. وهذا الميكروب اكتشف سنة ١٨٨٧ وهو يشبه ميكروب السيلان ولا ينمو الا بوجود الاكسجين ولا في حرارة أقل من ٢٥° سنتجراد

الاسباب — يدخل هذا الميكروب من الحلقوم سواء أوصل اليه من الفم أم من الانف. و يوجد في حلقوم المرضى والناقهين كذلك وفي حلقوم بعض الاصحاء المخالطين للمريض . وهو يصيب الصغار اكثر من غيرهم حتى ان ٨٠ ٪ من المصابين منهم تجد أن عمرهم أقل من ١٦ سنة و ٥ ٪ فقط فوق ٢٥ سنة، ولا يميز بين الذكور والاناث. وهذا المرض كثير الحصول في أزمنة البرد، لان الناس في تلك الازمنة يضطرون الى السكنى في أماكن محتبسة الهواء فيفسد وترتفع حرارته وتكثر رطوبته وبذلك يصير بيئة صالحة لنمو هذا الميكروب الخبيث وان كان البرد الشديد يقتله، واذلك لم يعرف هذا المرض بين سكان المنطقة القطبية. ولهذا الهواء الفاسد تأثير سيء في بنية المستنشقين له وهو يجذب بسخونته الدم من الاحشاء الى ظاهر الجلد وذلك أيضا مما يضعف البنية و يعوق الاعضاء عن أتمام وظائفها، فكأن الهواء الفاسد السخن سبب للعدوى من وجهتين (١) كونه بيئة صالحة لنمو الميكروب و(٢) كونه مضعفا للبنية عن مقاومته ، مفسدا للصحة . ولولا

ذلك لما كثر انتشار هذا المرض في أزمنة الشتاء. ومن المشاهدات العجيبة في العدوى بهذا المرض أن الاشخاص الذين يكونون في جهة معينة من المريض يصابون به بينما غيرهم في الجهة الاخرى لايصابون ،وما ذلك الا لكون الهواء يهب على المريض من تلك الجهة التي فيها السليمون فيمر عليهم أولا ثم على المريض ويحمل ذرات فيها الميكروب من نفسه أثناء الكلام أو السعال ونحوهما الى الذين في الجهة الاخرى . وقد وجد أن نحوا من ٤٠ ./. ممن يخالطون المريض قد يصيرون من (الحملة الاصحاء)

الاعراض — في أحوال قليلة يتقدم المرض أعراض بسيطة كالصداع والغثيان ، ولكن في اكثر الاحوال يبتدئ هذا المرض فجأة بألم شديد في الدماغ ورعدة أحيانًا فيضطر المريض في الحال لملازمة الفراش وترتفع الحرارة بسرعة حتى تصل الى ٤٠° ويشتد الصداع خصوصًا في مؤخر الرأس وتيبس عضلات القفا حتى يتعسر على المريض الانحناء الى الامام،ويبقى شاخصا ببصره الى السماء،وكذلك يقعنسس المصاب أي يتقوس الظهر ويكون تقعيره الى الخلف، وتتشنج الأيدي والارجل وتكثر الآلام فى الظهر والاطراف ويكون الجلد حساسا وقد يرتخي الجفنان أوأحدهما لشلل فيهما وربما يشعر المريض بألم في أذنه وطنين أو صمم ويقل شمه ويعتريه النعاس فالهذيان فالغيبوبة. وقد يصاب بنوبات تشبه الصرع فيتخبط كما يتخبط المصروع وفي كثير من الاحوال يظهر على وجهه ما يسمى بالنملة [Herpes] وهي فقاعات صغيرة ممتلئة بسائل . وتلتهب المفاصل أحيانًا وقد تتقيح . ويتقعر البطن حتى يصير كالزورق، ويعظم الطحال ويكثر البول، وقد يوجد فيه زلال قليل أو أثر من السكر . واذا رفع فخذ المريض — وهو ملقى على ظهره — بحيث يكوّن مع جسمه زاوية قائمة تعذر مد الساق حتى تكون مع الفخذ على خط مستقيم . وهذه العلامة —وتسمى علامة [كرنج Kernig] — من أهم ما يعرف به الالتهاب السحائي، واذا مررت بأصبعك على جسم المريض ظهر خط أحمر حيث مرت الاصبع ويستمر نحو خمس دقائق أو أكثر ويسمى هذا الخط بالفرنسية [Tache Cérébrale] ومعناه [البقعة المخية] وهي من أهم علامات الالتهاب السحائي أيضا ، وتنشأ من شلل في أوعية الدم وهذا المرض خطر جدا على الحياة، وكثيرا ما يموت به المصابون بل منهم من

يموت في بضع ساعات أو بضعة أيام . وعدد الوفيات يختلف من ٣٠ الى ٧٠ ٪

ويوجد نوع آخر منه يصيب الاطفال الرضع فيقتلهم غالبا

واذا شفي المريض منه قام غالبا بصمم أو عمى أو استسقاء في الدماغ مع صداع وتشنجات وضعف شديد في العقل أو الجسم أو شلل بعض الاعضاء . واذا أصاب الصمم الاذنين قبل أن يتعلم الطفل الكلام بقي طول حياته أبكم أصم

وقليل من الناس من يشفي منه ولا يصيبه شيء

الصفة التشريحية — اذا شرحت الجثة بعد الوفاة من هذا المرض يُشاهد التهاب حاد في الأم الحنون للمخ والنخاع الشوكي فترى الصديد والمواد اللمفاوية متراكمة على سطح المخ في شقوقه (أي ما بين التلافيف) ويكون السطح الخلفي للنخاع ملتهبا أكثر من السطح الامامي وخصوصا القسم القطني منه . وفي بطينات المخ يشاهد مصل عكر أو صديد، وفي القشرة السنجابية نقط نزفية أو بثور

وترى الرئتين والكبد والطحال والكليتين جميعا محتقنة مع استحالة شحمية في خلايا الكلية واستحالة حبيبية في ألياف العضلات الاختيارية . وقد نرى أيضا نقطا نزفية في الشغاف والپليورا وأحيانا تقيحاً في المفاصل

وكل هذه التغيرات المرضية التي تشاهد في الاحشاء ما عدا المخ والنخاع هي تابعة لالتهاب السحايا وليست من أصل المرض وانما تنشأ من سموم الميكروب ومن شدة ارتفاع الحرارة ونحو ذلك

المعالجة — أحسن علاج لهذا الداء استعمال المصل الخاص به فيصفى جزء من السائل الذي في النخاع بالبزل القطني ويستعاض عنه بحقن ٣٠ سنتيمترا مكعبا كل يوم أو كل يومين بحسب شدة المرض

والبزل القطني وحده نافع في هذا المرض لتخفيف الضغط على المراكز العصبية بسحب بعض المواد الالتهابية ولازالة بعض سموم المرض

وباقي علاج هذا المرض كعلاج سائر الحميات ، ومن النافع فيه أيضا استعمال مركبات الزئبق ويودور البوتاسيوم في بعض الاحوال

الوقاية — عزل المريض كما تقدم فى الحميات وتطهير كل افرازاته واتقاء القرب منه

والسكنى في الاماكن النقية الهواء ذات النوافذ الكثيرة من أحسن ما يتقى به هذا الداء. فلذا يجب تهوية الاماكن المسكونة ليلا ونهارا صيفا وشتاء . ولا يتوهم أحد أن الهواء المطلق الذي نرغب فيه هو مما يسمونه « بتيارالهواء » ويقولون إنه يجب اتقاؤه بل التيار الضار يكون بتعريض جزء من الجسم لهواء يغاير باقي الهواء المحيط بالجسم في سرعته وفي درجة حرارته ، كالجلوس امام احدى النوافذ من بيت دافئ مع تعريض جزء من البدن لهواء النافذة البارد . وأما خروج الانسان الى الاماكن الطلقة الهواء كالفلوات والبحار والمكث فيها زمنا ما فانه لايضر الصحيح البنية خصوصا اذا كان جسمه مدفأ جيدا بالملابس الكثيرة الجافة ، ولكن اذا ابتلت هذه الملابس بالعرق أو بالماء خيف على المرء من ضرر البرد بالمكث في الهواء البارد

الجذام Leprosy

مرض شهير منذ العصور الغابرة سمي بذلك في العربية لانه يبتر بعض الاعضاء ، وهو من الأمراض المزمنة المتعذرة الشفاء ، ينشأ من ميكروب من الشكل الباسيلي اكتشفه [هانسن Hansen] سنة ١٨٧٩ م يشبه ميكروب الدرن من عدة وجوه. وحقن هذا الميكروب في الحيوانات لم ينجح في احداث المرض فيها ما عدا القردة فانها تصاب باصابة موضعية وقتية . ويوجد الميكروب في دم المجذوم وفي الجلد والاغشية المخاطية والاعصاب والغدد اللمفاوية والحنجرة والكبد والطحال والخصيتين والكليتين ، ونادرا في الرئتين ، ولا يوجد في العظام ولا المفاصل ولا العضلات

الاسباب — هذا المرض قليل الوجود في أوربة ماعدا بلاد النرويج ويوجد في كثير من البلدان الافريقية والآسيوية والامريكية وكثير من جزائر المحيط الهادئ ، وهو يصيب الذكور أكثر من الاناث ، والصغار قبل سن الثلاثين أكثر من غيرهم ، ومن النادر جدا أن يصيب الاطفال . وللوراثة بعض التأثير في احداثه

يدخل ميكروب هذا الداء الى الجسم من منفذ أو أكثر من المنافذ الآتية : الانف أو أعلى الجهاز التنفسي أو الفم أو اللوزتين أو سحجات الجلد أو الجهاز التناسلي ومن العلماء من يرى أن بعض الحشرات تنقل هذا المرض من شخص الى

آخر، فقد وجد ميكروبه في البعوض (الناموس) والبق . ولم يشاهد ميكروبه في الارض ولا في الهواء[1] ولا في الطعام ولا في الشراب

ويرى بعض العلماء ان الافراط في أكل السمك خصوصا الفاسد مما يهيئ الجسم لقبول هذا الميكروب الخبيث

ويسكن هذا الميكروب في جميع أجزاء جسم المصاب حيث توجد أنسجة مريضة به ويخرج من جسم المجذوم في مخاطه ودموعه ولعابه ولبنه ومنيه وافرازات الاحاليل والمهبل . وفي البراز بل يخرج أيضا مع خلايا البشرة التي تنفصل بالتدريج من الجلد . هذا فضلا عن خروجه بالضرورة مع ما ينسكب من قروح المريض

ولكن أهم الاشياء التي يوجد فيها الميكروب هو افراز الانف فانه يوجد فيه بكثرة عند أقل بحث فيه

الاعراض — يبدأ هذا المرض بتوعك عام مع حمى خفيفة وتكسر في الجسم ثم تظهر بقع حمراء في الجلد قطرها يبلغ من نصف بوصة الى ثلاث أو أربع بوصات منتفخة قليـلا ومستديرة أو غير منتظمة ، وقد يتكون من هذه البقع الحمراء حلقات وذلك بشفاء الجلد الذي في وسطها ، وتزول هـذه البقع الحمراء أيضا اذا زالت الحمى ، وكثيرا ما تترك خلفها آثارا ملونة أو بيضاء . وقد تعود الحمى وتظهر هـذه البقع آنا بعد آن . وبعد ذلك تنقسم أعراض المرض الى قسمين فيصاب المريض اما بالجذام الدرني أو بالجذام الخدَري ، وقد يجتمع فيه النوعان

أما في الجذام الدرني فتظهر في الجلد درنات مرتفعة حجمها قدر حبة الحمص أو البندق أو اكبر — تظهر أثناء ظهور البقع الحمراء أو بعدها بقليل . وهذه الدرنات قد تمكث زمنا طويلا وقد تزول تاركة خلفها بقعا ملوّنة، وكثيرا ما تتأكل فيتكون منها قروح يسيل منها صديد (أي سائل رقيق) قليل وهذه الدرنات تظهر على الاكثر في الوجه وفي ظهر اليدين والقدمين وغـير ذلك ، فتشوه الوجه ، وتغلظ الحواجب والانف والخدود والآذان ويكون شكل الوجه كوجه الاسد . ولذلك يسمى هذا

---

(١) اللهم إلا ما كان حول المريض مباشرة فقد توجد فيه ذرات من مخاطه حاملة لهذا الميكروب

المرض عند المصريين بالأسد أيضا

وكثيرا ما تتقرح الجفون حتى يصل المرض الى طبقات العين وان كان العصب البصري والشبكية والزجاجية والبلورية كلها تنجو منه عادة . وتصيب الدرنات أيضا الاغشية المخاطية للفم والحلق والحنجرة والانف فيغلظ الصوت أو يضعف . وهذه القروح قد يزداد تأكلها حتى تصيب الاوتار فتقطعها والعظام فتنخرها والمفاصل فتفتحها و بذلك تبتر بعض الاجزاء

أما الجذام الخدري فتكون اصابة الاعصاب فيه أكثر ، وفي أول الداء يحصل احساس في بقع كثيرة من الجسم يشبه الاحساس بمشي النمل ووخز الابر يعقبه خدَر ويكون الجلد في البقع المصابة اما أكمد (باهتا) أوملونا و يضعف الشعر و يزول لونه و يكون سطح الجلد ناعماً برّاقا ، وتضخم الاعصاب حتى يمكن الاحساس ببعضها بغاية السهولة وذلك لالتهابها بسبب المرض . و بسبب مرض الاعصاب تضمر العضلات خصوصا ما بين مشط اليدين والقدمين ، وترتخي الايدي والاقدام ويكون شكل اليد كبرثن الاسد[1] وقد يحصل في هذا النوع من الجذام قروح فوق المفاصل أيضا فتبتر الاعضاء خصوصا أطرف الايدي والاقدام وينجو من هذا البتر السلاميات الاولى للاصابع غالبا . وكثيرا ما تشفى هذه القروح فتبقى اليد بالسلاميات الاولى فقط

وسير هذا الداء موجب لليأس ويجعل الشخص المجذوم مكروها عند الناس مخيفا لهم بمنظره — و بعد زمن قد يمتد الى ١٥ سنة أو أكثر — يموت المصاب غالبا بمضاعفات المرض أو ببطوء السل الرئوي أو التهاب الكلى أو بالدوسنطاريا وغير ذلك

الانذار — هذا المرض لم يعرف أن احدا أصيب به وشفي منه ، غاية الامر انه قد تتلطف الاعراض ويقف الداء مدة مَّا

المعالجة — تعالج الاعراض بالطرق الطبية المعروفة عند الاطباء ، وتعطى للمريض الاغذية الجيدة السهلة الهضم ، ويوضع في مكان نقي الهواء بمعزل عن الناس . ومما ينفع فيه بعض النفع زيت كبد الحوت و زيت [حب الشلمغرا Chaulmoogra]

(١) البراثن للسباع بمنزلة الاصابع للناس

وجرعته في اليوم تبتدئ من ٢٠ نقطة الى درهمين ويجب تعاطيه لمدة سنتين على الاقل . وهناك علاجات أخرى كالحقن باللقاح ونحو ذلك ولكنها غير محقق نفعها

ويجب مدة المرض استعمال المطهرات للقروح وتضميدها جميعا

الوقاية — لما كانت كيفية العدوى بهذا الداء غير معروفة بالضبط وجب عزل المرضى والاحتراس من كل من يلامسهم أو يوجد معهم ، وهذا غاية ما يمكن أن يقال الآن في أسباب الوقاية من هذا الداء . وفي الحديث الصحيح «فرّ من المجذوم فرارك من الاسد»(*)

---

*) المنار : رواه البخاري من حديث ابي هريرة معلقا — او موصولا على طريقة ابن الصلاح — ووصله آخرون واخرج ابن خزيمة له شاهدا من حديث عائشة . ويؤيد مافي صحيح مسلم من حديث عمر بن الشريد عن ابيه قال : كان في وفد ثقيف مجذوم فأرسل اليه رسول الله (ص) «إنا قد بايعناك فارجع» واختلف العلماء في الجمع والترجيح بين هذه الأحاديث وما في معناها كحديث ابي هريرة في الصحيحين «لا يوردن ممرض على مصح» (الممرض بصيغة اسم الفاعل صاحب الابل المريضة بالجرب مثلا والمصح صاحب الابل الصحيحة) وحديث النهي عن دخول ارض فيها الطاعون . وبين حديث ابي هريرة في الصحيحين وغيره «لا عدوى» وحديث جابر ان النبي اخذ بيد مجذوم فوضعها في القصعة وقال «كل» رواه الترمذي . فبعضهم يرجح العدوى ويؤول ما يعارضها وبعضهم يعكس ومما قاله هؤلاء ان ابا هريرة رجع عن حديث «لا عدوى» وانكره كما في البخاري . وبان الترمذي ذكر الاختلاف في حديث جابر على راويه ورجح وقفه على عمر . واقرب ما قالوه الى الطب والعقل قول البيهقي وغيره ان العدوى المنفية ما كانت تعتقده الجاهلية لا العدوى التي تحصل بالاسباب بقدر الله تعالى . وقول ابن قتيبة ومن وافقه : ان الامر بالفرار من المجذوم ليس من باب العدوى في شيء بل هو لامر طبيعي وهو انتقال الداء من جسد لجسد بطريق الملامسة والمخالطة وشم الرائحة ولذلك يقع في كثير من الامراض في العادة انتقال الداء من المريض الى الصحيح بكثرة المخالطة . حكاها الحافظ ابن حجر في شرح البخاري . وذكر أن جمهور الفقهاء اثبتوا الخيار لكل من الزوجين في فسخ النكاح اذا وجد الجذام في الآخر

المعرفة بالله تعالى



فصل

قال ﴿ الدرجة الثانية معرفة الذات مع إسقاط التفريق بين الصفات والذات، وهي تثبت بعلم الجمع، وتصفو في ميدان الفناء، وتستكمل بعلم البقاء، وتشارف عين الجمع ﴾ نشرح كلامه ومراده أولا ثم نبين ماله وعليه فيه، فكانت هذه الدرجة عنده أرفع مما قبلها، لأن التي قبلها نظر في الصفات وهذه متعلقة بالذات الجامعة للصفات، وان كانت الذات لاتخلو عن الصفات فهي قائمة بها، ولا نقول: ان صفاتها عينها ولا غيرها، لما في لفظ الغير من الاجمال والاشتباه، فان الغيرين قد يراد بهما ماجاز افتراقهما ذاتا أو زمانا أو مكانا؛ وعلى هذا فليست الصفات مغايرة للذات، ويراد بالغيرين ماجاز العلم باحدهما دون الآخر فيفترقان في الوجود الذهني لافي الوجود الخارجي، فالصفات غير الذات بهذا الاعتبار لانه قد يقع الشعور بالذات حال ماينفل عن صفاتها فتتجرد عن صفاتها في شعور العبد لافي نفس الامر.
وقوله «مع اسقاط التفريق بين الصفات والذات» التفريق بين الصفات والذات في الوجود مستحيل، وهو ممكن في الشهود بان يشهد الصفة ويذهل عن شهود الموصوف، أو يشهد الموصوف ويذهل عن شهود الصفة، فتجريد الذات أو الصفات انما يمكن فى الذهن، فالمعرفة في هذه الدرجة تعلقت بالذات والصفات جميعا فلم يفرق العلم والشهود بينهما، ولا ريب ان ذلك أكمل من شهود مجرد الصفة أو مجرد الذات. ولا يريد الشيخ انك تسقط التفريق بين الذات والصفات في الخارج والعلم بحيث تكون الصفات هي نفس الذات [1] فهذا لا يقوله الشيخ وان كان كثير من أرباب الكلام يقولون ان الصفات هي الذات. فليس مرادهم ان الذات نفسها

(١) في ب «بحيث تكون الذات هي نفس الصفات»

صفة ، فهذا لايقوله عاقل ، وإنما مرادهم ان صفاتها ليست شيئاً غيرها . فان أراد هؤلاء ان مفهوم الصفة هو مفهوم الذات فهذا مكابرة ،وان أرادوا انه ليس هاهنا أشياء غير الذات انضمت اليها وقامت بها، فهذا حق

والتحقيق ان صفات الرب جل جلاله داخلة في مسمى اسمه ، فليس اسمه الله والرب والإله أسماء لذات مجردة لا صفة لها البتة ، فان هذه الذات وجودها مستحيل ، وإنما يفرضها الذهن فرض الممتنعات ثم يحكم عليها ، واسم الله سبحانه والرب والإله اسم لذات لها جميع صفات الكمال ونعوت الجلال ، كالعلم والقدرة والحياة والارادة والكلام والسمع والبصر والبقاء والقدم وسائر الكمال الذي يستحقه لذاته ، فصفاته داخلة في مسمى اسمه ، فتجريد الصفات عن الذات والذات عن الصفات فرض وخيال ذهني لاحقيقة له ، وهي أمر اعتباري لافائدة فيه ولا يترتب عليه معرفة ولا ايمان ولا هو علم في نفسه ، وبهذا أجاب السلف الجهميةَ لما استدلوا على خلق القرآن بقوله الله (الله خالق كل شيء) فاجابهم السلف بان القرآن كلامه وكلامه صفاته وصفاته داخلة في مسمى اسمه كعلمه وقدرته وحياته وسمعه و بصره ووجهه ويديه ، فليس « الله » اسما لذات لانعت لها ولا صفة ولا فعل ولا وجه ولا يدين ، ذلك إله معدوم مفروض في الأذهان لاوجود له في الاعيان كإله الجهمية ، الذي فرضوه غير خارج عن العالم ولا داخل فيه ولا متصل فيه ولا منفصل عنه ولا محايث له ولا مباين ، وكإله الفلاسفة الذي فرضوه وجوداً مطلقا لا يتخصص بصفة ولا نعت ولا له مشيئة ولا قدرة ولا ارادة ولا كلام ، وكإله الاتحادية الذي فرضوه وجوداً ساريا في الموجودات ظاهرا فيها هو عين وجودها ، وكإله النصارى الذي فرضوه قد اتخذ صاحبة وولدا وتدرع بناسوت ولده واتخذ منه حجابا ، فكل هذه الآلهة مماعملته أيدي أفكارها . وإله العالمين الحق هو الذي دعت اليه الرسل وعرفوه باسمائه وصفاته وأفعاله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، موصوف بكل كمال ، منزه عن كل نقص ، لامثال له ولا شريك ولا ظهير ، ولا يشفع عنده أحد الا باذنه ، هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ، غني بذاته عن كل ماسواه وكل ماسواه فقير اليه بذاته

قوله « وهي تثبت بعلم الجمع ، وتصفو في ميدان الفناء » يعني ان هذه المعرفة الخاصة تثبت بعلم الجمع ، ولم يقل « بحال الجمع ولا بعينه ولا مقامه » فان علمه أولا هو سبب ثبوتها ، فان هذه المعرفة لاتنال الا بالعلم فهو شرط فيها ، وسيأتي الكلام — ان شاء الله تعالى — في الجمع عن قريب . فاذا علم العبد انفراد الرب سبحانه بالازل والبقاء والفعل وعجز من سواه عن القدرة على ايجاد ذرة أو جزء من ذرة ، وانه لاوجود له من نفسه فوجوده ليس له ولا به ولا منه، وتوالي هذا العلم عن القلب لايسقط ذكر غيره سبحانه عن البال والذكر، كما سقط غناه وربوبيته وملكه وقدرته ، فصار الرب سبحانه وحده هو المعبود والمشهود المذكور، كما كان وحده هو الخالق المالك الغني الموجود بنفسه أزلا وأبداً، وأما ما سواه فوجوده وتوابع وجوده عارية ليست له ، وكلما فني العبد عن ذكر غيره وشهوده صفت هذه المعرفة في قلبه. فلهذا قال « وتصفو في ميدان الفناء » واستعار الشيخ للفناء ميدانا وأضافه اليه لاتساع مجاله لأن صاحبه قد انقطع التفاته الى ضيق الاغيار ، وانجذبت روحه وقلبه الى الواحد القهار ، فهي تجول في ميدان أوسع من السماوات والارض ، بعد ان كانت مسجونة في سجون المخلوقات . فاذا استمر له عكوف قلبه على الحق سبحانه ونظر قلبه اليه كانه يراه ، ورؤية تفرده بالخلق والامر والنفع والضر والعطاء والمنع — كملت في هذه الدرجة معرفته ، واستكملت بهذا البقاء الذي أوصله اليه الفناء وشارفت عين الجمع بعد علمه ، فغاب العارف عن معرفته بمعروفه وعن ذكره بمذكوره وعن محبته وارادته بمراده ومحبوبه فلذلك قال :

« ويستكمل بعلم البقاء ويشارف عين[1] الجمع » ولهذه المعرفة ثلاثة أركان[2] أشار اليها الشيخ بقوله « ارسال الصفات على الشواهد ، وارسال الوسائط على المدارج ، وارسال العبارات على المعالم » شواهد الصفات هي التي يشهد بها ويدل عليها من الكتاب والسنة وشهادة العقل والفطرة وآثار الصنعة فاذا تمكن العبد في التوحيد علم ان الحق سبحانه هو الذي دله صفات نفسه بنفسه ، لم يعرفها العبد من ذاته ولا بغير تعريف الحق له بما أجراه له سبحانه على قلبه من معرفة تلك الشواهد

(١) في المتن « بعين الجمع » (٢) في المتن « وهي ثلاثة أركان : ارسال » الخ

والانتقال منها الى شهود[1] المدلول عليه ، فهو سبحانه الذي شهد لنفسه في الحقيقة ، اذ تلك الشواهد مصدرها منه فشهد لنفسه بنفسه بما قاله وفعله وجعله شاهداً لمعرفته . فهو الاول والآخر ، والعبد آلة محضة ومنفعل ومحل لجريان الشواهد وآثارها وأحكامها عليه ليس له من الامر شيء ، فهذا معنى ارسال الصفات على الشواهد ، فاذا أرسلها عليها تبين له ان الحكم للصفات دون الشواهد بل الشواهد هي آثار الصفات ، فهذا وجه

ووجه ثان أيضا وهو أن الشواهد بوارق وتجليات تبدو للشاهد ، فاذا أرسل الصفات على تلك الشواهد توارى حكم تلك البوارق والتجليات في الصفات وكان الحكم الصفات فحينئذ يترقى العبد الى شهود الذات شهوداً علمياً عرفانيا كما تقدم

قوله « وارسال الوسائط على المدارج » الوسائط هي الاسباب المتوسطة بين الرب والعبد التي بها تظهر المعرفة وتوابعها ، والمدارج هي المنازل والمقامات التي يترقى العبد فيها الى المقصود ، وقد تكون المدارج الطرق التي يسلكها اليه ويدرج فيها ، فارسال الوسائط التي من الرب على المدارج التي هي منازل السير وطرقه توجب كون الحكم لها دون المدارج فيغيب عن شهود المدارج بالوسائط وقد غاب عن شهود الوسائط بالصفات فيترقى حينئذ الى شهود الذات ، وحقيقة الامر أن يعلم أن الرب سبحانه ما أطلعه على معرفته الا بشواهد منه سبحانه و بوسائط ليست من العبد ، فهو قادر على قبض تلك الشواهد والوسائط وعلى اجرائها على غيره فان الامر كله له وتلك الوسائط لا توجب بنفسها شيئا قال الله تعالى لرسوله (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا * الا رحمة من ربك - وقال للامة على لسانه — قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به — وقال تعالى — قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به) ويعلم العبد ان ما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله من شواهد معرفته والايمان به هي معالم يهتدي بها عباده اليه ويعرفون بها كماله وجلاله وعظمته ، فاذا تيقنوا صدقه ولم يشكوا فيه وتفطنوا لآثار أسمائه وصفاته في أنفسهم وفي سواهم انضم شاهد

(١) في ب « المشهود »

العقل والفطرة الى شاهد الوحي والشرع، فانتقلوا حينئذ من الخبر الى العيان، فالعبارات دالة على الحقائق المطلوبة، وهذه هي الأمارات التي يعلم بها المطلوب، فاذا أوصل العارف كل معنى مما تقدم ذكره الى مقصوده وصرف همته في تحريه وطلبه ومصدره اجتمع همه عليه وتمكن في معرفة الذات التي لها صفات الكمال ونعوت الجلال. ومقصوده أن يبين في هذه الاركان الثلاثة حال صاحب معرفة الذات وكيف تترتب الاشياء في نظره ويترقى فيها الى المقصود.

مثال ذلك ان الشواهد أوصلته الى الصفات ووسائطها عنده فانتقل من مشاهدتها الى مشاهدة الصفات والوسائط التي كان يراها آية على المدارج انتقل فانتقل منها الى المدارج وما يليها وما تعلق به هي آية له. والعبارات التي كانت عنده ألفاظا خارجة عن المعبر عنه صارت أمارات وصلت الى الحقيقة المعبر عنها. فبهذه الاركان الثلاثة يصير من أهل معرفة الذات عنده

قوله «وهذه[1] معرفة الخاصة التي تؤنس من أفق الحقيقة» أي تدرك وتحس من ناحية الحقيقة. والايناس الادراك والاحساس قال الله تعالى (فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم) وقال موسى (اني آنست من جانب الطور نارا) والمقصود ان العارف اذا علق همه بأفق الحقيقة وأعرض عن الاسباب والوسائط — لا إعراض جحود وانكار بل إعراض اشتغال ونظر الى عين المقصود — أوصله ذلك الى معرفة الذات الجامعة لصفات الكمال والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل

قال «الدرجة الثالثة معرفة مستغرقة في محض التعريف، لا يوصل اليها الاستدلال. ولا يدل عليها شاهد، ولا تستحقها وسيلة، وهي على ثلاثة أركان: مشاهدة القرب[2] والصعود عن العلم، ومطالعة الجمع، وهي معرفة خاصة الخاصة» انما كانت هذه المعرفة عنده أرفع مما قبلها لان ما قبلها متعلقة بالوسائط والشواهد متصلة الى المطلوب، وهذه متعلقة بعين المقصود فقط، طاوية للوسائط والشواهد،

(١) في المتن «وهي معرفة» الخ (٢) في المتن «القلوب» ولعلها غلط

والوسائط صاعدة عنه اليه وهي فانية على محل معرفته وشهوده وقد استغرقت ادراكه لما هو فيه بحيث غاب عن معرفته بمعروفه وعن ذكره بمذكوره وعن وجوده بموجوده

فقوله « مستغرقة في محض التعريف » المعرفة صفة العبد وفعله والتعريف فعل الرب وتوفيقه ، فاستغرق صفة العبد في فعل الرب وتعريفه نفسه لعبده . وقوله « لا يوصل اليها بالاستدلال » يريد ان هذه المعرفة في الدرجة الثالثة لا يوصل اليها بسبب من الأسباب قد تفوت فيها ، والوسائل قد انقطعت دونها ، فلا يدل عليها شاهد غيرها ، بل هي شاهد نفسها ، فشاهدها وجودها ودليلها نفسها . ولا تعجل بانكار هذا فالامور الوجدانية كذلك ودليلها نفسها وشاهدها حقيقتها ، فتصير هذه المعرفة للعارف كالامور الوجدانية . كاللذة والفرح والحب والخوف وغيرها من الامور التي لا يطالب من قامت به شاهداً عليها من سوى نفسها

ولعمر الله ان هذه درجة من المعرفة منيفة ورتبة شريفة تنقطع دونها أعناق مطايا السائرين ، فلذلك لا يوصل اليها بالاستدلال ولا يدل عليها شاهد ولا تستحقها وسيلة ، والاعمال والاحوال والمقامات كلها وسائل وهي لا تستحق هذه الدرجة من المعرفة وانما هي فضلٌ من الفضل كله بيده وهو ذو الفضل العظيم ؛ وكون الوسائل المذكورة لا تستحقها لا تمنع من القيام بها على أتم الوجوه وبذل الجهد فيها ، ومع ذلك فلا تستحقها الوسائل

قوله « وهي على ثلاثة أركان : مشاهدة القرب والصعود عن العلم ومطالعة الجمع » انما كانت هذه الثلاثة أركاناً لها لان صاحب هذه المعرفة قد وصل من القرب الى مقام يليق به بحسب معرفته فكلما كانت معرفته أتم كان قربه أتم ، فان شهود الوسائط والوسائل حجاب عن عين القرب ، والغيبة عن وجودها حجاب عن أصل الايمان . وأما صعوده عن العلم فليس المراد به صعوده عن أحكامه فان ذلك سقوط ونزول الى الحضيض الأدنى لا الصعود الى الذروة الأعلى ، وانما المراد انه يصعد بأحكام العلم عن الوقوف معه وتوسيطه بينه وبين المطلوب فان الوسائط قد طوي بساطها في هذا الشهود والمعرفة ، أعني بساط الوقوف معها والنظر اليها فيدرك مشهوده ومعروفه به سبحانه لا بالعلم والخبر بل بمشاهدة والعيان ، وان كان لم يصل الى

ذلك الا بالعلم والخبر لكنه قد صعد من العلم والخبر الى المعلوم المخبر عنه .

وأما مطالعة الجمع فهي الغاية عند هذه الطائفة ، ونحن لا ننكر ذلك لكن : أي جمع هو ؟ هل هو جمع الوجود كما يقوله الاتحادي ؟ أم جمع الشهود كما يقوله صاحب الفناء في توحيد الربوبية ؟ أم هو جمع الارادة كلها في مراد الرب تعالى الديني الامري؟ فالشأن في هذا الجمع الذي مطالعته من أعلى أنواع المعرفة . نعم هاهنا جمع آخر مطالعته هي كل المعرفة وهو جمع الافعال في الصفات وجمع الصفات في الذات وجمع الاسماء في الذات والصفات والافعال ، فمطالعة هذا الجمع هي غاية المعرفة وأعلى أنواعها ، وهي لعمر الله معرفة خاصة الخاصة. والله المستعان وبه التوفيق ولا حول ولا قوة الا بالله إه

[المنار]

ان اكثر الناس يرون هذا الكلام غريباً لا يكاد يفهم ، و يعدون هذه المعرفة خيالية لا تكاد تعقل ، ومثل هؤلاء العارفين في نظر جمهور أهل العلوم النظرية والفنون العملية ، كمثل خواص الادباء الذين يتمتعون بجمال المعاني الدقيقة ، متجلية في العبارات الرشيقة ، في نظر عوام أهل البلادة . ذوي العيّ والفهاهة ، — أو كمثل بعض أهل الذوق السليم ، العاشقين لجمال هذا الكون العظيم ، يؤمون روضة غناء ، أو غابة غبياء ، يسابقون اليها أشعة الشمس ، ليتمتعوا بجمالها الحس والنفس ، — في نظر مجرم فظ ، غليظ الطبع ، لا يرى حظا من تلك الروضة الا أن يجتث أزهارها ، و يقطع أشجارها ، ليتخذ الاولى علفا لحماره ، والثانية وقودا لناره ، أو كمثل المغرمين بآلات الطرب ، وسماع الالحان في العشق والادب ، في نظر العابد المتبتل ، أو العجوز الثاكل ،

على أن جميع اللذات المعنوية ما أشرنا اليها منها وما لم نشر اليه هي مبادئ ووسائل لتلك اللذة الروحية العليا التي يجدها العارفون بالله تعالى ، فكل ما في الكون من الجمال والكمال فهو بعض جماله وكماله عز وجل . اذ هو صنع الله الذي أتقن كل شيء . وكل طائفة من طوائف البشر المرتقية تتمتع بنوع من أنواع جمال الكون والعارفون بالله هم الذين يتمتعون بكل نوع من تلك الانواع تمتعا ارقى واعلى من تمتع المنفردين بالارتقاء فيه . و يتمتعون بما هو أعلى من ذلك وأجل واكمل ، وقد ضربنا لذلك المثل ، والله اعلى واجل ؛

باب الشعر والادب

شرف العلم وشمائل العلماء

نبدأ هذا الباب بقصيدة القاضي عبد العزيز الجرجاني الشهيرة في شرف العلم وأخلاق العلماء وشمائلهم قال: —

يقولون لي فيك انقباضٌ وانما رأوا رجلاً عن موقف الذلّ أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ومن أكرمَتهُ عِزّةُ النفس اكرما
ولم أقض حقّ العلم ان كان كلما بَدا طَمَعٌ صيّرتهُ لي سلّما
وما زلتُ منحازاً بعرضي جانباً من الذلّ أعتَدُّ الصيانةَ مَغنما
اذا قيلَ هذا منهلٌ قلتُ قد أرى ولكنّ نفس الحر تحتمل الظما
أنزّهها عن بعض ما لا يَشينُها مخافةَ أقوال العدا فيمَ أو لِما
فأُصبحُ عن عيب اللئيم مُسلّما وقد رحتُ في نفس الكريم معظما
واني اذا ما فاتني الامر لم أبتْ أُقلّبُ فكري إثرَهُ مُتندّما
ولكنه ان جاء عفواً قبلتُه وان مالَ لم أتبعه هلاً وليتما
وأقبضُ خطوي عن حظوظ كثيرة اذا لم أنلها وافرَ العِرضِ مُكرّما
واكرمُ نفسي أن أضاحك عابساً وأن أتلقّى بالمديح مذمّما
وكم طالبٍ رقّي بنُعماه لم يصل اليه وان كانَ الرئيسَ المعظّما
وكم نعمةٍ كانت على الحرّ نقمةً وكم مَغنم يعتدُّهُ الحرُّ مَغرَما
ولم أبتذل في خدمة العلم مُهجتي لأخدُمَ من لاقيتُ لكن لأُخدَما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلّةً اذاً فاتباعُ الجهل قد كان أحزما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظّما

ولكن أهانوه فهان ودنّسوا ... محيّاه بالأطماع حتى تجهّما

وما كل برق لاح لي يستفزني ... ولا كل من في الارض أرضاه منعما

ولكن اذا ما اضطرّني الضرّ لم أبت ... أقلّبُ فكري منجداً ثم متهما

الى أن أرى ما لا أغصّ بذكره ... اذا قلتُ قد أسدى اليّ وأنعما

ومما يروى عن الامام الشافعي في معنى هذا الشعر قوله:

العلمُ مِن شرطِهِ لمن خدَمَه ... أن يجعلَ الناسَ كلهم خدَمَه

وواجبٌ صونُه عليه كما ... يصون في الناس عرضه ودمه

فمن حوى العلم ثم أودعه ... بجهله غير أهله ظلمه

وكان كالمبتني البناء اذا ... تمّ له ما أرادَه هدمه

المراد من البيت الاول: ان من خدم العلم حق الخدمة ساد الناس وكان اماما وقدوة لهم. وبذلك يجعلهم خدماً له باختيارهم. وانما يكون هذا في الامم الحية التي تعرف قدر العلم وأهله. وكذلك كان المسلمون في عصر الامام الشافعي، وهو ما نرى مثاله في امم الافرنج اليوم على كثرة علمائهم المبرزين. وقد نهى أحد ملوكهم ولده ان يخاطبه بنعت «الجلالة» في حضرة شاعر الفرنسيس المفلق [فيكتور هيغو]

والمراد من صون العلم في البيت الثاني المفسر في البيت الثالث ان يداعه غير اهله هو ان تصان العلوم الكمالية التي هي فروض كفاية عن السفهاء فاسدي الاخلاق، فلا يلقن هؤلاء الا ما يجب عليهم شرعاً لاداء عباداتهم وتصحيح معاملاتهم. ثم يصرفون الى الاعمال اللائقة بهم لانهم اذا لقنوا العلوم العالية يتخذونها ذرائع لمفاسدهم، ويضلون الناس بحيلهم وسوء سيرتهم، كما نرى مثاله في رعاع الناس الذين يتعلمون ولا يتهذبون ثم يصيرون حكاماً او معلمين

وللامام شعر آخر في هذا المعنى رواه السبكي في طبقات الشافعية بسنده الى ابي عمر العثماني قال: لما دخل الشافعي الى مصر كلمه أصحاب مالك فأنشأ يقول:

أأنثر درا بين راعية الغنم ... وأنثر منظوما لراعية النعم

لئن كنت قد ضيعت في شر بلدة ... فلست مضيعا بينهم غرر الكلم

فان فرج الله الكريم بلطفه ... وأدركت أهلا للعلوم وللحكم

بثثت مفيدا واستفدت ودادهم ... والا فمخزون لدي ومكتتم

ومن منح الجهال علما أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وروى السبكي بسند آخر بيتين عن الشافعي ذكر لهما سببا يدل على قدم التعصب لهؤلاء الأئمة ، فقد نقل عن الحافظ ابن منده ان الربيع قال رأيت أشهب بن عبد عبد العزيز ساجدا وهو يقول في سجوده : اللهم أمت الشافعي والا يذهب علم مالك . فبلغ الشافعي ذلك فتبسم وأنشأ يقول :

تمنى رجال أن أموت فان أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تهيأ لاخرى غيرها فكأن قد

ومما روي عنه من الشعر ، عند إرادة الهجرة الى مصر ، قوله :—

لقد اصبحت نفسي تتوق الى مصر ... ومن دونها ارض المهامه والقفر

فوالله ما أدري اللفوز والغنى ... أساق اليها أم أساق الى قبري

ومن شعره الذي يذكر فيه السفر ولوازمه ما روي عن صاحبه المزني قال : قدم الشافعي بعض قدماته من مكة فخرج إخوان له يتلقونه واذا هو قد نزل منزلا والى جانبه رجل جالس وفي حجره عود ، فلما فرغوا من السلام عليه قالوا له : يا أبا عبد الله أنت في مثل هذا المكان ؟ فأنشأ يقول :—

وأنزلني طول النوى دار غربة ... يجاورني من ليس مثلي يشاكله

فحامقته حتى يقال سجية ... ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

ويروى أحامقه مكان فحامقته . ومعنى حامقته ساعدته على حمقه كما قال الجوهري وابن منظور ، وأما عاقله فمعناه غالبه في العقل ، فيفهم من البيت ان الامام

كان يجاري رفيقه العوّاد في هوسه بضرب العود ولا يتأتى هذا الا اذا كان يرى إباحته

أكثر شعر الامام الشافعي في الحكم والاخلاق ، وروي عن أبي يعقوب البويطي أنه قال له : قلت للشافعي : قد قلت في الزهد فهل لك في الغزل شيء ؟ فأنشدني

يا كاحل العين بعد النوم بالسهر ... ما كان كحلك بالمنعوت للبصر
لو أن عيني اليك الدهرَ ناظرةٌ ... جاءت وفاتي ولم أشبع من النظر
سَقياً لدهر مضى ما كان أطيبه ... لولا التفرق والتنغيص بالسهر
ان الرسول الذي يأتي بلا عِدَة ... مثل السحاب الذي يأتي بلا مطر

ومن كلامه في الشكوى من الاغنياء الاغنياء البخلاء

وأنطقتِ الدراهمُ بعد صمت ... أناساً بعد ان كانوا سكوتا
فما عطفوا على أحد بفضل ... ولا عرفوا لمكرمة بيوتا

وجدير بهذا القول من عبر عن حاله بعد انفاق جميع ماله بهذين البيتين

يا لهف نفسي على مال أجود به ... على المقلين من أهل المروءات
ان اعتذاري لمن قد جاء يسألني ... ماليس عندي لمن احدى المصيبات

وقال في الصداقة

صديق ليس ينفع يوم بأس ... قريب من عدو في القياس
وما يبغي الصديق بكل عصر ... ولا الاخوان الا للتأسي
عمرت الدهر ملتمساً بجهدي ... أخا ثقة فأكداه التماسي
تنكرت البلاد علي حتى ... كأن أناسها ليسو بناس

وقال في مثل ذلك

ليت الكلاب لنا كانت مجاورة ... وانا لا نرى ممن نرى أحدا
ان الكلاب لتهدا في مرابضها ... والناس ليس بهاد شرهم أبدا
فأنج نفسك واستأنس بوحدتها ... تلفى سعيدا اذا ما كنت منفردا

باب المراسلة والمناظرة

حال المسلمين اليوم وجماعة الدعوة والارشاد

حضرة السيد الامام العالم البصير والمصلح الكبير السيد محمد رشيد رضا

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فقد طرق سمعي ما وصلت اليه حال جمعية الدعوة والارشاد ومدرستها من الضعف بسبب نفاد المال القليل الذي جمعلها وبخل المسلمين . فأثّر ذلك في قلبي تأثيرا محزنا لقعودنا عن العمل في الوقت الذي نهضت فيه أمم العالم قاطبة. وحيث إن حبل رجائي مع ذلك لم ينقطع من ترك المسلمين لهذه الغفلة وهذا الجمود اللذين أحرجا مركزهم أشد الحرج في الهيئة الاجتماعية — رأيت أن أبعث اليكم بهذه الكلمة راجيا نشرها في مجلتكم المنيرة قياما بالنصيحة الواجبة على كل مسلم وتذكرة للمستعدين (وذكر فإن الذِّكرى تنفعُ المؤمنين) :

أتى على المسلمين حين من الدهر كانوا فيه أعزاء ترفرف فوقهم أجنحة الامن والسعادة ، وكانوا خيرا على أنفسهم وعلى البشر بما وضعوا من النظام القويم ، والقوانين العادلة ، وبما كانوا يقومون به من الاعمال النافعة لأنفسهم وللناس . ولا عجب فقد كانوا في ذلك متبعين أوامر دينهم الحنيف . فلما انحرفوا عنها كما هو حالهم الآن شقوا وصاروا شرا وبلاء على أنفسهم وعلى البشر، وأصبحوا عالة على الامم الاخرى في جميع مقومات الحياة وعبرة لمن يعتبر.

على ان أعظم ما تركه المسلمون من هداية دينهم وكان له الأثر السيء في عامة شؤونهم هو فريضتا «الامر بالمعروف والنهي عن المنكر» و « الدعوة الى الدين » . فقد ادّى اغفال الفرض الاول الى انتشار المنكرات والفجور بالتدريج بين المسلمين كافة ، وفشو الجهل فيهم بأقبح أشكاله ، وأن صار الدين غريبا عن كل أعمالهم . وهذه الاعمال أثرت فيهم أعظم تأثير بالمواظبة عليها ، وعدم وجود من يقاومها أو

ينكرها ، فألفتها نفوسهم واستأنست بها فكانت ملكات وتقاليد وعادات . ولم يقف الشر عند هـذا الحد بل بالغ المسلمون في الامر فالتمس بعضهم نصوصا من الشرع يستبيحون بها ما أحدثوا في الدين فلما أعياهم ذلك تأوّلوا كتاب الله وسنة رسوله بغير ما يؤديان اليه وطبقوا بعض محدثاتهم عليهما موهمين أنفسهم والناس انها من الدين وما هي من الدين، وان هم الا يكذبون .

وكان من عاقبة اهمالهم الفرض الثاني انتشار الاكاذيب عن الدين الاسلامي وتشويه أعدائه لسمعته ، وقلبهم لحقيقته ، حتى خفيت هـذه الحقيقة عن مريديه أو المستعدين لقبوله . وقد فطنت لفوائد الدعوة الى الدين الامم المسيحية العظيمة الحية فتألفت عندهم الجمعيات ذات رؤوس الاموال الضخمة التي أوفدت رجال الدين الى مشارق الارض ومغاربها وزودتهم بالمال الوفير وعضدتهم بنفوذها فنجحت أعمالهم في نشر الدين المسيحي حتى بين المسلمين .

ألا إن البلاء الذي نزل بالمسلمين لعظيم . وما ينتظرهم منه ان لم يفيقوا من غفلتهم أعظم . وقد صاروا الآن امام أحد أمرين : إما العمل العاجل السريع ، واما الهلاك الا كيد والسقوط المريع . ولا مخرج من هذا البلاء إلاّ بالاقلاع عن هذه الخطة الذميمة الضارة ، والعمل بقواعد الدين الاسلامي الذي نعتقد ان فيه فلاحنا وسعادتنا في الدنيا والآخرة . وان أعظم ما ينبغي البدء به منها انما هو قيامنا بهذين الفرضين العظيمين « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » و « الدعوة الى ديننا القويم ». ولكن لذلك وسائط لا بد من إعدادها وتوفيرها في الامة. اذ انه لا يستطيع القيام بذلك الواجب إلاّ اناسي يتخصصون له من أفراد المسلمين يكونون واسعي الاطلاع بعلوم الدين واقفين على حقيقته ملمين بطرف من العلوم الاجتماعية والعصرية على قدر حاجتهم منها كي يمكنهم تقريب ما يريدون من اذهان مخاطبيهم على اختلاف درجاتهم في العلم والاستعداد وتباينهم في الاخلاق والعادات . ولما كان أمثال هؤلاء لا وجود لهم الآن في الامة الاسلامية أو ما يوجد منهم ليس بالعدد الكافي — قضت الضرورة بإعداد هؤلاء الهداة اعدادا وانشائهم انشاء . وهـذا مافكّر فيه استاذنا زاده الله توفيقا فاقترح تأسيس جمعية [جماعة الدعوة والارشاد

ومدرستها الجليلة و بذلك وصف الدواء لداء الامة الدفين الذي كاد يودي بحياتها.

ان مهمة تعليم فئة من المسلمين ذلك التعليم الخاص وتربيتهم تلك التربية الدينية المحضة بين زوابع الفساد التي اكتسحت البلاد لمن الاعمال التي تتطلب كفاءة عظيمة واستعدادا خاصا - ولكن الاستاذ الذي لا ينثني له عزم أخذ على عاتقه القيام بانفاذ المشروع وحق للمسلمين ان يفرحوا ويتهللوا وقد جاءهم الطبيب الماهر. ولكن ماذا حصل؟

نشر المقترح دعوته بين المسلمين في انحاء المعمورة كافة فلبتها طائفة كل على قدر استعداده وقبوله للمشروع فكان المال الذي جمع كان قليلا جدا لا يفي بجزء مما يلزم لهذا العمل العظيم وانقبضت أيدي سائر المسلمين

وأما الاستاذ فقد بسط يده للعمل على قلة وسائله فولد المشروع وقرت برؤيته عيون المخلصين. ولكن ذلك المولود ككل مولود حي يحتاج الى عناية وغذاء كي ينمو ويشتد، غير أن ضن المسلمين بالمال كان سببا في سريان الضعف اليه حتى أشرف على الاضمحلال والعياذ بالله تعالى.

ولا يفوتني في هذا المقام ملاحظة التفاوت العظيم في إقبال الشعوب الاسلامية على المشروع. فمع ان المكان الذي اختير ليكون مقرا للجمعية ومدرستها هو مصر فان قومي المصريين لقلة ما ساعدوا كانوا كأنهم غير مقصودين بالدعوة حتى انه ليصح أن يقال مع الخجل العظيم ان الجمعية أسست والمدرسة أنشأت من أموال غيرهم.

فأنتم يامسلمي مصر بوجه خاص أعنيكم بالمقال. انه غير خليق بكم أن تقفوا ساكنين امام أعظم مشروع اسلامي وهو قد انشئ بينكم واحتمى بجواركم ولكم ثماره وشرفه قبل غيركم. ان اضمحلال هذا العمل لا قدر الله ان يسيء سمعة المصريين كثيرا كما ان نجاحه يشرفهم ويرفع قدرهم. ففي هذه الازمة الكبرى التي يجتازها العالم أجمع وتدوس فيها الامم الكبيرة باقدامها ظهور الامم الصغيرة أو الضعيفة ينبغي للشعب المصري الكريم الذي آتاه الله من الاستطاعة على خدمة دينه ما لم يؤت غيره ان يقوم بالعمل الذي ينتظره منه العالم الاسلامي الذي يعده في مقام الامام

المرشد وهو تعضيد هـذا المشروع الذي اذا قوي وعاش سيكون باذن الله تعالى ينبوع حياة للاسلام والمسلمين واساساً لسعادتهم المستقبلة .

ان المصريين يستطيعون ان يحرزوا هذا الفخر الخالد بالتبرع بشيء من مالهم لا يضرهم انفاقه ولا يغنيهم امساكه . ان المشروع ضروري حيوي ونجاحه يدل على حياة كامنة في جسم الامة الاسلامية طالما أنكرها عليها محتقروها وحاسدوها كما ان موته لا قدر الله يشمت فينا أعداءنا و يجعلنا عرضة لهزء العالم أجمع وسخريته تقوم الامم الحية كل يوم بالاعمال العظام والمشروعات الكبرى لاغراض ثانوية أوكمالية ونجد الاموال تتدفق على القائمين بها من جيوب أهل الغيرة من أهلها فلا يمضي وقت قصير حتى توضع لها أسس وطيدة ودعائم ثابتة ويجني القريب والبعيد من أفراد الامة ثمارها ، وهـذا مشروع واحد أساسي لحفظ حياتنا الدينية والمدنية ، وسلاح لدرء الخطر الذي يتهدد كيان الملة الاسلامية ، ونور لمحو الظلمة التي خيمت على العقول والقلوب، ورحمة لمنع ماحل بنا من الشقاء والخطوب . فهل يموت رضيعا وفي جيوبنا درهم ؟ وهل نستطيع بعـده ان ندعي المروءة والشمم ؟ « انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم »

اي قوم ، ان المشروع كبير ولا يقوم به الا أعظم الرجال استعدادا وأبعدهم همة . ومثل هؤلاء قليل ظهورهم في الامة . وان الاستاذ صاحب الاقتراح بما هو عليه من التقوى والصلاح وما امتاز به من العلوم الشرعية وما كسبه من المعلومات الثمينة والاختبار العظيم بسياحاته العديدة في بلاد المسلمين وماوهبه الله من الاستعداد الفطري النادر المثال لا ريب انه أقدر الناس على تنفيذه على الوجه الاكمل ووضع أسسه الكفيلة ببقائه حتى يستطيع من يخلفه فيه ان يتبع خطواته بغير عناء .

ان الرجل ثالث ثلاثة نوابغ لم يوجد لهم نظير من عدة قرون وقد شهد الاستاذ الامام بكفاءته وجعله موضع رجائه. فعلى المسلمين كافة والمصريين خاصة أن يستدركوا مافاتهم من الانتفاع بمواهب سلفيه «جمال الدين» «ومحمد عبده» بأن لا يضيعوا الفرصة السانحة الآن . انكم ان أضعتموها يخشى أن لا تعود قبل عدة قرون .

أقول وقولي هو الحق ، انه لو علم المسلمون حق العلم بقدر رجلهم الذي ضحي

أمواله وحياته ونفسه في سبيل مصلحتهم لفدوه بالاولاد قبل الاموال ، وبالانفس قبل الاولاد . لا مراء في ان الامة الاسلامية أشد الامم تأخرا في مضمار الحياتين الدينية والمدنية وهي لذلك أشدهم افتقارا للعمل . فان كنتم أيها المسلمون لا تعملون الآن فمتى تعملون ، وان لم يعجبكم مشروع امامكم الرشيد فماذا أنتم من وسائط الحياة والعمل النافع تعدّون . وان كنتم مقتنعين بصلاحية المشروع فمن ذا الذي يقدر على تنفيذه كما ينبغي من بعده أفلا تذكرون ؟

أيها المسلمون ان الله غنيٌّ عني وعنكم وعن العالمين . ولا يتوقف نصر حق على مساعدتنا . فالله يختار لنصرة دينه من يشاء . فان لم نكن من الموفقين ، فيوشك ان يخرج الامر من أيدينا ويوكل الله به قوما آخرين. والله غيور على دينه وحافظ له من الزوال . ولا بد ان يتم نوره ولو كره الكافرون . فظهور الدين محقق فان لم يكن على أيدينا فسيكون على أيدي غيرنا «ها أنتم هؤلاء تُدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز »

فمن ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا يضاعف له القرض ؟ ومن يسارع الى جنة عرضها السموات والارض ؟ هذا أوان العمل فاعملوا أيها المسلمون، وهاكم طريق الفلاح فاسلكوه لعلكم تهتدون .

ياقوم : أنذرتكم ونصحت لكم وانا منكم ، واقع في التقصير مثلكم ، وأنا أدعوكم وادعو نفسي قبلكم ، بالتبرع بما نقدر عليه من مالي ومالكم ، لا يستقل مقلّ عطاءً وان قلَّ ، ولا يستكثر مكثر ما يستطيع ان يبذل . وها أنا ذا اخطو الخطوة الاولى في هذه الكرة الثانية فادفع على قلة ثروتي خمسة عشر جنيها مصريا بعد ان دفعت في الكرة الاولى عشرين جنيها مصريا . ابغيها ذخرا عند من خلقني ولم أكُ شيئا ، فأقبلوا على تجارة لن تبور ، وهلموا الى التبرع بالقليل والكثير . وانظروا الى ما نحن فيه من المحنة ، وادرؤوا السيئة بالحسنة ، وأحرزوا بالقيام بتنفيذ المشروع شرفا تحفظه لكم الاجيال المقبلة فلا يضيع ، ويكون لكم عند الله خير

شفيع، يوم يقوم الناس وتحشر الجموع.

هذا وانصافا لمجلة المنار الاسلامية، وتقديرا لخدمتها في سبيل الغرض المقصود للجمعية، ادفع اشتراك خمس سنين سلفا، وأتبرع باشتراك سنة لمن يبرز في انشاء أحسن مقالة في أحسن فكرة اصلاحيـة لخدمة الاسلام والمسلمين. فسدّدِ اللهم أعمالنا، وأَرِنا سبيلنا، آمين م . ن .

[المنار]

نشكر للكاتب غيرته على دينه وملته، وشعبه المصري وسائر أمته، كما نشكر له حسن ظنه فينا، ونسأل الله ألا يجعل اطراءه فتنة لنا، ولا مدعاة الى ترجيح ظنه فينا على ما نعلمه من ضعفنا وعجزنا، ونرجو ان يعذرنا اذا نحن لم نقبل منه الاشتراك عن خمس سنين سلفا نحسبه من الوفاء للمنار ماجرى عليه من دفع اشتراك كل سنة سلفا، فهو من السابقين بالخير اشتراكا وأداء

هذا — وإن الكاتب قدكان كتب مقالا قبل هذا في معناه أكثر مافيه المبالغة والاغراق في المدح والثناء على صاحب المنار فكان استحياؤنا من نشره بل من قراءته أقوى وأشد من استحيائنا من رده، مع يقيننا باخلاص الكاتب واعتقاده أنه كتب بعض الحقيقة بلاغلو ولا مبالغة، وقد قلنا له إننا لانظن ان نشره يأتي بالفائدة التي ترمي اليها، وان كنت أحسن منا ظنا ولا بد أن تكتب في هذه الدعوى شيئا فاجعل الكلام في موضوع العمل دون مدح العامل. — فجاءنا بهذ المقال، فلم نر بدا من نشره، لان ذلك من حق كاتبه علينا اذ لانعرف أحدا من الناس أشد غيرة، وإخلاصا منه لربه ودينه وأمته، وأي دليل أدلّ على الغيرة والاخلاص من بذل المال في سبيل الله ؟ وقد علمنا علم اليقين اننا لو قبلنا أن نأخذ منه جميع ما بيده لإنفاقه في مشروع الدعوة والارشاد لبذله مرتاحا، بل طالما عرض علينا بذل ماله ووقته فيما نراه من خدمة الدين وإقامة السنة، ولكننا نعلم ان عياله أحوج الى ذلك من مشروع لا يتوقف نجاحه على هذا المال القليل ولا يسقط بفقده، وقد كان ما بذله كتابة بهـذه المقالة أكثر مما أثبتناه فيها فاستأذناه بتصحيحه فسكت بعد مناقشة ومراجعة

وإننا نستحسن ان نعيد بعض ما سبق لنا من الكلام في أسباب نشر بعض الرسائل والاسئلة المشتملة على الثناء وألقاب المدح لنا بنصها على خجلنا مما في بعضها من المبالغة وانتقاد كثير من الناس لنشر مثله، وأهم تلك الاسباب الامانة وبيان آراء الكاتبين في الاصلاح الاسلامي والقائمين به لاهل عصرهم ولمن بعدهم وموافقة سلفنا الذين كانوا ينشرون مثل ذلك بنصه كما تراه في كتب الفتاوى، وكان كثير من هذه الفتاوى ينسخ في عصور العلماء الذين كتبوها وينشر في الاقطار

إن بيان ما ذكر من الاسباب لنشر ما اشتمل على المدح باب من أعظم أبواب التاريخ وأعمها فائدة، وليس هو من قبيل تدوين المدائح الشعرية في شيء، واننا نكره المدائح الشعرية المحضة، ويقابل هذا الباب في تاريخ الاصلاح باب الانتقاد وقد التزمنا نشر ما يجيئنا من الانتقاد على أقوالنا وأعمالنا حتى أننا ندعو الناس الى ذلك في منار كل عام ولم ندع أحدا قط الى المدح والتحبيذ وان كان من قبيل التعاون على البر والتقوى الذي يقصده صاحب هذه الرسالة

كتب الكاتب هذه الرسالة معبرا بها عن بعض ما في نفسه من وجدان واعتقاد، راجيا ان يشعر بشعوره ويعتقد اعتقاده كثير من المسلمين فينهضوا بمشروع الدعوة والارشاد، ويجود كل له بما يستطيع على قدر ما آتاه الله من السعة والثروة، ولولا ذلك لما كتب حرفا. وقد نشرنا له ما كتب احتراماً لشعوره واعتقاده ولما فيه من التعاون على الدعوة الى الخير والامر بالمعروف الذي تصدينا له، ولكننا لا نظن أن دعوته تجاب ولا أن أمنيته تصدق وان كنا من القائلين بتأثير الكلام في الجملة، وانما يكون التأثير بقدر استعداد من يقرأ الكلام ويسمعه. ولا يزال استعداد الامة الاسلامية للقيام بالاعمال الاجتماعية ضعيفا جدا، وهو في البلاد التي لها حكام من أهلها، أضعف منه في غيرها، وان كان هؤلاء الحكام صوريون لا استقلال لهم في سياسة ولا ادارة، فأرقى مسلمي الهند ووثنييها هم أهل الولايات التي يتولى حكمها الانكليز بأنفسهم، وابعدهم عن الترقي والاصلاح من لهم حكام من أنفسهم، وسنبين رأينا في أغنياء بلادنا وأمتنا وأصناف الناس في الجزء الآتي ان شاء الله تعالى

خاتمة السنة الثامنة عشرة للمنار

وحاله في السنة الجديدة

بحمد الله نختم السنة الثامنة عشرة للمنار كما افتتحناها بحمده وهو هو الذي يحمد في السراء والضراء وحين البأس ، فله الحمد والشكر والثناء الحسن عودا على بدء ، فقد لطف بنا في هذه العسرة العامة ، ورحمنا في هذه الفتنة الطامة ، التي لم تصب الذين ظلموا منا خاصة ؛ وغاية ما أصاب ادارة المنار ومطبعتها من تأثير هذه الحرب ان قل دخلها وفقدت أكثر أصناف الورق بضعة أشهر لقلة الوارد من أوربة ومضاعفة ثمنه أضعافا ، حتى ان هذا الجزء من المنار بدئ بطبعه في أواخر شهر ذي الحجة سنة ١٣٣٣ وطبع بعضه في ربيع الآخر والكراسان الاخيران منه في شهر رجب سنة ١٣٣٤

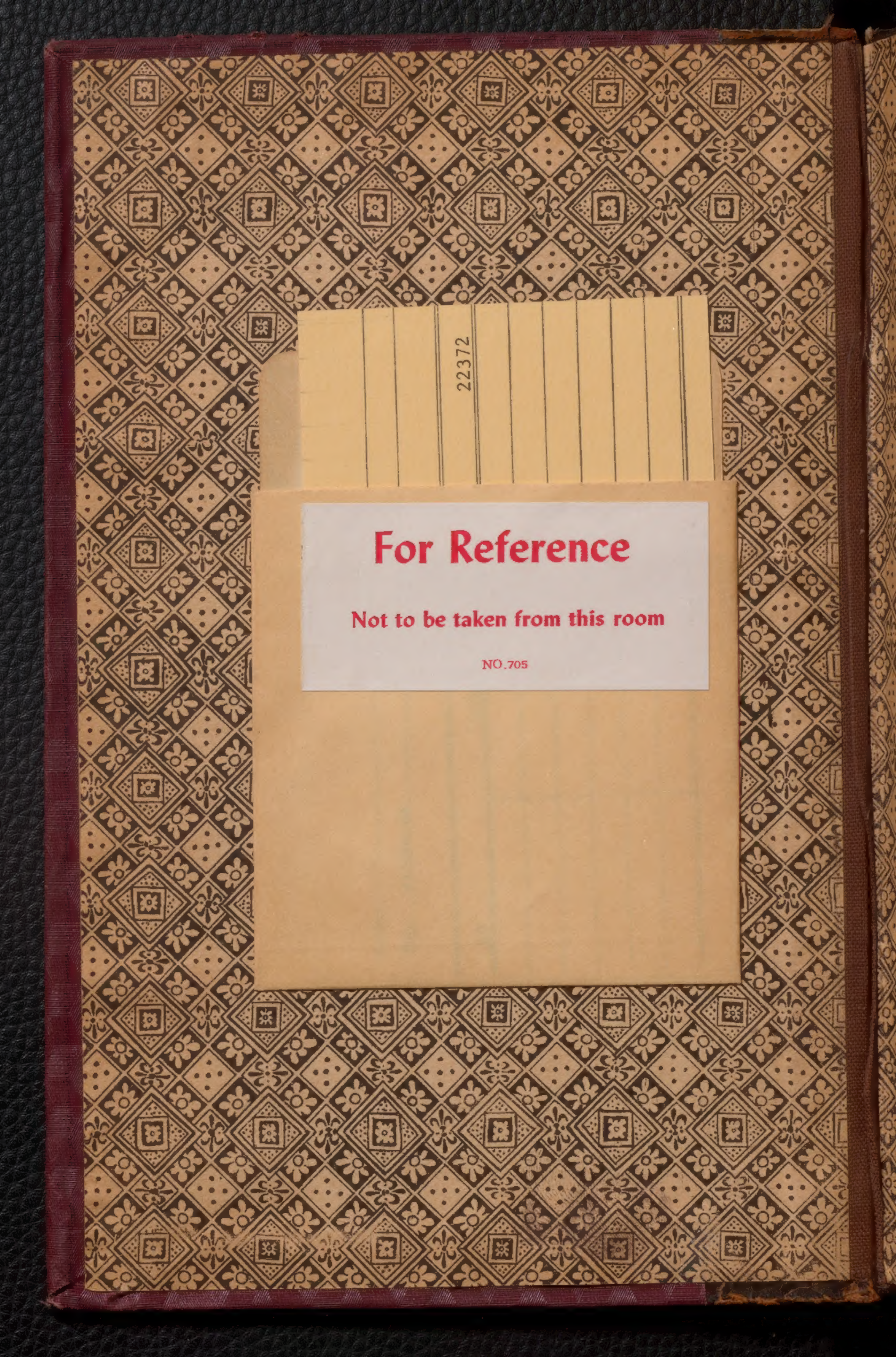
ونحن قد كنا ابتعنا في أول سنة ١٣٣٣ ورقا يزيد عن حاجة المنار فيها بعد أن أمرنا المطبعة بأن تنقص ألف نسخة مما كان يطبع منه في مقابلة انقطاعه عن الممالك العثمانية وبعض البلاد التي تعذر ايصاله اليها ، ثم علمنا في أواخر السنة ان الورق قد نفد ، لأن الأمر بانقاص المطبوع ما نفذ ؛ وما ذاك الا ذهول ونسيان ؛ وما قدر كان ، فعهدنا الى من يجلب لنا الورق من أوربة بطلب طائفة منه فلم يصل الينا بعض ما طلبنا الا بعد بضعة أشهر ، وهو لا يكفي لاصدار عشرة أجزاء من المنار وان نقصنا من المطبوع ألف عدد أو أكثر

فنحن مضطرون لقلة الورق وخشية انقطاع وروده كما يتوقع تجار الجلب ان نجعل كل جزء منه ثمانية كراريس (ملازم) فاذا يسر الله لنا ورقا تم السنة اثنى عشر شهرا فيكون المجلد التاسع عشر كالثامن عشر ، والا جعلناها عشرة أشهر فقط ، على ان ورقها أغلى ثمنا من ورق المجلدات الكاملة

هذا وان قراء المنار في مصر يعلمون أن دخله قد انقطع من عدة ممالك تعذر ارساله اليها في زمن الحرب ، فلم يبق له مورد يعتد به الا منهم ؛ و يعلمون أيضا ان النفقات قد زادت ، وان كل شيء صار يشترى بالنقد ، فنرجو من مروءتهم العالية ان يتفضلوا باداء ما عليهم من قيمة الاشتراك فيكون جل الفضل لهم باستمرار هذه الخدمة للاسلام والانسان ، وقد دفعتنا هذه الحاجة الى تذكير من لم يدفعوا للمنار شيئا مما عليهم منذ عشر سنين أو أقل أو أكثر ، فنهم من بادر الى أداء جميع ما عليه ؛ ومنهم من جعله أقساطا ، ومنهم من مطل ونوى ، ومن أعرض بجانبه ونأى ، وسنبين أحوال هؤلاء الناس في المقالة التي وعدنا بها في تعليقنا على الرسالة المنشورة قبل هذه الخاتمة

ولم يرد علينا في هذه السنة نقد على المنار ولا نزال نطالب القراء بان يتعاهدونا بالنصيحة ، والحمد لله أولا وآخرا




22372
For Reference
Not to be taken from this room
NO.705

